مدارج السالكين

بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام ابن قيم الجوزية
محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

دراسة وتحقيق
د. صالح بن عبد العزيز التويجري
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة
بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية

الجزء الثالث

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ ـ ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض ـ شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية أصول الدين – بالرياض

تمت مناقشة الأطروحة بتاريخ: ٢٦/ ١١ / ١٤٢٢هـ

وقد حصل الباحث علىٰ درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولىٰ

المقدمة

وتشمل :

١- خطة البحث .

٢- النسخ الخطية ورموزها .

٣- منهج التحقيق .

مقدمة الجزء الثالث

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فهذا هو الجزء الثالث من دراسة وتحقيق كتاب : «مدارج السالكين» لابن القيم - رحمه الله - ، والذي يبدأ من أول منزلة الاستقامة ، إلىٰ آخر منزلة الأنس.

واكتفاء بالمقدمة العامة في أول الكتاب فإني أقتصر في هذه المقدمة لهذا الجزء علىٰ ذكر : خطة البحث ، وموضوعات الدراسة ، والنسخ الخطية ، ورموزها التي اعتمدتها في هذا القسم ، مع ذكر منهج التحقيق الذي سرت عليه.

خطة البحث :

قسمت العمل في هذا البحث إلىٰ مقدمة ، وقسمين :

المقدمة وتشمل :

أ - خطة البحث .

ب - وصف النسخ الخطية ، وذكر رموزها.

جـ - منهجي في التحقيق.

القسم الأول : الدراسة ، وتشمل :

أولاً : ترجمة الهروي : وتشمل :

١ ـ حياته الشخصية :

أ ـ اسمه ونسبه .

ب ـ مولده ونشأته ووفاته .

٢ ـ حياته العلمية :

أ ـ طلبه العلم وشيوخه.

ب ـ تلامذته ومؤلفاته .

ج ـ عقيدته .

ثانياً : منهج الهروي في كتابه منازل السائرين .

ثالثاً : تقويم كتاب الهروي إجمالاً مع مدخل في التقويم (المقدمات).

القسم الثاني : التحقيق ، ويتضمن :

تحقيق الكتاب ويشتمل علىٰ :

١ ـ المقابلة بين النسخ الخطية .

٢ ـ عزو الآيات القرآنية .

٣ ـ تخريج الأحاديث النبوية .

٤ ـ عزو الآثار .

٥ ـ عزو النقول إلىٰ مصادرها .

٦ ـ بيان معاني الكلمات الغريبة .

٧ ـ التعريف بالبلدان .

٨ ـ ترجمة الأعلام .

٩ ـ التعريف بالملل والطوائف والفرق .

١٠ ـ شرح المصطلحات الصوفية ، وتعريفها من كتب الصوفية.

١١ ـ الخاتمة .

* * *

النسخ الخطية :

لُوحِظ في ترتيب النسخ حسب الأهمية والجودة .

النسخة الأولىٰ : نسخة سوريا وهي في معهد التراث العربي بحلب ، والنسخة الأصلية في المكتبة العثمانية بحلب وتحمل الرقم [٦٩٦] تصوف ، ورمزت لها بالحرف (س) ، وهي التي اخترتها لتكون أصلاً للتحقيق تقابل عليها بقية النسخ للأمور الآتية :

١. أن تاريخ كتابتها في حياة المؤلف .

٢. أنها سليمة من الخرم والتصحيف إلا ما ندر .

٣. أنها قوبلت علىٰ نسخ أخرىٰ يدل علىٰ ذلك وجود الدائرة المنقوطة عند نهاية بعض المقاطع .

٤. جودة الخط وهو رقعة .

النسخة الثانية : نسخة تشستربتي وهي مصورة علىٰ فيلم في جامعة الإمام وتحمل رقم [٣٦٢٧] ، ورمزت لها بالحرف (ش) .

النسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [٨٧٤] تصوف ، وقد رمزت لها بالحرف (أ).

النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [١٠٣] تصوف قولة ، وقد رمزت لها بالحرف (ق).

النسخة الخامسة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [٢٠٥٣١] ، وقد رمزت لها بالحرف (ب) .

النسخة السادسة : في جامعة الإمام ، مصورة من مكتبة أحمد الراشد في مدينة الغاط ، ورقمها [١٠٨٧٤/ ف] ، وقد رمزت لها بالحرف (غ).

النسخة السابعة : نسخة أصلية في جامعة الإمام ولكنها ناقصة رقمها [٨٧٨٧ ، ٨٧٨٨] ، وقد رمزت لها بالحرف (م).

النسخة الثامنة : نسخة دار الكتب المصرية رقمها [١٥٢٢] وقد رمزت لها بالحرف (د).

النسخة التاسعة : نسخة مكتبة حمود بن حسين الشغدلي بحائل ، رقمها [٦٤٩] ، رقم الحفظ [١٣/ ٢/ ز] ، وقد رمزت لها بالحرف (ح٢).

النسخة العاشرة : نسخة المعهد العلمي بحائل رقمها [٨] ، وقد رمزت لها بالحرف (ح١).

علماً أن هناك نسخاً للكتاب لكنها لا تتعلق بنصيبي من التحقيق إما لكونها انتهت قبل أن تصل إليه ، أو بدأت بعد النصيب المخصص.

وبعد المقابلة ظهر لي اتفاق بعض النسخ وقد يصل الاتفاق في بعض الفروق إلىٰ خمس أو ثلاث. وهو مدارج السالكين بتحقيق وتعليق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولىٰ ، ثلاثة

أجزاء، ١٤١٠هـ . ورمزت للمطبوع بالحرف (ط).

ولقد تبين لي بعض الأمور أثناء المقابلة وهي :

أولاً : موافقة النسخ (ق ، أ) للمطبوع بتحقيق الفقي غالباً .

ثانياً : توافق (ق ، د) غالباً .

* * *

منهجي في التحقيق :

١- اعتمدت نسخة [سوريا] أصلاً للكتاب ، للأسباب السابقة .

٢- قابلت عليها جميع النسخ التسع إضافة إلىٰ المطبوع .

٣- أي اختلاف في النسخ - بزيادة أو تصحيف - عن النسخة التي اعتمدتها أصلاً أثبتُّه في الهامش مبتدئاً برمز النسخ ، ثم أذكر اللفظ وأضعه بين قوسين. مثال : في أ ، غ ، ب ، د (كذا) .

٤- إذا كان هناك سقط من أي نسخة من النسخ بدأت به أولاً ووضعته بين قوسين ، ثم ذكرت النسخ. مثال : (كذا) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

٥- إذا كان السقط من الأصل أو من بعض النسخ وهو أكثر من كلمة جعلته بين معقوفين [ ] ، وقلت في الهامش ما بين المعقوفين سقط من كذا .

٦- إذا كان السقط حرفاً أو كلمة جعلت الأقواس في الهامش؛ لئلا تشغل القارئ بكثرتها .

٧- إذا كان هناك سقط أو خطأ في الأصل واستقرّ لدي قطعاً – بعد المقارنة والتأمل إثبات خلاف الأصل جعلت الصواب في المتن ، وقلت

في الهامش : الأصل : « كذا وكذا » والصواب أو الأقرب ما أثبته من نسخة : «كذا وكذا» .

٨- عرّفت كل منزلة من المنازل في بداية شرحها ، معتمداً في ذلك علىٰ كتب الصوفية ومصنفاتهم المطبوعة؛ لأن ابن القيم عرف بها من كلام السلف، واستدل بآيات وأحاديث تغني عن التكرار ، ولتمكين القارئ من معرفة الفرق بين التعريفين .

٩- قمت بشرح المصطلحات الصوفية الأخرىٰ ، والمصطلحات الكلامية والغريبة.

١٠- خرّجت الأحاديث ، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك ، وربما أضيف مسند أحمد إليهما ، وإن لم يكن فيهما أو في أحدهما خرجته من غيرهما ما أمكن ، وذكرت ما وقفت عليه من كلام أهل العلم في الحديث تصحيحاً أو تضعيفاً ، وهذا كله عند أول ورود له فقط ، ثم أحيل إذا تكرر مرة أخرىٰ إلىٰ الموضع الأول.

١١- ترجمت لجميع الأعلام من المشهورين ومن غيرهم؛ وذلك لأن الشهرة نسبية.

د. صالح بن عبد العزيز التويجري

القصيم - بريدة

القسم الأول
الدراسة

وتتضمن :

أولاً : ترجمة الهروي (حياته الشخصية ، حياته العلمية) .

ثانياً : منهج الهروي في كتابه « منازل السائرين » .

ثالثاً : تقويم كتاب الهروي إجمالاً مع مدخل في التقويم «المقدمات» .

المسألة الأولى : الهروي : حياته الشخصية والعلمية

الهروي حياته الشخصية

أولاً : حياته الشخصية :

أ - اسمه ونسبه :

هو أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد ابن علي بن جعفر بن منصور بن متَّ الأنصاري الهروي(١).

ونسبته للأنصاري لأنه من ذرية أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - حيث استقر أحد أبناء أبي أيوب وهو (متَّ) في بلاد خراسان أيام الفتح الإسلامي، واستقر بمدينة هراة التي هي مكان ولادته، وإليها ينسب الهروي(٢)، ومن ألقابه شيخ الإسلام(٣)، وخطيب العجم، لما تميز به من فصاحة وبيان(٤).

ب - مولده ونشأته ووفاته :

ولد أبو إسماعيل الهروي في مدينة - هراة - من بلاد خراسان وهي تابعة الآن لأفغانستان قرب الحدود مع إيران(٥)، وذلك سنة ست وتسعين وثلاثمائة للهجرة، وهذا أصح الأقوال في ذلك كما يذكره الهروي عن

---

(١) انظر : السير ١٨/ ٥٠٣، ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٥٠ .

(٢) انظر : شيخ الإسلام للأفغاني ١٨، ٢٣.

(٣) انظر : الفتاوى ١٠/ ٣٥، ٣٤١.

(٤) انظر : شيخ الإسلام ٢٠.

(٥) انظر : معجم البلدان ٢/ ٣٥٠، شيخ الإسلام ١٣ - ١٥.

نفسه(١) ، وقيل سنة خمس وتسعين وثلاثمائة(٢) ، وهناك من قال سنة سبع وتسعين وثلاثمائة(٣) ويذكر بعضهم أن مولده كان سنة إحدىٰ وأربعمائة(٤).

ونشأ في بيت تدين وصلاح حيث كان والده موصوفاً بالورع والتصوف الذي كان منتشراً في معظم تلك البلاد ، وكان لصلاح والده ورغبته في العلم - حيث سافر في طلبه أول أمره - أثر ظاهر علىٰ نشأة الهروي حمله علىٰ الاتصال بحلق العلم منذ الصغر ، فتعلم القراءة والكتابة في سن مبكرة(٥) ، وأتقن عدداً من العلوم وهو في التاسعة من العمر ، وكان له اهتمام بالأدب ، واشتهر بالحفظ والفطنة والذكاء ، لم تطل عناية والده به حيث رحل إلىٰ (بلخ) فترك ذلك فراغاً في حياة الهروي ، سارع في درء ضرره أقاربه ومعلموه وأصدقاء والده ، خفف من مخاطر النشأة بعيداً عن الوالد ، تجاوز الهروي تلك المرحلة الصعبة ، فواصل الطلب حتىٰ أصبح من أهل العلم والصلاح ، كان من العباد الزهاد ، مناصراً للسنة ، شديداً علىٰ أهل البدع ، عفيفاً عن أموال السلاطين ، كريماً حليماً يحب العفو والصفح عن حقوق نفسه(٦).

---

(١) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥٠ ، الأعلام ٤/ ٢٦٧ ، معجم المؤلفين ٥/ ١٢٢ ، هامش شيخ الإسلام ٢٣ .

(٢) انظر : المنتظم ٩/ ٤٤ ، الكامل ٨/ ١٤٨ ، البداية والنهاية ١٢/ ١٣٥ ، شيخ الإسلام ٢٤.

(٣) انظر : هدية العارفين ١/ ٤٥٢.

(٤) انظر : العبر ٢/ ٣٤٣ ، شذرات الذهب ٣/ ٣٦٥.

(٥) انظر : شيخ الإسلام ص٢٦ ، ٢٩.

(٦) انظر : السير ١٨/ ٥١٤ ، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٦٤ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٩.

وفاته : كانت وفاته - رحمه الله - سنة إحدىٰ وثمانين وأربعمائة للهجرة في بلدة (هراة) بلد مولده ، ودفن في (كازياركاة)[1] عن عمر ينيف علىٰ ثمانين سنة ، والله أعلم.

ثانياً : حياته العلمية :

حياته العلمية

أ - **طلبه العلم وشيوخه** : للنشأة الصالحة أثر في التحصيل والمحافظة علىٰ الوقت ، وعدم التعلق بالصوارف عن العلم ، لذا كانت نشأة الهروي كذلك كما سبق في نشأته مما جعله شغوفاً بطلب العلم بعد أن أخذ عن علماء بلده ما أمكن ، رحل في سبيل التحصيل والطلب وعمره قرابة العشرين سنة إلىٰ مدينة نيسابور ، وكانت مركزاً للعلم تضم عدداً من العلماء في مختلف الفنون ، التقىٰ فيها بالمحدث محمد بن موسىٰ الصيرفي ، وعلي بن محمد الطرازي ، والمفسر منصور بن الحسين ، والفقيه أبي الفتح المروزي ، والنحوي أحمد بن محمد السليطي ، والمتصوف ابن باكويه الشيرازي ، رجع بعدها إلىٰ بلده هراة.

ثم رحل إلىٰ الحج وفي الطريق التقىٰ في بغداد بالمحدث أبي محسن الخلال ، ثم لم يتيسر له وصول مكة فقفل راجعاً إلىٰ بلده مروراً بطوس وبسطام ونيسابور ، فسمع من علماء تلك البلاد.

ثم رحل سنة أربع وعشرين وأربعمائة إلىٰ الحج ، وكانت بعض العوائق

---

(١) قرية قرب هراة . انظر : معجم البلدان ٤/ ٤٢٩.

حائلاً دون وصوله إلىٰ مكة؛ لكن استثمر تلك الرحلة بالطلب علىٰ علماء البلاد التي يمر بها ، وكان من أشهر من أثَّر في حياته أبو الحسن الخرقاني الصوفي ، وفي الري زار أبا حاتم بن خاموش ثم رجع إلىٰ نيسابور واتصل مرة أخرىٰ بابن باكويه الصوفي كما اتصل بأبي سعيد بن أبي الخير من أئمة التصوف ،ثم رجع إلىٰ بلاده سنة خمس وعشرين وأربعمائة[١].

وكان له عدد من الشيوخ في مختلف الفنون ، في الفقه والحديث والتفسير واللغة ، ذكر جملة منهم الإمام الذهبي في السير من أشهرهم : أحمد بن علي الأصبهاني ، وإسحاق بن إبراهيم السرخسي الهروي ، وإسماعيل بن إبراهيم السرخسي الهروي ، وعبدالجبار بن محمد المروزي ، وعلي بن محمد الطرازي الحنبلي ، وعمر بن إبراهيم الهروي ، و محمد بن أحمد الجارودي الهروي ، و محمد بن محمد الأزدي الهروي ، و محمد ابن موسىٰ الصيرفي ، ويحيىٰ بن عمار السجستاني[٢] ، وغيرهم كثير[٣].

ب - تلامذته ومؤلفاته : تلامذته ومؤلفاته

١ - تلامذته : بعد تلك الرحلات العلمية ، والأخذ عن شيوخ البلاد التي رحل إليها عاد إلىٰ بلده ، واستقر فيها للتدريس والتعليم والتأليف ، طلب العلم عليه جمع غفير من الطلاب من أشهرهم : المتصوف الزاهد عبد الأول

(١) انظر : السير ١٧/ ٥٩٣.

(٢) انظر : السير ٨/ ٥٠٥.

(٣) لقد اعتنى الأستاذ الشبل في حصرهم وترتيبهم في مقدمة تحقيق ذم الكلام ١/ ١٠٨ ـ ١١٦.

ابن عيسىٰ بن شعيب السجزي الهروي ، وعبدالجليل بن منصور الهروي الفامي ، وعبد الرحمن بن عبد الجبار الهروي الفامي ، وعبدالله بن مرزوق الهروي ، وعبدالملك بن عبدالله الكرخي الهروي ، وعبيدالله ابن الحسن الأصفهاني الحداد[١] ، وغيرهم[٢].

٢ - مؤلفاته : إضافة إلىٰ التعليم والتدريس والوعظ اشتغل الهروي بالتأليف فكانت له مؤلفات في التفسير والحديث والعقائد والتراجم والتصوف ، كما ذكر ذلك الإمام ابن رجب[٣] منها : الأربعين في دلائل التوحيد[٤] ، الأربعين في السنة[٥] ، وهو غير الكتاب السابق - وقد رد الشبل علىٰ السبكي في وهمه أنهما كتاب واحد[٦] - ، أنوار التحقيق في المواعظ[٧] ، الفتوة[٨] ،

---

(١) انظر : ذيل الطبقات ٣/ ٥١ ، السير ١٨/ ٥٠٥ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٥ .

(٢) جمع الشبل جملة منهم وترجم لمشاهيرهم ، في مقدمة تحقيق ذم الكلام ١/ ١١٧ - ١٢٢ .

(٣) انظر : ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١ .

وابن رجب هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي المشهور بابن رجب الحنبلي ، محدِّث حافظ فقيه أصولي مؤرخ ولد ببغداد سنة ٦٣٧هـ ، رحل إلى مكة وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧هـ : شذرات الذهب (٦/ ٣٣٢) ، معجم المؤلفين (٥/ ١١٨) ، البدر الطالع (١/ ٣٢٨).

(٤) انظر : السير ١٨/ ٥٠٩ ، الأعلام للزركلي ٤/ ٢٦٧.

(٥) انظر : السير ١٨/ ٥٠٩ ، الأعلام ٤/ ٢٦٧.

(٦) انظر : ذم الكلام بتحقيق الشبل ١/ ١٢٤ .

(٧) انظر : هدية العارفين ١/ ٤٥٢.

(٨) انظر : شيخ الإسلام ١٠٢ .

تكفير الجهمية(١)، شرح كل بدعة ضلالة(٢)، ذم الكلام وأهله(٣)، شرح التعرف لمذهب التصوف(٤)، طبقات الصوفية(٥)، علل المقامات(٦)، الفاروق(٧) وسماه بعضهم بالصفات(٨)، منازل السائرين إلى الحق المبين(٩)، مناقب الإمام أحمد بن حنبل(١٠)، وله مؤلفات في اللغة الفارسية منها: قلندرنامه(١١)، صد ميدان(١٢).

---

(١) ذكره الشبل في تحقيق ذم الكلام ١/ ١٢٦ قال: إن الهروي أحال إليه في ثنايا كتاب ذم الكلام.

(٢) انظر: كشف الظنون ١/ ٧٢٠، هدية العارفين ١/ ٤٥٢.

(٣) انظر: كشف الظنون ١/ ٤٢٠.

(٤) انظر: كشف الظنون ١/ ٤١٩، هدية العارفين ١/ ٤٥٣.

(٥) انظر: شيخ الإسلام ١٠٦.

(٦) انظر: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١، المنهج الأحمد ٢/ ١٥٤، هدية العارفين ١/ ٤٥٣، الاستقامة ١/ ١٨٦.

(٧) انظر: منهاج السنة ٥/ ٣٥٨، السير ١٨/ ٥٠٩، ٥١٤.

(٨) انظر: الذهبي في العلو ١٨٩.

(٩) ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى ١٣/ ٢٢٩، السير ١٨/ ٥٠٩ وهو الكتاب الذي نحن بصدد تحقيق أحد شروحه.

(١٠) انظر: تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٥، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١، كشف الظنون ٢/ ١٨٣٦، ذكره شيخ الإسلام في الفتاوى ٦/ ١٧٧ وفي الدرء ٢/ ٧٦.

(١١) انظر: هدية العارفين ١/ ٤٥٣.

(١٢) انظر: شيخ الإسلام ١٠٨ وقال إنه أصل كتاب منازل السائرين، ثم اختصره في المنازل.

ج - عقيدة الهروي :

عقيدة الهروي

الكلام عن عقيدة أحد من الناس يحتاج من المتحدث إطالة في التحري والتأمل لمؤلفاته ، وأقوالِ الشخص المتحدَّث عنه ، خاصة إذا كان الحديث يتناول شخصية مثل أبي إسماعيل الهروي ، تتنازعه طوائف متقابلة ، ويدعيه المحق والمبطل بسبب ما أحاط بحياته ومواقفه ومؤلفاته من تداخل وإشكال وغموض ؛ لذا يصعب تصنيفه إجمالاً وإلحاقه بطائفة معينة ؛ لأن من نظر إلىٰ جهاده ومواقفه وامتحانه في سبيل الرد علىٰ المبتدعة في زمانه من الأشاعرة والجهمية ، ومؤلفاته مثل ذم الكلام والفارق وتكفير الجهمية ونحوها سيلحقه بأهل السنة وسلف الأمة ، ومن اطلع علىٰ أقواله ومؤلفاته مثل منازل السائرين وزلاته في كتبه الأخرىٰ كعلل المقامات ونحوها وتفسير غلاة الصوفية كلامه بما يوافق مذهبهم كاد يُلحقه بهم ، وأمام هذه الأقوال المتعارضة والمواقف المتباينة أجدني مضطراً للتفصيل في الكلام عن عقيدة الهروي حتىٰ لا نبخس العقيدة الصحيحة السليمة حقها فيلحق بها من وقع في مخالفتها ، وكذلك لا نبخس الهروي حقه في مواقفه وأقواله التي وافق فيها الحق ، وقد جاءت أقوال الأئمة بمثل هذا الميزان ، فشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم والذهبي وابن رجب وغيرهم يذكرون الصفات ، ويبينون الموقف منها بما يقتضيه الحق والعدل ، ويشيدون بالمواقف الحسنة والمؤلفات الجيدة بحسب ما تقتضيه حالها.

وحيث إن الانحراف عن الحق في توحيد الأسماء والصفات عند بعض

الفرق اتسعت دائرتهُ وعمَّ ضررُه ، تحول الحكم علىٰ الآخرين من زاويته ، فمن صحَّ منهجه فيه ألحقه بعضهم بالسلف الصالح دون النظر إلىٰ مخالفاته في أبواب أخرىٰ مثل توحيد الألوهية والقضاء والقدر ونحو ذلك.. ولعل من أطلق سلفية الهروي وأنَّ منهجه موافق لأهل السنة والجماعة ممن وقع في شيء من هذا ، وعليه فإنني سوف أذكر عقيدة الهروي علىٰ حسب أقواله فيما تعرّض له من أبواب العقيدة ، وهي علىٰ النحو الآتي :

توحيد الربوبية ، توحيد الأسماء والصفات ، توحيد الألوهية.

أولاً : توحيد الربوبية(١) :

لقد تغلغل الفناء عند الهروي في جوانب الطريق الصوفي كله ، مقدمات ومراتب وغايات ، وحديثه فيه قويٌّ الصلة بحديثه عن التوحيد ومراتبه ، وما يتعلق بذلك من نظرته للسببية وأفعال العباد ، وبتحديد مفهومُ الفناء عند الهروي يتحدد مفهومُ التوحيد.

وسيأتي الحديث عن الفناء عند الهروي في مبحث تقويم المنازل وهو باختصار : «أن تذهب المحدثات في شهود العبد ، وتغيب في مواقف العدم ، ثم تغيب صورة المشاهد ، ثم يغيب شهوده ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه ، وحقيقته أن يفنىٰ من لم يكن ويبقىٰ من لم يزل»(٢)؛ لذا قال ابن القيم عند قول الهروي : «الفكرة في عين التوحيد اقتحام بحر

---

(١) التوحيد عند الهروي ومن سلك سبيله مسألة دراسية ستأتي في القسم الخامس من الكتاب.

(٢) المدارج ١/ ١٤٨.

الجحود» قال : «لقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع ، وجاء بما يرغب عنه الكُمّل من سادات السالكين الواصلين إلىٰ الله ، وهذا بناءً علىٰ أصله الذي أصّله ، وانتهىٰ إليه كتابه في أمر الفناء(١)..».

فالتوحيد عند الهروي له وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : توحيد العامة الذي يصح بالشواهد.

الوجه الثاني : توحيد الخاصة وهو الذي يثبت الحقائق.

والوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة(٢).

وفسّر الأول بأنه ما يثبت بالرسالة والوحي والصنائع ، والثاني في إسقاط الأسباب الظاهرة ، وعدم التعلق بها فلا يشهد في التوحيد دليلاً ولا في التوكل سبباً ولا في النجاة وسيلة ، وإنما تشهد سبق الحكمة ، وهو يصح بعلم الفناء ويصفو في علم الجمع.

أما الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه بقدره ، وألاح منه لائحاً إلىٰ أسرار طائفة من صفوته ، وأخرسهم عند نعته ، وأعجزهم عن بثه(٣).

ولما شرح ابن القيم كلام الهروي ، وما يحتمله من الباطل الذي دخل فيه الملاحدة قال : «فرحمة الله علىٰ أبي إسماعيل فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد ، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم إنه لمنهم وما هو منهم ،

---

(١) المدارج ١/١٤٩.

(٢) انظر : منازل السائرين ١١٠.

(٣) انظر : منازل السائرين ١١٢.

وغرّه سراب الفناء فظن أنه لجة بحر المعرفة وغاية العارفين، وبالغ في تحقيقه وإثباته فقاده قسراً إلىٰ ما ترىٰ» [1].

وقال في كلام الهروي عن الفناء: «.. وها هنا دخل الاتحادي وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد وإن كانت عبارته موهمة بل مفهمة ذلك» [2].

وعند قول الهروي: «شائماً برق العين» [3] قال ابن القيم: «يعني بالجمع الحقيقة الكونية القدرية التي يجتمع فيها جميع المتفرقات، وتشمير القوم إلىٰ شهودها والاستغراق فيها هو غاية السلوك والمعرفة عندهم - إلىٰ قوله - فإن هذا شهود مشترك لأمر أقر به عبّاد الأصنام وسائر الملل» [4]، إذ الاستغراق والفناء في شهود القدر غايته التحقيق لتوحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون - وقال عنهم - لأن التوحيد الصحيح لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والتفكر، إذ الفكرة تدل علىٰ بقاء الرسم - إلىٰ قوله - والتوحيد التام عنده لا يكون مع بقاء رسم أصلاً» [5].

ومما عبر به عن التوحيد قوله:

---

(١) المدارج ١/ ١٤٨.

(٢) المدارج ١/ ١٤٩.

(٣) منازل السائرين ١٠٤.

(٤) المدارج ١/ ١٥٣.

(٥) المدارج ١/ ١٤٧.

مـا وحّـد الواحـدَ مـن واحـد ... إذ كـل مـن وحّـده جاحـد

توحيـد مـن ينطـق عـن نعتـه ... عاريـة أبطلهـا الواحـد

توحيـده إيـاه توحيـده ... ونعـت مـن ينعتـه لاحـد[1]

إذ التوحيد الخالص عنده هو فناء الرسوم واضمحلال الحادثات ، فإن الموحد إذا وحده دل ذلك علىٰ شهوده رسم نفسه وهذا جحود لحقيقة التوحيد الذي تفنىٰ فيه الرسوم.. وهذا أحسن ما يحمل عليه كلامه ، وقد فسّره أهل الوحدة بصريح كلامهم في مذهبهم[2] .

وقال ابن القيم في موطن آخر عند كلامه عن هذه الأبيات وفَرَحِ أهل الوحدة بها قال : «وبالغوا في استحسانها وقالوا هي ترجمة أهل التحقيق»[3] ، وقال في مواطن أخرىٰ : «إن فيها من الإجمال والحق والباطل والإلحاد ما لا يخفىٰ[4] ، وإن بعض عباراته موهمة وحدة الوجود بل مفهمة ذلك»[5] .

وقال : «وإن كلامه لا حاصل له ولا كمال فيه وأنه لا يرضىٰ به الموحد ولا الملحد ، ولا تضمنه القرآن الذي أعلىٰ مراتب التوحيد بل القرآن من أوله إلىٰ آخره يدل علىٰ خلافه»[6] ، ووصف كلامه في التوحيد أنه من أبطل الباطل ،

---

(١) منازل السائرين ١٣٩.

(٢) انظر المدارج ١/ ١٤٧.

(٣) المدارج ٣/ ٥١٩.

(٤) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٥) المدارج ١/ ١٤٩.

(٦) المدارج ٣/ ٥١٦.

وأنه لا معنىٰ صحيح ولا لفظ مليح؛ بل المعنىٰ أبطل من اللفظ ، واللفظ أقبح من المعنىٰ[١].

وموقف شيخ الإسلام من الهروي في التوحيد أشد من موقفه منه في تقسيم المنازل[٢] ، حيث جعله بناءً علىٰ تعريف التوحيد عنده أنه ممن يقول بنوع من الحلول وهو الذي يسميه ابن تيمية بالحلول الخاص[٣].

وقال في موضع آخر: «وقد وقع في ذلك طائفة من الصوفية حتىٰ صاحب منازل السائرين في توحيده المذكور في آخر المنازل في مثل هذه الحلول»[٤]. وقال أيضاً : «أنه مع علمه وسنته ومعرفته ودينه قد ظن أن ما تحدث به هو نهاية التوحيد ولكنه ينتهي في كتابه إلىٰ الفناء في توحيد الربوبية ثم إلىٰ التوحيد الذي هو حقيقة الاتحاد»[٥].

وقال في شرحه للأبيات التي وصف بها الهروي توحيده : « وحقيقة الأمر - أي عندهم - أن كل من تكلم بالتوحيد وتصوره وهو يشهد غير الله فليس بموحد ، وإذا غاب وفني عن نفسه بالكلية فتم له مقام توحيد الفناء الذي يجذبه إلىٰ توحيد أرباب الجمع ، صار الحق هو الناطق المتكلم بالتوحيد

---

(١) انظر المدارج ٣/ ٥١٨.

(٢) انظر الفتاوى ١٣/ ٢٢٩ ، ١٠/ ٤٩٧.

(٣) انظر الفتاوى ٥/ ٢٣٠.

(٤) الفتاوى ٥/ ٢٣٠ ، ٤٨٥.

(٥) منهاج السنة ٥/ ٣٤١-٣٤٢.

وكان هو الموحِّد والموحَّد لا موحِّد غيره ، وحقيقة هذا القول لا يكون إلا بأن يصير الرب والعبد شيئاً واحداً وهو الاتحاد فيتحد اللاهوت والناسوت كما يقول النصارىٰ»[١] .

وبعد كلام طويل شرح فيه تعريف الهروي للتوحيد : «وألاح فيه لائحاً إلىٰ أسرار طائفة من صفوته وأخرسهم عن نعته وأعجزهم عن بثه»[٢] ، قال : «فيقال: أفضل صفوته الأنبياء.. وما ألاحه الله علىٰ أسرار هؤلاء فهو أكمل توحيد عرفه العباد ، وهم قد تكلموا بالتوحيد ونعتوه وبثوه ، وما يقدر أحد أن ينقل عن نبي من الأنبياء ولا وراث نبي أنه يدعي أنه يعلم توحيداً ، لا يمكنه النطق به؛ بل كل ما علمه القلب أمكن التعبير عنه لكن قد لا يفهمه إلا بعض الناس..»[٣].

ثم قال : «والاتحاد والحلول الخاص وقع فيه كثير من العباد والصوفية وأهل الأحوال ، فإنه يفجؤهم ما يعجزون عن معرفته وتضعف عقولهم عن تمييزه ، فيظنونه ذات الحق»[٤].

وفي آخر كلامه عن التوحيد عند الهروي قال : «وأبو إسماعيل لم يرد هذا فإنه قد صرح في غير موضع من كتبه بتكفير هؤلاء الجهمية الحلولية الذين

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٢.

(٢) المنازل ١٣٧ ، منهاج السنة ٥/ ٣٧٥.

(٣) منهاج السنة ٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٤) منهاج السنة ٥/ ٣٨٣.

يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، وإنما يشير إلىٰ ما يختص به بعض الناس»[1]، «وهو اللبس الذي يحصل عند بعضهم كما سبق وهو في الحقيقة إنما هو ما في قلوبهم من المثال العلمي الذي حصل بحسب إيمانهم به»[2].

وبمثل هذه النهاية التي ظهرت من كلام شيخ الإسلام ينتهي كلام ابن القيم عن الهروي بقوله : « وإذا كانت بعض عباراته مجملة بحيث يتشبث بها طائفة الاتحادية والحلولية فإن سنته المفصلة مبطلة لظنهم»[3].

وعلىٰ مثل هذه الكلمات الاعتذارية التي محصلتها تبرئة الهروي من القول بالحلول والاتحاد اعتمد من ألحق الهروي بعقيدة السلف أهل السنة والجماعة[4] ، وغاية ما تدل عليه تلك الكلمات من أئمة أهل الإسلام أنه ليس من أهل الحلول والاتحاد ، وبسبب الخلط بين الفناء والتوحيد عندهم قال

(١) منهاج السنة ٥/ ٣٨٣.

(٢) منهاج السنة ٥/ ٣٨٤.

(٣) المدارج ٣/ ٥٢٠.

(٤) قال الشيخ عبد الرحمن الشبل : إن عقيدة ذلك الإمام هي عقيدة السلف أهل السنة والجماعة ولله الحمد والشكر.. وقال : شهد بذلك عدد من أئمة أهل السنة ذكر منهم شيخ الإسلام ، والذهبي في العلو.

قلت : أما قول الذهبي عنه في العلو فهو: «كان أبو إسماعيل آية في التفسير، رأساً في التذكير، عالماً بالحديث وطرقه ، بصيراً باللغة ، صاحب أحوال ومقامات فيا ليته لا ألف كتابه المنازل ففيه أشياء منافية للسلف وشمائلهم» العلو ، ١٨٩ ، فالذي يظهر من عبارة الذهبي خلاف ما فهمه الشبل.

شيخ الإسلام ابن تيمية : «وهذا الذي ابتدعوه أعظم - عندهم - مما وافقوا فيه الرسل» . كما في الفتاوىٰ (١٣/ ٢٢٩)(١٠/ ٤٩٧).

ثانياً : توحيد الأسماء والصفات :

أُفرد توحيد الأسماء والصفات وهو جزء من توحيد الربوبية لما حدث الانحراف في فهمه وتحقيقه عند بعض الطوائف كالأشاعرة والمعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الطوائف.

وعقيدة أبي إسماعيل الهروي في توحيد الأسماء والصفات ظاهرة في كتابه (الأربعين في دلائل التوحيد) موافقاً بها ما يعتقده السلف الصالح أهل السنة والجماعة ، ومواقفه من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية شاهد آخر لصحة عقيدته في هذا الباب ، وتحذيره من علم الكلام ومن خاض فيه ، وهو ما أوضحه في كتابه (ذم الكلام) كانت هذه الجهود العلمية والمواقف الجهادية حجة قوية لمن دافع عنه كما مرَّ قريباً من كلام ابن القيم وقبله كلام الذهبي حين يقول عن الهروي : «بل هو رجل أثري لهج بإثبات نصوص الصفات منافر للكلام وأهله جداً»(١).

وفي هذا الشأن يقول ابن القيم : «وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف في إثبات الصفات..»(٢) ، وقال مدافعاً عما يحتمله كلام الهروي من

---

(١) سير الأعلام ١٨/ ٥٠٩.

(٢) المدارج ١/ ٢٧٣.

نفي الصفات في قوله: «غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد»[1].

قال: «وقد يريد بالشواهد الأسماء والصفات والغيبة عنها بشهود الذات ولكن هذا ليس بكمال ولا هو أعلىٰ من شهود الأسماء والصفات؛ بل هذا شهود المعطلة المنكرين لحقائق الأسماء والصفات، فإنهم ينتهون إلىٰ شهود ذات مجردة، ومن هاهنا دخل الملاحدة القائلون بوحدة الوجود.. تعالىٰ الله عن كفرهم وإلحادهم علواً كبيراً، وشيخ الإسلام براء من هؤلاء ومن شهودهم»[2]، «قد يكون لفهمه للصفات أثر علىٰ الأسباب ومنها التوكل حيث إن التوكل الحق لا يصح إلا من أهل الإثبات للأسماء والصفات أما الذين يؤولون الصفات أو ينفونها فلا يصح توكلهم»[3]، ومما يكشف هذا التداخل ما يقوله ابن القيم وقد عرف الهروي ودافع عنه من منطلق سنته المفصلة فيقول: «إنه كان راسخاً في إثبات الصفات ونفي التعطيل ومعاداة أهله، وله في ذلك كتب مما يخالف طريقة المعطلة والحلولية والاتحادية»[4].

وبسبب قلق العبارة وسوء التعبير[5] قد يطلق الهروي عبارات غامضة تجد من يفسرها بما لا يتفق مع سيرته[6]، من ذلك قوله في التوحيد هو: «تنزيه الله

(١) منازل السائرين ٩٠.

(٢) المدارج ٣/ ٢١٣.

(٣) المدارج ٢/ ١١٧ ـ ١١٨.

(٤) المدارج ٣/ ٥٢١.

(٥) المدارج ٢/ ٢٧، ٣/ ١٥٦.

(٦) المدارج ٣/ ١٦٦، ١٧٣، ٢٤٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٥٢١.

عن الحدث»[١] ، ذكر ابن القيم المعاني المحتملة التي دخل منها المخالفون للصواب[٢]ثم بين قول الهروي والجنيد سابق له في ذلك وأن من معانيه إفراده سبحانه بصفات الكمال وإثباتها له علىٰ وجه التفصيل... فيباين صاحب هذا الإفراد سائر فرق أهل الباطل[٣] والقدر الذي فهمه الحلولية والاتحادية والمعطلة لا يخفىٰ علىٰ شيخ الإسلام الهروي ومحله من العلم والمعرفة محله[٤].

ومن نفائس التقويم ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية عن الهروي : إن عمله خير من علمه[٥] ، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار ، وله المقامات المشهورة في نصرة الله ورسوله[٦].

ثالثاً : توحيد الألوهية :

سبق أن النوع الثاني من التوحيد عند الهروي - توحيد خاصة الخاصة - وهو يقوم علىٰ إسقاط الأسباب[٧]؛ لأن ملاحظتها تقدح في فهمه للتوحيد

---

(١) منازل السائرين ١١٠.

(٢) المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٣) المدارج ٣/ ٤٤٦.

(٤) المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٥) المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٦) المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٧) انظر: المنازل ١١١، وانظر منزلة التوكل في هذا البحث، والمدارج ٣/ ٤٩٤.

الذي تسقط معه آثار الأسباب ، ومن غلو الهروي في نظرته للأسباب جعل تعليق الكوائن بالأسباب نوعاً من التلبيس في العبادة ؛ لأن نسبتها إلىٰ الأسباب تفريق ينافي شهود الحقيقة الكونية(١) ، لذا قال ابن القيم عن كلام الهروي: إنه من أبطل الباطل(٢) ، وأنه جاء بما يرغب عنه الكمل من العارفين(٣) ، وقال في موضع آخر : «إنه شنيع جداً»(٤) ، وبين صلة هذا الكلام بمن ينكر السببية مثل الجهم بن صفوان ومن سار علىٰ منهجه ، فقال : وبالجملة فليس إسقاط الأسباب من التوحيد ؛ بل القيام بها واعتبارها هو محض التوحيد والعبودية ، والقول بإسقاطها هو توحيد القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان في الجبر فإنه كان غالياً فيه(٥).

ومبنىٰ هذا عند الهروي علىٰ محو الأسباب ، والصحيح أن الدين هو إثبات الأسباب فالحقيقة والشريعة مبناهما علىٰ إثباتها لا علىٰ محوها(٦) ، ولا يتم الإسلام ولا الإيمان إلا بذلك ، فالأسباب عُرف الله بها وبها عُبِد وبها أُطيع ، وبها أرسل الرسل ، فهي واجبة شرعاً واقعة قدراً ، قال ابن القيم : «ويا لله ما

---

(١) انظر : المنازل ١٣٠ ، المدارج ٣/ ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) المدارج ٣/ ٣٩٥.

(٣) انظر : المدارج ١/ ١٤٧

(٤) المدارج ٣/ ٤٠٤.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

أجهل كثيراً من أهل الكلام والتصوف حيث لم يكن عندهم تحقيق التوحيد إلا بإلغائها و محوها وإهدارها بالكلية.. فهذا توحيدهم الذي يحومون حوله ويبالغون في تقريره ، فلعمرُ الله لقد أضحكوا عليهم العقلاء ، وأشمتوا بهم الأعداء»(١).

وقال شيخ الإسلام بعدما تحدث عمن عطل الأسباب ، وأشار إلىٰ كلام الهروي (في علل المقامات) قال : «فإن غلط هذا في ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله تعالىٰ : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود :١٢٣] كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به»(٢).

وقد فصَّل ابنُ القيم القول في الرد علىٰ منكري الأسباب ، وعلىٰ من قال باستقلالها بذاتها في طريق الهجرتين ، ومفتاح دار السعادة (٣) ، وفي مواضع مت عددة من المدارج (٤) ، وفَصْم العلاقة بين الأسباب ومسبباتها مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين؛ بل ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة (٥) ، ومن آثار إهمال الأسباب التهوين من شأن التوكل ،

(١) المدارج ٣/ ٤٠٩.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) طريق الهجرتين ٢٨٩ ـ ٢٩١ ، مفتاح دار السعادة ٢/ ٤٠.

(٤) المدارج ١/ ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢/ ١١٧ ، ١١٨ ، ٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٨٢ ـ ٤٨٥ ، ٥٠٥ وغيرها.

(٥) المدارج ٣/ ٤٩٧ ، الفتاوى ٥/ ٦٢ ـ ٦٨.

وإسقاط الحسن والقبح لمشاهدة العبد الحكم[1]، فإن نفاة التعليل والأسباب والحِكَم وحسن الأفعال وقبحها يقولون ما ثم إلا محض المشيئة فليس للأفعال علل غائية[2]؛ لذا غلط من غلط من أرباب السلوك والإرادة في هذا الباب حيث ظنوا أن شهود الحقيقة الكونية والفناء في توحيد الربوبية من مقامات العارفين[3]، فالعارف عندهم لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله في القدر، وهذا من أقبح الجهل[4].

وبعد سياق ابن القيم لأوجه الشبه بين هؤلاء والجبرية نفاة الأسباب والحكم والتعليل، قال: «وبالجملة فلهذا السلوك لوازم عظيمة البطلان، منافية للإيمان، جالبة للخسران»[5]، ثم قال: «فتركب من اعتقادهم كونها محبوبة للرب، وكونهم مأمورين بالرضا بها والتسوية بين الأفعال، وعدم استقباح شيء منها أو إنكاره، وانضاف إلىٰ ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها وأنها ليست فعله فلزم من ذلك رفع الأمر والنهي، وطي بساط الشرع، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان»[6].

---

(١) المدارج ٣/ ٢٢٧.

(٢) المدارج ٣/ ٢٤٢.

(٣) المدارج ٣/ ٢٤٤.

(٤) المدارج ٣/ ٢٤٥.

(٥) المدارج ٣/ ٢٤٧.

(٦) المدارج ٣/ ٢٥٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الصنف من الصوفية : «فهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلاً عن عامتهم ، ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له..» .

وبعد ذلك ذكر أقسامهم ، قال عن أكثرهم ضلالاً : «وهؤلاء ينظرون إلىٰ الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعي»[1] ، وقال : «وأما من جعل حكمه مجرد القدر كما فعل صاحب (منازل السائرين) ، وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه أن يستحسن حسنةً أو يستقبح سيئة ، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه في غير هذا الموضع»[2].

أما علاقة ذلك بالتوكل، فإن التوكل عند الهروي من أوهىٰ سبل الخاصة[3] ، وعند هذا نقل ابن القيم كلام ابن تيمية فقال : «قال شيخنا ـ رَضي الله عنه ـ : لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة ، ولا من الجهمية النفاة لصفات الرب»[4].

ومن نفىٰ الأسباب فتوكله مدخول ، قال ابن القيم : «فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ؛ لأن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكل

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٨٧ .

(٣) المنازل ٣٣.

(٤) المدارج ٢/ ١١٨.

فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به»[١] ، فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه ، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه توكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلىٰ الأسباب، وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها، فلا يستقيم التوكل حتىٰ يصح التوحيد ، وحقيقة التوكل توحيد القلب[٢].

ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضىٰ التوحيد والعقل والشرع[٣].

مما سبق من اضطراب الهروي في مسألة الأسباب ، وأثر ذلك علىٰ التوكل والرجاء ، نفهم تنوع كلمات الأئمة عن الهروي؛ فمنها ما ينزَّل علىٰ صريح كلماته التي لا تقبل الاحتمالات ، ومنها ما يمكن حمله علىٰ الحق ما أمكن ، ومنها ما يرجع فيه إلىٰ سيرته وعمله دون ما يجري علىٰ لسانه من شطح وغموض.

من ذلك قول ابن القيم : «ولكنه - رحمه الله - كانت طريقته في السلوك مضادة لطريقته في الأسماء والصفات»[٤]، وقال عن التلمساني شارح المنازل:

---

(١) المدارج ٢/ ١١٨.

(٢) انظر : المدارج ٢/ ١٢٠.

(٣) انظر : الفتاوى ١٠/ ٣٥.

(٤) المدارج ١/ ٢٦٤.

«ولكن الألفاظ مجملة وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد، ولساناً فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد»[١].

وقال شيخ الإسلام: «وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع، فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهي عنه، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل والجري مع الحقيقة القدرية.. إلىٰ قوله: حتىٰ يفضي الأمر بغلاتهم إلىٰ عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي، وبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي تجري علىٰ أيدي الكفار والفجار»[٢]، فيشهدون الجمع دون الفرق.

وفيما يجري علىٰ ألسنتهم من الأقوال المنكرة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يُسْقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان... فيصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارىٰ، وهي شطحات بعض المشايخ - كمن زال عقله بسبب غير محرم -، فكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وفعالهم علىٰ الصحة؛ بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة»[٣].

---

(١) المدارج ١/ ٢٦٥.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٢٧ـ ٢٨ـ ٢٩.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٣٣٩ـ ٣٤١.

وخاتمة التفصيل في تقويم عقيدته في هذا الباب إليك قول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وأما الفناء الذي يذكره صاحب (المنازل) ، فهو الفناء في توحيد الربوبية لا في توحيد الألوهية ، وهو مثبت توحيد الربوبية مع نفي الأسباب والحكم كما هو قول القدرية المجبرة كالجهم بن صفوان ومن اتبعه والأشعري وغيره ، وشيخ الإسلام وإن كان - رحمه الله - من أشد الناس مباينة للجهمية في الصفات ، وقد صنف كتابه (الفاروق في الفرق بين المثبتة والمعطلة) ، وصنف كتاب (تكفير الجهمية) ، وصنف كتاب (ذم الكلام) ، وزاد في هذا الباب حتىٰ صار يوصف بالغلو في الإثبات للصفات؛ لكنه في القدر علىٰ رأي الجهمية نفاة الحكم والأسباب ، والكلام في الصفات نوع ، والكلام في القدر نوع»[1].

فهذه بعض أقوال الأئمة في الموازنة بين الجرح والتعديل بما يتفق مع قول الهروي وفعله ، وانظر إلىٰ جملة منها في كتب التراجم والسير[2].

* * *

(١) منهاج السنة ٥/ ٣٥٨-٣٥٩ ، الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ١٠٦.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٨٥ ، اجتماع الجيوش الإسلامية ١٨٥ - ١٨٦ ، ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٥٤-٥٥ ، منهاج السنة ٥/ ٣٤١ ، ٣٨٣ ، سير الأعلام ١٨/ ٥١٠ ، ٥١٤ ، العلو للذهبي ٢٦٠ ، الاستقامة ١/ ١٨٦.

المسألة الثانية : منهج الهروي في كتابه « منازل السائرين »

أولاً - المنهج الذي صرح به في مقدمة المنازل :

١ - تخلية الكتاب من كلام غيره واختصاره.

٢ - رتبه فصولاً وأبواباً ، فجعله مائة مقام مقسومة علىٰ عشرة أقسام.

٣ - لاحظ في ترتيبها أنه لا يصح للعبد مقام حتىٰ يرتفع عنه ثم يشرف عليه فيصححه[1] ، وأن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات[2].

٤ - أن جميع تلك المقامات يجمعها ثلاث رتب :

الرتبة الأولىٰ : أخذ القاصد في السير.

الرتبة الثانية : دخوله في الغربة.

الرتبة الثالثة : حصوله علىٰ المشاهدة الجاذبة إلىٰ عين التوحيد في طريق الفناء.

٥ - اعتمد في رسمه لتلك الرتب علىٰ ثلاثة أحاديث :

الأول : قوله ﷺ : «سيروا سبق المفردون» ، وقال هذا حديث حسن وذكر

---

(١) هذا القول تبع فيه الجنيد كما صرح بذلك في المقدمة.

(٢) التمكين شرح منازل السائرين ٤.

تخريج مسلم لبعض طرقه[1].

الثاني : قوله ﷺ : «**طلب الحق غربة**»[2] وقال حديث غريب.

الثالث : قوله ﷺ في حديث سؤال جبريل ما الإحسان : «**قال أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» صحيح غريب أخرجه مسلم[3].

٦ - ثم فصل المقام إلىٰ درجات ثلاث : الأولىٰ للعامة ، والثانية للسالك ، والثالثة للمحقق.

---

(١) حديث « سبق المفردون.. » : أخرجه مسلم. الذكر والدعاء من حديث أبي هريرة (٤/ ٢٠٦٢) رقم (٢٦٧٢) ، أحمد (٢/ ٣٢٣) ، الترمذي من حديث أبي هريرة (٥/ ٥٧١) رقم(٣٦١١) وقال حسن غريب.

(٢) أورده الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٤٤٣) رقم (٣٩٢٠) ، وقال محققه : الحديث في تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٤٥٤) ، وأخرجه أيضاً من طريق كلهم صوفية عن علي بن أبي طالب ، وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥٣) ، أخرجه الهروي في ذم الكلام ومنازل السائرين بسند صوفي إلى علي رفعه : «**طلب الحق غربة**» قال ابن حجر في لسان الميزان : «علاف بن زيد الصوفي لعله واضع هذا الحديث الذي في منازل السائرين :«**طلب الحق غربة**» رواه عنه عبدالواحد بن أحمد الهاشمي ولا أعرف الآخر ، لسان الميزان (٤/ ١٨٧) ، والمناوي في فيض القدير رقم (٥٢٧٠) ، من رواية ابن عساكر عن علي ورمز له بالضعف وعزاه لابن عساكر عن علي صاحب كنز العمال (١/ ٢٣٩) رقم (١١٩٦) ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٢٤٩) رقم (٨٥٦) : موضوع رواه ابن عساكر ، وسنده مظلم مسلسل بالصوفية.

(٣) مسلم. الإيمان (١/ ٣٧) ح(٨) ، وانفرد مسلم بإخراج الحديث بطوله دون البخاري ، أحمد من حديث عمر (١/ ٥١) أخرجه من حديث أبي هريرة : البخاري/ الإيمان مختصراً (١/ ٣٣) ح(٥٠).

٧ - ثم سرد الأقسام العشرة وهي : البدايات ، الأبواب ، المعاملات ، الأخلاق ، الأصول ، الأدوية ، الأحوال ، الولايات ، الحقائق ، النهايات.

ثانياً - منهجه حسب الاستقراء :

١ - الرمزية والاشتباه والإجمال والإشارة والإلغاز(١).

٢ - الاستدلال الإشاري بالآيات في مقدمة كل منزلة.

٣ - عدم الاستشهاد بالأحاديث إلا في مواضع قليلة كما في منزلة الأنس.

٤ - تأسيس الكتاب على قاعدة [عدم صحة البدايات إلا بصحة النهايات].

٥ - تفاوت كلامه من حيث الاختصار والبسط ، فهو يطيل في بعضها ، ويختصر في بعض.

*** نقد المنهج :**

١ - استدلاله بالأحاديث التي ذكرها مستنداً لتقسيم المراتب الثلاث ، يرجع إلى التفسير الإشاري ، والتكلف في الاستشهاد.

٢ - التكلف في الاستدلال للمنازل بآيات بعيدة عن مراده ، كما في الدهش والهيمان والبسط والقلق.

٣ - استعمل الرمز والإشارة والغموض مما فتح باباً لحيرة الموحد ودخول

---

(١) أشار بعض شراح المنازل إلى أن هدفهم من الشرح حل الرُّموز والمصطلحات التي أحاطت مقاصد الهروي بالغموض ، انظر : التمكين ٣.

الملحد[1].

٤ - تفاوت كلامه علىٰ المنازل فقد بسط القول في الفناء والتوحيد، واختصره في الدهش والإلهام. حدَثَ عن ذلك بقاء بعض المنازل غامضة إذ لا يفهم مراده بها.

٥ - أكثر من تقسيم المنازل وهي متداخلة إذ يمكن أن تندرج ببعضها لتصبح أقل من ذلك، مثل: المكاشفة والمشاهدة، السر والسرور، السكينة والطمأنينة، البصيرة والفراسة، القلق والعطش، وغيرها.

٦ - قدّم ما حقه التأخير والعكس، كما في منزلة المحاسبة والتوبة والقصد، التوحيد، البصيرة، مما يدل علىٰ أن الترتيب الذي سار عليه كل من رتب المنازل فيه تحكم كما أشار إلىٰ ذلك ابن القيم في المدارج (١/ ١٦٦، ١٦٨).

٧ - التكلف في تقسيم بعض المقامات والأحوال، كما في التوكل، والصبر، والرضىٰ، انظر المدارج (٢/ ١٣٧، ١٦٨، ١٨٣).

٨- خطؤه في تسمية بعض العوارض بالأحوال والمقامات مثل: الحزن والدهش والهيمان، انظر المدارج (١/ ٥٠٥) (٣/ ٧٢، ٧٥، ٧٩).

* * *

(١) ومن أمثلة ذلك انظر المدارج ١/ ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣/ ٦١، ١٧٦، ٢٩٢، ١٣٢، ١٥٠، ١٥٢.

المسألة الثالثة : تقويم المنازل إجمالاً مع مدخل في التقويم

(مقدمات) في تقويم المنازل

مقدمات في تقويم المنازل

أولاً ـ نشأة المصطلح الصوفي وأطواره :

قال ابن خلدون : « وصار علم الشريعة علىٰ صنفين . . صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهو الأحكام العامة في العبادات والمعاملات . . وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة و محاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجيد العارضة في طريقها وكيفية الترقي فيها من ذوق إلىٰ ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم »(١).

ويقول السلمي عن شقيق البلخي : « وأظنه أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان »(٢) .

وقال السراج : « اعلم أيدك الله بالفهم وأزال عنك الوهم أن أبناء الأحوال وأرباب القلوب ، فإن لهم أيضاً مستنبطات في معاني أحوالهم وعلومهم وحقائقهم .. »(٣) .

وقال عرفان فتاح : « والمعروف الثابت عن السلاسل الروحية لهذه الطرق

---

(١) المقدمة لابن خلدون ٤٢٩.

(٢) طبقات الصوفية ٦١.

(٣) اللمع ١٠٧.

الصوفية الكبرىٰ أنها تلتقي جميعاً في نسبتها الروحية عند الشيخ أبي القاسم الجنيد البغدادي (ت ٢٩٨هـ) بتوسط معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) والسري ابن المغلس السقطي (ت ٢٥٣ هـ) »[١] .

ثم يذكر سلسلة الاتصال التي أوردها ابن النديم[٢] ، وهي : جعفر الخلدي عن أبي القاسم الجنيد عن السري عن معروف الكرخي عن فرقد السبخي عن الحسن البصري .

والسلسلة التي أوردها القشيري هي : (أبو علي الدقاق عن أبي القاسم إبراهيم النصر أباذي عن الشبلي عن الجنيد عن سري عن معروف عن داود الطائي عن التابعين) .

ولقد ذكر الكلاباذي عدداً ممن نطق بعلوم القوم وعبر عن مواجيدهم ونشر مقالاتهم ومقاماتهم ، بدأهم بـ (علي بن الحسين زين العابدين) وختمهم بـ(علي بن يزدانيار) هذا من حيث الأقوال والأفعال ، أما من نشر علمهم كتباً ورسائل فقد سرد طائفة منهم بداية بالجنيد ونهاية بالشبلي[٣].

أما تعريف الأحوال والمقامات فإن التعريف يرجع إلىٰ التجربة الشخصية كما سبق ، ومع هذا فإن هناك شبه إجماع يفصل الحال عن المقام .

---

(١) دراسات في الفكر العربي الإسلامي ٢٣٠.

(٢) الفهرست ٢٦٠.

(٣) انظر التعرف ٢١ ـ ٢٧.

فالمقام : هو مقام العبد بين يدي الله فيما يقوم به من العبادات والمجاهدات والرياضات ، مثل : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل؛ فهي مما يُتوصل إليه بالكسب والطلب ، وبذل المجهود(١).

والحال(٢) : هي ما يحل بالقلب من صفاء الأذكار ، وهي أمور لا تدرك ، مثل المراقبة والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس . . لكنها ليست عن طريق المجاهدات فهي مواهب(٣) ، إذاً هي معنىً يرد علىٰ القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب ولا تعمد ، فهي من عين الجود ، والمقام من بذل المجهود(٤).

وقد يكون هناك تداخل بين المقامات من حيث كون كل منهما كسب وموهبة(٥) وهي عند ابن القيم متلازمة(٦) ، فهو يرىٰ أن الترتيب الذي صنعه كل

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٤٧.

(٢) اللمع ٤٠.

(٣) اللمع ٤١.

(٤) المدارج ٢/ ٤٤٧.

(٥) انظر : عوارف المعارف بهامش إحياء علوم الدين ٥/ ٣٢٠ ، الرسالة القشيرية ١/ ١٩٣ ، اللمع ٤١١ ، إحياء علوم الدين ٤/ ١٧٧ . ولقد أثنى ابن القيم على طريقة سهل التستري وأبي طالب المكي والجنيد وأبي عثمان النيسابوري ويحيى بن معاذ ، ويرى أنهم تكلموا في أعمال القلوب كلاماً جامعاً مطلقاً عن الترتيب وعن حصر المقامات بعدد معلوم ، مدارج السالكين ١/ ٥٧ ، ولعنايته بأعمال القلوب زاد منزلة المروءة ، وليست في المنازل .

(٦) المدارج ١/ ٧٣ ، ١٣٣.

مرتب للمنازل لا يخلو من تحكم ودعوىٰ من غير مطابقة ، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ودخل فيه كله فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ومقاماته وأحواله وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات . . وقد يعرض له أعلىٰ المقامات والأحوال في بداية سيره فيحصل له ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته[1] ، وهو بهذا يرد علىٰ مقالتهم وتأسيسهم أنها لا تصح النهايات إلا بصحة البدايات .

وظهر عدم موافقة ابن القيم علىٰ تلك التقسيمات ، وبيان أنه في مدارج السالكين ليس شارحاً لمنازل السائرين علىٰ مراد الهروي ، فهو لم يصرح بأنه شارح ، ومن ذلك قوله : « ونحن بعون الله ننبه علىٰ هذا بالكلام علىٰ فاتحة الكتاب وأم الفرقان ، وعلىٰ بعض ما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبها ، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ، ولا يسد مسدها »[2].

فهو بهذا يعد كتابه شرحاً للفاتحة واستخراج المنازل والمقامات منها دون التقيد بأي مصطلح أو ترتيب مسبق ، وهذا ظاهر في عدم تقيده بترتيب منازل السائرين .

وانطلاقه من القرآن الكريم إذ يقول : « نذكر منازل العبودية الواردة في

---

(١) المدارج ١/ ١٣٨.

(٢) المدارج ١/ ٤٣.

القرآن والسنة ، ونشير إلىٰ معرفة حدودها ومراتبها . . ونذكر لها ترتيباً غير مستحق بل مستحسن ، بحسب ترتيب السير الحسي ليكون ذلك أقرب إلىٰ تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس ، فيكون التصديق أتم ، ومعرفته أكمل ، وضبطه أسهل »[1].

فهو يقدم ويؤخر دون تقيد بمنازل الهروي؛ بل بإشارة مجملة لبعضها دون الالتزام بترتيب الهروي ، فيبدأ بالبصيرة وهي عند الهروي برقم (٥٤) ، ثم تحدث عن القصد وهو عند الهروي برقم (٤١) ، وقدم المحاسبة علىٰ التوبة[2] ، ويعلل لهذا الفعل بعدم مطابقة تقسيمهم للواقع كما سبق ، « وبأن من تكلم علىٰ أعمال القلوب والأحوال كلاماً مفصلاً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد »[3] ، وجعل الهروي التوحيد آخر المقامات ، ورد عليه ابن القيم بقوله : «فلا وجه لجعله آخر المقامات وهو مفتاح دعوة الرسل »[4].

ومن مخالفته لها من حيث الترتيب ، فإنه يخالفهم من حيث تداخل المقامات والمنازل كما في منزلة الحزن والدهش[5].

وكذلك حديثه عن الإلهام والإفهام ، والرؤيا الصالحة في المقدمة عند

---

(١) المدارج ١/ ١٦٨.

(٢) المدارج ١/ ٧١ ، ٧٢.

(٣) المدارج ١/ ١٦٧.

(٤) المدارج ١/ ٢١٣ ، ٢٨٥.

(٥) المدارج ١/ ٥٠٥ ، ٣/ ٧٥ .

مراتب الهداية وهي عند صاحب المنازل متأخرة جداً رقمها (٥٧).

وجمع ابن القيم القلق مع الشوق والعطش من دون التزام بتقسيم صاحب المنازل ، وخالفه في مسألة الصبر والمحبة وأن التوحيد الفكر ، وكون الحزن منزلة والمشاهدة والمكاشفة[1].

وفي ترتيب الهروي للمنازل مستند اقتبسه من الأحاديث كما ذكر ذلك في مقدمته (ص٦٥) ، وأن المقامات تجمعها ثلاث رتب ، الأولىٰ : القاصد في السير ، والثانية : دخوله في الغربة ، والثالثة حصوله علىٰ المشاهدة [2].

وقد سُبِق إلىٰ ترتيب المنازل حيث يقول : « وإني خفت إن أخذت في شرح قول أبي بكر الكتاني : « إن بين العبد والحق ألف مقام من نور وظلمة «طوّلت عليَّ وعليهم »[3] .

ولئن كانت عبارة المنازل غامضة فهناك من سبق لهذا الغموض ، إذ يعد المواقف لأبي عبدالله النفري نمطاً خاصاً من أنماط التعبير الصوفي ، ويختلف عنه من حيث الغاية والمضمون ، فهي سلم للترقي المعروف بالأحوال والمقامات ، لا تستعير المصطلح الصوفي المعروف ، وإذا كانت المقامات

---

(١) المدارج ١/ ٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢/ ٨٦ ـ ٩١ ، ٣/ ١٤٦ ، وقد أنكر على الصوفية القول بوحدة الوجود وسقوط التكليف ، والتفرقة بين الحقيقة والشريعة ، والقول بتحكيم الذوق وطرح العلم مع المحاولة الجادة في تخليص التصوف مما شابه من انحرافات .

(٢) المنازل ص٤ .

(٣) المنازل ص٢ .

والأحوال والمنازل عند الهروي مائة ، فهي عند النفري سبعة وسبعون موقفاً ، وقد شرحها التلمساني كما شرح المنازل[١].

وممن أفاض في الكلام عن المقامات والأحوال ، وأقسامها والفروق بينها الهجويري في كشف المحجوب ، السراج في اللمع ، وأبو طالب في قوت القلوب ، والغزالي في الإحياء ، والسهروردي في عوارف المعارف ، والسهروردي المقتول في التلويحات والمقامات والمطارحات وحكمة الإشراق[٢].

ثانياً ـ الرمز والإشارة عند الصوفية :

الرمز والإشارة عند الصوفية

قال السراج : « .. وهذا العلم أكثرُ إشارة لا تخفىٰ علىٰ من يكون من أهله ، فإذا صار إلىٰ الشرح والعبارة يخفىٰ ويذهب رونقه . . » [٣] ، ثم يمثل لذلك بتعريف التوحيد عند (رويم) .

وقال : « ولمشايخنا في التوحيد مصنفات ، وقد قصدنا إلىٰ القليل المشكل من ألفاظهم ليستدرك به ما لم يشكل . . »[٤].

---

(١) انظر : المتواليات . د/ يوسف زيدان ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) انظر : في ذلك الحركة الصوفية في الإسلام . د/ محمد أبو ريان ١١١ ـ ١١٦ ، وأصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي للمؤلف السابق ص٦٠ وما بعدها ، وانظر في ذلك أيضاً مقدمة شرح المنازل للتلمساني ١٧ ـ ١٨ ، ٦٦ ، الرسالة القشيرية ٢٣٤ ، نشأة الفلسفة الصوفية لعرفان فتاح ١٣-١٤ ، ٢٢ -٢٤ -٢٥ ، الفتاوى ١٠/ ٤٩٧ ٤٩٨ ، ١٣/ ٢٢٩ .

(٣) اللمع ٣١ .

(٤) اللمع ٣٥ .

ثم بوَّب باباً في شرح الألفاظ المشكلة الجارية في كلام الصوفية[١].

وقال أبو الوفاء التفتازاني : « إنهم أسرفوا في الرمزية إسرافاً إلىٰ حد بدأ معه كلامهم غير مفهوم للغير »[٢].

وقال الدكتور يوسف زيدان : « . . وعلىٰ هذا النحو كانت الغوثية إحدىٰ الحلقات التي من خلالها تطورت اللغة الصوفية التي عرفت باسم لغة الإشارة»[٣].

وقال السراج : والرمز معنىً باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله.

قال القناد: إذا نطقوا أعجزك مرمىٰ رموزهم وإن سكتوا هيهات منك اتصاله[٤].

وكما أنهم يستخدمون الرمز والإشارة في التعبير عن مرادهم ، كذلك يستخدمونه في الفهم من النصوص ، ومن أمثلة ذلك تأليف القشيري كتاب (لطائف الإشارات) .

وكذلك ما ذكره في مقدمة تفسيره الموسوم بـ (حقائق التفسير) ، وقد نقد

---

(١) اللمع ٣٣٣ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي ١٩٢.

(٣) المتواليات ٤٢.

(٤) اللمع ٣٣٨.

ابن الصلاح والذهبي وابن تيمية ذلك الكتاب ، وما تضمنه من تفسير يوافق إشارات أصحاب الحقائق الصوفية(١).

وقال ابن القيم معقباً علىٰ استعمالهم الألفاظ والمصطلحات الموهمة المحيرة : « لم يأت له ذكر في القرآن ولا في السنة ، ولا يعرفه إلا النادر من الناس ، ولا يتصوره أكثرهم إلا بصعوبة ومشقة ، ولو سمعه أكثر الخلق لما فهموه ، ولا عرفوا المراد منه إلا بترجمة - إلىٰ قوله - فصار المتأخرون أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة أعرف بمقامات السالكين ومنازل السائرين وغاياتهم من أعلم الخلق بالله بعد رسله هذا من أعظم الباطل » ، ثم قال : « فلا تجد هذا التكلف الشديد والتعقيد في الألفاظ والمعاني عند الصحابة أصلاً »(٢).

وقال ابن خلدون : « وكلامهم بوجه عام لا يقتدر أهل النظر علىٰ تحصيل مقتضاه؛ لغموضه وانغلاقه »(٣).

وقال ابن القيم تعقيباً علىٰ استدلال الهروي : « ليته - قدس الله روحه - لم يقل فلا والله ما عنىٰ الله هذا المعنىٰ ، ولا هو مراد الآية ، ولا تفسيرها عند أحد

---

(١) انظر : تذكرة الحفاظ ٣/ ٢٤٩، منهاج السنة ٤/ ١٥٥، وانظر : مقدمة محقق لطائف الإشارات ، د/ ابراهيم بسيوني ١/ ٣-٧ .

(٢) المدارج ٣/ ٤٣٦ .

(٣) المقدمة ٤٧١ .

من السلف ولا من الخلف »[1].

وقال : « وهذا ليس معنىٰ الآية قطعاً ، وإنما القوم مولعون بالإشارات »[2].

* نماذج من استعمالهم الرمز والإشارة :

قول الهروي في التوحيد : « ونعت من ينعته لاحد » .

نماذج من استعمالهم الرمز والإشارة

قال ابن القيم : « في هذا الكلام من الإجمال والحق والإلحاد ما لا يخفىٰ »[3].

وقال عنه أيضاً : « فلا معنىٰ صحيح ولا لفظ مليح؛ بل المعنىٰ أبطل من اللفظ ، واللفظ أقبح من المعنىٰ »[4].

وقال : « هذا الكلام الذي اشتملت عليه الأبيات لا يستقيم علىٰ مذهب الملحدين ، ولا علىٰ مذهب الموحدين »[5].

وفي بيان كونهما مجالاً لأهل الباطل في تسويق باطلهم ، انظر الإحالات الآتية في المدارج[6].

---

(١) المدارج ٢/ ٤٣١ .

(٢) المدارج ٣/ ٦١ ، ٣/ ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٣) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٤) المدارج ٣/ ٥١٨.

(٥) المدارج ٣/ ٥١٩.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٢٩٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

*** اختصاصهم بتفسير المراد من مصطلحاتهم ورموزهم :**

اختصاصهم بتفسير المراد من مصطلحاتهم ورموزهم

وقد يكون من أسباب ذلك تفردهم بتحديد المراد منها ، ولئلا يدخل فيهم من ليس منهم ، ولئلا يتجرأ أحدهم علىٰ رميه بالكفر والزندقة .

قال ابن خلدون : « . . ولقد أغمضوا في العبارة ؛ لأن كلامهم أولاً من قبيل الأذواق والمواجيد بحيث إن من لم يشاركهم طريقتهم لا يفهم شيئاً من مرامي كلامهم ، وهذه الأذواق بطبيعتها غير خاضعة للدليل والبرهان فهي وجدانيات، ولأنهم تعمدوا الإلغاز باستخدام اصطلاحات فلسفية لا يشاركهم فيها غيرهم »[1].

وحيث إن اصطلاحات الصوفية وتعبيراتهم ترجع إلىٰ تجاربهم الذاتية وتصوير إحساسهم الوجداني ، أصبح من الصعب العثور علىٰ مرجعية لغوية تفي بمعرفة مرادهم لذا يقول السهروردي : « . . فعلمهم الله ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقائق الإشارات - إلىٰ قوله نقلاً عن الواسطي - وأراد منهم من مقتضىٰ الآيات ما لم يرد من غيرهم »[2] .

ويقول القشيري : « وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والإجمال والتستر علىٰ ما باينهم في طريقتهم لتكون معاني الألفاظ مستبهمة علىٰ الأجانب غيرة منهم علىٰ أسرارهم من أن

---

(١) انظر : المقدمة ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٢) عوارف المعارف ٢٤٨ .

تشيع في غير أهلها »[١] .

وقال السراج : « وكذلك من غلط في شيء من علم الحقائق والأحوال فلا يسأل عن غلطه إلا عالماً منهم كاملاً في معناه . . »[٢].

وقال : « قال بعضهم : من أراد أن يقف علىٰ رموز مشايخنا فلينظر في مكاتباتهم ومراسلاتهم ، فإن رموزهم فيها لا في مصنفاتهم »[٣] .

وقال السراج معللاً شرحه للمقامات والمصطلحات : « رأيت الناس قد أكثروا الخوض في معانيها فواحد قد جعله حجة لباطله ، وآخر قد اعتقد في قائلها الكفر ، والجميع قد غلطوا فيما ذهبوا إليه »[٤].

يتضح مما سبق أنه لا يمكن البحث عن تعريف محدد يكفي لوصف المقامات والمنازل والأحوال والمصطلحات الصوفية؛ لأنها تستمد تعريفها من المواجيد الشخصية والتجارب الفردية والحدس الصوفي للفرد ذاته ، فتعبيره يكفي لوصف حاله فقط ولهذا الغموض مخاطر منها : وضع أنفسهم مواضع التهم ؛ لعدم فهم المراد ، ولصعوبة تعدد المحامل التي يحمل عليها الكلام[٥].

---

(١) الرسالة القشيرية ١٢١.

(٢) اللمع ٣٧٩.

(٣) اللمع ٣٣٨.

(٤) اللمع ٣٨١.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩ .

ومنها استغلال هذا الغموض لأغراض فاسدة ، وقد علّق ابن القيم علىٰ شرح التلمساني في المنازل قائلاً : « ولكن الألفاظ مجملة ، وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد ، ولساناً فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] »[1] .

وذكر ابن القيم مقالات لمشاهيرهم في المقام ، ذكروا فيها التبرؤ من تلك الإشارات والعبارات ، والرجوع إلىٰ صحة الاعتقاد وحسن العمل[2].

ثالثاً : صلة التصوف بالمذاهب الأخرىٰ :

صلة التصوف بالمذاهب الأخرى

مما تقدم من الحديث عن استخدام الصوفية للرمز والإشارة ، واعتماد الإلغاز في المصطلحات وأسباب ذلك ، إذ بدا لبعض أعلام التصوف ضيق اللغة والمصطلح المعروف عن الوفاء بمرادهم، أو التعبير عنه لمن يخاطبون.. وغرابة وصف الأحوال التي يعيشها الفرد منهم ؛ لما شابها من تأثر بالفلسفات الأجنبية . . قال د/ عرفان فتاح : « ولقد اعتمد غلاة الصوفية في هذا الخصوص - تأويل القرآن تأويلاً يلائم أغراضهم - علىٰ الفكر الأجنبي المتمثل في النظرة الأفلاطونية ومذهب الغنوصيين ، فكما أن رجال الأفلاطونية لم يروا في الألفاظ إلا ظلالاً شاحبة للحقيقة المجردة ، وقالوا : إن المعرفة

---

(١) المدارج ١/ ٢٦٥ ، وانظر بيان صعوبة فك مصطلحات الصوفية : المعرفة الصوفية د/ ناجي جودة ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) المدارج ٢/ ٤٠ .

اليقينية لا تُدرَك إلا بالتأمل الباطني العميق، والمجاهدة النفسية في درجات الكشف العليا، حين تتضح خلالها للمتأمل الحقائق علىٰ ما هي عليه، كذلك اعتمد فلاسفة الصوفية هذه الدعوىٰ وزعموا أن الوقف علىٰ ظاهر نصوص الشرع حجاب يمنع الوصول إلىٰ حقائق الأمور، وأن العلم الظاهر يدخله الظن والشك، والمشاهدة ترفع الظن وتزيل الشك، وهكذا أحلوا علم القلوب المبني علىٰ التأمل الباطن محل العلم المستمد من كتب الفقهاء ..»[1].

ثم ينقل كلام ابن عربي في التشنيع علىٰ علماء الرسوم والظاهر قائلاً: «فغلاة الصوفية متفقون أيضاً مع الغنوصية في الاعتراض علىٰ طريق المعرفة بالاستدلال والبرهان والشرع»[2].

ثم بين أن من المعروف لدىٰ المختصين بالدراسات الإسلامية أن التأويل الذي لا يلتزم بقواعد اللغة ودليل العقل - بل: «ودليل الشرع قبله» - بدأ فيه غلاة الشيعة ممن اتخذ التأويل وسيلة لهدم الدين وتحريف أصوله وقواعده وجعلوه طريقاً ينتهي إلىٰ إسقاط التكاليف الدينية واستحلال المحرمات وادعاء النبوة والألوهية وابتداع مذاهب ومعتقدات عن طريق الجمع والتلفيق والاختيار والانتخاب والمزج والخلط بين عقيدة الإسلام وعناصر الفكر الأجنبي المستمد من اليهودية والمسيحية والمجوسية والفيثاغورية والأفلاطونية، وصهر ذلك في مزيج ديني فلسفي عجيب من طرق

---

(١) نشأة الفلسفة الصوفية ٧٨ - ٧٩.

(٢) نشأة الفلسفة الصوفية ٧٩.

الإسماعيلية وإخوان الصفا والحلاج ، ومن ربط التأويل الإشاري بألوان من العلوم ، فجعلوا ظاهر الشريعة قشوراً للعامة تداوي نفوسها ، وباطنها للعقول القوية ـ زعموا ـ التي لا تقنع إلا بالمعنىٰ المستور »(١) .

ويقول ناجي جودة : « يذهب الصوفية وهم في هذا يلتقون مع الأفلاطونية إلىٰ أن في الإنسان قوتين : الأولىٰ تشده إلىٰ أعلىٰ حيث الحقائق المطلقة ، والثانية تجذبه إلىٰ أسفل إلىٰ عالم الزوال والتغير ، ثم نقل كلام السهروردي والسراج ومشابهة ذلك لكلام الفلاسفة »(٢).

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : « التصوف نشأ إسلامياً خالصاً ، ولكنه في تطوره تأثر بعوامل أجنبية ، ثم ينقل كلام (رينولد نيكلسون) ـ من أكبر الباحثين في التصوف ـ قال نيكلسون : إننا إذا نظرنا إلىٰ الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق استحال علينا أن نرد أصله إلىٰ عامل هندي أو فارسي ، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية ، أو بمعنىٰ أدق : وليد اتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي ، نعم من المحتمل أن يكون اثنان علىٰ الأقل من هذه المصادر الثلاثة ، قد تأثر بأفكار فارسية أو هندية.. »(٣).

ثم يجمل خلاصة من العوامل التي شاركت في صياغة التصوف ، منها :

---

(١) نشأة الفلسفة الصوفية ٨٠ .

(٢) المعرفة الصوفية ١٤٦ .

(٣) تاريخ التصوف ٤٥ ، ٤٦ .

التأمل المتواصل للقرآن والحديث ، ثم مع تطور الصوفية اتصل بالأفكار الأجنبية ، ثم تأثر بالنزعات الفردية والعوامل الاجتماعية والأزمات السياسية والنفسية ، ثم استمداد المصطلحات الفلسفية اليونانية (١).

وبتأمل حالات الاتصال عند غلاة الصوفية يظهر التشابه والتأثر المباشر بالديانات الأخرىٰ والمذاهب المنحرفة ، هذا ما تم بيانه وكشف وجه الحقيقة عنه في رسالة [نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام] إعداد / سارة بنت عبدالمحسن آل سعود ، الفصل الرابع ، ص٣١٥ حتىٰ ص٣٧١ .

وتأثر الصوفية في أبواب العشق واستماع الألحان إنما هو من الصابئة وغيرهم (٢).

وفي مباحث متعددة في كتاب أصول الفلسفة الإشراقية يذكر المؤلف محمد أبو ريان مدىٰ تأثر السهروردي والفارابي وابن سينا في الفلسفة الأفلاطونية سواء بنظرية الفيض والعقول العشرة ، أم في مدلولات التراث الإشراقي وما يوافقه عند اليونان ، ونظرية المُثُل والمعرفة وغيرها (٣).

وهو مما يعد رصداً جيداً لمصادر التلقي عند الفلاسفة الإسلاميين الصوفيين ، وعقم محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين ، وعرض أهم آراء

---

(١) تاريخ التصوف ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة ٢/ ١٧٧ .

(٣) انظر : ٦٧ ، ٧٧ ، ١٥٨ ـ ٢٠٠ من كتاب أصول الفلسفة الإشراقية .

الفلاسفة الصوفية ، وأوجه الشبه بينهم وبين الفلاسفة ، أما تأثر الصوفية بالمتكلمين فهذه بما لا تحتاج معه إلىٰ تمثيل.

رابعاً : نقد الصوفية :

نقد الصوفية

قبل تقويم الهروي في كتابه منازل السائرين أُقدِّم بهذه السطور ما يمثل أنموذجاً لنقد الصوفية أنفسهم ، ثم تصنيف الناس في موقفهم من الصوفية .

أولاً : نقد الصوفية لأنفسهم .

نقد الصوفية لأنفسهم

من أوائل من كتب في هذا الباب أبو نصر السراج المتوفىٰ سنة ٣٧٨هـ ، وذلك في كتابه (اللمع في التصوف) إذ يقول :

« وقد صنف الغالطين في التصوف إلىٰ ثلاث طبقات :

١ ـ طبقة غلطوا في الأصول : من قلة إحكامهم لأصول الشريعة ، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص ، وقلة معرفتهم بذلك ، كما قال بعض المشايخ : « إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول » ، ثم ذكر نماذج لذلك كالحلولية ، والقائلين بالفناء والرؤية بالقلوب في الدنيا ، ومن غلط في الأنوار للمعرفة والتوحيد والعظمة . . ومن غلط في عين الجمع مما حملهم علىٰ الخروج عن الملة ، وترك حدود الشريعة ، وكذلك الأنس والبسط وترك الخشية والفناء عن أوصافهم [1].

٢ ـ وطبقة ثانية منهم غلطوا في الفروع وهي الآداب والأخلاق والمقامات

---

(١) انظر : اللمع ٤١٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .

والأحوال والأفعال والأقوال ، فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفس ومزاج الطبع . . فمثلهم في ذلك كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج ، فالذي يفسده أكثر مما يصلحه ، وكلما ظن أنه ظفر بجوهر نفيس لم يجد معه إلا خزفاً خسيساً ، لأنه لم يتبع أهل البصيرة . . فعند ذلك يقع لهم الغلط ، وتكثر فيهم الهفوة والشطط ؛ فهم متحيرون ومتفرقون بين منهزم ومفتون ، ومتجبر و محزون ، ومتمنٍ للمنون فسبحان من قسم لهم بذلك ، وهو العالم بدائهم ودوائهم ، وسقمهم وشفائهم.

ومن أمثلة ذلك ، غلط من تحدث بالمفاضلة بين الفقر والفناء ، وفي التكسب وترك الاكتساب ، ومن ترك المجاهدات وسكن إلىٰ الراحات ، وترك الطعام والعزلة ونحوها[1].

٣ ـ وطبقة ثالثة : كان غلطهم فيما غلطوا فيه : زلة وهفوة لا علة وجفوة؛ فإذا تبين ذلك عادوا إلىٰ مكارم الأخلاق ومعالي الأمور فسدوا الخلل ، وأذعنوا للحق وأقروا بالعجز ، فلم تنقص مراتبهم هفوة ...

وكل طبقة من هذه الطبقات علىٰ أحوال شتىٰ من التفاوت والمقاصد والنيات ، فمن غلط في الأصول فلا يسلم من الضلالة ولا يُرجىٰ لدائه دواء إلا أن يشاء الله ذلك ، والغلط في الفروع أقل آفة ... »[2] .

---

(١) انظر : اللمع ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ .

(٢) اللمع ٤١١ .

ثانياً : نقد الآخرين من غير الصوفية :

نقد الآخرين من غير الصوفية

وهو ما أجمله ابن القيم في ثلاث طوائف :

أ ـ أحدها : حجبت عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار وأساؤوا الظن بها مطلقاً ، ويعلق علىٰ هذا الموقف : « بأن هذا عدوان وإسراف ، فلو كان كل من أخطأ وغلط ترك جملة ، وأُهْدِرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها » .

ب ـ الطائفة الثانية : تجاهلت أخطاء هؤلاء وأغلاطهم ، وركزت نظرها علىٰ ما لدىٰ الصوفية من مزايا و محاسن من مثل : صفاء القلوب ، وصحة العزائم ، وحسن المعاملات. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون .

ج ـ والطائفة الثالثة : هم أهل العدل والإنصاف ، الذين أعطوا كل ذي حق حقه وأنزلوا كل ذي منزل منزلته ، فلم يحكموا الصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا المعلول السقيم بحكم الصحيح؛ بل قبلوا ما يقبل ، وردوا ما يرد .

وهذا هو العدل والحق والإنصاف بعيداً عن التعميمات الخاطئة ودوافع الهوىٰ والتعصب ، وهذا المعيار قال به شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مواطن كثيرة حين الحديث عن المخالفين والموافقين .

وهذا الموقف المعتدل من ابن القيم ظهر جلياً في مواقفه حين الموافقة

والمخالفة، فموقفه صريح من غلاة الصوفية القائلين بإسقاط التكاليف(١).

* * *

(١) انظر: المدارج ٣/ ١٦٥، ١٦٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٣١٦، ٣١٧، وانظر المخالفة والاعتذار في مسائل شطح فيها المتصوفة قوّم فيها الموقف وبيَّن الصواب ورد الخطأ انظر: المدارج ٢/ ٤٩، ٨٨، ١٠٣، ١٣٣، ٤٦٤، ٣/ ١٥، ٢٩، ٤٥، ٤٧، وفي التفريق بين القاصد والمخطئ ومن حصل عنده لبس وانغلاق التعبير انظر: ٢/ ١٠٣، ٣/ ٤٣، ٨٥، ١٥٤، ١٦٥، ٢١٣، ٢٣٢، ٢٤٥، ٢٦٩، وانظر في البحث عن محامل تليق بالكلام والمتكلم، والنظر إلى مجمل السيرة دون الزلة والهفوة، انظر: ٢/ ٥٧، ٥٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٦٤، ٢١٤، ٢١٦، ٣/ ٥، ٣٦١، ٤٢٩، ٤٣٠، ٥٢٠، ويكون صريحاً في الموقف فيما لا مجال له ولا احتمال. انظر: ٢/ ٣٥٤، ٤٣١، ٣/ ٦١، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢٣٩، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٣، وانظر ذلك في موقف شيخ الإسلام في المنهاج ٥/ ٣٤١، ٣٤٢، ٣٦١، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٨٣، الفتاوى ١٠/ ٣٥، وفي تقويم شيخ الإسلام لتقسيم الهروي المنزلة إلى ثلاث درجات انظر: الفتاوى ١٠/ ٤٩٧، ١٣/ ٢٢٩.

تقويم المنازل إجمالاً

تقويم المنازل إجمالاً

أولاً : إيجابيات المنازل :

حيث إن المنازل من جملة كتب الصوفية كما هو ظاهر في سبب تأليفه وطريقة تصنيفه وتبويبه ، فهو موافق في الغالب لمن ألف فيه ممن لهم عناية بهذا الشأن ، مثل : ابن العريف في محاسن المجالس ، والسراج في اللمع ، والنهرجوري[1] في كشف المحجوب ، والسهروردي في عوارف المعارف ، والنفري[2] في المواقف ، والغزالي في الإحياء ، وغيرهم[3] ، مما جعل إبراز محاسنه في صعوبة بالغة ولولا أن ابن القيم اجتهد في توضيح بعض ما يمكن أن يحمل عليه كلامه لما وجد له ميزة ، ولعل مما يمكن ذكره منها ما يلي :

١ - بيان علل المقامات وهي رؤية العمل في كل منزلة.

٢ - الاجتهاد في تصحيح القصد في العبادة حسب ما بلغه علمه وبيانه.

٤ - التقسيم البديع (الأخلاق ، الآداب ، المعاملات) ونحوها.

---

(١) النهرجوري ، علي بن عثمان النهرجوري من كبار أئمة الصوفية في القرن الرابع ، من كتبه (كشف المحجوب) ذكر فيه عقائد الصوفية وآدابهم توفي سنة ٤٩٣هـ.

(٢) النفري ، محمد عبد الجبار النفري الصوفي ، صاحب كتاب (المواقف) وهو من كبار سادات القوم ، نقل عنه ابن عربي وأثنى عليه ، توفي سنة ٣٥٤هـ/ كشف الظنون (ص١٨٩) ، الكواكب الدرية (٢/ ١٥٢) ، هدية العارفين (٤٥) ، معجم المؤلفين (١٠/ ١٢٥).

(٣) التعرف/ باب من نشر علوم الإشارة كتباً ورسائل ص٢٧ ، ٢٩.

٥ - التقسيم المفيد لبعض المنازل كما في التوبة.

ثانياً : السلبيات والمآخذ علىٰ المنازل :

السلبيات والمآخذ على المنازل

سبق في مقدمة البحث الغموض الذي يحيط بعبارات الصوفية ومصطلحاتها ، وما اجتهاد ابن القيم في شرح المنازل إلا محاولة منه لقطع الطريق علىٰ غلاة الصوفية من أن يفيدوا من كلمات الهروي ويحملوها علىٰ مذهبهم ، وهم بذلك يعرفون منزلة الهروي وموقفه من أهل الكلام ، ومنزلته عند أهل السنة ، فلئلا تكون تلك الشهرة والمنزلة سنداً لهم في ترويج باطلهم من خلال عباراته الموهمة والمبهمة والمفهمة ، وبعد الاطلاع علىٰ شروح أخرىٰ للمنازل مثل : شرح التلمساني ، والإسكندري ، والحسيني في التمكين علىٰ اختلاف بينهم في تناول متن المنازل إلا أن القاسم المشترك بينهم هو الموافقة علىٰ جل ما ينادي به الهروي وأحياناً حملها فوق ما يظهر منها تبين وجه تقسيم ابن القيم واستطراده في بيان الاحتمالات ، والتي يدرأ فيها أضرار تلك الشروح مما يدل علىٰ أنه اطلع عليها صراحة في ما يخص شرح التلمساني وبفحوىٰ كلامه في ما يخص كل من تناول العبارات الغامضة والمجملة.

وحيث إن المقامات والأحوال بينها تداخل في المعاني بحسب حال السالك أصبح من الصعب اتخاذ طريقة واضحة المعالم لتصنيف التقويم والنقد ، لذا رأيت جمع المتماثلات من كلامه ، ومن ثَم ضمها إلىٰ بعض ثم تقويمها ، واخترت لها عنواناً تندرج تحته وهي علىٰ النحو الآتي :

١ - مصادر التلقي في منازل السائرين.

٢ - توحيد المعرفة والإثبات.

٣ - توحيد القصد والطلب.

٤ - القضاء والقدر.

٥ - الأخلاق والسلوك.

*** مصادر التلقي في منازل السائرين** [١] :

مصادر التلقي في منازل السائرين

قال ابن القيم: «وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم، وسيره علىٰ جادة الذوق والوجد، ذاهبة به كل مذهب فهذه فتنته، والفتنة به شديدة وبالله التوفيق»[٢]، وقد تكرر في مقامات متعددة وصف الهروي للعلم بأنه قيد ورسم وظلمة[٣]، واستبداله بالكشف والوجد والذوق ونحوها[٤].

فمن بدل مصادر التلقي المشروعة (الكتاب والسنة) سوغ لنفسه الانحلال مما يسميه رق القيود والرسوم، وحيث بالغ بعض المتصوفة في هذا الجانب؛ فقد تصدىٰ لهم بعض قومهم ومن ينتسب إلىٰ طائفتهم وهو القشيري براءة من

---

(١) ومما اطلعت عليه بخصوص مصادر التلقي عند الصوفية رسالة الأستاذ صادق سليم صادق (المصادر العامة عند الصوفية عرضاً ونقداً).

(٢) المدارج ١/ ١٥٨.

(٣) انظر: المدارج ٢/ ٤٢٠، ٣/ ٩٧، ٣٩٥.

(٤) انظر: المدارج ٢/ ٣٦١، ٣/ ٧٣، ١٦٥، ٢٣٦ - ٢٣٧.

أدعياء الصوفية الذين كانت لهم صلات بالفلاسفة[1] أثرت علىٰ عقولهم وسلوكهم ، فهو يقول عن الصوفية المتفلسفة : «وادعوا أنهم تحرروا من رق الانحلال ، وتمتعوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه ، وهم (محو) ليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية وبقوا بعد فنائهم بأنوار الصمدية»[2].

ولهذا تم تتبع المقامات والمنازل التي صرح فيها الهروي بشيء من هذا أو قال عبارة موهمة أو مفهمة يفسرها مقام آخر ، وهي كما يلي :

منزلة العلم : قال : «الدرجة الثانية : علم خفي ينبت في الأسرار الظاهرة ، من الأبدان الزاكية وهو علم يظهر الغائب»[3].

فقوله : خفي أي علىٰ أهل الدرجة الأولىٰ وهم أصحاب العلم الجلي المتعلق بالشواهد ، والعلم الخفي يوافق المعرفة عند الصوفية[4] ، وإظهار الغائب هو الكشف للعارف[5].

---

(١) الفلاسفة : جمع فيلسوف ، يدل اللفظ في الأصل اليوناني على (محب الحكمة) ، وكأن فيثاغورس وهو الذي استعمل الكلمة لأول مرة فيما يقال : آثر أن يكون محباً للحكمة بدل أن يسمى حكيماً ؛ لأن الحكمة مقصورة على الآلهة. المعجم الفلسفي ١٤٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١٧.

(٣) منازل السائرين ٦١.

(٤) انظر : التعرف ٨٢ ، مقدمة ابن خلدون ص٥٨٦، ٥٨٧ ، المعرفة الصوفية ١٢٥، ٢٢٦ ـ ٢٢٧، نشأة الفلسفة الصوفية ١٢٤ ، المدارج ٢/ ٤٧٢.

(٥) انظر : المدارج ٢/ ٤٧٤.

ثم قال : «الدرجة الثالثة : علم لَدُني.. ليس بينه وبين الغيب حجاب»[١].

والعلم اللّدُني هو ما يحصل بغير واسطة وإنما إلهام، وقد قال ابن القيم عن هذا الكلام : «وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم»[٢].

وقال أيضاً : «والبلية التي عرضت لهؤلاء أن أحكام العلم تتعلق بالعلم وتدعو إليه، وأحكام الحال تتعلق بالكشف، وصاحب الحال ترد عليه أمور ليست في طور العلم، فإن أقامها علىٰ ميزان العلم ومعياره تعارض عنده العلم والحال، فلم يجد بداً من الحكم علىٰ أحدهما بالإبطال - إلىٰ قوله - فتأمل هذه الشبهة التي هي سم ناقع، تخرج صاحبها من المعرفة والدين كإخراج الشعرة من العجين»[٣].

والمراد بالحال هنا ما أشار إليه في منزلة التهذيب بقوله : «وهو لا يجمع الحال إلىٰ علم ولا يخضع لرسم»[٤]، والحال موهبة وليست مكتسبة وهي نظيرة الإلهام.

وقد قال عنه الجرجاني : «هو ما يلقىٰ في الروع بطريق الفيض[٥]»، وقيل هو

---

(١) منازل السائرين ٦٢.

(٢) المدارج ٢/ ٤٧٦ وقد بسط الرد عليهم في ٢/ ٣٤٦، ٣٤٨، ٣/ ٤٣١-٤٣٣ .

(٣) المدارج ٢/ ١٠٠.

(٤) منازل السائرين ٣.

(٥) الفيضيون: نسبة إلى القول بالفيض وهو مقولة فلسفية دالة على قابلية الأشياء والظواهر

ما وقع في القلب من علم ، وهو يدعو إلىٰ العمل من غير استدلال بآية ، ولا نظر في حجة»[1] فالإلهام عندهم أحد مصادر المعرفة ، وهناك ألفاظ مشتركة في هذا المعنىٰ : (الإشراق ، الشهود ، التجلي ، المكاشفة ، الحدس ، النور الإلهي ، الفيض)[2].

وقال : «الأنس بنور الكشف.. وحل عنهم قيود العلم»[3].

قال ابن القيم : «أحسن ما يحمل عليه ، أن العلم يقيد صاحبه ، والمعرفة تطلقه ، وتريه حقائق الأشياء ، فليتقيد العالم بظواهر العلم وأحكامه ، والعارف لا يراها قيوداً ، ومن هنا تزندق من تزندق.. فهؤلاء هم المقطوعون عن الله ، القطاع لطريق الله، وهم معاطب الطريق وآفاتها»[4]، وهذا إحدى صور

للتحول ، وهي ترتبط بالنظرة الجدلية للعالم ، وتتفق مع نظرة النشوء والارتقاء ، وقد ظهرت نظرية الفيض عند فلاسفة الأفلاطونية المحدثة ولا سيما عند أفلوطين ، وهي محاولة منهم لتجاوز قولهم بصدور الكثرة عن الواحد ، فالجزئيات صدرت ضرورة وفاضت بتوسط سلسلة في المبادىء العقلية ، وقد دخلت هذه النظرية في الإسلام عن طريق الإسماعيلية ، ثم إلى الفارابي وابن سينا في محاولة لترتيب الوجود في صورة فيض متدرج هرمي. الموسوعة الفلسفية ٣٦٣ ، أصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي ١٦٩ ، نشأة الفلسفة الصوفية ٢٤٦ ، الوجود الإلهي ١١٣-١١٤.

(١) التعريفات ٣٥.

(٢) انظر : المعرفة الصوفية ١٩٩-٢٠١.

(٣) منازل السائرين ٥٤.

(٤) المدارج ٢/ ٤٢٠.

التشابه بين الصوفية والغنوصية(١) في مصدر التلقي(٢).

وقال : «العزم إباء الحال علىٰ العلم»(٣).

فإن الحال أعلىٰ درجة من العلم يصعب علىٰ صاحبه الانحطاط إلىٰ رتبة أقل ، والحال إذا لم يطع العلم وينقاد له فهو مبعد عن الله ، فمن زعم أن العلم غيبة وحجاب ، والحال أنس وكشف وحضور فهو باطل(٤).

وقال في الفتوة : «أن لا تتعلق في السير بدليل»(٥).

هذا يدل علىٰ أن المعرفة عندهم ضرورية لا استدلالية ، وهي إشارة إلىٰ

---

(١) الغنوص : في أساسه معرفة أشياء دينية تسمو على مستوى العامة ، وكان للمسيحية غنوصها في القرنين الثاني والثالث الميلادي ، ثم تحول الغنوص إلى المعتقدات السرية والخفية ؛ بل الملحدة أحياناً.

والغنوصية : مذهب تلفيقي يجمع بين الفلسفة والدين ، ويقوم على أساس فكرة الصدور ، ومزج المعارف الإنسانية بعضها ببعض ، والأفلاطونية القبلية بالمحدثة والتعاليم الشرقية كالمزوكية والمانوية ، والبحث والنظر والتأمل والكشف والذوق ، فهي تجمع بين الفلسفة والدين والتصوف ، وزعموا أنها طريقة لمعرفة الحق بنوع من الكشف والحدس. انظر : الموسوعة الفلسفية ٣٢١ ، المعجم الفلسفي ١٣٣ ، النشأة الفلسفية الصوفية ٢٤٢ ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ١٨٦ ، تاريخ الفلسفة اليونانية ٢٤٤.

(٢) انظر المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ٨١.

(٣) منازل السائرين ٥١.

(٤) المدارج ٢/ ٣٦١.

(٥) منازل السائرين ٤٨ ، المدارج ٢/ ٣٤٦.

الكشف ومشاهدة الحقيقة ، وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلاً ، لهذا سمىٰ أصحاب الطرق الصوفية أصحاب الاستدلال أصحاب قال ، وأصحاب الكشف أصحاب حال ، وهم عاملون علىٰ الكشف الذي يحصل بنور العيان لا علىٰ العلم الذي يُنال بالاستدلال والبرهان ، وهذا موضع اشتباه ، فمن خرج عن الدليل ضل عن السبيل ، وإن زعموا أن الدليل والاشتغال به تفرقة فهو خير من جمعية الخيال والأوهام(١).

وقال في الوجد : «الدرجة الثانية : وجد تستفيق له الروح بلمع نور أزلي ، أو سماع نداء أولي»(٢).

هذا الكلام محتمل كما ذكر ابن القيم ، فإن أراد به ما سمعه في نفسه من الخطاب فهو خطاب وهمي وإن ظنه أزلياً ، فإياك والأوهام والغرور (٣).

وقال في الدهش : «صولة شوق العيان علىٰ شوق الخبر»(٤) وهذا سير المريد في البداية علىٰ شوق الخبر ثم يرتقي إلىٰ المعاينة.

وقال أيضاً : «دهشة المريد عند صولة الحال علىٰ علمه»(٥) ، وهذا يدل علىٰ أن العلم يقتضي شيئاً والحال يصول عليه بخلافه ، والصحيح أن تكون حال

---

(١) المدارج ٢/ ٣٤٧ـ٣٤٨.

(٢) منازل السائرين ٧٦ ، مدارج السالكين ٣/ ٧١.

(٣) انظر: المدارج ٣/ ٧٢.

(٤) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٨.

(٥) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٥.

الإنسان تابعة لعلمه.

وقال في الهيمان : «معاينة سلطان الأزل والغرق في بحر الكشف»[١] ، وهذا إشارة إلىٰ انكشاف الحقيقة لعين القلب كما سبق.

وقال في الذوق : «ذوق طعم الانقطاع طعم الاتصال»[٢] ، فالمنقطع محجوب ، والمتصل مشاهد بقلبه مكاشف بسره.

قال ابن القيم عنها : «عبارة غير سديدة يتشبث بها الزنديق الملحد ، والصديق الموحد ، فالموحد يريد القرب والبعد ، والملحد يريد الحلول والاتحاد»[٣].

وقال في السرور : «كشف حجاب العلم»[٤] ، فالعلم عندهم حجاب عن المعرفة الضرورية إذ العلم خبر والمعرفة عيان.

وقال في المكاشفة : «مهاداة السر بين متباطنين»[٥] ، فهي اطلاع أحد المتحابين المتصافين صاحبه علىٰ باطن أمره وسره ، والمتباطنين المكاشِف والمكاشَف ، فإذا بلغ العبد حدّ المعرفة فكأنه عندهم يطالع ما اتصف به الرب حتىٰ يشاهد رفع الحجاب[٦].

---

(١) منازل السائرين ٧٨ ، المدارج ٣/ ٨١.

(٢) منازل السائرين ٧٩ ، المدارج ٣/ ٩٦.

(٣) المدارج ٣/ ٩٧.

(٤) منازل السائرين ٨٤.

(٥) منازل السائرين ٩٢ ، المدارج ٣/ ٢٢١.

(٦) المدارج ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

وقال في المشاهدة أيضاً: «الدرجة الأولىٰ: مشاهدة معرفة تجري فوق حدود العلم»[١]، وهذا جارٍ علىٰ أصول القوم في أن المعرفة فوق العلم، ومن أقوالهم أن أعمال الأبرار بالعلم، وأعمال المقربين بالمعرفة[٢].

وقال في التلبيس: «وتعليقه المعارف بالوسائط والقضايا بالحجج»[٣].

الكلام علىٰ التلبيس سوف يبسط في توحيد القصد والطلب، وعلاقته هنا ببيان مقصودهم بالمعارف والوسائط أن المراد بها تعلق المعرفة بالأدلة السمعية والعقلية والفطرية، ولقد عدّ هذا من التلبيس.

وكلامهم كما قال ابن القيم عنهم: «أضحكوا عليهم العقلاء، وأشمتوا بهم الأعداء، ونهجوا لأعداء الرسل طريق إساءة الظن بهم، وجنوا علىٰ الإسلام والقرآن أعظم جناية»[٤].

وقال أيضاً عن الهروي: «لقد كان في غنية عن هذا الباب وعن هذه التسمية ولقد أفسد الكتاب بذلك»[٥].

وقبل ذلك قوله في الاعتصام: «اعتصام العامة بالخبر»[٦].

---

(١) منازل السائرين ٩٣، المدارج ٣/ ٢٣٦.

(٢) المدارج ٣/ ٢٣٧، ٣٧٢.

(٣) منازل السائرين ١٠٦، المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٤) المدارج ٣/ ٤٠٩.

(٥) المدارج ٣/ ٣٩٥ ـ ٤٠٠.

(٦) منازل السائرين ٢١، المدارج ١/ ٤٦٣ ومما يتصل بالعلم والحال ما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ٣/ ١٣٤.

وقال في الوجود : «وجود علم لدني يقطع علوم الشواهد في صحة مكاشفة الحق إياك»[١] ، العلم اللدني - عندهم - هو المعرفة ، وعلم الشواهد هو علم الاستدلال ، فإذا حصل العلم اللدني - المعرفة - انقطع علم الشاهد بما تم من ذوق وحسٍ وباطن ، فإذا تم الكشف صحت المعرفة فلا حاجة إلىٰ الشواهد والأدلة ما دام مستغرقاً في الأدلة[٢] ، ونحواً مما سبق قوله في الصفاء[٣] والجمع[٤].

ولقد دُرست بعض هذه المصطلحات وصلتها بالمعرفة والكشف والاتصال ، من تلك الدراسات:

المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة). د/ ناجي حسين جودة.

ونظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام. سارة بنت عبد المحسن آل سعود.

نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها. د/ عرفان فتاح.

مدخل إلىٰ التصوف الإسلامي. د/ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني[٥].

---

(١) منازل السائرين ١٠٧ ، المدارج ٣/ ٤١٦ ، ٤١٧.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٤١٦ ، ٤١٧.

(٣) انظر : منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٠.

(٤) انظر : منازل السائرين ١٠٩ ، المدارج ٣/ ٤٢٧.

(٥) محمد أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، ولد سنة ١٩٣٠م بمصر ، حصل على شهادات آخرها

المصادر العامة للتلقي عند الصوفية. الأستاذ/ صادق سليم صادق، ومدار الكتاب علىٰ مصادر (الكشف والذوق والوجد) وما يتصل بها ويتفرع عنها، وهي مشابهة للمعرفة الذوقية كما يصورها الغزالي[1]، أو النزعة الإشراقية[2] عند الفلاسفة[3].

توحيد المعرفة والإثبات في منازل السائرين

ثانياً: توحيد المعرفة والإثبات:

قال في الفناء: «اضمحلال ما دون الحق علماً ثم جحداً ثم حقاً»[4].

الدكتوراه ١٩٦١م وتدرج في عدد من المناصب منها تعيينه سنة ١٩٨٣م شيخاً لمشايخ الطرق الصوفية بمصر، وله مؤلفات منها: مدخل إلى التصوف الإسلامي، علم الكلام وبعض مشكلاته وغيرهما، انظر ترجمته في كتاب«أبو الوفا التفتازاني» للدكتور عاطف العراقي (ص٧-٨).

(١) الإحياء ١/ ١٣٨ ـ ٢/ ٣٧٦، التدبيرات الإلهية لابن عربي ١١٤ بواسطة تحقيق عبد الحميد مدكور ص٢/ ٧٢ لمدارج السالكين.

(٢) الفلسفة الإشراقية: مركب من عناصر متباينة معقدة كالغنوصية والأفلاطونية المحدثة، وديانات الفرس القديمة، ومذاهب الصابئة في الكواكب والنجوم وهي في النهاية محاولة للجمع بين الحكمة الشرقية المشرقة المتمثلة في الأفلاطونية المحدثة، ومذهبه الفيضي وزعيمها «السهروردي المقتول»، فهو يرمي إلى تأسيس فرع فلسفة تجمع بين الحكمة البحثية النظرية، والتجربة الروحية الذوقية. انظر: نشأة الفلسفة الصوفية ٢٣٨-٢٣٩، أصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي ٤٣. مدخل إلى التصوف ٣٣.

(٣) الإشارات لابن سينا القسم الرابع، تحقيق د/ سليمان دنيا، الطبعة الثانية، ٨٦، بواسطة تحقيق عبد الحميد مدكور ٢/ ٧٢، وانظر الفلسفة الإشراقية عند السهروردي، تأليف: د/ محمد علي أبو ريان.

(٤) منازل السائرين ١٠٤، المدارج ٣/ ٣٩٦.

قبل الشروع في بيان مؤدىٰ كلامه يحسن القول بأن الفناء هو المحور الجوهري الذي يدور عليه التصوف عند الهروي ، حيث جعله غاية يسعىٰ إليها وهذا ظاهر كلام ابن القيم حيث يقول عن الهروي : «لا يقدم علىٰ الفناء شيئاً ، ويراه الغاية التي يسعىٰ إليها السالكون ، والعلم الذي يؤمه السائرون ، واستولىٰ عليه ذوق الفناء وشهود الجمع ، وعظم موقعه عنده ، واتسعت إشارته إليه وتنوعت به الطرق الموصلة إليه علماً وحالاً وذوقاً»[1].

وقال : «إنه يدندن حول بحر الفناء»[2].

وقال : «إنه ممن رفع له علم الفناء فشمر إليه»[3] ، «ولا يصغي فيه إلىٰ عاذل»[4].

لقد كانت المؤاخذة علىٰ الهروي قوية؛ لأنه لم يتضح تفريقه بين الفناء عن الشهود والفناء عن الوجود ، وهو موطن اشتباه والتباس ، جعل كلامه مجالاً للتنازع بين من يجعله سنداً له في الإلحاد ، ومن يحاول تبرئة الهروي من هذا القصد، ومن أبرز من وظف عبارات الهروي الموهمة (العفيف التلمساني)[5] ،

---

(١) المدارج ١/ ٢٧٣.

(٢) المدارج ٣/ ٣٢٧.

(٣) المدارج ١/ ٤٦٤ ، ٣/ ٣٨٣.

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٦).

(٥) العفيف التلمساني ، سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني ، ولد سنة ٦١٠هـ صوفي شاعر ، شرح منازل السائرين والمواقف وفصوص الحكم، قال الذهبي عنه: «أحد زنادقة الصوفية»،

قال ابن القيم: «وتولىٰ شرح كتابه أشدهم في الاتحاد طريقة وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الفِرَق: العفيف التلمساني»[١]، وقال أيضاً: «ولكن الألفاظ مجملة، وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد ولساناً فصيحاً متمكناً عن التعبير عن المراد»[٢].

وبالرغم من الإبهام الذي أحاط بعبارات الهروي عن الفناء فقد حمله شيخ الإسلام في بعض المواطن علىٰ أنه يريد الفناء عن شهود السوىٰ[٣]، وفي مواطن أخرىٰ يقول إن هذا نوع من الحلول الخاص[٤]، وكذلك الذهبي بعد أن تمنىٰ أنه لم يؤلف هذا الكتاب الذي استند إليه أهل الاتحاد ثم نزّهه عن مقاصدهم[٥]، وكذلك أشاد ابن رجب في جهود ابن القيم في تبرئة الهروي من حمل كلامه علىٰ قواعد الاتحاد[٦].

ولعل الناظر في تلك المواقف من أعلام السلف يدرك مدىٰ الحرج الذي

ونسب إلى الحلول والاتحاد، توفي سنة ٦٩٠هـ/ العبر (٣/ ٣٧٢)، البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٦)، شذرات الذهب (٥/ ٤١٢)، معجم المؤلفين (٤/ ٢٧٠)، الكواكب الدرية (٢/ ٤٢٠).

(١) المدارج ١/ ٢٧٤.

(٢) المدارج ١/ ٢٧٤، ١/ ٢٧٣.

(٣) انظر: الفتاوى ١٠/ ٣٤١.

(٤) انظر: منهاج السنة ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٨٣، ٣٨٧، الفتاوى ٥/ ٢٣٠، ٤٨٥.

(٥) انظر: السير ١٨/ ٥٠٩.

(٦) انظر: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٦٧.

لحق بابن القيم ومن عذر الهروي في محاولة حمل كلامه علىٰ أحسن المحامل بطريقة فيها شيء من التكلُّف أحياناً خاصة في مسألة الفناء والتوحيد، وقد حصل من ابن القيم - بالرغم من العلاقة بكتب الهروي - مخالفات صريحة فيما لا مجال للاعتذار عنه ، فقد قال : «شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه»(١) ، وقال : «ولولا أن حقَّ الحقِّ أوجب من حق الخلق لكان في الإمساك فسحة ومتسع»(٢).

أما مؤدىٰ كلامه في الفناء فأقل ما يحمل عليه الفناء عن شهود السوىٰ ، وهي مرتبة ناقصة ، و محطة هابطة بالنسبة للبقاء ، فإن من شهد الفرق بين الطاعة والمعصية ، وشهد الفرق بين الأمر والنهي ، وشهد الأسباب وأثرها والحكم والعلل مع شهوده أن الكل بأمر الله وقدره ومشيئته وحكمته؛ فهو أكمل ممن لم يشهد ذلك ، ولقد بسط الكلام فيها شيخ الإسلام في معرض حديثه عن الفناء عند الهروي وأعلام الصوفية(٣) ، وعند تأمل تقسيمه المنازل والمقامات تظهر الإشارة إلىٰ الفناء في كل ما عدّه الدرجة الثالثة من كل منزلة غالباً.

وما يتعلق بالتوحيد(٤) قريب من كلامه عن الفناء؛ بل لعله متصل بفهمه

---

(١) المدارج ٢/ ٣٧.

(٢) المدارج ٢/ ٤٣ـ ٤٤ وقد تتبع هذه المواطن وألف بينها بطريقة نافعة الأستاذ/ عبد الحميد مدكور في تحقيقه لجزء من مدراج السالكين ٢/ ١٥ ـ ٣٠.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٢١٨ ـ ٢٢٥.

(٤) انظر أقوال أعلام الطائفة في التوحيد والصفات : التعرف ٣١ ـ ٤٠ ، اللمع ٢٨ ـ ٣٥.

للفناء ، فالتوحيد عنده ألا يكون إلا بعد فناء الفكرة والمتفكر ، والفكرة تدل علىٰ بقاء الرسم؛ لاستلزامها مفكراً وفعلاً قائماً به ، والتوحيد التام - عنده - لا يكون مع بقاء رسم أصلاً[١] ، وعلىٰ هذا فالموقف منه في التوحيد متصل بموقفه من الفناء.

وقد عرَّف الهروي التوحيد : «بأنه تنزيه الله عن الحدث»[٢] ، ومع هذا التعريف قد يوجهه بعضهم إلىٰ أن مقصدهم الرد علىٰ من زعم الحلول في الحادثات وعدم مباينته للمخلوقات ، فإن ابن القيم بيَّن أن هذا الحد للتوحيد لا يدل علىٰ التوحيد الذي أُنزِلت به الكتب ، وأُرسِلت به الرسل ، وينجو به العبد من النار ، ويدخل به الجنة ويخرج من الشرك ، وأن هذا المعنىٰ مشترك بين الفِرَق التي تقر بوجود الله ، حتىٰ أن المشركين لا ينكرون ذلك[٣] ، وعلىٰ هذا فليس تعريف الهروي للتوحيد مُبَيِّناً للتوحيد الصحيح الذي هو أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق وأول مقام السالكين[٤] ، ثم أطال ابن القيم الحديث عن تقرير التوحيد ، وأنكر علىٰ من استطال الحديث عنه[٥].

ثم قسم الهروي التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام كما هو منهجه في كل منزلة.

---

(١) المدارج ١/ ١٧٤.

(٢) منازل السائرين ١١٠ ، المدارج ٣/ ٤٤٤ ، ٥٠٥.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٤٤٤.

(٤) انظر : مدارج السالكين ٣/ ٤٣٣ـ ٤٤٤ ، ٤٤٧.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٤٧٦.

فقال : «توحيد العامة وهو ما يصح بالشواهد»(١) ، ومراده بذلك ما يصح بالأدلة والآيات والبراهين ، لذا أشاد ابن القيم بهذا التوحيد الذي يسميه الهروي توحيد العامة ، وقال : «قد تبيَّن أن هذا توحيد خاصة الخاصة الذي لا شيء فوقه ولا أخص منه ، وأن الخليلين أكمل الناس فيه توحيداً ، فليهْنَ العامة نصيبهم منه»(٢) ، فهذا مما يدل علىٰ شرفه وكماله أن قامت الأدلة عليه ، ونادت عليه الشواهد ، وأوضحته الآيات والبراهين ، وما عداه فدعاوىٰ مجردة لا يقوم عليها دليل ، ولا تصح بشاهد ، والقرآن من أوله إلىٰ آخره يقرر التوحيد»(٣) بكل وضوح وبيان بعيداً عن التعقيد والألغاز والإشارات التي يتعذر فهمها علىٰ العامة (٤).

وعن طريق ثبوت هذا التوحيد بالشواهد السمعية تعرض ابن القيم لآراء الفرق في وجوب التوحيد هل يكون بالعقل أم بالشرع أم بهما؟ وعلاقة ذلك بالحسن والقبح(٥).

ثم ذكر الدرجة الثانية توحيد الخاصة وهو «ما يثبت بالحقائق وإسقاط الأسباب الظاهرة»(٦) ، وذلك لأنه يرىٰ أن ملاحظة الأسباب والشواهد تقدح

---

(١) منازل السائرين ١١٠ ، المدارج ٣/ ٤٨٥ .

(٢) المدارج ٣/ ٤٨٥ .

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٤٨٥ .

(٤) انظر : المدارج ٣/ ٤٧٦ ، ٣/ ٤٥٠ ونحوه في الفتاوى ١٤/ ١٦٨ .

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٤٨٨ ـ ٤٩٢ ، وفي مفتاح دار السعادة ٣٢٨ ـ ٣٦٩ .

(٦) منازل السائرين ص ١١٠ ـ ١١١ .

في فهم التوحيد ، وهم يسقطون الأسباب فلا يرون فاعلاً إلا الله ، فاعتبار الأسباب يعطيها استحقاقاً ينافي تحقيق التوحيد[١].

وهذا مبني علىٰ قاعدتهم أن ثبوت الحقائق مقدم علىٰ صحة الشواهد؛ لأن صحة الشواهد تابعة للأدلة العلمية ، فهي قيود ورسوم تخص العامة أما ثبوت الحقائق فهي تابعة للكشف والذوق والاتصال تخص الخاصة[٢] ، وهذا له علاقة بهفوته في التلبيس حيث جعل تعليق الكوائن بالأسباب تلبيساً[٣]؛ بل لشدة موقف ابن القيم من هذا الكلام الشنيع في بيان التوحيد ألحق ذلك بقول الجهمية[٤] ، ثم نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة حيث قال حول إسقاط الأدلة والشواهد والأسباب : «وهذا الأصل فاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ، بل ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة»[٥] ، وأنكر ابن القيم ما يوجد عند الهروي من تعمية وإلغاز في الحديث عن أعظم أصل من أصول الدين ودعوة المرسلين[٦] ،وهي التوحيد عند خاصة الخاصة ، والذي أشار إليه الهروي بقوله :

---

(١) انظر : : المدارج ٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٥.

(٤) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥.

(٥) المدارج ٣/ ٥٩٧ وانظر : الفتاوى ٥/ ٦٢ ـ ٦٨ وقد بسط ابن القيم الرد على منكري الأسباب في هذا الموضع من المدارج ٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٩ في مفتاح دار السعادة كما سبق.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٥١٢ ـ ٥١٣.

«توحيد اختصه الحق لنفسه وأخرسهم عن نعته وأعجزهم عن بثه»(١) إذ كيف يكون التوحيد الذي جاءت به الرسل، وأُنزلت به الكتب واضحاً صريحاً لا يستطيع أن ينطق به لسان أو تشير إليه عبارة، وقد تكلم به الرسل وبيَّنوه وأوضحوه، فتعلقت به القلوب، ونطقت به الألسن، وقامت عليه الشواهد، وترتبت عليه أحكام دينية ودنيوية، وغير مستغرب هذا الشطح عند الهروي، وهذه الدعاوىٰ والوساوس. إذ الغاية عنده الفناء الذي لا يصح إلا بإسقاط الإشارات التي تقتضي وجود مشير ومشار إليه، وتعني الإثنينية التي يسعىٰ لإسقاطها»(٢).

وقد أمعن في وصف توحيده بالأبيات التي ذكرها في آخر المنازل(٣) ص١١٣.

وفي ختام كلامه عن التوحيد والأبيات المنسوبة للهروي فيه قال: إن فيها ميلاً للاتحاد أو وحدة الوجود، وأنه وَجَدَ فيها دعاةُ ذلك المذهب ما يؤيدهم(٤)،

---

(١) منازل السائرين ١١٢، المدارج ٣/ ٥١١.

(٢) المدارج ٣/ ٥١٢، ٥١٧ وانظر ما يدل على ذلك من عبارة الهروي في المنازل ولم ينقلها ابن القيم ١١٢ حيث قال: «على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علة لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها».

(٣) وقد شكك محمود الحسيني في نسبة تلك الأبيات للهروي في التمكين في شرح منازل السائرين ٣٥٣ وذكر نسبتها للحلاج صاحب رسالة مظاهر الانحرافات العقدية ١/ ٣٢٧.

(٤) المدارج ١/ ١٧٤ - ١٧٩.

وبالغوا في استحسانها[١]، وأن فيها من الإجمال والحق والإلحاد ما لا يخفىٰ[٢]، وأن بعض عباراته توهم وحدة الوجود، وفي النهاية قال: لا حاصل له من كلامه إذ لا كمال فيه؛ بل فيه ما لا يرضىٰ به الموحد ولا الملحد[٣]؛ بل هي من أبطل الباطل، فالمعنىٰ أبطل من اللفظ واللفظ أقبح من المعنىٰ[٤]، وأنه فتح باباً للزنادقة، وغرَّه سراب الفناء، وظنه لجة بحر المعرفة وغاية العارفين[٥]، وقد علق شيخ الإسلام علىٰ تقسيم الهروي للتوحيد؛ بل وعلىٰ تقسيمه لكل منزلة إلىٰ ثلاث درجات، وقال كلمة رائعة يحسن ذكرها هنا وهي قوله: «يذكر في كل باب ثلاث درجات، فالأولىٰ وهي أهونها عندهم توافق الشرع في الظاهر، والثانية قد توافق الشرع وقد لا توافق، والثالثة في الأغلبية تخالف، لا سيما في التوحيد والفناء والرجاء، ونحو ذلك، وهذا الذي ابتدعوه أعظم - عندهم - مما وافقوا فيه الرسل»[٦].

لقد كان هذا الاستطراد والبسط لهاتين المنزلتين - الفناء والتوحيد - لأنهما مدار كتاب المنازل، وما يأتي من المقامات والأحوال يرجع في أغلب

---

(١) المدارج ٣/ ٥١٩.

(٢) المدارج ٣/ ٥١٥.

(٣) المدارج ٣/ ٥١٦.

(٤) المدارج ٣/ ٥١٨.

(٥) المدارج ١/ ١٥٧.

(٦) الفتاوى ١٠/ ٤٩٧-٤٩٨، ١٣/ ٢٢٩.

مباحثه ومقاصده في الدرجة الثالثة إلىٰ مفهوم الفناء والتوحيد عند الهروي ، وقوله : «الفكرة في عين التوحيد اقتحام بحر الجحود»(١) ، ينتهي إلىٰ أصله الذي أصله في الفناء؛ لأن التوحيد الصحيح لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والمفكر ، والفكرة بقاء رسم ، والتوحيد التام لا يكون معه بقاء رسم ، ثم قال ابن القيم : «وحاشا شيخ الإسلام من حلول أهل الاتحاد وإن كانت عبارته موهمة بل مفهمة ذلك»(٢).

وقال في التوبة : «إن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة»(٣) وذلك لأن من كان في مقام التفرقة فإنه يشهد حسن الأشياء وقبحها ، أما من فني عن شهود الأشياء وشاهد عين الحكمة والمشيئة فلا فرق عنده بين الأشياء ، وهذا أصل قول الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب وتحسين العقل وتقبيحه ، ومثل هذا ما ذكره في مشاهدة العبد الحكم(٤).

وقال في الشوق : «صولة نور القرب علىٰ نور العطف»(٥) ، هذه المسألة ترجع إلىٰ الاتصال الذي سبق ذكره مصدراً من مصادر التلقي عندهم ، وهو بهذا يشير إلىٰ منزلة القرب والاتصال مما يتوهمه بعض ملاحدة الطريق

---

(١) المدارج ١/ ١٤٧ ، منازل السائرين ١٨.

(٢) المدارج ١/ ١٤٩.

(٣) منازل السائرين ١١ ، المدارج ١/ ٢٢٧.

(٤) انظر : المدارج ١/ ١٨٨، ٢٢٨.

(٥) منازل السائرين ٧٣ ، المدارج ٣/ ٧٧.

وزنادقتهم ، وأكثر آفات القوم من الألفاظ ولا سيما في هذه المواضع التي يعز فيها تصور الحق علىٰ ما هو عليه والتعبير المطابق فيتولد من ضعف التصور وقصور التعبير نوع تخبيط »[١].

وقال في الطمأنينة : «طمأنينة شهود الحضرة إلىٰ اللطف ، وطمأنينة الجمع إلىٰ البقاء ، وطمأنينة المقام إلىٰ نور الأزل»[٢].

وهذه المسألة راجعة إلىٰ الفناء والبقاء ، فمن وصل إلىٰ شهود الحضرة فهو مطمئن ، وحضرة الجمع تُفني الشهود الذاتي ، وهذا العارض يعطل العمل عند بعضهم؛ لحصول الطمأنينة[٣].

وقال في المشاهدة : «مشاهدة جمع تجذب إلىٰ عين الجمع»[٤] ، قال ابن القيم : «وهذا أيضاً مورد للملحد والموحد ، فالملحد يجعل هذا طريقه إلىٰ القول بوحدة الوجود ، والموحد يشاهد بإيمانه ويقينه ذاتاً جامعة للأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ ، فيجذبه إلىٰ جمع همه علىٰ الله ، والقيام بفرائضه»[٥].

وقال في المحبة : «أول أودية الفناء، والعقبة التي ينحدر منها علىٰ منازل المحو»[٦] ، ومراده بالمحو أي لا يرىٰ لنفسه ولا لغيره فعلاً ، ورؤيته صفات

---

(١) المدارج ٣/ ٧٨.

(٢) منازل السائرين ٦٨ ، المدارج ٢/ ٥١٨.

(٣) المدارج ٢/ ٥١٨.

(٤) منازل السائرين ١١٥ ، المدارج ٣/ ٢٤١.

(٥) المدارج ٣/ ٢٤٢ـ ٢٤٣ ، والإشارة هنا بقوله : الملحد إلى التلمساني شارح منازل السائرين.

(٦) منازل السائرين ٧١ ، المدارج ٣/ ٣٣.

نفسه عارية وهبة ، وهذا بداية الفناء عنده عن شهود السوىٰ ، كما سبق في مسألة الفناء[1].

وقال في العطش : «لا يغطيها حجاب تفرقة ، ولا يعرج دونها علىٰ انتظار»[2].

هذا الكلام له صلة بالرؤية والمشاهدة ، وهي لا تمكن لأحد في هذه الدنيا، ومن زعم ذلك فهي أوهام وخيالات ، أما كونه لا يعرج دونها علىٰ انتظار فإن هذا غير ممكن حتىٰ لمن رأىٰ الله تعالىٰ ، فإنه لا يحيط به فيبقىٰ من كماله وجماله وجلاله ما لا يطلع عليه أحد[3].

وقال في الوجد : «صولة نور القرب علىٰ نور العطف»[4] ، هذا الكلام له علاقة قوية بالاتصال والقرب نفسه ، وهذا يقود إلىٰ توهم ملاحدة الطريق وزنادقتهم[5].

وقال في الهيمان : «هيمان عند الوقوع في عين القدم»[6].

يعني به اضمحلال الرسوم وفنائها في شهود القدم ، فيفنىٰ من لم يكن

---

(١) المدارج ٣/ ٣٣.

(٢) منازل السائرين ٧٥ ، المدارج ٣/ ٦٤.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٦٦.

(٤) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٨.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٧٨.

(٦) منازل السائرين ص٧٨ ، المدارج ٣/ ٨١.

ويبقىٰ من لم يزل ، وهذه اللوائح التي تحصل لهم ليست من خارج ذواتهم وإنما هي من تعبير بواطنهم وتجاربهم الشخصية ومواجيدهم ، ولا تدل علىٰ شيء في الخارج.

وقال في اللحظ : «ملاحظة عين الجمع»[1] ، فيه إشارة إلىٰ استيلاء عين الجمع علىٰ مشاهدة الأحوال والمقامات والتفرق في أودية الإرادات ، والنظر إلىٰ الواحد الفرد ، وفيه فتور عن العمل والمشاق بعد ما حصل له من مقام الجمع علىٰ الله[2].

وقال في الوقت : «الوقت الحق»[3] ، وهو استغراق رسم الوقت في وجود الحق، وتلاشي الرسوم كشفاً لا وجوداً محضاً، ومنه يشرف علىٰ مقام الجمع، والرسوم هنا ما سوىٰ الله ، فينعدم الإحساس بما حوله لشدة استغراقه بشهوده، ومن نتائج ذلك أن تخف عليه أثقال العمل - عندهم - وفهمها الملحد علىٰ أنها ترك المعاملات الجسمية إلىٰ المعاملات القلبية.

وقال في الصفاء : «صفاء اتصال يدرج حظ العبودية في حق الربوبية»[4].

قال ابن القيم : «وفي هذا اللفظ قلق وسوء تعبير ، يجبره حسن حال صاحبه وصدقه وتعظيمه لله ورسوله، ولكن أبىٰ الله إلا أن يكون الكمال إلا له،

---

(١) منازل السائرين ١٠١ ، المدارج ٣/ ١١٢.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ١١٣ ، ١٤٠.

(٣) منازل السائرين ٨٢ ، المدارج ٣/ ١٣٧ ـ ١٤١.

(٤) منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٠.

ومراد القوم بالاتصال : اتصال العبد بربه ووصوله إليه ، لا بمعنىٰ اتصال ذات العبد بذات الرب ، وتوهم غير ذلك عين المحال»[1] ، وفي هذا مدخل للملاحدة أهل وحدة الوجود أو الاتحاد ، ولهذا قال ابن القيم : «فإياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها فإنها أصل البلاء ، وهي مورد الصدِّيق والزنديق..»[2].

وقال في السر : «ألاح لهم لائحاً أذهلهم عن إدراك ما هم فيه»[3] ، يريد بذلك أن ما ظهر لهم من المعرفة جعلهم يغابون عن إدراك ما حولهم وأذهلهم عن الشعور بالغير ، وهذا يرجع إلىٰ الفناء عن شهود السوىٰ علىٰ أقل الأحوال[4].

وقال في الغيبة : «غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد والدرجات في عين الجمع»[5] ، حيث إن الجمع يمحو أثر الرسوم والفناء غاية الطلب عندهم ، وحضرة الجمع أكمل من المقامات ، تلاشىٰ وجودها وغاب عن شهودها ، بعدما وصل العارف إلىٰ عين الجمع.

وقال في المكاشفة : «ولا تنزل علىٰ رسم»[6] ، ومعناه أن المكاشفة لا تنزل

---

(١) المدارج ٣/ ١٥٠ .

(٢) المدارج ٣/ ١٥١.

(٣) منازل السائرين ٨٤ ، المدارج ٣/ ١٨٢.

(٤) المدارج ٣/ ١٨٣.

(٥) منازل السائرين ٨٩ ، المدارج ٣/ ٢١٢، ٢١٣.

(٦) منازل السائرين ٩٢ ، المدارج ٣/ ٢٣٠.

علىٰ من بقي فيه رسم حجاب بينه وبين هذه المكاشفة ، والرسم هو النفس وأحكامها وصفاتها ، وهذا يرجع إلىٰ قولهم بالفناء.

وقال في المعاينة : «عين الروح وهي التي تعاين الحق عياناً محضاً»(١).

هذا الكلام محتمل فإن أراد بالحق ما هو ضد الباطل فهو صحيح ، وإن كان مراده بالحق الرب تعالىٰ فهو باطل؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يعاينه في هذه الدار ، علىٰ أنه قد يريد بذلك قوة اليقين ومزيد الإيمان؛ لكن هذا التعبير في دلالته علىٰ المراد غموض.

وقال في الحياة : «حياة الجمع من موت التفرقة»(٢) ، الجمع عندهم هو أن تسقط كل الإشارات والفروق فلا يرىٰ إلا جمعها في توحيد الربوبية ، وهذا أبلغ درجات الفناء عندهم.

وقال في الصحو : «أودية الجمع ولوائح الوجود»(٣) ، الجمع ينقسم إلىٰ جمع وجود ، وجمع شهود ، وجمع إرادة. فالأول منها: لأهل الإلحاد ، والثاني جمع أهل الفناء ، والثالث جمع الرسل وأتباعهم.

وقال في الاتصال : «ثم اتصال وجود»(٤) ، وهو الظفر بحقيقة الشيء فيصير

---

(١) منازل السائرين ٩٤ ، المدارج ٣/ ٢٥٦.

(٢) منازل السائرين ٩٥ ، المدارج ٣/ ٢٨٩.

(٣) منازل السائرين ٩٨ ، المدارج ٣/ ٣١٩.

(٤) منازل السائرين ٩٩ ، المدارج ٣/ ٣٢٣.

الوجود واحداً ، وهذا من مداخل التلمساني إلىٰ القول بأن هذا شاهد لوحدة الوجود والحلول عند الهروي ، وقد برأه ابن القيم من قصد ذلك علىٰ منهجه في الاعتذار عنه إذا أمكنه ذلك [1].

وقال في الوجود : «وجود مقام اضمحلال رسم الوجود فيه بالاستغراق في الأولية»[2] ، قال ابن القيم : هذا كلام فيه قلق وتعقيد ، وهو باللغز أشبه منه بالبيان»[3] وهي راجعة إلىٰ مقام الفناء عن شهود السوىٰ كأحد مقامات القوم ، والأولية إما شهود الأول واضمحلال ما دونه من الحادثات ، أو شهود سابقة المشيئة والحكم الأول ، فاضمحل كل فرق عنده بين الأشياء.

وقال في الجمع : «ما أسقط التفرقة وقطع الإشارة ، والخلاص من شهود الثنوية»[4] ، إن كان قصده في ذلك جمع الوجود فهو جمع الملاحدة أصحاب وحدة الوجود ، ويقابله عندهم التفرقة الفرق بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق ، فالجمع عندهم ما أسقط هذا الفرق ، وإن أُريد بالجمع الجمع بين الإرادة والطلب علىٰ المراد المطلوب وحده ، وبالتفرقة تفرقة الهمة والإرادة فهو صحيح ، ولهذا قال ابن القيم في هذا المقام : «وبمثل هذه

---

(١) المدارج ٣/ ٣٢٤.

(٢) منازل السائرين ١٠٧ ، المدارج ٣/ ٤١٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) منازل السائرين ١٠٩ ، المدارج ٣/ ٤٢٧.

المجملات دخل علىٰ أصحاب السلوك والإرادة ما دخل»[1]، وقوله: «قطع الإشارة» مثل سقوط التفرقة، وكذلك الخلاص من الثنوية لانقطاع الإشارة؛ لأنه ما ثم عندهم مشار ولا مشار إليه.

توحيد القصد والطلب في منازل السائرين

ثالثاً: توحيد القصد والطلب:

قال ابن القيم في مواضع متعددة إن الهروي بالغ في تقرير توحيد الربوبية دون الألوهية [2].

قال في التوبة: «إن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة»[3]، وهذا من آثار الفناء وشهود الحقيقة الكونية التي لا يرىٰ فيها الإنسان فرقاً بين الأشياء، وهو أصل عقيدة القدرية الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب، ثم قال ابن القيم - رحمه الله -: «وهذا عند القوم من الأسرار التي لا يستجيزون كشفها إلا لخواصهم وأهل الوصول منهم»[4]، وعلاقة ذلك بتوحيد الألوهية - مع أنه ظاهر الصلة بالقدر - أن من اعتقد ذلك فإنه لا يشهد طاعة ولا معصية ولا أمراً ولا نهياً، فيتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ الكل في نظره جارٍ وفق المشيئة فهو مطيع، ثم إن النفوس إذا زال عنها الفرق مالت إلىٰ ما تهوىٰ من الشهوات لولا وازع الأمر

---

(١) المدارج ٣/ ٤٢٨.

(٢) انظر: المدارج ٣/ ٣٨٧، ٤٤٤، ٤٨٨.

(٣) منازل السائرين ٩، المدارج ١/ ٢٢٧.

(٤) المدارج ١/ ٢٢٩.

والنهي والخوف والرجاء والوعد والوعيد ، وفي معرض دفاع ابن القيم عن الهروي ينقل عنه تكفير من قال بذلك - مطالعة الإرادة الأزلية - ويخرجهم من جملة الأديان(١).

ثم قال الهروي : «فتوبة العامة : الاستكثار من الطاعة»(٢) ، لقد اجتهد ابن القيم في تفسير مراده من هذا الكلام بما يخفف لازم عبارته ، ومهما كان فإن شاهد الحال عند غلاتهم يدل علىٰ زهدهم بالعمل كما حكىٰ ذلك ابن القيم عن حال ابن سبعين(٣) ، وقال شيخ الإسلام : العامة يعبدون الله وهؤلاء يعبدون نفوسهم(٤) ، ثم أشاد بالعمل وأهميته(٥).

وقال في الزهد : «وللعامة خسّة»(٦) إذا جرينا علىٰ ما في نسخ المنازل فهذا

---

(١) المدارج ١/ ٢٢٩.

(٢) منازل السائرين ١١ ، المدارج ١/ ٢٥٧.

(٣) ابن سبعين ، عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الإشبيلي المرسي ، أحد الفلاسفة المتصوفين القائلين بوحدة الوجود ولد سنة ٦١٤هـ ، عالم بفلسفة أرسطو والأفلاطونية المحدثة ، ومن القائلين بالصدور الفيضي، توفي سنة ٦٦٩هـ/ العبر (٣/ ٣٢٠)، شذرات الذهب (٥/ ٣٢٨)، الأعلام (٣/ ٢٨٠) ، معجم المؤلفين (٥/ ٩٠).

(٤) المدارج ١/ ٢٦٠.

(٥) المدارج ١/ ٢٦١ ـ ٢٦٩ وذكر أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة، المدارج (١/ ١٨٤).

(٦) لفظ (خسّة) هكذا في المنازل الذي اعتمدته في التقويم تحقيق الأب/ س.دي لوجييه دي موركي الدومنكي ، طبعة القاهرة ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، ١٩٦١م ، ص٢٣ ، وفي النسخة الأخرى طباعة دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨هـ. قلت ذلك لأنه في مدارج السالكين ضبطها (خشية) وهي في شرح المنازل لعبد المعطي الإسكندري ص٤٩

التعبير فيه ازدراء لمكانة الزهد ومنزلته في الدين ، وإن كان شراح المنازل ممن اعتمد هذا اللفظ فسَّرها بأن الزهد يدل علىٰ أن هناك مطالعة من الإنسان لشيء آخر غير الله ومن ثم زهد به ، فكان الأولىٰ به أن لا يكون عنده شيء يستحق الزهد(١) ، وهو أقرب للمعنىٰ والسياق من ضبطها (خشية) ، وتفسيرها بأنها إمعان في الخشية من المسؤولية أمام بارئهم (٢) ، أو خوفهم من تكدير ما حصل لهم من الأنس والقرب بالتفاتهم إلىٰ ما سوىٰ الله (٣).

وقال في الرجاء : «أضعف منازل المريدين ، وهو وقوع في الرعونة في مذهب الطائفة»(٤) ، منزلة الرجاء معروفة عند عامة المسلمين وخاصتهم ، وكلامه هنا يهوِّن من شأن الرجاء، لذا قال ابن القيم: شيخ الإسلام - الهروي - حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه - ثم قال - : هذا ونحوه من الشطحات التي ترجىٰ مغفرتها بكثرة الحسنات.. ثم قال : وهذه الشطحات أوجبت فتنة علىٰ طائفتين من الناس(٥) ، وهو يشير بهذا إلىٰ تقويم ونقد طوائف الصوفية

(خسَّة) ، وفي التمكين شرح منازل السائرين للحسيني ص٦٤ (خشية) ، وكل منهم شرحها حسب ضبطه لها ، وقد جاءت مثل هذه العبارة عن الهروي في منزلة الصفاء : «ويطوي خسّة التكاليف» منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٤.

(١) شرح منازل السائرين للإسكندري ٤٧.

(٢) التمكين ٦٦.

(٣) المدارج ٢/ ١٥.

(٤) منازل السائرين ٣٣ ، المدارج ٢/ ٣٧.

(٥) المدارج ٢/ ٣٧ـ٣٩.

عند من رفضهم جملة ومن قبلهم جملة ، وغفل عن التفصيل والعدل فيهم ، ثم رد علىٰ رعوناتهم في تفسير هذه المنزلة (١).

وقال في التوكل : «هو من أصعب منازل العامة عليهم»(٢)؛ لأنهم ما زالوا - عنده - يعيشون تحت رق الأسباب ، وقد تقدم موقفه من الأسباب قريباً ، وسوف يأتي له زيادة في مبحث منزلة التوكل.

ثم قال عن التوكل : «أوهىٰ السبل عند الخاصة»(٣) ، والصحيح أنه من أعظمها وأجلها وأفضلها كما بين ذلك ابن القيم في حديثه عن هذه المنزلة(٤).

ومثل ذلك قوله في الدرجة الثالثة : «التوكل.. الخلاص من علة التوكل»(٥)، وهي تعني قطع الأسباب والطلب كما هو مذهبه في الفناء عن رؤية الأشياء ، ثم اجتهد ابن القيم في البحث عن احتمالات أخرىٰ يراها تليق بما يعرفه من حال الهروي(٦).

وقال في الصبر : «وهو من أصعب المنازل علىٰ العامة ، وأوحشها في

---

(١) المدارج ٢/ ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) منازل السائرين ٣٣ ، المدارج ٢/ ١٢٧.

(٣) وقال عنه : «إن التوكل في طريق الخاصة عمى عن التوحيد ورجوع إلى الأسباب» ، مدارج السالكين ٣/ ٤٧٨ ونحوه في ٣/ ٤٩٤.

(٤) انظر : المدارج ٢/ ١١٢ ـ ١١٣.

(٥) منازل السائرين ٣٤ ، المدارج ٢/ ١٣٥.

(٦) انظر : المدارج ٢/ ١٣٧.

طريق المحبة ، وأنكرها في طريق التوحيد»[1] ، لما يشتمل عليه من دعوىٰ تصادم التوحيد - بزعمهم - فهو بهذا الاعتبار يرد الأشياء لنفسه والأصل أن يردها لله ، قال ابن القيم وهو منكر كلامه : «بل الصبر آكد المنازل في طريق المحبة وهم أحوج إليه من كل منزلة ، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد»[2].

وقال في الشكر : «وهو أيضاً من سبل العامة»[3] ، قال ابن القيم : يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل ، بل الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه صلىٰ الله عليهم وسلم أجمعين أخص خلقه وأقربهم إليه [4].

وقال في المحبة : «إنها عقبة ينحدر منها علىٰ منازل المحو»[5] ، المعروف أن المحبة منزلة يتنافس عليها المتنافسون وإليها شخص العاملون ، فهي غذاء الأرواح وقرة العيون ، وهي أحد أركان العبادة ، وقد بسط الحديث فيها ابن القيم في المدارج[6] وغيره ، واعتبارها عقبة بخس لمنزلتها من الدين ، كيف

---

(١) منازل السائرين ٣٨ ، المدارج ٢/ ١٦١.

(٢) المدارج ٢/ ١٦٢.

(٣) منازل السائرين ٤١ ، المدارج ٢/ ٢٤٧.

(٤) المدارج ٢/ ٢٤٩.

(٥) منازل السائرين ٧١ ، المدارج ٣/ ٣٣ وتقدم التعليق عليها في الكلام عن توحيد المعرفة والإثبات.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٦ ـ ٣٠.

وقد ختم كلامه - بالمحو - الذي يعد في بعض احتمالاته زندقة واتحادية[1].

وقال في التلبيس : «تلبيس الحق سبحانه بالكون علىٰ أهل التفرقة ، وهو تعليقه الكوائن بالأسباب»[2] ، لخطورة هذا الكلام وكونه غاية في النكارة قال ابن القيم : «ولعمر الله لقد كان في غنية عن هذا الباب وعن هذه التسمية ، ولقد أفسد الكتاب بذلك»[3] ، ونقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول عن الهروي : (عمله خير من علمه) ، ثم قال - وصدق رحمه الله - : فسيرته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أهل البدع لا يشق له فيها غبار - إلىٰ قوله -: وقد أخطأ في هذا الباب لفظاً ومعنىٰ ، أما اللفظ فتسمية حق الله سبحانه (تلبيساً) ، ومعاذ الله من الرضىٰ بها والإقرار عليها والذب عنها والانتصار لها ، ونحن نشهد أن هذا تلبيس علىٰ شيخ الإسلام فالتلبيس وقع عليه[4] ، ثم شرع الإمام ابن القيم في بيان الحق ودحض الباطل صريحاً في موقفه من ذلك[5] ، وصلة ذلك بالألوهية ، وما للأسباب من منزلة ، فبها عُرِف الله وبها عُبِد وأُطيع ، وتقرب إليه المتقربون ، وأقاموا دعوته ، وبها أرسل رسله وشرائعه[6] ، وهنا قال

(١) انظر : المدارج ٣/ ٣٤.

(٢) منازل السائرين ١٠٦ ، المدارج ٣/ ٣٩٤.

(٣) المدارج ٣/ ٤٠٠.

(٤) المدارج ٣/ ٣٩٤ ، وانظر : ٣/ ٤٠٠ ، ٤٠٦.

(٥) المدارج ٣/ ٣٩٨ ، ٤٠٩.

(٦) المدارج ٣/ ٤٠٨.

ابن القيم : «ويا لله ما أجهل كثيراً من أهل الكلام والتصوف حيث لم يكن عندهم تحقيق التوحيد إلا بإلغائها و محوها وإهدارها بالكلية ، وهذا غاية توحيدهم الذي يحومون حوله ويبالغون في تقريره»(١).

وقال في التوحيد عن إشارة المحققين أنهم قصدوا : «تصحيح التوحيد وما سواه من حال أو مقام ، فكله مصحوب بالعلل»(٢) ، قوله : مصحوب بالعلل إشارة إلىٰ الرجاء والخوف والتوكل وفيما مضىٰ إشارة إلىٰ نظرته لهذه المنازل، والجمع والفرق وصلته بترك الأسباب ، والجمع الصحيح وعلاقته بتوحيد الألوهية(٣) ، واليقين وصلته عنده بترك الأسباب(٤).

رابعاً : القضاء والقدر :

القضاء والقدر في منازل السائرين

لقد كان لمنزلة الفناء عند الهروي أثره علىٰ النظر إلىٰ الأسباب ، فهو يبالغ في نفيها وعدم التعلق بها ، والتأكيد علىٰ مشاهدة الحقيقة الكونية التي ينعدم فيها دور العقل في التفريق بين الحسن والقبيح ، وللقول بالفناء ونفي الأسباب لوازم شنيعة ، منها : القول بنفي الحكم ، والتعليل ، والقول بالجبر ، وإن كان الهروي لم يصرح بذلك؛ لكن من يوافقه من الجهمية(٥)

---

(١) المدارج ٣/ ٤٠٩.

(٢) منازل السائرين ١١٠ ، المدارج ٣/ ٤٤٣ ، ٤٧٩.

(٣) المدارج ٣/ ٥٠٩.

(٤) المدارج ١/ ٥١٩.

(٥) الجهمية : فرقة ضالة تنسب إلى الجهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته

والأشاعرة[١] هو مقتضىٰ ما توصلوا إليه من نفي الأسباب ، وإلغاء دور العقل ، ونفي الحكم والعلل والقول بالجبر ، وهذا ما سوف يتضح من ثنايا حصر مزالقه في المنازل والمقامات :

قال في التوبة : «إن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة»[٢] .

قال ابن القيم : «إن أُخِذَ علىٰ ظاهره فهو من أبطل الباطل الذي لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين لنسب إلىٰ لازم هذا الكلام»[٣] ، والحكم يريد به المشيئة الشاملة العامة الموجبة ، وهذا أصل قول القدرية[٤] الجبرية المنكرين للحكم والتعليل والأسباب ، وتحسين

بترمذ ، وقد قتله مسلم بن أحوز سنة ١٢٧هـ ، وهو تلميذ الجعد بن درهم ، وتتفق هذه الفرقة مع المعتزلة بنفي الصفات ، ومن أقوالهم القول بالقدرة الحادثة ، وأن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، والقول بفناء الجنة والنار ، وأن الإيمان هو المعرفة فقط ، والكفر هو الجهل فقط.

انظر : : الملل والنحل ١/ ٨٦ ، الفصل ٤/ ٢٠٤ ، الفرق بين الفرق ١٢١.

(١) الأشعرية : إحدى الفرق التي ضلت في أبواب الاعتقاد كالقول بالجبر ونفي العلل والحسن والقبح ونفي الصفات سوى سبع ، وأن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وأن الأقوال والأعمال فروعه ، وهي تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي رجع عن تلك الأقوال. انظر : : الفصل ٥/ ٧٧ ، الملل والنحل ١/ ٩٤ ، رسالة المقدسي في الرافضة ١٦٦ ، الفرق بين الفرق ٢٣٩.

(٢) منازل السائرين ص٩ ، المدارج ١/ ٢٢٧.

(٣) المدارج ١/ ٢٢٧.

(٤) القدرية : سموا بذلك لقولهم بأن العبد يخلق فعله بنفسه ، حيث أثبتوا خالقاً مع الله فشابهوا

العقل وتقبيحه(١) ، ثم أطال ابن القيم في الرد علىٰ أصحاب هذا المذهب ، وأشار إلىٰ رده في بعض كتبه مع التعرض إلىٰ من يقابلهم من المعتزلة في الطرف الثاني ، وتوسُّط أهل الحق في ذلك(٢) ، وقد أشار إلىٰ أن الهروي ممن يميل إلىٰ القدر ويفنىٰ في شهوده(٣).

وقال في الصدق : «وإن كان العبد كسي ثوباً معاراً فأحسن أعماله ذنب ، وأصدق أحواله زور»(٤) ، فيه إشارة إلىٰ ملاحظة المشيئة والحقيقة الكونية ، وأنه لا ينسب إلىٰ الإنسان فعل ، فأفعاله موافقة القدر طاعة كانت أو معصية ، وإن كان لابن القيم تأويل يوجِّه به كلام الهروي(٥) ، مع أن كلام الهروي يشير إلىٰ أن الإنسان آلة ومجرىٰ للمشيئة ، وليس له اختيار أصلاً.

وقال في التلبيس : «تلبيس الحق علىٰ أهل التفرقة بتعليق الكوائن بالأسباب»(٦).

المجوسية ، وزعموا أن الله لا يقدر على أفعال العباد ، وهذا هو مذهب المعتزلة ، وهم دركات أشدها نفاة العلم عن الله تعالى. انظر : : الملل والنحل ١/ ٤٣ ، الفرق بين الفرق ٢٠٢-٢٠٤

(١) انظر : المدارج ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر : المدارج ١/ ٢٣٠.

(٣) انظر: المدارج ١/ ١٨٨، وهذا الشهود مذموم ناقص لأن صاحبه يعذر أعداء الله في صنيعهم.

(٤) منازل السائرين ص٤٣ ، المدارج ٢/ ٢٨٣.

(٥) انظر : المدارج ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧.

(٦) منازل السائرين ص١٠٦ ، المدارج ٣/ ٣٩٤.

تقدم الكلام عن التلبيس فيما يتعلق بالربوبية والألوهية ، وعلاقته هنا بتسمية الأسباب تعمية وتلبيساً علىٰ الخلق ، فهو لا يرىٰ أن لها أثراً ولا فائدة ، وإنما يتعلق بها أهل التفرقة عن رؤية الحق ، وفي هذا من الخلط والتلبيس منه وعليه ما لا يخفىٰ ، ولقد سبقت الإشارة إليه في المواضع الآنفة الذكر(١).

وقال في التوحيد : «وهو توحيد الخاصة وهو إسقاط الأسباب الظاهرة»(٢).

وهو بهذا مشاهدٌ سبق الحكمة ، والصحيح أن هذا ليس توحيداً ، وإسقاط الأسباب هو توحيد الجبرية القدرية أتباع جهم بن صفوان في الجبر ، فإنه كان غالياً فيه ، وعندهم أن الله لم يخلق شيئاً بسبب ، ولا جعل في الأسباب قوىٰ وطبائع تؤثر(٣) ، ومثله قوله : «وعن التعلق بالشواهد»(٤) ، والشواهد هي الأدلة ، وإنكار الأسباب يؤدي إلىٰ الفناء في التوحيد(٥).

وقوله : «ويصفو في علم الجمع ويجذب إلىٰ توحيد أرباب الجمع»(٦) ، ويريد هنا النظر إلىٰ من صدرت عنه المتفرقات ، وأسوأ أنواع هذا الجمع جمع الوجود الذي هو جمع وحدة الوجود ، والذي يقابل الجمع الفرق ، وهو

---

(١) وانظر : المدارج ٣/ ٣٩٥ـ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧.

(٢) منازل السائرين ١١١ ، المدارج ٣/ ٤٩٤.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٤٩٥ .

(٤) منازل السائرين ١١١ ، المدارج ٣/ ٥٠٢.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٥٠٢.

(٦) منازل السائرين ١١٢ ، المدارج ٣/ ٤٩٤.

يعني في بعض أقسامه الفرق المتعلق بمسائل القضاء والقدر ، والتمييز بين أفعال الله وأفعال العباد ، فمع الإيمان بأن كل شيء واقع بمشيئة الله وقدرته وخلقه فإن للعبد فعلاً علىٰ الحقيقة[1] ، أما من غابوا بأفعالهم وحركاتهم عن فعل الرب وقضائه وقدره فهم القدرية ، ومن غاب بفعل الرب وتفرده بالحكم والمشيئة عن أفعالهم وحركاتهم فهم الجبرية.

وقال في اليقين : «وعلىٰ اليقين أن يداخله سبب»[2] ، فهذا مبالغة في إنكار الأسباب والصحيح خلاف ذلك ، فقطع الأسباب عن أن تكون أسباباً والإعراض عنه زندقة وكفر محال[3].

الأخطاء الواقعة في تعريف المقامات والاستدلال بها

خامساً : ما وقع فيه من أخطاء في بعض المقامات السلوكية والاستدلال :

جعل الهروي ترتيب المقامات سُلَّماً يصعد عليه السالكون إلىٰ التربية الخلقية وتهذيب النفوس ، وهي تتحقق بجهد يبذله السالك ومعاناة ومجاهدات ، فلا يصح له الانتقال من مقام إلا بعد إكمال جميع المستويات التي يتضمنها المقام الذي قبله ، وعلىٰ هذا قال الهروي : «اتفقوا علىٰ أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات»[4] ، ولقد خالفه شيخ الإسلام في ذلك

---

(١) انظر : المدارج ٣/ ٥٠٧.

(٢) منازل السائرين ص٥٣، مدارج السالكين ٣/ ٥٠٨.

(٣) انظر : المدارج ١/ ٥١٩.

(٤) منازل السائرين ٦ ، وانظر : اللمع ٣٨٠.

واعترض علىٰ هذه القاعدة فقال: «العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية»[١] ، وقد فرّقوا بين المقامات والأحوال ، فإن الحال عندهم معنىٰ يرد علىٰ القلب من غير اجتلاب واكتساب[٢] ، فهم يرون أن الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود[٣]، ويرىٰ بعضهم أنها تجمع بين الفضل الإلهي والكسب كما في عوارف المعارف[٤].

ويُعد كتاب المنازل أشهر كتاب عُني بهذا الترتيب الشامل ، ومع هذا خالف الصواب بجعل بعض المقامات معلولة ، مثل : الزهد والصبر والتوكل والشكر وغيرها ، وجعل بعض العوارض مقاماً ومنزلة وهي عوارض كالحزن ، والدهش ، والهيمان [٥] ، وتكلُّف في الاستدلال لبعض ما سماه مقاماً مثل : البسط ، الرضىٰ ، الذوق ، وحصل تداخل بين المنازل مثل الشوق والقلق والنفس والجمع والمشاهدة ، واعترض عليه ابن القيم في ترتيب المنازل بعامة[٦].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٣٠٤، ١٥/ ٥٥.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ١٢٤ ، اللمع ٦٦ ، ٤١١.

(٣) الرسالة القشيرية ١٢٤.

(٤) انظر : عوارف المعارف آخر الإحياء ٥/ ٣٢٠ ، اللمع ٤١١ ، المدارج ٢/ ١٧١.

(٥) انظر : مخالفة شيخ الإسلام له في الفتاوى ١٠/ ٣٥ ، وابن القيم في طريق الهجرتين ٣٠٥ - ٤٧٩.

(٦) انظر : المدارج ١/ ١٣٨ ٢/ ٣٥١-٣٥٤ ومن أظهر المخالفات زيادة ابن القيم لمنزلة المروءة

وبعد هذا الإجمال سوف يكون الحديث مفصلاً عن كل ما سبقت الإشارة إليه ، وقد تقدم أن المنزلة الواحدة قد يجتمع فيها الخطأ العقدي والسلوكي والاستدلال.

قال في الزهد : «وهو للعامة خسَّة»(١) ، هذا تعريفه عند الهروي ولكن منزلته من الشريعة فوق ذلك ، وأعلاها الزهد بما حرم الله ثم الزهد بالمتشابه بالكماليات الملهية التي من غرق في بحرها أثقلته عن السير إلىٰ الدار الآخرة(٢).

وقال في الرغبة : «الرغبة سلوك علىٰ التحقيق»(٣) ، فجعل الرغبة محققة ، والرغبة طمع في مغيب مشكوك فيه ، وهذا تفريق بين متماثلين ، فإن كلاًّ منهما طلب غائب غير مقطوع به ، ولا مجزوم بحصوله(٤).

وقال في التفويض : «وهو أوسع معنىٰ من التوكل»(٥) ، فإنه جعل التوكل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده ، وجعل التوكل شعبة من

وليست عند الهروي ، كما سبقه إلى هذا الاعتراض على تقسيم المنازل شيخ الإسلام في الفتاوى ١٣/ ٢٢٩ ، ١٠/ ٤٩٧ـ٤٩٨.

(١) منازل السائرين ٢٣ ، المدارج ٢/ ١٥ ، وتقدم التعليق على هذا اللفظ من حيث علاقته بالألوهية في توحيد القصد والطلب ١٦٨١.

(٢) انظر : المدارج ٢/ ١٥ وما بعدها.

(٣) منازل السائرين ٢٧ ، المدارج ٢/ ٥٦.

(٤) انظر : المدارج ٢/ ٥٦.

(٥) منازل السائرين ٣٥ ، المدارج ٢/ ١٣٧.

التفويض ، حيث قال : بأن التفويض في كل شيء والتوكل في المصالح ، والأقرب تقديم التوكل علىٰ التفويض ، حيث ورد في القرآن أمراً وإخباراً عن خاصة أولياء الله وصفوة المؤمنين بأن حالهم التوكل ، وإنما ورد التفويض فيما حكاه الله عن مؤمن آل فرعون : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر : ٤٤] ، واتخاذ الله وكيلاً هو محض العبودية وخالص التوحيد فهو أوسع من التفويض وأعلىٰ وأرفع[١].

واستدل للرضىٰ بقوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[٢][الفجر : ٢٧ - ٢٨] ، قال ابن القيم : «هذا تعلق بإشارة الآية لا بالمراد منها فإن المراد منها رضاها بما حصل لها من كرامته ، وبما نالته عند الرجوع إليه[٣]».

وجعل الرضىٰ بداية في قوله : «وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص»[٤].

والصحيح أنه غاية يُسعىٰ إليها وليس فوقه إلا الشكر فهو بمنزلة بين الصبر والشكر[٥].

وقال في الشوق : «إنما الشوق يكون إلىٰ الغائب ، ومذهب هذه الطائفة

---

(١) المدارج ٢/ ١٣٩.

(٢) منازل السائرين ٣٩ ، المدارج ٢/ ١٧١ .

(٣) المدارج ٢/ ١٧٨.

(٤) منازل السائرين ٤٠ ، المدارج ٢/ ١٨٠ .

(٥) انظر : المصدر السابق.

إنما قام على المشاهدة»[1] ، والصحيح أن المشاهدة لا تزيل الشوق؛ لكن هذا على اعتقادهم بأن السائر لم يصل ، فإذا وصل سقط الشوق ، وهذا خلاف حال الواصلين إلى الجنة فهم في مزيد شوق ليوم الجمع - يوم المزيد - وهم في مزيد شوق إلى رؤية الله تعالى[2] ، أما استدلاله بالآية ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ﴾ [العنكبوت:٥] ، فهو بهذا جعل الرجاء شوقاً ، وهو خلاف التفسير[3].

وقال في الطمأنينة : «سكون يقويه أمن صحيح»[4] ، حيث جعل السكينة تولد الطمأنينة ، والذي أشار إليه ابن القيم أنه إن لم يكن بينهما تلازم فإن الطمأنينة أقوى في استلزامها للطمأنينة وليس العكس فإن الطمأنينة أعم[5].

وقال في الحزن : «حزن العامة... وحزن أهل الإرادة»[6] ، والملاحظ أنه لم يجعل للخاصة من نصيب ، والصحيح أن الحزن ليس من المنازل المطلوبة ولا المأمور بنزولها ، ولم يرد في القرآن إلا منهياً عنه أو منفياً ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩] ، وقال : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾

(١) منازل السائرين ٧٣ ، المدارج ٣/ ٥٥.

(٢) انظر : المدارج ٣/ ٥٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) منازل السائرين ٦٨ ، المدارج ٢/ ٥١٤.

(٥) انظر : المدارج ٢/ ٥١٥.

(٦) منازل السائرين ١٩ ، المدارج ١/ ٥٠٨.

[النحل:١٢٧] ، وقوله : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] ، وذلك لأنه لا مصلحة فيه للقلب بل هو من أحب الأشياء إلىٰ الشيطان : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[المجادلة: ١٠] ، ونهىٰ رسول الله ﷺ عن النجوىٰ بين الاثنين دون الثالث لأن ذلك يحزنه[١].

ومثل ذلك قوله في الدهش : «دهشة السالك عن صولة الجمع علىٰ رسمه»[٢] ، واستدل لذلك بقصة يوسف لما دخل علىٰ النسوة : ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف :٣١] ، وليست منزلة الدهش مما يعد مغنماً للسالك ، فهي ذهول وضعف ، فهي ليست من المقامات والمنازل؛ بل غيبة وفناء عن الذات[٣].

وقال في التلبيس: قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٤] [الأنعام: ٩] ، قال ابن القيم : «ليته لم يستشهد بهذه الآية في هذا الباب ، فإن الاستشهاد بها علىٰ مقصوده أبعد شاهد عليه – أي قوله – فإن معنىٰ الآية غير ما عقد له الباب من كل وجه ، فالتلبيس ليس منزلة والاستدلال بهذه الآية غير وجيه»[٥].

---

(١) الحديث : أخرجه البخاري. الاستئذان ٤/ ١٥٠ ح ٦٢٩٠ ، مسلم. السلام ٤/ ١٧١٨ ح ٢١٨٤ ، أحمد ٢/ ٤٥.

(٢) منازل السائرين ٧٧ ، المدارج ٣/ ٧٧ .

(٣) انظر : المدارج ٧٥ .

(٤) منازل السائرين ١٠٦ ، المدارج ٣/ ٣٩٢.

(٥) انظر : المدارج ٣/ ٣٩٢-٣٩٨.

وقال في الصفاء : «ويطوي خسَّة التكاليف»[١] ، فهذا تعبير قبيح كما قال ابن القيم : «فوالله إنه لأقبح من شوكة في العين ، وشجىً في الحلق ، وحاشا التكاليف أن توصف بخسَّة أو تلحقها خسَّة ، وإنما هي قرة عين وسرور قلب»[٢].

وقال في الشوق : قال تعالىٰ : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[٣] [طه:٨٤] ، فكأنه جعل حامل موسىٰ علىٰ العجلة القلق، وهذه مداخلة بين الشوق والقلق، والصحيح أن حامل موسىٰ علىٰ ذلك هو طلب الرضىٰ ، والعجلة في تحقيق أمره ، والمسارعة لعبادته[٤] ، ثم يدخل العطش علىٰ القلق[٥] ، فإنه إذا زاد القلق صار عطشاً ، واستشهد لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦] ، فهو أخذه من الآية إشارة إلىٰ شدة العطش إلىٰ لقاء المحبوب ، وهم قوم مولعون بالإشارات[٦].

وقال في البسط : قال تعالىٰ : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾[٧] [الأعراف: ١٥٥] ، قال ابن القيم : «وقد غلط صاحب المنازل

---

(١) منازل السائرين ٨٣ ، المدارج ٣/ ١٥٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) منازل السائرين ٧٥ ، المدارج ٣/ ٥٩.

(٤) انظر : المدارج ٣/ ٥٩ .

(٥) انظر : منازل السائرين ٧٥ ، المدارج ٣/ ٦١.

(٦) انظر : المدارج ٣/ ٦١.

(٧) منازل السائرين ٩٦ ، المدارج ٢/ ٣٥٤.

حيث صدرها بهذه الآية ، وهو وهم وخلاف المقصود ، إذ الفتنة هنا الامتحان والاختبار ، فلا علاقة لها بالانبساط»[١].

وقال في الهيمان : «ذهاب عن التماسك تعجباً أو حيرة وهو أثبت دواماً من الدهش»[٢] ، وهو ما يحدث للسالك من الواردات لفرط التعجب ، والاستحسان يزيل تماسكه ، وهذا في الحقيقة ليس مقاماً ولا منزلاً للسائرين، فإن الثبات مقدم علىٰ الاضطراب ، وحيث إن هذا الاسم لم يرد في الشرع فقد تكلف له بالاستدلال إذ جعل قصة موسىٰ ﷺ لما خرَّ صعقاً شاهداً لهذا وهو يرجع إلىٰ منهجهم في الاستدلال الإشاري[٣].

وقال في الذوق : قال تعالىٰ : ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [ص: ٤٩] ، قال ابن القيم : «في تنزيل هذه الآية علىٰ الذوق صعوبة»[٤].

وقال في الوقت : «حينُ وجدٍ صادق ، يكون متعلقه إيناس ضياء فضل»[٥] ، يريد بذلك صدق الواحد لرؤية فضل الله ومنته في ذلك الوقت ، ثم استدل لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩] ، وهذا كلف في الاستدلال.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) منازل السائرين ٧٨ ، المدارج ٣/ ٧٩.

(٣) انظر : المدارج ٣/ ٧٩.

(٤) منازل السائرين ٧٩ ، المدارج ٣/ ٨٩.

(٥) منازل السائرين ٨٢ ، المدارج ٣/ ١٣١.

وقال في الصفاء: «صفاء اتصال، يطوي خسَّة التكاليف في عين الأزل»[1]، قوله: «خسَّة التكاليف»، قد يكون له تفسير غير ما ظهر؛ لكن هذه الكلمة محصلتها التهوين من شأن العمل، وقوله في عين الأزل مدخل للجبرية الذين ينظرون إلىٰ عموم المشيئة عند تقويم الأعمال، فلا يرون طاعة ولا معصية فالكل مطيع للقدر، لذا قال ابن القيم: «في هذا اللفظ قلق وسوء تعبير... وقال: فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها»[2]، وقال: «ليت الشيخ عبر عن هذه اللفظة بغيرها، فوالله إنها لأقبح من شوكة في العين»[3].

وفي (النَّفَس[4]، والجمع[5]، والمشاهدة، والقبض[6]، والسكر[7]).

اشتملت هذه المقامات والأحوال علىٰ أخطاء في الاستدلال، وتداخل في الأسماء، وخلط بين العوارض والمقامات، والمنازل والأحوال، كان له أثر في سلوكهم وعباداتهم، لذا قال ابن القيم: «هم في الإرادة والسلوك نظير المعتزلة والجهمية، ومن سلك سبيلهم في باب العلم والخبر عن أسماء الله

---

(١) منازل السائرين ٨٣، المدارج ٣/ ١٥٠.

(٢) المدارج ٣/ ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣) المدارج ٣/ ١٥٤.

(٤) منازل السائرين ٨٦، المدارج ٣/ ١٩٠.

(٥) منازل السائرين ١٠٩، المدارج ٣/ ٤٢١.

(٦) منازل السائرين ٩٦، المدارج ٣/ ٢٩٢.

(٧) منازل السائرين ٩٧، المدارج ٣/ ٣٠٥.

وصفاته»[١] ، ولعل من أسباب هذا الاضطراب والغموض والإيهام والرمزية في التعبير هو أنهم حاولوا أن ينقلوا تجربتهم النفسية إلىٰ الآخرين بلغة الأشياء المحسوسة؛ لذا بدا كلامهم غريباً علىٰ السامعين ، واشتد الإنكار عليهم من الآخرين[٢] ، وقال الدكتور إبراهيم بسيوني : ولكي تؤدي الكلمة وظيفتها عندهم حملوها من الشحنات النفسية ما جعلها بعيدة الغور ، مديدة الأبعاد ، حتىٰ تليق بالموقف الذي هم عليه في الوقت ، كالوجد والفقد والهيبة والأنس والتجريد والتفريد والوقفة والفترة والسحق والمحق واللوائح والطوالع واللوامع والبواده والرهبة والاصطدام والوله ، ونحو ذلك من المصطلحات التي يخلص الواحد منها موقف نفسي[٣].

فإن دلالتها تختلف عما يريدون ، وعليه فلا يستطيع تفسيرها كما يريدون إلا هم لخاصتهم ، أو من خاض نفس التجربة في مرحلة من المراحل ، ولعل ابن القيم وقع له شيء من ذلك ، كما في حديثه عن الخلوة والعزلة والوارد والأنس ، والبهجة والقبض والبسط والفناء والبقاء ، فقد استخدم لغة صوفية مليئة بالمصطلحات التي تُشعر القارئ أنه يقرأ في كتاب صوفي[٤] ، لذا لم تعد

---

(١) المدارج ٣/ ٤٣٦.

(٢) المدخل إلى التصوف ١٦٦ ، اللمع ٤١٤.

(٣) نشأة التصوف الإسلامي ١٧١.

(٤) انظر أمثلة ذلك في المدارج ٣/ ٣٧٩ ـ ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، وانظر نهيه عن الاستعجال في الإنكار ٢/ ٤٠٥.

الحواس الطبيعية كافية في إيصال المراد للمخاطب فاللسان غير مجدٍ، وإنما يستبدل بمخاطبة الضمير للضمير بوسائل تعتمد الشفافية والرمزية والإشارة(١).

* * *

(١) انظر : المدخل إلى التصوف الإسلامي ١٧٦ .

القسم الثاني

تحقيق كتاب مدارج السالكين

من أول منزلة الاستقامة إلىٰ آخر منزلة الأنس

فصل

منزلة الاستقامة

ومن منازل «إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين» منزلة: «الاستقامة»[١].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤] وقال لرسوله ﷺ[٢]: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ [إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ][٣]﴾ [هود: ١١٢].

فبيَّن أن الاستقامة بعدم[٤] الطغيان، وهو مجاوزة الحدود[٥].

---

(١) منزلة الاستقامة: معلومة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن ذلك ما نقله ابن القيم، وحيث إن المنازل يعدُّ من كتب الصوفية فإن التعريف بكل منزلة سوف يكون من كلامهم في مصادرهم. قال السلمي: «والاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده». وقال الواسطي: «الخصلة التي كملت بها المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن: الاستقامة». الرسالة القشيرية ٣١١، وانظر: لطائف الإعلام ١/ ٢٠١، معجم مصطلحات الصوفية ١٦.

(٢) (ﷺ) سقطت من ق.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٤) غ، ط (ضد).

(٥) في م، أ، غ، ح٢، ب زيادة (في كل شيء).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾(١) [فصلت :٦].

تعريف الاستقامة والأقوال المأثورة فيها

سُئل صدِّيق الأمّة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عن الاستقامة فقال: «أن لا تشرك بالله شيئاً»(٢) يريد الاستقامة علىٰ محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب(٣) - رَضي الله عنه - : «الاستقامة: أن تستقيم(٤) علىٰ الأمر والنهي ، ولا تروغ(٥) روغان الثعالب»(٦).

وقال عثمان بن عفان(٧) - رضي الله عنه - : «استقاموا: أخلصوا العمل

---

(١) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة آية وهي قوله تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً * لِنفتنهُم فيه﴾ [الجن: ١٦-١٧] وفي ق إلى قوله: ﴿غدقاً﴾ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ ، الدر المنثور ٧/ ٣٢٢ ونحوه عند ابن كثير ٣/ ١١٦ .

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل ، يكنى أبا حفص ، الملقب بالفاروق ، صاحب رسول الله ﷺ ، أول من جهر بالإسلام ، والخليفة الثاني أمير المؤمنين رضي الله عنه ، مناقبه ومواقفه لا تحصر توفي ٢٣هـ وخلافته كانت عشر سنين . حلية الأولياء ١/ ٣٨ ، الاستيعاب ٣/ ١١٤٤ ، البداية والنهاية ٧/ ١٣٠ ، الإصابة ٤/ ٢٧٩ ، أسد الغابة ٤/ ٥٢.

(٤) في ق (أن يستقيم).

(٥) في غ (و أن لا تروغ).

(٦) الرسالة القشيرية ٣١٢ بلفظ (لم يرغوا).

(٧) عثمان بن عفان الملقب بذي النورين رضي الله عنه وأرضاه ، صاحب رسول الله ﷺ ، مبشر بالمحن ، كريماً سخياً ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، توفي مقتولاً سنة ٣٥هـ/ طبقات

لله»[1].

وقال علي بن أبي طالب[2] رَضي الله عنه، وابن عباس[3] - رَضي الله عنهما - : «استقاموا: أدوا الفرائض»[4].

وقال الحسن[5] : «استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته»[6].

ابن سعد ٣/ ٥٣، البداية والنهاية ٧/ ١٧٦، تاريخ البخاري ٦/ ٢٠٨، الإصابة ٤/ ٢٢٢، حلية الأولياء ١/ ٥٥.

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٤.

(٢) علي بن أبي طالب الخليفة الرابع ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته، وأول من أسلم من الصبيان، إمام عادل ومجاهد صابر، توفي في رمضان سنة ٤٠ هـ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. الإصابة ٤/ ٢٦٩، البداية والنهاية ٧/ ٢٢٣، حلية الأولياء ١/ ٦١، الكواكب الدرية ١/ ٩٧، تاريخ بغداد ١/ ١٣٣.

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، حبر الأمة، وفقيه العصر وإمام التفسير، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، صحب رسول الله ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً، توفي سنة ٦٧هـ. طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٥، التاريخ الكبير ٥/ ٣، حلية الأولياء ١/ ٣١٤ أسد الغابة ٣/ ٢٩٠، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١١٤، الدر المنثور ٧/ ٣٢٢، ابن كثير ٣/ ١١٦.

(٥) الحسن البصري ابن أبي الحسن، يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري سيد زمانه في العلم والورع، توفي سنة ١١٠هـ/ سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ ونحوه في الدر المنثور ٨/ ٣٠٥.

وقال مجاهد [1]: «استقاموا علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله حتىٰ لحقوا بالله» [2].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية [3] يقول: استقاموا علىٰ محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة [4].

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله [5] قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم» [6].

---

(١) مجاهد بن جبر شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، روى عن ابن عباس وأبي هريرة وغيرهم، وعنه عكرمة و عطاء وطاوس وغيرهم، توفي سنة ١٠٣هـ وقيل ١٠٨/ طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٦٥، حلية الأولياء ٣/ ٢٧٩، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩.

(٢) ذكر أوله السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٣٣٢، وعزاه البغوي في تفسيره لابن عباس ٤/ ١١٤.

(٣) في م، أ، غ، ح٢، ب، ق (قدس الله روحه). هو أحمد بن عبد الحليم ابن الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن تيمية الحراني ولد سنة ٦٦١هـ وهو العالم المجتهد المعروف. كانت له جهود متعددة في التأليف والجهاد والدعوة، توفي سنة ٧٢٨هـ. انظر العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، فوات الوفيات (١/ ٦٢)، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٦).

(٤) الفتاوى ٢٨/ ٣٢ وعزاه لأبي بكر الصديق.

(٥) في ط (رضي الله عنه).

(٦) مسلم الإيمان ١/ ٦٥ ح(٣٨)، الترمذي. الزهد ٤/ ٦٠٧ ح٢٤١٠ بلفظ «حدثني بأمر أعتصم به» وقال: حسن صحيح، الدارمي. الرقاق ٢/ ٢٠٩ ح ٢٧١٤.

وفيه عن ثوبان(١) عن النبي ﷺ قال: «استقيموا، ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ(٢) علىٰ الوضوء إلا مؤمن»(٣).

والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد، فإن لم يقدر(٤) عليها فالمقاربة فإن نزل عنها(٥) فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من(٦) حديث أبي هريرة(٧) عن النبي ﷺ: «سددوا وقاربوا، واعلموا أنه(٨) لن ينجو أحد منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت [يا رسول الله](٩) قال: «ولا أنا إلا أن

---

(١) ق (رضي الله عنه).

(٢) في م، أ، غ، ح٢، ب (يواضب).

(٣) ذكر المؤلف أنه في مسلم، والحديث لم يخرجه مسلم وإنما خرجه الإمام أحمد ٥/ ٢٧٦، ٢٨٢، وابن ماجه في الطهارة ١/ ١٠٢ ح ٢٧٧، والحاكم في المستدرك ١/ ١٣٠ وقال على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٣١١، وقال ابن عبدالبر: الحديث يتصل مسنداً إلى النبي ﷺ، التمهيد (٢٤/ ٣١٨).

(٤) الأصل (تقدر) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق، ط.

(٥) في د (عليها).

(٦) في غ (عن).

(٧) في ق (رضي الله عنه) وهو أبو هريرة، عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الصحابي الجليل، من أكثر الصحابة رواية للحديث، توفي سنة ٥٧ هـ/ طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٢)، الاستيعاب ٤/ ١٧٦٨، حلية الأولياء ١/ ٣٧٦، صفة الصفوة ١/ ٦٨٥، البداية والنهاية ٨/ ١٠٣، سير أعلام ٢/ ٥٧٨.

(٨) في م، أ (أن لن).

(٩) ما بين المعقوفين سقط من م، ح٢، د، ق.

يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١) ، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها ، فأمر بالاستقامة ، وهي السداد ، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا(٢) يطيقونها ، فنقلهم إلىٰ المقاربة ، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم ، كالذي يرمي إلىٰ الغرض، فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي(٣) يوم القيامة، فلا يركن أحد إلىٰ عمله(٤) ، ولا يرىٰ أن نجاته به ؛ بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله ، فالاستقامة كلمة جامعة ، آخذة(٥) بمجامع الدين ، وهي القيام بين يدي الله علىٰ حقيقة الصدق ، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال ، والأفعال ، والأحوال ، والنيات(٦) ،

---

(١) البخاري ، المرضى ٤/ ٣٠ ح ٥٦٧٣ ، مسلم ، صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٩) ح(٢٨١٦) ، أحمد ٢/ ٥٣٧ ، ٣/ ٣٦٢ ومطلعه «قال: قال رسول الله..».

(٢) في أ ، غ ، ب ، د (لن).

(٣) ق (لا ينجي).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، د (ولا يعجب به).

(٥) (آخذة) سقطت من ق.

(٦) قال الكاشاني: الاستقامة «روح تحيا بها الأعمال ، وتزكو بها الأقوال ، وهي ثلاثة أقسام..» ، لطائف الإعلام ١/ ٢٠٠ .

فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلىٰ أمر الله.

قال بعض العارفين: «كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة»[(١)].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله تعالىٰ روحه - يقول: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[(٢)].

فصل

قال صاحب «المنازل»[(٣)] في قوله تعالى[(٤)]: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟[(٥)] إِلَيْهِ[(٦)]﴾ [فصلت:٦] «إنَّه إِشَارَةٌ إِلىٰ عَينِ التَّفرِيدِ[(٧)]»[(٨)].

---

(١) عزاه القشيري لأبي علي الجوزجاني، الرسالة القشيرية ٣١٢ وانظر الفتاوى ١٠/ ٢٩.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٢٩، التحفة العراقية بتحقيق د/ يحيى الهنيدي ص٣٣٥.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د (قدس الله روحه).

(٤) (تعالى)سقط من ط.

(٥) ق (فليستقيموا).

(٦) ش (واستغفروه).

(٧) التفريد: قال الكلاباذي: «أن يتفرد عن الأشكال، ويتفرد في الأحوال، ويتوحد في الأفعال، وهو أن تكون أفعاله لله وحده فلا يكون فيها رؤية نفس، ولا مراعاة خلق، ولا مطالعة عوض»، التعرف ص١٣١، وانظر نحواً من هذا في رشح الزلال ص٩٧، ولطائف الإعلام ١/ ٣٣٧ وهذا له صلة بمبحث الفناء وقد فصل القول فيه شيخ الإسلام في الفتاوى ١٠/ ٣٣٧، وقد تقدم الحديث عنه في تقويم المنازل.

(٨) منازل السائرين ٣٢.

يريد: أنه أرشدهم إلىٰ شهود تفريده، وهو أن لا يروا[(١)] غير فردانيته.

وتفريده نوعان: تفريد في العلم والمعرفة والشهود، وتفريد في الطلب والإرادة، وهما نوعا التوحيد.

وفي قوله: «عَين التَّفرِيدِ» إشارة إلىٰ حال الجمع[(٢)] وأحديته، التي هي عنده فوق علمه ومعرفته، لأن التفرقة قد تجامع[(٣)] علم الجمع، وأما حاله فلا تجامعه التفرقة[(٤)(٥)].

---

(١) ش (يريدوا).

(٢) الجمع : أوله جمع الهمة، وهو أن تكون الهموم كلها واحداً، والذي يعنيه أهله هو أن يصير ذلك حالاً له، وهو أن لا تتفرق همومه، انظر التعرف ١٣٨، وفي لطائف الإعلام قال: إنهم يشيرون بالجمع إلى حق بلا خلق، عكس الفرق، فهو رؤية خلق بلا حق ... وذكر جملة من الأقوال في ١/ ٣٩٢، ورشح الزلال ٧٥ ـ ٧٦ قال الجنيد: «القرب بالوجد جمع، والغيبة بالبشرية تفرقة»، طبقات الصوفية للسلمي ١٥٧ .

(٣) ش (يجامع).

(٤) د (والله سبحانه أعلم).

(٥) التفرقة : مجامعتها لعلم الجمع ممكنة دون حال الجمع ؛ لأن الحال أثبت عندهم من العلم.

قوله: التفرقة قد تجامع علم الجمع دون حاله ... يتضح هذا عند بيان معنى التفرقة، فهي: عقيب الجمع، وهي أن يفرق بين العبد وبين همومه وبين طلب مرافقه وملاذه، فيكون مفرقاً بينه وبين نفسه التعرف ١٣٨، ولها معنى آخر عندهم وهي أنها قبل الجمع، فيكون التقرب إليه بالأعمال تفرقة، فإذا شاهدوه، مقرباً لهم، فهو الجمع، التعرف ١٣٩، وخلاصة ذلك أن صاحب الجمع مثل من على الرابية ينكشف له القريب والبعيد، وصاحب التفرقة مثل من في الوهاد حُجب عنه كل شيء كما سيأتي قريباً في المتن والتفرقة تفريق الخواطر جمعيَّة قلبه.

فصل

قال: «وَ[1] الاستِقَامَةُ: رُوحٌ تحيِى[2] بِهَا[3] الأَحوَال، كَمَا تَرْبُو[4] لِلعَامَّةِ عَلَيهَا الأَعمَالُ، وَهِيَ بَرزَخٌ[5] بَيْنَ وِهَادِ[6] التَّفَرُّقِ[7][8] وَرَوَابِي[9] الجَمعِ[10]»[11].

شبه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك الحال إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد، وكما أن حياة الأحوال بها، فزيادة أعمال الزاهدين أيضاً وربوها[12] وزكاؤها بها،

---

(١) (الواو) ساقطة من ق.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د (يحيى) وفي لطائف الإعلام روح تحيا بها الأعمال (١/ ٢٠٠) وذكر المحقق أن الأصل (تحيى).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب (به).

(٤) ق (تربوا).

(٥) البرزخ: الحاجز بين الشيئين، وهو أيضاً ما بين الدنيا والآخرة، من الموت إلى البعث. مختار الصحاح ٤٨.

(٦) وهاد: المكان المطمئن. مختار الصحاح ٧٣٨ والوهدة: الهوة في الأرض. القاموس المحيط ٤١٨.

(٧) غ (التفرقة).

(٨) التفرق: سبق عند (التفرقة) ص١٧١٠.

(٩) روابي: ربأت الأرض رباء: زكت وارتفعت. لسان العرب ١/ ٨٢.

(١٠) الجمع: سبق ص١٧١٠.

(١١) منازل السائرين ٣٢ بلفظ (أوهاد).

(١٢) ربوُّها، أي: زيادتها، كما هو المعنى في الروابي، سبق.

فلا زكاء للعمل ولا صحة للحال بدونها.

وأما كونها «بَرزَخاً بَينَ وِهَادِ التَّفرُّقِ[١] ، وَرَوَابِي الجَمعِ» فـ«البرزخ»[٢] ، الحاجز بين شيئين متغايرين ، والوهاد[٣] : الأمكنة المنخفضة من الأرض، واستعارها للتفرق ، لأنها تحجب من يكون فيها عن مطالعة ما[٤] يراه مَنْ هو علىٰ الروابي ، كما أن صاحب التفرق محجوب عن مطالعة ما يراه صاحب الجمع ويشاهده.

وأيضاً فإن حاله أنزل من حاله ، فهو كصاحب الوهاد ، وحال صاحب الجمع أعلىٰ ، فهو كصاحب الروابي ، وشبه حال صاحب الجمع بحال من علىٰ الروابي لعلوه ؛ ولأن[٥] «الروابي» تكشف لمن عليها القريب والبعيد ، وصاحب الجمع تكشف له الحقائق المحجوبة عن صاحب التفرقة.

إذا عرف هذا فمعنىٰ كونها برزخاً: أن السالك يكون في أول سلوكه في أودية التفرقة[٦] ، سائراً إلىٰ روابي الجمع ، فيستقيم في طريق سيره

(١) د (التفريق).

(٢) في ط (هو).

(٣) (الوهاد) سقط من د ، ش.

(٤) ح٢ (من).

(٥) الأصل (أن) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٦) ش (التفريق).

غاية الاستقامة ، ليصل باستقامته إلىٰ روابي الجمع ، فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة التي كان فيها ، وبين الجمع الذي يؤمُّه ويقصده ، وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التصرفات ، فإذا عزم علىٰ السفر ، وخرج وفارق البلد ، واستمر علىٰ السير كان طريق سفره برزخاً بين البلد الذي كان فيه ، والبلد الذي يقصده ويؤمُّه.

فصل

قال: «وَهِيَ[1] عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : الاستِقَامَةُ عَلىٰ الاجتِهَادِ فِي الاقتِصَادِ ، لَا عَادِياً رَسْمَ العِلْمِ ، وَلاَ مُتَجَاوِزاً[2] حَدَّ الإِخلاَصِ، وَلاَ مُخَالِفاً نَهْجَ السُّنَّةِ»[3]. درجات الاستقامة الدرجة الأولى

هذه الدرجة[4] تتضمن ستة أمور: عملاً واجتهاداً فيه: وهو بذل المجهود ، واقتصاداً. وهو السلوك بين طرفي الإفراط ، وهو[5] الجور علىٰ النفوس ، والتفريط بالإضاعة ، ووقوفاً مع ما يرسمه العلم ، لا وقوفاً

(١) ح٢ (وهو).

(٢) في منازل السائرين ٣٣ (متجوزاً).

(٣) منازل السائرين ٣٣ .

(٤) غ ، أ (درجة).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (وهو) ساقطة من الأصل.

مع دواعي(١) الحال ، وإفراد(٢) المعبود بالإرادة : وهو الإخلاص ، ووقوع الأعمال علىٰ الأمر ، وهو متابعة السنة.

فهذه(٣) الأمور الستةُ تُتمُّ لأهل هذه الدرجة استقامتَهم ، وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كليًّا ، وإما خروجاً جزئياً.

والسلف(٤) يذكرون هذين الأصلين كثيراً وهما: الاقتصاد في الأعمال ، والاعتصام بالسنة(٥) ، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره(٦) ، فإن رأىٰ فيه داعية للبدعة ، وإعراضاً(٧) عن كمال الانقياد للسنة [أخرجه عن الاعتصام بها ، وإن رأىٰ فيه حرصاً عليها وشدة طلب لها](٨) ، لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمره(٩) بالاجتهاد ، والجور علىٰ النفس ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (داعي).

(٢) ق (للمعبود).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ش ، ق (فبهذه).

(٤) ش (رضي الله عنهم).

(٥) قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: السنة بين الغالي والجافي . سنن الدارمي (١/ ٨٣) ، إغاثة اللهفان (١/ ١١٦) وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٨٩).

(٦) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١٨٤).

(٧) د (اعتراضاً).

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ط وهو في جميع النسخ.

(٩) أ ، غ ، ب (أمره).

ومجاوزة حد الاقتصاد فيها ، قائلاً له: إن هذا خير وطاعة ، والزيادة والاجتهاد فيها أولىٰ ، فلا تفتر مع أهل الفتور ، ولا تنم مع أهل النوم ، فلا يزال يحثه ويحرضه ، حتىٰ يخرجه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدِّها كما أن الأول خارج من[1] هذا الحد ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

وهذا حال الخوارج الذين[2] يحقر[3] أهل الاستقامة صلاتَهم مع صلاتِهم ، وصيامَهم مع صيامِهم ، وقراءتَهم مع قراءتِهم[4] ، وكلا[5] الأمرين[6] خروج عن السنة إلىٰ البدعة ، لكن هذا إلىٰ بدعة التفريط ، والإضاعة ، والآخر إلىٰ بدعة المجاوزة والإسراف[7].

---

(١) ط (عن).

(٢) أ ، ح٢ (الذي).

(٣) أ ، ب (يحقرون) ، وفي ع (تحقرون).

(٤) فيه إشارة إلى الحديث «يخرج في آخر الزمان قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم.. » أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٣/ ٣٥٢ ح ٥٠٥٨ ، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٤١)ح ١٠٦٤ ، وأحمد ٣/ ٦٠.

(٥) م (كل).

(٦) أ ، ب ، غ (الأمران).

(٧) البدعة في اللغة من بدع ، وهو الاختراع على غير مثال سابق ، ولكن المقصود هنا المعنى الشرعي وملخصه ما قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ :«طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية تعريف البدعة

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان[١]، إما إلىٰ تفريط، وإما إلىٰ مجاوزة، وهي[٢] الإفراط[٣]، ولا يبالي بأيهما ظفر[٤][٥].

يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه»، وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة، وعلى رأي من أدخل العادات فيقول: «البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية» الاعتصام ١/ ٣٦، ٣٩، وفيها مؤلفات مفردة منها: «الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع» للسيوطي، «البدع والنهي عنها» لمحمد القرطبي، «البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها» د/ عزت علي عطية، «الإبداع في مضار الابتداع» علي محفوظ، «البدعة والمصالح المرسلة» توفيق الراعي.

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - معلقاً على قول من قسّم البدعة إلى حسن وقبيح: «وقد كتبت في غير هذا الموضع أن المحافظة على عموم قول النبي ﷺ: «كل بدعة ضلالة» متعين وأنه يجب العمل بعمومه ...» الفتاوى ١٠/ ٣٧٠.

وأشار إلى أنه بحث المسألة في الاقتضاء في قاعدة السنة والبدعة، انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٢٧٠، ٢٨٠.

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق (نزغتان).

(٢) ق (وهو).

(٣) (الإفراط) سقط من ش.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن مخلد بن الحسن ٨/ ٢٦٦، وفي كشف الخفاء عن ابن عائشة ٢/ ٢٨٤ وعزاه للخطابي في العزلة ص١١١، وفي سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٣٦)، وعزاه ابن القيم في إغاثة اللهفان لبعض السلف ١/ ١٨٤.

(٥) أ، غ (زيادة لعلة أو نقص) وفي ب (لعلة أو نقصان)، ق (وزيادة)، ط (زيادة أو نقصان).

(١) فكل الخير في اجتهاد باقتصاد(٢) ، مقرون بالاتباع ، كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة(٣) ، فاحرصوا علىٰ أن تكون أعمالكم علىٰ منهاج(٤) الأنبياء عليهم السلام وسنتهم ، وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة ، والفتور والتواني يخرجه عنها(٥).

* * *

(١) في بقية النسخ سوى الأصل ، ش زيادة : (وقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:**«يا عبد الله بن عمرو إن لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر»** قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد بالعمل) أخرجه أحمد ٢/ ١٨٨ .

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (وإخلاص).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده ١/ ٢٥٣ عن أبي بن كعب ، اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ٥٤ ، ٦٩ وفي الزهد لعبدالله بن المبارك ٢٢ ، الزهد لابن أبي عاصم تحقيق عبدالعلي حامد ٢/ ١٩٧ ، وعزاه ابن القيم للصحابة في المنار المنيف ص٣٠ .

(٤) غ (مناهج).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (أيضاً).

فصـــل

الدرجة الثانية قـال: «الدَّرَجَـةُ الثَّانِيَـةُ : استِقَامَةُ الأَحْـوَالِ ، وَهِـيَ شُـهُودُ الحَقِيقَـةِ(١) لَا كَسباً، وَرَفْضُ الدَّعْوَىٰ لَا عِلْماً ، والبَقَاءُ مَعَ نُورِ اليَقْظَةِ لَا تَحفُّظاً»(٢).

يعني: أن استقامة الحال بهذه الثلاثة.

أمـا «شُـهُودُ الحقِيقَـةِ» فالحقيقـة حقيقتـان: حقيقيـة كونيـة ، وحقيقـة دينية(٣).

شهود الحقيقة (١) شهود الحقيقة ، الشهود : أن يرى حظوظ نفسه بالله لا بنفسه ، وهي تعني النظر إلى القدر والإرادة الكونية عند الصوفية.

الغيبة والغَيْبة: أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها ، وقال بعضهم: الشهود أن تشهد ما تشهد مستصغراً له معدوم الصفة لما غلب عليك من شاهد الحق وقال بعضهم: هو الحضور مع المشهود ، وهو عندهم درجات ، ينظر في ذلك: التعرف ١٣٦ ، لطائف الإعلام ٢/ ٤٢.

أما الحقيقة: هي الربوبية بمعنى أنه هو الفاعل في كل شيء المقيم له ، لأن هويته قائمة بنفسها مقيمة لكل شيء سواه ، ينظر في ذلك وأقسامه ، لطائف الإعلام ١/ ٤٢٤ ، وقال الحفني: هي إقامة العبد في محل الوصال إلى الله ، ووقوف سره على محل التنزيه وقيل: هي سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٩ . وهذه استقامة الخاصة عندهم ، انظر لطائف الإعلام ١/ ٢٠١ .

(٢) منازل السائرين ٣٣.

(٣) ينظر في ذلك لطائف الإعلام ١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦ ، حيث تقدمت الإشارة إليها.

وقال شيخ الإسلام : «إن الحقيقة الكونية عند الصوفية أنهم لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية – إلى قوله –: وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن لا يفرقوا بين المحظور والمأمور – ثم

يجمعهما[١] حقيقة ثالثة، وهي مصدرهما ومنشؤهما، وغايتهما، وأكثر أرباب السلوك من المتأخرين: إنما يريدون بالحقيقة[٢] الكونية، وشهودها هو شهود تفرد الرب بالفعل، وأن ما سواه محل جريان أحكامه وأفعاله، فهو كالحفير الذي هو محل لجريان الماء حسب[٣].

وعندهم أن[٤] شهود هذه الحقيقة والفناء، فيها غاية السالكين.

ومنهم: من يشهد حقيقة الأزلية والدوام، وفناء الحادثات وطيها في ضمن بساط الأزلية والأبدية، وتلاشيها في ذلك، فيشهدها معدومة، ويشهد تفرد موجدها بالوجود الحق[٥]، وأن وجود ما سواه رسوم وظلال.

قال - : ولعمري إنه حقيقة كونية، وقد عرفها عباد الأصنام»، الاستقامة ٢/ ٧٨ ـ ٧٩ الفتاوى ١٠/ ٢٨ ـ ٢٩، ومنشأ هذا أنهم لما شهدوا أن الله رب الكائنات وعلموا أنه قدّر كل شيء ظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره الله، ويقضيه.. فضلَّ هؤلاء حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، ملخص من الاستقامة ٢/ ٧٨.

والحقيقة الدينية هي شهود الأمر والنهي كما سيأتي من كلام ابن القيم قريباً.

(١) م، ح٢ (تجمعهما).

(٢) (الحقيقة) سقطت من الجميع وهي مثبتة في ط.

(٣) انظر لطائف الإعلام ١/ ٢٠١ ـ ٤٢٤، حيث إن الكسب والحركة عمل النفس ورؤيته ظلمة والكشف ذهاب رؤية النفس وهو نور.

(٤) (أن) سقطت من ش.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، ق (بالحق).

فالأول: يشهد(١) تفرده بالأفعال، وهذا شهد(٢) تفرده بالوجود](٣).

وصاحب الحقيقة الدينية في طور آخر، فإنه في مشهد الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والفرق بين ما يحبه(٤) ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، فهو(٥) في مقام الفرق الثاني(٦) الذي لا يحصل

(١) أ، ب، ق، د (شهد).

(٢) غ (شهود).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ش.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (إثبات لفظ الجلالة).

(٥) م، غ، أ، ب (فهي).

(٦) الفرق: ـ إشارة إلى رؤية خلق بلا حق، ويطلق تارة ويراد به مشاهدة العبودية.. قال محقق لطائف الإعلام، إن الفرق نقيض الجمع، فالجمع وحدة والفرق كثرة، وهذا مصطلح رئيسي عند أهل وحدة الوجود. والفرق، فرقان:

الفرق: الأول والثاني

الأول: بقاء العبد بأحكام خلقيته، وهو البقاء الذي يكون قبيل الفناء.

أما الفرق الثاني: فهو بقاء العبد بربه عندما يفنى عن نفسه فيكون الفرق الثاني هو جمع الجمع، وهي رؤية الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة؛ لأن الفرق الأول، عبارة عن رؤية خلق بلا حق، وهو حال من انحجب برؤية الكثرة عن رؤية الواحد المقيم لجمعها، ملخص من لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٥ مع هامشه، وانظر: معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٥ .

والفرق، ما نسب إليك، والجمع ما سلب منك، فما كان كسباً للعبد من إقامة العبودية فهو فرق، وما كان من الحق من إسداء لطف وإحسان فهو جمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع، ولا بد للعبد من الجمع والفرق، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له، معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٥، لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٥.

للعبد درجة الإسلام - فضلاً عن مقام الإحسان - إلا به.

فالمعرض عنه صفحاً لا نصيب له في الإسلام البتة، وهو[1] الذي كان الجنيد يوصي به أصحابه، فيقول: «عليكم بالفرق الثاني»[2] وإنما سمي ثانياً؛ لأن الفرق الأول[3]، فرق بالطبع والنفس، وهذا فرق بالأمر[4].

والجمع[5] أيضاً جمعان: جمع في الفرق، وهو جمع أهل

وهذه المسألة لها علاقة بالفناء وأقسامه وسوف يأتي الحديث عنها، وتقدم شيء من ذلك عند تقويم المنازل، والفرق الثاني هو شهود الحقيقة الشرعية، والفرق الأول شهود الحقيقة الكونية التي لا يفرق معها بين أمر ونهي، ولا محبوب ولا مبغض وهو الجمع، مدارج السالكين ١/ ٢٤٧ فأهل الفرق الأول هم أهل جمع، المدارج ١/ ١٥٣.

(١) أ، غ، ب (كالذي).

(٢) ذكر نحوه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٧٥، والفرق الثاني كما سبق هو شهود قيام الخلق بالحق، وهو بقاء العبد بربه عندما يفنى عن نفسه، لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٥ وانظر التعريفات للجرجاني ١٦٦.

(٣) لأن الفرق الأول احتجاب بالخلق عن الحق، وبقاء رسوم الخليقة بحالها، معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٥، والفرق بالطبع والنفس، والفرق بالأمر، انظر فيهما المدارج ١/ ٢٤٨، ٢٤٩.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب (بالأثر).

(٥) الجمع: سبق ص١٧١٠، وقال الحفني: الجمع الصرف يورث الزندقة والإلحاد... كما أن التفرقة المحضة تقتضي تعطيل الفاعل المطلق، والجمع مع التفرقة يفيد حقيقة التوحيد والتمييز بين أحكام الربوبية والعبودية، ولهذا قالت المتصوفة: الجمع بلا تفرقة زندقة، والتفرقة بلا جمع تعطيل، والجمع مع التفرقة توحيد، معجم مصطلحات الصوفية ٦٧، ومثل ذلك قال ابن القيم في المدارج ١/ ١٩٥.

الاستقامة والتوحيد، وجمع بلا فرق، وهو جمع أهل الزندقة[١] والإلحاد[٢][٣].

فالناس ثلاثة: صاحب فرق بلا جمع، فهو مذموم ناقص مخذول.

وصاحب جمع بلا فرق فصاحبه ملحد زنديق.

وصاحب فرق وجمع، يشهد الفرق في الجمع، والكثرة في الوحدة، فهو المستقيم الموحد الفارق[٤]، وهذا صاحب الحقيقة الثالثة، الجامعة

الزندقة (١) الزندقة: الزنديق من الثنوية فارسي معرب وجمعه زنادقة والاسم الزندقة، مختار الصحاح ٢٦٧ والزنديق من يقول ببقاء الدهر الملحد الدهري، لسان العرب ١٠/ ١٤٧، ويطلق على الوثنيين القائلين بالنور والظلمة أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وعلى الجاحد والمعطل، انظر في ذلك ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٤٨١، ومعجم ألفاظ العقيدة ص٢٠٧، قضية التكفير لسعيد القحطاني ١٦، ولقد ذكر السيوطي أن للإمام الغزالي كتاباً اسمه (التفرقة بين الإيمان والزندقة) صون المنطق ١٨٤، وانظر المدارج ١/ ٢٤٨.

الإلحاد (٢) الإلحاد: اللحد: الشق يكون في عرض القبر، ويقال: ألحد ومال وعدل، وجادل، ترك القصد فيما أمر به، القاموس ٤٠٤.

وهو في الاصطلاح: الميل عن الحق والصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو عند المصنفين في الملل والنحل خاص بمن جحد الخالق، وهو أعم من ذلك حيث إن هناك من ألحد في أسماء الله تعالى، ومن ألحد في صفاته تعالى، ومن ألحد في آياته الشرعية والكونية، انظر في ذلك بدائع الفوائد ١/ ١٧٩ ـ ١٨٠ ومقدمة التوضيحات الأثرية على متن التدمرية ٣٣ فخر الدين المحسي.

(٣) (وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد) سقط من الأصل، ش.

(٤) انظر هذه التقسيمات، لطائف الإعلام ١/ ٣٩٢ وما بعدها ٢/ ٢٠٥ وما بعدها، ومعجم

للحقيقتين الدينية والكونية[1]، فشهود هذه الحقيقة الجامعة: هو عين الاستقامة.

وأما شهود الحقيقة الكونية، أو[2] الأزلية، والفناء[3] فيها: فأمر مشترك

مصطلحات الصوفية ٦٦، ٦٧، وقد فصل القول فيها شيخ الإسلام عند كلامه على مسألة الفناء ١٠/ ٣٣٨.

(١) سبق تقسيم الحقائق ص١٧١٨، وانظر: لطائف الإعلام ٢/ ٤٢٥.

(٢) (أو) سقطت من ش.

(٣) الفناء: هو أن يفنى عن الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز، فناءً عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به.. فالحق يتولى تصريفه، التعرُّف ١٤٢، وقال القشيري الفناء في الرسالة القشيرية: هو سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء قيام الأوصاف المحمودة، الرسالة القشيرية (ص١٣٩)، والفناء أقسام، وهو مصطلح صوفي منتشر وهو يحتمل حقاً وباطلاً بحسب مرادهم به، ينظر في تلك التقسيمات، لطائف الإعلام ٢/ ٢١٨، رشح الزلال ٧٦، معجم مصطلحات الصوفية ٢٠٧، وقال ابن القيم: «ومعنى الفناء عند الزنادقة الفناء عن وجود السوى، وهو أن لا يشهد رباً ولا عبداً وخالقاً ومخلوقاً؛ بل الأمر كله واحد، فالسالك في البداية يشهد فرقاً بين الطاعة والمعصية ثم يرتفع هذا الفرق بالكشف حتى يشهد الأفعال كلها طاعة (وهو مشهد الحكم والقدر)، فهي طاعة لموافقتها الحكم والمشيئة - الحقيقة الكونية - وهو ناقص عندهم إذ هو متضمن للفرق ثم يرتفع إلى أن لا يشهد طاعة ولا معصية؛ لأن الطاعة والمعصية تكون من غير لغير، وما ثم غير، فإذا تحقق ذلك فني عن وجود السوى، وهو غاية التحقيق ومن لم يصل فهو محجوب»، طريق الهجرتين ٢٩١ وفي أقسام الفناء عند السالكين ينظر: الفتاوى (١٠/ ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٣٤١) وصلة ذلك بالشهود والمشهود، طريق الهجرتين (٢٩١).

بين المؤمنين والكفار ، فإن الكافر مقر بقدر الله وقضائه ، وأزليته وأبديته ، فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن(١) سواه: فقد شهد الحقيقة ، وأما قوله: «لاَ كَسْباً» أي: تتحقق(٢) عند مشاهدة الحقيقة: أن شهودها لم يكن بالكسب ، لأن(٣) الكسب من أعمال النفس ، فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس ، إذ الحقيقة فردانية أحدية نورانية(٤) ، فلا بد من زوال ظلمة النفس ، ورؤية كسبها ، وإلا لم يشهد الحقيقة.

وأما «رَفْضُ الدَّعوَىٰ لَا عِلْماً» فـ«الدعوىٰ» نسبة الحال وغيره إلىٰ نفسك وإنِّيتك(٥).

فالاستقامة لا تصح(٦) إلا بتركها ، سواء كانت حقاً أو باطلاً ، فإن

---

(١) ش (عمن).

(٢) ط (يتحقق) وفي بعض النسخ مهمل بلا نقط.

(٣) (لأن)سقطت من ش.

(٤) انظر لطائف الإعلام (١/ ٢٠١) وتقسيم شيخ الإسلام للفناء (١٠/ ٣٣٧).

(٥) الإنيَّة: اعتبار الذات من حيث مرتبتها الذاتية ، لطائف الإعلام (١/ ٢٤٧) .

والإنيَّة: عبارة عن الحقيقة التي يضاف إليها كل شيء من العبد ونفي الإنية هو عين معنى لا إله ، ثم إثبات الحق سبحانه في باطنك .

ثانياً: هو معنى إلا الله. وإنيَّة الحق: تحديه بما هو له [إنني أنا الله لا إله إلا أنا] معجم مصطلحات الصوفية (٢٦ ، ٢٧).

(٦) ش (لا يصح).

الدعوىٰ الصادقة تطفئ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة؟[1].

وأما قوله: «لا علماً» أي لا يكون الحامل له علىٰ ترك الدعوىٰ مجرد علمه بفساد الدعوىٰ ، ومنافاتها للاستقامة ، فإذا تركها يكون تركها لكون العلم قد نهىٰ عنها ، فيكون تاركاً لها ظاهراً لا حقيقة ، أو تاركاً لها لفظاً ، قائماً بها حالاً ؛ لأنه يرىٰ[2] أنه قد قام بحق العلم في تركها ، فيتركها تواضعاً ؛ بل يتركها حالاً وحقيقة ، كما يترك من أحبَّ شيئاً تضره محبته حبَّه[3] حالاً وحقيقة ، وإذا تحقق أنه ليس له من الأمر شيء - كما قال الله عزَّ وجلَّ لخير خلقه علىٰ الإطلاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[آل عمران: ١٢٨] - ترك الدعوىٰ شهوداً وحقيقة وحالاً.

وأما «البَقَاءُ مَعَ[4] نُورِ اليَقَظَةِ» فهو[5] اليقظة ، وأن لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة ؛ بل يستديم يقظته ، ويرىٰ أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه ، حفظاً من الله له ، لا أن ذلك حصل بتحفظه واحترازه.

---

(١) قال ابن القيم عن الذنب: «.. إنه يرفع عنه حجاب الدعوى ويفتح له طريق الفاقة ، فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى ولا طريق أقرب من العبودية » ، طريق الهجرتين ١٩٦ .

(٢) غ ، أ ، ب (لا يرى أنه قد قام) وهو خطأ.

(٣) أ سقط (حبه) ، وفي غ ، ب (محبة وحالاً وحقيقة).

(٤) (مع) سقطت من ق.

(٥)م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فهي).

فهذه ثلاثة أمور: يقظة، واستدامة لها، وشهود[١] أن ذلك بالحق سبحانه لا بك فليس سبب بقائه[٢] في نور اليقظة بحفظه؛ بل بحفظ الله له.

وكأنّ الشيخ[٣] يشير إلىٰ أن الاستقامة في هذه الدرجة لا تحصل[٤] بكسب، وإنما هو مجرد موهبة[٥]، فإنه قال في الأولىٰ: **«الاستِقَامَةُ عَلىٰ الاجتِهَادِ»**، وفي الثانية: **«استِقَامَةُ[٦] الأَحوَالِ، لاَ كَسباً وَلاَ تحَفُّظاً»**.

ومنازعته في ذلك متوجهة، وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسباً بتعاطي الأسباب التي تهجم[٧] بصاحبها[٨] علىٰ هذا المقام.

نعم الذي يُنْفَىٰ في هذا المقام: شهود الكسب[٩]، وأن هذا حصل[١٠] له

---

(١) ب (شهوده).

(٢) (بقائه) سقطت من ش.

(٣) ش (رحمه الله) ويريد به هنا الهروي صاحب المنازل.

(٤) الأصل (يحصل) والصواب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، د، ق.

(٥) جميع النسخ (موهبة الله) سوى الأصل، ش، وفي ط (موهبة من الله).

(٦) (استقامة) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٧) ش (يهجم).

(٨) ش (صاحبها).

(٩) ق (شهوداً لكسب السبب).

(١٠) في الأصل (فضل) والصحيح ما أثبته من جميع النسخ و ط.

بكسبه، فنفي[1] الكسب شيء، ونفي شهوده شيء[2][3].

ولعل أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي إن شاء الله تعالى[4].

فصل

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: استِقَامَةٌ[5] بِتَركِ رُؤيَةِ[6] الاستِقَامَةِ، [وَبالغَيْبَةِ عَن تَطَلُّبِ الاستِقَامَةِ بِشُهُودِ إِقَامَةِ الحَقِّ وَتَقْوِيمِهِ[7]»[8]. الدرجة الثالثة

هذه الاستقامة][9] معناها: الذهول بمشهوده[10] عن شهوده[11]، فيغيب

---

(١) د (مع) بدل (فنفي) وهو خطأ.

(٢) ش زيادة (آخر).

(٣) يعني بشهوده (رؤية العمل والإعجاب به) فهو المحبط للعمل.

(٤) (تعالى) سقطت من ق.

(٥) ش (استقامته).

(٦) (رؤية) سقط من الأصل، ب. والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، ش، وهو الموافق لمتن المنازل ٣٣.

(٧) في ش (عز اسمه) وهي في منازل السائرين، ولم تنقل في جميع النسخ.

(٨) منازل السائرين ٣٣ وانظر لطائف الإعلام ١/ ٢٠١.

(٩) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

(١٠) ب (بشهوده) وهو خطأ.

(١١) الشهود: هو الحضور مع المشهود، وهو بمعنى الإدراك وهو اجتماع الحواس الظاهرة والباطنة، والموجب لاتحادها، نور من جناب المشهود محى ظلمة حجابها، فيرى الحق بنوره، ويفنى كل ما سواه بظهوره، لطائف الإعلام ٢/ ٤٢ وهو أيضاً: (رؤية حظوظ النفس الشهود

بالمشهود المقصود سبحانه عن رؤية استقامته في طلبه ، فإن رؤية الاستقامة تحجبه عن حقيقة الشهود[1].

وأما «الغيبة[2] عن تطلب[3] الاستقامة» فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد ، وتقويمه إياه ، فإنه إذا شهد أن الله هو المقيم له والمقوّم ، وأن استقامته وقيامه بالله ، لا بنفسه ولا بطلبه: غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها[4].

بالله لا بها) التعرف ١٣٧.

المشهود أما المشهود: فهو الكون ، قال الجنيد: «الشاهد الحق في ضميرك وأسرارك مطلع عليها ، والمشهود ما يشهده الشاهد». معجم مصطلحات الصوفية ٢٤٥ ، وللكاشاني كلام عن التجلي وتفسير لأنواع التجليات وهي وثيقة الصلة بالمشهود ، انظر لطائف الإعلام ١/ ٣٠٠- ٣١١ ، وتقدم الكلام عن الغيبة والشهود ص١٧١٨ ، ١٧٢٧ ، وانظر كلام شيخ الإسلام لمزيد إيضاح الأمر الفتاوى ١٠/ ٣٣٩.

(١) قال الحفني. وقيل: الحقيقة هي التوحيد وقيل : هي مشاهدة الربوبية . معجم مصطلحات الصوفية ٧٩-٢٤٤ ، الرسالة القشيرية ١٥٠ .

(٢) الغَيْبَة: سبق ص١٧١٨ .

(٣) م (عن طلب) وهي ساقطة من ق.

(٤) كأن ابن القيم - رحمه الله تعالى - اشتغل ببيان مراد الهروي عن التعليق على هذه المسألة ومن المعلوم أن طلب الاستقامة ، دعاء.. وهو امتثال لأمر الله تعالى حيث يقول جلّ شأنه ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] وقوله: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ، فليستجيبوا لي﴾ .. [البقرة: ١٨٦] ، وقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم﴾ [الأعراف: ٥٥] ، وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ .. [الفاتحة: ٦] وقوله ﷺ :

وهذا القدر من موجبات شهود معنىٰ اسمه «القيوم»(١) وهو الذي قام بنفسه، فلم يحتج إلىٰ أحد، وقام كل شيء به، فكل(٢) ما سواه يحتاج(٣) إليه بالذات، وليست حاجته إليه معللة(٤) بحدوث كما يقول

«الدعاء هو العبادة» الترمذي (٥/ ٢١١) ح(٢٩٦٩) وقال حسن صحيح، أبو داود (٢/ ١٦١) ح(١٤٧٩)، الحاكم (١/ ٤٩١) وصححه، كلها أدلة للأمر بالدعاء والطلب، ومن مهمات الطلب حضور القلب حال الدعاء فهو يسأل ربه ويطلب حاجته، فلا بد من الدعاء والطلب وحضور القلب عند السؤال، وشأن الدعاء عظيم فقد أفرده أصحاب السنن بكتب وأبواب وفيه مؤلفات مستقلة منها:

(١) شأن الدعاء للخطابي.

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة لجيلان العروسي.

(٣) تصحيح الدعاء د/ بكر أبو زيد.

(١) القيوم: اسم من أسماء الله تعالى حيث يقول جل شأنه: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾.. [البقرة: ٢٥٥]، قال: الزجاج ومعنى القيوم: الدائم، وهو القائم بنفسه، القائم على كل نفس، المستغني عن خلقه، ولا قوام لشيء إلا به، والقيوم من أوصاف المبالغة في الفعل، قال أبو عبيدة: القيوم القائم وهو الدائم الذي لا يزول، وذكر الزجاج ١٠٥ في الاشتقاق معان أخرى، ينظر في ذلك، المقصد الأسنى ١٠٢، تفسير أسماء الله الحسنى ١٠٢، ولله الأسماء الحسنى ٦٣، النهج الأسمى ٢/ ٧٣، معتقد أهل السنة في أسماء الله تعالى ١٨٨. اسم القيوم لله تعالى

(٢) في د (شيء).

(٣) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش (محتاج).

(٤) معللة: الكلام عن العلة، والمراد بها الحكمة، يقود إلى بيان أنواع العلل وهي: صورية، وهي ما يوجد الشيء بالفعل، ومادية وهي ما يوجد الشيء بالقوة، وفاعلية وهي ما يوجد الشيء بسببه، وغائية وهي ما يوجد الشيء لأجله، ينظر في هذه الأقسام: التعريفات ١٥٥، = الكلام على العلل والأسباب

= معيار العلم ٢٨٩ المواقف في علم الكلام ٨٥، الفهرست ٢/ ١٥، أبجد العلوم ١/ ٤٩، ٢٠٠.

والقول الحق في هذه المسألة: أن الله تعالى «حكيم لا يفعل الأشياء عبثاً ولا بغير معنى ومصلحة وحكمة إذ هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى» شفاء العليل ٤٠٠ .

وقد وقع الخلاف في هذه المسألة على خمسة أقوال، ذكرها الشيخ الدكتور عبد الرحمن المحمود، وقال في خلاصتها: «أنها تنتهي إلى قولين، أحدهما: نفاة الحكمة وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم، والثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة، وهؤلاء على أقوال أشهرها قول المعتزلة الذين يثبتون حكمة تعود إلى العباد ولا تعود إلى الرب، وقول جمهور السلف الذين يثبتون حكمة تعود إلى الرب تعالى» موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٢.

وقوله (.. معللة بحدوث) رداً لزعم الأشاعرة الذين نفوا الحكمة والتعليل، زعماً أن ذلك يستلزم التسلسل بأنه إذا فعل لعلة فتلك العلة أيضاً حادثة فتفتقر إلى علة وهكذا إلى غير نهاية وهذا باطل.. انظر المحصل في أفكار المتقدمين والمتأخرين ٢٠٩، ٢٦٥، ورد عليه شيخ الإسلام بأقوال ملخصها، من رسالة المحمود:

يقال لهم في الحكمة ما يقولونه هم في الفعل وذلك بأن يقال لهم: «لا يخلو إما أن يكون الفعل قديم العين أو قديم النوع، أو لا يمكن ذلك.. فإن جاز أن يكون قديم العين أو قديم النوع، جاز في الحكمة التي يكون الفعل لأجلها أن تكون قديمة العين أو قديمة النوع» ثم قال الشيخ المحمود.. ويلاحظ هنا أن القول بأن الفعل قديم (العين) هو قول الفلاسفة، ومعلوم أن الفلاسفة نفاة للحكمة، فهم موافقون للأشاعرة في هذا، فهذا الإلزام صالح لهم.. ومن قال إن هذا ممتنع أي قديم العين أو النوع في الفعل، قيل وكذلك الحكمة يمتنع تسلسلها، ويقال لهم في الحكمة ما يقال لهم في الأسباب، والتسلسل الذي يدعونه إنما هو =

المتكلمــــون(١)، ولا بإمكــــان(٢)، كـــما يقـــول الفلاســـفة

= تسلسل في الحوادث المستقبلة لا في الحوادث الماضية...
والسبب في نفي المعلل بالحدوث، لزوم تأخير الشيء عن نفسه بمراتب، انظر شرح ذلك في محصلة أفكار المتقدمين والمتأخرين ١١٤، ووجه الشبه بين الفلاسفة والقدرية في هذه المسألة.. أن القدرية يقولون أن أفعال الحيوان تصدر بلا فاعل، والفلاسفة يقولون: أن الفلك وجميع الحوادث بلا فاعل. انظر منهاج السنة ٣/ ١٢٧ وانظر رسالة المحمود في موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٣ ومصادره في ذلك، شرح الأصفهانية ص ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ تحقيق السعوي/ مجموع الفتاوى ٨/ ٩٣ - ٩٧ - ٩٨ - ٣٧٧، منهاج السنة ١/ ٩٤ - ٩٥ - ٩٧ - ٩٨، ٣/ ١٠٩، ١١٢، ١١٥، الفتاوى (٣/ ١٧٥)، ط/ دار العروبة المحققة، درء التعارض (٨/ ٥٤).

(١) المتكلمون.. تعددت الأقوال في سبب تسمية علم الكلام بهذا الاسم، ومن ثم إطلاق اسم (المتكلمين) على من خاض فيه.. منها أن مبناه على الكلام في المناظرات، وصله ذلك بالمنطق، أو لأن أهم قضية بحثت فيه (مسألة كلام الله) ينظر في هذا: مقدمة ابن خلدون ٤٢٩، ط الشعب، شرح المواقف ١/ ٦٠ وانظر ما لخصه الدكتور المحمود في رسالته من كلام الشهرستان وشيخ الإسلام ٢/ ٧٧٤، والأشاعرة متأثرون بالفلاسفة (وهم أهل الكلام) بنفي الحكمة والتعليل، ولقد استقصى السيوطي أقوال العلماء في ذم الكلام، انظر صون المنطق ١٤، ٣٣، ١٩٠. المتكلمون

(٢) قوله (ولا بإمكان).. يقول الفلاسفة المشاؤون إن علة الحاجة إلى المؤثر أو السبب هي (الإمكان)، لا الحدوث - كما يقوله المتكلمون - قال الرازي: «علة الحاجة إلى المؤثر الإمكان لا الحدوث»، لأن الحدوث كيفية في وجود الحادث، فيكون متأخراً عنه، والوجود متأخر عن تأثير القادر فيه المتأخر عن احتياج الممكن إليه المتأخر عن علة احتياجه إليه.. إلى أن قال: احتجوا بأن علة الحاجة لو كانت هي الإمكان لزم احتياج العدم الممكن إلى المؤثر وهو محال؛ لأن التأثير يستدعي حصول الأثر والعدم نفي محض فلا يكون

المشَّاؤون[1] ؛ بل حاجته إليه ذاتية وما بالذات لا يُعلَّل ، نعم الحدوث والإمكان دليلان علىٰ الحاجة ، فالتَّعليل بهما من باب التعريف ، لا من باب العِلل المؤثرة ، والله أعلم.

* * *

مؤثراً، ثم أجاب بأن علة العدم عدم العلة وفيه ما فيه ، محصل أفكار المتقدمين ١١٣ -١١٤ ، وفي المسألة نفسها انظر المواقف ٧١- ٧٢ ، وقال شيخ الإسلام: «وما ثمّ علة تامة إلا مشيئة الله» ، بيان التلبيس ٢/ ٤٥٧.

(١) الفلاسفة المشاؤون: «هم أتباع الفيلسوف اليوناني أرسطو ، كان يعلم تلامذته الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس.. » التحفة المهدية ٩٣ معجم ألفاظ العقيدة ٣٧٥ ، تاريخ الفلسفة يوسف كرم ١١٢ ، أبجد العلوم ١/ ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، رحلة ابن بطوطة ٢/ ٤٥٧.

فصل

منزلة التوكل

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة: «التوكل»(١).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال(٢): ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وقال(٣): ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣، النساء: ٨١] وقال(٤): ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال له:

---

(١) التوكل: قال السقطي: «الانخلاع من الحول والقوة»، وقال مسروق التوكل: «الاستسلام لجريان القضاء والأحكام..»، وينظر في ذلك، قوت القلوب ٢/ ٣٨، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٣، التعرف ١١٨، عوارف المعارف ٤٤٩، الرسالة القشيرية ٢٦١، لطائف الأعلام ١/ ٣٦٢، معجم مصطلحات الصوفية ٥٣، تنبيه الغافلين ٤٦٥، ومن الرسائل التي أفردته بالبحث «التوكل على الله» للدميجي.

(٢) ط زيادة (لرسوله).

(٣) ط (له).

(٤) ط (له).

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ [وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ](١)﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال عن أصحاب نبيه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢](٢).

وفي الصحيحين(٣) حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب(٤): «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون وعلىٰ ربهم يتوكلون**»(٥).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ، حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من أ، غ، ب.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (والقرآن مملوء من ذلك).

(٣) ق، م، ب (من).

(٤) ط (حسان) وهو خطأ.

(٥) البخاري الرقاق (٤/ ١٩٩)ح (٦٥٤١)، مسلم. الإيمان (١/ ١٩٧)ح (٢١٥) التمهيد (٥/ ٢٦٦)، مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠٨).

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾»[١].

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني[٢] أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلّني، أنت الحي الذي لا يموت[٣]، والجن والإنس يموتون»[٤].

وفي الترمذي عن عمر - رضي الله عنه - مرفوعاً: «لو أنكم تتوكلون علىٰ الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٥].

وفي السنن عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال - يعني إذا خرج من بيته - بسم الله، توكلت علىٰ الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت[٦]، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك

---

(١) البخاري التفسير (١٣/ ٢١١) ح (٤٥٦٣)، الفتح (٨/ ٧٧)، الحاكم (٢/ ٨٩).

(٢) (إني) سقط من الأصل، ش، و مثبت في بقية النسخ، وهو الصحيح لموافقته ما في مسلم.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ش (لا تموت) وهو خلاف ما في مسلم.

(٤) مسلم، الذكر (٤/ ٢٠٨٦) ح(٢٧١٧).

(٥) أحمد (١/ ٣٠، ٥٢)، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٧٣) ح(٢٣٤٤) وقال حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، صحيح ابن ماجه، التوكل (٢/ ٤٠٤) ح(٤١٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح(٣١٠)، وقال بل هو صحيح على شرط مسلم.

(٦) (وُقيت وكُفيت) وهو خلاف ما في السنن والنسخ الأخرى.

برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟»[1].

التوكل نصف الدين ونصفه[2] الثاني «الإنابة» فإن الدين استعانة وعبادة[3].

فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال[4] معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار، والفجار، والطير والوحش[5] والبهائم، فأهل السماوات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم، فأولياؤه وخاصته [متوكلون عليه في حصول ما

(١) أبو داود، الأدب (٥/ ٣٢٨) ح(٣٠٩٥)، الترمذي، الدعوات (٥/ ٤٩٠) ح(٣٤٢٦) وقال حسن غريب، النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٩)، وأخرجه ابن حبان برقم (٨٢٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٧٥)، وأخرجه الحاكم (١/ ٥١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٩٦)، صحيح الترغيب (٢/ ٢٦٤)، والحديث أعله البخاري بأن ابن جريج لم يسمع من إسحاق ابن عبدالله فيما نقله عنه الترمذي في العلل الكبير ص٣٦٢، وابن علان في شرحه الأذكار (١/ ٣٣٥)، ومن طريق أبي هريرة في سنده عبدالله بن حسين وهو ضعيف، انظر تهذيب الكمال (٣٠/ ١١٩)، التاريخ الكبير (٥/ ١٨٥، ١٤/ ٤١٩).

(٢) ط (والنصف) خلاف الباقي.

(٣) انظر في الاستعانة والإنابة، الفتاوى ١٠/ ٣٠٤، التحفة العراقية ٣٠٩.

(٤) الأصل (يزال) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ش.

(٥) م، ح٢، ق، د (الوحوش).

يرضيه منهم وفي إقامته في الخلق][1] فيتوكلون[2] عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلماته[3] وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته[4] في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً من[5] الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم[6] يناله منه، من رزق أو عافية، أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك[7]. ودون هؤلاء من يتوكل عليه[في حصول ما لا يحبه ويرضاه من الظلم والعدوان][8] وحصول[9] الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها[10] غالباً إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه؛ بل قد يكون توكلهم[11] أقوى من توكل

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط وهو في جميع النسخ.

(٢) في ط (يتوكلون).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (كلمته).

(٤) م (استقامة).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب (عن).

(٦) ش (يحبه).

(٧) انظر هذا التقسيم بأسلوب آخر في طريق الهجرتين ٢٩٣، التحفة العراقية ٣١٤.

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ط ومثبت في جميع النسخ.

(٩) ط (في حصول).

(١٠) أ، غ، د، ق (ينالوها) وفي ب (لا ينالوه).

(١١) ب (عليهم).

كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين علىٰ الله أن يسلّمهم، ويظفرهم بمطالبهم.

فأفضل التوكّل: التوكُّل في الواجب - أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس - وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينيّة، وهو توكّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكّل ورثتهم، ثمّ النّاس بعد في التوكّل علىٰ حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكّل[1] علىٰ الله في حصول الملك، و[2] متوكل[3] في حصول رغيف.

ومن صدق توكّله علىٰ الله في حصول شيء ناله، فإنْ كان محبوباً له مرضيّاً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعن به علىٰ طاعته[4][5].

(١) الأصل (يتوكل) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش.

(٢) في ط (ومن).

(٣) في الأصل (ويتوكل) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش.

(٤) د، ق (طاعاته) وفي ح٢، ش (طاعة).

(٥) ق (والله أعلم).

فصــل

معنى التوكل والأقوال المأثورة فيه

فلنذكر معنىٰ «التوكل» ودرجاته وما قيل فيه:

قال الإمام أحمد[١] - رضي الله عنه -[٢]: التوكل عمل القلب[٣]، ومعنىٰ ذلك: أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات[٤]، ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد[٥][٦].

ومنهم: من يفسِّره بالسُّكون، وخمود حركة القلب[٧]: فيقول التوكّل

(١) أحمد بن حنبل هو الإمام القدوة العالم الفاضل، أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني البغدادي، ولد سنة ١٦٤هـ، تتلمذ عليه أكثر من مائتين وثمانين طالباً، وقد حمل لواء الدين وصبر على المحن، توفي رحمه الله سنة ٢٤١هـ. تاريخ بغداد (٤/ ٤١٢)، حلية الأولياء (٩/ ١٦١)، طبقات الحنابلة (١/ ٢٠٤).

(٢) (رضي الله عنه) في الأصل فقط.

(٣) ذكره شيخ الإسلام عن الجنيد في الاستقامة (١/ ٢٠٩) الفتاوى (٧/ ١٨٦)، وعزاه للإمام أحمد صاحب تيسير العزيز الحميد (٤٣٨)، وانظر تحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٦)، فتح الباري (٦/ ٨٢).

(٤) ش (الإرادات).

(٥) ش (العبد للرب) وهو خطأ.

(٦) هذا القول ذكره الغزالي غير منسوب في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٥.

(٧) مجموعة الآثار للسلمي ٢/ ٣٨٥، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٥.

هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، أو[1] ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الأقدار[2].

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله على[3] ما يريد[4].

ومنهم: من يفسره بالرضىٰ ، فيقول: هو الرضىٰ بالمقدور[5].

قال بشر الحافي[6] - رحمه الله -[7] يقول أحدهم: توكلت علىٰ الله.

---

(١) أ ، غ ، ب (وهو) وفي ق (أو هو).

(٢) قال سهل : «هو ترك التدبر» ، «وترك الاختيار» ، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦١- ٢٦٧ ، الرسالة القشيرية ٢٦٢ ، شعب الإيمان ٢/ ١٠٩ رقم ١٣١١ وفي ٢/ ١٠٥ رقم(١٢٩٥) عزاه للنهرجوري ، أخرجه السلمي في المقدمة في التصوف عن سهل ٣٠٧.

(٣) د (مع).

(٤) في التعرف ١١٩ قال سهل : « التوكل الاسترسال بين يدي الله تعالى » ، الرسالة القشيرية ٢٦٥.

(٥) قال: مسروق «التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام» ، التعرف ١١٨ ، الرسالة القشيرية ٢٦٥ ، وذكر نحوه أبو نعيم مرفوعاً ، حلية الأولياء ٥/ ٩٦. سئل الحسن عن التوكل فقال: «الرضا عن الله» ، موسوعة ابن أبي الدنيا (٤٥) رقم ١٧ ، وهو في حلية الأولياء ٩/ ٢٦٢ وإحياء علوم الدين ٤/ ٦٩.

(٦) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المشهور بالحافي ، ولد سنة ١٥٢هـ ، محدث زاهد عالم قدوة ، قال الدارقطني: «زاهد جبل ثقة» ، توفي سنة ٢٢٧هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٣٤٢) ، حلية الأولياء (٨/ ٣٣٦) ، تاريخ بغداد (٧/ ٦٧) ، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٦٩).

(٧) (رحمه الله) في الأصل فقط.

يكذب علىٰ الله ، [١]لو توكل [علىٰ الله][٢] رضي بما يفعل الله[٣].

وسئل يحيىٰ بن معاذ[٤]: متىٰ يكون الرجل متوكلاً؟ فقال[٥]: إذا رضي بالله وكيلاً[٦].

ومنهم من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه ، والسكون إليه[٧].

قال ابن عطاء[٨]: التوكّل أن لا يظهر فيك انزعاج إلىٰ الأسباب ، مع شدّة فاقتك إليها ، ولا تزول[٩] عن[١٠] حقيقة السّكون إلىٰ الحق مع وقوفك

---

(١) في ط زيادة (و).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ح٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٦٣.

(٤) يحيي بن معاذ بن جعفر الرازي ، كان زاهدًا له لسان في الرجاء وكلام في المعرفة ، توفي سنة ٢٥٨هـ/ طبقات الشعراني ١/ ٨١ ، حلية الأولياء ١٠/ ٥١ ، صفة الصفوة ٤/ ٨٣.

(٥) (الفاء) ساقطة من ح٢.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٦٣.

(٧) نحوه في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٦ .

(٨) أبو العباس بن عطاء ، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي ، كان من ظراف المشايخ عند الصوفية ، صحب الجنيد وإبراهيم المارستاني ، وكان الخزاز يعظم شأنه توفي ٣١١هـ حلية الأولياء (١٠/ ٣٠٢ ، ٣٠٥) ، تاريخ بغداد (٥/ ٢٦) ، صفة الصفوة (٢/ ٢٨٧) ، طبقات الصوفية (٢٦٥).

(٩) أ ، غ ، ب (ولا تزال).

(١٠) أ ، غ ، ب (على).

عليها[1].

و[2] قال ذو النون[3]: هو ترك النفس، والانخلاع من الحول والقوة، وإنّما يقوىٰ العبد علىٰ التوكل إذا علم أنَّ الحق سبحانه يعلم ويرىٰ ما هو فيه[4].

وقال بعضهم: التوكل[5] التعلق بالله في كل حال[6].

وقيل: التوكل هو أن ترد عليك موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلىٰ من إليه الكفايات[7].

وقيل: نفي الشكوك، والتفويض إلىٰ مالك الملوك[8].

---

(١١) الرسالة القشيرية (٢٦٣)، وانظر ما قاله الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣)، الفتاوى (١٠/ ٣٥).

(٢) (الواو) ساقطة من ط.

(٣) ذو النون المصري، ثوبان بن إبراهيم صوفي مبالغ في الزهد، له دور في تأسيس القواعد الصوفية، أحد كبار الورعين في وقته توفي سنة ٢٤٥هـ/ حلية الأولياء (٩/ ٣٤٥)، شذرات الذهب (٣/ ٢٠٦)، تاريخ بغداد (٨/ ٣٩٠)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٢).

(٤) مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٧، الرسالة القشيرية ٢٦٣، المقدمة في التصوف ٤١ .

(٥) ح٢ (هو).

(٦) عزاه الغزالي لأبي عبد الله القرشي، إحياء علوم الدين (٤/ ٢٦٤).

(٧) لم أجده.

(٨) الرسالة القشيرية ٢٦٩.

وقال ذو النون: خلع الأرباب وقطع الأسباب[١].

يريد قطعها من تعلّق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها[٢].

ومنهم من جعله مركباً من أمرين أو من أمور.

فقال أبو سعيد الخراز[٣] - رحمه الله -[٤]: التوكّل اضطراب بلا سكون، وسكون[٥] بلا اضطراب[٦].

يريد: حركة ذاته في الأسباب[٧] بالظاهر والباطن،

(١) مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٣، حلية الأولياء ٩/ ٣٨٠، مقدمة السلمي في التصوف ٣٨، الرسالة القشيرية ٢٦٤، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤، شعب الإيمان ح١٢٩١.

(٢) يشير بذلك إلى عدم الاعتماد عليها من دون الله وإلى عدم تركها وإهمالها بالكلية، انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٣، مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٥، وقوله هذا يدل على غفلتهم عن الأسباب أو إهمالها وإلغائها وهو خطأ كما سبق في تقويم المنازل في مقدمة هذا البحث ص١٦٨٣، ١٦٨٥، وسوف يأتي له مناسبة.

(٣) أبو سعيد الخراز، أحمد بن عيسى الخراز، من أهل بغداد، صحب ذو النون المصري وسرياً السقطي وبشر بن الحارث وغيرهم، وهو من أئمة الصوفية ومشايخهم، وقيل إنه أول من تكلم في الفناء والبقاء، توفي سنة ٢٧٩هـ/ حلية الأولياء (١/ ٢٤٦)، صفة الصفوة (٢/ ٢٤٥)، تاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦)، طبقات الصوفية للسلمي (٢٢٨).

(٤) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٥) ط (سكوناً).

(٦) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٥٦، الرسالة القشيرية ٢٦٥، وانظر جملة من الأقوال بهذا المعنى لأئمة القوم في مقدمة السلمي في التصوف ٣٧-٣٩.

(٧) (الباء) ساقطة من (غ).

وسكون[1] إلىٰ المسبب، وركون[2] إليه، فلا[3] يضطرب قلبه معه، ولا تسكن[4] حركته من[5] الأسباب الموصلة إلىٰ رضاه.

وقال أبو تراب النَّخْشبي[6]: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلىٰ الكفاية، فإن أُعطي شكر، وإن مُنع صبر[7].

فجعله مركّباً من خمسة أمور: القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلىٰ قضائه وقدره، وطمأنينته بكفايته[8]، [9]وشكره

(١) الأصل (سكوناً) والصواب ما أثبته من بعض النسخ و ط.

(٢) الأصل (ركوناً) والصواب ما أثبته من بعض النسخ و ط.

(٣) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (ولا).

(٤) في الأصل (تستكين) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٥) الأصل (في) والأقرب ما أثبته من أ، غ، ب، ط.

(٦) أبو تراب النخشبي، عسكر بن حصين النخشبي، شيخ الطائفة، صاحب حاتم الأصم، كتب العلم وتفقه، توفى سنة ٢٤٥هـ/ حلية الأولياء ١٠/ ٤٥، تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٥، طبقات الحنابلة ١/ ٢٤٨، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٥.

(٧) مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٧، المقدمة في التصوف ٤١ بزيادة «راضياً وموافقاً للقدر»، الرسالة القشيرية ٢٦٣، وعن رجل مبهم في الرسالة القشيرية ٢٦٤، وعزاه صاحب التعرف لأبي أيوب مولى بني هاشم ١١٩، ونحوه عن ذي النون في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤، وفي حلية الأولياء ٩/ ٣٨٠.

(٨) في ط (وكفايته).

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (له).

إذا أُعطي ، وصبره إذا مُنع.

قال أبو يعقوب النهرجوري[١]: التوكل علىٰ الله بكمال الحقيقة ، [٢] وقع لإبراهيم الخليل - عليه السلام - في الوقت الذي قال لجبريل - عليه[٣] السلام - : «أما إليك فلا» [٤] ؛ لأنه غابت[٥] نفسه بالله فلم يَرَ مع الله غير الله[٦] .

وأجمع القوم علىٰ أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب بل لا[٧] يصح إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد[٨].

قال سهل بن عبد الله - رضي الله عنه -[٩]: «من طعن في الحركة فقد

---

(١) أبويعقوب النهرجوري ، إسحاق بن محمد بن أيوب النهرجوري ، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي ، توفي سنة ٣٣٠هـ/ حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٦ طبقات الشعراني ١/ ١٣٠ ، شذرات الذهب ٢/ ٣٢٥.

(٢) أ ، غ ، ب (كما).

(٣) عليه السلام سقط من (ق).

(٤) تفسير ابن جرير (١٧/ ٤٥) ، البغوي في تفسيره (٤/ ٢٤٣) ، البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٩ ، رقم ١٠٧٧ ، الرسالة القشيرية ٢٦٤.

(٥) أ ، غ ، ب ، ط (غائب عن نفسه).

(٦) م (غيره).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (فلا يصح).

(٨) انظر طريق الهجرتين ٢٩٥ .

(٩) الترضي في الأصل فقط.

طعن في السنة، ومن طعن في التوكل[١] فقد طعن في الإيمان[٢]، فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته[٣]، فمن عمل على[٤] حاله فلا يتركن سنته»[٥]. وهذا معنىٰ قول أبي سعيد: «هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب»[٦]، وقول سهل أبين وأرفع.

وقيل: [التوكل قطع علائق القلب بغير الله.

وسئل سهل عن التوكل؟ فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة][٧][٨].

وقيل: [التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق][٩][١٠].

---

(١) (التوكل) سقط من (أ).

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ١٩٥، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٧٠، الرسالة القشيرية (٢٦٦)، شعب الإيمان ٢/ ١٠٣، تلبيس إبليس ٢٨١، المقدمة في التصوف ٤٠.

(٣) لعله يشير بالحال إلى ما يقوم بالقلب من اليقين والثقة، والكسب ما يقوم بالجوارح من فعل الأسباب.

(٤) (على) سقطت من (م، أ، غ، ب).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٦٥ عزاه لسهل بن عبد الله، وعزاه في شعب الإيمان لابن سالم ٢/ ١٠٣، رقم ١٢٨٨.

(٦) سبق ص١٧٤٣، وأبو سعيد هو الخراز، ولعل المقصود بالحركة فعل الأسباب وطلب الرزق، والتوكل المقصود به الحال، والاضطراب: الحركة والسبب، والسكون: اليقين والتوكل.

(٧) ما بين المعقوفين سقط من (م، أ، غ، ح٢، ب).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٦٥، أي دون تعلق بالأسباب فرجاؤه معلق بالله.

(٩) ما بين المعقوفين سقط من (ش).

(١٠) نحوه عن ذي النون في شعب الإيمان ٢/ ١٠٤، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨١، ٩/ ٣٨٠.

وقيل: التوكل أن يستوي عندك الإكثار والإقلال(١).

وهذا من موجباته وآثاره، لا أنه(٢) حقيقته.

وقيل: هو ترك كل سبب يوصلك إلىٰ مسبب، حتىٰ يكون الحق هو المتولي لذلك(٣).

وهذا صحيح من وجه، باطل من وجه، فترك الأسباب المأمور بها: قادح في التوكل، وقد تولىٰ الحق إيصال العبد بها، وأما ترك الأسباب المباحة: فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح، وإلا(٤) فمذموم.

وقيل: هو إلقاء النفس في العبودية، وإخراجها من الربوبية(٥).

يريد استرسالها مع الأمر، وبراءتها من حولها وقوتها(٦)، وشهود ذلك بها؛ بل بالربّ وحده.

---

(١) نحوه في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٠٦.

(٢) أ، غ، ط (لأنه).

(٣) عن أبي عبد الله القرشي في الرسالة القشيرية ٢٦٥ ونصه في إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤ عن القرشي. وإذا كان معنى هذه العبارة (أن التوكل هو ترك التوكل) فهذا فاسد، انظر طريق الهجرتين (٢٩٤).

(٤) أ، غ، م (فهو).

(٥) ذي النون المصري، إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤ الرسالة القشيرية ٢٦٤، مجموعة آثار السلمي ٢/ ٣٨٧ معزواً إلى النخشبي، وأثر النخشبي مضى قريباً.

(٦) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٤ وفي الرسالة القشيرية عن سهل قريب منه ٢٦٤.

ومنهم من قال: التوكل هو التسليم لأمر الربِّ وقضائه[١].

ومنهم من قال: هو التفويض إليه في كل حال[٢].

ومنهم من جعل التوكل بداية، والتسليم واسطة[٣] والتفويض نهاية[٤].

قال أبو علي الدقاق[٥]: التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلىٰ وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه[٦]، وصاحب التفويض يرضىٰ بحكمه، فالتوكل بداية، والتسليم واسطة[٧]، والتفويض نهاية، فالتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين[٨].

---

(١) نحوه في الرسالة القشيرية عن أبي عثمان الحيري ٢٦٥.

(٢) عن أبي عبدالله القرشي في الرسالة القشيرية بلفظ (التعلق بالله..) ٢٦٥.

(٣) في الأصل، ش (وساطة) والصحيح ما أثبته لموافقته ما في الرسالة، معزواً لأبي علي الدقاق ٢٦٦.

(٤) الرسالة القشيرية عن الدقاق ٢٦٦ ونحوه في إحياء علوم الدين عنه أيضاً ٤/ ٢٦٥.

(٥) أبو علي الدقاق، الحسن بن علي الدقاق النيسابوري، عالماً حليماً على منهج الجنيد في الطريقة توفي سنة ٤٠٥هـ/ الكواكب الدرية (٢/ ١٧٩)، البداية والنهاية (١٢/ ١٣)، معجم المؤلفين (٣/ ٢٦١).

(٦) د (بعمله).

(٧) في الأصل، ش (وساطة) والصحيح ما أثبته لموافقة ما أخرجه صاحب الرسالة عن أبي علي الدقاق (٢٦٦).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٦٦) عن أبي علي الدقاق.

التوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خاصة الخاصة[1].

التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ[2][3].

هذا كله كلام الدقاق، ومعنىٰ هذا أن[4] التوكل: اعتماد علىٰ الوكيل، وقد يعتمد المتوكل[5] علىٰ وكيله مع نوع اقتراح عليه، وإرادة وشائبة[6] منازعة، فإذا سلم إليه زال عنه ذلك ورضي بما يفعله وكيله، وحالُ المفوِّضِ فوق هذا، فإنه طالب مريد ممن فوض إليه، ملتمس منه أن يتولىٰ أموره، فهو رضىٰ واختيار، وتسليم واعتماد فالتوكل يندرج في التسليم، وهو والتسليم يندرجان في التفويض[7].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٦٧ بلفظ (خواص الخواص) وانظر فساد هذا القول في الفتاوى ١٠/ ١٨-٣٧، التحفة العراقية ص٣٤٦، وتقدم التعليق على هذا الكلام عند تقويم المنازل في مقدمة هذا البحث ص١٦٨٣.

(٢) في م، أ، غ، ح٢، ب (وعليهم أجمعين).

(٣) الرسالة القشيرية ٢٦٧.

(٤) (أن) سقطت من ط.

(٥) ش، ق (على الوكيل) في ط (يعتمد الرجل).

(٦) أ، ب (منه).

(٧) أ، غ، ب (والله سبحانه وتعالى أعلم)، في م، ط، ق، ح٢ (والله سبحانه أعلم).

فصـــل

حقيقة التوكل والأمور التي يحصل بها

وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور، لا تتم(١) حقيقة التوكل إلا بها(٢)، وكلّ أشار إلىٰ واحد من هذه الأمور، أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقيُّومِيّته، وانتهاء الأمور إلىٰ علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال شيخنا - رضي الله(٣) عنه -: ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف(٤)، ولا من القدرية(٥) النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لم

---

(١) ش (لا يتم).

(٢) م (بهما).

(٣) يعني به شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٤) لأن الفلاسفة يرون الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب ومسبباتها تلازم بالضرورة كما هو في تهافت الفلاسفة ١٦٩ للغزالي، ولهذا يرون حتمية السبب وإبطال التوكل، قال ابن القيم: «هكذا سائر أفعاله سبحانه مع أنه أشهد عباده بذلك أنه مسبب الأسباب، وأن الأسباب خلقه، وأنه يملك تعطيلها عن مقتضياتها وآثارها»، طريق الهجرتين ١٨٦ ـ ١٨٧، قال أحدهم وهو [ليبتز] لا شيء موجود بدون علة أو لا أثر بدون سبب، وهو مبدأ السببية والتعليل الضروري للقضايا، انظر مبدأ العلة: مارتن هيدغر، ترجمة د/ نظير جاهل ص٢٥ ـ ٣١.

(٥) لأن القدرية النفاة هم الذين يقولون أنه يكون في ملك الله ما لا يشاء، وأن الإنسان يخلق فعله، وهذا له صلة بالسبب والمسبب، وهذه السببية واجبة عندهم بين ذات فاعلة (السبب) وذات مفعولة (المسبب) بحيث لا يكون هناك أي تأثير خارج نطاق القدرة الإنسانية، انظر

يشأ[١].

ولا يستقيم أيضاً من الجهمية[٢] النفات لصفاة الرب[٣] ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات. فأي توكل لمن يعتقد أن الله[٤] لا يعلم جزئيات العالم[٥] ولا هو فاعل باختياره ولا له إرادة ومشيئة ، ولا يقوم[٦] به صفة فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكله[٧] أصح وأقوىٰ[٨].

فلسفة القدر عند المعتزلة ١١٦ وما بعدها ، الاستقامة ١/ ١٤٧ ، مجموع الفتاوى ٨/ ٢٥٨ ، المعتزلة وأصولهم الخمسة ١٥١ ، التعريفات ١٧٤.

(١) د (يشاء) ، ق (يشاؤه).

(٢) وهو كذلك - التوكل - لا يصح من الجهمية الجبرية نفاة الأسباب والعلل والحكم ، انظر طريق الهجرتين ص١٥٨ ، ولا يُتصور ممن نفى صفات الفعل عن الله والإرادة والمشيئة وعلم الله بالجزئيات فلا يستقيم توكل العبد إلا بإثبات الأسباب ، والتوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه ، انظر طريق الهجرتين ٢٩٠ ، التوكل على الله د. عبد الله الدميجي ٢١ ، الفتاوى ١٧/ ٢٩٣ ، بينما المعتزلة علقوا ذات السبب بالفاعل في مجال الأفعال الإنسانية وهذا يعني رفض وقوعها من سبب غير الإنسان ، وهذا تعميق لمفهوم المسؤولية عن الفعل بحيث يرتد مباشرة إلى الفاعل ، وهذا يتفق مع قولهم بخلق الإنسان لفعل نفسه/ فلسفة القدر عند المعتزلة ١١٦ وما بعدها.

لا يصح التوكل من جهمي ولا من نفاة الأسباب والعلل والحكم

(٣) أ ، ب ، غ (جل جلاله).

(٤) (لفظ الجلالة) سقط من ش.

(٥) د (سفليه وعلويه) ، ق (علويه وسفليه).

(٦) ش (تقوم).

(٧) غ (قوله) بدل (توكله).

(٨) أ ، ب ، غ (والله سبحانه وتعالى أعلم) ، د (الله أعلم).

فصل

« الدرجة الثانية : إثبات[1] الأسباب والمسببات »[2].

التوكل وصلته بالأسباب

فإن من نفاها فتوكله مدخول ، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أن[3] إثبات الأسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها[4] تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب[5] لا يستقيم لهم توكل البتة ، لأن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المتوكل فيه[6] ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في

---

(١) غ ، ب ، ط (في).

(٢) السبب : هو ما يُتوصل به إلى غيره ، وللناس في الأسباب والمسببات مواقف متعددة ، فهناك من اعتمد عليها بالكلية ، وهناك من نفى الأسباب وأعرض عنها ، وهناك من نفى تأثيرها في المسبب ، فمن اعتمد عليها وقطع النظر إلى مسببها فهذا قدح في التوحيد وهو مذهب الفلاسفة والعقلانيين ، أما من أعرض عنها فهم غالبية الصوفية فتحقيق التوكل عندهم هو الإعراض عن الأسباب وهذا قدح في الشرع ، لأن الله تعالى أمرنا بالأسباب الشرعية ، وأما من نفى تأثيرها بالكلية فهو نقص في العقل وهو قول القدرية الجبرية ومن تابعهم من الأشاعرة .

مسألة الأسباب والمسببات

انظر في ذلك الفتاوى ١٠/ ٣٢ ـ ٣٥ ، طريق الهجرتين ٢٨٩ ـ ٢٩٤ ، رسالة التوكل على الله ١٦٣ .

(٣) في ط (أي).

(٤) م ، ح٢ ، د (بنفيها).

(٥) نفاة الأسباب: تقدم أنهم ينقسمون إلى قسمين: من أعرض عنها بالكلية وهم غلاة الصوفية ، والثاني من نفى أثرها بالكلية وهم القدرية الجبرية.

(٦) طريق الهجرتين (ص٢٩٠).

حصول المدعو به.

فإذا اعتقد العبد أن توكله[1] لم ينصبه الله سبباً ، ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء ، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله: إن كان[2] قُدِّر حصل[3] ، توكل أو[4] لم يتوكل ، دعا أو لم يدع ، وإن لم يقدر لم يحصل، توكل أيضاً أو[5] ترك التوكل.

وصرح هؤلاء: أن التوكل والدعاء عبودية محضة ، لا فائدة لهما إلا ذلك ولو ترك العبد التوكل والدعاء لما[6] فاته شيء مما قدر له ، ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة علىٰ الخطأ والنسيان عديم الفائدة ، إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء - في كتاب له - لا يجوِّز الدعاء بهذا ، وإنما يجُوزه تلاوةً لا دعاءً ، قال لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه ؛ لأن الداعي بين الخوف والرجاء والشك في وقوع ذلك: شك في خبر الله ، فانظر إلىٰ ما قاد إنكار الأسباب من العظائم ، وتحريم الدعاء بما أثنىٰ الله علىٰ عباده وأوليائه بالدعاء به وبطلبه، ولم يزل المسلمون - من عهد نبيهم ﷺ وإلىٰ الآن -

---

(١) ش (أن التوكل).

(٢) ح٢ ، د ، ش (قد).

(٣) ش (يحصل).

(٤) ح٢ (أم).

(٥) م (وترك).

(٦) أ ، غ ، ب (ما).

يدعون به في مقامات الدعاء، وهو من أفضل الدعوات.

وجواب هذا الوهم الباطل أن يقال: بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه، وهو الواقع، وهو أن يكون قضىٰ بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب، وقضىٰ[1] بحصوله إذا فعل العبد سببه.

فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب، وهذا كما قضىٰ بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها، فإذا لم يجامع لم يخلق منه[2] الولد.

وقضىٰ بحصول الشبع إذا أكل، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

وقضىٰ بحصول الحج والوصول إلىٰ مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس[3] في بيته لم يصل إلىٰ مكة أبداً[4].

وقضىٰ بدخول الجنة إذا أسلم، وأتىٰ بالأعمال الصالحة[5] فإذا ترك الإسلام[6]: لم يدخلها أبداً[7].

---

(١) (لفظ الجلالة) في ط.

(٢) (منه) ساقطة من ط.

(٣) أ، غ، ب (حبس).

(٤) (أبداً) ساقط من ب، ط.

(٥) في الأصل (الصالح). والصحيح ما أثبته من جميع النسخ و ط.

(٦) في ط (ولم يعمل الصالحات).

(٧) (أبداً) سقط من أ، ح٢، د، ق.

وقضىٰ بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته.

وقضىٰ بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها، فما[١] لم يأت بذلك لم يحصد[٢] إلا الخيبة.

فوازن[٣] ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل[٤]، ويقول: إن كان قضي لي وسبق[٥] لي[٦] في الأزل حصول الولد، والشبع، والري، والحج، ونحوها، فلا بدَّ أن يصل إليَّ[٧]، تحركت أو سكنت، وتزوجت أو تركت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن[٨] قضي لي أيضاً، فعلت أو تركت[٩].

فهل[١٠] يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعىٰ[١١] في السبب بالهداية العامة[١٢].

---

(١) م، ح٢ (لم يأت).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (لم يحصل).

(٣) الأصل (فوزان) والصحيح ما أثبته من أ، غ، ح٢.

(٤) ش (الموصول).

(٥) (سبق) سقط من أ، ب.

(٦) (لي) سقط من ط.

(٧) في م، أ، غ، ح٢، ب (إن) بدل (إليّ).

(٨) (قد) زائد في ط.

(٩) (سافرت أو قعدت) زائد في ط.

(١٠) ق (فهذا).

(١١) (تسعى) سقط من ش.

(١٢) وقد وصف شيخ الإسلام هذا الصنف من الناس (بالحمق) التحفة العراقية ٣٣٠.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلىٰ الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه[١] بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيّته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا علىٰ ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا علىٰ قدم العبودية[٢].

فصل

«الدّرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام التوحيد»[٣].

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتىٰ يصح له توحيده؛ بل حقيقة التوكل: توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، وعلىٰ قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متىٰ التفت إلىٰ غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله علىٰ الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، [وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا[٤] عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض

(١) (قيامه) سقط من الأصل، ش وهو في بقية النسخ و ط.

(٢) (والله سبحانه وتعالى أعلم) في أ، ب، غ (والله أعلم) في ق.

(٣) أ، غ، ب (توحيد التوكل)، وسقط من ق (التوحيد).

(٤) الأصل (أو) والصحيح حذفها كما في م، أ، غ، ح٢، ب.

الأسباب][1] عن القلب ، وتعلق الجوارح بها ، فيكون منقطعاً منها[2] متصلاً بها[3].

فصل

« الدّرجة الرابعة: اعتماد القلب علىٰ الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه ».

بحيث لا يبقىٰ فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكون إليها ؛ بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه[4] السكون إلىٰ مسببها.

وعلامة[5] هذا: أنّه لا يبالي بإقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ، ويخفق عند إدبار ما يحب منها ، وإقبال ما يكره ، لأن اعتماده علىٰ الله ، وسكونه إليه ، واستناده إليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها ، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به ، فرأىٰ حصناً مفتوحاً ، فأدخله ربه إليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن ، فاضطراب قلبه وخوفه منهم[6] في هذه الحال لا معنىٰ له.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ش ، ق.

(٢) ب (عنها).

(٣) (والله سبحانه وتعالى أعلم) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٤) الأصل (تلبسه) والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

(٥) أ ، غ (وعلى هذا).

(٦) ط (من عدوه).

وكذلك من أعطاه ملك درهماً، فسرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه[1]، لا تهتم، متىٰ جئت إليَّ أعطيتك[2] من خزائني أضعافه، فإذا علم صحة قول الملك، ووثق به واطمأنّ إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك - لم يحزنه فوته.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه، وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلىٰ غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل، لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلىٰ ربه[3] عز وجل.

فصل

« الدّرجة الخامسة: حسن الظنّ بالله[4] تعالىٰ ».

فعلىٰ قدر حسن ظنّك به[5] ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسَّر بعضهم التوكل بحسن الظن، [فقال: التوكل حسن الظن بالله][6][7].

---

(١) ط (فلا).

(٢) أ (أعطيناك).

(٣) في غ، ب، ط (سبحانه).

(٤) في غ، ب (سبحانه) وفي ط (عز وجل).

(٥) في غ، ب (بربك).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من جميع النسخ.

(٧) القائل هو الخريبي عندما سأله محمد بن يحيى الذهلي عن التوكل، شعب الإيمان (٢/ ٩٧)،

والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلىٰ التوكل عليه ، إذ لا يُتصور التوكل علىٰ من تسيء[١] ظنك به ، ولا التوكل علىٰ من لا[٢] ترجوه[٣].

فصل

« الدّرجة السادسة: استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه ، وقطع منازعاته »[٤].

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله، كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد[٥] ، لا يكون له حركة ولا تدبير[٦].

وهذا معنىٰ قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير[٧] ، يعني الاستسلام لتدبير

سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٩) ، وهو عبدالله بن داود الخريبي ، أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٢٦) رقم(٢٧) ، وعن الإمام أحمد ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (١/ ٣٤٨).

(١) غ ، ب (ساء).

(٢) (لا) ساقطة من غ.

(٣) في ق (والله أعلم).

(٤) غ (منازعته) وفي ب (منازعات).

(٥) ش (رأى).

(٦) شعب الإيمان ٢/ ١٠٩ رقم١٣١١ ، الرسالة القشيرية ٢٦٢ ، وانظر تعليق شيخ الإسلام على مسألة الرضى بالقضاء والرضى بالمقضي ، التحفة العراقية ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٧) عن ذي النون (ترك التدبير) ، مجموعة السلمي ٢/ ٣١٧ ، ونحوه في حلية الأولياء ١٠/ ١٦٩.

الرب لك، وهذا في غير باب الأمر والنهي؛ بل فيما يفعله بك، لا فيما أمرك بفعله. فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإراداتها[١] مع سيده[٢].

فصل

« الدرجة السابعة: التفويض ».

وهو روح التوكل ولبُّهُ وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلىٰ الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً[٣] واضطراراً؛ بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب[٤] أموره إلىٰ أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له، فهو يرىٰ أن تدبيره[٥] له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه [لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها][٦]، فلا يجد له أصلح ولا أرفق[٧] من تفويضه أموره كلها إلىٰ[٨] أبيه، وراحته من

---

(١) ط (وإرادتها).

(٢) في غ، ب (والله سبحانه وتعالى أعلم).

(٣) م، ح٢ (كراهة).

(٤) في ط (على أمره كله).

(٥) ط (تدبير أبيه).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٧) الأصل (أوفق) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د.

(٨) في ب (إليه).

حمل كلفتها[1] وثقل حملها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال[2] من فوض إليه ، وقدرته وشفقته.

فصل

« **فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة ، انتقل منها إلىٰ درجة «الرضا»**[3]».

وهي ثمرة التوكل ، ومن فسّر التوكل بها ، فإنما فسّره بأجل ثمراته ، وأعظم فوائده ، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا[4] - رضي الله عنه - يقول : المقدور يكتنفه[5] أمران ، التوكل قبله والرضىٰ بعده ، فمن توكل علىٰ الله قبل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية ، أو معنىٰ هذا[6].

[7]قلت وهذا معنىٰ قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: **«اللهمّ إني أستخيرُك بعلمك وأستقدِرُك بقُدرتك ، وأسألك من فضْلِك العظيم[8]»** [9] ، فهذا توكل

---

(١) الأصل (كلها) والأقرب ما أثبته من ب و ط ، وفي أ ، غ (كلفها).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، د (علم).

(٣) سوف يأتي الحديث عن منزلة الرضى ضمن المدارج قريباً.

(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، الفتاوى ١٠/ ٣٧.

(٥) م (يلتقم).

(٦) التحفة العراقية ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، وذكر حديث الاستخارة في نفس الموضع أيضاً.

(٧) في م (فصل).

(٨) لفظة (العظيم) ساقطة من الأصل وهي في صحيح البخاري وبقية النسخ و ط.

(٩) البخاري (١/ ٣٦١) ح(١١٦٦)، أحمد (٣/ ٣٤٤)، أبو داود. الصلاة (٢/ ١٨٧) ح(١٥٣٨)،

وتفويض، ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب»، فهذا تبرؤ إليه[1] من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، و[2] آجلاً، [وأن يصرفه عنه[3] إن كان فيه[4] مضرته عاجلاً أو آجلاً][5] فهذا[6] هو حاجته التي سألها فلم يبق عليه إلا الرضىٰ بما يقضيه له، فقال: «واقْدُرْ ليَ الخيرَ حيث كان، ثمّ رضِّني به».

فقد اشتمل هذا الدعاء علىٰ هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها: التوكل والتفويض [قبل وقوع المقدور، والرضىٰ بعده، وهو ثمرة التوكل والتفويض][7] وعلامة[8] صحته، فإن لم يرض بما[9] قضي له، فتفويضه معلول فاسد.

الترمذي. صلاة الاستخارة (٢/ ٣٤٥) ح(٤٨٠)، وصححه الحاكم (١/ ٥٢٤) ووافقه الذهبي.

(١) في أكثر النسخ (إلى الله).

(٢) أ، ب، غ (أو).

(٣) (عنه) سقط من ش.

(٤) (فيه) سقط من غ، ب.

(٥) ما بين المعقوفين مقدم ومؤخر في (أ) أي (وإن كان فيه مضرة عاجلاً أو آجلاً أن يصرف عنه).

(٦) أ، ح٢ (فهذه هي).

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (ش).

(٨) (و) سقط من ط.

(٩) ط (لما).

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل، وتثبت قدمه فيه وهذا معنىٰ قول[1] بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت علىٰ الله، يكذب علىٰ الله، لو توكل علىٰ الله لرضي بما يفعله الله[2][3].

وقول يحيىٰ بن معاذ - وقد سئل متىٰ يكون الرجل متوكلاً؟ - فقال إذا رضي بالله وكيلاً[4].

فصل

مواضع الاشتباه بين التفويض والإضاعة

وكثيراً ما يشتبه في[5] هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه التفويض بالإضاعة، فيضيع العبد حظه، ظناً منه[6] أن ذلك تفويض وتوكل وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع في حق الله، والتفويض في حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكلّ[7]، فيظن صاحبه أنه متوكل وإنما هو عامل علىٰ قدم[8] الراحة.

---

(١) (قول) سقط من (ش).

(٢) ق (به).

(٣) سبق تخريجه ص١٧٤١، وهو في الرسالة القشيرية ٢٦٣.

(٤) سبق ص١٧٤١.

(٥) (في) سقط من (ش).

(٦) في الأصل وغيره لفظة (منه) قبل (تفويض) أي (ظناً أن ذلك منه تفويض والأقرب ما عدلته من ط.

(٧) الكل: العيال، والثقل، اليتيم، والذي لا ولد له ولا والد، مختار الصحاح ص٥٧٦.

(٨) أ، ب، غ، ط (عدم).

وعلامة ذلك: أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريح من غيرها لتعبه بها، والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة، وتسقط(١) به عنه(٢) مطالبة الشرع، فهذا لون، وهذا لون.

ومنه: اشتباه خَلع الأسباب بتعطيلها، فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة، فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه بها(٣) وركونه إليها مع قيامه بها، وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح(٤).

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغِرَّة(٥) والعجز، والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره(٦) به، ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميته وتزكيته(٧) كغارس الشجر، وباذر الأرض، والمغترُّ العاجز: قد فرَّط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح مع(٨) بذل المجهود.

ومنه: اشتباه(٩) الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم،

---

(١) الأصل (ويسقط) والأقرب ما أثبته من غ، ب، ط.

(٢) في ط (عند).

(٣) (بها) سقط من ط، وفي غ، ب (توثقه).

(٤) انظر في معنى هذا: قول ابن حجر: «قطع النظر عن الأسباب، بعد تهيئة الأسباب»، فتح الباري ٣/ ٤٤٩.

(٥) في ط (الغرور).

(٦) في ط (لفظ الجلالة).

(٧) ق (تنميتها وتزكيتها).

(٨) ق (بعد).

(٩) أ، غ، ب سقط (اشتباه).

وسكون القلب إليه، ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة، كما يُذكَر عن أبي سليمان الداراني[١]: أنه رأىٰ رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم، فمضىٰ عليه أيام، فقال له أبو سليمان يوماً: أرأيت لو غارت زمزم؛ أيش[٢] كنت تشرب؟ فقام وقبَّل رأسه، وقال جزاك الله خيراً، حيث أرشدتني، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام[٣]، ومضىٰ[٤].

وأكثر المتوكّلين سكونهم وطمأنينتهم إلىٰ المعلوم، وهم يظنون أنّه إلىٰ الله، وعلامة ذلك: أنه متىٰ انقطع معلوم أحدهم حضره همُّه وبثُّه[٥] وخوفه، فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلىٰ الله.

ومنه: اشتباه الرضىٰ عن الله بكل ما يفعل بعبده - مما يحبه ويكرهه - بالعزم علىٰ ذلك[٦]، وحديث النفس به[٧]، وذلك شيء والحقيقة شيء آخر.

---

(١) أبو سليمان الداراني، عبد الرحمن بن أحمد بن عطية من أهل (داريا) من قرى دمشق، توفي سنة ٢١٥هـ، وقيل: سنة ٢٠٥هـ/ طبقات الصوفية للسلمي (٧٥)، حلية الأولياء (٩/ ٢٥٤)، صفة الصفوة (٤/ ١٧٩)، شذرات الذهب (٢/ ١٣)، تاريخ بغداد (١٠/ ٢٤٨)، الرسالة القشيرية (٥٩).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د (أي شيء) والأصل موافق لما في الرسالة ٢٦٨.

(٣) ق (ثم تركه و) وهو مخالف لما في الرسالة.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٦٨.

(٥) بثه: ـ البث: الحال وأشدّ الحزن. مختار الصحاح ٤٠، ترتيب القاموس ١/ ٢١٢.

(٦) انظر ما قاله أبو عثمان حول حديث: (اللهم إني أسألك الرضى..)، الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٧) (به) سقط من غ، ب.

كما يُحكىٰ عن أبي سليمان أنّه قال: أرجو أن أكون أُعطيتُ طرفاً من الرضىٰ، لو أدخلني النار لكنت(١) بذلك راضياً(٢).

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة - رَحمه الله(٣) - يقول هذا عزم منه علىٰ الرضىٰ وحديث نفس به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء، وفرْق بين العزم علىٰ الشيء وبين حقيقته(٤).

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل(٥)، فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله فيظنّ أنّه بذلك(٦) متوكل، وليس من أهل التّوكّل، فحال التوكل: أمر(٧) وراء العلم به، وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها.

---

(١) الأصل (كنت) والأقرب ما أثبته من الرسالة (٣٠٠) و ط.

(٢) حلية الأولياء عن سفيان بن عيينة (٧/ ٢٧٨، ٢٩٥)، صفة الصفوة (٤/ ٢٢٦)، الرسالة القشيرية (٣٠٠)، وذكره شيخ الإسلام في الاستقامة (٢/ ٨٥، ٨٦، ٩٥)، وعلّق عليه مبيناً الحق في ذلك وخلافه، والفرق بين الرضى والعزم على الرضى.

(٣) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٤) الفتاوى ١٠/ ٣٧، لما ذكر شيخ الإسلام هذا القول علق عليه بقوله: «إذا كان هذا عزم على الرضى فالعزم قد يدوم وقد ينفسخ وما أكثر انفساخ عزائم الناس خصوصاً الصوفية ...» ثم ذكر قصة سمنون الذي قال: «ليس لي في سواك حظ * فكيف ما شئت فامتحني». الاستقامة ٢/ ٨٨ـ ٨٩، التحفة العراقية ٣٥٠.

(٥) ش (المتوكلين).

(٦) (بذلك) سقط من ط.

(٧) ق (آخر من).

وحال المحب العاشق وراء ذلك[1] ومعرفة[2] علم الخوف، وحال الخائف[3] وراء ذلك[4] وهو شبيه بمعرفة المريض ماهيّة الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوىٰ[5] فيه بالحقائق[6]، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

فصل

تعلق التوكل بالأسماء الحسنى

«و[7] التوكل» من أعمِّ المقامات تعلّقاً بالأسماء الحسنىٰ.

فإن له تعلقاً خاصاً بعامَّة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات[8]، فله تعلق

---

(١) (وراء ذلك) سقط من الأصل والصحيح ما أثبته من ق و ط.

(٢) ق (وكمعرفة) و ط.

(٣) الأصل (الخوف) والأقرب ما أثبته من ق، غ، ب.

(٤) (وراء ذلك) سقط من الأصل والأقرب ما أثبته من ق، غ، ب.

(٥) ط (الدعاوي).

(٦) (الحقائق) ساقطة من أ.

(٧) (الواو) ساقطة من ط.

(٨) قال شيخ الإسلام: «أسماء الأفعال مثل العادل والخالق والرازق وهي أسماء حسنى تقتضي أن يكون بها محموداً مثنىً عليه بها وذلك يقتضي أنها من صفات الكمال»، وقال: «ولا يلزم من إثباتها القول بقدم مخلوقاته أو مفعولاته كما زعمت المعتزلة في ردها على الأشاعرة»، وقال: «إن أسماء الصفات بحسب ما تضاف إليه، إذ هي صفة حقيقية للموصوف بها وليست

أسماء الأفعال

جملة من الأسماء الحسنى

باسم: «الغفار[١]، والتواب[٢]، والعفو[٣]، [٤]والرحيم[٥]» وتعلقاً[٦] باسم: «الفتاح[٧]، والوهاب[٨]، والرزاق[٩]، والمعطي[١٠]،

مجازاً» انتهى، ملخصاً من الأصفهانية ٢٢، الفتاوى ١٢/ ٤٣٦، ٢٠/ ٢١٩، بغية المرتاد ٣٥٣، وقال ابن القيم: «لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشتق له منه اسم مطلق.. مثل (الماكر) كما غلط بذلك بعض المتأخرين، فهي أفعال مخصوصة معينة لا يجوز أن يسمى بأسمائها» المدارج ٣/ ٤١٥، بدائع الفوائد ١/ ١٦٢.

(١) الغفار، قال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ [ص: ٦٦]، قال ابن القيم: «ومعرفته باسمه الغفار، ومشاهدة لهذه الصفة وتعبداً بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة» المدارج ١/ ٢٠٦.

(٢) التواب، قال تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ [البقرة: ٣٧].

(٣) العفو، قال تعالى: ﴿إنّ الله لعفو غفور﴾ [الحج: ٦٠].

(٤) أ، غ، ب (الرؤوف).

(٥) الرحيم، قال تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ [الفاتحة: ٣]

(٦) ط (تعلق).

(٧) الفتاح، قال تعالى: ﴿وهو الفتاح العليم﴾ [سبأ: ٢٦].

(٨) الوهاب، قال تعالى: ﴿وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ [آل عمران: ٨].

(٩) الرزاق، قال تعالى: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [الذاريات: ٥٨].

(١٠) قال رسول ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم»، البخاري. الجهاد (٢/ ٣٩٣) ح(٣١١٦)، وقال شيخ الإسلام: «الأسماء التي فيها ذكر للشر لا تذكر إلا مقرونة كقولنا: الضار النافع، المعطي المانع»، الفتاوى ١٤/ ٢٣٦، وهو من جملة الأسماء الواردة في رواية مسلم بن الوليد وقد ذكرها ابن حجر وعلق عليها وبيّن تداخل الروايات واختلاف العدد فيها وأشار إلى التكلف في الاستدلال لها وأخذها من القرآن، فتح الباري ١١/ ٢١٦، ولم يذكر ابن حجر أن المعطي من جملة أسماء الله تعالى، فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

والمحسن[1] » وتعلقاً[2] باسم: « المعز ، المذل[3] ،

(١) ممن أثبت اسم « المحسن » لله تعالى ابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة ٣١٤ ، وعدد من العلماء ذكرهم الشيخ عبدالله الغصن في رسالته أسماء الله الحسنى ٣٦١ ، والمسألة فيها حديثان أحدهما: حديث شداد بن أوس أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٨٦٠٣) ، والطبراني في الكبير (٧/ ٧١٢١) ، وفيها « إن الله محسن يحب الإحسان » ، إلا أن رواية عبدالرزاق شاذة ، وقد رواه مسلم بلفظ « إن الله قد كتب الإحسان » برقم(١٥٤٨) ، ومخرج الحديث واحد ، وكذا رواه أحمد (٤/ ١٢٣) ، النسائي (٧/ ٢٢٧) ، والترمذي رقم (٢٨١١) وغيرهم ، الحديث الثاني حديث أنس ابن مالك رواه ابن أبي عاصم في الديات (ص٩٤) ، والطبراني في الأوسط رقم (٥٧٣١) ، بلفظ: « إذا حكمتم فاعدلوا.. فإن الله محسن يحب المحسنين » من طريق عثمان بن طالوت ولم يعرف له ترجمة وتابعه سليمان ابن داود كما في أخبار أصبهان (٢/ ١١٣) ، وسليمان بن داود متهم بالكذب ، الميزان (٢/ ٢٠٥) ورواه ابن عدي في الكامل (٦/ ١٣٣) بلفظ: « إن الله محسن يحب الإحسان » ، ومدار الحديث على محمد بن بلال وعمران بن القطان ، وهما إلى الضعف أقرب ولا يقبل ما انفردا به ، انظر سؤالات الآجري لأبي داود (١٤٤٨) ، الضعفاء للعقيلي (٤/ ٣٧) ، الكامل لابن عدي (٦/ ١٣٣).

(٢) ط (تعلق).

(٣) **المعز ، المذل** : فيه حديث أخرجه الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٣١) ح(٣٥٥٧) ، وقال حديث غريب ، روي من غير وجه عن أبي هريرة ولا يعلم له إسناد صحيح ، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) ، وقال الحديث مخرج في الصحيحين دون ذكر الأسماء وعلته الوليد بن مسلم ، ولقد أطال ابن حجر في الفتح في بيان تداخل الروايات والكلام على رجال أسانيدها ، ثم قال عن قولهم إن الأسماء التي أثبتوها إنما هي من القرآن ، قال: « وإنما تؤخذ من القرآن بضرب من التكلف لا أن جميعها ورد فيه بصورة الأسماء » ، فتح الباري (١١/ ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٦٢) ، انظر رسالة الغصن في الأسماء الحسنى (ص٣٣٣) ، وممن أثبته الوليد بن مسلم ، وعبدالملك الصنعاني والبيهقي.

الحافظ(١) ، (٢) الرافع ، المانع(٣)» من جهة توكله عليه في إذلال(٤) أعداء دينه ، وخفضهم ومنعهم أسباب النصرة(٥) وتعلقاً(٦) بأسماء «القدرة ، والإرادة» وله

---

(١) اسم (الحافظ) سقط من د ، وفي م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (الخافض).

(٢) الحافظ: الذين يرون أنه من أسماء الله تعالى يستدلون بقوله تعالى: ﴿ فالله خيرٌ حافظاً﴾ [يوسف: ٦٤] وقوله تعالى: ﴿وكنا لهم حافظين﴾ [الأنبياء:٨٢] ، وقد ذكره الحافظ في جملة من الأسماء ثم أعقبها بنفس الكلام السابق ، انظر فتح الباري ١١/ ٢١٩ ، وممن أثبته البيهقي وابن الوزير وعبدالملك الصنعاني وابن منده ، انظر رسالة عبدالله الغصن في أسماء الله الحسنى ٣٤٣ ، ورواية عبدالملك الصنعاني عند ابن ماجه برقم (٣٨٦١) ، والذي يظهر أن الآيات جاءت في سياق الإخبار والله أعلم.

(٣) الرافع ، المانع: ذكرهما ابن حجر في الفتح من رواية الوليد بن مسلم ، وقال في نهاية سردها وفي بعضها إنما تؤخذ من القرآن بضرب من التكلف ، فتح الباري ١١/ ٢١٦ ، وعدَّ الأستاذ/ عبدالله الغصن في رسالته من أثبته ، ومنهم البيهقي وابن الوزير والأصبهاني وابن العربي ، أسماء الله الحسنى (ص٣٣٣) ، وقد ذكر ابن تيمية آثاراً لبعض تلك الأسماء في الاستقامة ٢/ ٣٩ ، ٥٠ ، وقد ذكر ابن القيم أثر هذه الأسماء في المدارج ١/ ٢٠٦ وما بعدها ، وممن ذكر جملة من هذه الأسماء محمد الحمود النجدي في النهج الأسنى ١/ ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٣٣٩ ، ٢/ ٢٠٥ ، وأجاد في بيان معانيها وشرح أثرها على السلوك ، وكذلك د/ محمد التميمي في معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ولم يذكره ابن حجر في أسماء الله تعالى ، وإنما ذكر في مقابل « المعطي » ، فتح الباري ١١/ ٢٦٢.

(٤) ب (بإذلال).

(٥) ش (النصر).

(٦) ط (تعلق).

تعلق عام بجميع الأسماء الحسنىٰ ، ولهذا فسَّره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه[1] بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل ، وكلما[2] كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوىٰ.

فصل

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكّله ، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون كمن صرف توكله إلىٰ حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ، ويمكنه نيلها[3] بأيسر شيء ، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيراً ، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ، ودعاءه إلىٰ وجع يمكن مداواته بأدنىٰ[4] شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف [رغيف أو نصف][5] درهم ، ويدع صرفه إلىٰ نصرة الدين ، وقمع المبتدعين[6] ، ومصالح المسلمين[7].

---

(١) ط (إراداته) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، د ، ق.

(٢) ش (فكلما).

(٣) ش (فعلها).

(٤) ش (بأيسر).

(٥) الأصل (بنصف درهم) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، د.

(٦) جميع النسخ سوى ش (وزيادة الإيمان).

(٧) ق (والله أعلم).

فصل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله -[1]:

التوكل كلة الأمر إلى مالكه

«التَّوَكُّلُ : كِلَةُ الأَمرِ إِلىٰ مَالِكِهِ ، وَالتَّعوِيلُ عَلىٰ وَكَالَتِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَصْعَبِ مَنَازِلِ العَامَّةِ عَلَيهِم[2] ، وَأَوْهَىٰ السُّبُلِ عِندَ الخَاصَّةِ ، لأَنَّ الحَقَّ[3] قَد وَكَلَ الأُمُورَ كُلَّهَا إِلىٰ نَفسِهِ ، وَأَيْأَسَ العَالَمَ مِن مِلْك شَيءٍ مِنْهَا»[4].

قوله : «كِلَةُ الأَمرِ إِلَىٰ مَالِكِهِ» أي تسليمه إلىٰ من هو بيده.

«والتَّعوِيل عَلىٰ وَكَالَتِهِ» أي الاعتماد علىٰ قيامه بالأمر ، والاستغناء بفعله عن فعلك ، وبإرادته عن إرادتك.

و«الوكالة» يراد بها أمران ، أحدهما: التوكيل ، وهو الاستبانة والتفويض ، والثاني: التوكل ، وهو التصرف[5] بطريق النيابة عن[6] الموكل ، وهذا من الجانبين ، فإن الله[7] عزَّ وجل يوكل العبد[8] ويقيمه في حفظ ما

(١) في الأصل (رحمه الله).

(٢) (عليهم) سقط من ش وهو في لطائف الإعلام ١/ ٣٦٢.

(٣) في ط (تعالى) وهو خلاف ما في المنازل أيضاً.

(٤) منازل السائرين ٣٣ ، لطائف الإعلام ١/ ٣٦٢ ، طريق الهجرتين ٢٨٦ - ٢٩٥.

(٥) في ط (التعرف).

(٦) أ ، ب (عند).

(٧) في ق (تبارك وتعالى).

(٨) (العبد) ساقطة من أ.

وكّله(١) فيه، والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده، ففي قوله(٢): ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[الأنعام:٨٩]، قال قتادة(٣): وكّلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم(٤) - يعني قبل هذه الآية - وقال أبو رجاء العطاردي(٥): معناه إن يكفر بها أهل الأرض، فقد وكلنا بها أهل السماء وهم الملائكة(٦)، وقال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار(٧) وأهل المدينة(٨).

---

(١) غ، ب (وكل فيه).

(٢) في ط (تعالى).

(٣) قتادة بن دعامة السدوسي البصري، ثقة ثبت، حافظ مفسر، توفي سنة بضعة عشر. طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٩، المعرفة والتاريخ ٢/ ٢٧٧، تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١، سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩.

(٤) تفسير البغوي (٢/ ١١٤)، الدر المنثور (٣/ ٣١٣).

(٥) أبو رجاء العطاردي، عمران بن ملحان، وقيل ابن سلمان التيمي البصري من المخضرمين، أدرك الجاهلية وأسلم بعد الفتح، ولم يرَ النبي ﷺ، حدث عن عمر وعلي - رضي الله عنهما - وغيرهما، توفي سنة ١٠٥هـ. طبقات ابن سعد ٧/ ١٣٨، المعارف ٤٢٧، تذكرة الحفاظ ١/ ٦٢، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٣.

(٦) تفسير البغوي (٢/ ١١٤)، الدر المنثور (٣/ ٤١٣).

(٧) (الواو) ساقطة من ط، والذي في الدر المنثور (أهل المدينة من الأنصار) (٣/ ٣١٣)، وبلفظ آخر (أهل المدينة والأنصار).

(٨)الدر المنثور (٣/ ٣١٣)، وورد بهذا اللفظ عن ابن عباس ومجاهد في تفسير أبي السعود (٣/ ١٥٩)، ابن كثير (٢/ ١٥٦)، الطبري (٧٢٦٤)، وفيه ألفاظ متعددة منها: «أهل المدينة

والصواب: أن المراد من قام بها إيماناً، ودعوة وجهاداً ونصرة، فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال: إن أحداً وكيل الله؟.

قلت: لا فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة، والله[١] لا نائب له، ولا يخلفه أحد؛ بل هو الذي يخلف عبده.

كما قال النبي ﷺ: «**اللهم أنت الصاحِبُ في السّفر والخليفةُ في الأهل**»[٢] علىٰ أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه، ورعايته والقيام به[٣].

وأما توكيل العبد ربه: فهو تفويضه إليه، وعزل نفسه عن التصرف، وإثباته[٤] لأهله ووليه، ولهذا قيل في التوكل: إنه عزل النفس عن الربوبية، وقيامها بالعبودية[٥]، وهذا معنىٰ كون الرب وكيل عبده، أي كافيه، والقائم

والأنصار»، «أهل المدينة قد تبوّؤوا الدار..»، وفي الدر المنثور أيضاً: «أهل المدينة من الأنصار» (٣/ ٣١٣)، وعند الثعالبي «هم مؤمنو أهل المدينة» (١/ ٥٣٨).

(١) في ط (عزّ وجل).

(٢) أحمد (٢/ ١٥٠) مسلم. الحج (٢/ ٩٧٨) ح(١٣٤٢) الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٠١) ح(٣٤٤٧) وقال حسن غريب، أبو داود. الجهاد (٣/ ٧٥) ح(٢٥٩٩).

(٣) (به) سقط من ق.

(٤) غ (لإثباته).

(٥) سبق الأثر عن النخشبي ص١٧٤٤، وغيره وهو في الرسالة القشيرية (٢٦٣-٢٦٤)، ومعناه: قيام الإنسان بالأسباب وعدم الالتفات إليها في تحقق مسبّبها؛ لأن هذا من شأن الرب، والله أعلم.

بأموره ومصالحه ، لا أنه[١] نائبه في التصرف ، فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان إليه[٢] ، وخلعة منه عليه ، لا عن حاجة منه ، وافتقار إليه كموالاته ، وأما توكيل العبد ربه: فتسليم لربوبيته ، وقيام بعبوديته[٣].

وقوله: «وَهُوَ مِن أَصعَبِ مَنَازِلِ العَامَّةِ عَليهِمْ»[٤] لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم ، ولم يشاهدوا الحقيقة التي شاهدها الخاصة ، وهي التي تشهد التوكل[٥] ، فهم في[٦] رق الأسباب ، فيصعب عليهم الخروج عنها ، وخلو القلب منها ، والاشتغال بملاحظة المسبب[٧] وحده.

مخالفة ابن القيم للهروي في التوكل

وأما كونه «أَوْهَىٰ السُّبُلِ عِندَ الخَاصَّةِ» فليس[٨] علىٰ إطلاقه ؛ بل هو من أجلِّ السُّبل عندهم[٩] وأفضلها قدراً ، وقد تقدم في صدر الباب : أمر الله رسوله

---

(١) ط (لأنه) و ق (له).

(٢) ط (له).

(٣) أي القيام بالأسباب عبودية والتفويض إلى مالكه ومصرفه ربوبية.

(٤) ومن كلام شيخ الإسلام قوله: «.. فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات أهل الطريق فقد غلط غلطاً شديداً.. إلى قوله لكن يقال: من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة» ، الفتاوى ١٠/ ٣٥ـ٣٦ ، التحفة العراقية ٣١٣ ، ومثله كلام ابن القيم في طريق الهجرتين ٢٨٦.

(٥) في ط (التوكيل).

(٦) (في) ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٧) م (السبب) وهو خلاف الصحيح.

(٨) ش (هو).

(٩) (عندهم) ساقط من ش.

بذلك ، وحضه عليه هو والمؤمنين ، ومن أسمائه ﷺ : «المتوكل»(١) وتوكله أعظم توكل ، مع إخباره بأنه علىٰ الحق: دلالة علىٰ أن الدين بمجموعه(٢) في هذين الأمرين: أن يكون(٣) العبد علىٰ الحق في قوله وعمله ، واعتقاده ونيته ، وأن يكون متوكلاً علىٰ الله واثقاً به ، فالدِّين كله في هذين المقامين ، وقال رسل الله وأنبياؤه : ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [ابراهيم :١٢] فالعبد آفته(٤): إما من عدم الهداية ، وإما من عدم التوكل ، فإذا جمع التوكل إلىٰ الهداية فقد جمع الإيمان كله.

نعم التوكل علىٰ الله في معلوم الرزق المضمون ، والاشتغال به عن التوكل في نصرة الحق والدِّين: من أوهىٰ منازل الخاصة ، أما التوكل في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق ، فهذا توكل الرسل والأنبياء(٥) ، فكيف يكون من أوهىٰ منازل الخاصة؟.

قوله: **«لأَنَّ الحْقَّ قَد وَكَّلَ بِهِ إِلىٰ نَفسِهِ ، وَأَيْأَسَ مِنهُ العَالَـمَ مِن مِلْكِ شَيءٍ مِنْهَا»**.

---

(١) من أسماء الرسول ﷺ (المتوكل) كما في البخاري. البيوع (٢/ ٩٦) ح(٢١٢٥) ، وطرفه (٤٨٣٨) ، وأحمد (٢/ ١٧٤) ، من قول عبدالله بن عمرو بن العاص عندما سئل عن صفة النبي ﷺ في التوراة ، الدرامي (١/ ١٦).

(٢) الأصل (مجموعة) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ش ، ق.

(٣) (يكون) ساقط من غ.

(٤) آفته من (أوف) الآفة: العاهة تصيب الشيء ، مختار الصحاح ٣٣.

(٥) ق (عليهم السلام).

فجوابه: أن الذي[1] تولىٰ ذلك أسند إلىٰ عباده كسباً وفعلاً وإقداراً[2]، واختياراً وأمراً أو[3] نهياً استعبدهم به، وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه، وأمرهم[4] بتوكلهم عليه فيما أسنده إليهم وأمرهم به، وتعبدهم به، وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين، وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين[5][6].

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه، وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام[7] من مقاماته جزاءً معلوماً.

وجعل نفسه[8] جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال[9]: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٥][10]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾[11] [النساء: ٦٩]، ثم قال في التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾

(١) م، ح٢، ش (الله).

(٢) ب (قدراً).

(٣) ط (وأمراً ونهياً).

(٤) ق (وأمر).

(٥) (الصابرين) ساقط من ش.

(٦) (وكما يحب التوابين) سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٧) (ومقام) ساقط من غ، ب.

(٨) أ، غ (لنفسه).

(٩) في ق (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً).

(١٠) في ق (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) تكرار.

(١١) في ق (من النبيين).

[الطلاق:٣].

فانظر إلىٰ هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ، ولم يجعله لغيره ، وهذا يدل علىٰ أن التوكل أقوىٰ السبل عنده وأحبها إليه ، وليس كونه وكل الأمور إلىٰ نفسه [بمناف لتوكل العبد عليه ؛ بل هذا تحقيق كون الأمور موكولة إلىٰ نفسه](١) ؛ لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حاله التوكل قطعاً(٢) علىٰ من هذا شأنه ، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه ، وأن العبد لا يملك شيئاً منها البتة(٣) فهو لا يجد بُداً من اعتماده عليه ، وتفويضه إليه ، [واستناده إليه](٤) وثقته به من الوجهين: من جهة الفقر ، وعدم ملكه شيئاً البتة ، ومن جهة كون(٥) الأمر كله(٦) بيده وإليه ، والتوكل ينشأ من هذين العلمين(٧).

فإن قيل: فإذا كان الأمر كله لله ، وليس للعبد من الأمر شيء ، فكيف يوكل المالك علىٰ ملكه؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له ، دون هذا الموكل؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلىٰ العامة ، وبقي

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من غ.

(٢) ب (قصد).

(٣) (البتة) ساقط من ط.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ط ، وفي ح٢ (إسناده).

(٥) (كون) ساقط من غ.

(٦) م (لله).

(٧) ب ، م (العملين).

الخطاب قيل: لما كان الأمر كله لله[1] وليس للعبد فيه شيء البتة، كان توكله علىٰ الله تسليم الأمر إلىٰ من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه بالتوكل لهم دون الخاصة؟.

عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلىٰ تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه، وهذا مقصود التوكل.

أما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: فهو عزل[2] لها عن حقيقة العبودية، وأما توجه الخطاب به إلىٰ العامة فيا سبحان[3] الله! هل خاطب الله بالتوكل إلا خواصَّ خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلَّق علىٰ الشرط يُعدم[4] عند عدمه.

وهذا يدل علىٰ انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكُّل له، لا إيمان له قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال[5]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠] وقال[6]: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ

---

(١) ق (عز وجل).

(٢) في غ، ب (عزلها).

(٣) ط (فسبحان).

(٤) في الأصل (عدم) والأقرب ما أثبته من ط.

(٥) في ط (تعالى).

(٦) في ط (تعالى).

إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال :٢] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر[1] عن رسله بأن التوكل ملجؤهم ومعاذهم ، وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه [وقال ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ[2] ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس:٨٤-٨٥][3] فكيف يكون من أوهى السبل ، وهذا شأنه؟[4].

فصل

درجات التوكل الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، كُلُّهَا تَسِيرُ مَسِيرَ العَامَّةِ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: التَّوَكُّلُ مَعَ الطَّلَبِ ، ومُعَاطَاةُ السَّبَبِ عَلَىٰ نِيَّةِ شُغلِ[5] النَّفْسِ[6] ، وَنَفعِ الخَلقِ[7] وتَرْكِ الدَّعوَىٰ»[8].

يقول: إن صاحب هذه الدرجة متوكل[9] على الله ، ولا يترك الأسباب ؛ بل

---

(١) ط (تعالى).

(٢) الأصل (مؤمنين) ، والصحيح ما أثبته من ط، ق.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ش.

(٤) في ق (والله سبحانه وتعالى أعلم).

(٥) أ، ب، غ (تشغل).

(٦) في د (بالسبب مخافة) وهو خلاف ما في المنازل.

(٧) (ونفع الخلق) سقط من د.

(٨) منازل السائرين ٣٤.

(٩) ط (يتوكل).

يتعاطاها علىٰ نية شغل النفس بالسبب، مخافة أن تفرغ فيشتغل[١] بالهوىٰ والحظوظ، فإن من[٢] لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضره، لا سيما إذا كان الفراغ مع حدة[٣] الشباب، وملك الجِدَة، [٤] كما قيل:

إنَّ الشَّبابَ والفراغَ والجِدَة   مَفسَدةٌ للمَرءِ أيُّ مَفْسدَة[٥]

ويكون أيضاً قيامه بالسبب علىٰ نية نفع النفس، ونفع الناس بذلك، فحصل له نفع نفسه ونفع غيره.

وأما تضمن ذلك لترك الدعوىٰ: فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلص من إشارة الخلق إليه، الموجبة لحسن ظنه بنفسه، الموجب لدعواه، فالسبب ستر لحاله ومقامه، وحجاب مسبل[٦] عليه.

ومن وجه آخر، وهو أنه[٧] يشهد به فقره وذله، وامتهانه امتهان العبيد والفَعَلة[٨]، فيتخلص من رعونة[٩] دعوىٰ النفس، فإنه إذا امتهن نفسه بمعاطاة

---

(١) ق، ط (فتشتغل).

(٢) (من) ساقطة من ط.

(٣) ق (حدث).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (وميل النفس إلى الهوى وتوالي الغفلات).

(٥) القائل أبو العتاهية. انظر أبو العتاهية أشعاره وأخباره ٤٤٨.

(٦) أسبل: أرخى وأرسل، لسان العرب ٦/ ٦٣.

(٧) ط (أن).

(٨) الفَعَلة: صفة غالبة على عملة الطين والحفر ونحوه، ترتيب القاموس ٣/ ٥٠٦، لسان العرب ١٠/ ٢٩٢.

(٩) رعونة: الأرعن: الأهوج، والرعونة الحمق، والاسترخاء. لسان العرب ٥/ ٢٥٠ مختار الصحاح ٢٤٨.

الأسباب: سلم من هذه الأمراض[١].

فيقال: إذا كانت الأسباب مأموراً بها ففيها فائدة أجلُّ من هذه الثلاث ، وهي المقصودة بالقصد الأول ، وهذه مقصودة قصد الوسائل ، وهي القيام بعبودية الأمر[٢] الذي خُلق له العبد ، وأرسلت به الرسل ، وأنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السماوات والأرض ، وله وُجدت الجنة والنار.

فالقيام بالأسباب المأمور بها: محض العبودية ، وحق الله علىٰ عبده الذي[٣] توجهت به نحوه المطالب ، وترتب عليه الثواب والعقاب[٤].

فصل

الدرجة الثانية

قال[٥]: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : التَّوكُّل مَعَ إِسقَاطِ الطَّلَبِ ، وَغَضِّ العَينِ عَن السَّبَبِ، اجتِهَاداً لِتَصحِيحِ التَّوَكُّلِ ، وَقَمْعاً لِشَرَف[٦] النَّفْسِ ، وَتَفَرُّغاً إِلَىٰ حِفْظِ

---

(١) ويخشى على ذلك أن يُدل على الخلق بعمله فيرى أن له عليهم حقاً واجباً لمقام اشتغاله ببعض أعمال القلوب التي تمنعه عن التكسب وفي هذا من رقة الدين ، وإطلاق الألسن عليه ما فيه ، ويوشك أن يصير إلى زلة تكسر شوكته وتطامن من تعاليه ، انظر في ذلك الوابل الصيب ٢٢ ، طريق الهجرتين ١٩٤.

(٢) جميع النسخ (بالعبودية والأمر).

(٣) ط (الذين).

(٤) ق (والله سبحانه أعلم).

(٥) (قال) سقط من أ ، ب ، غ.

(٦) في المنازل ٣٤: (وقمع تشرف).

الوَاجِبَاتِ»[١].

قوله : «مَعَ إِسقَاطِ الطَّلَبِ» أي من الخلق لا من الحق ، فلا[٢] يطلب من أحد شيئاً وهذا من أحسن الكلام وأنفعه للمريد ، فإن الطلب من الخلق في الأصل محظور ، وغايته أن يباح للضرورة ، كإباحة الميتة للمضطر ، ونص أحمد - رَضي الله عنه -[٣] علىٰ أنه لا يجب ، وكذلك كان شيخنا يشير إلىٰ[٤] أنه لا يجب الطلب والسؤال.

وسمعته[٥] يقول في السؤال:[٦] ظُلْم في حق الربوبية، وظلم في حق الخلق، وظلم في حق النفس.

أما في حق الربوبية فلما فيه من الذل لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه، والتعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين[٧].

(١) منازل السائرين ٣٤.

(٢) أ ، غ ، ب (ولا).

(٣) (رضي الله عنه) في الأصل فقط.

(٤) الأصل (إليه) والأقرب ما أثبته من د.

(٥) ترد لفظة سمعت شيخ الإسلام أو قال شيخ الإسلام في كلمات ابن القيم وقد لا توجد في كتب شيخ الإسلام وهذا يُفهم منه أنها سماع من لفظه ، قال ابن القيم: « .. وأنا أذكر ما حصلته من جوابه بخطه ولفظه وما فتح الله لي بيمن إرشاده وبركة تعليمه وحسن بيانه وتفهيمه » ، أعلام الموقعين ١/ ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، وسماعه له أثناء الطلب انظر تلك المواضع في المدارج ١/ ٥٣، ٥٧ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٢/ ١٠ ، ١٠٥ ، ١٥٤، ١٥٦ ، ٢٢٣، ٣/ ٣٠ ، ٥٩ ، ٦٩.

(٦) في ط ، غ ، ب (هو).

(٧) د (والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه).

وأما في حق الناس: فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم.

وأبغض ما إليهم: من يسألهم[١]، وأحب ما إليهم: من لا يسألهم، فإنّ أموالهم محبوباتهم، ومن سألك محبوبك[٢] تعرض لمقتك وبغضك.

وأما[٣] ظلم السائل[٤] نفسه حيث[٥] امتهنها[٦]، وأقامها في[٧] مقام ذل السؤال، ورضي لها بذل الطلب [ممن هو مثله أو لعل السائل خير منه وأعلىٰ قدراً، وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل][٨] وأهانها بذلك، ورضي أن يكون شحّاذاً من شحّاذٍ مثله، فإن من تشحذه فهو أيضاً شحّاذ[٩] مثلك، والله وحده هو الغني[١٠].

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير، والرب تعالىٰ كلما سألته

---

(١) (ما في أيديهم) سقط من الأصل، ش.

(٢) (فقد) فيما عدا الأصل، ش.

(٣) في الأصل (في) والأقرب حذفها كما في جميع النسخ.

(٤) في الأصل (لـ) والأقرب حذفها كما في جميع النسخ.

(٥) ق (فلأنه).

(٦) امتهنها: المَهْنة، المِهْنة، المَهَنة: الحذق بالحرفة والعمل ونحوه، وامتهنه: استعمله للمهنة، وامتهن نفسه: ابتذلها، لسان العرب ١٣/ ٢١٣.

(٧) (في) سقط من أ، ب، غ.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وهو في جميع النسخ.

(٩) أ، ب، غ (يشحذ).

(١٠) في ط (الحميد).

كَرُمت عليه، ورضي عنك، وأحبك، والمخلوق كلما سألته هُنتَ عليه وأبغضك[1] وقلاك، كما قيل:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنَيُّ آدم حِينَ يُسأل يَغْضب[2]

وقبيح بالعبد المريد: أن يتعرض لسؤال العبيد، وهو يجد عند مولاه كل ما يريد.

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا[3] عند رسول الله ﷺ تسعة – أو ثمانية، أو سبعة – فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟** وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا قد[4] بايعناك يا رسول الله، ثم قال: **ألا تبايعون رسول الله؟** فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، **فَعَلامَ نُبايعك؟** قال[5]: **أَنْ تعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس – وأسر كلمة خفية – ولا تسألوا الناس شَيئاً، قال: ولقد رأيت بعض أولئك النفر[6] يسقط سَوْطُ أحدِهم فما يسأل أحداً[7] يناوله إياه**»[8].

---

(١) (ومقتك) في جميع النسخ سوى الأصل، ش، م.

(٢) بيت الشعر: شعب الإيمان ٢/ ٣٥، تفسير ابن كثير ١/ ٢١، تفسير القرطبي ١/ ١٠٦، حادي الأرواح ٦٣.

(٣) ق (ولنا).

(٤) (قد) سقط من ب.

(٥) ط (فقال).

(٦) (النفر) سقط من ش.

(٧) في ط وبعض النسخ (أن) وليس في مسلم.

(٨) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢١) ح(١٠٤٣)، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٤) ح(١٦٤٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩٦) رقم(٧٦٥٤).

وفي الصحيحين عن ابن عمر - رَضي الله عنهما - عَن النبي ﷺ قال: «**لا تزالُ المسألةُ بأحدِكم حتَّىٰ يلقىٰ الله ولَيس في وَجْهه مُزْعَةُ لَحْم**»[1].

وفيهما أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ قال - وهو علىٰ المنبر، وذكر الصَّدَقة والتعفف عن المسألة -: «**اليَدُ[2] العُلْيا خَيْرٌ من اليَد[3] السُّفلىٰ**»[4].

واليد العليا: هي المنفقة، والسفلىٰ: هي السائلة[5].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**من سَأَلَ الناس[6] أموالهم[7] تكثراً فإنما يَسأل جَمْراً، فليستقلّ أو لِيَسْتكثر**»[8].

---

(١) مسلم الزكاة (٢/ ٧٢٠) ح(١٠٤٠) بلفظه، ونحوه البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٧) ح(١٤٧٥) أحمد (٢/ ١٥ ـ ٨٨).

(٢) ط (واليد).

(٣) (اليد) سقط من ش.

(٤) البخاري. الزكاة (١/ ٤٤٢) ح(١٤٢٩)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٦) ح(١٠٣٣) أحمد (٢/ ٤٨٠).

(٥) هذه الزيادة في البخاري. الزكاة (١/ ٤٤٢) ح(١٤٢٩) من حديث ابن عمر، في مسلم (٢/ ٧١٦) ح(١٠٣٣).

(٦) (الناس) سقط من م.

(٧) (أموالهم) الأصل ومن بعض النسخ ومن ط والمثبت من ق ومسلم.

(٨) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٠) ح(١٠٤١)، أحمد (٢/ ٢٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩٦) ح(٧٦٥١).

وفي الترمذي عن سُمْرة بن جندب[١] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**إن المسألة كَدّ يَكُدُّ بها الرجل وَجْهه، إلا أن يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمر[٢] لا بُدَّ منه**» قال الترمذي: حديث صحيح[٣].

وفيه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً «**من أصابَتْه فاقَة فأَنْزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشِكُ الله بِرزق عاجلٍ أو آجِل**»[٤].

وفي السنن والمسند عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تَكَفَّل لي أن لا يسأل الناس شيئاً، أتكفَّل له بالجنة، فقلت: أنا**»[٥] فكان لا

---

(١) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، من علماء الصحابة، نزل البصرة وله أحاديث صالحة، توفي سنة ٥٨هـ/ طبقات ابن سعد (٦/ ٣٤)، التاريخ الكبير (٤/ ٧٦)، المعارف (٣٠٥)، أسد الغابة (٢/ ٣٥٤)، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٣).

(٢) في النسائي و ط (الأمر الذي) وفي غ، ب (في الأمر لا بدَّ منه).

(٣) الترمذي. الزكاة (٣/ ٥٦) ح(٦٨١)، وقال حسن صحيح، صحيح النسائي للألباني (٢/ ٢٢٩) ح(٢٥٩٨)، أحمد (٥/ ١٠) بلفظ المسائل، الطبراني في الكبير (٧/ ١٨٢)، وقال الهيثمي في المجمع رجاله ثقاة(٣/ ٩٧)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة إسناده قوي (٦/ ١٢٢).

(٤) أحمد (١/ ٤٠٧)، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٦٣) ح(٢٣٢٦) وقال حسن صحيح غريب، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٦) ح(١٦٤٥)، المستدرك (١/ ٤٠٨) وقال صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال الألباني حسن لطرقه، المشكاة (١/ ٥٨٠) ح(٨٥٢).

(٥) أحمد (٥/ ٢٧٦)، أبو داود (٢/ ٢٩٥) ح(١٦٤٣) بنحوه صحيح النسائي للألباني (٢/ ٢٢٥) ح(٢٥٨٩)، وصحيح ابن ماجه للألباني (١/ ٣٠٨) ح(١٨٣٧)، وقال الحاكم في المستدرك: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (١/ ٥٧١).

يسأل أحداً شيئاً.

وفي صحيح مسلم عن قبيصة(١) ـ رَضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ : «أن المسألة لا تحِلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجلٌ تحمَّل حمالةً ، فحلت له المسألة حتىٰ يُصيبَها ثم يُمْسك ، ورجلٌ أصابته جائِحةٌ اجتاحَتْ ماله ، فحلت له المسألة حتىٰ يصيبَ قِواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - ورجل أَصَابَتْه فَاقَةٌ حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحِجَىٰ من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة ، فحلت له المسألة حتىٰ يصيب قِواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة فَسُحْتٌ يأكلها صاحبها سُحْتاً»(٢).

فالتوكل مع إسقاط هذا الطلب والسؤال هو(٣) محض العبودية.

حديث آخر عن الأسباب وصلتها بالتوكل

قوله: «وَغَضُّ العَينِ عَنِ السَّبَبِ(٤) ، اجتِهَاداً فِي تَصحِيحِ التَّوَكُّلِ».

معناه: أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب ، لتصحيح(٥) التوكل بامتحان النفس ؛ لأن المتعاطي(٦) للسبب قد يظن أنه حَصَّل التوكل ،

---

(١) قبيصة بن مخارق ، قدم إلى الرسول ﷺ في وفد بني هلال بن عامر وله حديث في الصدقات/ البداية والنهاية (٥/ ٩٢) ، الإصابة (٥/ ٢٢٧) ، تهذيب التهذيب (٨/ ٣٠٥).

(٢) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٢) ح(١٠٤٤) ، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٠) ح(١٦٤٠) ، صحيح النسائي. الزكاة (٢/ ٢٢١) ح(٢٥٧٩) ، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢١) رقم(١٢٩٦٣).

(٣) غ (عن) وهامش ب (لعله خروج).

(٤) (التسبب) والصحيح ما أثبته من المنازل (٣٤).

(٥) في أ ، غ ، ب (لصحيح).

(٦) الأصل ، ش (التعاطي) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ و ط.

ولم يحصله[1] لثقته بعلومه ، فإذا أعرض عن السبب صح له التوكل.

وهذا الذي أشار إليه: مذهب قوم من العباد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ، ويرىٰ حمل الزاد قدحاً في التوكل ، ولهم في ذلك حكايات مشهورة[2] وهؤلاء في خفارة[3][4] صدقهم ، وإلا فدرجتهم ناقصة عند[5] العارفين ، ومع هذا فلا[6] يمكن بشراً البتة[7] ترك الأسباب جملة.

فهذا إبراهيم الخواص[8] - رحمه الله -[9] كان[10] مجرداً[11] في التوكل يدقق

---

(١) م (ولم يحصل له).

(٢) الحث على التجارة ص١٤٢ كتاب الثِّقات لابن حبان ٨/ ٢٦٩ ، التوكل على الله/ رسالة الدميجي ١٦٨ ، الرسالة القشيرية ٢٦٧.

(٣) ق (حقارة).

(٤) خفارة : (الخفير: المجير والمعين ، وأخفره نقض عهده) ومن معانيه بعث معه خفيراً ، مختار الصحاح (٨٢).

(٥) أ ، غ ، ب ، ط (عن).

(٦) ش (ذلك) بدل (فلا).

(٧) (البتة) سقط من أ ، ح٢

(٨) إبراهيم بن أحمد الخواص ، أبو إسحاق ، من أشهر المشايخ ، ومن أقران الجنيد والثوري ، له مقامات في التوكل وفعل الأسباب ، توفي سنة ٢٩١هـ تاريخ بغداد (٦/ ٧) ، حلية الأولياء (١٠/ ٣٤٧) ، طبقات الأولياء ٤٧.

(٩) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(١٠) (كان) سقطت من غ ، ب.

(١١) الأصل (محرراً) والأصل ما أثبته من بقية النسخ وهو موافق لما في الرسالة القشيرية (٢٦٦).

فيه ويدخل البادية بغير زاد، وكان لا تفارقه الإبرة[١] والركوة[٢] والمقراض.

فقيل له: لم تحمل هذا، وأنت تمنع من كل شيء؟ فقال: مثل هذا لا ينقص[٣] التوكل، لأن لله تعالىٰ[٤] علينا فرائض، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد، فربما تخرق ثوبه، فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه[٥] صلاته، وإذا لم يكن معه رَكْوة فسدت عليه طهارته، وإذا رأيت الفقير بلا[٦] ركوة ولا إبرة ولا[٧] خيوط فاتّهمه في صلاته[٨].

أفلا تراه لم يستقم[٩] له دينه إلا بالأسباب؟ أو[١٠] ليست حركة أقدامه ونقلها في الطريق والاستدلال علىٰ أعلامها - إذا خفيت عليه - من الأسباب؟.

فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً[١١].

(١) في ط (الخيط).

(٢) الركوة التي للماء مختار الصحاح (٢٦٧).

(٣) في ط (من).

(٤) (تعالى) في الأصل فقط.

(٥) (عليه) سقط من غ، ب.

(٦) د (عار عن هذه الأشياء).

(٧) (لا) سقطت من ق.

(٨) الرسالة القشيرية ٢٦٧، وانظر قصة أبي سعيد الخراز في المقدمة في التصوف ٤٤ للسلمي.

(٩) ب (لا يستقيم).

(١٠) في الأصل (وليست) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط وفي ش (ولولا حركة).

(١١) انظر طريق الهجرتين ٢٩٠، الفتاوى ١٠/ ٣٦.

نعم[١] قد تعرض[٢] للصادق أحياناً قوة ثقة بالله ، وحال مع الله تحمله علىٰ ترك كل سبب غير[٣] مفروض عليه ، كما تحمله علىٰ إلقاء نفسه في مواضع الهلكة ، ويكون ذلك الوقت بالله لا به ، فيأتيه مدد من الله علىٰ مقتضىٰ حاله ، ولكن لا يدوم[٤] له هذا[٥] الحال ، وليست في مقتضىٰ الطبيعة فإنها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها ، فإذا استدعىٰ مثلها وتكلفها لم يُجَب إلىٰ ذلك ، وفي تلك الحال: إذا ترك السبب يكون معذوراً لقوة الوارد ، وعجزه عن الاشتغال بالسبب[٦] ، فيكون في وارده عون له ويكون حاملاً له ، فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المحال[٧][٨].

وكل تلك الحكايات الصحيحة التي تحكىٰ عن القوم فهي جزئية حصلت لهم

(١) (نعم) سقط من م.

(٢) د (تعترض).

(٣) (غير) ساقطة من ط.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (تدوم).

(٥) ش ، ط (هذه).

(٦) (السبب) سقط من غ.

(٧) الأصل (الحال) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٨) قال شيخ الإسلام: « .. وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أُمر به فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى مما كان به من التوكل » ، الفتاوى ١٠/ ٤٩١. وقال ابن القيم في طريق الهجرتين: «..فالكمال مع قيامه ، هو تنزيل الأسباب منازل علمٍ وعملٍ لا الإعراض عنها و محوها.. » ، ٢٩٥ وقال شيخ الإسلام في الرد على من عطل الأسباب واحتج بالقدر: « ليس كون الأمور مقدرة يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة » ، الفتاوى ١٠/ ٢٢.

أحياناً ، ليست طريقاً مأموراً بسلوكها ، ولا مقدورة ، وصارت فتنة لطائفتين.

طائفة ظنتها طريقاً ومقاماً ، فعملوا عليها ، فمنهم من انقطع ، ومنهم من رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها(١).

وطائفة قَدحوا في أربابها ، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل ، مدعين لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، إذ لم يكن فيهم أحد قط فعل(٢) ذلك ، ولا أخل بشيء من الأسباب ، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين دِرْعين يوم أحد(٣) ، ولم يحضر الصف قط عرياناً(٤) : كما يفعله من لا علم عنده(٥) ولا معرفة ، واستأجر دليلاً مشركاً علىٰ دين قومه(٦) ، يدله علىٰ طريق الهجرة وقد هدىٰ الله به العالمين(٧) وكان يدَّخر لأهله قوتَ سنة(٨) وهو سيد

---

(١) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (بل انقلب على عقبيه).

(٢) ط (يفعل) وفي ق (على).

(٣) أحمد (٣/ ٤٤٩) ، أبو داود (٣/ ٧١) ح(٢٥٩٠) ، الحاكم (٣/ ٢٨) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٠٨) رجاله رجال الصحيح.

(٤) المقصود من العري هنا: عدم أخذ الحيطة بالأسلحة.

(٥) ش (له).

(٦) البخاري. المناقب (٣/ ٦٨) ح(٣٩٠٥) ، وعبدالرزاق في المصنف (٥/ ٣٩١) ، البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١١٨) ، وفي سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٥).

(٧) جميع النسخ ، ط (وعصمه من الناس أجمعين).

(٨) البخاري. النفقات (٣/ ٤٢٥) ح(٥٣٥٧) ، مسلم. الجهاد والسير (٤/ ١٣٧٦) ح(١٧٥٦) ، الترمذي. الجهاد (٤/ ٢١٦) ح(١٧١٩).

المتـوكلين ، وكـان إذا سـافر في جِهـاد أو حـج أو عمـرة حمـل معـه[١] الـزاد والمزاد[٢]، وجميع أصحابه.

وهم أهل[٣] التوكل حقاً ، وأكمل المتـوكلين بعـدهم[٤]: [٥]من اشتـم[٦] رائحـة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثـراً من غبـارهم[٧] فـأحوال القـوم[٨] مِحـكُّ الأحوال وميزانها ، بها يعلم صحيحها مـن سقيمها ، فـإن هممهـم[٩] كانـت في التوكـل أعلىٰ مـن همـم مـن بعـدهم ، فـإن تـوكلهم كـان في فتـح[١٠] القلـوب[١١] والـبلاد ، [وأن يوحـده جميـع العبـاد ، وأن تـشرق شـموس الـدين الحـق علىٰ قلوب العباد][١٢] ، فملؤوا بذلك التوكّلِ القلوبَ هدىً وإيماناً.

---

(١) (معه) سقط من ط.

(٢) المزاد: الراوية. مختار الصحاح ٢٨٠.

(٣) جميع النسخ (أولوا) سوى الأصل ، ش.

(٤) ش (من بعدهم).

(٥) في ط (هو).

(٦) ب (شم).

(٧) الأصل ، ش (أثر غباره) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٨) بقية النسخ (فحال النبي ﷺ وحال أصحابه) سوى الأصل ، ش.

(٩) الأصل (كانت هممهم) والأقرب ما عدلته من بقية النسخ.

(١٠) ط زيادة (بصائر).

(١١) في بقية النسخ (أن يعبد الله في جميع البلاد) سوى الأصل ، ش.

(١٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل و ش ، وهو في بقية النسخ.

وفتحوا به[١] بلاد الكفر وجعلوها ديار[٢] إيمان[٣] ، فكانت همم الصحابة - رضي الله عنهم - أعلىٰ وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده علىٰ الله في شيء يحصل بأدنىٰ حيلة وسعي ، فيجعله نُصب عَيْنيه ، ويحَمل عليه قِوىٰ توكُّله.

قوله: «**وَقَمْعاً لِشَرَفِ النَّفْسِ**» يريد: أنّ المتسبب بالولايات[٤] الشريفة في العبادة ، أو التجارات الرفيعة ، والأسباب التي له بها جاه وشرف في الناس ، فإذا تركها يكون تركها قمعاً لشرف نفسه ، وإيثاراً للتواضع.

وقوله: «**وَتَفَرُّغاً لِحِفْظِ الوَاجِبَاتِ**» أي يتفرغ بتركها لحفظ واجباته[٥] التي تزاحمها تلك الأسباب[٦].

* * *

(١) (به) سقطت من ق.

(٢) ط ، ق (دار)

(٣) بقية النسخ سوى الأصل ، ش (وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً)

(٤) ق (لِبولايات).

(٥) أ ، غ ، ب (واجباتها).

(٦) ق (والله أعلم).

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : التَّوَكُّلُ مَعَ مَعرِفَةِ التَّوَكُّلِ ، النَّازِعَةُ إِلىٰ الخَلاَصِ مِن عِلَّةِ التَّوكُّل[1] ، وَهُوَ[2] أن يَعلَمَ أَنَّ مَلَكَةَ الحَقِّ تَعَالىٰ لِلأَشيَاءِ هِيَ مَلَكَةُ عِزَّةٍ لاَ يُشَارِكُهُ فِيهَا مُشَارِكٌ ، فَيَكِلُ شِرْكَتَهُ إِلَيهِ ، فَإِنَّ مِن ضَرُورَةِ العُبودِيَّةِ: أَن يَعلَمَ العَبدُ أَنَّ الحَقَّ[3] هُوَ مَالِكُ الأَشيَاءِ[4] وَحدَهُ»[5].

يريد أن صاحب هذه الدرجة متىٰ قطع الأسباب والطلب ، وتعدىٰ تلك[6] الدرجتين ، فتوكُّله فوق توكّل من قبله ، وهو إنما[7] يكون بعد معرفته بحقيقة التوكل، [وأنه دون مقامه، فتكون معرفته به وبحقيقته نازعة - أي باعثة وداعية - إلىٰ تخلصه من علة التوكل][8].

أي لا يعرف علة التوكل حتىٰ[9] يعرف حقيقته، فحينئذ يعرف التوكل[10]

---

(١) انظر توضيح ذلك في طريق الهجرتين (٢٩٢).

(٢) الأصل ، ش ، ط (وهي) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، وهو الموافق للمنازل (٣٤).

(٣) ق (سبحانه).

(٤) الأصل، ش (للأشياء) والصحيح ما أثبته من م، أ ، غ ، ح٢، ب و ط وهو موافق للمنازل ٣٤.

(٥) منازل السائرين ٣٤.

(٦) ط (تينك).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (أن يكون).

(٨) ما بين المعقوفين ساقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٩) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (به).

(١٠) ش ، ق (المتوكل).

المعرفة التي تدعوه إلىٰ التخلص من عِلَّته.

ثم بيّن المعرفة التي يعلم بها علة التوكل ، فقال: «**أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَلَكَةَ الحَقِّ لِلأَشْيَاء مَلَكَةُ عِزَّةٍ**» أي ملكة امتناع وقوة وقهر ، يمنع[1] أن يشاركه في ملكه لشيء من الأشياء مشارك ، [فهو العزيز في ملكه ، الذي لا يشاركه غيره في ذرة منه ، كما هو المنفرد بعزته التي[2] لا يشاركه فيها مشارك][3].

فالمتوكل يرىٰ أن له شيئاً قد وكل الحق فيه ، وأنه سبحانه صار وكيله عليه ، وهذا مخالف لحقيقة الأمر ، إذ ليس لأحد من الأمر مع الله تعالىٰ[4] شيء ، فلهذا[5] قال: «**لاَ يُشَارِكُهُ فِيهِ مُشَارِكٌ ، فَيَكِلُ شِركَتَهُ إِلَيهِ**» فلسان الحال يقول: لمن جعل الربَّ تعالىٰ وكيله: في ماذا وكلت ربك؟ أفيما[6] له وحده؟ أو لك وحدك؟ أو بينكما؟ فالثاني والثالث ممتنع بتفرده بالملك وحده والتوكيل في الأول ممتنع ، فكيف توكله فيما ليس لك[7] منه شيء البتة؟.

فيقال هاهنا أمران: توكل ، وتوكيل ، فالتوكل: محض الاعتماد والثقة ،

---

(١) ش ، ط (تمنع) ، وفي أ (المنع).

(٢) ش (الذي).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٤) (تعالى) في الأصل فقط.

(٥) ق (ولهذا).

(٦) ق (فيما).

(٧) د ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (له).

والسكون إلىٰ من له الأمر كله، وعلم العبد بتفرد الحق سبحانه(١) بملك الأشياء كلها(٤)، وأنه(٢) ليس له مشارك في(٣) ذَرَّةٍ من ذرات الكون: من أقوىٰ أسباب توكله وأعظم دواعيه.

فإذا تحقق ذلك علماً ومعرفة وباشر قلبه حالاً: لم يجد بُداً من اعتماد قلبه علىٰ الحق وحده، وثقته به، وسكونه إليه وحده، وطمأنينته به وحده، لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته، وجميع مصالحه(٤) بيديه(٥) وحده، لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصاً من التوكل بعد هذا؟.

فعلَّة التوكل حينئذ: التفات قلبه إلىٰ من ليس له شركة في ملك الحق، ولا يملك مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، هذه علة توكله، فهو يعمل علىٰ خلاص(٦) توكله من هذه العلة.

نعم ومن علة أخرىٰ وهي(٧) رؤية توكله، فإنه التفات إلىٰ عوالم نفسه.

وعلة ثالثة: وهي صرف قوة توكله إلىٰ شيء غيره أحب إلىٰ الله منه.

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط (تعالى وحده).

(٢) ق (أو أنه).

(٣) (في) سقط من ش.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، ش، ق (كلها).

(٥) ق (بيده).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (تخليص).

(٧) ب (من).

فهذه العلل الثلاث[١]: هي علل التوكيل.

وأما التوكل: فليس المراد منه إلا مجرد التفويض، وهو[٢] من أخص مقامات العارفين، كما كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك**»[٣].

وقال تعالىٰ عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤] فكان جزاء هذا التفويض قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ﴾ [غافر:٤٥] فإن كان التوكل معلولاً بما ذكره، فالتفويض أيضاً كذلك، وإنْ ليس[٤] فليس.[٥]

ولولا أن الحق لله ورسوله، وأن كل ما عدا الله ورسوله، فمأخوذ من قوله ومتروك، وهو عرضةُ الوهم والخطأ: لما اعترضنا علىٰ من لا نلحق غبارهم، ولا نجري معهم في مضمارهم، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان، ومنازل السائرين، كالنجوم الدراري، ومن كان عنده علم فليرشد[٦] إليه، ومن رأىٰ

---

(١) ق سقط من (أ، غ، ب).

(٢) ش (وهي)، غ (وهذا).

(٣) البخاري. الدعوات (٤/ ١٥٥) ح(٦٣١١)، مسلم. الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٨١) ح(٢٧١٠)، الترمذي. الدعاء (٥/ ٤٦٨) ح(٣٣٩٤).

(٤) جميع النسخ و ط (وليس) والأقرب ما أثبته من ش.

(٥) انظر تعليق ابن القيم على هذه المسألة في طريق الهجرتين ٢٩٣.

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (فليرشدنا).

في كلامنا زيغاً وخطأً[١]، فليهد إلينا الصواب، نشكر له سعيه، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم، والله[٢] الموفق.

* * *

(١) د، ق (أو نقصاً أو خطأً).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (أعلم وهو).

فصل[١]

منزلة التفويض

و[٢] من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «التفويض»[٣].

قال صاحب «المنازل»:

«وَهُوَ أَلْطَفُ إِشَارَةٍ ، وَأَوْسَعُ مَعنَىٰ مِن التَّوكُّلِ ، فَإِنَّ التَّوكُّلَ بَعدَ وُقُوعِ السَّبَبِ ، وَالتَّفْوِيضَ قَبلَ وُقُوعِهِ وَبَعدَه ، وَهُوَ عَينُ الاستِسْلاَمِ ، وَالتَّوكُّلُ شُعْبَةٌ مِنْهُ»[٤].

تعريف التفويض وأدلته

يعني أن المفوض يتبرأ من الحول والقوة ، ويفوض الأمر لصاحبه ، من غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه ، بخلاف التوكّل ، فإن الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكل[٥].

---

(١) في هامش الأصل ، ش (باب منزلة التفويض).

(٢) ق سقطت (الواو).

(٣) هو كلة الأمور كلها قبل الوقوع وبعده إلى مجريها ، علماً بأنه أعلم بمصالحنا وأرحم ، وفيها براءة من دعوى الملكية ، وفيها سكون القلب إلى المقضي ، وقال أبو عثمان الحيري: «التفويض: رد ما جهلت علمه إلى عالمه والتفويض مقدمة الرضا ، والرضا باب الله الأعظم ، وهو مع الكسب أفضل من خلوه منه ، وهو عندهم الانسلاخ عن التدبير والاختيار» ، انظر هذه الأقوال في: طبقات الصوفية ١٧٤ - ٣٦٩ ، لطائف الإعلام ١/ ٣٣٨ ، معجم مصطلحات الصوفية ٤٦.

(٤) منازل السائرين ٣٤ و المطبوع ١٣٧.

(٥) طريق الهجرتين ٢٤٤ ، وانظر ما سبق من مراجع تعريف التفويض عند أصحاب الطريق.

فالتفويض: براءة وخروج من الحول والقوة، وتسليم الأمر كله إلىٰ مالكه.

فيقال: وكذلك[(١)] التوكل أيضاً، وما قَدَحْتُمْ به في التوكل يرد عليكم نظيره في التفويض سواء، فإنّك كيف تفوض شيئاً لا[(٢)] تملكه البتة إلىٰ مالكه؟ وهل يصح أن يفوض واحد من آحاد الرعية المُلْك إلىٰ ملك[(٣)] زمانه؟.

فالعلة إذاً في التفويض أعظم منها[(٤)] في التوكل؛ بل لو قال قائل: التوكل فوق التفويض، وأجَلّ منه وأرفع، لكان مصيباً، ولهذا[(٥)] القرآن مملوء به أمراً، وإخباراً عن خاصة[(٦)] الله وأوليائه، وصفوة[(٧)] المؤمنين، بأن حالهم التوكل[(٨)]، وأمر الله به رسوله في أربعة مواضع من كتابه[(٩)].

---

(١) الأصل (لذلك) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٢) (لا) سقطت من ش.

(٣) ق (مالك).

(٤) أ، غ، ب (منه).

(٥) في ط (كان).

(٦) (خاصة) سقطت من ق.

(٧) في الأصل (وصفوته) والأقرب ما أثبته من أ، ح٢، د، ق و ط.

(٨) (التوكل) ساقطة من الأصل، ش وما أثبته من بقية النسخ.

(٩) بل في مواضع كثيرة منها ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ [آل عمران:١٥٩] وقوله: ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله﴾ [النساء:٨١] وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ [هود:١٢٣] وقوله: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ [الفرقان:٥٨].

وسماه «المتوكِّل» كما في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو[(١)] - رضي الله عنهما - قال: «قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: محمد رسول الله، سميته المتوكل، ليس بِفَظٍّ، ولا غليظ، ولا سخَّاب[(٢)] في[(٣)] الأسواق»[(٤)].

وأخبر عن رسله بأن حالهم كان التوكل، وبه انتصروا علىٰ قومهم، وأخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم أهل مقام التوكل[(٥)].

ولم يجئ التفويض في القرآن إلا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون من قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: ٤٤] وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتخذه وكيلاً، فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾][(٦)] [المزمل: ٩].

وهذا يبطل قول من قال من جهلة القوم: إن توكيل الرب فيه[(٧)] جَسارة علىٰ الباري؛ لأن التوكيل[(٨)] يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكل، وذلك عين

---

(١) ط (عمر) والصحيح ما أثبته من الأصل والبخاري وأحمد رحمهما الله.

(٢) سخاب: السخب هو الصياح لسان العرب (١/ ٤٦٢).

(٣) ق، ط (بالأسواق) والصحيح ما أثبته من الأصل وبقية النسخ وهو موافق لما في البخاري (٢/ ٩٦) ح(٢١٢٥).

(٤) تقدم تخريجه ص ١٧٧٦.

(٥) حديث السبعين ألفاً أخرجه البخاري. الطب (٤/ ٣٧) ح (٥٧٠٥)، مسلم. الإيمان (١/ ١٩٩) ح (٢٢٠)، أحمد (١/ ٢٧١)، وتقدم بعضه ص١٧٣٤.

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ح٢.

(٧) (فيه) سقطت من أ، ب، غ، م.

(٨) م، ب، غ، د، ق (التوكل)

الجسارة.

قال: ولولا أن الله أباح ذلك وندب إليه، لما جاز للعبد تعاطيه.

وهذا من أعظم الجهل، فإن اتخاذه وكيلاً هو محض العبودية، وخالص التوحيد، إذا قام به[1] صاحب الحقيقة.

ولله درُّ سيد[2] القوم، وشيخ[3] الطائفة سهل بن عبدالله التستري، إذ يقول: العلم كله بابٌ من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد[4] كله باب من التوكل[5] فالذي نذهب إليه: أن التوكل أوسع من التفويض، وأعلىٰ وأرفع.

قوله: «فَإِنَّ التَّوَكُّلَ بَعدَ وُقُوعِ السَّبَبِ، وَالتَّفوِيضَ قَبْلَ وُقُوعِهِ وَبَعدَهُ».

يعني بالسبب[6]: الاكتساب، فالمفوض قد فوض أمره[7] قبل اكتسابه وبعد اكتسابه[8]، والمتوكل قد قام بالسبب، وتوكل فيه علىٰ الله، فصار التفويض أوسع.

---

(١) (به) سقطت من ق.

(٢) أ، ب (شيخ).

(٣) أ، ب (سيد).

(٤) (كله) سقطت من د، ق.

(٥) منارات السائرين ومقامات الطائرين ٢٦٦، عوارف المعارف ٥٤٠، ونحوه في حلية الأولياء ٢٠٦/١٠.

(٦) ش (الأسباب).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب (إلى الله).

(٨) ط (وبعده).

فيقال: والتوكل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده، فيتوكل علىٰ الله[1] أن يقيمه في سبب يوصله إلىٰ مطلوبه، فإذا أتمه توكل علىٰ الله في حصول ثمرته[2]، فيتوكل علىٰ الله قبله ومعه وبعده.

فعلىٰ هذا: هو أوسع من التفويض علىٰ ما ذكر.

قوله: «**وَهُوَ عَيْنُ الاستِسْلامِ**» أي: التفويض عين الانقياد بالكلية إلىٰ الحق سبحانه، ولا يبالي أكان ما يقضي له الخير، أم خلافه؟ والمتوكل يتوكل علىٰ الله في مصالحه.

وهذا القدر هو الذي لحَظَهُ[3] القوم في هضم مقام التوكل، ورفع مقام التفويض عليه، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن المفوض لا يفوض أمره إلىٰ الله إلا لإرادته أن يقضي له ما هو خير له[4] في معاشه ومعاده، وإن كان المقضيُّ له خلاف ما يظنه خيراً، فهو راض به؛ لأنه يعلم أنه خير له، وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه وهكذا حال المتوكل سواء، بل[5] أرفع من المفوض؛ لأن معه من عمل القلب ما ليس

---

(١) (لفظ الجلالة) سقطت من أ.

(٢) ط (ثمراته).

(٣) (لحظه) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) (له) سقطت من أ، ب.

(٥) أ، ب، غ (هو).

مع المفوض[1]، فالمتوكل مفوض وزيادة، فلا يستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض، فإنه إذا فوَّض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوّض أمره إلىٰ رجل، وجعله إليه، فإنه يجد من نفسه - بعد تفويضه - اعتماداً خاصاً[2]، وسكوناً وطمأنينة إلىٰ المفوض إليه أكثر مما كان قبل التفويض، وهذا هو حقيقة التوكل.

الوجه الثاني: أن أهم مصالح المتوكل: حصول مراضي محبوبه و محابه، فهو يتوكل عليه في تحصيلها له، فأي مصلحة أعظم من هذه[3].

وأما التفويض: فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها إلىٰ الله، فإنه لا يفوض إليه محابه، والمتوكل يتوكل عليه في محابه.

والوهم إنما دخل[4] حيث يظن الظان: أن التوكل مقصور علىٰ معلوم الرزق، وقوة البدن، وصحة الجسم، ولا ريب أن هذا التوكل ناقص بالنسبة إلىٰ التوكل في إقامة الدين والدعوة إلىٰ الله.

درجات التفويض: الدرجة الأولى

قال: **«وَهُوَ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ، الأُولىٰ[5]: أَن يَعْلَمَ[6] أَنَّ العَبدَ لَا يَملِكُ قَبلَ عَمَلِهِ**

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (فإن).

(٢) م (خالصاً).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (هذه).

(٤) ط (من).

(٥) ط (الأول) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ والمنازل ٣٥ وهي ساقطة من غ.

(٦) المنازل (تعلم).

استِطَاعَةً ، فَلَا يَأمَنُ مِنْ مَكرٍ ، وَلَا يَيْأَسُ مِن مَعُونَةٍ وَلَا يُعَوِّلُ عَلَىٰ نِيَّةٍ»[١].

أي يتحقق أن استطاعته بيد الله ، لا بيده ، فهو مالكها دونه ، فإن[٢] لم يُعْطِهِ الاستطاعة فهو عاجز ، فهو[٣] لا يتحرك إلا بالله ، لا بنفسه ، فكيف يأمن المكر ، وهو ألا[٤] يحركه من حركته بيده بل[٥] يثبطه ويقعده مع القاعدين ، كما قال فيمن منعه من[٦] هذا التوفيق: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾[التوبة:٤٦].

فهذا مكر[٧] الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توفيقه ، ويخلي بينه وبين نفسه ، ولا يبعث دواعيه ولا يحركه إلىٰ مرضاته[٨] و محابه، وليس هذا حقاً عليه[٩] يكون[١٠]

---

(١) منازل السائرين (٣٥).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فإنه إن لم).

(٣) ق (ولا يتحرك).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (وهو محرَّك لا محرِّك) و ط كذلك.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فإن شاء ثبطه وأقعده) وفي ق (وإن شاء).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب سقطت (من).

(٧) المكر: صفة من صفات الله تعالى الفعلية التي لا يوصف بها على جهة الإطلاق ؛ بل لا بد من التقييد ، انظر في بيان ذلك: غريب الحديث للحربي ١/ ٩٤ ، التدمرية ٢٦ ، مختصر الصواعق ٢/ ٣٢ ، المجموع الثمين لابن عثيمين ٢/ ٦٥.

(٨) أ (مراضيه).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (على الله).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فيكون).

ظالماً بمنعه ؛[1] بل هو مجرد فضله الذي يحمد[2] علىٰ بَذْلِه لمَن بَذَلَه[3] ، وعلىٰ مَنْعِه لمَن مَنَعَه إياه ، فله الحمد علىٰ هذا[4] وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سر القدر ، وانجلت له إشكالات كثيرة ، فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلاً يفعله بعبده يقع منه ما يحبه ويرضاه ، فيمنعه فعل نفسه به ، وهو توفيقه

لا أنه[5] يكرهه ، ويقهره علىٰ فعل مساخطه ؛ بل يَكِلُه إلىٰ نفسه وَحَوْله وقوته ، ويتخلىٰ عنه فهذا هو المكر.

قوله: «وَلَا يَيْأَسُ مِن مَعُونَةٍ» يعني إذا كان المحرك له هو الرب جلّ جلاله ، وهو أقدر القادرين ، وهو الذي تفرد بخلقه ورزقه ، وهو أرحم الراحمين ، فكيف ييأس من معونته له؟.

قوله: «وَلاَ يُعَوِّلُ عَلىٰ نِيَّةٍ» أي لا يعتمد علىٰ نيته وعزمه ، ويثق بها ، فإن نيته وعزمه بيد[6] الله[7] لا بيده ، وهي إلىٰ الله لا إليه ، فلتكن ثقته بمن هي في يده

(١) في غ ، ب ، أ (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) و ط مع حذف (عن ذلك).

(٢) ط (يحمده).

(٣) ق (له).

(٤) ح٢ (وعلى هذا).

(٥) أ ، ب ، غ (لأنه).

(٦) غ (بيدي).

(٧) ق (تعالى).

حقاً[١]، لا بمن هي جارية عليه حكماً.

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: مُعَايَنَةُ الاضْطِرَارِ: فَلَا يَرَىٰ[٢] عَمَلاً مُنْجِياً، وَلاَ ذَنْباً مُهْلِكاً، وَلاَ سَبَباً حَامِلاً»[٣].

أي يعاين فقره وفاقته وضرورته التامة إلىٰ الله، بحيث[٤] يرىٰ في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة، وفاقة تامة إلىٰ الله، فنجاته إنما هي بالله لا بعمله.

وأما قوله: «وَلاَ ذَنْباً مُهْلِكاً» فإنْ أراد به أنّ هلاكه بالله، لا بسبب ذنوبه فباطِل، معاذ الله من ذلك، وإنْ أراد به: أنّ فضل الله وسعت[٥] مغفرته ورحمته، ومشاهدة شدة ضرورته وفاقته إليه: يوجب له[٦] أن لا يرىٰ ذنباً مهلكاً، فإن افتقاره وفاقته وضرورته إلىٰ الله[٧] يمنعه[٨] من الهلاك بذنوبه؛ بل تمنعه من

---

(١) (حقاً) سقطت من غ.

(٢) منازل السائرين ٣٥ (ترى).

(٣) منازل السائرين ٣٥.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د (إنه).

(٥) ط (وسعته ومغفرته).

(٦) (له) سقط من ش.

(٧) (إلى الله) سقط من ق، ط.

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، ق (تمنعه) وفي د (تمنع).

اقتحام الذنوب المهلكة ، إذ صاحب هذا المقام لا يصر علىٰ ذنوب تهلكه ، وهذا حاله فهذا حق ، وهو من مشاهد أهل المعرفة.

وقوله: «وَلاَ سَبَباً حَامِلاً» أي يَشْهد: أن الحامل له هو الحق تعالىٰ ، لا الأسباب التي يقوم بها ، فإنه وإيّاها محمولان بالله وحده.

فصل

قال[1]: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: شُهُودُ[2] انفِرَادِ الحَقِّ بِمِلْكِ الحَرَكَةِ وَالسُّكونِ ، وَالقَبْضِ وَالبَسطِ ، وَمَعرِفَتِهِ بِتَصْرِيفِ التَّفْرِقَةِ وَالجَمعِ»[3].

هذه درجة تتعلق بشهود وصف الله[4] وشأنه ، والتي قبلها تتعلق بشهود حال العبد ووصفه ، أي يشهد حركات العالم وسكونه صادرة عن الحق تعالىٰ في كل متحرك وساكن ، فيشهد تعلق الحركة باسمه «الباسط» ، وتعلق السكون باسمه «القابض»[5] فيشهد تفرده سبحانه بالبسط والقبض.

---

(١) (قال)سقط من ق.

(٢) منازل السائرين (شهودك) ٣٥ .

(٣) منازل السائرين ٣٥ ، التفرقة والجمع: تقدم بحثها ص١٧١٠ ، وانظر الفتاوى ١٠/ ٢٨.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، د (تبارك وتعالى) ، ح٢ (تعالى).

(٥) اسم الباسط القابض فيه حديث أنس « أن الله هو المسعر.. القابض الباسط.. » ، أحمد (١٥٦ ـ ٢٨٦) أبو داود. البيوع (٣/ ٧٣١) ح(٣٥٤) ، الترمذي. البيوع (٣/ ٥٩٦) ح(١٣١٤) ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه. التجارات (٢/ ٧٤١) ح(٢٢٠٠) وصححه الألباني انظر صحيح ابن ماجه (٢/ ١٤) ح(٢٢٠٠) ، وفي صحيح الجامع رقم (٨٤٦) وممن أثبته الوليد

وأما «مَعرِفَتُه بِتَصرِيفِ التَّفرِقَةِ وَالجَمعِ» أن[1] يكون المُشاهد[2] عارفاً بمواضع التفرقة والجمع، والمراد بالتفرقة: نظر الاعتبار، ونسبة الأفعال إلىٰ الخلق.

والمراد بالجمع: شهود[3] الأفعال منسوبة إلىٰ مُوجِدِها الحق[4].

وقد يريدون بالتفرقة والجمع: معنىٰ وراء هذا الشهود، وهو حال التفرقة والجمع.

فحال التفرقة: تفرق القلب في أودية الإرادات وشعابها، وحال الجمع: جمعيته علىٰ مراد الحق وحده. فالأول: علم التفرقة والجمع، والثاني: حالهما[5].

* * *

ابن مسلم وعبدالملك الصنعاني وابن منده والأصبهاني وابن حزم وابن العربي والبيهقي وابن عثيمين، انظر رسالة عبدالله الغصن في أسماء الله الحسنى ٣٣٣.

(١) ق (أي)، و ط (فإن).

(٢) ق (الشهد).

(٣) أ، ب، غ (بشهود).

(٤) ط (تعالى).

(٥) م، أ، غ، ب، ق (والله أعلم) وفي د (والله تعالى أعلم) وفي ح٢ (والله سبحانه وتعالى أعلم).

فصل (١)

منزلة الثقة بالله

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الثقة(٢) بالله(٣)».

قال صاحب «المنازل» :

«الثِّقَةُ : سَوَادُ عَينِ التَّوَكُّلِ ، وَنُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ ، وَسُوَيدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ»(٤).

وصدر الباب(٥) بقوله تعالىٰ لأمِّ موسىٰ : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص :٧] ، فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله(٦)، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت ولدها(٧) وفلذة كبدها في تيار الماء ، تتلاعب

---

(١) في حاشية ش (باب الثقة) ، وفي حاشية الأصل (الثقة).

(٢) الثقة لها معان يجمعها الإحكام والتوثق من الأمر ، والاطمئنان إليه ، لسان العرب ١٠/ ٣٧١، ترتيب القاموس ٤/ ٥٧٣ ، المعجم الوسيط ١/ ١٠١١ ، وهي في مصطلح أهل الطريق اعتماد العبد في كل شيء علىٰ الله وحده ، ويعرف الواثق بأنه إذا فاته شيء من الدنيا حسبه غنيمة ، وهي من التقلب في الرضا من أخص صفات الأولياء.

ينظر في هذه الأقوال : لطائف الإعلام ١/ ٣٧٨ ، طبقات السلمي ٦٥ ، ٩٤ ، ١١٠ .

(٣) غ ، ب (تعالىٰ).

(٤) منازل السائرين ٣٥ ، وانظر المعنىٰ نفسه عند أبي بكر الواسطي ، شعب الإيمان ٢/ ١١٠ .

(٥) (وصدر الباب) طمس من أ.

(٦) ط (تعالىٰ).

(٧) في ط (بولدها).

به أمواجه، وجريانه[1] إلىٰ حيث ينتهي أو[2] يقف.

ومراده: أن «الثقة» خلاصة التوكل ولبُّه، كما أن سواد العين: أشرف ما في العين.

وأشار بأنه «نُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ[3]» إلىٰ أنَّ مدار[4] التوكل عليه، وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة، فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط، ونسبة جهات المحيط إليها[5] نسبة واحدة، وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها، كذلك «الثقة» هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

وكذلك قوله: «سُوَيْدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ»، فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه، وهي المهجة التي تكون[6] بها الحياة، وهي في[7] وسطه، فلو كان «التفويض» قلباً لكانت «الثقةُ» سويداءَه، ولو كان عيناً لكانت سوادَها، ولو كان دائرة لكانت نقطتَها.

---

(١) ق، م، ح٢، ط (جرياته).

(٢) (أو) سقطت من ب، و (الألف) سقطت من ح٢.

(٣) الأصل، ش، ق (التوكل) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، وهذا هو الموافق للمنازل (٣٥).

(٤) ح٢ (هذا) بدل (مدار).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (إليه).

(٦) ق (بها تكون).

(٧) (في) سقطت من ش.

صلة الثقة بالتفويض

وقد تقدم أنّ كثيراً من الناس يفسر «التوكل» بالثقة، ويجعله حقيقتها، ومنهم من يفسره بالتفويض، ومنهم من يفسره بالتسليم.

فعلمت: أنّ مقام التوكل يجمع ذلك كله.

فكأنّ «الثقة» عند الشيخ هي روح التوكل،[1] «والتوكل»[2] كالبَدَن الحامل لها، ونسبتها إلىٰ التوكل كنسبة الإحسان إلىٰ الإيمان.[3]

فصــل

درجات الثقة

الدرجة الأولى

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: دَرَجَةُ الإِيَاسِ، وَهِيَ[4] إِيَاسُ[5] العَبْدِ[6] عَنْ[7] مُقَاوَمَاتِ الأَحْكَامِ، لِيَقْعُدَ عَنْ مُنَازَعَةِ[8] الأَقْسَامِ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ قِحَةِ[9] الإِقْدَامِ»[10].

---

(١) (التوكل) سقط من ط.

(٢) (والتوكل) سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (والله أعلم).

(٤) ق، ط ومنازل السائرين (وهو).

(٥) (إياس) ساقطة من الأصل، والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ وهو الموافق لمنازل السائرين، و ط.

(٦) الأصل (البعد) والصحيح المثبت من ق ومنازل السائرين و ط.

(٧) أ، ب، غ (عند) بدل (عن).

(٨) ح٢ (منازعات).

(٩) قحة: رجل وقح الوجه، قليل الحياء، لسان العرب ١٥/ ٣٦٢.

(١٠) منازل السائرين ٣٦؛ لكن بلفظ (مقاواة الأحكام).

يعني أن الواثق بالله - لاعتقاده[١] ؛ أن الله تعالىٰ إذا[٢] حكم بحكم وقضىٰ أمراً، فلا مردّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه. فمن حكم الله له بحكم وقسم له بنصيب من الرزق ، أو الطاعة أو الحال ، أو العلم أو غيره : فلا بدّ من حصوله له[٣] ، ومن لم يقسم له ذلك : فلا سبيل له إليه البتة ، كما لا سبيل له[٤]إلىٰ الطيران إلىٰ السماء ، وحمل الجبال ، فبهذا القدر يقعد عن منازعة الأقسام ، فما كان له منها فسوف يأتيه علىٰ ضعفه ، وما لم يكن له منها فلن يناله بقوته[٥].

والفرق بين[٦] «مقاومة الأحكام» و «منازعة الأقسام» أنّ مقاومة الأحكام : أنْ تتعلق إرادته بغير[٧] ما في حكم الله وقضائه ، فإذا تعلقت إرادته بذلك جاذب الخلق الأقسام ونازعهم فيها.

وقوله :«يَتَخَلَّصُ[٨] مِنْ قِحَةِ الإِقْدَامِ» أي يتخلص بالثقة بالله من هذه القحة والجراءة[٩] علىٰ إقدامه علىٰ ما لم يحْكم[١٠] له به ولا قُسِم له[١١].

---

(١) ح٢ ، م (لاعتقاده من ...).

(٢) (إذا) سقطت من ق.

(٣) (له) سقطت من ح٢.

(٤) (له) سقطت من ح٢.

(٥) (بقوته) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) في ط (قوله).

(٧) أ ، ب ، غ (بغين) وبهامشها (لعلة بغير).

(٨) ق (ليتخلص).

(٩) ش (الحركة) ط (الجرأة).

(١٠) (يحكم) سقط من د.

(١١) في ب (والله سبحانه أعلم) وفي ق (والله أعلم).

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: دَرَجَةُ الأَمْنِ، وَهُوَ أَمْنُ العَبْدِ مِن فَوْتِ المقْدُورِ، وَانتِقَاضِ[١] المَسطُورِ، فَيَظفَرُ بِرُوحِ الرِّضَىٰ، وَإِلاَّ فَبِعَينِ[٢] اليَقِينِ، وَإِلاَّ فَبِلُطفِ[٣] الصَّبْرِ»[٤].

يقول: من حصل له الإياس المذكور حصل له الأمن، وذلك أنّ من تحقق بمعرفة الله، و[٥] أن ما قضاه الله فلا مرد له البتة: أمن من فوت نصيبه الذي قسمه[٦] الله له، ويأمن[٧] أيضاً من نقصان ما كتبه الله له، وسطّره في الكتاب المسطور، فيظفر بروح الرضىٰ، أي براحته ولذته ونعيمه؛ لأن صاحب الرضىٰ في راحة ولذة وسرور، كما في حديث عبد الله بن مسعود[٨] عن النبيِّ ﷺ «إنَّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضىٰ، وجعل الهمَّ والحزن في الشَّك والسَّخْط»[٩].

---

(١) في منازل السائرين (انتقاص).

(٢) في منازل السائرين (فبغنىٰ).

(٣) منازل السائرين (فبظلف).

(٤) منازل السائرين ٣٦.

(٥) (لفظ الجلالة، والواو) ساقطة من الأصل و ش، وما أثبته من جميع النسخ.

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (قسم).

(٧) ط (أمن).

(٨) (رضي الله عنه) في أ، ب، غ.

(٩) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٦) ح(١٠٥١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢٢)،

فإن لم يقدر العبد(١) على «روح الرضىٰ(٢)» ظفر «بعين اليقين» وهو قوة الإيمان، ومباشرته للقلب، بحيث لا يبقىٰ بينه وبين العيان إلا كشف(٣) الحجاب المانع من مكافحة البصر.

فإن لم يحصل له هذا المقام حصل(٤) علىٰ «لطف الصبر» وما فيه من حسن العاقبة، كما في الأثر المعروف «إن استطعت أن تعمل لله بالرضىٰ مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن الصبر علىٰ ما تكره(٥) خيراً كثيراً»(٦).

وقال محمد بن مروان ضعيف، وروىٰ عن ابن مسعود مرة موقوفاً ومرة مرفوعاً، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٢١٢) وقال غريب من حديث الثوري ومن حديث الأعمش، تفرد به خالد بن يزيد العمري والموقوف علىٰ ابن مسعود في الزهد لهناد (٣٠٤)، والمرفوع في مسند الشهاب (٢/ ١٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١): فيه خالد بن يزيد العمري متهم بالوضع، ورقمه في كنز العمال (٥٩٦١)، وضعفه المنذري في الترغيب (٢/ ٥٤٠).

(١) الأصل (البعد) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٢) (الرضىٰ) سقط من د.

(٣) سوف يأتي الحديث عن الكشف قريباً.

(٤) أ، ب، غ (له).

(٥) أ، غ، ب (النفس).

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧) والترمذي رقم (٢٥١٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، وقال هذا حديث كبير عال من حديث عبدالملك بن عمير عن ابن عباس إلا أن الشيخين لم يخرجا لشهاب بن خراش ولا القداح في الصحيحين، وقد روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس غير هذا، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣١٤)، وسنده ضعيف لأن فيه رجلان لم

فصـــل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : مُعَايَنَةُ أَزَلِيَّةٌ[١] ، [٢] لِيَتَخَلَّصَ مِنْ مِحَنِ القُصُودِ[٣] ، وَتَكَالِيفِ الحِمَايَاتِ ، وَالتَّعْرِيجِ عَلَىٰ مَدَارِجِ الوَسَائِلِ»[٤].

قوله : «مُعَايَنَةُ أَزَلِيَّةِ الحَقِّ» أي متىٰ شهد قلبه تفرد الرب سبحانه[٥] بالأزلية ، غاب بها عن الطلب ، لتيقنه فراغ الرب تعالىٰ من المقادير ، وسبق الأزل بها ، وثبوت حكمها هناك ، فيتخلص[٦] من المحن التي[٧] تعرض له دون المقصود[٨]

يسمّيا ، وفي تاريخ بغداد (١٤/ ١٢٥) ، وذكره صاحب قوت القلوب (٢/ ٣٨ ـ ٣٩) ، وشيخ الإسلام في الاستقامة (٢/ ٧٤) ، وهو طرف من حديث ابن عباس وقد روي بأسانيد كثيرة وبألفاظ مختلفة وتكلم علىٰ طرقه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٥٩.

(١) منازل السائرين ٣٦ : (أولية) ، وفي ط (أزلية الحق).

(٢) أزلية : « هو ما لا نهاية له في الماضي ، والقديم المطلق.. » الاعتقاد ٦٨ ، لوامع الأنوار ١/ ٣٨ ، وتطلق هذه الألفاظ من باب الإخبار عن الله تعالىٰ ، وليست من أسمائه الحسنىٰ هذا إن دلت علىٰ معان صحيحة ، فإنه يقر المعنىٰ دون اللفظ وإن كانت معانيها فاسدة وقف اللفظ والمعنىٰ ، ينظر في تقرير هذه المسألة ، الفتاوىٰ ٩/ ٣٠٠ ، شرح الطحاوية ٧٧ ، بدائع الفوائد ١/ ١٦٢.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ش ، ق (المقصود).

(٤) منازل السائرين ٣٦.

(٥) أ ، ب ، غ (تعالىٰ).

(٦) ح٢ ، د ، ش (يخلص).

(٧) ق (الذي).

(٨) ط (القصود).

ويتخلص أيضاً من تعريجه والتفاته، وحبس مطيته علىٰ طرق الأسباب التي يتوسل بها إلىٰ المطالب.

وهذا ليس علىٰ إطلاقه، فإن مدارج الوسائل قسمان: وسائل موصلة إلىٰ عين الرضىٰ، فالتعريج علىٰ مدارجها - معرفة وعملاً وحالاً وإيثاراً - هو محض العبودية، ولكن لا يجعل تعريجه علىٰ مدارجها بحيث ينسىٰ بها الغاية التي هي وسائل إليها.

وأما «**تخَلُّصُهُ**[١] **مِنْ تَكَالِيفِ الحِمَايَاتِ**» فهو تخلصه[٢] من طلب ما حماه الله تعالىٰ عنه قَدَراً، فلا يتكلف طلبه وقد حُمي عنه.

ووجه آخر: وهو أن يتخلص[٣] بمشاهدة سبق الأزلية من تكاليف احترازاته، وشدة احتمائه من المكاره، لعلمه بسبق الأزل بما كتب له منها، فلا فائدة في تكلف[٤] الاحتماء، نعم يحتمي مما نُهي عنه، وما لا ينفعه في طريقه، ولا يُعينه علىٰ الوصول.

* * *

---

(١) أ، ب، غ (تخليته)، م (تخليصه).

(٢) غ، ش (تخليصه).

(٣) أ (يخلص).

(٤) د (تكليف).

فصـــل[1]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «التسليم»[2]. منزلة التسليم

وهي نوعان : تسليم لحُكمه الديني الأمريّ ، وتسليم لحُكمه الكونيّ القدريّ[3].

فأما الأول : فهو تسليم المؤمنين العارفين ، قال[4] تعالىٰ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ[5] حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] .

فهذه ثلاث مراتب : التحكيم ، وسعة الصدر بانتفاء الحرج ، والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني : فمزلة أقدام ، ومضلَّة أفهام ، حيَّر الأنام ، وأوقع الخصام ، وهي مسألة الرضىٰ بالقضاء ، وقد تقدم الكلام عليها بما فيه

---

(١) حاشية الأصل (منزلة التسليم) وحاشية ش (باب التسليم).

(٢) التسليم : أن يكل العبد نفسه إلىٰ ربه في جميع أحواله.. وتسليم الحق : أن يسلم من دعوىٰ التسليم له فيما شرع وحكم وقضىٰ من الأحكام بمعاينتك تسليم الحق إياك إليه في جميع الأقسام.. والتسليم : الانقياد وترك الاعتراض فيما لا يلائم ، وقيل : هو الثبات عند نزول البلاء من غير تغير في الظاهر والباطن ، ينظر في ذلك : طبقات الصوفية ٥٩ ، لطائف الإعلام ١/ ٣١٩ ، معجم مصطلحات الصوفية ٤٤.

(٣) انظر في هذه المسألة في الفتاوىٰ ١٠/ ٢٤ ـ ٢٩.

(٤) د (لفظ الجلالة).

(٥) ح٢ ، م قال : (إلىٰ قوله : ﴿ويسلموا﴾.

كفاية[١] ، وبيَّنا أن التسليم للقضاء يُحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه[٢] ، ولم يقدر علىٰ ذلك ، كالمصائب التي لا قدرة له علىٰ دفعها.

وأما دفع الأحكام التي أُمر بدفعها : فلا يجوز له[٣] التسليم إليها[٤]؛ بل العبودية : مدافعتها بأحكام أخر[٥] ، أحب إلىٰ الله منها.

فصل

ما يعتري التسليم من العلل

قال صاحب «المنازل» : «**وَفِي التَّسْلِيمِ وَالثِّقَةِ وَالتَّفْوِيضِ : مَا فِي التَّوكُّلِ مِن العِلَلِ**[٦] ، **وَهُوَ مِن أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ سُبُلِ**[٧] **العَامَّةِ**»[٨].

يعني أن العلل التي في «التوكل» من[٩] معاني الدعوىٰ ، ونسبته الشيء إلىٰ نفسه أولاً ، حيث يزعم[١٠] أنه وكَّل ربه فيه ، وتوكل عليه فيه ، وجعله وكيله ، القائم عنه بمصالحه التي كان يحصلها لنفسه بالأسباب والتصرفات ، وغير

---

(١) وسوف يأتي الحديث عنها في منزلة الرضىٰ ص١٨٧٩.

(٢) (ودفعه) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٣) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) أ ، ب ، غ (لها).

(٥) (أخر) سقطت من م.

(٦) منازل السائرين (الاعتلال).

(٧) (سبل) سقطت من أ ، ب ، غ ، وفي منازل السائرين (سبيل) ٣٦.

(٨) منازل السائرين ٣٦.

(٩) م ، ب ، أ ، غ (في).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (زعم).

ذلك : من العلل المتقدمة وقد عرفت ما في ذلك.

وليس في التسليم إلا عَلَّة واحدة : وهي أن لا يكون تسليمه صادراً عن محض الرضىٰ والاختيار؛ بل يشوبه كُره وانقباض، فيسلِّم على[1] نوع إغماض، فهذه علة التسليم[2] المؤثرة[3] فاجتهد على[4] الخلاص منها.

وإنما كان للعامة عنده ، لأن الخاصة في شغل عنه باستغراقهم في الفناء[5] في عين الجمع[6] وجعل الفناء غاية الاستغراق في عين الجمع[7] : هو الذي أوجب ما أوجب والله المستعان[8].

درجة التسليم

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : تَسْلِيمُ مَا يُزَاحِمُ العُقُولَ مِمَّا سَبَقَ[9] عَلَىٰ الأَوْهَامِ مِنَ الغَيبِ ، وَالإِذْعَانُ لِمَا يُغَالِبُ القِيَاسَ مِن سَيرِ

الدرجة الأولى

(١) أ ، ب ، غ (عن).

(٢) غ (تسليم).

(٣) ب (المؤثر).

(٤) ط (في).

(٥) أ ، ب ، غ ، ط (بالفناء) وهي ساقطة من د.

(٦) تقدم الكلام عن هذه المسألة ص١٦٦٤، ١٧١٠ ، وانظر تفصيل شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ١٠/ ٢٤٤ ، ٣٣٨.

(٧) قال الحفني (وعين الجمع) اسم من أسماء التوحيد ، معجم مصطلحات الصوفية ١٩١ ، والفناء في عين الجمع يتفق مع تعريفهم للفناء عن وجود السوىٰ وهو فناء الملاحدة الحلولية ، ينظر الفتاوىٰ ١٠/ ٢٢٢ ، معجم المصطلحات ٢٠٨.

(٨) (والله المستعان) سقطت من د.

(٩) في منازل السائرين ٣٧ (مما يشق).

الدُّوَلِ والقِسَم ، وَالإِجَابَةُ لِماَ يُفْزِعُ[١] المرُيدَ مِن رُكُوبِ الأَحْوَالِ»[٢].

اعلم أن «التسليم»[٣] هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر ، أو[٤] شهوة تعارض الأمر[٥] ، أو إرادة تعارض الإخلاص ، أو[٦] اعتراض يعارض القدر والشرع ، صاحب هذا التخلص : هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو[٧] إلا من أتىٰ الله به فإن التسليم ضد المنازعة.

والمنازعة : إما بشبهة[٨] فاسدة ، تعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله تعالىٰ[٩] به نفسه من صفاته وأفعاله ، و[١٠] ما أخبر به عن[١١] اليوم الآخر ، وغير ذلك ، فالتسليم له : ترك منازعته بشبهات[١٢] المتكلمين الباطلة.

---

(١) ب (يفرغ).

(٢) منازل السائرين ٣٧.

(٣) أ : طمس (اعلم أن التسليم).

(٤) همزة الألف سقطت من أ ، ب ، غ.

(٥) ق (الأمران) .

(٦) (الألف) سقطت من م ، ق.

(٧) ط (يوم القيامة).

(٨) غ ، أ (بشهوة).

(٩) (تعالىٰ) سقطت من ط.

(١٠) ب زيادة (ألف قبل الواو).

(١١) الأصل (من) والصحيح ما أثبته من جميع النسخ.

(١٢) ب (وبشبهات).

وإما بشهوة تعارض أمر الله(١) ، فالتسليم للأمر : بالتخلص منها(٢). أو إرادة تعارض مراد الله من عبده ، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب ، فالتسليم : بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض(٣) حكمته في خلقه وأمره ، بأن يظن أنّ مقتضىٰ الحكمة خلاف ما شرع ، وخلاف ما قضىٰ وقدر ، فالتسليم : التخلص من هذه المنازعات كلها.

وبهذا يتبين أنه من أجلِّ مقامات الإيمان ، وأعلىٰ طرق الخاصة ، وأن «التسليم» هو محض الصِّدِّيقية ، التي هي بعد درجة النبوة ، وأن أكمل الناس تسليماً : أكملهم صديقية.

فلنرجع إلىٰ شرح كلام الشيخ.

أما(٤) قوله : **«تَسْلِيمُ مَا يُزَاحِمُ العُقُولَ مِمَّا سَبَقَ عَلَىٰ الأَوْهَامِ»**.

يعني(٥) : أن التسليم يقتضي(٦) ما ينهىٰ عنه العقل ويزاحمه ، فإنه يقتضي التجريد عن الأسباب ، والعقل يأمر بها ، فصاحب « التسليم » يسلم إلىٰ الله

---

(١) أ ، ب (عز وجل).

(٢) (منها) سقطت من ق.

(٣) غ (يعارضه).

(٤) ط (فأما).

(٥) ط (فيعني).

(٦) ش (نقيض).

عزَّ وجل ما هو غيب عن العبد ، فإن فعله سبحانه[١] لا يتوقف علىٰ هذه الأسباب التي ينهىٰ العقل عن التجرد[٢] عنها ، فإذا سلم لله لم يلتفت إلىٰ السبب في كل ما غاب عنه.

فالأوهام يسبق إليها[٣] : أن ما غاب عنها من الحكم لا يحصل إلا بالأسباب.

و«التسليم»[٤] يقتضي التجرد[٥] عنها ، والعقل ينهىٰ عن ذلك ، والوهم قد سبق عليه : أن الغيب موقوف عليها.

فهاهنا أمور[٦] ستة : عَقْل[٧] ، ومزاحم له ، ووهم ، وسائق[٨] إليه ، وغيب ، وتسليم لهذا المزاحم.

فالعقل هو الباعث له علىٰ الأسباب ، الداعي له إليها ، التي إذا خرج الرجل عنها عُدَّ[٩] قدحاً في عقله.

---

(١) أ ، ب ، غ (وتعالىٰ).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (التجريد).

(٣) الأصل (عليها) والأقرب ما أثبته من ق ، (عليها) سقطت من ش.

(٤) أ (بالتسليم والأسباب).

(٥) ، ح٢ (التجريد).

(٦) د (ستة أمور).

(٧) ق (بعقل).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (سابق).

(٩) ط (خروجه).

والمزاحم له : التجرد عنها بكمال التسليم إلىٰ من بيده أزِمَّة الأمور : مواردها[1] ومصادرها.

والوهم : اعتقاده توقف حصول السعادة والنجاة ، وحصول المقدور - كائناً ما كان - عليها ، وأنه لولاها لما حصل المقدور.

وهذا هو الوهم السابق[2] إلىٰ الوهم.

والمغيب[3] : هو الحكم الذي غاب عنه ، وهو فعل الله.

والتسليم : تسليم هذا المزاحم إلىٰ نفس الحكم.

مع أن في تنزيل عبارته علىٰ هذا[4] وإفراغ[5] هذا المعنىٰ في قوالب ألفاظه نظراً.

وفيه وجه آخر : و[6] هو أن يكون المراد : التسليم لما يبدو للعبد من معاني الغيب مما يزاحم معقوله في بادئ الرأي ، ويسبق[7] إلىٰ وهمه : أن الأمر بخلافه ، فيسبق علىٰ الأوهام من الغيب الذي أخبرت به شيء يزاحم معقولها ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ومواردها).

(٢) ط (السائق).

(٣) ح٢ ، م ، ط (الغيب).

(٤) د (المعنىٰ).

(٥) أ (وفراغ).

(٦) (الواو) سقطت من غ.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (لما يسبق).

فتقع المنازعة بين حكم العقل وحكم الوهم، فإن كثيراً من الغيب قد يزاحم العقل بعض المزاحمة، ويسبق إلىٰ الوهم خلافه، فالتسليم: تسليم هذا المزاحم إلىٰ وليه، ومن[١] أخبر به، والتجرد عما يسبق إلىٰ الوهم مما يخالفه.

وهذا أولىٰ المعنيين بكلامه، إن شاء الله[٢].

فالأولىٰ[٣]: تسليم منازعات الأسباب لتجريد التوحيد العَمليّ القصديّ الإراديّ، وهذا تجريدُ منازعات الأوهام المخالفة للخبر لتجريد التوحيد العلمي[٤] الخبري[٥] الاعتقادي، وهذا حقيقة التسليم.

قوله[٦]: «**والإِذْعَانُ لِماَ يُخَالِفُ[٧] القِيَاسَ، مِن سَيرِ الدُّوَلِ وَالقِسَمِ**».

أي الانقياد لما يقاوي عقله وقياسه، مما جرىٰ به حُكم الله في الدول قديماً وحديثاً من طيٍّ دولة، ونشر دولة وإعزاز هذه وإذلال هذه، والقِسَم التي قسمها علىٰ خلقه، مع شدة تفاوتها، وتباين مقاديرها، وكيفياتها وأجناسها، فيذعن لحكمة الله في[٨] ذلك،

---

(١) د، ق (هو).

(٢) أ، ب (تعالىٰ).

(٣) الأصل (فالأول) والأقرب ما أثبته من أ، ب، ح٢.

(٤) ق (العملي).

(٥) (الخبري) سقطت من م.

(٦) (قوله) سقطت من أ.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (يغالب).

(٨) ط (كل).

ولا يعترض[1] علىٰ ما وقع منها بشبهة وقياس.

ويحتمل أن يكون مراده[2] بـ «الدول» و «القسم» الأحوال التي تتداول[3] علىٰ[4] السالك ويختلف سيرها[5]، و «القسم» التي نالته من الله: ما كان قياس سعيه واجتهاده أن يحصل له أكثر منها، فيذعن لما غالب[6] قياسه منها، ويسلم للقسام[7] المعطي بحكمته وعدله، فإن من عباده من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه لأفسده ذلك، ومنهم من لا يصلحه إلا الغِنَىٰ ولو أفقره لأفسده ذلك[8]، ومنهم من لا يصلحه إلا الصحة ولو أمرضه لأفسده ذلك[9].

---

(١) (علىٰ) ساقطة من الأصل والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ.

(٢) (مراده) سقطت من د.

(٣) أ، ب، غ (تداول).

(٤) الأصل (عليه) والأقرب ما أثبته من أ، ق، ط.

(٥) ب (سيره).

(٦) ش (غالت).

(٧) ط (للقاسم).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، ش، د، ق (ومنهم من لا يصلحه إلا المرض ولو أصحه لأفسده ذلك).

(٩) هذا معنىٰ حديث أنس - رضي الله عنه -، قال عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٢)، عن أنس أخرجه أبو يعلىٰ والبزار والطبراني وفي سنده ضعف، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية ثم قال: هذا حديث لا يصح (١/ ٣١ ـ ٣٢) وهو عند الطبراني في الكبير بألفاظ مختلفة مشابهة له عن ابن عباس (١٢/ ١٤٥) رقم (١٢٧١٩)، وذكره في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٠)، وقال فيه من لم يعرف، وضعفه الحافظ في الفتح (١١/ ٣٤٢)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣١٤).

قوله : «وَالإِجَابَةُ لِمَا يُفْزِعُ(١) المُرِيدَ مِن رُكُوبِ الأَحْوَالِ».

يقول : إن صاحب هذه الدرجة من قوة التسليم يهجم علىٰ الأمور المفزعة ، ولا يلتفت إليها ، ولا يخاف منها(٢) من ركوب الأحوال ، واقتحام الأهوال؛ لأن قوة تسليمه تحميه من خطرها ، فلا ينبغي(٣) أن يخاف ، فإنه في حصن التسليم ومنعته وحمايته(٤).

فصل

الدرجة الثانية قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تَسلِيمُ العِلمِ(٥) إِلىٰ الحَالِ(٦) ، [وَالقَصْدِ إِلىٰ

---

(١) ب (يفرغ له) ق (فرغ).

(٢) ط (معها) ولعله أقرب إلىٰ الصواب.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (له).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق [والله سبحانه وتعالىٰ الموفق بحوله وقوته] وسقطت (سبحانه وتعالىٰ) من م ، ق.

(٥) د (العبد).

(٦) الحال : هو ما يرد علىٰ القلب من غير تأمل ولا اجتلاب ، من طرب وحزن ، أو قبض وبسط

الحال وهو بخلاف المقام ، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، والحال من عين الجود والمقام من بذل المجهود ، ويسمىٰ بهذا لتحوله وزواله ، بخلاف المقام فقد سمِّي لإقامته واستقراره فإذا كان العبد بين المحاسبة والمراقبة تعود ثم تزول حتىٰ تثبت له هذه الصفة فيكون وطِناً لها ومستقراً ، وقد تسمىٰ بهذا لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية إلىٰ الصفات الحقيقية ورحاب القرب وذلك معنىٰ الترقي ، انظر التعرف ٩٧ ـ ٩٨ ، طبقات السلمي ٣١٠ ، ٣١٥ ، رشح الزلال ٤٩ ، لطائف الإعلام ١/ ٤٠٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ٧٣ ، الرسالة

الكَشْفِ(١) ، وَالرَّسْمِ إِلىٰ الحَقِيقَةِ».

أما «تَسْلِيمُ العِلْمِ إِلىٰ الحَالِ](٢)» فليس المراد منه : تحكيم الحال علىٰ العلم، حاشا الشيخ من ذلك ، وإنما أراد الانتقال من الوقوف عند صور العلم الظاهرة إلىٰ معانيها وحقائقها الباطنة ، وثمراتها المقصودة منها ، مثل الانتقال من محض التقليد والخبر إلىٰ العيان واليقين ، حتىٰ كأنه يرىٰ ويشاهد ما أخبر

القشيرية ١٢٤ ، وفي تعريفاتهم غموض وخفاء ومما ينفع ذكره في ذلك ما قاله شيخ الإسلام - رحمه الله - حيث يعلق علىٰ « الحال » فيقول : « وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها ، لا تُجعل طريقة ولا تُتَخذ سبيلاً - إلىٰ قوله - والرسل - صَلوات الله عليهم - أعلم بطريق سبيل الله وأهدىٰ وأنصح ، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئاً محروماً وإن لم يكن عاصياً أو فاسقاً أو كافراً » ، ويقول - رحمه الله - : «وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم؛ لكن ليست له عبارة تبين كلامه فيقع في غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده ، وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.. » ، الفتاوىٰ (١٠/ ٦٩٢-٦٩٩ ، ٤٤٣-٤٥٤ ، ٤٨٧-٤٨٨.

(١) الكشف مرتبة متوسطة بين المحاضرة والمشاهدة وهي عبارة عن كشف النفس لم غاب عن الحواس وإدراكه علىٰ وجه يرتفع الريب منه سواء حصل بحدس أو فيض ، فالشهود طريق إلىٰ العلم المحقق والكشف غاية ذلك الطريق ، فهو حصول العلم المحقق بالنفس.. وقال القشيري : « وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر إلىٰ تأمل دليل وتَطَلُّب سبيل » وهي منزلة سيتحدث عنها المؤلف في قسم الحقائق في آخر المدارج ، وينظر في هذا المصطلح : التعرف ١٠٤ ، الرسالة القشيرية ١٥٠ ، رشح الزلال ١٠٣ ، لطائف الإعلام ٢/ ٣٣٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٢٥، الفتاوىٰ ١٠/ ٦١٢-٦١٣ ، درء التعارض ٥/ ٣٥٢-٣٥٣. الكشف

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ ، غ ، ب.

به الرسول ﷺ كما قال تعالىٰ : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ : ٦] ، وقال[١] : ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد : ١٩] ، وينتقل الحجاب إلىٰ الكشف ، فينتقل من العلم إلىٰ اليقين ، ومن اليقين إلىٰ عين اليقين ، ومن علم الإيمان إلىٰ ذوق طعم الإيمان ، ووجد[٢] حلاوته ، فإن هذا قدر زائد علىٰ مجرد علمه ، ومن علم التوكل إلىٰ حاله ، وأشباه ذلك.

فيسلم العلم الصحيح إلىٰ الحال الصحيح ، فإن سلطان الحال أقوىٰ من سلطان العلم ، فإن[٣] كان الحال مخالفاً للعلم فهو مَلِك ظالم ، فليخرج عليه بسيف العلم ، وليحكمه عليه[٤].

وأما «تَسْلِيمُ القَصْدِ إِلىٰ الكَشْفِ» فليس معناه : أن يترك القصد عند[٥] معاينة الكشف ، فإنه متىٰ ترك القصد خلع ربقة العبودية من عنقه ، ولكن يجعل قصده سائراً طالباً لكشفه يؤمّه ، فإذا وصل إليه سلمه[٦] إليه ، وصار الحكم للكشف ، إذ القصد آلة ووسيلة إليه ، فإن كان كشفاً صحيحاً مطابقاً للحق في

---

(١) ق ، ط (تعالىٰ).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ووجدان).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (فإذا).

(٤) ط (فيه).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (عن).

(٦) أ ، ب (وسلمه).

نفسه[1] : كشف له عن آفات القصد ، ومفسداته ، ومصححاته وعيوبه ، فأقبل علىٰ تصحيحه بنور الكشف ، لا أنّ[2] صاحب القصد ترك القصد لأجل الكشف فهذا سير أهل الإلحاد ، الناكبين عن سبيل[3] الحق والرشاد.

وأما «تَرْكُ الرَّسمِ إلىٰ الحَقِيقَةِ[4]» فيشير[5] به إلىٰ الفناء[6] ، فإن من جملة تسليم صاحب الفناء : تسليم ذاته ليفنىٰ في شهود الحقيقة ، فإن ذات العبد هي رسم[7] تُفنيه الحقيقة كما يفني النور الظلمة ، لأن عند أصحاب الفناء : أن الحق سبحانه لا يراه سواه ، ولا يشاهده غيره ، لا بمعنىٰ الاتحاد ، ولكن بمعنىٰ أنه[8] لا يشاهده العبد حتىٰ يفنىٰ عن إنِّيته[9] ورسمه وجميع عوالمه ، فيفنىٰ من لم يكن ، ويبقىٰ من لم يزل و[10]هذا كالإجماع[11] من الطائفة ، بل هو الرسم

(١) ح٢ (بنفسه).

(٢) ح٢ ، ش (لأن).

(٣) م ، ح٢ (سبل).

(٤) الحقيقة سبق (ص١٧١٨ ـ وتأتي ص١٨٧٣) ، وينظر في ذلك الفتاوىٰ (١٠/ ٣٤ ـ ٥٢٨).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فإنه يشير).

(٦) الفناء سبق (ص١٦٦٤) ، وينظر في ذلك الفتاوىٰ (١٠/ ٢٢٢).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (والرسم).

(٨) م ، ح٢ (أن لا).

(٩) إنِّيته سبق ص١٧٢٤ .

(١٠) (الواو) ساقطة من ط.

(١١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (كإجماع).

إجماع منهم[١].

الدرجة الثالثة

[٢] «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: تَسْلِيمُ مَا دُونَ الحَقِّ إِلىٰ الحَقِّ، مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ رُؤْيَةِ التَّسْلِيمِ، بِمُعَايَنَةِ تَسْلِيمِ الحَقِّ إِيَّاكَ إِلَيْهِ»[٣].

هذه الدرجة تكملة الدرجة[٤] التي قبلها، [فإن التسليم في التي قبلها][٥] بداية لها، وهي واسطة بين الدرجة الأولىٰ والثالثة، فالأولىٰ: بداية، والثانية: توسط[٦]، والثالثة: نهاية.

قوله: «تَسْلِيمُ مَا دُونَ الحَقِّ إِلىٰ الحَقِّ» يريد به[٧]: اضمحلال رسوم الخلق

---

(١) لم يعلق الإمام ابن القيم علىٰ هذه المسألة، وهي توافق النوع الثاني من الفناء وهو ما يقع لبعض السالكين لفرط انجذاب قلوبهم مع ضعفها، لذا قال عنهم شيخ الإسلام: «فإذا قوِيَ علىٰ صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده، حتىٰ يفنىٰ من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه ويبقىٰ من لم يزل وهو الرب تعالىٰ، والمراد فناؤها عن مشهود العبد وذكره - إلىٰ قوله - وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنّه اتحاد وأنّ المحب يتحد بالمحبوب - إلىٰ قوله - هذا النمط مما فيه من غيبة العقل والتمييز.. وكذلك صار في شيوخ الصوفية مَنْ يعرض له مِنَ الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتىٰ يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه». الفتاوىٰ ١٠/ ٢١٩ - ٢٢١.

(٢) ش، ط (قال).

(٣) منازل السائرين (٣٧).

(٤) غ (والدرجة).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٦) ط (وسط).

(٧) (به) سقط من ش.

في شهود الحقيقة[١]، وكل ما دون الحق رسوم[٢] فإذا سلم رسمه الخاص[٣] إلىٰ ربه: حصل له حقيقة الفناء.

وهذا التسليم نوعان.

أحدهما[٤]: تسليم رسمه الخاص به.

والثاني: تسليم رسوم الكائنات، ورؤية تلاشيها واضمحلالها في عين الحقيقة، وهذا علم ومعرفة، والأول حال.

قوله: «**وَالسَّلَامَةُ مِن رُؤْيَةِ التَّسْلِيمِ**» أي ينسلب أيضاً من رسم[٥] رؤية التسليم فإن «الرؤية» أيضاً رسم من جملة الرسوم، فما دام مستصحباً لها: لم يسلم التسليم التام، وقد بقيت عليه بقية من منازعات رسمه.

ثم عَرَّف كيفية هذا التسليم، فقال: «**بِمُعَايَنَةِ تَسْلِيمِ الحَقِّ إِيَّاكَ إِلَيهِ**» أي

---

(١) هذا قريب من الفناء الثاني وهو الفناء عن شهود السوىٰ، وقد سبق التعريف به ص١٦٦٤، وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ٢٢٢.

(٢) الرسم في اللغة: العلامة، وعند الصوفية: كل عبادة ليس فيها نية، وهو الخلق وصفاته؛ لأن الرسوم هي الآثار، وكل ما سوىٰ الله آثاره الناشئة عن أفعاله، وهو نعت يجري في الأبد بما جرىٰ في الأزل.

لطائف الإعلام ١/ ٤٨٩ مع هامشه، معجم مصطلحات الصوفية ١١٢.

(٣) الأصل (الحاضر) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق، ط.

(٤) (أحدهما) سقط من د، وفي ح٢ (أحدها).

(٥) ش (اسم).

ينكشف لك[١] - حين تسلِّم[٢] ما دون الحق إلىٰ الحق - أن الحق تعالىٰ هو الذي سلم إلىٰ نفسه[٣] ما دونه ، فالحق تعالىٰ هو الذي سلمك إليه ، فهو[٤] المسلِّم وهو المسلَّم إليه ، وأنت آلة التسليم فمن شهد هذا المشهد : وجد ذاته مسلَّمة إلىٰ الحق ، وما سلمها إلىٰ الحق غير الحق ، فقد[٥] سَلِمَ العبد من دعوىٰ التسليم ، والله أعلم[٦].

* * *

(١) (لك) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) ب (يُسلم).

(٣) ب (لنفسه).

(٤) (هو) سقطت من أ ، ب.

(٥) م (فمن).

(٦) أ ، ب (والله سبحانه أعلم).

فصــل[1]

منزلة الصبـر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الصبر»[2].

قال الإمام أحمد[3]: ذكر الله[4] الصبر في القرآن في نحو من[5] تسعين موضعاً[6][7].

وهو واجب بإجماع الأمة[8]، وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان:

---

(١) حاشية س (منزلة الصبر)، وحاشية ش (باب الصبر).

(٢) الصبر: هو عند الطائفة: حبس النفس على الطاعات، ولزوم الأمر والنهي، ثم على ترك رؤية الأعمال، وترك الدعوىٰ مع مطالبة الباطن بذلك، وعلى الإعراض عن إظهار العلوم والأحوال، والصبر على مقامات البلايا حتىٰ تصير المحنة منحة، وحتىٰ يكون مقامه الشكر بدل الصبر، فالصبر أعم المقامات حكماً وأشملها أثراً، وقال بعضهم: هو أن تصبر في الصبر، انظر: التعرف ١١٠، الرسالة القشيرية ٢٨٦، لطائف الإعلام ٢/ ٥٣ ـ ٥٤، معجم مصطلحات الصوفية ١٤٧.
ونقل ابن القيم في عدة الصابرين وطريق الهجرتين جملة من أقوالهم في تعريف الصبر، ومنزلته من الدين، وفيهما كلام نفيس في هذه المنزلة، في ٤٤ من عدة الصابرين، طريق الهجرتين ٢٩٥.

(٣) ط (رحمه الله تعالىٰ).

(٤) (ذكر الله) سقطت من ط.

(٥) (من) سقطت من ق، ط.

(٦) (موضعاً) سقطت من أ، ب.

(٧) انظر هامش قوت القلوب ٢/ ٢٣٧، عدة الصابرين ٧١، الفتاوىٰ ١٠/ ٣٩، التحفة العراقية ٣٥٤.

(٨) عن الإجماع علىٰ وجوب الصبر، قال شيخ الإسلام: «... ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق

نصف صبر، ونصف شكر(١).

وهو في(٢) القرآن علىٰ ستة عشر نوعاً:

أنواع الصبر في القرآن وأدلته

الأول: الأمر به، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقوله: [﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾](٣) [البقرة:٤٥] وقوله: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران:٢٠٠] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده، كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا

المسلمين علىٰ أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر علىٰ المصائب عن أن يجزع فيها والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهىٰ الله عنه ـ إلىٰ قوله ـ أما الرضىٰ فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضىٰ بالقضاء هل واجب أو مستحب، علىٰ قولين: فعلىٰ الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلىٰ الثاني يكون من أعمال المقربين» الفتاوىٰ ١٠/ ٣٩ـ ٤٠، التحفة العراقية ٣٥٣.

لكن الرضىٰ بما أمر الله به فأصله واجب وهو من الإيمان، الفتاوىٰ ١٠/ ٤١.

(١) لعل ذلك استناداً إلىٰ ما أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤) موقوفاً علىٰ ابن مسعود، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٤)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٤٠)، وقال رواته رواة الصحيح وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم، وقد رجح عدم رفعه البيهقي في شعب الإيمان، وابن حجر كما في التعليق (٢/ ٢٢)، وضعفه الألباني مرفوعاً في الضعيفة (٤٩٩)، وقد علق البخاري قول ابن مسعود، انظر الفتح (١/ ٦٣).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (مذكور).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ق.

تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف :٣٥] ، وقوله : ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال : ١٥] ، فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد :٣٣] فإن إبطالها ترك للصبر[١] علىٰ إتمامها ، وقوله : ﴿وَلَا تَهِنُواْ[٢]﴾ [آل عمران :١٣٩] فإن الوهن من[٣] عدم الصبر.

الثالث[٤] : الثناء علىٰ أهله ، كقوله[٥] : ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الآية [آل عمران :١٧] وقوله : ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة :١٧٧] وهو كثير في القرآن.

الرابع : إيجابه سبحانه محبَّته لهم ، كقوله : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران :١٤٦].

الخامس: إيجاب معيَّته لهم[٦]، وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم ، ليست معية عامة ، وهي معية العلم ، والإحاطة ، كقوله : ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقوله : [﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾][٧]

---

(١) ط (الصبر).

(٢) ط ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ﴿ولا تحزنوا﴾.

(٣) (من) سقطت من ش.

(٤) ح٢ (والثالث).

(٥) ط (تعالىٰ).

(٦) (لهم) سقطت من ش.

(٧) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

[البقرة:٢٤٩، الأنفال:٦٦].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٦].

الثامن: إيجابه(١) الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

التاسع: إطلاق البُشرىٰ لأهل الصبر، كقوله(٢) تعالىٰ: [﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ]"(٣) و(٤) ﴿بَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

العاشر: ضمان النصر(٥) والمدد لهم، كقوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

---

(١) ط (سبحانه) وفي أ، ب، غ (إيجاب).

(٢) (كقوله تعالىٰ) سقط من ق.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، وفي ق إلىٰ قوله ﴿والجوع﴾.

(٤) ق (كقوله تعالىٰ).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د (النصرة).

ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أنّ النّصر مع الصبر»[1].

الحادي عشر: الإخبار[2] أن أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَالِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلَقّىٰ الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ[3] إلا أهل الصبر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] وقوله: ﴿[ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤][4]وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله تعالىٰ[5]: ﴿[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَاتِنَآ][6] أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ

---

(١) هذا جزء من حديث ابن عباس، وهو عند أحمد من طرق كثيرة في سياق واحد ولم يميز بين ألفاظ بعضهم من بعض، وأسانيد أحمد لا تخلو من مقال فعلىٰ هذا لا تصح هذه اللفظة (١/ ٣٠٧)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١، ٦٤٢)، وقال حديث كبير عال، ولم يخرجاه، الطبراني في الكبير (٢/ ٢٣٨)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ١٢٣)، والأحاديث المختارة للمقدسي (١٠/ ٢٤).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق (منه تعالىٰ بأن).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (العظيمة).

(٤) ما بين المعقوفين في الأصل فقط.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (لموسىٰ).

(٦) ما بين المعقوفين في الأصل (ولقد أوحينا إلىٰ موسىٰ) وهو خطأ والمثبت من المصحف و ش، ق.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، [وقوله في أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾][1] [سبأ: ١٩]، وقوله في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ[2] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز بالمطلوب[3]، والنجاة من المرهوب[4]، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤)﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه الإمامة، [سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين[5]][6]، ثم[7] تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ[8] أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ، غ، ح٢، ب.

(٢) م، ح٢ قال: الآية ولم يكملها.

(٣) ط (المطلوب المحبوب).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب (المحبوب) و ط، د (المكروه).

(٥) الفتاوىٰ (١٠/ ٣٩)، التحفة العراقية (٣٥٤)، وقال ابن كثير في تفسيره قال بعض العلماء، ثم ذكر هذا القول (٣/ ٤٦٤).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٧) أ، ب (كقوله تعالىٰ).

(٨) (منهم) سقط من الأصل.

بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه[١] سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوىٰ والتوكل و[٢] الشكر والعمل[٣] والمرحمة[٤].

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له[٥]، قال[٦] عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خيرُ عيشٍ أدركناه بالصبر»[٧].

وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أنه ضياء»[٨]، وقال: «من يتصبَّر»[٩]

---

(١) ط (لفظ الجلالة).

(٢) ط (وبالشكر).

(٣) أ، غ، ب، ط (الصالح).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، س، ق (الرحمة).

(٥) أورد هذا القول عن علي رضي الله عنه عند أبي نعيم في حلية الأولياء (١/ ٧٦)، والقشيري في الرسالة القشيرية (١/ ٤٥٤).

(٦) ط (وقال).

(٧) علقه البخاري في كتاب الرقاق باب الصبر عن محارم الله (٤/ ٨٦) باب (٢٦)، وهو في الزهد للإمام أحمد (ص١٤٠) والزهد لابن المبارك (ص٢٢٢)، وفي حلية الأولياء (١/ ٥٠)، وأورده الديلمي في مسند الفردوس عن أنس (٢/ ٤١٤) رقم(٣٨٤٠).

(٨) مسلم. الطهارة (١/ ٢٠٣) ح(٢٢٣)، الترمذي في الدعوات (٤/ ٥٣٥) ح(٣٥١٧)، وصححه، صحيح النسائي للألباني (٢/ ١٧٤) ح(٢٤٣٦).

(٩) ش (من تصبر).

يُصبِّره الله» (١).

وفي الحديث الصحيح(٢): **«عجباً لأمر المؤمن! إنَّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له»**(٣).

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع(٤)، فسألته: أن يدعو لها: **«إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك، فقالت: إنِّي أتكشف فادْعُ الله: أنْ لا أتكشف، فدعا لها»** (٥).

وأمر الأنصار(٦) بأن(٧) يصبروا علىٰ الأثرة التي يلقونها بعده، حتىٰ يلقوه علىٰ الحوض (٨).

---

(١) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٥) ح(١٤٦٩)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٩) ح(١٠٥٣)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٧٣) ح(٢٠٢٤).

(٢) ش، د، ق (عنه).

(٣) مسلم. الزهد (٤/ ٢٢٩٥) ح(٢٩٩٩)، أحمد (١/ ١٨٢) (٤/ ٣٣٣)، الدارمي. الرقاق (٢/ ٢٦٦) ح(٢٧٨٠) وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٥٥).

(٤) د (تضرع).

(٥) البخاري. المرضىٰ (٤/ ٢٥) ح(٥٦٥٢)، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٤) ح(٢٥٧٦)، أحمد (١/ ٣٤٧).

(٦) ط (رضي الله عنهم).

(٧) ش (أن).

(٨) البخاري. الجزية (٢/ ٤٠٨) ح(٣١٦٣)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٣٣) ح(١٠٥٩)، أحمد (٤/ ٣٥١).

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر[١]، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر «أنّه[٢] عند الصدمة الأولىٰ»[٣].

وأمر[٤] المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب[٥]، فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفِّر أجره، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب بالأجر.

[وأخبر[٦] أن الصبر خير كله، فقال: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع من الصَّبر»[٧]][٨].

---

(١) كما في البخاري. الجهاد والسير (٢/ ٣٦٥) ح(٣٠٢٦)، ومسلم. الجهاد والسير (٣/ ١٣٦٢) ح(١٧٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٣).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (إنما يكون).

(٣) كما في البخاري. الجنائز (١/ ٣٩٥) ح(١٢٨٣)، ومسلم. الجنائز (٢/ ٦٣٧) ح(٩٢٦)، وأحمد (٣/ ١٤٣).

(٤) ط (ﷺ).

(٥) لعله يشير إلىٰ حديث أسامة بن زيد في البخاري. الجنائز (١/ ٣٩٦) ح(١٢٨٤)، ومسلم. الجنائز (٢/ ٦٣٥) ح(٩٢٣)، وعند الحاكم: «اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» (٣/ ٤٣٢)، والطبراني في الكبرى (٢٤/ ٣٠٣)، وفي مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٣) وقال رجاله ثقات.

(٦) ط (ﷺ).

(٧) في الصحيحين وتقدم تخرجه ص١٨٤٢من قوله ﷺ ... «ومن يتصبر يصبره الله».

(٨) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

فصل

تعريف الصبر

و«الصبر» في اللغة: الحبس والكف[1]، ومنه: قُتل فلان صبراً،[2] إذا أُمسك وحُبس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف :٢٨]، أي احبس نفسك معهم.

فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوىٰ، وحبس الجوارح عن التشويش[3].

وهو ثلاثة أنواع: صبر علىٰ طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر علىٰ امتحان الله.

فالأولان: صبر علىٰ ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر[4] علىٰ ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز عن[5] شأنها: أكمل من صبره علىٰ إلقاء إخوته

---

(١) لسان العرب ٤/ ٢٣٩١.

(٢) أ، غ، ب (أي).

(٣) لشيخ الإسلام كلام نفيس وتقسيم بديع في الفتاوىٰ ١٠/ ٤٧ - ٦٧٣ - ٦٧٧ ولابن القيم في طريق الهجرتين ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٤) (صبر) سقط من د.

(٥) ط (علىٰ).

له في الجب ، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية : فصبر و[١]اختيار ورضىٰ ، و محاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي[٢] المواقعة[٣] فإنه كان شاباً ، وداعيةُ الشباب إليها قوية ، وعزَباً ليس له ما يعوضه ويبرد[٤] شهوته ، وغريباً ، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه [٥] بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكاً ، والمملوك أيضاً ليس له وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيِّدته ، وقد غاب الرقيب ، وهي الداعية له إلىٰ نفسها ، والحريصة علىٰ ذلك أشد الحرص ، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار ، ومع هذه الدواعي[٦] كلها : صبر اختياراً ، وإيثاراً لما عند الله ، وأين هذا من صبره في الجب علىٰ ما ليس من كسبه؟[٧].

وكان يقول : الصبر علىٰ أداء الطاعات أكمل من الصبر عن[٨] اجتناب

---

(١) (الواو) ساقطة من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٢) الأصل (داعي) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب لموافقته الفعل الذي قبله (تقوىٰ).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (الموافقة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (يود).

(٥) ط (من).

(٦) م ، ب (دعاوىٰ) وبهامشها (لعله الدواعي).

(٧) ذكر نحوه شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ١٠/ ١٢٣ ، ١٧/ ٣١.

(٨) ط (علىٰ).

المحرمات[١] وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة[٢]: أحب إلىٰ الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة: أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله[٣] في ذلك مصنف[٤] قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً، ليس هذا موضع ذكرها.

والمقصود: الكلام علىٰ «الصبر» وحقيقته ودرجاته ومرتبته[٥].

فصل[٦]

أنواع الصبر

وهو[٧] ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

---

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ١٠/ ٥٧٣ ـ ٥٧٧، وانظر نحواً من هذه التقسيمات في إحياء علوم الدين ٤/ ٦٩ ـ ٧٤، ولقد بسط الحديث عنها ابن القيم في طريق الهجرتين ٣٠٦ ـ ٣٠٧، وبين الأقوال والمرجحات والتفصيل في ذلك.

(٢) ب (الطاعات).

(٣) ط (رحمه الله).

(٤) المصنَّف الذي ذكر فيه شيخ الإسلام هذه المسائل هو التحفة العراقية في الأعمال القلبية وهي مطبوعة أكثر من مرة من أفضلها ما حققه د/ يحيىٰ الهنيدي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢١هـ وهي في الفتاوىٰ ١٠/ ٥ ـ ٩٠، وأفردت « منىٰ محمد الخراط » رسالة قاعدة أمراض القلوب وعلاجها، لشيخ الإسلام بتحقيق خاص، وفيها مباحث مشابهة لما في التحفة العراقية وهي ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٩١ ـ ١٤٨.

(٥) د (والله الموفق).

(٦) ط (أنواع الصبر).

(٧) م، أ، غ، ب، ش، ق (علىٰ).

فالأول الاستعانة[1] به، ورؤيته أنه هو المُصَبِّر، وأن صَبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]، يعني إن لم يُصبِّرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو[2] أن يكون الباعث[3] علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا إظهار[4] قوة النفس، والاستحماد[5] إلىٰ الخلق، وغير ذلك من الأغراض[6].

والثالث: الصبر مع الله[7]، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلّت مضاربها[8].

---

(١) ط (صبر الاستعانة).

(٢) (الصبر لله وهو) سقط من الأصل، ش، والمثبت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ش، ق، ط.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (له).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (لا لإظهار).

(٥) الاستحماد: استحمد إلىٰ الناس بإحسان إليهم استوجب عليهم حمدهم له، المعجم الوسيط ١/ ١٩٦.

(٦) ط (الأعراض).

(٧) (الصبر مع الله) سقط الأصل، ش، والمثبت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، وفي د، ح٢، م (الثالث من الصبر الصبر..).

(٨) مضاربها: جمع مضراب وهو الفسطاط العظيم ومعناه في لسان العرب الحيل في الحروب ١/ ٥٥١، ولعل المراد هنا جهاتها ونواحيها.

فهذا معنىٰ كونه صابراً مع الله ، أي قد جعل نفسه وَقْفاً(١) علىٰ أوامره و محابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها ، وهو صبر الصديقين(٢).

الأقوال المأثورة في فضل الصبر ومعناه

قال الجنيد : المسير(٣) من الدنيا إلىٰ الآخرة سهل هيِّن علىٰ المؤمن ، وهجران الخلق في جنب الله شديد ، والمسير(٤) من النفس إلىٰ الله صعب شديد ، والصبر مع الله أشد(٥).

وسئل عن الصبر؟ فقال : تجرع المرارة من غير تعبُّس(٦).

(٧) وقال ذو النون(٨) : الصبر التباعد من(٩) المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنىٰ مع حلول الفقر بساحات المعيشة(١٠).

وقيل : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب(١١).

---

(١) (وقفاً) سقطت من د.

(٢) انظر عدة الصابرين في بيان أشق أنواع الصبر ١٥١ .

(٣) ب (السير).

(٤) ح٢ ، ب (السير).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٨٦.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٦ ، بلفظ «من غير تعبيس» ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

(٧) أ ، غ ، ب سقطت (الواو).

(٨) غ ، ب (المصري).

(٩) ب ، ح٢ (عن).

(١٠) الرسالة القشيرية ٢٨٧ ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

(١١) الرسالة القشيرية ٢٨٧ ، وعزاه لابن عطاء ، ولم أجده في الحكم العطائية ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

وقيل : هو الفناء في البلوىٰ ، بلا ظُهور[1] شكوىٰ[2].

وقيل : تعويد النفس الهجوم علىٰ المكاره[3].

وقيل : المقام مع البلاء بحسن الصحبة ، كالمقام مع العافية[4].

وقال عمرو بن عثمان[5] : هو الثبات مع الله ، وتلقي بلاءه بالرحب والسعة.

وقال الخواص : هو الثبات علىٰ أحكام الكتاب والسنة[6].

وقال يحيىٰ بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، وا عجبي[7] كيف يصبرون[8]؟ وأنشد :

والصبر يَجْملُ في المواطن كلِّها ... إلا عليك فإنه لا يَجْمُلُ[9]

---

(١) الأصل (بلا ظهور شكوىٰ) ، ط (ولا شكوىٰ) والصحيح ما أثبته من ق.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٨٧ ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ص٣٤ .

(٣) الرسالة القشيرية ٢٨٧ وعزاه لأبي عثمان ، وقال ابن القيم في عدة الصابرين : قال أبو عثمان : «الصبار هو الذي عود نفسه الهجوم علىٰ المكاره » ص٣٤ .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٧ ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤ .

(٥) عمرو بن عثمان المكي ، كان ينتسب إلىٰ الجنيد في الصحبة ، لقي أبا سعيد الخزاز وكان شيخ القوم في وقته ، توفي سنة ٢٩١هـ بمكة / طبقات الشعراني (١/ ٨٩) ، صفة الصفوة (٢/ ٢٨٤) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٩١).

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٧ ، وانظر عدة الصابرين ٣٤.

(٧) ق ، أ ، ب (واعجباً).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٨٨ وذكره في إحياء علوم الدين ٤/ ٨٠ ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين عن يحيىٰ بن معاذ الرازي ٧٥.

(٩) بيت الشعر : انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٨٠ ، الرسالة القشيرية ٢٨٨ ، عدة الصابرين ٧٥ تحقيق د/ بدير.

وقيل : الصبر هو الاستعانة بالله[١].

وقيل : هو ترك الشكوىٰ[٢].

وقيل :

الصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته[٣] لكنْ عواقبه أحلىٰ من العسل[٤]

وقيل : الصبر أن ترضىٰ بتلف نفسك في رضىٰ من تحبه كما قيل :

سأتلف كي ترضىٰ وأُتلف حسرة وحسبي أن ترضىٰ ويُتلفني صبري[٥]

وقيل : مراتب الصابرين خمسة : صابر ، ومُصطبر ، ومُتصبِّر ، وصَبور وصَبَّار ، فالصابر : أعمُّها ، والمصطبر : المكتسب الصبر المليء[٦] به ، والمتصبر : متكلف[٧] الصبر[٨] حامل نفسه عليه ، والصبور : العظيم الصبر الذي

---

(١) الرسالة القشيرية (٢٨٨) ، ونسبه إلىٰ ذي النون ، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ٣٤.

(٢) ذكره أبو نعيم بسنده إلىٰ رويم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٠١ ، وفي عدة الصابرين عن رويم ٣٤ ونحوه عن حسان بن أبي جبلة ١٥٥ ، قال : « فصبر جميل » لا شكوىٰ فيه.. وفي الدر المنثور أقوال عن عدد من السلف كلها حول هذا المعنىٰ ٤/ ١٧.

(٣) أ ، ب ، غ (مذاقه).

(٤) بيت الشعر : أورد نحوه صاحب جواهر الأدب ٧٠٩ من غير نسبة.

(٥) عزاه القشيري بسنده لابن عطاء ، الرسالة القشيرية (٢٨٨).

(٦) (المليء به) سقط من ش.

(٧) أ ، غ ، ب (المتكلف).

(٨) ط سقط (الصبر).

صبره أشد من غيره ، والصبار : الشديد[1] الصبر ، فهذا في القدر والكمِّ[2] ، والذي قبله في الوصف[3] والكيف.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : « الصبر مطية لا تكبو »[4].

ووقف[5] رجل علىٰ الشبلي[6] ، فقال : أيُّ صبر[7] أشدّ علىٰ الصابرين؟ فقال: الصبر في الله ، قال السائل : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال السائل[8] لا ، فقال : الصبر[9] مع الله ، قال[10] : لا ، قال[11] فأيْش هو؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الكثير).

(٢) (الكم) سقط من أ ، غ ، ب.

(٣) أ ، غ ، ب (والكم).

(٤) الرسالة القشيرية (٢٨٨) ، عدة الصابرين (٩٥).

(٥) ط (وقف).

(٦) الشبلي ، دلف بن جحدر بغدادي المولد ، والنشأة وأصله من (أسروشنة) أو (إشبيلية) صحب الجنيد وكان شيخ وقته ، مالكي المذهب كتب الحديث عن طائفة من أهل العلم ، وتوفي سنة ٣٣٤هـ ، طبقات الصوفية (٣٣٧) ، حلية الأولياء (١٠/ ٣٦٦) ، الرسالة القشيرية (٩٧) ، تاريخ بغداد (١٤/ ٣٨٩) ، سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٦٧).

(٧) ش (الصبر).

(٨) (السائل) سقط من ق.

(٩) (الصبر) سقط من الأصل ، والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(١٠) ق ، ط (فقال).

(١١) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (الشبلي).

الشبلي صرخة كادت روحه تتلف[١].

وقال الجريري : « الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة وحال المحنة[٢] ، مع سكون الخاطر فيهما ، والتصبُّر : هو السكون مع البلاء ، مع وجدان أثقال المحنة »[٣].

قال أبو علي الدقاق: « فاز الصابرون بعِزِّ الدارين، لأنهم نالوا من[٤] الله معيته، فإن الله مع الصابرين »[٥].

وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] أنه انتقال من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ ، فـ «الصبر» دون المصابرة ، و«المصابرة» دون «المرابطة» ، و «المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد، وسمي المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع ، ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها : مرابط[٦] ، ومنه قول النبي ﷺ : «ألا أخبركم بما يمحو الله

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٨٠ ، الرسالة القشيرية٢٨٨ ، عدة الصابرين ٧٥ تحقيق د/ بدير ، وفي قوت القلوب أقوال بمعناه ١/ ٢٣٠ ، ٢٤٧.

(٢) ط (المحبة).

(٣) ذكره القشيري بسنده إلىٰ الجريري الرسالة القشيرية (٢٨٨) ، وهو في عدة الصابرين (٣٤) عن أبي محمد الجريري.

(٤) الأصل (مع) والأقرب ما أثبته من أ ، غ ، ب ، ق.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٨٨ ، وذكره في عدة الصابرين ٤٧ ـ ٧٢.

(٦) انظر مزيداً من الشرح والبيان في عدة الصابرين ٤٠ تحقيق د/ بدير.

به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء(١) على المكاره، وكثرة الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»(٢).

(٣) وقيل: «اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله».

وقيل: اصبروا في الله وصابروا بالله، ورابطوا مع الله».

[وقيل: «اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء](٤)، لعلكم تفلحون في دار البقاء». «فالصبر» مع نفسك، و«المصابرة» بينك وبين عدوك، و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة، وكما أنّ الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو، فكذلك المرابطة(٥) أيضاً لزوم ثغر القلب، لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يُخربه

---

(١) (الوضوء) سقط من د.

(٢) مسلم. الطهارة (١/ ٢١٩) ح(٢٥١)، الترمذي. الطهارة (١/ ٧٢) ح(٥١)، ابن ماجه. الطهارة (١/ ١٨٤) ح(٤٢٧)، صحيح الترغيب (١/ ٨٣) ح(١٨٧).

(٣) في د، ش، ق (وقال: «رباط يوم في سبيل الله: خير من الدنيا وما فيها») قلت: أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢/ ٣٢٩) ح(٢٨٩٢)، مسلم. الإمارة (٣/ ١٥٠٠) ح(١٨٨١)، الترمذي (٤/ ١٨٠) ح(١٦٤٨).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من الأصل، ش، والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، لموافقته آخر العبارة الموجودة في الأصل وهي (لعلكم تفلحون في دار البقاء).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (الرباط).

أو يُشعثه»[1].

وقيل: «تَجَرَّع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً».

وقيل: «الصبر لله غناء[2]، وبالله[3] بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المحن عنوان الفرج».

وقيل: «حال العبد مع الله رباطه، وما دون الله أعداؤه».

وفي كتاب الأدب للبخاري: سُئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «الصَّبر والسَّماحة»[4]، ذكره عن موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا سويد

---

(١) يُشعثه: من شعث الأمر إذا انتشر، مختار الصحاح (٣٣٩)، ويعني هنا تفرق الهم في أودية الشهوات.

(٢) أ، ب، غ، م (فناء الصبر مع الله غنا)

(٣) ط (تعالى).

(٤) حديث عمرو بن عبسة أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٨٥)، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٠٠)، وابن ماجه مختصراً جداً رقم(٢٧٩٤) بدون لفظ «الصبر والسماحة»، وذلك من رواية محمد بن ذكوان الصاحي الجهضمي عن شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة وفيه ثلاث علل:

الأولى: شهر بن حوشب ضعيف كما في تهذيب الكمال ١٢/ ٥٧٨.

الثانية: شهر لم يسمع من عمرو بن عبسة كما في المراسيل لابن أبي حاتم (ص٨٩).

الثالثة: محمد بن ذكوان ضعيف انظر تهذيب الكمال (٢٥/ ١٨٠)، مصباح الزجاجة للبوصيري (٢/٤٠٣)

وروى الحديث من طريق علي الأزدي عن عبيد بن عمير عن عبدالله بن حبشي، وليس فيه (الصبر والسماحة)، أخرجه أحمد (٣/ ٤١٢)، وسنده قوي إلا أنه اختلف على عبيد بن

قال :(١) حدثنا عبدالله بن عمير عن أبيه عن جده - فذكره.

وهذا من أجمع الكلام، وأعظمه برهاناً، وأوعبه(٢) لمقامات الإيمان من أولها إلىٰ آخرها.

فإن النفس يُراد منها شيئان : بذل ما أُمرت به، وإعطاؤه، فالحامل عليه : السماحة، وترك ما نُهيت عنه، والبعد منه، فالحامل عليه الصبر.

وقد أمر الله سبحانه(٣) في كتابه بالصبر الجميل،(٤) الذي لا شكوىٰ فيه ولا معه، و«الصفح الجميل» هو الذي لا عتاب معه، و«الهجر الجميل»(٥) الذي لا

عمير فقد روي أيضاً عنه عن أبيه مرسلاً وروىٰ موصولاً وقد أخرج هذه الروايات البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢٥) وذكر الاختلاف في سنده ابن أبي حاتم كما في العلل (٢/ ١٤٩) وذكر عن أبيه ترجيح المرسل، وما حصل من عمرو بن عبسة والرسول ﷺ من أسئلة لها طرق وألفاظ كثيرة أصح أسانيدها وألفاظها ما رواه مسلم برقم (٨٣٢)، ورواه أحمد بطرق وألفاظ أُخر لا تخلو من ضعف (٤/ ١١٢، ١١٤)، وذكر له الألباني شواهد ومتابعات حسنّه لها ورجح المرسل من حديث عبيد بن عمير عن أبيه، الصحيحة (٣/ ٤٧٨ ـ ٤٨٣)، وفي تهذيب الكمال (٦/ ١٢١) وحلية الأولياء (٢/ ١٥٦) جعلاه من كلام الحسن البصري، والله أعلم.

(١) (قال حدثنا) سقط من ش.

(٢) أ، ب، غ (وأوعية).

(٣) ط (وتعالىٰ).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، ط، د، ق (والصفح الجميل والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : الصبر الجميل هو)، ب سقط (والهجر الجميل).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط (هو).

أذىٰ معه.

وفي أثر اسرائيلي : «أوحىٰ الله إلىٰ نبي من أنبيائه : أنزلت بعبدي بلائي ، فدعاني ، فماطلته بالإجابة ، فشكاني ، فقلت : عبدي ، كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟»(١).

[وقال ابن عيينة في(٢) قوله(٣) : ﴿وَجَعَلْنَا(٤) مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة :٢٤] قال : «أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء»(٥).

وقيل : صبر العابدين ، أحسنه : أن يكون محفوظاً ، وصبر المحبين ، أحسنه : أن يكون مرفوضاً كما قيل :](٦)

تبيَّن يومَ البَيْن أنّ اعتزامَه
علىٰ(٧) الصبر من إحدىٰ الظُّنون(٨) الكواذب(٩)

---

(١) لم أجده.

(٢) (في) سقطت من أ ، ب ، غ ، م.

(٣) ط (تعالىٰ).

(٤) الأصل (وجعلناهم) والمصحَّح من القرآن.

(٥) ابن كثير (٣/ ٥٧٢) ، الرسالة القشيرية (٢٩١) ، عدة الصابرين (١٥٤) تحقيق د/ بدير.

(٦) ما بين المعقوفين طمس من أ.

(٧) الأصل (محل) والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٨) ب (العزوم).

(٩) الرسالة القشيرية (٢٩٢) ، عدة الصابرين (٨٤) تحقيق د/ بدير.

والشكوىٰ إلىٰ الله عزّ وجل لا تنافي الصبر ، فإن يعقوب - عليه السلام - وعد بالصبر الجميل ، والنّبي إذا وعد لا يخُلف ، ثم قال : ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف :٨٦] وكذلك أيوب أخبر الله أنه وجده صابراً مع قوله :﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء :٨٣].

وإنما ينافي الصبر شكوىٰ الله ، لا الشكوىٰ إليه[1] ، كما رأىٰ بعضهم رجلاً يشكو إلىٰ آخر فاقةً وضرورة ، فقال : يا هذا ، تشكو من يرحمك إلىٰ من لا يرحمك؟ ثمّ أنشد :

وإذا عرَتْك بليّة فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلمُ
وإذا شكوتَ إلىٰ ابنِ آدم إنما ... تشكو الرحيمَ إلىٰ الذي لا يرحمُ[2]

* * *

(١) ط (إلىٰ الله).

(٢) البيت الثاني ذكره ابن القيم في الفوائد (الجاهل يشكو إلىٰ الناس.. ص٨٧) ، ونسبه صاحب كتاب لآلئ الشعر ٢٤٨ إلىٰ علي بن أبي طالب نقلاً عن كتاب الكامل وكتاب الأمثال والحكم ونص البيت :

لا تشكو إلىٰ العباد وإنما ... تشكو الرحيم إلىٰ الذي لا يرحم

وذكره ابن القيم في طريق الهجرتين ٨٣.

فصــل[١]

قال : صاحب «المنازل» :

من معاني الصبر «الصَّبْرُ : حَبْسُ النَّفسِ عَلىٰ المَكْرُوهِ ، وَعقْلُ اللِّسَانِ عَن الشَّكْوَىٰ ، وَهُوَ مِن أَصْعبِ المَنَازِلِ عَلىٰ العَامَّةِ ، وَأَوحَشُهَا فِي طَرِيقِ المحَبَّةِ ، وَأَنْكَرُهَا فِي طُرُقِ التَّوحِيدِ»[٢].

[٣]إنما كان صعباً علىٰ العامة : لأنّ العامي مبتدئ في الطريق ، وما له دُرْبَة[٤] بالسلوك[٥] ، ولا تهذيب المرتاض[٦] بقطع المنازل ، فإذا[٧] أصابته المحن[٨] أدركه الجزع ، وصعب عليه احتمال البلاء ، وعَزّ عليه وجدان الصبر؛ لأنه ليس من أهل الرياضة ، فيكون مستوطناً للصبر ، ولا من أهل المحبة ، فيلتذ

---

(١) (فصل) طمس من أ.

(٢) في المنازل [حبس النفس علىٰ جزع كامن عن الشكوىٰ ، وهو أيضاً من أصعب..] ٣٨.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (وإنما).

(٤) م (دراية).

(٥) ط (في السلوك).

(٦) المرتاض : ذكر في لسان العرب معانٍ متعددة يجمعها الاستيطان للشيء وفي آخره قال : إن الرَّيِّض من الدواب ضد الذلول وهو من التفاؤل ، وذللها علمها السير يُقال يروضها روضاً ورياضة واستراض المكان : فسح ، انظر لسان العرب ٧/ ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٧) ق (فإن).

(٨) (المحن) سقط من ش.

بالبلاء في رضىٰ محبوبه.

وأما وحشته[1] في طريق المحبة: فلأنها تقتضي التذاذ المحب بامتحان محبوبه له، والصبر يقتضي[2] كراهيته لذلك، وحبس نفسه عليه كرهاً، فهو وحشة في طريق المحبة.

وفي الوحشة نكتة لطيفة؛ لأن الالتذاذ بالمحنة في المحبة هو من موجبات أنس القلب بالمحبوب، فإذا أحسَّ بالألم - بحيث يحتاج إلىٰ الصبر - انتقل من الأنس إلىٰ الوحشية، ولولا الوحشة لما أحسَّ بالألم المستدعي للصبر.

وإنما أنكرها في طريق التوحيد: لأن فيه قوة الدعوىٰ؛ لأن الصابر يدَّعي بحالة قوة الثبات[3]، وذلك ادِّعاء[4] منه لنفسه قوة عظيمة، وهذا مصادمة لتجريد التوحيد، إذ ليس لأحد قوة البتة؛ بل لله القوة جميعاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله[5].

فهذا سبب كون الصبر منكراً في طريق التوحيد؛ بل من أنكر المنكر - كما قال - لأن التوحيد يرد الأشياء إلىٰ الله، والصبر يرد الأشياء إلىٰ النفس، وإثبات النفس في التوحيد منكر.

---

(١) د، ط (كونه وحشة).

(٢) ق (تقتضي).

(٣) ق (الشباب).

(٤) ط (ادعاءه).

(٥) أ، ب، غ (العلي العظيم).

هذا حاصل كلامه محرَّراً مقرَّراً ، وهو من مُنْكر كلامه [١].

بل الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة ، وألزمها للمحبين ، وهم أحوجُ إلىٰ منزلته [من كل منزلة][٢] وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأَبْيَنِها.

وحاجة المحب إليه ضرورية.

فإن قيل : كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية ، مع منافاته لكمال المحبة ، فإنه[٣] لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟.

قيل : هذه هي النكتة التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها ، وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها وصادقها من كاذبها ، فإن بقوة الصبر علىٰ المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته.

ومن هاهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة؛ لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالىٰ ، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا[٤] عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق ، وتجشم المكاره بالصبر : لما ثبت[٥] صحة محبتهم[٦] ،

---

(١) من مخالفات ابن القيم للهروي.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٣) غ (فلأنه).

(٤) انخلعوا : من خلع الشيء يخلعه خلعاً ، كنزعه وطرحه ، يقال خلع من الدين والحياء ، وقوم خلعاء بيِّنُوا الخلاعة ، لسان العرب ٨/ ٧٧.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (ثبتت).

(٦) م ، أ (صحبتهم).

و(١) تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالىٰ بالصبر خاصة أحبائه وأوليائه(٢) فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، ثمّ أثنىٰ عليه، فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر(٣) أن صبره به، وأثنىٰ علىٰ الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب، وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان - كما تقدم - فجعله قرين التوكل واليقين(٤)، والإيمان، والأعمال، والتقوىٰ.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو(٥) الصبر، وأخبر أن الصبر خير لأهله، وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما تقدم ذلك.

وليس في استكراه النفوس لألم ما لم تصبر عليه، وإحساسها به، ما يقدح في محبتها ولا توحيدها، فإن إحساسها بالألم، ونفرتها منه: أمر طبعي(٦) لها،

---

(١) ط (قد).

(٢) ط (أوليائه وأحبائه).

(٣) أ، ب (وأخبره).

(٤) ق، ط (اليقين والتوكل).

(٥) الأصل، ش، د، م (لا ينتفع بها ألا الصبر) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، ق، ط.

(٦) أ، غ، ب، د، ش، ق (طبيعي).

كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب، وتألمها بفقده، فلَوَازم النفس لا سبيل إلىٰ إعدامها وتعطيلها بالكلية وإلا لم تكن نفساً(١) إنسانية وارتفعت(٢) المحبة(٣) وكانت عالماً آخر.

و«الصبر» و «المحبة» لا يتناقضان؛ بل يتواخيان ويتصاحبان(٤)، والمحب صبور بلىٰ(٥) علة الصبر في الحقيقة: المناقضة للمحبة، المزاحمة للتوحيد أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضىٰ المحبوب؛ بل إرادة غيره، أو مزاحمته بإرادة غيره، أو المراد منه، لا مراده، هذه هي وحشة الصبر ونكارته.

وأما من رأىٰ صبره لله، وصبر بالله(٦)، وصَبره مع الله، مشاهداً أن صبره به تعالىٰ لا بنفسه، فهذا لا يلحق(٧) محبتَه وحشةٌ، ولا توحيدَه نكارةٌ.

ثم لو استقام له هذا لكان في نوع واحد من أنواع الصبر، وهو الصبر علىٰ المكاره.

فأما الصبر علىٰ الطاعات - وهو حبس النفس عليها -، وعن المخالفات

---

(١) م، ح٢ (نفسانية) و (نفساً) سقطت من أ، غ، ب.

(٢) ط (ولا ارتفعت).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط (المحنة).

(٤) (يتصاحبان) سقط من ق.

(٥) ش (بل).

(٦) ق (صبره بالله وصبر لله)، وفي أ، غ، ح٢، ب (وصبر به) وفي م (وصبره به).

(٧) ط (تلحق).

- وهو منع النفس منها طوعاً واختياراً والتذاذاً - فأي وحشة في هذا؟ وأي نكارة فيه؟.

فإن قيل : إذا كان يفعل ذلك طوعاً و محبة ، ورضىً وإيثاراً : لم يكن الحامل له علىٰ ذلك الصبر ، فيكون صبره في هذه[1] الحال ملزوم الوحشة والنكارة ، لمنافاتها لحال المحب.

قيل : لا منافاة في ذلك بوجه ، فإن[2] صبره حينئذ قد اندرج في رضاه ، وانطوىٰ فيه[3] ، وصار الحكم للرضىٰ ، لا أن الصبر عُدم؛ بل لقوة وارد الرضىٰ والحب[4]، وإيثار مراد المحبوب ، صار المشهد والمنزل للرضىٰ بحكم الحال، والصبر جزء منه ومنطوٍ فيه ، ونحن لا ننكر هذا القدر ، فإن كان هو المراد ، فحبذا[5] الوفاق ، وليس المقصود القيل والقال ، ومنازعات الجدال.

وإن كان غيره : فقد عرف ما فيه[6].

* * *

(١) ق (هذا).

(٢) ش (لأن).

(٣) (فيه) سقط من غ.

(٤) ق (المحب).

(٥) م ، أ ، غ (فحينئذ).

(٦) ق (والله أعلم) ، ط (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

فصل

درجات الصبر الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : الصَّبرُ عَن المعصِيَةِ ، بِمُطَالَعَةِ الوَعِيدِ : إِبقَاءً عَلَىٰ الإِيمَانِ ، وَحَذَراً مِن الحرَامِ[1] ، وَأَحسَنُ مِنهَا : الصَّبرُ عَن المعصِيةِ حَيَاءً»[2].

ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين :

أما السببان : فالخوف من لحوق الوعيد المترتب[3] عليها.

والثاني «الحَياء» من الرب تبارك وتعالىٰ أن[4] يُستعان علىٰ مَعاصيه بِنِعَمه ، وأن يُبارز[5] بالعظائم.

وأما الفائدتان : فالإبقاء علىٰ الإيمان ، والحذر[6] من الحرام.

فأما مطالعة الوعيد ، والخوف منه : فيبعث عليه قوة الإيمان بالخبر ، والتصديق بمضمونه.

وأما الحياء : فيبعث عليه قوة المعرفة ، ومشاهدة معاني الأسماء والصفات.

---

(١) في منازل السائرين (الجزاء) (ص٣٨).

(٢) منازل السائرين (٣٨).

(٣) أ ، ب ، غ (المرتب).

(٤) (أن) سقط من ق.

(٥) ق (وأن يبارزه).

(٦) ق (الخدر).

وأحسن من ذلك : أن يكون الباعث عليه وازع الحب ، فيترك معصيته محبة له ، كحال الصُهيْبيين[1].

وأما الفائدتان : فالإبقاء علىٰ الإيمان : يبعث علىٰ ترك المعصية؛ لأنها لا بدّ أن تنقصه ، أو تذهب به ، أو تذهب رونقه[2] وبهجته[3] ، أو تطفئ نوره ، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته، و[4]هذا أمر ضروري بين المعصية وبين الإيمان، يُعلم بالوجود والخبر والعقل كما صحَّ عنه ﷺ : «لا يزني الزّاني حين يزني

---

(١) في هذا إشارة إلىٰ ما ورد : «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».
أورده السيوطي في تدريب الراوي (٢/ ١٧٥) من الأحاديث المشتهرة علىٰ ألسنة النحاة ، وقال : قال العراقي وغيره : لا أصل له ولا يوجد بهذا اللفظ في شيء من كتب الحديث وذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (ص٤٤٩) وقال : ذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به في شيء من الكتب ، قال : ثم رأيت بخط شيخنا أنه ظفر به في مشكل الحديث لابن قتيبة لكن لم يذكر إسناداً.
وقد روي عن عمر مرفوعاً نحوه لكنه في سالم مولىٰ أبي حذيفة : «لو كان لا يخاف الله عزّ وجل ما عصاه» ، حلية الأولياء (١/ ١٧٧) ، وضعفه السخاوي في المقاصد (٤٤٩) ، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٢٨) رقم (٢٨٣١) ، وقال علي بن سلطان القاري في المصنوع (٢٠٢) لا أصل له كما صرح به الحفاظ وكذلك الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/ ٥٦ ، ٥٧) قال لا أصل له ، وكذلك الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٢) رونقه : الرونق رونق السيف ، ماؤه وصفاؤه وحسنه ، ورونق الشباب أوله وطراوته ، المعجم الوسيط (١/ ٣٧٦)

(٣) بهجته : البهجة الحسن والنظارة ، لسان العرب ٢/ ٢١٦.

(٤) (الواو) ساقطة من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق.

وهو مؤمن ، ولا يشربُ الخمرة حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نُهبةً ذات شرف - يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها - وهو مؤمن فإياكم إياكم ، والتوبة معْروضَة بَعد»[١].

وأما الحذر عن[٢] الحرام : فهو الصبر عن كثير من المباح ، حذراً من أن يسوقه إلىٰ الحرام.

ولما كان «الحياء» من[٣] شيم الأشراف ، وأهل الكرم والنفوس الزكية : كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف.

و[٤]لأن في الحياء من الله ما يدل علىٰ مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف.

فمن وازعه الخوف : قلبه حاضر مع العقوبة ، ومن وازعه الحياء : قلبه حاضر مع الله ، والخائف[٥] مراع جانب نفسه وحمايتها ، والمستحي مراع جانب ربه ، وملاحظ[٦] عظمته.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢/ ٢٠١) ح(٢٤٧٥) ، مسلم. الإيمان (١/ ٧٦) ح(٥٧) ، أحمد (٢/ ٣٧٦).

(٢) ش (من).

(٣) م ، ح٢ (هو) ، أ ، غ ، ب (الحياء شيم).

(٤) (الواو) سقطت من ق ، غ ، ب.

(٥) ق (الخايف).

(٦) د ، ش ، ح٢ (ملاحظة).

وكلا[1] المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب إلىٰ مقام الإحسان، وألصق به فإنه إذا نزل[2] نفسه منزلة من كأنه يرىٰ الله، فنبعت[3] ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

الدرجة الثانية

قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الصَّبرُ عَلىٰ الطَّاعةِ، بِالمحُافَظَةِ عَلَيهَا دَوَاماً، وَبِرِعَايَتِهَا إخْلاصاً، وَبِتَحسِينِهَا عِلْماً**»[4].

هذا يدل علىٰ أنَّ عنده: أنّ فعل الطاعة آكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر علىٰ[5] ترك المعصية في الدرجة.

وهذا هو الصواب - كما تقدم - فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة، والنهي مقصود للأمر، فالمنهي عنه لما كان يُضعف المأمور به ويَنْقُصه[6]: نهىٰ عنه حماية، وصيانة لجانب[7] الأمر، فجانب الأمر أقوىٰ وآكد، وهو بمنزلة الصحة [والحياة، والنهي بمنزلة الحِمية التي تراد لحفظ الصحة][8] و[9]أسباب

---

(١) أ، ب، غ (وكل).

(٢) ب، أ (إذا أنزل).

(٣) أ، ب، غ (ينبعث).

(٤) منازل السائرين ٣٨.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب (عن).

(٦) ش، د، ق (ويهجنه).

(٧) (لجانب الأمر) سقط من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من أ، غ، ب.

(٩) أ، ب، غ (في) بدل (الواو).

الحياة.

وذكر الشيخ : أن الصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء : دوام الطاعة ، والإخلاص فيها ، ووقوعها علىٰ مقتضىٰ العلم ، وهو تحسينها علماً[١].

فإن الطاعة تتخلف من فوات واحد من هذه الثلاثة ، فإنه[٢] إن لم يحافظ عليها دواماً عطلها ، وإن حافظ عليها[٣] دواماً عرض لها[٤] آفتان:

إحداهما[٥] : ترك الإخلاص فيها ، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله ، وإرادته والتقرب إليه ، فحفظها من هذه الآفة[٦] برعاية الإخلاص.

الثانية : ألا تكون مطابقة للعلم[٧] ، بحيث لا تكون علىٰ اتباع السنة ، فحفظها من هذه الآفة : بتجريد المتابعة ، كما أن حفظها من تلك الآفة[٨] بتجريد القصد والإرادة فلذلك قال : «**بِالمُحَافَظَةِ عَلَيهَا دَوَاماً ، وَرِعَايَتِهَا إِخْلَاصاً ، وَتحْسِينِهَا عِلْماً**[٩]».

---

(١) م ، ح٢ (عملاً).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (فإن العبد).

(٣) ط (عليه).

(٤) ب (له).

(٥) ق (أحدهما).

(٦) ط (الآية).

(٧) (للعلم) سقط من ش.

(٨) (الآفة) سقط من ق.

(٩) م ، ح٢ (عملاً).

فصل

الدرجة الثالثة

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الصَّبرُ فِي البَلاءِ ، بِمُلاحَظَةِ حُسْنِ الجَزَاءِ ، وَانتِظَارِ رَوحِ الفَرَجِ ، وَتَهْوِينِ البَلِيَّةِ بِعَدِّ أَيَادِي المِنَنِ ، وَتذَكُّرِ[1] سَوَالِفِ النِّعَمِ »[2].

هذه ثلاثة أشياء ، تبعث[3] علىٰ الصبر في البلاء.

إحداها[4] : ملاحظة حسن الجزاء وعلىٰ حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء لشهود العوض ، وهذا كما يخف علىٰ كل متحمل مشقة عظيمة حملها ، لما يُلاحظ من لذة عاقبتها وظفره بها ، ولولا ذلك لتعطّلت مصالحُ الدنيا والآخرة ، وما أقْدَمَ أحدٌ علىٰ تحمّل مشقةٍ عاجلة إلا لثمرةٍ مؤجلة ، فالنفس موكلة[5] بحب العاجل ، وإنما خاصة العقل : تلمح العواقب ، ومطالعة[6] الغايات.

وأجمع العقلاء من كل[7] أمة علىٰ أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وأن من رافق

---

(١) ب ، ط (بذكر) وسقطت من د .

(٢) منازل السائرين (٣٩).

(٣) د ، هامش ق (المتلبس بها).

(٤) ق (أحدها).

(٥) ش (مولعة).

(٦) ب ، غ (مطالعات).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (عقلاء كل أمة).

الراحة فارق الراحة [1] وأن قدر [2] التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدر الكريم [3] الكرائمُ

[4] ويكبر في عين الصغير صغارُها [5] ... وتصغُر في عين العظيم العظائمُ [6]

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني: «انتِظَارُ رَوحِ الفَرَجِ».

يعني راحته ونسيمه ولذته، فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء و [7] القطع بالفرج، فإنه يجد في حشو [8] البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته: ما هو من خفي الألطاف [9]، وما هو

---

(١) د، ق (وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة).

(٢) كذا في الجميع ولعل الأقرب: «وأن على قدر التعب..» وهو المثبت في طبعة المنار وطبعة بشير عيون ٢/ ١٧٥.

(٣) في ديوان المتنبي (الكرام).

(٤) في ديوان المتنبي (وتعظم).

(٥) الأصل (صغيرها) والصحيح ما أثبته من الديوان، ش، ح٢.

(٦) القائل هو المتنبي/ شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢/ ٩٤ من الجزء الرابع.

(٧) ط، ح٢ (أو).

(٨) حشو البلاء: لم أجد في اللسان ما يدل على استعمالها هنا، انظر لسان العرب ١٤/ ١٧٨ - ١٨٣، المعجم الوسيط ٢/ ١٧٦ - ١٧٧.

(٩) الألطاف: لطف الشيء: رقَّ، ضد كثف، واللطف: الرفق، وما أكثر تحفه وإلطافه: أي أهدى، المعجم الوسيط ٢/ ٨٢٦.

فرج معجل، وبه - وبغيره - يفهم معنىٰ اسمه «اللطيف[1]».

والثالث: «تَهْوِينُ البَلِيَّةِ» بأمرين.

أحدهما: أن يعدَّ نعم الله عليه وأياديه عنده، فإذا[2] عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه - بالنسبة إلىٰ أيادي الله ونعمه - كقطرة من[3] بحر.

والثاني: تذكر[4] سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي، وتعداد أيادي المنن: يتعلق[5] بالحال، وملاحظة حسن[6] الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل، وأحدهما في الدنيا، والثاني يوم الجزاء.

ويحكىٰ عن امرأة من العباد[7] أنها عثرت، فانقطعت إصبعها، فضحكت،

---

(١) معنىٰ اللطيف: أنه هو الذي يسري لطفه الخفي في رفق ورأفة في جميع مخلوقاته من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، والله عزّ وجل.. لطيف عن أن تدركه الأبصار، ومن لطفِه: لطفُه بالأجنة في بطون الأمهات، واللطف لا يكون إلا عن علم وقوة وعزة، وحظ الإنسان من ذلك، أن يتخلق بالرفق واللين بالعباد. انظر. ولله الأسماء الحسنىٰ ٨٨، المقصد الأسنىٰ ٧٤، تفسير أسماء الله الحسنىٰ ٤٤، اشتقاق أسماء الله ١٣٨.

(٢) ق (وإذا).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب (في).

(٤) ق (يذكر).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د (تتعلق).

(٦) (حسن) سقط من ش.

(٧) م، غ، ح٢، ق، ب، د (العابدات)، أ، ب في المتن (المتعبدات) وفي الهامش (العابدات).

فقال لها بعض من معها : أتضحكين ، وقد انقطعت إصبعك؟ فقالت : أخاطبك علىٰ قدر عقلك ، حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها[1] ، إشارة إلىٰ أن عقله لا يحتمل[2] ما فوق هذا المقام ، من ملاحظة المبتلي ، ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء ، وتلذذها بالشكر له ، والرضىٰ عنه ، ومقابلة ما جاء من قبله بالحمد والشكر ، كما قيل :

لئن ساءني أن نلتني بمساءةٍ فقد[3] سرَّني أني خطرت ببالكا[4]

فصل[5]

قال : «وَأَضْعَفُ الصَّبرِ : الصَّبرُ لله ، وَهُوَ صَبرُ العَامَّةِ ، وَفَوقَهُ الصَّبرُ بالله ، وَهُوَ صَبرُ المرِيدِينَ[6] ، وَفَوقَهُ الصَّبرُ عَلىٰ الله ، وَهُوَ صَبرُ السَّالِكِينَ»[7].

معنىٰ كلامه : أن صبر العامة لله ، أي رجاء ثوابه ، وخوف عقابه ، وصبر المريدين بالله : أي بقوته ومعونته، فهم لا يرون لأنفسهم صبراً، ولا قوة[8]

(١) هذه القصة عزاها الغزالي لامرأة فتح الموصلي. إحياء علوم الدين ٤/ ٧٣.

(٢) هامش ب (لعله لا يحتمل).

(٣) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (لقد).

(٤) بيت الشعر : قائله عبدالصمد بن المعذل : في ديوانه ١٥٢.

(٥) (فصل) طمس في أ ، ق.

(٦) المنازل (المريد).

(٧) منازل السائرين ٣٩.

(٨) ط (لهم).

عليه؛ بل حاملهم التحقق[١] بـ«لا حول ولا قوة إلا بالله» علماً ومعرفة وحالاً.

وفوقهما الصبر علىٰ الله ، أي علىٰ أحكامه ، إذ صاحبه يشهد المتصرف فيه ، فهو يصبر علىٰ أحكامه الجارية عليه ، جالبة عليه ما جلبت من محبوب ومكروه ، فهذه درجة صبر السالكين.

وهؤلاء الثلاثة عنده من العوام، إذ هو في مقام الصبر، وقد ذكر أنه للعامة ، وأنه من أضعف منازلهم.

هذا تقرير كلامه.

والصواب : أن الصبر لله فوق الصبر بالله ، وأعلىٰ درجة[٢] وأجل ، فإن الصبر لله متعلق بالإلهية[٣] ، والصبر به : متعلق بربوبيته ، وما تعلق بإلهيته[٤] أكْمل وأعلىٰ مما تعلق بربوبيته.

ولأن الصبر له عبادة ، والصبر به استعانة ، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مُشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به[٥].

---

(١) ق ، ش (التحقيق).

(٢) ط (منه).

(٣) ق ، ط (بإلهيته).

(٤) أ ، ب (بالإلهية).

(٥) الحقيقة الكونية والدينية تقدم الحديث عنهما ص١٧١٨، وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ١٦٤ - ٦٦٧ .

وأما الصبر له : فمنزلة الرسل والأنبياء والصدِّيقين ،[١] أصحاب مشهد : «إياك نعبد وإياك نستعين».

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب له مَرضي[٢] له ، والصبر به : قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون في مكروه أو مباح ، فأين هذا من هذا؟.

وأما تسمية «الصَّبر عَلىٰ أحكَامِهِ» صبراً عليه ، فلا مشاحة في العبارة بعد معرفة المعنىٰ ، فهذا هو الصبر علىٰ أقداره ، وقد جعله الشيخ في الدرجة الثالثة ، وقد عرفت بما تقدم : أن الصبر علىٰ طاعته ، والصبر عن معصيته : أكمل من الصبر علىٰ أقداره - كما ذكرنا[٣] -[٤] فإن الصبر فيهما[٥] صبر اختيار وإيثار ومحبة ، والصبر علىٰ أحكامه الكونية : صبر ضرورة ، وبينهما من البون ما قد عرفت.

---

٤٨٥ ، والمراد به هنا : « شهود القدر ، وهو الجمع الذي تشترك فيه جميع المخلوقات ـ سعيدها وشقيها ـ مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر.. » ، الفتاوىٰ ١٠/ ٦٦٨.

(١) ط (وأصحاب).

(٢) ط (مرضىٰ).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (في صبر يوسف عليه السلام).

(٤) وقد أشار شيخ الإسلام إلىٰ صبر يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أمراض القلوب ضمن مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ١٢٣ ، وفي جواب أهل العلم والإيمان. الفتاوىٰ ١٧/ ٣١.

(٥) غ ، ب (فيها).

وبذلك(١) كان صبر(٢) إبراهيم وموسىٰ ونوح(٣) ،(٤) عليهم الصلاة والسلام، علىٰ ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ، ومقاومتهم قومهم : أكمل من صبر أيوب علىٰ ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً(٥) عن فعله(٦).

وكذلك(٧) صَبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم(٨) علىٰ تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب علىٰ فقد يوسف.

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (وكذلك).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (نوح).

(٣) ق (عيسىٰ).

(٤) الموضع الأول من الخلط في نسخة (ق) لما بلغ قوله : (وعيسىٰ) ، قفز إلىٰ قوله : (ليس رجاءً مشوباً بشك) ص١٨٨٧ ، فلما بلغ قوله : (ولا يستبدل حالاً) ص١٩٠٠، رجع إلىٰ قوله (وعيسىٰ عليهم السلام علىٰ ما نالهم..) ص١٨٧٥ ، فلما بلغ قوله : (من كرامته دائماً لكنه) ص١٨٨٧ ، قفز إلىٰ قوله : (هذا الذي ذكره الشيخ) ص١٩٠٠ ، ومحصلة هذا الأمر تقديم وتأخير لا سقط فيه لكنه يحدث اضطراباً في المعلومات.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (سبباً).

(٦) انظر تعليق شيخ الإسلام علىٰ مسألة من ابتُلي ومن تعرض للبلوىٰ ، الفتاوىٰ ١٠/ ٥٧٧. ولا يدخل في هذا من تعرض للبلوىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ الله فإن من سلك ذلك الطريق فلا بد له من ابتلاء.

وانظر تقسيم ابن القيم في هذه المسألة في عدة الصابرين ٦٦ وما بعدها ، تحقيق د/ بدير أحمد بدير.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (كان).

(٨) ط (عليهما السلام).

فعلمت[١] أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله، والصبر علىٰ طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر علىٰ قضائه وقدره، والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإن قلت: الصبر بالله أقوىٰ من الصبر لله، فإن ما كان بالله كان بحوله وقوته، وما كان به لم يقاومه شيء، ولم يقم له[٢]، وهو صبر أرباب الأحوال والتأثير، والصبر لله صبر أهل العبادة والزهد، ولهذا هم - مع إخلاصهم[٣] وصبرهم لله - أضعف من الصابرين به، فلهذا قال: «وَأَضْعَفُ الصَّبرِ: الصَّبرُ لله».

قيل: المراتب أربع.

إحداها: مرتبة الكمال،[٤] مرتبةُ أُولي العزم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون[٥] في صبره[٦] مبتغياً وجه الله، صابراً به، متبرئاً من حوله وقوته، فهذا أقوىٰ المراتب[٧] وأفضلها.

---

(١) ط (بهذا).

(٢) ط زيادة (شيء).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (وزهدهم).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (وهي).

(٥) (فيكون) سقطت من أ، غ، ب.

(٦) (في صبره) سقط من أ، غ، ب.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (وأرفعها).

الثاني[1] : أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا ، فهذا أخسُّ المراتب ، وأردأ الخلق ، وهو جدير بكل خذلان ، وبكل حرمان.

الثالث[2] : من فيه صبر بالله ، وهو[3] مستعين متوكل علىٰ حول الله وقوته[4] ، متبرئ من حوله وقوته ، ولكن صبره ليس لله ، إذ ليس[5] فيما هو مراد الله الديني منه ، فهذا ينال مطلوبه ، ويظفر به ، ولكن لا عاقبة له ، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

وفي هذا المقام خفراء[6] الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية ، فإن صبرهم بالله لا لله ، ولا في الله ، ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم ، وهم من جنس الملوك الظلمة ، فإن الحال كالملك يُعطاه البر والفاجر ، والمؤمن والكافر.

الرابع : من فيه صبر لله؛ لكنه ضعيف النصيب من الصبر به ، والتوكل عليه ، والثقة[7] به ، والاعتماد عليه ، فهذا له عاقبة حميدة ،

---

(١) ط (الثانية).

(٢) ط (الثالثة مرتبة).

(٣) ق (فهو).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط ، د (حوله وقوته).

(٥) ط زيادة (صبره).

(٦) أ ، م ، غ ، ب (صبراء).

(٧) (والثقة به) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، (به) سقطت من ق.

ولكنه ضعيف عاجز، مخذول في كثير من مطالبه، لضعف نصيبه من «إياك نعبد وإياك نستعين» فنصيبه من الله: أقوىٰ من نصيبه بالله، فهذا حال المؤمن الضعيف.

وصابر[1] بالله، لا لله: حال الفاجر القوي، وصابر[2] لله وبالله: حال المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف[3].

فصابر[4] لله وبالله عزيز حميد، ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم، ومن هو[5] لله لا بالله عاجز محمود.

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذا الباب، ويتبين فيه الخطأ من الصواب[6].

* * *

---

(١) الأصل (صاحب) والصحيح ما أثبته من أ، غ، ب، ط.

(٢) الأصل (صاحب) والصحيح ما أثبته من أ، غ، ب، ط.

(٣) «المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» أخرجه مسلم. القدر (٤/ ٢٠٥٢) ح(٢٦٦٤)، أحمد (٢/ ٣٧٠)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٦/ ١٥٩) رقم(١٠٣٧٥)، ابن ماجه. الزهد رقم (٤١٦٨)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٢٩).

(٤) الأصل (صاحب) والصحيح ما أثبته من أ، غ، ب، ط.

(٥) (هو) سقطت من د.

(٦) ق (والله أعلم)، و أ، ب (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

فصـــل

منزلة الرّضىٰ

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الرِّضىٰ»(١).

وقد أجمع العلماء علىٰ أنه مُستحب، مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه(٢) علىٰ قولين.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يحكهما(٣) قولين لأصحاب أحمد، وكان يذهب إلىٰ القول باستحبابه(٤).

قال: ولم يجيء الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء علىٰ أصحابه ومدحهم.

---

(١) الرضىٰ : هو عند أهل الطريق اسم للوقوف الصادق، وهو الوقوف مع مراد الله وقوفاً بالحقيقة من غير تردد.. فلا يكره شيئاً أصلاً إلا ما كان مخالفاً للشرع، فهو ينكره ويكرهه امتثالاً للشرع.. وهو عندهم درجات، منها أن لا يجد العبد حرجاً مما قدر الحق وقضاه، وهو يعني الرضا في الدنيا تحت مجاري الأحكام، وهو عند بعضهم ليس أن لا تحس ولكنه أن لا تعترض علىٰ الحكم والقضاء، وأكتفي بهذا لأن ابن القيم نقل جملة من تعريفاتهم للرضىٰ، وانظر ذلك في : التعرف ١٢٠ - ١٢١، عوارف المعارف ٥٠١، قوت القلوب ٢/ ٣٨، لطائف الإعلام ١/ ٤٩٠ ـ ٤٩١، الرسالة القشيرية ٢٩٧، معجم مصطلحات الصوفية ١١٢، وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ٤٣ ـ ٤٧ ـ ٤٨٢.

(٢) (في وجوبه) سقط من أ، ب، غ.

(٣) ط (يحكيهما علىٰ).

(٤) الفتاوىٰ ١٠/ ٤٠ ـ ٤١، التحفة العراقية تحقيق د/ يحيىٰ الهنيدي ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

قال: وأما ما يروىٰ من الأثر[١] «من لم يصبر علىٰ بلائي، ولم يرضَ بقضائي، فليتخذ رباً سواي» فهذا أثر إسرائيلي ، ليس يصح عن النبي ﷺ[٢].

قلت : ولا سيما عند من يرىٰ أنه من جملة الأحوال التي[٣] ليست بمكتسبة ، وأنه[٤] موهبة محضة ، فكيف يؤمر به ، وليس مقدوراً ؟[٥] .

وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك علىٰ ثلاث طرق.

فالخُراسانيون[٦] قالوا : إن[٧] الرضىٰ من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل،

---

(١) م (الإسرائيلي).

(٢) الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢٠) وضعف إسناده العراقي كما في تعليقه علىٰ إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٧) فيه سعيد بن زياد بن هند متروك ، وقال ابن حجر : فائد وولده ضعيفان ، الإصابة (٤/ ٢١٢) ، وأورده ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٢٧) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٣٣) ، وفي قوت القلوب (٢/ ٤٧) ، وفي تنبيه الغافلين نسبه لابن عباس (٢٦٣) ، وانظر تعليق شيخ الإسلام علىٰ مثل هذه الحكايات الإسرائيلية في الاستقامة (٢/ ٨٢) ، وذكره شيخ الإسلام في منهاج السنة (٣/ ٢٠٤) ، من غير تعليق.

(٣) (التي) سقط من د.

(٤) ط (بل هو) بدل (وأنه).

(٥) ط زيادة (عليه).

(٦) الخراسانيون والشاميون والبغداديون والعراقيون أسماء لبعض المتصوفة لها صلة بالبلد والسلوك الذي يميز بعضهم عن بعض ، انظر في هذه المسألة عوارف المعارف ٦٦ ، دراسات في الفكر العربي الإسلامي للإستاذ عرفان فتاح ٣٢٥ ، وانظر المدارج ١/ ١٣٥ ، الرسالة القشيرية ٢٩٧.

(٧) (إن) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

اختلاف الخراسانيين والعراقيين في مسألة الرضا

فعلىٰ هذا(١) يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه.

والعراقيون قالوا : هو من جملة الأحوال وليس ، كسبياً(٢) للعبد ؛ بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال(٣) : أن المقامات عندهم من المكاسب ،

---

(١) (فعلىٰ هذا) سقطت من ش.

(٢) د (كسباً).

(٣) المقامات والأحوال : الحال مقدمة المقام فإن المبتدئ بالذكر يصل إلىٰ طمأنينة مؤقتة لا تلبث آن تزول فهذه حال ، فإذا وصل إلىٰ طمأنينة دائمة للقلب فهذا مقام ، فالحال ما يرد فجأة وهو أوائل المقام الذي هو الاستقرار والدوام ، والمقامات تختلف عند أهل الطرق من حيث الأنواع والأعداد، فالمقامات تتراوح عندهم من السبعة إلىٰ التسعة ومنها التوبة، الورع، الزهد ، الفقر ، الصبر ، التوكل ، الرضىٰ.. ، والأحوال مثل القبض والبسط ، والهيبة والأنس ، والصمود والسكر ، والجمع والفرق ، والفناء والبقاء ، والمكاشفة والمشاهدة ، وهذه الأسماء متداولة في أمهات كتبهم علىٰ تفاوت في الوضوح والترتيب كما في إحياء علوم الدين والرسالة القشيرية والتعرف وغيرها.

المقام : من الاصطلاحات التي تعددت تعريفاته عندهم مع عدم وضوح مرادهم به ، لكن تعريف الحال عندهم يفهم منه المراد بالمقام والحال كما سبق تعريفه ص١٨٢٨ إنما هو لتحوله وزواله ، والمقام لإقامته واستقراره فإذا كان الأمر غير مستقر فهو الحال فإذا استقر أصبح مقاماً ، ولا يرتقي من مقام حتىٰ يستوفي أحكام ذلك المقام سواء من العبادات أو المجاهدات أو الرياضات ، انظر لطائف الإعلام ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٣٢ ، ١/ ٤٠٣ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٤٨ ، عوارف المعارف ٥/ ٢٢٧ كشف المحجوب ٢/ ٤٠٩ ، الحركة الصوفية في الإسلام ١١٦ ، الكشف عن حقيقة الصوفية ٣٧٩ ، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ١٥٠.

والأحوال مجرد المواهب.

وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين ، منهم[١] - صاحب الرسالة[٢] - وغيره فقالوا : يمكن الجمع بينهما ، بأن يقال : بداية «الرضىٰ» مكتسبة للعبد ، وهي من جملة المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال ، وليست[٣] مكتسبة : فأوله مقام ، ونهايته حال.

واحتج من جعله من جملة المقامات : بأن الله مدح أهله ، وأثنىٰ عليهم ، وندبهم إليه ، فدل[٤] ، [٥]علىٰ أنه مقدور لهم.

وقال النبي ﷺ : «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ رسولاً»[٦].

وقال : «من قال حين يسمع النداء : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً ، غُفرت له ذنوبه»[٧].

---

(١) ط (القشيري) وفي هامش غ ، ب ، أ (هو أبو القاسم القشيري).

(٢) هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري ، وانظر تقسيمه في الرسالة القشيرية ص١٢٤ - ١٢٥.

(٣) (وليست) سقطت من ح٢.

(٤) أ ، غ ، ب (يدل).

(٥) ط (ذلك).

(٦) مسلم . الإيمان (١/ ٦٢) ح(٣٤) ، أحمد (١/ ٢٠٨) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ١٤) ح(٢٦٢٣) وقال حديث حسن صحيح.

(٧) مسلم. الصلاة (١/ ٢٩٠) ح(٣٨٦) ، أحمد (١/ ١٨١) ، الترمذي. الصلاة (١/ ٤١١) ح(٢١٠) ، أبو داود. الصلاة (١/ ٣٦٠) ح(٥٢٥).

ما يتضمنه الرضى بألوهيته وربوبيته سبحانه

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما[1] ينتهي، وقد تضمنا[2] الرضىٰ بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضىٰ برسوله، والانقياد له، والرضىٰ بدينه، والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصدّيق حقاً، وهي سهلة بالدعوىٰ واللسان، وهي[3] من[4] أصعب الأمور عند الحقيقة[5] والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوىٰ النفس ومرادها من ذلك، تبين أن الرضىٰ كان[6] علىٰ لسانه لا علىٰ حاله.

فالرضىٰ بإلهيته يتضمن الرضىٰ بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوىٰ الإرادة والحب كلها إليه، فعل الراضي بمحبوبه كل الرضىٰ وكل[7] ذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضىٰ بربوبيته: يتضمن الرضىٰ بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه[8]، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

---

(١) د، ح٢، ق (وإليها).

(٢) ق (تضمنها).

(٣) (وهي) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (ومن).

(٥) ط (حقيقة).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (لسانه به ناطقاً فهو)

(٧) (كل) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٨) الأصل سقطت (عليه) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

فالأول : يتضمن رضاه بما يؤمر به ، والثاني : يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضىٰ بنبيه رسولاً : فيتضمن كمال(١) الانقياد له ، والتسليم(٢) المطلق إليه ، بحيث(٣) يكون أولىٰ به من نفسه ، فلا يتلقىٰ الهدىٰ إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكم عليه غيره ، ولا يرضىٰ بحكم غيره البتة ، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ، ولا في(٤) شيء من أحكام ظاهره وباطنه ، [لا يرضىٰ في ذلك بحكم غيره](٥) ، ولا يرضىٰ إلا بحكمه ، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد(٦) ما يقيته إلا من الميتة والدم ، وأحسن أحواله : أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور. وأما الرضىٰ بدينه : فإذا قال ، أو حكمَ ، أو أمرَ ، أو نهىٰ : رضي كل الرضىٰ ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه ، وسلَّم له(٧) تسليماً ، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها ، أو قول مُقلِّده وشيخه وطائفته.

---

(١) (كمال) سقط من أ ، ب ، غ ، ح٢ ، م.

(٢) (التسليم) سقط من ش.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (أن).

(٤) (في) سقطت من ش.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٦) (يجد) سقط من غ.

(٧) (له) سقطت من أ.

وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم ، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد ، فإنه والله عين العزة ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأنس به ، والرضىٰ به رباً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وبالإسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب ، وذاق حلاوته ، وتنسَّم(١) (٢) روحه، قال: اللهم زدني اغتراباً ، ووحشة من العالم ، وأنساً بك ، وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب ، وهذا التفرد : رأىٰ الوحشةَ عينَ الأنس بالناس ، والذلَّ عينَ العزِّ بهم ، والجهل عين الوقوف مع آرائهم ، وزِبالة(٣) أذهانهم ، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم ، فلم يؤْثِرِ بنصيبه من الله أحداً من الخلق ، ولم يبعْ حظَّه(٤) من الله بموافقتهم فيما لا يُجدي عليه إلا الحرمان ، وغايته : مودّة بينهم في الحياة الدنيا ، فإذا انقطعت الأسباب ، وحقَّت الحقائق ، وبُعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور ، وبُليت السرائر ، ولم يجد من دون مولاه(٥) الحق من(٦) قوة ولا

(١) (تنسّم) سقط من أ ، غ ، ب.

(٢) تنسّم : يقال تنسم فلان العلم أو الخبر تلطف في التماسه شيئاً فشيئاً / المعجم الوسيط ٢/ ٩١٩.

(٣) زبالة : الزبل (السَّرجين) ، وموضعه (مَزْبلة) ، مختار الصحاح ٢٦٨ ، المعجم الوسيط ١/ ٣٨٨.

(٤) (حظه) سقط من د.

(٥) أ ، غ ، ب (موالاة).

(٦) (من) سقطت من ش.

ناصر : تبين له حينئذ مواقع الربح من[1] الخسران ، وما الذي يَخِفُّ به الميزان ، والله المستعان ، وعليه التكلان.

التحقيق في مسألة الرضى هل هو كسبي أم موهبي

والتحقيق في المسألة : أن «الرضىٰ» كَسبي باعتبار سببه ، موهبيٌّ باعتبار حقيقته ، فيمكن أن يقال[2] بالكسب لأسبابه ، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته : اجتنىٰ منها ثمرة الرضىٰ ، فإن الرضىٰ آخر التوكل ، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض : حصل له الرضىٰ ولا بدّ ، ولكن لعزّته وعدم إجابة أكثر النفوس له ، وصعوبته عليها لم يوجبه الله علىٰ خلقه ، رحمة بهم وتخفيفاً عنهم ، لكن نَدَبهم إليه وأثنىٰ علىٰ أهله ، وأخبر أن ثوابه[3] رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنات[4] وما فيها ، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه ؛ بل رضىٰ العبد عن الله من نتائج رضىٰ الله عنه ، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده : رضىٰ قبله ، أوجب له أن يرضىٰ عنه ، ورضىٰ بعده، هو ثمرة رضاه عنه ، ولذلك كان الرضىٰ باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العارفين ، وحياة المحبين ، ونعيم العابدين ، وقرة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرضىٰ : أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصله إلىٰ مقام الرضىٰ ولا بدَّ.

---

(١) (من) ساقطة من الجميع وما أثبته من ش وبه يتم المعنىٰ.

(٢) ش (ينال).

(٣) غ (ثواب).

(٤) ط ، ش ، ب (الجنان).

قيل ليحيىٰ بن معاذ : متىٰ يبلغ العبد إلىٰ مقام الرضىٰ؟ فقال : إذا أقام نفسه علىٰ أربعة أصول فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن أعطيتني قَبِلت ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عَبدت ، وإن دعوتني أجبت(١).

وقال الجنيد(٢)(٣) : « الرضىٰ هو صحة العلم الواصل إلىٰ القلب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلىٰ الرضىٰ » (٤).

وليس الرضىٰ والمحبة كالرجاء والخوف ، فإن الرضىٰ والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة ، لا يفارقان [المتلبس بهما](٥) في الدنيا ، ولا في البرزخ ، ولا في الآخرة ، بخلاف الخوف والرجاء ، فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول(٦) ما كانوا يرجونه ، وأمنهم مما كانوا يخافونه ، وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً، لكنه ليس(٧) رجاء مشوباً بشكٍ؛

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٦٦.

(٢) الجنيد بن محمد الجنيد ، أبو القاسم الخزاز القواريري ، أصله من نهاوند ونشأته في بغداد ، صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي ، توفي سنة ٢٩٨هـ . حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٥) ، صفة الصفوة (٢/ ٢٧٠) ، طبقات الشعراني (١/ ٨٤).

(٣) (رضي الله عنه) سقط من ط.

(٤) قال في حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٤ ، والمعرفة صحة العلم بالله واليقين والنظر بعين القلب إلىٰ ما وعد الله ، وفي مفتاح دار السعادة زيادة تفصيل لهذه المسألة وبيان أثرها علىٰ القلب ١/ ١٤٠.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من الأصل ، ش والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٦) ش (لحصول).

(٧) هنا الموضع الثاني من الخلط في ق حيث قال هنا [هذا الذي ذكره الشيخ ص١٩٠٠] قفز نحواً من فصلين.

بل[1] رجاء واثق بوعد صادق ، من حبيب قادر ، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون.

وقال ابن عطاء - رحمه الله - : « الرضىٰ سُكُون القلب إلىٰ قدم[2] اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل ، فيرضىٰ به »[3].

قلت : وهذا رضىٰ بما منه ، وأما الرضىٰ به ، فأعلىٰ من هذا وأفضل ، ففرق بين من هو راض بمحبوبه ، وبين من هو راضٍ فيما[4] يناله من محبوبه من حظوظ نفسه[5].

فصــل

أمور لا تنافي الرضى

وليس من[6] شرط « الرضىٰ » ألا يحُس بالألم والمكاره ؛ بل[7] ألاّ يعترض[8] علىٰ الحكم ولا يتسخَّطه ، ولهذا أشكل علىٰ بعض الناس الرضىٰ بالمكروه ،

---

(١) ط زيادة (هو).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (قديم).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٠ ، وأورده بدون عزو في قوت القلوب ٢/ ٤٦ ، وعزاه لبعض الحكماء في جامع العلوم والحكم ١/ ٤٤٢ ، وفي شعب الإيمان ٢/ ٩٧ ، قال الجنيد التوكل سكون القلب إلىٰ موعود الله ، وانظر فائدة ذلك في الفوائد ١/ ٩٩.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (بما).

(٥) ق ، غ ، ط (والله أعلم).

(٦) (من) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق.

(٧) أ ، ب ، غ ، ش ، ق (بل أن لا).

(٨) ق (تعترض).

وطعنوا فيه ، وقالوا هذا ممتنع علىٰ الطبيعة ، وإنما هو الصبر ، وإلا فكيف يجتمع الرضىٰ والكراهية؟ وهما ضدان.

والصواب : أنه لا تناقض بينهما ، وأن وجود التألم[1] وكراهة النفس له لا ينافي الرضىٰ ، كرضىٰ المريض بشرب الدواء الكريه ، ورضىٰ الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ، ورضىٰ المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح ، وغيرها.

وطريق الرضىٰ طريق مختصرة ، قريبة جداً ، موصلة إلىٰ أجلّ غاية ، ولكن فيها مشقة ، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب[2] من مشقة طريق الجهاد ، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها ، وإنما عقبتها همة عالية ، ونفس زكية ، وتوطين النفس علىٰ كل ما يرد عليها من الله.

ويسهل ذلك علىٰ العبد : علمه بضعفه وعجزه ورحمة ربه[3] ، وشفقته عليه ، وبره به ، فإذا شهد هذا وهذا ، ولم يطرح نفسه بين يديه ، ويرضىٰ به وعنه ، وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه : فنفسه نفس مطرودة عن الله ، بعيدة عنه ، ليست مؤهلة لقربه وموالاته ، أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضىٰ والمحبة : تُسيِّر العبد وهو مستلق علىٰ فراشه ، فيصبح أمام

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (البلاء).

(٢) ح٢ (أعظم).

(٣) د ، ط (رحمته به).

الركب بمراحل.

من ثمار الرضى

وثمرة الرضىٰ الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالىٰ.

ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في المنام، وكأني ذكرتُ له شيئاً من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - فقال: أما أنا فطريقتي[1]: الفرح بالله، والسرور به، [2]نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك[3] علىٰ ظاهره، وينادي به عليه حاله. لكن قد[4] قال الواسطي[5]: استعمل الرضىٰ جهدك، ولا تدع الرضىٰ يستعملك، فتكون[6] محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع[7].

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو[8] عقبة عظيمة عند القوم، ومقطع لهم، فإن مساكنة الأحوال، والسكون إليها، والوقوف عندها؛ استلذاذاً ومحبة: حجاب بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم،

---

(١) أ، غ، ب، ح٢ (طريقي).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش زيادة (أو).

(٣) (ذلك) سقط من ش.

(٤) (قد) سقطت من ح٢، م.

(٥) ق (رحمه الله) وهو محمد بن موسىٰ، أبو بكر الواسطي أحد أصحاب الجنيد والثوري، صوفي مشهور، توفي سنة ٣٢٠هـ/ حلية الأولياء.

(٦) الأصل (فيكون) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٧) الرسالة القشيرية (٢٩٩).

(٨) (هو) سقطت من ح٢.

وهي عقبة لا يجوزها إلا أولو العزائم.

وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة ، شديد التنبيه عليها.

ومن كلامه : إياكم واستحلاء الطاعات ، فإنها سموم قاتلة(١).

فهذا معنىٰ قوله : «استعمل الرضىٰ(٢) ولا تدع الرضىٰ يستعملُك» أي لا يكون عملك لأجل حصول حلاوة الرضىٰ ، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه(٣) ؛ بل اجعله آلة لك وسبباً موصلاً إلىٰ مقصودك(٤) ومطلوبك ، فتكون مستعملاً له ، لا أنه مستعمل لك.

وهذا لا يختص بالرضىٰ ؛ بل هو عام في جميع الأحوال والمقامات القلبية، التي يسكن إليها القلب ، حتىٰ إنه أيضاً لا يكون عاملاً علىٰ المحبة لأجل المحبة ، وما فيها من اللذة والسرور والنعيم(٥) ؛ بل يستعمل المحبة في مراضي(٦) المحبوب ، لا يقف عندها ، فهذا من علل المحبة.

وقال ذو النون : ثلاثة من أعلام الرضىٰ : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان

---

(١) الرسالة القشيرية (٢٩٩).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (جهدك).

(٣) (عليه) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (مقصدك).

(٥) ط زيادة (به).

(٦) ط (مراضاة).

المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء[١].

وقيل للحسين بن علي - رضي الله عنهما -: إن أبا ذر[٢] يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنىٰ والسقم أحب إليَّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا، فأقول: من اتكل علىٰ حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له[٣].

وقال الفُضَيل بن عياض[٤] لِبِشْر الحافي: الرضىٰ أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته[٥].

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ «**أسألك الرضىٰ بعد القضاء**»[٦]، فقال: لأن الرضىٰ قبل القضاء عَزم علىٰ الرضىٰ، والرضىٰ بعد القضاء هو الرضىٰ[٧].

---

(١) الرسالة القشيرية بسنده ٣٠٠، حلية الأولياء ٩/ ٣٤٢، قوت القلوب ولم يعزه لأحد ٢/ ٤٦.

(٢) ط (رضي الله عنه).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٤) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي أحد كبار المشايخ المشهورين وأحد العلماء الأعلام، ولد بسمرقند وطلب العلم ورُحِل إليه، توفي سنة ١٨٧هـ/ حلية الأولياء (٨/ ٨٤)، شذرات الذهب (١/ ٣١٦).

(٥) الرسالة القشيرية ٣٠٠، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٦٦، شعب الإيمان ٢٧٧، موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٣٠.

(٦) أحمد (٤/ ٢٦٤)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤) وقال صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، صحيح النسائي للألباني (١/ ٤١٦) ح(٢٩٩)، صحيح ابن ماجه للألباني (٢/ ٣٢٩) ح(٣٨٥٨). وأوله «اللهم بعلمك الغيب...» وذكره المصنف بتمامه ص٣٥٧.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٠٠ وهو أبو عثمان الحيري، وعلق علىٰ كلامه شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ٨٦، وذكره في التحفة العراقية ٣٥٠.

وقيل : الرضىٰ ارتفاع الجزع في أي حكم كان(١).

وقيل : رفع الاختيار(٢).

وقيل : استقبال الأحكام بالفرح(٣).

وقيل : سكون القلب تحت مجاري الأحكام(٤).

وقيل: نظر القلب إلىٰ قديم اختيار الله تعالىٰ(٥) للعبد ، وهو ترك السخط(٦)(٧) .

وكتب عمر ابن الخطاب إلىٰ أبي موسىٰ(٨) رضي الله عنه(٩) « أما بعد ، فإنَّ الخير كله في الرضىٰ ، فإن استطعت أنْ ترضىٰ وإلا فاصبر »(١٠).

وقال أبو علي الدقاق : الإنسان خزف(١١) ، وليس للخزف من الخطر ما

---

(١) عزاه في الرسالة القشيرية لأبي عمر الدمشقي ٣٠٠.

(٥) القائل هو الجنيد ، الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٣) القائل هو رويم في الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٤) عزاه في الرسالة القشيرية للمحاسبي ٢٩٩ ونحوه عن أبي خفيف.

(٥) (تعالىٰ) سقط من ط.

(٦) ب (التسخط).

(٧) القائل ابن عطاء ، الرسالة القشيرية ٣٠٠.

(٨) د ، ش (الأشعري).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (عنهما).

(١٠) الرسالة القشيرية ٣٠١ ، ونحوه عن عمر بن عبد العزيز في عدة الصابرين ٩٨.

(١١) خزف: الخزف (الجرُّ) مختار الصحاح ١٧٤، ما عمل من الطين وشُوي بالنار فصار فخاراً، المعجم الوسيط ١/ ٢٣٢.

يعارض فيه حكم الحق تعالىٰ(١).

وقال أبو عثمان الحيري(٢) : مُنذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، وما نقلني إلىٰ غيره فسخطته(٣).

والرضىٰ ثلاثة أقسام : رضىٰ العوام بما قسمه(٤) الله وأعطاه ، ورضىٰ الخواص بما قدره الله(٥) وقضاه ، ورضىٰ خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

فصل

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ(٦) :

« قال الله عزَّ وجل(٧) : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ (٨)ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

(١) الرسالة القشيرية ٣٠١.

(٢) أبوعثمان ، سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري ، أصله من الري ، صحب شاه الكرماني ، وهو في وقته أول المشايخ في سيرته ومنه انتشر التصوف بنيسابور/ طبقات الصوفية للسلمي (١٧٠) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٤) ، صفة الصفوة (٤/ ٨٥) ، الرسالة القشيرية (٧٣).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠١ ، صفة الصفوة ٤/ ١٠٦ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (قُسم).

(٥) (لفظ الجلالة) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٦) (رحمه الله) سقط من جميع النسخ.

(٧) ط ، ق (تعالىٰ).

(٨) في م ، ح٢ (إلىٰ آخر الآية).

مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر :٢٧ - ٢٩] لم يَدَعْ فِي هَـٰذِهِ الآيَـةِ لِلْمُتَسَخِّطِ إِلَيْـهِ(١) سَبِيلاً ، وَشَرْطُ القَاصِـدِ(٢) الـدُّخُولُ فِي الـرِّضَىٰ ، وَ«الرِّضَىٰ»(٣) اسْمٌ لِلْوقُوفِ الصَّادِقِ ، حَيْثُمَا وَقَفَ العَبْدَ ، لاَ يَلْتَمِسُ مُتَقدّماً وَلاَ مُتَأَخّراً ، وَلاَ يَستَزِيدُ مَزِيداً ، وَلاَ يَسْتَبدِلُ حَالاً ، وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ الخُصُوصِ ، وَأَشَقِّهَا عَلَىٰ العَامَّةِ»(٤).

أما قوله : «لَمْ يَدَعْ فِي هَذِهِ الآيَةِ لِلْمُتَسَخِّطِ إِلَيهِ(٥) سَبِيلاً» فلأنه قيَّد رجوعها إليه سبحانه بحال ، وهو وصْف الرضىٰ ، فلا سبيل إلىٰ الرجوع إليه مع سلب ذلك الوصف عنها ، وهذا نظير قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ(٦) ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل :٣٢] فإنما(٧) أوجب لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بقيد ، وهو وفاتهم طيبين، فلم تبق الآية لغير الطيب سبيلاً لهذه(٨) البشارة.

والحاصل أن الدخول في الرضىٰ شرط في رجوع النفس إلىٰ ربِّها ، فلا

---

(١) (إليه) سقط من د.

(٢) منازل السائرين (للقاصد).

(٣) في غ (هو).

(٤) منازل السائرين ٣٩ ـ ٤٠.

(٥) (إليه) سقط من د.

(٦) م ، ح٢ (الآية) ولم يكمل بقية الآية المذكورة هنا.

(٧) أ ، غ ، ب (وإنما).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (إلىٰ هذه).

ترجع إليه إلا إذا كانت راضية [١].

قلت : هذا تعلق بإشارة الآية ، لا بالمراد منها ، فإن المراد منها : رضاها بما حصل لها من كرامته ، ونالته [٢] عند الرجوع إليه ، فحصل لها رضاها ، والرضىٰ عنها ، وهذا يقال لها عند خروجها من دار الدنيا ، وقدومها علىٰ الله.

قال عبدالله بن عمرو [٣] - رَضي الله عنهما - : «إذا تُوفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين ، وأرسل بتحفة من الجنة ، فيقال : اخرجي أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلىٰ روحٍ وريحان ، وربٌّ عنك راضٍ [٤]» [٥].

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف.

أقوال الأئمة في قوله تعالى: ﴿ارجعي إلى ربك ..﴾

أحدها : أنه عند الموت ، وهو الأشهر ، قال الحسن - رَضي الله عنه - : إذا أراد الله [٦] قبضها اطمأنت إلىٰ ربها ، ورضيت عن الله ، فيرضىٰ الله [٧] عنها [٨].

---

(١) في هذا إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلىٰ ربك راضية مرضية﴾ [الفجر :٢٧-٢٨] وهو المنهج الصوفي في طريقة الاستدلال بإشارة الآية دون المراد منها.

(٢) ط (وبما نالته منها).

(٣) الأصل (ابن عمر) والصحيح ما أثبته ممن خرج الأثر عنه رضي الله عنه ومن نسخة ق.

(٤) ق (غير غضبان).

(٥) تفسير الطبري عن عمرو بن العاص ٢٠/ ٥٨ ، مجمع الزوائد ٢/ ٣٢٨ ، وعزاه للطبراني في الكبير وقال رجاله ثقات ، البغوي في التفسير ٤/ ٤٨٦ .

(٦) (لفظ الجلالة) سقط من ط ، وكذلك (الترضي).

(٧) (لفظ الجلالة) سقط من د.

(٨) تفسير الطبري ١٠/ ١٢٢ ، البغوي في التفسير ٤/ ٤٨٦ ، الدر المنثور ٨/ ٥١٤ ، وقال أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن.

وقال آخرون : إنما يُقال لها ذلك عند البعث ، هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة(١).

وقال آخرون : الكلمة الأولىٰ – وهي : ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ – يقال(٢) لها عند الموت ، والكلمة الثانية – وهي : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ – إنما يقال(٣) لها يوم القيامة ، قال أبو صالح : ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ هذا عند خروجها من الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لها(٤) : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾(٥).

والصواب : أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ، ويوم القيامة ، فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا ، وحينئذ فهي في الرفيق الأعلىٰ ، إن كانت مطمئنة إلىٰ الله ، وفي جنته ، كما دل(٦) عليه الأحاديث الصحيحة(٧) ، فإذا كان

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس والضحاك ١٠/ ١٢٢ ، وقال : وهو أولىٰ القولين بالصواب وذكره عنهم البغوي في التفسير ٤/ ٤٨٧.

(٢) بقية النسخ (تقال).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (يقال) و ط (تقال) ، كلاهما بدون (إنما).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (لها).

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ١٢٢ ، الدر المنثور ٨/ ٥١٥.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (دلت).

(٧) فيه إشارة إلىٰ حديث البراء – رضي الله عنه – : «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار..» وهو في المسند (٤/ ٢٨٧) ، وأبي داود. الجنائز (٣/ ٥٤٦) ح(٣٢١٢) ، الحاكم في المستدرك (١/ ٣٧ ، ٣٨ ، ١٢٠) وقال صحيح ولم يخرجاه ، صحيح النسائي للألباني.

يوم القيامة قيل لها ذلك ، وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلىٰ الله ودخول الجنة.

فأول ذلك عند الموت ، وتمامه ونهايته : يوم القيامة ، فلا اختلاف في الحقيقة.

ولكن الشيخ أخذ من إشارة الآية : أن رجوعها إلىٰ الله من الخلق في هذا العالم إنما يحصل برضاها ، ولكن لو استدل بالآية في مقام الطمأنينة لكان أولىٰ ، فإن هذا[1] الرجوع الذي حصل لها[2] فيه رضاها ، والرضىٰ عنها : إنما نالته بالطمأنينة[3] ، وهو حظ الكسب من هذه الآية ، وموضع التنبيه علىٰ موقع الطمأنينة ، وما يحصل لصاحبها ، فلنرجع إلىٰ شرح كلامه.

قوله : « **الرِّضَىٰ هُوَ الوُقُوفُ الصَّادِقُ** » : يريد به الوقوف مع مراد الرب تبارك[4] وتعالىٰ الديني حقيقة ، من غير تردُّد في ذلك ولا معارضة ، وهذا مطلوب القوم السابقين ، وهو الوقوف الصادق مع مراد الحق[5] ، من غير أن

الجنائز (٢/ ٥٨) ح(٢٠٠٠) ، صحيح ابن ماجه. الجنائز (١/ ٢٥٨) ح(١٥٤٨) ، والحديث من رواية زاذان عن البراء وقد أعله البعض بعدم سماع زاذان من البراء ، إلا أن سماعه منه صحيح ، انظر صحيح ابن حبان (٧/ ٣٨٧) وغيره.

(١) (هذا) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٢) الأصل (له) والأقرب ما أثبته من أ ، غ ، ب ، ط.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (لكان أولىٰ).

(٤) (تبارك) سقط من ق.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (محاب الرب تعالىٰ) ، بدل (مراد الحق).

يشوب ذلك تردد، ولا يُزاحمه[١] مراد.

قوله: «**حَيثُمَا وَقَفَ العَبْدَ**» يصح أن يكون «العبد[٢]» فاعلاً، أي حيث ما وقف بإذن ربه لا يلتمس تقدماً ولا تأخراً، ويصح أن يكون مفعولاً، وهو أظهر، أي حيثما وقف الله العبدَ - فإن «وقف» يستعمل لازماً ومتعدياً - أي حيثما وقفه ربه، لا يطلب تقدماً ولا تأخراً، وهذا إنما يكون فيما يقفه[٣] فيه من مُراده الكوني الذي لا يتعلق بالأمر والنهي، وأما إذا وقفه في مراد ديني، فكماله بطلب[٤] التقدم فيه دائماً، فإنه إن لم تكن همته التقدم إلىٰ الله في كل لحظة: رجع من حيث لا يدري، فلا وقوف في الطريق[٥] ولكن إذا وقف في مقام - من الغنىٰ والفقر، والراحة والتعب، [٦] والسقم، والاستيطان ومفارقة الأوطان - يقف حيث وقفه، فلا[٧] يطلب غير تلك الحالة التي أقامه[٨] فيها، وهذا لتصحيح[٩] رضاه باختيار الله له، والفناء به عن اختياره لنفسه.

---

(١) ش (مزاحمة).

(٢) (العبد) سقط من غ.

(٣) أ، ب، غ (يقضيه).

(٤) أ، ب، غ (أن يطلب).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (البتة).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (والعافية).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د (لا) من غير فاء.

(٨) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٩) أ، ب، غ (تصحيح).

وكذلك قوله : «لاَ يَستَزِيدُ مَزِيداً ، وَلَا يَسْتَبدِل حَالاً[١]».

هـذا[٢] الـذي ذكـره الـشيخ فـرد مـن أفـراد الـرضىٰ ، وهـو الـرضىٰ بالأقـسام والأحكام الكونية التي لم يؤمر[٣] بمدافعتها.

وقوله : «وَهُوَ[٤] مِن أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ الخصُوصِ» يعني أن سلوك أهـل الخـصوص : هـو بـالخروج عـن الـنفس ، والخـروج عـن الإرادة : هـو مبـدأ الخروج عن النفس ، فإذا[٥] الرضىٰ بهذا الاعتبار من أوائل مسالك الخاصة.

وهذا علىٰ أصله في كون الفناء غاية مطلوبة[٦] فوق الرضىٰ[٧].

والصواب : أن «الرضىٰ» أجلّ منه وأعلىٰ ، وهو غاية لا بداية.

نعم فوقه مقام «الشكر» فهو منزلة بينه وبين منزلة[٨] الصبر.

وقوله : «وَأَشَقُّهَا عَلَىٰ العَامَّةِ» وذلـك لمشقة الخروج عـن الحظـوظ علىٰ

---

(١) هذا هو الموضع الثالث من الخلط والتقديم والتأخير في نسخة (ق) حيث رجع هنا إلىٰ قوله: وعيسىٰ علىٰ ما نالهم ص١٨٧٥ إلىٰ أن بلغ (دائماً لكنه) في صفحة ١٨٨٧.

(٢) ط زيادة (المعنىٰ).

(٣) أ ، ب ، غ (لم تؤمر).

(٤) (هو) سقط من ق.

(٥) أ ، ب ، غ (فإن).

(٦) الأصل (مطلوبة) والأصح ما أثبته من م ، غ ، ح٢ ، ط.

(٧) تقدم بيان موقف ابن القيم من الفناء عند الهروي وذلك في مقدمة هذا البحث ص١٦٦٤.

(٨) (منزلة) سقطت من أ ، غ ، ب.

العامة « والرضىٰ » أول ما فيه : الخروج عن الحظوظ [١].

فصـــل [٢]

درجات الرضى

قـال : «وَهُـوَ عَـلىٰ ثَـلاَثِ دَرَجَـاتٍ : الدَّرَجَـةُ الأُولىٰ : رِضَىٰ العَامَّـةِ ، وَهُـوَ الرِّضَىٰ بِالله رَبّاً ، وَتَسَخُّطُ [٣] عبـادَةِ مَـا دُونـه ، وَهَـذَا قُطْـبُ رَحَـىٰ الإِسـلَامِ ، وَهُـوَ يُطَهِّرُ مِن الشِّركِ الأَكْبَرِ» [٤].

الدرجة الأولى

الرضىٰ بالله رباً : أن لا يتخذ رباً غير الله تعالىٰ يسكن إلىٰ تـدبيره ، وينـزل بـه حوائجه ، قال [٥] تعالىٰ : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ [٦] أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما : «سيداً وإلهاً» [٧] ، يعني فكيف أطلبُ رباً غيره ، وهو ربُّ كلِّ شيء؟ وقـال في أول السـورة : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعـام : ١٤] ، يعنـي معبـوداً ونـاصراً ومعينـاً وملجـأ ، وهـو مـن الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة ، وقـال في وسـطها : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي

---

(١) أ ، غ ، ب (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم) ، ق (والله أعلم).

(٢) (فصل) طمس من أ.

(٣) أ ، غ ، ش ، ح٢ ، م ، ب (بسخط) وهو متفق مع ما في منازل السائرين ص٤٠.

(٤) منازل السائرين ٤٠.

(٥) ط (لفظ الجلالة).

(٦) الأصل ﴿ الله تأمروني أعبد ﴾. وهو خطأ فكأن الناسخ سبق إلىٰ ذهنه قوله تعالىٰ : ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ [الزمر : ٦٤] .

(٧) تفسير الطبري ١/ ١٤٢ دون عزو ١٢/ ٢٨٦ ، و البغوي في التفسير ٢/ ١٤٧.

حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام[١]، فكيف نتحاكم إلىٰ غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً، مبيناً كافياً شافياً.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضىٰ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد[٢] رسولاً، ورأيت الحديث مترجماً[٣] عنها[٤]، ومشتقاً[٥] منها، فكثير من الناس يرضىٰ به[٦] رباً، و[٧] لا يبغي رباً سواه، لكنه[٨] لا يرضىٰ به وحده ولياً[٩]؛ بل يوالي من دونه أولياء[١٠]، ظناً منه أنهم يقربونه إلىٰ الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك؛ بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم

---

(١) ب (الأحكام).

(٢) ط (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (يترجم).

(٤) أ، ب، ش (عليها).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (مشتق).

(٦) ط (بالله).

(٧) ق (فلا).

(٨) غ (لكن).

(٩) ط زيادة (وناصراً).

(١٠) أ، م (ولياً) بدل (أولياء).

اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا عين[1] موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان و[2] تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من رأس[3] فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يحاكم[4] إليه، ويُخاصم إليه، ويَرضىٰ بحكمه، وهذه المقامات الثلاثة هي أركان التوحيد: أن[5] لا يتخذ سواه رباً، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً.

وتفسيره الرضىٰ بالله رباً: أن تسخط[6] عبادة ما دونه، [وهذا هو الرضىٰ بالله إلهاً، وهو من تمام الرضىٰ بالله رباً، فمن أعطىٰ الرضىٰ به رباً حقه سخط عبادة ما دونه][7] قطعاً؛ لأن الرضىٰ بتجريد[8] ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش (غير).

(٢) ط زيادة (من).

(٣) ط (أساسه).

(٤) ط (يتحاكم).

(٥) (أن) سقطت من ح٢.

(٦) ط (يسخط).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٨) غ، ق (تجريد).

العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الألوهية.

وقوله : «وَهُوَ قُطبُ رَحَىٰ الإِسْلاَمِ» يعني أن مدار رحىٰ الإسلام علىٰ أن يرضىٰ[١] بعبادته[٢] وحده ، [٣] يسخط عبادة غيره ، وقد تقدم أن العبادة هي الحُبّ مع الذل ، فكل من ذللت له وأطعته وأحببته[٤] دون الله ، فأنت عبد[٥] له.

وقوله : «وَهُوَ يُطَهِّرُ مِنَ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ» يعني أن الشرك نوعان : أكبر وأصغر، فهذا الرضىٰ يطهر صاحبه من الأكبر ، وأما الأصغر : فيطهره[٦] نزوله[٧] منزلة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

* * *

(١) ط زيادة (العبد).

(٢) ط (بعبادة ربه).

(٣) ط زيادة (وأن).

(٤) غ ، ح٢ زيادة (من).

(٥) ط (عابد).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (منه).

(٧) م (نزول).

فصــل

قال : « وَهُوَ يَصِحُّ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ : أَنْ يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَل أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَىٰ العَبْدِ(١) ، وَأَوْلَىٰ الأَشياءِ بِالتَّعْظِيمِ ، وَأَحَقَّ الأَشْيَاءِ بِالطَّاعَةِ»(٢).

[يعني أن هذا النوع](٣) من الرضىٰ إنما يصح بثلاثة أشياء أيضاً:

أحدها : أن يكون الله عز وجل أحب شيء إلىٰ العبد ، وهذه(٤) تعرف بثلاث(٥) أشياء أيضاً(٦):

أحدها : أن تسبق محبَّته إلىٰ القلب كل محبة ، فتتقدم(٧) محبتُه المحابَّ كلها.

الثاني : أن تقهر محبته كل محبة [فتكون محبته(٨) غيره(٩) مقهورة مغلوبة منطوية في محبته.

---

(١) ش (إليه).

(٢) منازل السائرين ٤٠ ، لكن بلفظ (شرائط) بدل (شروط).

(٣) ما بين المعقوفين طمس من أ.

(٤) م (ولهذه).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (بثلاثة).

(٦) (أيضاً) سقطت من ق.

(٧) الأصل (فيتقدم) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٨) ط ، أ ، غ ، ب ، ح٢ (إلىٰ القلب سابقة قاهرة ومحبة).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (متخلقة).

الثالث : أن تكون محبة](1) غيره(2) تابعة لمحبته ، فيكون هو المحبوب بالذّات والقصد الأول ، وغيره محبوباً تبعاً لحبِّه ، كما يطاع تبعاً لطاعته ، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب.

وهذه الثلاثة في كونه أولىٰ الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضاً.

فالحاصل : أن يكون(3) وحده المحبوب المعظم المطاع ، فمن لم يحبه ولم يعظِّمْه(4) ولم يُطعْه : فهو متكبِّر عليه، ومتىٰ أحبَّ معه سِواه ، وعظّم معه سواه ، وأطاع معه سواه : فهو مشرك ، ومتىٰ أفرده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد(5).

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الرِّضَىٰ عَن الله ، وَبِهَذَا الرِّضَىٰ(6) نَطَقَتْ آيَاتُ التَّنْزِيلِ ، وَهُوَ الرِّضَىٰ عَنْهُ فِي كُلِّ مَا قَضَىٰ وَقَدَّرَ(7) ، وَهَذَا مِنْ أَوَائِلِ مَسَالِكِ أَهْلِ

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٢) (غيره) سقط من ش.

(٣) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، (ولم يطعه ولم يعظمه).

(٥) ط ، ب ، غ (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم) و أ ، ح٢ ، م ، ق (والله أعلم).

(٦) (الرضىٰ) سقط من أ ، ب ، ط.

(٧) (قدّر) ليست في منازل السائرين.

الخُصُوصِ»[١].

الشيخ جعل هذه الدرجة أعلىٰ من الدرجة التي قبلها.

ووجه قوله : أنه لا يدخل في الإسلام إلا بالدرجة الأولىٰ ، فإذا استقرّ قدمه عليها دخل في مقام الإسلام.

وأما هذه الدرجة : فمن معاملات القلوب ، وهي لأهل الخصوص ، وهي الرضىٰ عنه في أحكامه وأقضيته.

وإنما كان من أول مسالك أهل الخصوص؛ لأنه مقدمة للخروج عن النفس، والذي هو طريق أهل الخصوص ؛ فمقدمته بداية سلوكهم ؛ لأنه يتضمن خروج العبد عن حظوظه ، ووقوفه[٢] مع مراد الله[٣] لا[٤] مع مراد نفسه.

هذا تقرير كلامه ، وفي جعله هذه الدرجة أعلىٰ من التي قبلها نَظَر لا يخفىٰ، وهو[٥] نظير جعله الصبر بالله أعلىٰ من الصبر لله.

والذي ينبغي : أن يكون[٦] الدرجة الأولىٰ[٧] أعلىٰ شأناً وأرفع قدراً ، فإنها

---

(١) منازل السائرين ٤٠.

(٢) ش (ووقوعه).

(٣) ش ، ق زيادة (عزّ وجلّ).

(٤) (لا) سقطت من ق.

(٥) (وهو) سقطت من م ، ح٢ ، ق.

(٦) ط ، ق (تكون).

(٧) (الأولىٰ) سقطت من د.

مختصة وهذه الدرجة مشتركة، فإن الرضىٰ بالقضاء يصح من المؤمن والكافر، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره ، فأين هذا من الرضىٰ به رباً وإلهاً ومعبوداً وحكماً[١]؟ فالرضىٰ به رباً فرض ؛ بل هو آكد الفروض باتفاق الأمة ، فمن لم يرض به رباً لم يصح له إسلام ولا عمل[٢] [٣].

وأما الرضىٰ بقضائه : فأكثر الناس علىٰ أنه مستحب ، وليس واجباً ، وقيل : بل هو واجب ، وهما قولان في مذهب أحمد[٤].

فالفرق ما[٥] بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والندب ، وفي الحديث الإلهي الصحيح «**يقول الله عزّ وجلّ : ما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه**»[٦] ، فدل علىٰ أن التقرب إليه سبحانه بأداء الفرض[٧] أفضل وأعلىٰ من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضاً : فإن الرضىٰ به رباً[٨] يتضمن الرضىٰ عنه ، ويستلزمه ، فإن الرضىٰ

---

(١) (وحكماً) سقطت من أ ، ط ، ب ، غ ، د وفي م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (وأيضاً) ح٢ ، م (حكماً وأيضاً).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ولا حالاً).

(٣) انظر التحفة العراقية ٣٥٧.

(٤) (وهما قولان في مذهب أحمد) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٥) (ما) سقطت من ط.

(٦) البخاري. الرقاق (٤/ ١٩٢) ح(٦٥٠٢) ، وهو المعروف بحديث الولي.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فرائضه).

(٨) (رباً) سقطت من ش.

بربوبيته : هو رضىٰ العبد بما يأمره به ، وينهاه عنه ، ويقسمه له ويقدره عليه[١] ، ويعطيه إيّاه ، ويمنعه منه ، فمتىٰ لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به رباً من جميع الوجوه، وإن كان راضياً به رباً[٢] من بعضها، فالرضىٰ به رباً من كل وجه: يستلزم الرضىٰ عنه ، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضاً : فالرضىٰ به رباً يتعلق[٣] بذاته ، وصفاته وأسمائه ، وربوبيته العامة والخاصة فهو[٤] الرضىٰ به خالقاً ومدبراً ، وآمراً وناهياً ، وملكاً ومعطياً ومانعاً ، وحكماً ، ووكيلاً وولياً ، وناصراً ومعيناً ، وكافياً وحسيباً ورقيباً ، ومبتلياً ، ومعافياً ، وقابضاً وباسطاً ، إلىٰ غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضىٰ عنه : فهو رضىٰ العبد بما يفعله به ، ويعطيه إيّاه ، ولهذا إنما جاء[٥] في الثواب والجزاء ، كقوله تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر :٢٧ ، ٢٨] فهذا رضاها[٦] عنه لما حصل لها من كرامته ، و[٧]كقوله تعالىٰ : ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

---

(١) ق (إليه).

(٢) (رباً) سقطت من أ ، ب.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (متعلق).

(٤) ق (هو).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (لم يجئ إلا) وفي ق (المجي) مع سقوط (إلا).

(٦) ق (برضاها له) ، وفي م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (برضاها بالله) ، وفي م ، ط (برضاها).

(٧) (الواو) سقطت من ط.

﴿خَٰلِدِينَ[١] فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة :٨].

والرضىٰ به : أصل الرضىٰ عنه ، والرضىٰ عنه : ثمرة الرضىٰ به.

وسر المسألة : أن الرضىٰ به متعلق[٢] بأسمائه وصفاته ، والرضىٰ عنه : متعلق بثوابه وجزائه.

وأيضاً : فإن النبي علّق ذوقَ طعم[٣] الإيمان بمن رضي بالله رباً ، ولم يعلقه بمن رضيَ عنه[٤]، كما قال: «ذاق طَعمَ الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد[٥] رسولاً» [٦] ، فجعل الرضىٰ به قرين الرضىٰ بدينه ونبيه ، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام ، التي لا يقوم إلا بها[٧][٨].

وأيضاً : فالرضىٰ به رباً يتضمن توحيده وعبادته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه[٩] وخوفه ورجاءه ومحبتَه ، والصبر له وبه[١٠] ، والشكر علىٰ نعمه ؛

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (بدايتها من قوله تعالىٰ : ﴿خالدين فيها..﴾).

(٢) ق (يتعلق).

(٣) (طعم) سقطت من ش.

(٤) انظر كلام شيخ الإسلام عن هذه المسألة في التحفة العراقية ٣٧٢.

(٥) ط (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٦) سبق تخريجه ص١٨٨٢ .

(٧) ط (وعليها).

(٨) انظر التحفة العراقية ٣٧٢.

(٩) م (إليه).

(١٠) (وبه) سقطت من ب.

بل[1] رؤية كل ما منه نعمة وإحساناً، وإن ساء عبدَهُ، فالرضىٰ به رباً[2] يتضمن «شهادة أن لا إلـه إلا الله»، والرضىٰ بمحمد رسولاً، يتضمن «شهادة أن محمداً رسول الله»، والرضىٰ بالإسلام ديناً: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته وطاعة رسوله، فجمعت الثلاثة الدين كله.

وأيضاً فإن الرضىٰ[3] به رباً[4] يتضمن اتخاذه معبوداً دون ما سواه، واتخاذه ولياً ومعبوداً[5] وقد قال تعالىٰ لرسوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضىٰ به رباً.

وأيضاً: فإنه جعل حقيقة الرضىٰ به رباً[6]: أن يسخط[7] عبادة ما دونه، فمتىٰ سخط العبد[8] عبادة ما سواه[9] من الآلهة الباطلة، حباً وخوفاً، ورجاءً وتعظيماً، وإجلالاً - فقد تحقق بالرضىٰ به[10] الذي هو قطب رحىٰ الإسلام.

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د (يتضمن) بدل (بل)، ق (بل يتضمن).

(٢) (رباً) سقطت من أ، ب، غ.

(٣) أ، ب، غ، ح٢ (فالرضىٰ).

(٤) (رباً) سقط من ق.

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (وإبطال كل ما سواه) وفي ط (وإبطال عبادة كل ما سواه).

(٦) (رباً) سقطت من أ، غ، ب.

(٧) ق (تسخط).

(٨) (العبد) سقط من أ، ب، غ.

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (سوىٰ الله).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (رباً).

وإنما كان قطب رحىٰ الدين : لأن جميع العقائد والأعمال ، والأحوال : إنما تنبني علىٰ توحيد الله عزّ وجلّ في العبادة ، وسخط عبادة ما سواه ، فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحىٰ يدور عليه ، ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرحىٰ التي تدور عليه[١] فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلىٰ دائرة الإسلام ، فتدور رحىٰ إسلامه وإيمانه علىٰ قطبها الثابت اللازم.

وأيضاً : فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضىٰ موقوفاً علىٰ كون المرضي به رباً - سبحانه - أحبُّ إلىٰ العبد من كل شيء ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحق الأشياء بالطاعة ، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية ، وينظم فروعها وشُعَبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلىٰ المحبوب : كان ذلك الميل حاملاً علىٰ طاعته وتعظيمه ، وكلما كان الميل أقوىٰ : كانت الطاعةُ أتمَّ ، والتعظيمُ أوفرَ ، وهذا الميل يلازم الإيمان ؛ بل هو روح الإيمان ولُبُّه ، فأي شيء يكون أعلىٰ من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحبَّ الأشياء إلىٰ العبد ، وأولىٰ الأشياء بالتعظيم ، وأحقَّ الأشياء بالطاعة؟.

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان ، كما في الصحيح عنه أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن[٢] حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ودارت علىٰ ذلك القطب).

(٢) (بهن) سقط من ط.

ومن كان يحبُّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، ومن كان يكره أن يعود[1] في الكفر - بعد إذ أنقذه[2] الله منه - كما يكره أن يُلقىٰ في النار» [3].

فعلق ذوق الإيمان بالرضىٰ بالله رباً ، وعلّق وَجد[4] حلاوته بما هو موقوف عليه ، ولا يتم إلا به ، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلىٰ العبد هو ورسوله.

ولما كان هذا الحب التام ، والإخلاص - الذي هو ثمرته - أعلىٰ من مجرد الرضىٰ بربوبيته سبحانه : كانت ثمرته أعلىٰ ، وهي[5] وَجْد حلاوة الإيمان ، وثمرة الرضىٰ : ذوق طعم الإيمان ، فهذا وجد لحلاوة[6] ، وذاك[7] ذوق لطعم[8]. والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا علىٰ الرضىٰ به وحده رباً ، والبراءة[9] من عبودية ما

---

(١) الأصل (يرجع في الكفر) و أ ، ح٢ ، ط (يرجع إلىٰ الكفر) والصحيح ما أثبته من البخاري ومسلم.

(٢) ق (أنقذ الله).

(٣) البخاري. الإيمان (١/ ٢٢) ح(١٦) ، مسلم. الإيمان (١/ ٦٦) ح(٤٣) ، أحمد (٣/ ١٠٣) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ١٥) ح(٢٦٢٤) ، ابن ماجه. الفتن (٢/ ١٣٣٨) ح(٤٠٣٣).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (وجود).

(٥) ط (وهو).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (حلاوة).

(٧) (وذاك) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط.

(٨) ط ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (طعم).

(٩) ب (بالبراءة).

سواه، ميل القلب بكليته إليه(١)، وانجذاب قُوىٰ المحب(٢) كلها إليه، ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضىٰ، فمن رضي بالله(٣) رباً(٤) رضيه الله له عبداً، ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة(٥) رضىٰ الرب عنه، إن لم يرض به رباً، وبنبيه رسولاً، وبالإسلام ديناً، فإن العبد قد يرضىٰ عن(٦) الله(٧) فيما أعطاه(٨) ومنعه، ولم(٩) يرضىٰ به وحده معبوداً وإلهاً، ولهذا إنما ضمن رضىٰ العبد يوم القيامة لمن رضي به رباً، كما قال النبي: «**من قال كلّ يوم: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً: إلا كان حقاً علىٰ الله أن يرضيه يوم القيامة**»(١٠).

---

(١) ب (عليه)، ش (إلىٰ الله).

(٢) أ، م، ح٢، غ، د، ق (الحب).

(٣) ط (الله) فالباء ساقطة.

(٤) (رباً) سقط من الأصل والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

(٥) (درجة) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٦) أ، ب، غ (عنه).

(٧) ط (ربه).

(٨) ط زيادة (فيما).

(٩) ط (ولكن لا) بدل (ولم).

(١٠) أحمد (٤/ ٣٣٧)، أبو داود. الأدب (٥/ ٣١٤) ح(٥٠٧٢)، ابن ماجه. الدعاء (٢/ ١٢٧٣) ح(٣٨٧٠) وقال محققه إسناده صحيح ورجاله ثقات، السنن الكبرىٰ للنسائي (٢/ ١٤٥) ح(١٠٣١٨)، وفي مسلم. الصلاة (١/ ٢٩٠) ح(٣٨٦): «من قال حين يسمع المؤذن: رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً؛ غفر له ذنبه».

فصل

[١]إذا عرف هذا فلنرجع[٢] إلىٰ شرح كلامه ، قال :

«وَبِهَذَا الرِّضَىٰ نَطَقَ التَّنزِيل».

الآيات الواردة في منزلة الرضى

يشير إلىٰ قوله عزّ وجلّ : ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة :١١٩] وقال تعالىٰ[٣] : ﴿[لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ][٤] وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ[٥]﴾[المجادلة : ٢٢].

وقال[٦] :[٧] ﴿[جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ][٨] خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (فإذا).

(٢) ق (فليرجع).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط ، د ، ق (في آخر سورة المجادلة).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من بقية النسخ وهو في الأصل ، ش.

(٥) في بقية النسخ ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾.

(٦) (وقال) سقطت من ق.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط ، د ، ق (في آخر سورة لم يكن) و (سورة) سقطت من ق.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من الجميع سوىٰ الأصل .

أَبَدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة :٨].

فتضمنت هذه الآيات : جزاءهم علىٰ صدقهم وإيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، ومجاهدة أعدائه ، وعدم ولايتهم ، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه ، وإنما[1] حصل لهم[2] هذا بعد الرضىٰ به رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالإسلام ديناً.

قوله : «**وَهُوَ الرِّضَىٰ عَنْهُ فِي كُلِّ مَا قَضَىٰ**».

ههنا ثلاثة[3] أمور : الرضىٰ بالله[4] ، و الرضىٰ عن الله ، وا الرضىٰ بقضاء الله.

فالرضىٰ به فرض ، والرضىٰ عنه[5] - وإن كان من أجلّ الأمور وأشرف أنواع العبودية - فلم يطالب به العموم ، لعجزهم عنه[6] ، ومشقته عليهم ، وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضىٰ به [7] ، واحتجوا بحجج.

---

(١) ق زيادة (هو).

(٢) (لهم) سقط من أ ، ب ، غ ، ش.

(٣) ش (ثلاث).

(٤) أ ، غ ، ب زيادة (رباً).

(٥) م (سنة).

(٦) (عنه) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) سبقت الإشارة إلىٰ كلام شيخ الإسلام في ذلك ص١٩٠٨، ١٩١٠ ، وهو أيضاً في الفتاوىٰ ١٠/ ٣٨-٣٩) ، وقد أنكر شيخ الإسلام علىٰ الهروي مشاهدة القدر وحده ، وبيّن أنه غلط عظيم . انظر الفتاوىٰ (١٠/ ٤٨٧).

منها : أنه إذا لم يكن راضياً عن[1] ربه فهو ساخط عليه ، إذ لا واسطة بين الرضىٰ والسخط ، وسخط العبد علىٰ ربه مناف لرضاه به رباً.

قالوا : وأيضاً فعدم رضاه عنه يستلزم سوء ظنه به[2] ، ومنازعته[3] في اختياره لعبده وأن الرب تبارك[4] وتعالىٰ يختار شيئاً ويرضاه ، فلا[5] يختاره لعبده ، ولا يرضىٰ[6] به وهذا مناف للعبودية.

قالوا : وفي بعض الآثار الإلهية : «من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر علىٰ بلائي فليتخذ رباً سواي» [7] ، ولا حجة في شيء من ذلك.

أما قولهم[8] : «إنه[9] لا[10] يتخلص من السخط علىٰ ربه إلا بالرضىٰ عنه ، إذ لا واسطة بين الرضا والسخط» فكلام مدخول[11] ؛ لأن السخط بالمقضي لا

---

(١) م ، ش (من).

(٢) (به) سقطت من (م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (له).

(٤) (تبارك) سقط من ق.

(٥) أ ، ب ، غ (ولا).

(٦) ط (يرضاه).

(٧) تقدم ص١٨٨٠.

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (قوله).

(٩) (إنه) سقط من أ ، ب ، غ.

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (لم) بدل (لا).

(١١) من مخالفات ابن القيم للهروي.

يستلزم السخط علىٰ من قضاه، كما أن كراهة المقضي وبغضه والنفرة عنه لا تستلزم تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره، فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راضٍ عمن قدره وقضاه[1]؛ بل[2] يجتمع تسخطه والرضىٰ بنفس القضاء[3]،

---

(١) ط (قضاه وقدره).

(٢) ط زيادة (قد).

(٣) مسألة الرضىٰ بالقضاء دون المقضي: فصل الكلام فيها شيخ الإسلام في معرض الحديث عن الرسالة القشيرية والشرح لبعض ما ورد عن أعلام الطرق ممن زل في هذا الباب علىٰ النقيض من المعتزلة، انظر الاستقامة ٢/ ٧٣ ـ ١٢٧، الفتاوىٰ ١٠/ ٤٨٢ ـ ٤٨٩، وهذه المسألة مباحثها تدور حول الرضا هل هو متعلق بالقدر والمقدور أم بالقدر دون المقدور؟، قال ابن القيم: «ومرجع هذا إلىٰ معرفة الفرق بين القضاء الكوني والقضاء الديني.. فإن الديني يجب الرضا به؛ لأنه من لوازم الإسلام، والكوني ينقسم إلىٰ قسمين: ما يجب الرضا به كالنعم التي يجب شكرها ومن تمام شكرها الرضا بها، ومنه ما لا يجوز الرضا به كالمعايب والذنوب التي يسخطها الله وإن كانت بقضائه وقدره، ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب علىٰ اختلاف في الوجوب»، وهذا يتعلق بالقضاء الذي هو المقضي، أما القضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله، كعلمه وكتابته وتقديره ومشيئته فإن الرضا به من تمام الرضا بالله رباً وإلهاً ومالكاً ومدبراً، وبهذا التفصيل يزول الإشكال واللبس الذي كان مفرق طرق بين الناس. ا. هـ ملخصاً من شفاء العليل ٢٧٨، مكتبة الرياض الحديث، وساق نحوه ابن أبي العز في شرح الطحاوية في معرض الرد علىٰ المعتزلة ٢٥٨ ط/ المكتب الإسلامي، والسفاريني في لوامع الأنوار ١/ ٣٦١ ـ ٣٦٣ ط/ المكتب الإسلامي، ونقل شرح الطوفي لتائية ابن تيمية، وبتلخيص مفصل ذكر ذلك الشيخ محمد بن صالح العثيمين في المجموع الثمين من فتاوىٰ ابن عثيمين ١/ ١٥٥ ومن نفائس كلام شيخ الإسلام قوله: «يخاف علىٰ صاحب الإرادة من ضعف العلم وعلىٰ صاحب العلم من ضعف الإرادة»، الفتاوىٰ

تعلق الرضى هل بالقدر أم بالمقدور؟

كما سيأتي[١].

وأما قولكم: «إنه يستلزم سوء ظنٍّ العبد بربه ومنازعته له في اختياره» فليس كذلك؛ بل هو حسن الظن بربه في الحالتين، فإنه إنما يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر، كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه، فينازع قدر الله بقدر[٢] الله بالله و[٣]لله، كما يستعيذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، ويستعيذ به منه.

وأما «كونه يختار لنفسه ما يختاره الرب» فهذا[٤] موضع تفصيل، لا يُسحب عليه ذيل النفي والإثبات، فاختيار الرب[٥] لعبده نوعان:

أحدهما[٦]: **اختيار ديني شرعي**، فالواجب علىٰ العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فاختيار العبد خلاف

١٠/ ٤٨٩ فالأول وصف الصوفية والثاني وصف القدرية والمعتزلة، وانظر تفصيل الخلاف في المسألة في التحفة العراقية ٣٥٩ وما بعدها.

(١) أ، ب، غ، ط (إن شاء الله).

(٢) (بقدر) سقطت من أ، ب، غ، م.

(٣) (الواو) ساقطة نم أ، ب، غ، ط.

(٤) غ (فهو).

(٥) ق (تعالىٰ).

(٦) (أحدهما) سقطت من ش.

ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ، ورضاه بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً.

النوع الثاني : اختيار كوني قدري ، لا يسخطه الرب ، كالمصائب التي[1] يَبتلي اللهُ بها عبده[2] ، فهذا لا يضره فِراره منها إلىٰ القدر الذي يرفعها عنه ، ويدفعها ويكشفها ، وليس في ذلك منازعة للربوبية ، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

فهذا يكون تارة واجباً ، وتارة يكون[3] مستحباً ، وتارة يكون مباحاً مستوي الطرفين ، وتارة يكون حراماً ، وتارة يكون مكروهاً[4].

وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه - مثل قدر المعائب والذنوب - فالعبد مأمور بسخطها ، منهي عن الرضىٰ بها.

وهذا هو التفصيل الواجب في الرضىٰ بالقضاء[5].

وقد اضطرب الناس في ذلك اضطراباً عظيماً ، ونجا منه أصحاب الفِرَق والتفصيل ، فإن لفظ «الرِّضىٰ بالقضاء» لفظ محمود مأمور به ، وهو من

---

(١) الأصل (الذي) والأقرب ما أثبته من جميع النسخ.

(٢) ق (عبده بها).

(٣) (يكون) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ش (وتارة يكون مكروهاً ، وتارة يكون حراماً).

(٥) ق (بالقدر) بدل (القضاء).

مقامات الصديقين ، فصار[1] له حرمة أوجبت لطائفة[2] قبوله من غير تفصيل ، وظنوا أن كل[3] ما كان [مقضياً للرب تعالىٰ مخلوقاً ينبغي الرضا به][4] ثم انقسموا[5] فرقتين :

فقالت فِرقة : إذا كان القضاء والرضىٰ متلازمين[6] ، فمعلوم أنّا مأمورون ببغض المعاصي ، والكفر والظلم ، فلا تكون مقضية مقدرة[7][8].

وفرقة قالت : قد دلّ العقل والشرع علىٰ أنها واقعة بقضاء الله وقدره ، فنحن نرضىٰ بها[9].

---

(١) أ ، ب ، م ، ح٢ (فصارت).

(٢) ش (الطائفة) ، وهي إشارة إلىٰ الصوفية القائلين بهذا القول كما سيأتي قريباً.

(٣) (كل) سقطت من ش.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (مخلوقاً للرب تعالىٰ فهو مقضي مرضي ينبغي له الرضىٰ به) ، وكلمة (فهو) سقطت من ح٢ ، د ، م ، ق ، وكلمة (مقضي) سقطت من أ ، ب ، غ ، وكلمة (مرضي) سقطت من د ، ق ، و(له) سقطت من ق.

(٥) ط زيادة (علىٰ).

(٦) من قال بالتلازم فقد جمع بين النقيضين ، انظر الاستقامة ٢/ ١٣٨ ، وهو حمق وجهل وانظر بدائع الفوائد ١/ ٥.

(٧) أ ، ب ، غ (مقدورة).

(٨) وهذا قول المعتزلة القدرية ، انظر الاستقامة ٢/ ٧٧ ـ ١٣٨ ، شرح الطحاوية ٢٥٨ ، لوامع الأنوار ١/ ٣٦١.

(٩) الجبرية والصوفية ، الاستقامة ٢/ ٧٧ ـ ٧٨ ، ٢/ ١٣٨.

والطائفتان منحرفتان جائرتان(١) عن قصد السبيل ، فأولئك أخرجوها عن قضاء الرب وقدره ، وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها ، هؤلاء خالفوا الرب تعالىٰ في رضاه وسخطه ، وخرجوا عن شرعه ودينه ، وأولئك أنكروا تعلق قضائه وقدره بها (٢).

واختلفت طرق أهل الإثبات للقدر والشرع في جواب الطائفتين :

فقالت طائفة : لم يقم دليل من الكتاب والسنة ولا الإجماع علىٰ جواز الرضىٰ بكل قضاء ، فضلاً عن وجوبه واستحبابه ، فأين أمر الله عباده ورسوله : أن يرضوا بكل ما قضاه الله وقدره؟ (٣).

وهذه طريقة كثير من أصحابنا وغيرهم ، وبه أجاب القاضي أبو يعلىٰ وابن الباقلاني(٤).

قال : فإن قيل : أفترضون بقضاء الله وقدره؟.

---

(١) جائرتان : الجور الميل عن القصد والجور في الحكم.. مختار الصحاح ١١٦.

(٢) انظر كلام شيخ الإسلام عن الطائفتين في الفتاوىٰ ٦/ ١١٥ ـ ١١٦ ، منهاج السنة ١/ ٣٥٨ ط. مكتبة الرياض الحديثة.

(٣) قال شيخ الإسلام : « وأما الرضىٰ بالكفر والفسوق والعصيان فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضىٰ بذلك ، فإن الله لا يرضاه كما قال تعالىٰ : ﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر﴾ » ، الاستقامة ٢/ ٧٥ ـ ١٢٣.

(٤) ذكره شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ١٢٥ ، والفتاوىٰ ١٠/ ٧٠٩ ، ونسبه للقشيري في الرسالة القشيرية.

قيل له : نرضىٰ بقضاء الله الذي هو خلقه[1] ، الذي أمرنا أن نرضىٰ به ، ولا نرضىٰ من ذلك ما نهانا عنه أن نرضىٰ به ، ولا نتقدم بين يدي الله تعالىٰ ، ولا نعترض علىٰ حكمه.

وقالت طائفة أخرىٰ : يطلق الرضىٰ بالقضاء في الجملة ، دون تفاصيل المقضي المقدر ، فنقول : نرضىٰ بقضاء الله جملة ولا نسخطه ، ولا نطلق الرضىٰ علىٰ كل واحد من تفاصيل المقضي ، كما يقول المسلمون : كل شيء يَبيد ويهلك، ولا يقولون : حُجَجُ الله تبيد وتهلك، ويقولون : الله رب كل شيء، ولا يضيفون ربوبيته إلىٰ الأعيان المستخبثة المستقذرة[2] بخصوصها.

وقالت طائفة أخرىٰ : نرضىٰ بها من جهة إضافتها إلىٰ الرب خلقاً ومشيئة[3]، ونسخطها من جهة إضافتها إلىٰ العبد كسباً[4] وقياماً به[5].

وقالت طائفة أخرىٰ : بل نرضىٰ بالقضاء ونسخط المقضي ، فالرضىٰ والسخط لم يتعلقا بشيء واحد.

---

(١) قال شيخ الإسلام : « وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصف الله وفعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله فهو خروج منه عن مقصود الكلام ، فإن الكلام ليس في الرضىٰ فيما يقوم بذات الرب تعالىٰ من صفاته وأفعاله ، وإنما الكلام في الرضا بمفعولاته.. » الفتاوىٰ ١٠/ ٤٢-٤٣.

(٢) (المستقذرة) سقطت من أ ، م ، ب.

(٣) الأصل (ومشيئها) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٤) ق زيادة (له).

(٥) ح٢ (وقيامه بها).

وهذه الأجوبة لا يتمشىٰ شيء[1] منها علىٰ أصول من يجعل محبة الرب تعالىٰ ورضاه ومشيئته واحدة ، كما هو أحد قولي الأشعرية[2] ، وأكثر[3] أتباعه[4].

فإن هؤلاء يقولون : إن كل ما شاءه وقضاه فقد أحبه ورضيه ، وإذا كان الكون محبوباً له مرضياً ، فنحن نحب ما أحبه ، ونرضىٰ ما رضيه[5].

---

(١) (شيء) سقطت من ش.

(٢) ق (الأشعري).

(٣) الأصل (من) والأقرب حذفها كما في بقية النسخ.

(٤) القول : (بأن الإرادة تستلزم الرضىٰ هو قول الجهمية والمعتزلة وأغلب الأشاعرة) وهو مرتبط بمسألة تعليل أفعال الله ، إذ توهم التعارض بين الأمر والقدر ، حدا بالأشاعرة إلىٰ إنكار التعليل ، إذ كيف يريد أمراً إرادة كونية كالكفر ، ثم لا يحبها ولا يرضاها ولا يريدها ديناً ، فرأوا أن الخروج من هذا المأزق يكون بإنكار الحكمة والتعليل في أفعال الله وأوامره.. انظر أقوالهم في : المغني في أبواب التوحيد والعدل جـ٦ ، قسم٢ ص٥١ - ٥٦ ، الإنصاف للباقلاني ص٦٩ ـ٧٠ ، لباب العقول للمكلاتي ٢٨٨ ، وانظر فيما لخصته أعلاه رسالة د/ المحمود ، موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٥ - ١٣١٦ .

وقال شيخ الإسلام : «.. وإنما ضل هنا فريقان من الناس : قوم من أهل الكلام المنتسبين إلىٰ السنة في مناظرة القدرية ، ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلىٰ إرادته.. وقالوا هو محب لها مريد لها ، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه..» ، الاستقامة ٢/ ٧٦ ـ ٧٧ . وانظر الفتاوىٰ ١٠/ ٦٨٣ ـ ٦٨٥ ، بدائع الفوائد ١/ ٥ ، ولبعض الأشاعرة قول أخف عبارة من السابقين ، انظر فيه الإرشاد للجويني ٢٣٩ ، شرح المواقف ٢٨٨ جزء مستقل محقق ، ولباب العقول ٢٨٨ ، بدائع الفوائد ١/ ٥ .

(٥) ق (ما رضي به).

وقولكم : إن الرضىٰ بالقضاء يطلق جملة ، ولا يطلق تفصيلاً [لا مخلص في هذا المقام ، فإنه وإن لم يطلق تفصيلاً](١) فذلك في جملة المرضي به ، فيعود(٢) الإشكال.

وقولكم : نرضىٰ بها من جهة كونها(٣) خلقاً لله ، ونسخطها من جهة كونها كسباً للعبد : فكسب العبد إن كان أمراً وجودياً فهو خلق لله فنرضىٰ(٤) به ، وإن كان أمراً عدمياً فلا حقيقة له ترضي ولا تسخط(٥).

وأما قولكم : نرضىٰ بالقضاء دون المقضي : فهذا إنما يصح علىٰ قول من جعل(٦) القضاء غير المقضي ، والفعل غير المفعول ، وأما من لم يُفرِّق بينهما : فكيف يصح هذا علىٰ أصله؟.

وقد أورد القاضي(٧) الباقلاني(٨) علىٰ نفسه هذا السؤال ، فقال :

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٢) م زيادة (له).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق زيادة (أنها).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ش ، ق (فيرضىٰ).

(٥) الأصل (برضىٰ ولا بسخط) ، ش (يرضىٰ ولا يسخط) ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (يرضىٰ ولا تسخط) والأقرب ما أثبته من د ، ق ، ط.

(٦) ط (يجعل).

(٧) ق زيادة (أبو بكر).

(٨) (الباقلاني) سقط من ق.

فإن قيل: القضاء عندكم هو المقضي(١)، أو غيره؟.

قيل: هو علىٰ ضربين، فالقضاء - بمعنىٰ الخلق - هو المقضي؛ لأن الخلق هو المخلوق، والقضاء - الذي هو الإلزام والإعلام والكتابة -: غير المقضي؛ لأن الأمر غير المأمور، والخبر غير المخبر عنه(٢)(٣).

وهذا الجواب لا يخلصه أيضاً؛ لأنّ الكلام ليس في الإلزام والإعلام والكتابة، وإنما في نفس الفعل المقدر(٤) المعلم به المكتوب: هل مقدره وكاتبه سبحانه راض به أم لا؟ وهل العبد مأمور بالرضىٰ به نفسه أم لا؟ هذا(٥) حرف المسألة.

وقد أنكر الله سبحانه(٦) علىٰ من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمين(٧) لمحبته ورضاه فكيف بمن جعل ذلك شيئاً واحداً؟ قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن

(١) ق (القضاء).

(٢) م، ح٢ (به) بدل (عنه).

(٣) انظر الإنصاف للباقلاني ٢٢٧ - ٢٢٩ تحقيق عماد الدين أحمد حيدر.

(٤) د، ط (المقدور).

(٥) ط زيادة (هو).

(٦) ط (وتعالىٰ).

(٧) الأصل (مستلزماً) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام :١٤٨] وقال تعالىٰ : ﴿[وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟][1] لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ[2] فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[النحل : ٣٥] وقال تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف :٢٠] .

فهم استدلوا علىٰ محبته ورضاه لشركهم[3] بمشيئته لذلك ، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه ، وفيه أَبْيَنُ[4] الرد لقول من جعل مشيئته عين[5] محبته ورضاه، فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة ، ثم زادوه[6] بجعلهم الفعل نفس المفعول ، والقضاء عين المقضي ، فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالىٰ راضياً محباً لذلك ، والتزام رضاهم به.

والذي يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، وينجي من هـذه الورطة[7] :

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٢) (كذلك) سقطت من ش.

(٣) ق ، ط زيادة (ورضاه عنه).

(٤) ق ، ط (أن بين).

(٥) غ (غير) وهو خطأ يغيِّرُ المعنىٰ ، ومع ذلك اتفقت عليه جميع الطبعات حتىٰ طبعة رشيد رضا - رحمه الله - كما في ٢/ ١٠٧ .

(٦) الأصل (زاده) والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٧) الورطة : أرض منخفضة لا طريق فيها، والهوة العميقة في الأرض، وكل أمر تعسر النجاة منه ، المعجم الوسيط ٢/ ١٠٢٥ .

(١) التفريق(٢) بين ما فرق الله بينه ، وهو المشيئة والمحبة فليسا(٣) واحداً ، ولا هما متلازمين ؛ بل قد يشاء ما لا يحبه ، ويحب ما لا يشاء كونه.

فالأول : كمشيئة لوجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه.

والثاني : كمحبته(٤) إيمان الكفار ، وطاعات(٥) الفجار ، وعدل الظالمين ، وتوبة الفاسقين ، ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه ، فإنه ما شاء الله(٦) كان ، وما لم يشأ لم يكن.

فإذا تقرر هذا الأصل ، وأن الفعل غير المفعول ، والقضاء غير المقضي ، وأن الله لم يأمر عباده بالرضىٰ بكل ما خلقه وشاءه : زالت الشبهات ، وانحلَّتْ الإشكالات ، ولله الحمد ، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض ، بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر :(٧) ؛ بل القدر ينصر الشرع ، والشرع يصدق القدر ، وكل منهم يحقق الآخر.

---

(١) ط (إنما هو).

(٢) ق (التفرقة).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فإنهما ليسا).

(٤) ط ، ق ، ح٢ (كمحبة).

(٥) ح٢ (وطاعة).

(٦) (لفظ الجلالة) سقط من ق.

(٧) ش (الآخر).

إذا عُرف[1] هذا فالرضىٰ بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب علىٰ العبد أن يكون راضياً به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتىٰ يحكموا رسوله، و[2]يرتفع الحرج[3] من نفوسهم من حكمه، و[4]يسلّموا لحكمه[5]، وهذا حقيقة[6] الرضىٰ بحكمه.

فالتحكيم: في مقام الإسلام، [وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان][7]، والتسليم في مقام الإحسان.

ومتىٰ خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحَيِيَ بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقىٰ أحكام الرب تعالىٰ بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضي كل

(١) ق (عرفت).

(٢) ط زيادة (حتىٰ).

(٣) ب (الجزع) بدل (الحرج).

(٤) ط زيادة (حتىٰ).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (تسليماً).

(٦) ش (حقيقته).

(٧) أ، ب، غ (والرضىٰ في مقام الإيمان) بدلاً عما بين المعقوفين.

الرضىٰ بهذا القضاء الديني المحبوب لله ورسوله[(١)](٢).

والرضىٰ بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه - من الصحة، والغنىٰ، والعافية، واللذة - أمر لازم بمقتضىٰ الطبيعة؛ لأنه[(٣)] ملائم للعبد، محبوب له، فليس في[(٤)] الرضىٰ به عبودية؛ بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب[(٥)] الله أن توضع فيها، وأن لا يعصي المنعم بها[(٦)].

والرضىٰ بالقضاء الكوني القدري، الجاري علىٰ خلاف مراد العبد ومحبته

---

(١) ط (ولرسوله).

(٢) شاهد ذلك ما جاء في قصة أبي سفيان مع هرقل عظيم الروم حين سأله هل يرجع أحد عن الإسلام سخطه عليه، قال: «وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد»، أخرجه البخاري. بدء الوحي (١/ ١٦ - ١٧) ح(٧)، ابن حبان في الثقات (٢/ ٣١)، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ١٧٨)، ابن منده في الإيمان (١/ ٢٩٠)، اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٩٢).

وقال القاضي عياض في معنىٰ حديث «ذاق طعم الإيمان»: «صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه؛ لأن من رضي أمراً سهل عليه، فهكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهلت عليه الطاعة..»، الديباج علىٰ صحيح مسلم (١/ ٥١) لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

(٣) الأصل (فلأنه) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٤) م، ش زيادة (هذا).

(٥) د (يحبها).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (ويرىٰ التقصير في جميع ذلك) و ط (وأن..).

مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره - مستحب ، وهو من مقامات[1] الإيمان ، وفي وجوبه قولان ، وهذا كالمرض والفقر ، وأذىٰ الخلق له ، والحر والبرد ، والآلام ونحو ذلك[2].

والرضىٰ بالقدر الجاري عليه باختياره - مما يكرهه الله ويسخطه ، وينهىٰ عنه - كأنواع الظلم والفسوق والعصيان : حرام يُعاقب عليه ، وهو مخالف لربه تعالىٰ ، فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه ، فكيف تتفق المحبة ورضىٰ ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضىٰ بالقضاء[3].

فإن قلت : كيف[4] يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكوِّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟.

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (أهل).

(٢) سبقت الإشارة إلىٰ هذين القولين (ص ١٩٠٨ ، ١٩١٧).

وقال شيخ الإسلام : «النوع الثاني : الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل ، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء ، وليس بواجب ، وقد قيل إنه واجب ، والصحيح أن الواجب هو الصبر كما قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : الرضىٰ عزيز ولكن الصبر معوَّل المؤمن» الاستقامة ٢/ ٧٤ ، التحفة العراقية ٣٥٦.

(٣) بعد ما ذكر شيخ الإسلام أقسام الناس في ذلك وفصل القول فيها قال : « .. ولكن يرضىٰ بما أصابه من المصائب لا بما يفعله من المعايب ، فهو من الذنوب يستغفر وعلىٰ المصائب يصبر» ، الاستقامة (٢/ ٧٩) ، الفتاوىٰ (١٠/ ٦٨٣ ـ ٦٨٥).

(٤) أ ، ب (فكيف).

قيل : هذا السؤال(١) هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً ، وتباينت عنه(٢) طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن «المُراد» نوعان : مُراد لنفسه ، ومُراد لغيره.

فالمراد لنفسه : مطلوب لذاته وما(٣) فيه من الخير ، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره : قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلىٰ ذاته ، وإن كان وسيلة إلىٰ مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلىٰ مراده، فيجتمع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما(٤) ، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة ، [إذا علم متناوله أن فيه شفاءه ، وكقطع العضو](٥) المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاءَ جسده ، وكقطع المسافة الشاقة جدًّا إذا علم أنها توصله(٦) إلىٰ مراده و محبوبه؛ بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته ، وطُويت عنه مغبَّتُه ، فكيف بمن لا تخفىٰ عليه

(١) ق (هذا هو السؤال الذي).

(٢) ط (عنده).

(٣) ط (ولما).

(٤) غ (تعلقهما)

(٥) العبارة في ق (أنه فيه جداً إذا علم متناوله إذ فيه شفاؤه وكقطع العضو..).

(٦) ش (توصل).

العواقب؟ فهو سبحانه وتعالىٰ يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سبباً إلىٰ أمر[1] هو أحب إليه من فوته.

مثال ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يُغضب الرب تبارك وتعالىٰ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل[2] حيلة، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالىٰ مسْخوط له، لعنه الله ومقته، وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلىٰ محاب كثيرة للرب تعالىٰ ترتبت علىٰ خلقه، وجودها أحبُّ إليه من عدمها.

[3]منها: أن تُظهر للعباد قدرة الرب تعالىٰ علىٰ خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات - التي هي من[4] أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر - في مقابلة ذات جبريل[5] التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك[6] الله خالق هذا وهذا، كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء،

---

(١) أ، ب، غ (إلىٰ ما هو) بدل (أمر).

(٢) د، ق (وبكل).

(٣) ق (ومنها).

(٤) (من) سقطت من ط.

(٥) د، ق (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٦) د، غ (تبارك).

والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء(١)، والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من(٢) أدل الدلائل علىٰ كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلَّط بعضها علىٰ بعض، وجعلها محال(٣) تصرفه وتدبيره وحكمته، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

آثار أسماء الله تعالى

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: «القهار(٤)، والمنتقم(٥)، والعدل(٦)، والضار، وشديد العقاب(٧)، وسريع الحساب(٨)، وذي البطش الشديد،

---

(١) ط زيادة (والذكر والأنثىٰ).

(٢) (من) سقطت من ب، أ.

(٣) ط (محل).

(٤) القهار: قال الله تعالىٰ: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ [يوسف: ٣٩].

(٥) المنتقم، الضار، الخافض: ما ورد من هذه مقيداً أو مضافاً فإنه لا يكون اسماً لمجرد هذا الورود مثل قوله تعالىٰ: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾، ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾، ﴿سريع الحساب﴾، وإن أخذ من غيرها كما في قوله تعالىٰ: ﴿وهو الولي الحميد﴾، انظر: الفتاوىٰ ٨/ ١٩٦، معارج القبول للحكمي ١/ ٧٦، وانظر رسالة عبدالله الغصن «أسماء الله الحسنىٰ» ١٣٦ - ١٣٧.

(٦) اسم العدل: ممن أثبته البيهقي، وابن العربي، وابن منده، والوليد بن مسلم، كما في رسالة الغصن ٣٣٤.

(٧) لم أجد لأحد قولاً في إثباته اسماً لله تعالىٰ.

(٨) ممن أثبته اسماً لله تعالىٰ: ابن منده، والبيهقي كما في رسالة الغصن ٣٥٠.

والخافض[١]، والمذل»[٢] فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، فلا بد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق كلهم علىٰ طبيعة المَلَك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار[٣] أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلقُ ما يكرهه[٤] من الأسباب المفضية إلىٰ ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي إلىٰ هذا[٥] بقوله: «لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم

---

(١) غ، ب (الخافظ).

(٢) ما ورد هنا من الإخبار فإنه لا يسمىٰ به الله تعالىٰ إذ الإخبار عنه أوسع باباً من الاسم ولا يلزم فيه التوقف، فمن أنكر وجود الله فإنه يقال له موجود، وذات.. كما في الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ٩/ ٣٠١، وابن القيم في بدائع الفوائد ١/ ١٦٢، ١٧٠، وأسماء الله تعالىٰ كلها حسنىٰ كاملة الحسن، أما الخبر فلا يلزم أن يكون كامل الحسن مثل ذات وشيء وموجود، قال ذلك شيخ الإسلام في الفتاوىٰ ٦/ ١٤٢.

والأسماء يدعىٰ بها دون الأخبار، فإنه لا يدعىٰ بها فيقال: يا حي، يا قيوم، ولا يقال يا ذات، يا شيء. انظر درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ١/ ٢٩٧، ٤/ ١٤٠، مجموع الفتاوىٰ ٦/ ١٤٢، ٩/ ٣٠١، وانظر رسالة الشيخ عبدالله الغصن «أسماء الله الحسنىٰ» ص١٤١-١٤٢.

(٣) (آثار) سقطت من ب.

(٤) ط (يكره).

(٥) (هذا) سقطت من ش.

يُذنبون فيستغفرون[١] الله[٢] ، فيغفر لهم»[٣].

ومنها : ظهور آثار أسماء[٤] الحكمة والخبرة ، فإنه[٥] «الحكيم الخبير[٦]» الذي يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولا ينزله غير منزلته ، التي[٧] يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العقاب والفضل ، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ، ولا الثواب موضع العقاب ، ولا العقاب موضع الثواب ، ولا الخفض موضع الرفع ، ولا الرفع موضع الخفض ، ولا العز مكان الذل ، ولا الذل مكان العز ، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه ، ولا ينهىٰ عما ينبغي الأمر به[٨].

فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ، ويشكره علىٰ

---

(١) الأصل (ويستغفرون) المثبت من صحيح مسلم وبقية النسخ.

(٢) (لفظ الجلالة) سقط من ق.

(٣) مسلم. التوبة (٤/ ٢١٠٦) ح(٢٧٤٩) ، أحمد (٢/ ٣٠٩) ، الترمذي. صفة الجنة (٤/ ٦٧٢) ح(٢٥٢٦) ، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٧٢).

(٤) (أسماء) طمس من ح٢.

(٥) ق (سبحانه).

(٦) قال الله تعالىٰ : ﴿هو الله العزيز الحكيم﴾ [سبأ :٢٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿إنّ الله لطيف خبير﴾ [الحج :٦٣].

(٧) د (الذي).

(٨) مفتاح دار السعادة ١/ ١٠ ، عدة الصابرين ٤١٦.

انتهائها إليه ووصوله ،[1] وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله ، وأحكم من أن يمنعها أهلها ، و[2]يضعها عند غير أهلها.

فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ، ولم تظهر لخَلقه ولفاتت الحِكَم[3] والمصالح المترتبة عليها ، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب.

فلو عُطِّلت تلك الأسباب - لما فيها من الشر - لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر ، فلو قدر تعطيلها - لئلا يحصل منها ذلك الشر الجُزئي - لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

فصل[4]

ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، ولكان الحاصل بعضها ، لا كلَّها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ، ولو كان الناس

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ووصولها).

(٢) ط زيادة (أن).

(٣) أ ، ب ، غ ، م (الحكمة).

(٤) (فصل) طمس من ح٢ ، أ.

كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها : من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه ، والحب فيه والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوىٰ، وإيثار محاب الرب علىٰ محابِّ النفس.

ومنها[1] : عبودية[2] التوبة ، والرجوع إليه واستغفاره ، فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويحب توبتهم ، فلو عُطلت الأسباب التي يُتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها : عبودية مخالفة عدوِّه ، ومراغمته في الله ، وإغاظته فيه ، وهي من أحب أنواع العبودية إليه ، فإنه سبحانه يحب من وليِّه أن يُغيظ عدوَّه ويراغمه ويسوءه ، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس[3].

ومنها : أن يُتعبَّد له بالاستعاذة من عدوِّه ، وسؤاله أن يجيره منه ، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها : أن عبيده يشتدُّ خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلّ بعدوه بمخالفته ، وسقوطه من المرتبة الملكية إلىٰ المرتبة الشيطانية[4] ، فلا يخلدون إلىٰ غرور

---

(١) ش (منها).

(٢) ق (عود).

(٣) الأكياس : (الكيْس) ضد الحمق ، مختار الصحاح ٥٨٥ ، لسان العرب ٦/ ٢٠١.

(٤) مسألة هل إبليس من الملائكة أم من الجن : نقل المفسرون أقوال الصحابة والعلماء من بعدهم فيها ، ومحصلة الأقوال : أن منهم من ذهب إلىٰ أنه من الجن مستنداً إلىٰ صراحة الآية

هل إبليس من الملائكة أم من الجن ؟

الأمل بعد ذلك.

ومنها : أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته ، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة ، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة علىٰ مخالفته.

ومنها : أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر :٦] ، فاتخاذه عدواً[1] أنفع شيء للعبد ، وهو محبوب للرب.

ومنها : أن الطبيعة البشرية مُشْتملة علىٰ الخير والشر ، والطيب والخبيث ،

في ذلك وأن علة عدم سجوده هذا الوصف الذي به افترق عن الملائكة ، الذين امتثلوا الأمر فسجدوا ، وعلىٰ هذا جماعة من أهل العلم قالوا إنه كان يتعبد معهم فأطلق عليه ذلك ؛ لأنه تبع لهم ومن حجتهم أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم بنص القرآن ، وذهب جماعة من أهل العلم إلىٰ أنه ملك في الأصل ، واستدلوا لذلك بتكرار وروده في جملة الملائكة ، وقالوا بأن إخراجه بالاستثناء دليل علىٰ أنه منهم وأجاب هؤلاء علىٰ حجة أصحاب القول الأول بأن هناك قبيلة من الملائكة تسمىٰ (الجن) خلقوا من نار السموم وممن جزم بهذا القول : ابن عباس وابن مسعود وابن المسيب وقتادة ونقله الطبري والزمخشري وابن عطية والبغوي ، مؤيدين له ، وأشار إليه الشنقيطي في تفسيره وقال بخلافه مؤيداً من يرىٰ أنه من الجن لقوة حجتهم ، وهي نص الوحي في ذلك وصراحته ، وقد سبقه إلىٰ ذلك شيخ الإسلام حيث قال في آخر حديثه عنها (والتحقيق أنه كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ، ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة) الفتاوىٰ ٤/ ٣٤٦ وانظر المسألة في تفسير الطبري ١/ ١٥٨ ، تفسير القرطبي (١/ ٢٩٥) ، درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٤٦ ، تفسير البغوي ١/ ٦٣ ، تفسير ابن عطية ٨/ ٣١٠ ـ ٣١١ ، أضواء البيان للشنقيطي ٤/ ١٢١.

(١) أ ، غ ، ب (من).

وذلك كامن فيها كمون(١) النار في الزناد، فَخُلِق الشيطان مستخْرجاً لما(٢) في طبائع أهل الشر من القوة إلىٰ الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلىٰ الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوىٰ هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه [آثاره، وما في قوىٰ أولئك من الشر، ليترتب(٣) عليه(٤) آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين](٥)، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق.

وهذا هو السؤال الذي سألته الملائكة حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولىٰ من وجود من يعصيه ويخالفه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

الحكمة من خلق ما لا يحبه ولا يرضاه

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة(٦) الظالمة كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك

(١) ب (ككمون).

(٢) (لما) سقطت من د، و (اللام) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، ش.

(٣) أ، ب (ليرتب).

(٤) ش (عليها).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٦) ط (الكفارة).

ثمود وقوم لوط ، وآية انقلاب النار علىٰ إبراهيم برداً وسلاماً ، والآيات التي أجراها الله تعالىٰ علىٰ يد موسىٰ ، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها(١) : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء :١٣٩- ١٤٠] ، فلولا كفر الكافرين ، وعناد الجاحدين ، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة ، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلىٰ الأبد.

ومنها : أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً ، ويكسر بعضها بعضاً : هو من شأن كمال الربوبية ، والقدرة النافذة ، والحكمة التامة ، والملك الكامل - وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه ، ولو لم يخلق(٢) هذه الأسباب - لكن خلقها من لوازم كماله وملكه ، وقدرته وحكمته ، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة : تحقيق لذلك الكمال ، وموجب من موجباته ، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة : فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت علىٰ خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته : أحب إليه(٣) سبحانه وتعالىٰ من فواتها ، وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

---

(١) ط زيادة (في سورة الشعراء).

(٢) م ، ح٢ (تخلق).

(٣) أ ، ب ، غ (إلىٰ الله).

فإن قلت : فهل كان يمكن وجود الحكم بدون هذه الأسباب؟.

قلت[1] : هذا[2] سؤال باطل ، إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود الابن بدون الأب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة دون التائب.

فإن قلت : فإذا[3] كانت هذه الأسباب مرادة ، لما تفضي[4] إليه من الحكم ، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه ، أم مسخوطة من جميع الوجوه؟.

قلت : هذا السؤال يُورد[5] علىٰ وجهين :

أحدهما : من جهة الرب سبحانه وتعالىٰ ، وهل يكون محباً لها من جهة إفضائها إلىٰ محبوبه ، وإن كان يبغضها لذواتها[6].

الثاني : من جهة العبد ، وهو أنه هل يسوغ له الرضىٰ بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلىٰ العدم - أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه - وهو من هذه الجهة شر ، وأما من جهة وجوده المحض : فلا شرَّ فيه.

---

(١) (قلت) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (فهذا).

(٣) (فإن قلت فإذا) طمس من أ.

(٤) ق (يقضي).

(٥) ق (مورد).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (لذاتها).

مثاله : أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة ، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فإنها[1] خلقت في الأصل[2] متحركة لا تسكن ، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به[3] وإن تُركت تحركت بطبعها[4] إلىٰ خلافه ، وحركتها من حيث هي حركة خير ، وإنما تكون شراً بالإضافة ، لا من حيث هي حركة ، والشر كله ظلم ، وهو وضع الشيء في غير موضعه ، فلو وضع في موضعه لم يكن شراً.

فعلم أن جهة الشر فيه : بمشيئة[5] إضافية ، ولهذا كانت العقوبات ، الموضوعة[6] في محالها خيراً في نفسها ، وإن كانت شراً بالنسبة إلىٰ المحل الذي حلت به ، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة ، مستعدة له ، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها ، وهو خير بالنسبة إلىٰ الفاعل ، حيث[7] وضعه موضعه، فإنه سبحانه لا يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه[8]

---

(١) أ ، ب ، غ (به).

(٢) ب (فهي).

(٣) أ ، ب (في الخير) ، و (به) سقطت من ط.

(٤) د (تحركت).

(٥) الأصل ، ش (بمشيئة إضافة) ، م (نسبية بمشيئة) ، ط (نسبة إضافته) والأقرب ما أثبته من د ، ق.

(٦) ط (الموضوعات).

(٧) (حيث) سقط من ح٢.

(٨) ب (وجوه الاعتبارات).

والاعتبارات ، فإن حكمته تأبىٰ ذلك ؛ بل قد يكون ذلك المخلوق شراً ومفسدة ببعض الاعتبارات ، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر ، أرجح من اعتبارات مفاسده ؛ بل الواقع منحصر في ذلك ، فلا يمكن في جناب الحق - جلّ جلاله - أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه وبكل[1] اعتبار ، لا مصلحة في خلقه بوجه ما ، هذا من أبين المحال ، فإنه سبحانه بيده الخير ، والشر ليس إليه ؛ بل كل ما إليه فخير ، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه ، فلو كان إليه لم يكن شراً ، فتأمله ، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيّره شراً.

فإن قلت : لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة؟.

قلت : هو من هذه الجهة ليس بشر ، فإن وجوده هو المنسوب إليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشر ، والشر الذي فيه : من عدم إمداده بالخير وأسبابه ، والعدم ليس بشيء ، حتىٰ ينسب إلىٰ من بيده الخير.

فإن أردت مزيداً من إيضاح لذلك ، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة : الإيجاد والإعداد ، والإمداد فهذه هي الخيرات وأسبابها.

فإيجاد هذا[2] السبب خير ، وهو إلىٰ الله ، وإعداده خير ، وهو إليه أيضاً ، وإمداده خير ، وهو إليه[3].

---

(١) أ ، ب ، غ (بكل).

(٢) (هذا) سقطت من ط.

(٣) ط زيادة (أيضاً).

فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب[1] هذا العدم الذي ليس إلىٰ الفاعل ، وإنما إليه ضده.

فإن قلت : فهلا أمدّه إذ أوجده؟.

قلت[2] : ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده ، فإنه - سبحانه - يُوجده ، ويمدُّه ، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده : أوجده بحكمته ولم يمده بحكمته ، فإيجاده خير ، والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قلت : فهلا أَمَدّ الموجودات كلها؟.

قلت : هذا سؤال فاسد يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة ، وهذا عين الجهل ؛ بل الحكمة كل الحكمة : في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها[3] ، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت ، فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت ، والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية ، لم يتعلق بها الخلق ، وإلا فليس في الخلق من تفاوت.

فإن اعتاص[4] ذلك عليك ، ولم تفهمه حق الفهم ، فراجع قول القائل :

---

(١) م (لسبب).

(٢) (قلت) سقطت من م ، د ، ب ، ش ، ق.

(٣) أ ، ب (بينهما).

(٤) ق (اعتاض).

إذا لم تستطع شيئاً فدعــه[١] وجــاوزه إلىٰ ما تستطيــع[٢]

كما ذكر : أن الأصمعي اجتمع بالخليل[٣] ، وحرص علىٰ فهم العروض منه[٤] : فأعياه ذلك فقال له الخليل يوماً : قطِّع لي هذا البيت ، وأنشده : «إذا لم تستطع[٥] .. البيت» ففهم ما أراد ، فأمسك عنه ولم يشتغل به.

وسر المسألة : أن الرضىٰ بالله يستلزم الرضىٰ بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه ، ولا يستلزم الرضىٰ بمفعولاته كلها ؛ بل حقيقة العبودية : أن يوافقه عبده في رضاه وسخطه ، فيرضىٰ منها بما رضي[٦] به ، ويسخط منها ما سخطه.

فإن قيل : فهو سُبحانه يرضىٰ عقوبة من يستحق العقوبة ، فكيف[٧] يمكن العبد أن يرضىٰ بعقوبته له؟.

قيل : لو وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسروراً ، ولكن لا يقع منه[٨] ذلك.

---

(١) ط (دعه).

(٢) بيت الشعر : ـ القائل : عمرو بن معد يكرب ، البداية والنهاية (٧/ ١٦٠) (١٠/ ١٦١) ، الإصابة (٤/ ٢٩٢) ، الشقائق النعمانية لطاش كبرىٰ زاده (٢/ ٢٤٠).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (ابن أحمد).

(٤) (منه) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٥) د زيادة (شيئاً فدعه) ، ط (شيئاً).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (يرضىٰ).

(٧) ب زيادة (بمن).

(٨) (منه) سقطت من أ ، ب ، غ.

فإن لم يوافقه في محبته وطاعته ، التي هي سرور النفس ، وقرة العين ، وحياة القلب ، فكيف يوافقه في محبته للعقوبة ، التي هي أكره شيء إليه ، وأشق شيء[1] عليه؟ بل كان كارهاً لما يحبه من طاعته وتوحيده ، فلا يكون راضياً بما يختاره من عقوبته ، ولو فعل[2] ذلك لارتفعت عنه العقوبة.

فإن قلت : فكيف يجتمع الرضىٰ بالقضاء الذي يكرهه العبد - من المرض والفقر والألم - مع كراهته؟.

قلت : لا تنافي في ذلك ، فإنه يرضىٰ به من جهة إفضائه إلىٰ ما يحب ، ويكرهه من جهة تألمه به ، كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه ، فإنه يجتمع فيه رضاه به ، وكراهته له.

فإن قلت : كيف يرضىٰ لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟.

قلت : لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة ، بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة ، ومفوتاً لمصلحة راجحة ، وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ ذلك في قوله : ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا

(١) د (وأشقه عليه).

(٢) ط (قبل) بدل (فعل).

خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٦ - ٤٧]، فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله[1] للغزو، وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به، فلما كرهه منهم ثبَّطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت تترتب[2] علىٰ خروجهم لو خرجوا مع رسوله[3] ﷺ، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فساداً[4] وشراً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم، فتولّد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة: أنْ مَنَعَهُم من الخروج، وأقْعدَهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب، وقِسْ عليه.

فإن قلت: قد تصور[5] لي هذا[6] في رضىٰ الرب تعالىٰ لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه آخر[7]، فكيف لي بأن يجتمع الأمران في حقي بالنسبة إلىٰ المعاصي والفسوق؟.

---

(١) أ، ب، غ (رسول الله).

(٢) ط (ستترتب).

(٣) ط (رسول الله).

(٤) (فساداً) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(٥) ط (يتصور).

(٦) (هذا) سقطت من د.

(٧) (آخر) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

قلت : هو متصوَّر ممكن ؛ بل واقع ، فإن العبد يسخط ذلك ويبغضه ، ويكرهه من حيث هو[١] فعل له ، [٢] وواقع[٣] بكسبه[٤] وإرادته ، واختياره ، ويرضىٰ بعلم الله وكتابته ومشيئته ، وإذنه الكوني[٥] ، فيرضىٰ بما من الله ، ويسخط ما هو منه ، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان.

وطائفة أخرىٰ رأوا كراهة ذلك مطلقاً ، وعدم الرضىٰ به[٦] من كل وجه.

وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك ، فإن العبد إذا كرهها مطلقاً ، فإن الكراهة إنما تقع علىٰ الاعتبار المكروه منها ، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيئته ، وإلزامه[٧] حكمه[٨] الكوني ، وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها[٩] الرب وأبغضها لأجله.

وَسِرُّ المسألة : أن الذي إلىٰ الرب منها غير مكروه ، والذي إلىٰ العبد منها

---

(١) (هو) سقطت من د.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (سببه) ، ط (بسببه).

(٣) ق (واقع).

(٤) (بكسبه) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (فيه).

(٦) (به) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) ش (والتزامه).

(٨) ق (وحكمه) بزيادة (الواو).

(٩) ش ، ح٢ (يسخطها).

هو المكروه والمسخوط[(١)(٢)] .

فإن قلت : ليس إلىٰ العبد شيء منها؟ .

قلت : هذا هو الجبر الباطل ، الذي لا يمكن صاحبه التخلُّص من هذا المقام[(٣)] الضيِّق ، والقدريُّ أقرب إلىٰ التخلص منه من الجبري ، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية : هم أَسْعدُ بالتخلُّصِ منه من الفريقين.

أثر شهود الحقيقة الكونية على معتقد الصوفية في القدر

فإن قلت : فكيف[(٤)] يتأَتَّىٰ النّدمُ والتوبةُ ، مع شهود الحكمة في التقدير ، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟ .

قلت : هذا هو[(٥)] الذي أوقع من عَمِيت بصيرته في شهود الأمر علىٰ خلاف ما هو عليه ، فرأىٰ تلك الأفعال طاعات ، لموافقته فيها المشيئة والقدر ، وقال

---

(١) د (المسخوط) بدون (واو).

(٢) قال شيخ الإسلام : «.. وقالت طائفة ترضىٰ من جهة كونها مضافة إلىٰ الله خلقاً ، وتسخط من جهة كونها مضافة إلىٰ العبد فعلاً وكسباً.. إلىٰ أن قال: وهو سبحانه إنما قدر الأشياء لحكمة، فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية وقد تكون في نفسها مكروهة مسخوطة.. » الفتاوىٰ ١٠/ ٤٢.

(٣) أ ، ب ، غ (المكان).

(٤) أ ، ب ، غ ، ش (كيف).

(٥) (هو) سقطت من أ ، ب ، غ.

إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك[١] ، قيل[٢] :

أصبحتُ منفعلاً لما تختارُه   منِّي ففعلــي كلُّه طاعــات[٣]

وهؤلاء أعمىٰ الخلق بصائر ، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية ، فإن الطاعة هي موافقة الأمر ، لا موافقة القدر والمشيئة ، ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله ، وكان قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مُطيعين له[٤] ، فيكون قد عذبهم أشد العذاب علىٰ طاعته ، وانتقم منهم لأجلها ، وهذا غاية الجهل بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله.

---

(١) وهذا هو قول غلاة الصوفية ، قال شيخ الإسلام في معرض الرد علىٰ من شهد الحقيقة الكونية : « وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلىٰ أن لا يفرقوا بين المحظور والمأمور ، وأولياء الله وأعداء الله ، والأنبياء والمتقين ، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، ويجعلون المتقين كالفجار ، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ، ويعطلون الأمر والنهي والوعد والوعيد والشرائع.. » الاستقامة ٢/ ٧٨ ، وقال أيضاً : « .. وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهىٰ عنه ، ويجعل ذلك من التفويض والتوكل والجري مع الحقيقة القدرية ـ إلىٰ قوله ـ حتىٰ يفضي الأمر بغلاتهم إلىٰ عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي.. وبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي علىٰ أيدي الكفار والفجار.. » الفتاوىٰ ١٠/ ٢٧ ـ ٢٨ ، ٣٤.

(٢) ح٢ ، م (كما قيل) و ط (وقيل).

(٣) بيت الشعر : لم أجده ، وانظر تعليق شيخ الإسلام علىٰ هذا البيت وما وقع فيه بعض الصوفية من الاشتباه ، الفتاوىٰ (١١/ ٢٤٥).

(٤) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

فإن قلت: ومع ذلك، فاجمع لي بين الندم والتوبة، وبين مشهد القيومية والحكمة؟.

قلت: العبد إذا شهد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلىٰ ربه، وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين كان بالله في هذه الحال، لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتىٰ في هذه الحال البتة، فإن عليه حصناً حصيناً من: «**فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي يبْطش، وبي يمشي**»[1]، فلا يُتصور منه الذنب في هذه الحال، فإذا حُجب عن هذا المشهد، وسقط إلىٰ وجوده الطبعي، وبقي بنفسه[2]: استولىٰ عليه حكم النفس والطبع والهوىٰ، وهذا الوجود الطبعي[3] قد نُصبت فيه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون،

---

(١) لهذا الكلام صلة بحديث الولي المشهور، الذي أخرجه البخاري في الرقاق (٤/ ١٩٢) ح(٦٥٠٢)، وفي سنده خالد بن مخلد القطواني شيخ البخاري وقد تُكُلّم فيه، انظر في ذلك ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٦٤١)، فتح الباري (١١/ ٣٤٤، ٤١٥)، والألباني كما سيأتي، أما اللفظ الموجود هنا «فبي يسمع..» فقد جمع فيه الألباني كلاماً طويلاً خلاصته، أما سياق الحديث بلفظ «فبي يسمع وبي يبصر..» فقد أورده شيخ الإسلام في عدة أماكن من الفتاوىٰ (٥/ ٥١١، ١٠/ ٥٨، ١١/ ٧٥ ـ ٧٦، ١٧/ ١٣٣ ـ ١٣٤) من رواية البخاري بزيادة «فبي يسمع..» ولم أر هذه الزيادة عند البخاري ولا عند غيره ممن ذكرنا من المخرجين وقد ذكرها الحافظ أثناء شرحه للحديث نقلاً عن الطوفي ولم يعزها لأحد، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٨٣ ـ ١٩١)، وقد ذكرها ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٠).

(٢) ح٢، م (نفسه).

(٣) الأصل (الطبيعي) وما أثبته من ش وهو الصحيح.

فلا بد أن يقع في شبكة من تلك الشباك[1]، وهذا الوجود هو حجاب بينه وبين ربه[2]. فيقع الحجاب، ويقوىٰ المقتضىٰ، ويضعف المانع، وتشتد الظلمة، وتضعف القوىٰ، فأنىٰ له بالخلاص من تلك الأشراك والشباك؟ فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبعي، وانجاب[3] ظلامه، وزال قَتامه، وصرت بربك ذاهباً عن نفسك وطبعك.

بدا لك سرٌّ طال عنك اكتتامُه ... ولاح صباحٌ كنت أنت ظلامُه
فإن غِبْتَ عنه حلّ فيه وَطَنَّبت ... علىٰ منكب الكشف المصون خيامُه
فأنت حجاب القلب عن سرِّ غيبه ... ولولاك لم يُطبع عليه ختامُه
وجاء حديثٌ لا يُملّ سماعُه ... شهيٌّ إلينا نثرُه ونظامُه
إذا ذَكَرتْه النفسُ زَالَ عَنَاؤُها ... وزَالَ عن القلب المُعَنَّىٰ قتامُه[4]

فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية بنفسه، محجوباً فيها عن ربه، وعن طاعته، فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر: بقي بربه لا بنفسه.

وإذا عرف هذا، فالتوبة والندم يكونان[5] في هذا الوجود الذي هو فيه بربه

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د (وشرك من تلك الأشراك)، و ق (أو شرك..).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (فعند ذلك يقع).

(٣) انجاب: من جاب الشيء جوباً (خرقه) وجاب الصخرة: نقبها، لسان العرب ١/ ٢٨٥.

(٤) أبيات الشعر: ذكره أبو طريف الشيبي في الشعر المنسوب للحلاج ١٠٣، وبهامشه نسبه لابن العريف الصنهاجي المتوفىٰ سنة ٥٣٦هـ، انظر ١٠٤ من الكتاب نفسه.

(٥) الأصل (يكون)، ق (تكون) والأقرب ما أثبته من ب، ط.

وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية، بل يجامعه ويستمد منه، وبالله التوفيق.

قوله: «وَيَصِحُّ بِثَلَاثَةِ شَرَائِط: بِاسْتِوَاءِ الحَالَاتِ عِنْدَ العَبْدِ[1]، وَسُقُوطِ الخُصُومَةِ مَع الخَلْقِ، وَبِالخَلَاصِ[2] مِن المَسْأَلَةِ وَالإِلحاحِ»[3].

يعني: أن الرضىٰ عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة[4]، فإن الراضي[5] الموافق يستوي[6] عنده الحالات - من النعمة والبلية - في رضاه بحسن اختيار الله له[7].

[وليس المراد استواءها عنده في ملاءمته ومنافرته، فإن هذا خلاف الطبع البشري، بل خلاف الطبع الحيواني][8].

الفرق بين استواء النعمة والبلية وبين استواء الطاعة والمعصية

وليس المراد أيضاً استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه، وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضىٰ بهما لوجوه:

---

(١) ش (العجز) وبهامشها (والقدرة).

(٢) ط (الخلاص).

(٣) منازل السائرين (٤٠).

(٤) (أ، غ، ب) سقطت من ش.

(٥) ق (الرضىٰ).

(٦) ق، ط (تستوي).

(٧) (له) سقطت من ح٢.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من ش.

أحدها : أنه مفوض ، والمفوض راض بكل ما اختاره له [من فوض إليه ، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ، ولطفه وحسن اختياره له](١).

الثاني : أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله ، ولا راد لحكمه ، وأنه ما شاء الله(٢) كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو(٣) يعلم أن كُلاً من البلية والنعمة سابق ، وقدر حتم.

الثالث : أنه عبد محض ، والعبد المحض لا يسخط(٤) جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن ، بل يتلقاها(٥) كلها بالرضىٰ به وعنه.

الرابع : أنه محب ، والمحب الصادق : من رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس : أنه جاهل بعواقب الأمور ، وسيده أعلم بمصلحته وما(٦) ينفعه.

السادس : أنه لا يريد مصلحته(٧) من كل وجه ، ولو عرف أسبابها ، فهو جاهل ظالم ، وربه تعالىٰ يريد مصلحته ، ويسوق إليه أسبابها(٨) ، ومن أعظم

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٢) (لفظ الجلالة) سقط من ش.

(٣) (فهو) سقط من ق.

(٤) م ، ش ، ح٢ ، د (يتسخط) وفي ب (يسخطه).

(٥) ق (تلقاها).

(٦) ط (بما).

(٧) ط (مصلحة نفسه).

(٨) ش (أسبابه).

أسبابها : ما يكرهه العبد ، فإن مصلحته فيما يكره[١] أضعاف[٢] مصلحته فيما يحب ، قال[٣] تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :٢١٦] وقال تعالىٰ : ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء :١٩].

السابع : أنه مسلم ، والمسلم من قد سلَّم نفسه لله ، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه[٤] ، ولم يتسخط[٥] بذلك[٦].

الثامن : أنه عارفٌ بربه ، حسن الظن به ، لا يتهمه فيما يُجريه عليه من أقضيته وأقداره ، فحُسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده ، ورضاه بما يختاره له سيده[٧].

التاسع : أنه[٨] يعلم أن حظَّه من المقدور[٩] ما يتلقَّاه به من رضي أو سخط[١٠] ،

---

(١) (فيما يكره) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) أ ، ب ، غ ، ش ، ق (أضعاف) مكررة.

(٣) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) (عليه) سقطت من أ ، ب ، غ ، ش.

(٥) ط (يسخط).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ذلك).

(٧) ط زيادة (سبحانه).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (أن).

(٩) ق (بالمقدور).

(١٠) ط (وسخط).

فلا بُدّ له منه ، فإن رضي فله الرضىٰ ، وإن سخط فله السخط[١].

العاشر : علمه بأنه إذا رضي به[٢] انقلب في حقه نعمة ومنحة ، وخفّ عليه حمله ، وأعين عليه ، وإذا سخطه[٣] تضاعف عليه ثقله وكَلُّه[٤] ، ولم يزدد إلا شدة ، فلو أن السخط يُجدي عليه شيئاً لكان له فيه راحة فلا[٥] أنفع له من الرضىٰ به.

ونكتة المسألة : إيمانه بأن قضاء الرب تعالىٰ خير له ، كما قال النبي ﷺ : **«والذي نفسي بيده ، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن»**[٦].

الحادي عشر : أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام

---

(١) فيه إشارة إلىٰ الحديث : «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم..» ، أخرجه أحمد من حديث محمود ابن لبيد (٥/ ٤٢٧) ، الترمذي. الزهد من حديث أنس (٤/ ٦٠١) ح(٢٣٩٦) ، وقال حسن غريب ، ابن ماجه. الفتن (٢/ ٣٨٨) ح(٤٠٣١) ، وقال حسن غريب ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٩١) ، رواه أحمد ورجاله ثقات وحديث أنس فيه ابن لهيعة وفيه كلام.

(٢) (به) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٣) غ ، ش ، ح٢ (سخط).

(٤) كَلُّه : - الكَلُّ : المصيبة تحدث والأصل : من كلَّ عنه أي نبا وضعف. لسان العرب ٥٩٢/١١.

(٥) (فلا) سقطت من ط.

(٦) الحديث : سبق ص١٨٤٢.

عليه[١] ، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبوديته ربه ، فلا تتم له عبوديته - من الصبر ، والتوكل ، والرضىٰ ، والتضرع ، والافتقار والذل ، والخضوع ، وغيرها - إلا بجريان القدر له بما يكرهه ، وليس الشأن[٢] في الرضىٰ بالقضاء [الملائم للطبيعة ، إنما الشأن في الرضىٰ[٣] بالقضاء[٤]][٥] المؤلم المنافر للطبع[٦].

الثاني عشر : أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالىٰ في جميع الحالات يثمر له[٧] رضىٰ ربه عنه[٨] ، فإذا رضي عنه بالقليل[٩] من الرزق : رضي الله[١٠] عنه بالقليل من العمل ، وإذا رضي عنه في جميع الحالات ، واستوت عنده ، وجده أسرع شيء إلىٰ رضاه إذا ترضّاه وتملّقه[١١].

---

(١) (عليه) سقط من ش.

(٢) ب زيادة (إلا).

(٣) (في الرضىٰ) سقطت من ط.

(٤) ط (في القضاء).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ .

(٦) ح٢ (للطبيعة).

(٧) (له) سقطت من ط.

(٨) (عنه) سقطت من م.

(٩) الأصل (بالقليل عنه) والأقرب ما أثبته من ق ، ط.

(١٠) (لفظ الجلالة) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش ، وفي ش ، ط (ربه).

(١١) تملّقه : - الملق : الود واللطف الشديد ، وأصله التليين ، والترفق والمداراة وهو تودد فوق ما ينبغي ، لسان العرب ١٠/ ٣٤٧.

الثالث عشر: أن أعظم راحته، وسروره ونعيمه: في الرضىٰ عن ربه[1] في جميع الحالات، فإن الرضىٰ باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد[2] رغبته فيه، [3]لا يستبدل بغيره منه.

الرابع عشر: أن السخط باب الهمِّ والغمِّ والحَزَن وشتات القلب وكسْف[4][5] البال، وسوء الحال والوسواس[6]، والظن خلاف ما هو أهله، والرضىٰ يخلِّصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الخامس عشر: أن الرضىٰ يوجب له الطمأنينة، وبَرد القلب، وسكونه وقراره، والسخط يوجب[7] اضطراب قلبه، وريبه[8] وانزعاجه، وعدم قراره[9].

السادس عشر: أن الرضىٰ يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتىٰ نزلت عليه السكينة: استقام، وصلحت أحواله، وصلح باله، والسخط، يبعده منها

---

(١) د، ط (تعالىٰ وتقدس).

(٢) الأصل (يشتد) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٣) ط زيادة (وأن).

(٤) ش (كشف).

(٥) كسف: يقال رجل كاسف الوجه: عابسه من سوء الحال، وهو الصفرة والتغير، ورجل كاسف مهموم/ لسان العرب ٩/ ٢٩٩.

(٦) (الوسواس) سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

(٧) ش زيادة (له).

(٨) أ، ب، غ، ط (ريبته).

(٩) غ (إقراره).

بحسب قلته وكثرته ، وإذا ترحَّلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة[1] ، وطيب العيش ، فمن أعظم نعم الله علىٰ عبده: تنزيل[2] السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها : الرِّضىٰ عنه في جميع الحالات.

السابع عشر : أنَّ الرضىٰ يفتح له باب السلامة ، فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدَّغل[3] والغلِّ[4] : ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتىٰ الله بقلب سليم ، [5] وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضىٰ ، وكلَّما كان[6] أشد رضىٰ كان قلبه أسلم ، فالخبث والدغل والغش : قرين السخط ، وسلامة القلب وبِرّه[7] ونصحه : قرين الرضىٰ ، وكذلك الحسد[8] : هو من ثمرات السخط ، وسلامة القلب من ثمرات الرضىٰ.

الثامن عشر : أن السخط يوجب تلّون العبد ، وعدم ثباته مع الله ، فإنه لا يرضىٰ إلا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا

---

(١) الدّعة : الخفض في العيش والراحة . لسان العرب ٨/ ٣٨١.

(٢) ط (تنزل).

(٣) الدّغل : الفساد مثل الدّخل . لسان العرب ٨/ ٣٨١.

(٤) الغِلّ : الغش والحقد . مختار الصحاح ٤٧٩.

(٥) ط زيادة (كذلك).

(٦) ط زيادة (العبد).

(٧) أ ، ب ، غ (برده).

(٨) أ ، ب ، غ (الخبث).

يلائمه ، وكلما جرىٰ عليه منها ما لا يلائمه سخطه[١] ، فلا تثبت له علىٰ العبودية قدم[٢] فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات ، استقرت قدمه في مقام العبودية ، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضىٰ.

التاسع عشر : أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله ، وقضائه وقدره[٣] ، وحكمته وعلمه ، فقلَّ أن يسلم[٤] الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل[٥] فيه ، وإن كان لا يشعر به ، فلو فتش[٦] غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً[٧] مدخولاً ، فإن الرضىٰ واليقين أخوان مصطحبان ، والشك والسخط قرينان ، وهذا معنىٰ الحديث الذي في الترمذي - أو غيره[٨] «إن استطعت أن تعمل بالرضىٰ مع اليقين[٩] فافعل، فإن لم تستطع فإن في[١٠] الصبر علىٰ ما تكره النفس خيراً كثيراً»[١١].

---

(١) ط (أسخطه).

(٢) ش ، ط (قدم علىٰ العبودية).

(٣) (وقدره) سقط من أ ، ب.

(٤) الأصل (سلم) والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٥) م (يتعلل).

(٦) ط زيادة (نفسه).

(٧) ح٢ (معولاً).

(٨) غ ، ش (وغيره).

(٩) (مع اليقين) سقطت من غ.

(١٠) (في) سقطت من د.

(١١) تقدم تخريجه ص١٨١٦.

العشرون[١] : أن الرضىٰ بالمقدور من سعادة ابن آدم ، وسخطه من شقاوته ، كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**من سعادة ابن آدم : استخارة الله عزّ وجلّ ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضىٰ الله ، ومن شِقوة ابن آدم : سخطه بما قضىٰ الله عز وجل**[٢] **ومن شقاوة ابن آدم**[٣] **ترك استخارة الله**»[٤]. فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة ، والتسخط[٥] علىٰ القضاء من أسباب الشقاوة.

الحادي والعشرون : أن الرضىٰ يوجب له أن لا يأسىٰ علىٰ ما فاته ، ولا يفرح بما آتاه ، وذلك من أفضل خصال[٦] الإيمان.

أما عدم أساه[٧] علىٰ الفائت : فظاهر ، وأما عدم فرحه بما آتاه[٨] : فلأنه يعلم

---

(١) (العشرون) طمس من أ.

(٢) (عزّ وجلّ) سقطت من ط.

(٣) ق (سخطه بما قضىٰ الله ، ومن شقاوة ابن آدم استخارة الله) وهذا خلط فاسد.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٦٨) ، الترمذي. القدر (٤/ ٤٥٥) ح(٢١٥١) ، وقال حسن غريب ، الحاكم في المستدرك (١/ ٥١٨) وصححه ووافقه الذهبي ، وحسنه صاحب فيض القدير (٦/ ١٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٩) ، بعض رواته ليس بالقوي ، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢١٩) ، وله طريق آخر عند ابن حبان رقم(٤٠٣٢) ، وفي الباب عن نافع بن الحارث رواه أحمد (٣/ ٤٠٧).

(٥) م (والسخط).

(٦) (خصال) سقطت من ط.

(٧) غ (أساءة).

(٨) (آتاه) سقطت من د.

أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله ، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة(١) ولا بدّ؟.

الثاني والعشرون : أن من ملأ قلبه من الرضىٰ بالقدر : ملأ الله صدره غنىٰ وأمناً وقناعة ، وفَرَّغ قلبه لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، ومن فاته حظُّه من الرضىٰ امتلأ قلبُه بضد ذلك ، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضىٰ يفرغ القلب لله ، والسخط يفرغ(٢) القلب من الله.

الثالث والعشرون : أن الرضىٰ يثمر الشكر ، الذي هو من أعلىٰ مقامات الإيمان ؛ بل هو حقيقة الإيمان ، والسخط يثمر ضده ، وهو كفر النعم ، وربما أثمر له كفر المنعم ، فإذا رضي(٣) عن ربه في جميع الحالات : أوجب له ذلك شكره ، فيكون من الراضين الشاكرين ، وإذا فاته الرضىٰ : كان من الساخطين ، وسلك سبيل الكافرين.

الرابع والعشرون : أن الرضىٰ ينفي عنه آفات الحرص والكَلَب(٤) علىٰ الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة ، وأصل كل بلية ، وأساس كل رزية ، فرِضاه عن ربِّه في جميع الحالات ينفي عنه(٥) هذه الآفات.

---

(١) ح٢ ، م زيادة (فينتظرها).

(٢) (يفرغ) سقطت من د.

(٣) ط زيادة (العبد).

(٤) الكَلَبْ : من التكالب : أي يتواثبون عليه ، والحرص ، حتىٰ كأنهم كلاب من شدة حرصهم ، لسان العرب ١/ ٧٢٤.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (مادة).

الخامس والعشرون : أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان(١) غالباً عند السخط والشهوة ، فهناك يصطاده ، ولا سيما إذا استحكم سخطه ، فإنه يقول ما لا يرضي الرب ، ويفعل ما لا يرضيه ، وينوي ما لا يرضيه ، ولهذا قال النبي عند موت ابنه إبراهيم : «**يحزن القلب وتدمع العين ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب**»(٢) ، فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد التسخط(٣) علىٰ القدر ، فأخبر النبي : أنه لا يقول في مثل هذا المقام - الذي(٤) يسخطه(٥) أكثر الناس ، فيتكلمون بما لا يرضي الله ، ويفعلون ما لا يرضيه(٦) - إلا ما يرضىٰ ربه تبارك وتعالىٰ، ولهذا لما مات ابنُ الفضيل بن عياض رُئي في الجنازة ضاحكاً، فقيل له : أتضحك(٧) وقد مات ابنك؟ فقال : إن الله قضىٰ بقضاء فأحببت أن أرضىٰ بقضائه(٨).

---

(١) (الإنسان) سقطت من م.

(٢) البخاري. الجنائز (١/ ٤٠١) ح(١٣٠٣) ، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨٠٧) ح(٢٣١٥) ، أحمد (٣/ ١٩٤) ، أبو داود. الجنائز (٣/ ٤٩٣) ح(٣١٢٦).

(٣) أ ، ب ، س ، ط (السخط).

(٤) (الذي) سقطت من د.

(٥) (يسخطه) سقطت من أ ، ب ، غ ، م.

(٦) د (يرضاه).

(٧) غ (تضحك).

(٨) حلية الأولياء ٨/ ١٠٠ ، الرسالة القشيرية ٤٠ ، وذكره شيخ الإسلام وعلق عليه بقوله : «حاله حال حسن بالنسبة إلىٰ أهل الجزع وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالىٰ كحال النبي ﷺ فهذا أكمل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر

فأنكرت طائفة هذا[1] علىٰ الفضيل، وقالوا: رسول الله ﷺ قد[2] بكىٰ يوم موت[3] ابنه، وأخبر أن «القلب يحزن، والعين تدمع»، وهو في أعلىٰ مقامات الرضىٰ، فكيف يعد هذا من مناقب الفضيل؟.

اتساع قلب الرسول ﷺ لتكميل المراتب

والتحقيق: أن قلب رسول الله ﷺ اتَّسع لتكميل[4] المراتب، من الرضىٰ عن الله، والبكاء رحمة للصبي، فكان له مقام الرضىٰ، ومقام الرحمة ورقة القلب، والفضيل لم يتسع [لذلك فغيَّبه مقام الرضىٰ عن مقام الرحمة][5] فلم يجتمع له الأمران[6]، والناس في ذلك علىٰ أربع مراتب.

الرضى بالمقدور والرحمة بالصغير

أحدها: من اجتمع له الرضىٰ بالقضاء ورحمة الطفل، فدمعت عيناه رحمة[7]، [8] والقلب راض.

وتواصوا بالمرحمة﴾ فذكر سبحانه التواصي بالصبر وبالمرحمة»، الفتاوىٰ ١٠/ ٤٧، فالبكاء علىٰ الميت إذا لم يقترن به ما يكرهه الله وإنما علىٰ وجه الرحمة فهو مستحب، انظر المصدر السابق والتحفة العراقية ٣٧٠.

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (هذه المقالة).

(٢) (قد) سقطت من ط.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (مات).

(٤) ط زيادة (جميع).

(٥) ط (قلبه لمقام الرضىٰ ومقام الرحمة)، وسقط (لذلك فغيّبه) من أ، ب، غ.

(٦) انظر الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ١٠/ ٤٧.

(٧) (رحمة) سقطت من أ، ب.

(٨) ق زيادة (بالطفل).

الثاني : من غيَّبه الرِّضىٰ عن الرحمة فلم يتسع للأمرين[1].

الثالث : من غيّبته الرحمة والرِّقة[2] عن الرضىٰ فلم يشهده[3].

الرابع : من لا رضىً عنده ولا رحمة ، وإنما كان[4] حزنه لفوات حظه من الميت ، وهذا حال أكثر الخلق ، فلا إحسان ، ولا رضىً عن الرحمن ، والله المستعان[5][6].

السادس[7] والعشرون : أن الرضىٰ هو اختيار ما اختاره الله لعبده ، والسخط كراهة ما اختاره الله[8] ، وهذا نوع محادة ، فلا يتخلص منه إلا بالرضىٰ عن الله في جميع الحالات.

السابع والعشرون: أن الرضىٰ يخرج الهوىٰ من القلب، فالراضي[9] تبع لمراد

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (بل غيبه أحدهما عن الآخر).

(٢) ب (الرأفة).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (بل فنىٰ عن الرضىٰ).

(٤) ط (يكون).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (فالأولىٰ في أعلىٰ مراتب الرضىٰ ، والثاني دونه والثالث دون الثاني والرابع).

(٦) في الفتاوىٰ تقسيم آخر خلاصته : صبر بقسوة ، رحمة بجزع ، قسوة بجزع ، صبر برحمة وهو أكملها ١٠/ ٤٧.

(٧) (السادس) طمس من أ.

(٨) ط زيادة (له).

(٩) أ ، ب ، غ زيادة (هواه).

ربه منه ، أعني الذي يحبه(١) ويرضاه ، فلا يجتمع الرضىٰ واتباع الهوىٰ في قلب(٢) أبداً ، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا ، فهو للغالب عليه منهما.

[**الثامن والعشرون** : أن الرضىٰ عن الله في جميع الحالات يُثمر للعبد رضىٰ الله عنه - كما تقدم بيانه في الرضىٰ به رباً(٣)- فإن الجزاء من جنس العمل ، وفي أثر إسرائيلي أن موسىٰ(٤) : سأل ربه (٥) : عما(٦) يدني من رِضاه؟ فقال : إن رضاي في رضاكَ بقضائي»](٧)(٨).

التاسع(٩) والعشرون : أن الرضىٰ بالقضاء أشق شيء علىٰ النفس ؛ بل هو

---

(١) ط (ربه).

(٢) ط (القلب).

(٣) (رباً) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) ط (ﷺ).

(٥) ط (عزّ وجلّ).

(٦) أ ، ب ، غ ، ط (ما يدني) ، ح٢ (عن ما).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٨) قوت القلوب ٢/ ٢٥٩ ، ٢/ ٤٧ ، الرسالة القشيرية ٢٩٨ ، إحياء علوم الدين ٢/ ٣٤٥ ، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥١٨ ، ولم يذكر العراقىٰ فيه شيء.. وعزاه للقوت أيضاً ، وأورده شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ٨٢ ، وفي الفتاوىٰ ١٠/ ٦٨٧ ثم قال : «.. فهذه الحكايات فيها نظر.. ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد ولا تقوم بها حجة في شيء من الدين.. وقال منها ـ أي القصص ـ ما يُعلم كذبه مثل هذه ، فكيف يُقال إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضىٰ الله به عنه.. ».

(٩) في د (الثامن والعشرون).

ذبحها في الحقيقة، فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنة قط حتىٰ ترضىٰ بالقضاء، فحينئذ تستحق أن يقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

الثلاثون: أن الراضي[١] متلق أوامر الرب[٢] - الدينية والقدرية - بالانشراح والتسليم، وطيب النفس، والاستسلام، والساخط يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه، وإرادته منها.

وقد بيَّنا أن الرضىٰ بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه، فإنه لم يرض به لكون الله عزّ وجلّ[٣] قدّره وقضاه وأمر به، وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه، فهو إنما رضي بنفسه[٤] وعن نفسه، [٥] لا عن ربه.

الحادي والثلاثون: أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضىٰ، والطاعات كلها أصلها من الرضىٰ، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه، وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي.

---

(١) ق (الرضىٰ).

(٢) أ، غ (أمر ربه)، ط (أوامر ربه)، وفي هامش أ، ب (لعله الأوامر).

(٣) (عزّ وجلّ) سقطت من ط.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط (لنفسه).

(٥) ط زيادة (لا بربه).

الثاني[1] **والثلاثون** : أنّ عدم الرضىٰ يفتح باب البدعة ، والرضىٰ يغلق عنه ذلك الباب[2] ، ولو تأملت بدع الروافض[3] ، والنواصب[4] ، والخوارج[5] ، لرأيتها ناشئة من عدم الرضىٰ بالحكم الكوني ، أو الديني ، أو كليهما[6].

الثالث والثلاثون : أن الرضىٰ معقد نظام الدين ظاهره وباطنه ، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع[7].

---

(١) (الثاني) طمس من أ.

(٢) (الباب) سقط من ق.

(٣) **الرافضة** : سموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي ـ رضي الله عنه ـ ، وقال شيخ الإسلام : لكن لفظ الرافضة إنما ظهر لما رفضوا زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١هـ ، وهنا افترقوا إلىٰ رافضة وزيدية ، وهم أهل أهواء وزنادقة وحماقة ، ثم تطورت الطائفة إلىٰ فرق ومذاهب شتىٰ فيها افتراق واجتماع ، وكلها علىٰ ضلالة. انظر : الفَرق بين الفِرَق ٢١ ، الملل والنحل ، ١/ ١٤٦ ـ ١٩٨ ، ومنهاج السنة ١/ ١٠ ـ ١١ ، الفتاوىٰ ١٣/ ٣٥.

(٤) **الناصبة** : قوم يتدينون ببغض علي ـ رضي الله عنه ـ ، وقد خرج عليه الخوارج وناصبوه العداء كما في موقعة الجمل ، وصفين. وهم في الجملة : كل من يؤذي أهل البيت بقول أو عمل. الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ٣/ ١٥٤ ، شرح الطحاوية ٥٤٩.

(٥) **الخوارج** : هم الذين خرجوا علىٰ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حين جرىٰ أمر التحكيم، واجتمعوا (بحروراء) ورأسهم عبد الله بن سبأ ، وهم القائلون بتكفير أصحاب الكبائر ، والقول بالخروج علىٰ الأئمة ، وأن صاحب الكبيرة مخلد في النار.
انظر أقوالهم ومشاهيرهم : الملل والنحل ١/ ١١٥ ، ٢/ ١١٣ ، مقالات الإسلاميين ١٢٧ ، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ١٧ ، فتاوىٰ شيخ الإسلام ١٣/ ٣٢.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (كلاهما).

(٧) الأصل (أنعام) وش (أقسام) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

فتنقسم قسمين : دينية ، وكونية ، وهي مأمورات ، ومنهيات ، ومباحات ، ونعمٌ مُلِذّة ، وبلايا مؤلمة.

فإن[1] استعمل العبد[2] الرضىٰ في[3] ذلك كله ، فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام ، وفاز بالقدح[4] المعلَّىٰ.

الرابع[5] والثلاثون : أن الرضىٰ يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالىٰ في أحكامه وأقضيته ، فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد ، وأصل مخاصمة إبليس لربه : من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية ، فلو رضي لم يُمسخ من الحقيقة الملكية[6] إلىٰ الحقيقة[7] الإبليسية[8].

الخامس والثلاثون : أن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة[9] الله ، وحكمته ، وملكه ، فهو موجب أسمائه وصفاته[10] ، فمن لم يرض بما قضىٰ[11] به ربه ، لم

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (فإذا).

(٢) (العبد) سقط من أ ، ب ، غ.

(٣) ح٢ (بذلك).

(٤) أ ، ب ، غ (القدم).

(٥) (الرابع) طمس من أ.

(٦) د (المكية).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (الشيطانية) بدل (الحقيقة).

(٨) سبق التعليق علىٰ هذه المسألة ص١٩٣٨.

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (مشيئة) من غير (لفظ الجلالة).

(١٠) (وصفاته) سقط من أ.

(١١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (رضي).

يرض بأسمائه وصفاته فلم يرض به رباً.

السادس والثلاثون: أن كل قدر[1] يكرهه العبد ولا يلائمه، لا يخلو: إما[2] أن يكون عُقوبةً علىٰ ذنب[3]، فهو دواء المرض[4] لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامىٰ به المرض إلىٰ الهلاك، أو يكون سبباً لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه، فالمكروه ينقطع ويتلاشىٰ، وما ترتب[5] عليه من النعمة دائم لا ينقطع، فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضىٰ عن ربه في كل ما يقضيه[6]، [7]ويقدره.

السابع والثلاثون: أن حُكم الرب[8] ماضٍ في عبده، وقضاؤه عدل فيه، كما في الحديث «ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك»[9]، ومن لم يرض بالعدل

---

(١) أ، ب، غ (قد) سقطت الراء.

(٢) (إما) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٣) ط (الذنب).

(٤) ط (المرض).

(٥) ط، ق، ح٢ (يترتب)، أ، ب، غ (نزل) بدل (ترتب).

(٦) ش (يقتضيه).

(٧) ط زيادة (له).

(٨) ط زيادة (تعالىٰ).

(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٢)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٩)، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم، وصحح سنده أحمد شاكر في شرح المسند (٥/ ٢٦٧) رقم(٣٧١٢)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦)، وقال رجاله

فهو من أهل الظلم والجور.

وقوله: «عدل فيَّ قضاؤك» يَعُم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته، فإن الأمرين من قضائه عزّ وجل، وهو من[1] أعدل العادلين في قضائه بالذنب، وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة فظاهر، وأما عدله في قضائه بالذنب: فلأن الذنب عقوبة على غفلته[2]، وإعراض قلبه[3] عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه:[4] وإلا فمع كمال الإخلاص[5] والإقبال على الله سبحانه[6] وذكره، يستحيل[7] صدور الذنب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وإن قلت: قضاؤه[8] على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إخلاصه:

رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثّقه ابن حبان، وصححه ابن القيم في شفاء العليل (٢٧٤)، والألباني في الصحيحة (١/ ١٨٠) رقم(١٩٩).

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، ق سقطت (من).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (عن ربه).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (عنه فإنه إذا غفل قلبه).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (استحق أن يضرب بهذه العقوبة؛ لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب والعقوبات واردة عليها من كل جهة).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (والذكر).

(٦) ط زيادة (وتعالىٰ).

(٧) (يستحيل) سقطت من ش.

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (فقضاؤه).

عقوبة علىٰ ماذا؟.

قلت : هذا طبع النفس وشأنها ، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلَّىٰ بينه وبين نفسه وطبعه وهواه ، وذلك يقتضي[١] أثرها من الغفلة والنسيان ، وعدم الإخلاص واتباع الهوىٰ ، وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام ، وفوات الخيرات واللذات ، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

فإن قلت : فهلا خلقه علىٰ غير تلك الصفة؟.

قلت هذا سؤال فاسد ، ومضمونه : هلا خلقه ملكاً لا إنساناً؟.

فإن قلت : فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه ، وظلم[٢] طبعه؟.

قلت : مضمون هذا السؤال: هلا سوىٰ بين[٣] خلقه؟ ولم خلق[٤] المتضادات والمختلفات؟ وهذا من أفسد الأسئلة ، وقد تقدم بيان اقتضاء حِكمته وربوبيته ومُلكه لخلق[٥] ذلك.

الثامن[٦] والثلاثون : أن عدم الرضىٰ إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده ، وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه ، فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن

---

(١) ق (تقتضي).

(٢) د ، ق ، ش (ظلمة).

(٣) ط زيادة (جميع).

(٤) ب (تُـخلق) بدل (خلق).

(٥) ب (لخلقه).

(٦) (الثامن) طمس من أ.

ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه : فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضرُّه.

التاسع والثلاثون : أن الرضىٰ من أعمال القلوب ، نظير الجهاد من أعمال الجوارح ، فإن[1] كل واحد منهما ذِروة سنام الإيمان ، قال أبو الدرداء : «ذروة سنام الإيمان : الصبر للحكم ، والرضىٰ بالقدر»[2].

الأربعون : أن أول معصية عُصي الله بها في هذا العالم : إنما نشأت من عدم الرضىٰ ، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً ، من تفضيل آدم وتكريمه ، ولا بحكمه الديني ، من أمره بالسجود له[3] ، وآدم لم يرضَ بما أبيح له من الجنة ، حتىٰ يضمَّ[4] إليه الأكل من شجرة الحِمىٰ[5][6] ، ثم

---

(١) ق (في أن) بدل (فإن).

(٢) الزهد لابن المبارك ٣١ ، الرضىٰ عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا ١/ ٨٥ ، حلية الأولياء ١/ ٢١٦ ، اعتقاد أهل السنة للالكائي ٤/ ٦٧٦ شعب الإيمان ١/ ٢١٩ ، قوت القلوب ٢/ ٤٥ ، ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٦ ، فيض القدير ٣/ ٥٦١.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (لآدم).

(٤) ط (ضم).

(٥) الحمىٰ : في لسان العرب الحمىٰ ما حُمِيَ من شيء ، وكلأ حمىٰ : محمي ، وحَمَيْت الحمىٰ : منعته ، لسان العرب ١٤/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، أما تسمية هذه الشجرة فقد قال ابن جرير الطبري بعد ذكر الأقوال في تسميتها ، قال : « والصواب في ذلك أن يقال : لا علم عندنا بأي شجرة كانت علىٰ التعيين ؛ لأن الله تعالىٰ لم يضع لعباده دليلاً علىٰ ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة.. إلىٰ قوله : وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله » ، تفسير الطبري ١/ ١٨٥ بتصرف.

(٦) غ (الحمد).

ترتب[1] معاصي الذرية علىٰ عدم الصبر و[2] الرضىٰ.

الحادي[3] والأربعون : أن الراضي واقف[4] مع اختيار الله له ، معرض عن اختياره لنفسه ، وهذا من[5] قوة معرفته بربه[6] ، ومعرفته بنفسه.

و[7] اجتمع وهيب بن الورد[8] ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط[9] ، فقال الثوري : قد[10] كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، فأما[11] اليوم : فوددت أني ميت.

---

(١) ق زيادة (علىٰ).

(٢) ط زيادة (عدم).

(٣) (الحادي) طمس من أ.

(٤) م ح٢ (وقف).

(٥) ش (مع) بدل (من).

(٦) ق ، ط زيادة (تعالىٰ).

(٧) ط زيادة (قد).

(٨) وهيب بن الورد العابد الرباني أبو أمية مولىٰ بني مخزوم ، ويقال اسمه عبد الوهاب روىٰ عن محمد بن المنكدر وغيره ، وعنه بشر السلمي وابن المبارك وغيرهم وثّقه ابن معين ، وقال النسائي ليس به بأس ، توفي سنة ١٥٣هـ/ طبقات ابن سعد (٥/ ٤٨٨) ، حلية الأولياء (٨/ ١٤٠) ، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٩٨).

(٩) يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ ، يروي عن سفيان الثوري وغيره وثقه ابن معين/ ميزان الاعتدال (٢/ ٣٢٨) ، حلية الأولياء (٨/ ٢٣٧) ، صفة الصفوة (٤/ ٢١٩) ، طبقات الشعراني (١/ ٦١) ، طبقات الصوفية للسلمي (ص٣٦).

(١٠) (قد) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب.

(١١) ط (وأما).

فقال له[1] يوسف[2] : ولم؟ قال[3] : لما[4] أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف : لكني أكره طول البقاء.

فقال الثوري : ولم تكره الموت؟.

قال : لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل عملاً صالحاً.

فقِيل لوهيب : أي شيء تقول أنت؟.

فقال : أنا لا أختار شيئاً ، أحبُّ ذلك إليَّ[5] أحبه إلىٰ الله.

فقبَّل الثوري بين عينيه ، وقال : روحانية وربِّ الكعبة[6].

فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة البقاء[7] والموت ، وقف مع اختيار الله له منهما[8].

---

(١) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) أ ، ب ، غ زيادة (ابن أسباط).

(٣) ش ، ط (فقال).

(٤) (لما) سقطت من ش.

(٥) د (الله) ، ق (أحب ذلك إلىٰ الله أحبه إليّ).

(٦) قوت القلوب ٢/ ٥١ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٥.

(٧) ق (حالات البقاء) وم ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (الحياة).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (وقد كان وهيب بن الورد ـ رحمه الله ـ له المقام العالي من الرضىٰ وغيره).

الثاني والأربعون : أن يعلم أن منع الله سبحانه[1] لعبده المؤمن المحب له[2] عطاء ، وابتلاءه إياه عافية ، قال سفيان الثوري : منع الله[3] عطاء[4] ؛[5] لأنه يمنع عن غير[6] بخل ولا عُدم ، فمنعه اختياراً[7] وحسن نظر.

وهذا كما قال المصنف - رحمه الله -[8] - فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، ساءه ذلك القضاء أو سره ، فقضاؤه لعبده المؤمن[9] عطاء ، وإن كان في صورة[10] المنع. ونعمة ، وإن كانت في صورة محنة. وبلاؤه[11] عافية ، وإن كانت[12] في صورة بلية ، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل ، وكان ملائماً لطبعه ، ولو

---

(١) ط زيادة (وتعالىٰ).

(٢) (له) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (منعه عطاء) ، ق (منع عطاء).

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٣٩ ، حلية الأولياء ٨/ ٢٨٧ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٧ ، وعن الفضيل نحوه ، إتحاف السادة المتقين ٢/ ٥٢٥ ، وعزاه لأبي نعيم في حلية الأولياء.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (وذلك).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (لم يمنع من بخلٍ ولا عدم وإنما نظراً في حق عبده المؤمن).

(٧) ح٢ (اختياره).

(٨) (المصنف رحمه الله) سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (المنع).

(١٠) (التاء) سقطت من ط.

(١١) (وبلاؤه) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(١٢) ط (كان).

رُزق من المعرفة حظًّا وافراً لَعَدّ المنع نعمة[1] الله عليه فيما يكرهه[2]، [3] أعظم من نعمه عليه فيما يحبه، كما قال بعض العارفين: يا ابن آدم نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب[4]، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، و[5]قال بعض العارفين: ارضَ عن الله في جميع ما يفعله بك[6]، فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضىٰ عنه طرفة عين، فتسقط من عينه[7].

---

(١) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (والبلاء رحمة وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية وتلذذ بالفقر أكثر من تلذذه بالغنىٰ، وكان في حال القلة أعظم شكراً من حال الكثرة، وهذه كانت حال السلف، فالعاقل الراضي من يعد البلاء عافية والمنع نعمة والفقر غنىٰ، وأوحىٰ الله إلىٰ بعض أنبيائه: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنىٰ مقبلاً فقل ذنب عُجِّلت عقوبته»)، قلت وهذا الكلام أورده أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٣٧، الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/ ١٩٦، وعزاه العراقي في تخريجه للإحياء لأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه، وعن كعب الأحبار بسند ضعيف ولم أجده، والمراد بالنبي موسىٰ عليه الصلاة والسلام، كما في تفسير الطبري ٦/ ٤٢٦ وغيره، وانظر الإتحافات السنية ٣١١.

(٢) ق (يكره).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (أكثر و).

(٤) نحوه في سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٨، حلية الأولياء ٦/ ١٧١.

(٥) ط زيادة (قد).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب (لك) بدل (بك).

(٧) لم أجده.

الثالث والأربعون: أن يعلم أنه[1] سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمُظْهِر لكل شيء، والمالك لكل شيء، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه[2] اختيار، ولا يشرك في حكمه أحداً، والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً، فهو سبحانه الذي اختار وجوده، واختار أن يكون كما[3] قدره له وقضاه: من عافية وبلاء، وغنىٰ وفقر، وعزّ وذل، ونباهة وخمول، فكما[4] تفرد سبحانه بالخلق، تفرد بالاختيار والتقدير[5] والتدبير - وليس للعبد شيء من ذلك - فإن الأمر كله لله، وقد قال تعالىٰ لنبيه[6]: [﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران :١٢٨]، فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله، وليس له][7] من الأمر قليل ولا كثير، لم يكن له[8] معول - بعد ذلك - غير الرضىٰ بمواقع الأقدار، وما يجري[9] به من ربه الاختيار.

الرابع والأربعون: أنَّ رضىٰ الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأنه[10] صفته

---

(١) (أنه) سقطت من ش.

(٢) الأصل (شيء اختيار) والأقرب حذفها كما في بقية النسخ.

(٣) أ، ب، غ (كلما).

(٤) أ، ب (فكلما).

(٥) (والتقدير) سقطت من أ، ب، غ.

(٦) ط زيادة (صلىٰ الله عليه وسلم).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، و(ليس) سقطت من د، ق، ط.

(٨) (له) سقطت من الأصل والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ش.

(٩) د (له)، ق (جرىٰ).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، د (لأن الرضىٰ صفة الله).

والجنة خلقه، قال الله تعالىٰ: (١) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا (٢) ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهذا الرضىٰ جزاء علىٰ رضاهم عنه في الدنيا، فكما (٣) كان هذا الجزاء أفضل الجزاء (٤)، كان سببه أفضل الأعمال.

الخامس والأربعون: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات، لم يتخيَّر (٥) عليه المسائل وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك، وجعل ذكره في محل سؤاله؛ بل يكون (٦) سؤاله (٧) له الإعانة علىٰ ذكره (٨) وبلوغ رضاه، فهذا يُعطىٰ أفضل ما يعطاه سائل كما في الأثر (٩) المعروف: «من شغله ذِكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (١٠)، فإن السائلين سألوه،

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د (ورضوان من الله أكبر بعد قوله).

(٢) أ، ب، غ بعد قوله ﴿من تحتها﴾، قال (إلىٰ قوله: ﴿الفوز العظيم﴾).

(٣) ط (ولما)، أ، ب، غ (كما).

(٤) (أفضل الجزاء) سقطت من م.

(٥) ش (لم تخير).

(٦) ط زيادة (من).

(٧) (سؤاله) سقطت من ش.

(٨) (ذكره) سقطت من الأصل والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، ق (الحديث) بدل (الأثر).

(١٠) أخرجه الترمذي. فضائل القرآن (٥/ ١٨٤) ح(٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري وقال

فأعطاهم الفضل الذي سألوه ، والرضوان رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم ، ولا يمنع الرضىٰ سؤاله أسباب الرضىٰ ، بل أصحابه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

السادس والأربعون : أن النبي كان يندب إلىٰ أعلىٰ المقامات ، فإن عجز العبد عنه : حطّه إلىٰ المقام الوَسط ، كما قال : «**اعبد الله كأنك تراه**»[1] ، فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم قال : «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» فحطه عند العجز عن هذا إلىٰ مقام[2] العلم باطلاعه[3] ورؤيته[4] ومشاهدته لعبده[5] ، وكذا الحديث الآخر « **إن استطعت أن تعمل لله بالرضىٰ**

حسن غريب ، والدارامي (٢/ ٥٣٣) ، والطبراني في الدعاء رقم (١٨٥١) ، والبيهقي في الاعتقاد (١٠١) ، وابن حيان في المجروحين (١/ ٣٧٦) ، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٩) ، وفيه محمد بن الحسن الهمذاني متروك بل كذّبه بعضهم كما في تهذيب التهذيب (٩/ ١٠٢)، وتهذيب الكمال (٢٥/ ٧٦) ، وأورده ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٦٦) ، وقال رجاله ثقات إلا عطية العوفي ضعيف وفي (١١/ ١٣٤) عزاه للطبراني بسند لين ، وقال أبو حاتم في العلل عندما سأله ابنه عن هذا الحديث قال : منكر ومحمد بن الحسن ليس بالقوي (٢/ ٨٢) ، ومن حديث حذيفة أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣١٣) ، ومن حديث عمر وجابر أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٥٧٣) ، ومن حديث عمر أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٤٦) ، وقال ليس يجيء فيما علمت مرفوعاً إلا عن هذا الطريق ، وذكر الأثر الألباني في الضعيفة (٣/ ٥٠٦) (١٣٣٥).

(١) الحديث في الصحيحين وتقدم تخريجه ص١٦٣٠.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (المقام الأول إلىٰ المقام الثاني وهو).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (باطلاع الله عليه).

(٤) ط زيادة (له).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (في الملأ والخلاء).

مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر علىٰ ما تكره النفس خيراً كثيراً»)[١] ، فرفعه إلىٰ أعلىٰ المقامات ، ثم رده إلىٰ أوسطها إن لم يستطع الأعلىٰ ، فالأول : مقام الإحسان ، والذي حطّه إليه مقام الإيمان ، وليس دون ذلك إلا مقام الخسران[٢].

السابع والأربعون : أنه أثنىٰ علىٰ الراضين بمرِّ القضاء بالحكم والعلم والفقه ، والقرب من درجة النبوة ، كما في حديث الوفد الذين قدموا علىٰ النبي (ﷺ[٣]) فقال : «ما[٤] أنتم؟ فقالوا مؤمنون ، فقال : ما علامة إيمانكم؟ فقالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضىٰ بمرِّ القضاء ، والصِّدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء ، فقال : حُكَماء عُلَماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»[٥].

---

(١) هذا جزء من ألفاظ حديث ابن عباس وتقدم تخريجه ص١٨١٦.

(٢) لعل الذي يلي هذه الدرجة مقام الإسلام كما هي الدرجات المعروفة وقد أشار إليها في بداية (السادس والأربعون).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (رسول الله) بدل (النبي).

(٤) ب (من) بدل (ما).

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٧٩) ، والبيهقي في الزهد (٣٥٣) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وأبو أحمد العسكري كما في الإصابة (٢/ ٩٨) ، وأبو موسىٰ المدني في كتاب الصحابة كما في إتحاف السادة المتقين للزبيدي (١٢/ ٥١٥) ، والحديث لا يصح ففي سنده علقمة بن يزيد بن سويد عن أبيه عن جده ، قال الذهبي في الميزان (٣/ ١٠٨) لا يعرف وأتىٰ بخبر منكر فلا يحتج به ، وضعفه العراقي كما في تخريج الإحياء (١/ ٢٦).

الثامن والأربعون : أن الرضىٰ آخذ بزمام مقامات الدين كلها ، وهو روحها وحياتها ، فإنه روح التوكل وحقيقته ، وروح اليقين ، وروح المحبة ، وصفة[1] المحب ، ودليل صدق المحبة ، وروح الشكر ودليله.

قال الربيع بن أنس[2] : علامة حب الله : كثرة ذكره ، فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره ، وعلامة الدين : الإخلاص لله[3] وعلامة الشكر ، الرضىٰ بقدر الله والتسليم لقضائه[4].

وقال أحمد بن أبي الحواري[5] : ذاكرت أبا سليمان في الخبر المروي «أول

(١) ط (صحة).

(٢) الربيع بن أنس بن زياد الخراساني المروزي البصري ، سمع أنس بن مالك والحسن البصري وحديثه في السنن الأربعة ، وكان عالم مرو في زمانه ، توفي سنة ١٣٩هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ١٠٢) ، الثقات لابن حبان (٣/ ٦٤) ، الجرح والتعديل (٣/ ٤٥٤) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ١٦٩).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (في السر والعلانية).

(٤) أخرج هذا الأثر المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن الربيع عن بعض أصحابه ٢/ ٢٧٨ ، وذكره البيهقي في شعب الإيمان وضعّف سنده ١/ ٣٦٧ - ٣٧٠ ، بلفظ علامة حب الله حب ذكره ، وعزاه لمالك بن دينار ١/ ٣٨٨ ، وذكره أبو يعلىٰ القزويني في الإرشاد مرفوعاً وقال إنه منكر لا أصل له ١/ ٤٠٩ وكذا ابن عدي في الكامل ٣/ ١٨٥ وقال فيه أربعة أحاديث مناكير ، وفي حلية الأولياء عن شميط (علامة المنافق قلة ذكر الله) ، ٣/ ١٢٩ وأقوال حول دوام الذكر عن أعلام آخرين ٤/ ٣٦٠.

(٥) أبو الحسن ، أحمد بن علي بن أبي الحواري ، واسم أبي الحواري ميمون ، سكن دمشق ، اشتهر بالزهد والورع ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره ، توفي سنة ٢٠٣هـ/ حلية الأولياء

من(١) **يُدعىٰ إلىٰ الجنة الحمّادون»** (٢) ، فقال : ويحك ، ليس هو أن تحمده علىٰ المصيبة وقلبك يتعصّىٰ عليك ، إذا كنت كذلك فارجع إلىٰ الصابرين ، إنما الحمد : أن تحمده وقلبك مسلم راضٍ.

فصار الرضىٰ كالروح لهذه المقامات ، والأساس الذي تنبني عليه ، ولا يصح شيء منها(٣) بدونه البتة (٤).

التاسع والأربعون : أن الرضىٰ يقوم(٥) له(٦) مقام كثير من(٧) التعبدات التي تشق

(١٠/ ٥ ـ ٣٣) ، صفة الصفوة (٤/ ٢٠١ ، ٢١٢) ، شذرات الذهب (٢/ ١١) ، الرسالة القشيرية (ص٦٤).

(١) أ ، ب ، غ (ما).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٢) ، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي. والطبراني في الكبير (١٢/ ١٩) ، والسيوطي في الجامع الصغير (١/ ١١٣) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٥) ، وعزاه للطبراني بأسانيد ثلاثة وقال في أحدها: قيس ابن الربيع وثقه شعبة وغيره ، وضعفه يحيىٰ القطان وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح ، وضعفه الألباني كما في السلسلة الضعيفة (٢/ ٩٣) رقم(٦٣٢) ، وهو في قوت القلوب (١/ ٢٤٠) ، وحلية الأولياء (١٠/ ١٠) ، وإحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦) ، وأورده شيخ الإسلام في التحفة العراقية (٣٦١).

(٣) ق (فيها).

(٤) ق (والله أعلم).

(٥) غ (لا يقوم).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب سقطت (له).

(٧) (من) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

علىٰ البدن فيكون رضاه أسهل عليه، وألذّ له، وأرفع في درجته، وقد ذُكر في أثر إسرائيلي: أن عابداً عبد الله دهراً طويلاً، فأُرِيَ في المنام: أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة، فسأل عنها إلىٰ أن وجدها، فاستضافها ثلاثاً لينظر إلىٰ عملها فكان[1] يبيت قائماً وتبيت نائمة، ويظل صائماً وتظل مفطرة، فقال لها أما لك عمل غير ما رأيت قالت: ما هو والله غير ما رأيت[2] لا أعرف غيره، فلم يزل يقول[3]: تذكري، حتىٰ قالت خُصيلة واحدة هي فيَّ[4]: أني إن كنت في شدة لم أتمن أني في الرخاء[5]، وإن كنت في مرض لم أتمن أني في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمن أني في الظل، قال: فوضع العابد يده علىٰ رأسه وقال: أهذه[6] خُصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز[7] عنها العباد[8].

---

(١) ش (وكان).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق زيادة (أو قالت إلا ما رأيت).

(٣) ط زيادة (لها).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (وذلك).

(٥) أ، ب، غ، ط (رخاء).

(٦) ق (هذه) بحذف الألف.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (تعجز).

(٨) وأبو نعيم بسنده في حلية الأولياء ١/ ١٩٣، قوت القلوب ٢/ ٤٥، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٦، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥٢٣.

وقد رُوي عن[1] ابن مسعود[2] : «من رضي بما نزل[3] من السماء إلىٰ الأرض غُفِرَ له»[4].

وفي أثر مرفوع : «من خير ما أُعطي العبد الرضىٰ بما قسم الله له»[5].

وفي أثر آخر : «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه ، فإن رضي اصطفاه»[6].

وفي أثر : أن بني إسرائيل «سألوا موسىٰ أن يسأل ربه أمراً إذا هم فعلوه رضي عنهم ، فقال موسىٰ : ربِّ ، إنك تسمع[7] ما يقولون ، فقال : قل لهم يرضون عني حتىٰ أرضىٰ عنهم»[8].

وفي أثر آخر عن النبيِّ ﷺ : «من أحبَّ أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (روىٰ ابن مسعود).

(٢) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٣) أ ، ب ، غ (أنزل).

(٤) الزهد الكبير للبيهقي برقم ٨٢٦ طباعة مؤسسة الرسالة ، وانظر مواعظ الصحابة ص٢٠٠.

(٥) لم أجده.

(٦) معجم الفردوس (١/ ٢٥١) رقم (٩١٧) عن علي - رضي الله عنه - ، تذكرة الموضوعات للفتني تصوير بيروت (١٩٣) ، طرفه الأول في كنز العمال (٣/ ٣٢٥) ح(٦٧٧١) ، (١١/ ١٠٠) ح(٣٠٧٩٢) (٣٠٧٩٣).

(٧) أ (لتسمع).

(٨) ذكر نحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين عن عيسىٰ - عليه السلام - ١٢/ ٥٨٣.

عنده فإن الله ينزل منه حيث ينزله العبد من نفسه»[1].

وفي أثر آخر: «من رضي من الله بالقليل من الرزق، رضي الله منه[2] بالقليل من العمل»[3].

وصايا بعض العارفين في فضيلة الرضى

وقال بعض العارفين: أعرف في الموتىٰ عالماً ينظرون إلىٰ منازلهم في الجنان في قبورهم، يُغْدىٰ عليهم ويُراح برزقهم من الجنة بُكرة وعشياً، وهم في غموم وكروب في البرزخ، لو قُسمت علىٰ أهل بلد لماتوا أجمعين.

قيل وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين مؤمنين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضىٰ نصيب[4].

وفي وصية لقمان[5] لابنه: «أوصيك بخصالٍ تقرّبك من الله، وتباعدك من

(١) المستدرك (١/ ٤٩٤) وصححه، وضعف الذهبي بعض رجاله وكذا ابن حجر في التقريب (٢/ ٥٩)، وذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥)، وقال العراقي صحيح بلفظ (منزلته)، قوت القلوب (٢/ ٤٥)، المغني عن حمل الأسفار (٤/ ٣٣٥)، تهذيب تاريخ دمشق (٢/ ٢٨٩).

(٢) ش زيادة (عنه).

(٧) قوت القلوب ٢/ ٤٦، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٤ وضعف إسناده العراقي/ والديلمي في مسند الفردوس ٥/ ٢٦٦٥، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥١٥، وعزاه للمحاملي في الأمالي من حديث علي.

(٤) قوت القلوب (٢/ ٤٦) قال: قال بعض علمائنا.

(٥) لقمان بن عنقاء بن سدوف، أبو أنعم وهو ممن عاصر داود عليه الصلاة والسلام، وأصح الأقوال أنه حكيم وليس نبياً، وقد تنوعت الأقوال المنسوبة إليه والثابت منها اسمه وما نص

سخطه : أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وأن ترضىٰ بقدر الله فيما أحببت وكرهت»[1].

وقال بعض العارفين : من يتوكل علىٰ الله ، ويرضىٰ بقدر الله ، فقد أقام الإيمان ، وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير ، وأقام الأخلاق الصالحة التي تصلح[2] للعبد أمره[3].

الخمسون : أن الرضىٰ يفتح باب حسن الخلق مع الله[4] ومع الناس[5] فإن حسن الخلق من الرضىٰ وسوء الخلق من السخط ، وحسن الخلق[6] يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم[7] ، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

القرآن عليه ، وما سوىٰ ذلك فهو محل الأخذ والرد/ البداية والنهاية (٢/ ٢٣ ، ١٢٥) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٣) ، إرشاد الساري (٧/ ٢٨٨) ، وانظر رسالة «لقمان الحكيم» تأليف محمد خير رمضان يوسف.

(١) لم أجده.

(٢) (تصلح) سقطت من ق.

(٣) لم أجده.

(٤) ط (تعالىٰ).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (والسخط يفتح باب سوء الخلق مع الله تعالىٰ ومع الناس).

(٦) (الخلق) سقطت من د.

(٧) فيه إشارة إلىٰ الحديث «إنَّ الرجل ليدرك بحسن خلقه..» أخرجه أحمد من حديث عائشة (٦/ ١٣٣) ، وأبو داود. الأدب (٥/ ١٤٩) ح(٤٧٩٨) ، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٢٩) ، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٨) وقال علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه وشاهده صحيح علىٰ شرط مسلم ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٣٦) ، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٨٥).

الحادي والخمسون : أن الرضىٰ يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وطيب النفس وسكونها في كل حال[١] ، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهْلع[٢] من أمور الدنيا ، وبرد القناعة ، واغتباط العبد بقسمه من ربه ، وفرحه بقيام مولاه عليه ، واستسلامه لمولاه في كل شيء ورضاه منه بما يجريه عليه ، وتسليمه له[٣] الأحكام والقضايا ، واعتقاد حسن تدبيره ، وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوىٰ ربه إلىٰ غيره وتبرمه بأقضيته ، ولهذا سمىٰ بعض العارفين الرضىٰ : حسن الخلق مع الله ، فإنه يُوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه ، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه ، فلا يقول[٤] : ما أحوج الناس[٥] إلىٰ مطر؟ ولا يقول : هذا يوم شديد الحر و[٦] شديد البرد ، ولا يقول : الفقر بلاء ، والعيال هَمٌّ[٧] وغم ، ولا يسمي شيئاً قضاه الله وقدَّره باسم مذموم إذا لم يذمه[٨] الله[٩] ، فإن هذا كله ينافي رضاه.

---

(١) م (حاله).

(٢) مُهلع : الهَلَع : الحرص وقلة الصبر ، لسان العرب (٨/ ٣٧٤) ، والهلع : أفحش الجزع ، مختار الصحاح (٦٩٧).

(٣) (له) سقطت من م.

(٤) غ (يقال).

(٥) (الناس) سقطت من د.

(٦) ط (أو).

(٧) (هم) سقطت من د.

(٨) (إذا لم يذمه الله) سقطت من أ ، ب.

(٩) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

قال[١] عمر بن عبد العزيز[٢][٣]: أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القدر[٤].

وقال ابن مسعود[٥]: «الفقر والغنىٰ مطيّتان ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنىٰ فإن فيه البذل»[٦].

وقال ابن أبي الحواري[٧] - أو قيل له[٨] - إن فلاناً قال[٩]: وددت أن الليل أطول مما هو، فقال: قد أحسن، وقد أساء[١٠]، أحسن حيث تمنىٰ طوله

---

(١) ط (وقال).

(٢) ط زيادة (رحمه الله).

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، قرشي أموي، ولد سنة ٦٣هـ، إمام مجتهد زاهد ثقة فقيه، توفي سنة ١٠١هـ: سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤)، طبقات ابن سعد (٥/ ٣٣٠)، التاريخ الكبير (٦/ ١٧٤).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٦ ـ ٣٤٦)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٢)، المعرفة والتاريخ (١٠/ ٥٧٠)، ونحوه في الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة (٣/ ٢٦) رقم(١٠)، ونحوه في شعب الإيمان (١/ ٢٢٧) رقم(٢٢٨)، قوت القلوب (٢/ ٤٠).

(٥) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٦) قوت القلوب (١/ ٢٣١)، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٩)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٣٥) وعزاه للطبراني، وبنحوه في الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٦٢) رقم (٥٩)، الزهد لابن المبارك (١٩٩) رقم(٥٦٦) بلفظ (بأيهما ابتليت)، ونحوه في الرسالة القشيرية عن عمر (ص٢٩١).

(٧) ش (لأبي سليمان) وهذا هو الموافق لما في حلية الأولياء (٩/ ٢٥٨).

(٨) (أو قيل له) سقطت من الأصل، ش، والأقرب إثباتها كما في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٩) م (يقول).

(١٠) (وقد أساء) سقطت من ق.

للعبادة(1)، وأساء إذ أحب ما لم يحبه الله(2)»(3).

وقال عمر بن الخطاب(4): «ما أُبالي علىٰ أي حال(5) أصبحت وأمسيت: من شدة أو رخاء»(6).

وقال يوماً لامرأته عاتكة، أخت(7) سعيد بن زيد - وقد غضب(8) -: «والله لأسوأنك، فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام، بعد إذ هداني الله(9)؟ قال: فقالت(10): فأي شيء تسوءني به إذاً؟»(11).

تريد أنها راضية بمواقع القدر، لا يسوؤها منه شيء إلا صَرْفها عن الإسلام،

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (والمناجاة).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (حيث تمنىٰ ما لم يرده الله، وأحب ما لم يحبه الله).

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٦)، حلية الأولياء (٩/ ٢٥٨)، بلفظ «قلت لسليمان أن ابن داود».

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) ش (حالة).

(٦) الزهد لابن المبارك (٤٢٥)، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٤٢) رقم(٣٠) (٣/ ٢١) رقم(١٣)، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦)، ونحوه في (٢٦٩ ـ ٢٨١)، تنبيه الغافلين (٣٦٤)، قوت القلوب (٢/ ٤٠)، كنز العمال برقم (٨٥٣٧).

(٧) أ، ب، غ (بنت) وهو خلاف الصحيح فزوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، توفيت سنة ٤١هـ كما في البداية والنهاية (٧/ ١٤٠، ٢٤٩، ٢٥٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٥٦٤).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (عليها).

(٩) ط زيادة (له).

(١٠) ق زيادة (قالت).

(١١) لم أجده.

ولا سبيل له إليه.

وقال الثوري[١] يوماً عند رابعة[٢] : اللهم ارض عنا ، فقالت أما تستحي أن تسأله الرضىٰ[٣] ، وأنت غير راضٍ عنه؟ فقال : أستغفر الله ، ثم قال لها جعفر بن سليمان : متىٰ يكون العبد راضياً عن الله فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة[٤].

وفي أثر إلهي : «ما لأوليائي والهمِّ بالدنيا؟ إن الهمَّ بالدنيا يُذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم»[٥].

وقيل : أكثر الناس همّاً بالدنيا أكثرهم همّاً في الآخرة ، [وأقلهم همّاً بالدنيا أقلهم همّاً في الآخرة][٦][٧].

---

(١) سفيان بن سعيد الثوري ، أمير المؤمنين في الحديث ، ولد سنة ٩٧هـ ، وتوفي في البصرة سنة ١٦١هـ/ طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥٠) ، صفة الصفوة (٣/ ٩٧) ، حلية الأولياء (٦/ ٣٥٦).

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية الزاهدة ، أم عمرو ، من أهل الصلاح والزهد توفيت سنة ١٣٥هـ/ سير أعلام النبلاء (٨/ ٢١٥) ، صفة الصفوة (٤/ ٢٣) ، التعرف (٧٣ ، ١٢١) ، الرسالة القشيرية (٨٦) ، طبقات الأولياء (٢٨٤).

(٣) ط (عنك).

(٤) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٥)، وجعفر هذا هو ابن سليمان الضبيعي ، كما في إتحاف السادة المتقين.

(٥) نحوه في حديث خيثمة الإطرابلسي قال : أوحىٰ الله إلىٰ داود (ص١١٦) ، الجرح والتعديل (١/ ٩٤).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من ش ، أ.

(٧) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، نحوه في مجموعة آثار السلمي (٢/ ٣٨١).

فالإيمان بالقدر ، والرضىٰ به : يذهب عن العبد الهم والغم والحزن.

وذكر عند رابعة وليٌّ لله قوته من المزابل ، فقال رجل[١] ، [٢] ما ضرَّ هذا أن[٣] يسأل الله أن يجعل قوته[٤] في غير هذا؟ فقالت : أسكت يا بطال ، أما علمت أن أولياء الله هم أرضىٰ عنه من أن يتخيروا عليه أن[٥] ينقلهم إلىٰ معيشة حتىٰ يكون هو الذي يختار لهم[٦].

وفي أثر إسرائيلي : «أن موسىٰ[٧] : سأل ربه[٨] عما فيه رضاه؟ فأوحىٰ[٩] إليه : إنَّ رضائي[١٠] في كرهك ، وأنت لا تصبر علىٰ ما تكره، فقال: رب ، دلني[١١]

---

(١) ط (رجال).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (عندها).

(٣) (أن) سقطت من ق.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (رزقه).

(٥) أ ، ب ، غ (أن يسألوه).

(٦) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، الأولياء لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٤/ ٢٤) رقم٥٠ ، والرضا له (٣/ ٣٣) رقم(٢١).

(٧) ط زيادة (ﷺ).

(٨) (ربه) سقطت من ق.

(٩) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(١٠) ط (رضاه).

(١١) (دلني) سقطت من د ، ق.

عليه ، فقال : إنّ رضائي[١] في رضاك بقضائي»[٢].

وفي أثر آخر : أن موسىٰ[٣] قال : «يا رب ، أيّ خلقك أحب إليك؟ فقال : من إذا أخذت منه محبوبه سالمني ، قال : فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال : من يستخيرني[٤] في أمر فإذا قضيته له سخط قضائي»[٥].

وفي أثر آخر : «أنا الله ، لا إله إلا أنا ، قدّرت المقادير[٦] ، ودبَّرت التدبير[٧] ،

(١) ط (رضاه).

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٧) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥١٨) ، نحوه في الفتاوىٰ (١٠/ ٦٨٧) ، الاستقامة (٢/ ٨٢) ، وهو في الرسالة القشيرية (٢٩٨) ، وذكره ابن القيم في الوابل الصيب (٩٨) عن طريق محمد بن كعب القرطبي وعزاه للبيهقي ، وقد تناول شيخ الإسلام بعض مباحثها منها مبحث الرضىٰ فلما ذكر شيخ الإسلام هذا القول، قال : «إن هذه آثار ضعيفة ، وحكايات إسرائيلية فيها نظر وليس لها إسناد ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين وهذه القصة مما يُعلم كذبه فإن موسىٰ من أعظم أولي العزم وأكابر المسلمين فكيف يقال إنه لا يطيق أن يعمل بما يرضي الله عنه..» ، الفتاوىٰ (١٠/ ٦٨٧) ، وفي شعب الإيمان (١/ ٢٠٨) عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالىٰ من لم يرض بقضائي وقدري فليلتمس رباً غيري».

(٣) ط زيادة (عليه السلام).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (استخارني) ، ق (من إذا استخارني).

(٥) قوت القلوب (٢/ ٤٧)، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥١٨) ، وذكره ابن القيم في الوابل الصيب (٩٨).

(٦) ط (التقادير).

(٧) ط (التدابير).

وأحكمت الصنع ، فمن رضي فله الرضىٰ مني حتىٰ يلقاني ، ومن سخط فله السخط حتىٰ يلقاني»[١].

الثاني والخمسون : أن أفضل الأحوال : الرغبة في الله ولوازمها ، وذلك لا يتم إلا باليقين ، والرضىٰ عن الله ، ولهذا قال سهل : حظُّ الخلق من اليقين علىٰ قدر حظهم من الرضىٰ ، وحظهم من الرضىٰ علىٰ قدر رغبتهم في الله[٢].

الثالث والخمسون : أن الرضىٰ يخلصه من عيب ما لم يعبه الله ، ومن ذم ما لم يذمه[٣] ، فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب ، وذمه بأنواع الذم[٤] ، وذلك[٥] قلة حياء من الله ، وذم لما لا ذنب له[٦] ، وعيب لخلقه ، وذلك يسقط العبد من عينه[٧] ولو أن رجلاً صنع لك طعاماً وقدمه إليك فعِبته وذممته ، لكنت متعرضاً لمقته وإهانته ، ومستدعياً منه : أن يقطع ذلك عنك ، وقد قال :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٧)، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٥)، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥١٩)، وقال العراقي لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) قوت القلوب عن محمد بن سهل (٢/ ٤٨) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٧) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٥).

(٣) ق ، ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) ط (المذام).

(٥) ط زيادة (منه).

(٦) د (ذم ذنب له وعيب لخلقه) ، ح٢ (وذم لمن ليس ذنب وعيب لخلقه) ، ق (وذم لما لم ذنب له) ، ط (لما ليس له ذنب) وهي ساقطة من م.

(٧) ط (عين ربه) وكذا في حاشية الأصل.

بعض العارفين : إن ذم المصنوع وعيبه - إذا لم يذمه صانعه - غيبة له وقدح فيه [1].

الرابع والخمسون : أن النبي ﷺ سأل الله الرضىٰ بالقضاء ، كما في المسند والسنن : «اللهم بعلمك الغيب ، وقُدرتك علىٰ الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضىٰ ، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قُرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضىٰ بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذّة النظر إلىٰ وجهك [2] والشوق إلىٰ لقائك ، في غير ضرّاء مضرة ، ولا فتنة مُضلّة ، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مُهتدين» [3].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية [4] يقول : سأل [5] الرضىٰ بعد القضاء ؛ لأنه حينئذ تبين حقيقة [6] الرضىٰ ، وأما الرضىٰ قبله : فإنما هو عزم علىٰ أنه يرضىٰ [7]

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٨).

(٢) ط زيادة (الكريم وأسألك).

(٣) تقدم تخريجه ص١٨٩٢ .

(٤) ط زيادة (قدس الله روحه).

(٥) أ ، ب ، غ (سأله) و د ، ق (وأسألك).

(٦) أ ، ب ، غ (حقيقته).

(٧) ق (ربه).

إذا أصابه ، وإنما يتحقق الرضىٰ بعده[1].

قال البيهقي : وروينا في دعاء النبي ﷺ : «**اللهم إني أسألك الصِّحة ، والعِفَّة ، والأمانة ، وحُسن الخُلُق ، والرضىٰ بالقدر**»[2].

الخامس والخمسون : أن الرضىٰ بالقدر يخلص العبد من أن يُرضي الناس بسخط الله ، وأن يذمهم علىٰ ما لم يؤته الله ، وأن يحمدهم علىٰ ما هو محض[3] فضل الله ، فيكون ظالماً لهم في الأول[4] ، [5] - مشركاً بهم في الثاني - [6] ، فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم ذلك[7] وحمدهم ، [فخلصه الرضىٰ من ذلك كله][8].

---

(١) الاستقامة (٢/ ٨٦ - ٨٧).

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢١٧) ، وهو جزء من حديث ابن عباس « يا غلام.. » وفي لفظ «**وأسألك الرضىٰ بعد القضاء..** » ، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧٣) ، وعزاه للطبراني والبزار ، وقال فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم : وهو ضعيف ، وقد وثِّق ، وبقية رجال أحد الإسنادين رجال الصحيح ، وأوله عند الطبراني في الكبير (٦/ ٨٨) رقم (٢٥٤٢).

(٣) أ ، غ ، ط (عين).

(٤) أ ، ب ، غ ، ح٢ (الأولىٰ).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وهو رضاهم وذمهم).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (وهو حمدهم).

(٧) (ذلك) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من ش.

وقد روىٰ عمر بن قيس المُلائي[1] عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وأن تذُمَّهم علىٰ ما لم يؤتِك الله، إن رزق الله لا يجُرُّه حرص حريص، ولا يرده كُره كارِه، وأن الله - بحكمته - جَعَل الرَّوح والفرح في الرضىٰ واليقين، وجَعَل الهم والحزن في الشك والسخط»، وقد رواه الثوري عن منصور عن خيثمة عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ[2].

السادس والخمسون: أن الرضىٰ يفرغ قلبه[3]، ويقل[4] همه وغمه، فيتفرغ

---

(١) عمر بن قيس أبو عبد الله الملائي الكوفي، سمع عكرمة مولىٰ ابن عباس، وعنه سفيان الثوري، وهو ثقة مأمون، توفي ببغداد وقيل بسجستان وقيل بالشام/ تاريخ بغداد (١٢/ ١٦٣)، حلية الأولياء (٥/ ١٠٠)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه عن ابن مسعود: هناد في الزهد (٣٠٤)، الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٥)، من طريق خالد بن يزيد العمري والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ومسند الشهاب (٢/ ٩١)، وذكر علة التدليس، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٢١)، وقال: غريب من حديث الثوري ومن حديث الأعمش تفرد به خالد بن يزيد العمري، ومثل ذلك قال في (٧/ ١٣٠)، من حلية الأولياء، وأخرجه عن أبي سعيد الخدري، أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٠٦)، تفرد به علي بن محمد ابن مروان/ وهو ضعيف، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢١)، وقال محمد بن مروان ضعيف وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١)، وقال الألباني: موضوع، السلسلة الصحيحة (٣/ ٦٧٤) ح(١٤٨٢).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (قلب العبد).

(٤) ط (يقلل).

لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها ، كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بِشر بن بشّار المجاشعي[١] - وكان من العابدين قال : قلت لعابد : أوصني ، قال ألق بنفسك مع القدر حيث ألقاك ، فهو أحرىٰ أن يُفرِّغ قلبك وأن[٢] يُقلّ همك ، وإياك أن تسخط ذلك فَيَحلّ بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به[٣][٤].

وقال بعض السلف : « ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش ، فإن التدبير والاختيار يكدر علىٰ الناس عيشهم »[٥].

وقال أبو العباس بن عطاء : « الفرح[٦] في تدبير الله لنا ، والشقاء كله في تدبيرنا »[٧] .

وقال سفيان بن عيينة: «من لم يصلح[٨] علىٰ تقدير الله لم يصلح علىٰ تقدير[٩]

---

(١) بشر بن بشار المجاشعي ، كان من السائحين ، مذكور في طبقة القائمين ، كان من الزهاد والعابدين/ حلية الأولياء (١٠/ ١٣٢ ، ١٣٣).

(٢) (أن) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم).

(٤) حلية الأولياء (١٠/ ١٣٣) ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٧٠) رقم (٧٢).

(٥) القائل : هو أبو العباس بن عطاء كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٥).

(٦) الأصل (الفرج) والصحيح المثبت من أ ، ب.

(٧) في حلية الأولياء عن سهل بن عبدالله (١٠/ ١٩٦) ، شعب الإيمان عن أبي العباس بن عطاء.

(٨) ب (يصح).

(٩) الأصل (تقديره) والصحيح ما أثبته من ق ، ط وفي أ ، ب (تقدير الله بنفسه).

نفسه »[1].

أقوال مأثورة حول تعريف الرضى

وقال أبو العباس الطُّوسي[2] : « من ترك التدبير عاش في راحة »[3].

وقال بعضهم : لا تجد السلامة حتىٰ تكون في التدبير كأهل القبور[4].

وقال : [الرضاء ترك الخلاف علىٰ الله[5] فيما يجريه علىٰ العبد][6][7].

وقال عمر بن عبد العزيز[8] : «لقد تركتني هؤلاء الدعوات ، وما لي في شيء

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٨).

(٢) أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي ، أبو العباس ، سكن بغداد وصحب الحارث المحاسبي وسرياً السقطي ، توفي في بغداد سنة ٢٩٩هـ .
شذرات الذهب (٣/ ٤١٥) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٢٥) ، تاريخ بغداد (٥/ ٣٠٦) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٩٤).

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٢١٣) ونسبه السلمي للخوَّاص في المقدمة في التصوف ضمن مجموعة آثار السلمي (٢/ ٣٨٢) ، شعب الإيمان (١/ ٢٢٥) ، بلفظ «الفرح» وقال عن أبي العباس ابن عطاء ولعله هو الصحيح ؛ لأن هذا القول موجود في مصادر الترجمة لابن عطاء ، ولم أجد الطوسي ولا قوله وابن عطاء يقال له : «البغدادي» كما في التعرف (٢٧) وغيره.

(٤) القائل : هو أبو العباس بن عطاء كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٥) ، وفي حلية الأولياء عزاه لسهل بن عبدالله (١٠/ ١٩٦).

(٥) ط (علىٰ الرب).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٧) القائل : هو أبو العباس بن عطاء كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٧) ، وعن سهل في حلية الأولياء (١٠/ ١٩٦).

(٨) ط (رحمه الله).

من الأمور كلها أرَبٌ (١) ، إلا في مواقِع قَدَر الله (٢) ، وكان كثيراً ما يدعو : اللهم رضني (٣) بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتىٰ لا أحبَّ تعجيل شيء أخَّرته ، ولا تأخير شيء عجَّلته » (٤).

وقال : « ما أصبح لي هوىٰ في شيء سوىٰ ما قضىٰ الله عزَّ وجلَّ » (٥).

وقال شُعبة (٦) : « قال لي (٧) يونس بن عبيد (٨) : ما تمنيت شيئاً قط » (٩).

---

(١) أرب. الأرب : الحاجة ، مختار الصحاح (ص١٣).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٦) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٢) ، المعرفة والتاريخ (١٠/ ٥٧٠).

(٣) غ (أرضني).

(٤) الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٥٢) رقم (٤٦) ، شعب الإيمان (٢/ ٢٢٧).

(٥) نحوه في قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، حلية الأولياء (٥/ ٣٣٠) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦) ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٨٦) رقم (٩٩) ، إتحاف السادة المتقين (١٢/ ٥٢٢).

(٦) شعبة بن الحجاج بن الورد ، الإمام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث ، قال عنه الإمام أحمد إنه من أثبت الناس ، توفي سنة ١٦٠هـ .

طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨٠) ، حلية الأولياء (٧/ ١٤٤) ، تاريخ بغداد (٩/ ٢٥٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠٣).

(٧) (لي) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٨) يونس بن عبيد العبدي بن دينار البصري ، ثقة ثبت ورع ، توفي سنة ١٣٩هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٢٦٠) ، حلية الأولياء (٣/ ١٥) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٨٨).

(٩) شذرات الذهب (١/ ٢٠٧) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٨٩) بلفظ (ما كتبت).

وقال الفضيل[١] : « الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته »[٢].

وقال ذو النون : « ثلاثة من أعلام التسليم : مقابلة القضاء بالرضىٰ ، والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، وثلاثة من أعلام التفويض : تعطيل إرادتك لمراده ، والنظر إلىٰ ما يقع من تدبيره لك ، وترك الاعتراض علىٰ الحكم ، وثلاثة من أعلام التوحيد : رؤية كل شيء من الله ، وقبول كل شيء عنه ، وإضافة كل شيء إليه »[٣].

وقال بعض العارفين أصل العبادة ثلاثة[٤] : « لا ترد من أحكامه شيئاً ، ولا تسأل غيره حاجة ، ولا تدَّخر عنه شيئاً »[٥].

وسُئل ابن شمعون[٦] عن الرضىٰ؟ فقال : « أن ترضىٰ به مُدبِّراً ومختاراً[٧] ، وترضىٰ عنه قاسماً ومُعطياً ومانعاً وترضاه[٨] إلهاً ومعبوداً ورباً »[٩].

---

(١) ط زيادة (بن عياض).

(٢) الرسالة القشيرية (٣٠٠) ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ (٣/ ٣٠) رقم (١٦) ، البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٧) ، إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٦).

(٣) حلية الأولياء (٩/ ٣٦٣) ، الرسالة القشيرية (٣٠٠) ، نحوه في قوت القلوب (٢/ ٤٦).

(٤) (ثلاثة) سقطت من ط.

(٥) نسبه ابن أبي الحواري إلىٰ الساجي في حلية الأولياء (٩/ ٣١٣).

(٦) ح٢ ، ش ، أ ، د ، ق (سمعون).

(٧) الأصل (أو مختاراً) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

(٨) ق (وترضىٰ به).

(٩) شعب الإيمان (١/ ٢٢٨).

وقال بعض العارفين: « الرضىٰ ترك الاختيار، وسرور القلب بمرِّ القضاء، وإسقاط التدبير من النفس، حتىٰ يحكم الله لها أو عليها »[١][٢].

وقيل: « الراضي من لم يندم علىٰ فائت من الدنيا، ولم يتأسف عليها»[٣].

ولله در[٤] القائل:

العبدُ ذو ضَجَرٍ والرَّب ذُو قَــدَرٍ والدَّهرُ ذُو دُوَلٍ والرِّزْق مَقْسُوم
والخيرُ أَجمَعُ فيما اختَار خالِقُنا وفي اختيار سِواه اللَّوم والشُّوم[٥]

السابع والخمسون: أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير، إما بقالبه، وإما بقلبه وحاله، ولوم المقادير لوم لمقَدِّرها، وكذلك يقع في لوم الخلق، والله والناس يلومونه[٦] فلا يزال[٧] لائماً ملوماً، وهذا مناف للعبودية.

قال أنس[٨]: «خدمت رسول الله ﷺ عَشر سنين، فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ ولا قال لشيء ليته لم يكن، ولا لشيء

(١) الأصل (وعليها) والأقرب ما أثبته من ب، غ، ط.

(٢) القائل: هو ابن الفرجي، كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٨).

(٣) القائل: هو أبو عثمان البيكندي كما في شعب الإيمان (١/ ٢٢٨).

(٤) (ولله در) سقطت من ش، ق.

(٥) عزاه في شعب الإيمان (١/ ٢٣٣)، لأبي الفوارس جنيد بن أحمد الطبري.

(٦) غ (ويلومه) و أ، ب (يلومه) و ط (يلومون).

(٧) د (يراك).

(٨) ط زيادة (رضي الله عنه).

لم يكن : ليته كان ، وكان بعض أهله إذا لامني يقول: دَعوه لو[1] قُضي لكان»[2].

وقوله «لو قضي شيء لكان» يتناول أمرين :

أحدهما : ما لم يوجد من مراد العبد .

والثاني : ما وجد مما يكرهه[3] يتناول فوات المحبوب ، وحصول المكروه، فلو قضي الأول لكان ، ولو قضي خلاف الآخر لكان ، فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلىٰ القضاء ، فعبودية العبد : [أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلىٰ رضاه][4]، وهذا موجب العبودية ومقتضاها، يوضحه :

الثامن والخمسون : أنه إذا استوىٰ الأمران بالنسبة إلىٰ رضىٰ الرب تعالىٰ ، فهذا رضيه لعبده فقدره ، وهذا لم يرضه له فلم يقدره ، [5] فكمال الموافقة : أن يستويا بالنسبة إلىٰ العبد ، فيرضىٰ ما رضيه له ربه في الحالين.

التاسع والخمسون : أن الله[6] نهىٰ عن التقدُّم بين يديه ويدي رسوله في

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فلو).

(٢) أول الحديث في البخاري. الأدب (٤/ ٩٨) ح(٦٠٣٨) ، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨٠٤) ح(٢٣٠٩) ، والحديث كله : عند أحمد (٣/ ١٠١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٩/ ٤٤٣) بلفظ (ما قدر فهو كائن) ، وفي الأحاديث المختارة للمقدسي (٥/ ٢٠٦) نحوه.

(٣) ط زيادة (وهو) و م زيادة (مما).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ .

(٥) ش (وكمال).

(٦) ط زيادة (تعالىٰ).

حُكمه الديني الشرعي ، وذلك عبودية هذا الأمر ، فعبودية أمره الكوني القدري : أن لا يتقدم بين يديه إلىٰ حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك ، فيكون التقدم أيضاً بأمره[1] الكوني والديني ، فإذا كان فرضُه الصبر و[2] ندبه ، أو فرضه الرضىٰ حتىٰ ترك ذلك : فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

الستون : أن المحبة والإخلاص والإنابة : لا تقوم إلا علىٰ ساق الرضىٰ.

فالمحب راضٍ عن حبيبه في كل حالة ، وقد كان عِمران بن حصين[3] استُسْقِي[4] بطنه ، فبقي ملقىٰ علىٰ ظهره مدة طويلة ، لا يقوم ولا يقعد ، وقد نُقِب له في سريره موضع لحاجته ، فدخل عليه مُطرِّفُ بن عبد الله ابن[5] الشِّخِّير[6] ، فجعل يبكي لما رأىٰ من حاله ، فقال[7] : لم تبكي؟ فقال : لأني

---

(١) الأصل (بأمره أيضاً) والصحيح ما أثبته من ط ، ب ، غ.

(٢) ط (أو) بإثبات الألف.

(٣) ط زيادة (رضي الله عنه) ، وهو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف ، القدوة الإمام صاحب رسول الله ﷺ ، يكنىٰ أبا نجيد الخزاعي ، أسلم هو وأبو هريرة في وقت واحد سنة سبع للهجرة ، وله عدة أحاديث ، توفي سنة ٥٢هـ/ طبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٧) ، التاريخ الكبير (٦/ ٤٠٨) ، المعارف (٣٠٩) ، سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٠٨).

(٤) استسقي : أي حصل فيه الماء الأصفر ، لسان العرب ١٤/ ٣٩٤.

(٥) (ابن) سقطت من ط.

(٦) مطرف بن عبد الله بن الشخير ، الإمام القدوة الحجة ، حدث عن أبيه وعلي وعمار وأبي ذر رضي الله عنهم ، وعنه الحسن البصري وغيره ، توفي سنة ٨٦هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ١٤١) ، تذكرة الحفاظ (١/ ٦٠) ، شذرات الذهب (١/ ١١٠) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (له عمران).

أراك علىٰ هذه الحال العظيمة[(١)] فقال : لا تبك ، فإن أحبَّه إليَّ أحبّه إليه ، وقال: أخبرك بشيء ، لعل الله أن ينفعك به ، واكتم عليَّ حتىٰ أموت ، إن الملائكة تزورني فآنس بها ، وتسلم عليَّ فأسمع تسليمها[(٢)].

ولما قدم سعد بن أبي وقاص[(٣)(٤)] إلىٰ مكة - وقد كُفَّ بصره - جعل الناس يُهرعون إليه ليدعو لهم ، فجعل يَدْعو لهم ، قال عبد الله بن السائب[(٥)] : فأتيته وأنا غُلام ، فتعرفتُ إليه ، فعرفني ، فقلت : يا عم ، أنت تدعو للناس[(٦)] ، فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك ، فتبسم ، ثم قال : يا بني ، قضاء الله عندي[(٧)] أحبُّ إليَّ من بَصري[(٨)].

---

(١) ط (الفظيعة).

(٢) قوت القلوب ٢/ ٤٩ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٤٩ ، الرضا لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ـ ٣/ ٦٤ رقم ٦٠ ، ٦١ ، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥٣٧ .

(٣) سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن كعب بن لؤي ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أهل الشورىٰ وهو أحد الثمانية الذين بادروا إلىٰ الإسلام، توفي سنة ٥٦هـ وقيل : ٥٧هـ/ سير أعلام النبلاء (١/ ٦٢) ، التاريخ الكبير (٤/ ٤٣) ، تاريخ بغداد (١/ ١٤٤).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) عبدالله بن السائب القرشي المخزومي المكي ، مقرئ مكة ، وله صحبة ورواية ، وهو من صغار الصحابة ، توفي في إمارة عبد الله بن الزبير/ طبقات ابن سعد (٥/ ٤٤٥) ، أسد الغابة (٣/ ٢٥٤) ، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٨٨).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (فيشفون).

(٧) (عندي) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

(٨) قوت القلوب ٢/ ٥٠ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠ ، إتحاف السادة المتقين١٢/ ٥٣٩ ، وورد آخره من قول عبدالله في شعب الإيمان ١/ ٢٢٣.

وقال بعض العارفين: ذنب أذنبته، أنا أبكي عليه ثلاثين سنة، قيل وما هو؟ قال: قلت لشيء كان[1] ليته لم يكن[2].

وقال بعض السلف: «لو قُرِّض جسمي[3] بالمقاريض كان أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه»[4].

وقيل لعبد الواحد بن زيد: ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده، فقال[5]: حبيبي، أخبرني عنك، هل قنعت به؟ قال: لا، قال: فهل أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا قال: فإنما مزيدك منه الصوم الصلاة؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك: أن معاملتك خمسين سنة مَدْخولة[6].

يعني أنه لم يُقرِّبه فيجعله في مقام المقربين، فيوجده مواجيد العارفين، بحيث يكون مزيده لديه: أعمال القلوب، التي يستعمل بها كل محبوب

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (قضاه الله ليته لم يقضه)، والمثبت موافق للقوت أيضاً.

(٢) قوت القلوب ٢/ ٥٠، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠، إتحاف السادة المتقين ١٢/ ٥٣٩، ونحوه في إحياء علوم الدين عن ابن مسعود ٤/ ٣٤٦، والزهد لابن المبارك ٣١، آخره في شعب الإيمان عن عبدالله بن مسعود ١/ ٢٢٣.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (لحمي).

(٤) قوت القلوب ٢/ ٥٠ وعزاه لبعض السلف في إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠ ونحوه عن ابن مسعود في إحياء علوم الدين (٤/ ٣٤٦)، حلية الأولياء (١/ ١٢٤).

(٥) ط زيادة (له).

(٦) قوت القلوب ٢/ ٥٠، إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٠، حلية الأولياء ٦/ ١٦٣.

مطلوب ؛ لأن القناعة به(١) حال الموقن(٢)، والأنس به: مقام المحب ، والرضىٰ : وصف المتوكل ، يعني أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين ، فمزيدك عنده مزيد العموم من أعمال الجوارح.

وقوله : «إن معاملته مدخولة» يحتمل وجهين :

أحدهما : أنها ناقصة عن أعمال(٣) المقربين التي أوجبت لهم هذه الحال.

الثاني : أنها لو كانت صحيحة سالمة ، لا علة فيها(٤) لأثمرت له الأنس والرضىٰ والمحبة ، والأحوال العلية ، فإن الرب تعالىٰ شكور ، إذا وصل إليه عمل عبده جمَّل به ظاهره وباطنه ، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحسب عمله ، فحيث لم يجد له أثراً في قلبه ، من الأنس والرضىٰ والمحبة : استدل علىٰ أنه مدخول ، غير سالم من الآفات.

الحادي(٥) والستون: أن أعمال الجوارح تضاعف إلىٰ حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب : فلا ينتهي تضعيفها ، وذلك أنَّ(٦) أعمال الجوارح : لها حدٌّ تنتهي إليه ، وتقف عنده ، فيكون جزاؤها بحسب حدها ، وأما أعمال

---

(١) (به) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) د ، ق (الموفق).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (معاملة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (ولا غش).

(٥) (الحادي) طمس من أ.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (لأن).

القلوب : فهي دائمة متصلة ، وإن توارىٰ شهود العبد لها[(١)]»[(٢)].

مثاله : أن المحبَّة والرضىٰ حال المحب الراضي ، لا تفارقه أصلاً ، وإن توارىٰ حكمها ، فصاحبها في مزيد متصل ، فمزيد المحب الراضي متصل بدوام هذه الحال له ، فهو في مزيد ، ولو فترت جوارحه ؛ بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا[(٣)] نسبة بينهما، ويبلغ ذلك بصاحبه إلىٰ أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام [وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع][(٤)].

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله ، وقيام غافل عن الله ، فالله سبحانه[(٥)] ينظر إلىٰ القلوب ، والهمم والعزائم ، لا إلىٰ صور الأعمال ، وقيمة العبد : هِمّته وإرادته ، فمن لا يرضيه غير الله - ولو أعطي الدنيا بحذافيرها - له شأن ، ومن يرضيه أدنىٰ حظ من حظوظها له شأن ، وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة ، وقد تكون أعمال هذا[(٦)] أكثر وأشق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،

---

(١) ح٢ (عنها).

(٢) كأنه يشير إلىٰ أن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف فيما يخص مضاعفة أعمال الجوارح.

(٣) ط (يترك).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٥) ط زيادة (إنما).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (أعمال الملتفت إلىٰ الحظوظ).

والله ذو الفضل العظيم.

وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألة، وهي: هل للرِّضىٰ حَدٌّ ينتهي إليه؟ أم لا[1] فقال أبو سليمان الدّاراني: ثلاث[2] مقامات لا حد لها: الزهد، والورع، والرضىٰ، و[3]خالفه سليمان ابنه - وكان عارفاً، حتىٰ أن من[4] الناس من كان يقدِّمه علىٰ أبيه - فقال: بل[5] من تورع في كل شيء: فقد بلغ حد الورع، ومن زهد في غير الله: فقد بلغ حد الزهد، ومن رضي عن الله في كل شيء: فقد بلغ حد الرضىٰ[6].

وقد اختلفوا في مسألة تتعلق بذلك، وهي أهل مقامات ثلاثة:

أحدهم: يُحبُّ[7] الموت شوقاً إلىٰ الله ولقائه.

والثاني: يحب البقاء للخدمة والتقرب.

الثالث قال[8]: لا أختار[9]، بل أرضىٰ بما يختار لي مولاي، إن شاء أحياني،

---

(١) (أم لا) سقطت من س، غ.

(٢) ط (ثلاثة).

(٣) (الواو) سقطت من ش.

(٤) أ، ب، غ (في) بدل (عن).

(٥) (بل) سقطت من م.

(٦) الرضىٰ عن الله بقضائه. لابن أبي الدنيا (٢/ ١١٥)، حلية الأولياء (٩/ ٢٥٨).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب (أن يحب).

(٨) ط (قال الثالث).

(٩) ق زيادة (شيئاً).

وإن شاء أماتني.

فتحاكموا إلىٰ بعض العارفين: فقال: صاحب الرضىٰ أفضلهم؛ لأنه أقلهم فضولاً[١] [٢].

مقام الرضى فوق مقام الشوق والزهد

ولا ريب أن مقام الرضىٰ فوق مقام الشوق والزهد في الدنيا.

بقي النظر في مقامي الآخرين: أيهما أعلىٰ؟.

فرجحت طائفة مقام من أحب الموت؛ لأنه في مقام الشوق إلىٰ لقاء الله ومحبة لقائه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

ورجحت طائفة مقام مريد البقاء لتنفيذ أوامر الرب تعالىٰ.

واحتجوا بأن الأول محب لحظه من الله، وهذا محب لمراد الله منه، لم يشبع منه ولم يقض منه[٣] وطراً.

قالوا: وهذه حال موسىٰ - صلوات الله وسلامه عليه - حيث لطم وجه ملك الموت ففقأ عينه[٤]، لا محبة للدنيا، ولكن لتنفيذ أوامر ربه، ومراضيه في الناس، فكأنه قال: أنت عبده وأنا عبده، وأنت في طاعته، وأنا في طاعته

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (وأقربهم إلىٰ السلامة) و ط (أقرب..).

(٢) لم أجده.

(٣) (منه) سقطت من د.

(٤) الحديث في البخاري. الأنبياء (٢/ ٤٧٨) ح(٣٤٠٧)، مسلم (٤/ ١٨٤٢) ح(٢٣٧٢)، أحمد (٢/ ٣١٥).

وتنفيذ أوامره.

وحينئذ فنقول في الوجه الثاني والستين(١) : إن حال الراضي المسلِّم ينتظم حاليهما(٢) جميعاً ، مع زيادة التسليم ، وترك الاختيار ، فإنه قد غاب بمراد ربه منه - من إحيائه وإماتته - عن مراده هو من هذين الأمرين ، وكل محب فهو مشتاق إلىٰ لقاء حبيبه ، مؤثِرٌ لمرضاته(٣) فقد أخذ بزمام كل من المقامين ، واتصف بالحالين ، وقال : «أحب ذلك إليَّ أحبه إليه» لا أتمنىٰ غير رضاه ، ولا أتخير عليه إلىٰ ما يحبه ويرضاه ، وهذا القدر كافٍ في هذا الموضع ، وبالله التوفيق.

فلنرجع إلىٰ شرح كلامه ، قال :

«الثَّاني : سُقُوطُ الخُصُومَةِ مَع(٤) الخَلْقِ».

يعني أن «الرضىٰ» إنما يصح بسقوط الخصومة مع الخلق ، فإن الخصومة تنافي حال الرضىٰ ، وتنافي نسبة الأشياء كلها إلىٰ من بيده أزمة القضاء والقدر، ففي الخصومة آفات.

أحدها : المنازعة التي تضاد(٥) الرضىٰ.

---

(١) الأصل وغيرها (والستون) والصحيح ما أثبته من ط.

(٢) ش ، ح٢ (حالهما).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (لمراضيه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (عن).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (تحاد).

الثاني : نقص التوحيد بنسبة ما يخاصم فيه إلىٰ[1] العبد دون الخالق[2].

الثالث : نسيان الموجب والسبب الذي جرَّ إلىٰ الخصومة ، فلو رجع العبد إلىٰ السبب والموجب لكان اشتغاله بدفعه أجدىٰ إليه[3] وأنفع له من خصومة من جرىٰ علىٰ يديه ، فإنه - وإن كان ظالماً - فهو الذي سلطه علىٰ نفسه بظلمه، قال[4] تعالىٰ : ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران :١٦٥] ، فأخبر أن أذىٰ عدوهم لهم ، وغلبتهم[5] بسبب ظلمهم وقال الله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ :٣٠].

فإذا اجتمعت بصيرة العبد علىٰ مشاهد القدر والتوحيد والحكمة والعدل : انسد عنه باب خصومة الخلق ، إلا فيما كان حقاً لله ورسوله ، فالراضي لا يُخاصم ولا يعاتب فيما يتعلق بحق الله ، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ ، فإنه لم يكن يخاصم أحداً ولا يعاتبه إلا فيما يتعلق بحق الله ، كما أنه كان[6] لا يغضب لنفسه ، فإذا انتهكت محارم الله لم يَقُم لغضبه شيء حتىٰ ينتقم لله[7] ،

---

(١) ح٢ (فيه العبد).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (لكل شيء).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (عليه).

(٤) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٥) ط زيادة (لهم إنما هو).

(٦) (كان) سقطت من ش.

(٧) كما في البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٠) ، مسلم. الفضائل ٠(٤/ ١٨١٣) ح(٢٣٢٧) ، أبو داود. الأدب (٥/ ١٢٤) ح(٤٧٨٥).

فالمخاصمة لحظ النفس تطفئ نور الرضىٰ، وتُذهب بَهْجته، وتبدل بالمرارة حلاوته[١] وتكدر صفوه.

[٢] «الشَّرطُ الثَّالِثُ: الخَلاَصُ مِن المسْألَةِ لهُم[٣]، وَالإِلْحَاحِ».

وذلك لأن المسألة والإلحاح[٤] فيها ضرب من الخصومة، والمنازعة والمحاربة، والرجوع عن مالك الضر والنفع إلىٰ من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بربه، وفيها[٥] الغيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضىٰ ووصفه، وقد أثنىٰ[٦] سبحانه علىٰ الذين لا يسألون الناس[٧]، فقال الله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ[٨] يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ[٩] مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

---

(١) أ، ب، غ (حلاوته المرارة).

(٢) ط (قال).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (للخلق) بدل لهم.

(٤) (الإلحاح) سقطت من ط.

(٥) أ، ب، غ (فيهما).

(٦) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (إلحافاً).

(٨) أول الآية سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق حتىٰ (يحسبهم).

(٩) أ، ح٢ (قال هنا: إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾).

فقالت طائفة : يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلىٰ سؤاله ، ولكن لا يلحفون ، فنفىٰ الله عنهم سؤالهم الإلحاف ، لا مطلق السؤال.

قال ابن عباس : إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء ، وإذا كان عنده عشاء لم[1] يسأل غداء[2].

وقالت طائفة – منهم الزَّجاج[3] ، والفراء[4] وغيرهما – بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقاً ؛ لأنهم وُصِفوا بالتعفف ، والمعرفة بسيماهم ، دون الإفصاح بالمسألة ؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال لم يحسبهم الجاهل أغنياء[5].

تفسير ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾

ثم اختلفوا في وجه قوله[6] : ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

فقال الزَّجاج: المعنىٰ لا يكون منهم سؤال، فيقع إلحاف[7]، كما قال تعالىٰ:

---

(١) ش (لا).

(٢) نسبه البغوي في تفسيره لعطاء ١/ ٢٥٩ ، وفي تفسير الواحدي ١/ ١٩١ ، من غير عزو.

(٣) الزجاج ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي ، مصنف كتاب « معاني القرآن» ، توفي سنة ٣١١هـ/ تاريخ بغداد (٦/ ٨٩) ، الكامل في التاريخ (٨/ ١٤٥) ، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠).

(٤) يحيي بن زياد بن عبد الله الفراء ، الكوفي النحوي صاحب الكسائي ، توفي سنة ٢٠٧هـ/ تاريخ بغداد (١٤/ ١٤٦) ، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٧٢) ، سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٨).

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٥٧ ، المحرر الوجيز ٢/ ٣٤١.

(٦) ط زيادة (تعالىٰ).

(٧) زاد المسير ١/ ٣٢٩ ، المحرر ٢/ ٢٤١ ، معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٥٧ ، تفسير البغوي ١/ ٢٥٩ ، معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٠٤.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر :٤٨] ، أي لا تكون شفاعة فتنفع ، و[1] قوله : ﴿لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة :١٢٣]، أي لا يكون عدل فيقبل، ونظائره ، قال امرؤ القيس[2] :

على لاحبٍ[3] لا يُهتدىٰ لمناره[4]

أي ليس له[5] منار يُهتدىٰ به[6] ، قال ابن الأنباري[7] ، وتأويل الآية : لا يسألون البتَّة ، فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلىٰ الإلحاف ، فجرىٰ[8] هذا مجرىٰ قولك : فلان يُرجىٰ خيره ، أي ليس له خير فيُرجىٰ[9].

---

(١) ط زيادة (وكما في).

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ، يكنىٰ أبا الحارث ، وقيل : أبو وهب ، وقيل : أبو يزيد ، صاحب أحد المعلقات السبع ، ولد حوالى سنة ٥٠٠م ، وتوفي سنة ٥٤٠م . / البداية والنهاية (٢/ ٢١٨-٢٢٠) ، الأغاني (٨/ ٦٢).

(٣) لاحب : اللاحب الطريق الواضح ، لسان العرب ١/ ٧٣٧.

(٤) ديوان امرؤ القيس ٩٥.

(٥) (له) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) الأصل (له) والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش ، ط.

(٧) محمد بن جعفر بن محمد الأنباري ، شيخ من علماء الحديث ، ولد سنة ٢٦٧هـ ، وتوفي سنة ٣٦٠ هـ/ سير أعلام النبلاء (١٦/ ٦٣) ، شذرات الذهب (٣/ ٣١) ، تاريخ بغداد (٢/ ١٥٠).

(٨) أ ، ب ، غ (فيجري).

(٩) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٥٧ ، الرازي في التفسير ٤/ ٨٨ ، زاد المسير ١/ ٣٢٩ ، ونقله ابن عطية عن الطبري والزجاج في المحرر ٢/ ٣٤٠.

وقال أبو علي : لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم ، لأن المعنىٰ : ليس منهم مسألة ، فيكون منهم إلحاف[1] ، قال : ومثل ذلك قول الشاعر[2] :

لا يُفزِع الأرنب أهوالها ولا ترىٰ الضَّبَّ بها ينْجَحِر[3]

أي ليس بها أرنب فيفزع[4] لهولها ، ولا ضب فينجحر

وقال الفراء: «نفىٰ الإلحاف عنهم ، وهو يريد نفي جميع وجوه[5] السؤال»[6].

فصل[7]

«والمسألة» في الأصل حرام[8] ، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة ؛ لأنها حكم المسألة ظلم في حَقِّ الربوبية ، وظلم في حَقِّ المسؤول ، وظلم في حق السائل.

أما الأول[9] : فلأنه بذل سؤاله وفقره وذلَّه واستعطاءه لغير الله ، وذلك نوع

(١) نحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٥٧ ، وتفسير الرازي ٤/ ٨٨ ، الكشاف١/ ٣٩٨.

(٢) الشاعر : لم أجده.

(٣) بيت الشعر : ذكر شطر البيت أبو السعود في تفسيره ٢/ ٩٨ ، ٨/ ١٩٢.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (فتفزع) ، وفي ط (فتفزغ).

(٥) (وجوه) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق.

(٦) تفسير الرازي ٤/ ٨٨ ، الكشاف ١/ ٣٩٨ ، زاد المسير نحوه ١/ ٣٢٨ وبنحوه في روح المعاني ٣/ ٤٧.

(٧) في ط (حكم المسألة).

(٨) حكم المسألة : أي سؤال الناس أموالهم ، ومن مواضع بحثها المغني (١٤/ ١٦٩) ، نهاية المحتاج (٦/ ١٦٩) ، طبعة مصطفىٰ الحلبي (١٣٨٦).

(٩) ح٢ (الأولىٰ).

عبودية ، فوضع المسألة في غير موضعها ، وأنزلها بغير أهلها ، وظلم توحيده وإخلاصه ، وفقره إلىٰ الله ، وتوكله عليه ورضاه بقسمه ، واستغنىٰ بسؤال الخلق[١] عن مسألته[٢] ، وذلك كله هضم[٣] من[٤] التوحيد ، ويطفئ نوره ويضعف قوته.

وأما ظلمه للمسؤول : فلأنه سأله ما ليس عنده ، فأوجب له بسؤاله عليه حقاً لم يكن له عليه ، وعرضه[٥] لمشقة البذل ، أو[٦] لَوْم المنع ، فإن أعطاهُ أعطاهُ علىٰ كراهة ، وإن منعه منعه علىٰ استحياء[٧] ، هذا إذا سأله ما ليس عليه ، وأما إذا سأله حقاً هو له عنده : لم[٨] يدخل في ذلك ، ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمه لنفسه : فإنه[٩] أراق ماء وجهه ، وذَلَّ لغير خالقه ، وأنزل نفسه أدنىٰ المنزلتين ، ورضيَ لها بأبخس[١٠] الحالتين ، ورضي بإسقاط شرف نفسه ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (الناس) ، بدل (الخلق).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (رب الناس).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (يهضم).

(٤) ط زيادة (حق).

(٥) (وعرضه) سقط من ق.

(٦) أ ، ب ، غ (ولوم) بدون ألف.

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (وإغماض).

(٨) ط (فلم).

(٩) أ (فإنما).

(١٠) بأبخس: البخس: النقص، والقصد هو الذي (لا بخس فيه ولا شطط)، مختار الصحاح (٤٢).

وعزة تعففه، وراحة قناعته، وباع صبره ورضاه، وتوكله، قناعته[1] بما قسم له، واستغناه[2] عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه، إذ وضعها في غير موضعها، وأخمل[3] شرفها وأوضع قدرها، وأذهب عزها، وصغَّرها وحقرها، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسؤول، ويده تحت يده، ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر[4]، قال: قال رسول[5] ﷺ: **«ما يزال الرجلُ يسأل الناس حتىٰ يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعَةُ لحَم»**[6]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل الناس أموالهم تكثُّراً، فإنما يسأل جمراً، فليستقلّ أو ليستكثر»**[7].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب علىٰ ظهره،[8] خير له**

---

(١) ط (وقناعته).

(٢) أ، ب، غ، د، (استغناؤه)، ط (استغناء).

(٣) أخمل: الخامل: الساقط الذي لا نباهة له، مختار الصحاح (١٩١).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنهما).

(٥) ش زيادة (النبي).

(٦) تقدم تخريجه ص ١٧٨٦.

(٧) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٠) ح(١٠٤١).

(٨) د، ش زيادة (فيتصدق به علىٰ الناس).

من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه»(١).

[وفي صحيح مسلم عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يغدو أحدكم، فيحتطب على ظهره، فيتصدق به، ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه](٢)، ذلك بأن اليد العليا أفضل(٣) من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» زاد الإمام أحمد: «ولأن يأخذ تراباً فيجعله في فيه: خير له من أن يجعل في فيه ما حرَّم الله(٤) عليه»(٥).

وفي صحيح البخاري عن الزبير بن العوام(٦)، عن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمةٍ من الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكُفَّ الله(٧) وجهه: خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»(٨).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: أن أناساً من

---

(١) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٠)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢١) ح(١٠٤٢) بلفظ «لأن يغدو»، أحمد (٢/ ٤٧٥).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من د، ش.

(٣) أ، ب، غ، ط (خير) وهو خلاف الأصل وما في مسلم.

(٤) (لفظ الجلالة) سقط من ش.

(٥) مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢١) ح(١٠٤٢)، الترمذي. الزكاة (٣/ ٥٥) ح(٦٨٠) وقال حسن غريب أحمد (٢/ ٢٥٧) مع الزيادة، البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٠) بلفظ «لأن يأخذ».

(٦) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٧) (لفظ الجلالة) سقط من ب.

(٨) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧١).

الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ نفد ما عنده، فقال لهم - حين أنفق كل شيء بيده - : «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف[1] يُعِفُّه الله، ومن يتصبَّر[2] يُصبِّره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً[3] وأوسع من الصبر»[4].

وعن عبد الله بن عمر[5] ـ رَضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال - وهو علىٰ المنبر وذَكر الصدقة والتعفُّف والمسألة - : «اليد العليا خير من اليد السُّفلىٰ، فاليد العليا[6] المنفقة، واليد السفلىٰ: هي[7] السائلة» رواه البخاري ومسلم[8].

وعن حكيم بن حزام[9] قال: سألت رسول الله ﷺ، فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم[10] قال: «يا حكيم، إنَّ هذا المال خَضِرة حُلوة، فمن أخذه

(١) الأصل (يستعف) والصحيح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب والبخاري ومسلم وأحمد.

(٢) ش (يصبر).

(٣) ق (له).

(٤) تقدم تخريجه ص١٨٤٢.

(٥) م، أ، غ، ح٢ (عامر) وهو خلاف الصواب.

(٦) (هي) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق والبخاري زيادة (هي).

(٧) (هي) ليست في مسلم.

(٨) تقدم تخريجه ص١٧٨٦.

(٩) ط زيادة (رضي الله عنه).

(١٠) (ثم) سقطت من ش.

بسخاوة نفسٍ بُورك له فيه، ومن أخذه بإِشراف نفسٍ لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ» قال حكيم فقلت: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ[1] أحداً بعدك شيئاً حتىٰ أفارق الدنيا[2]»، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يدعو حكيماً إلىٰ العطاء فيأبىٰ أن يقبله منه، ثم إن عمر - رضي الله عنه - دعاهُ ليعطيه فأبىٰ أن يقبل منه شيئاً، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين علىٰ حكيم: إني أعرض عليه حقه من هذا الفيء، فيأبىٰ أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم[3] أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتىٰ توفي متفق علىٰ صحته[4].

[5] وعن الشعبي[6] قال: حدثني كاتب المغيرة بن شعبة[7] قال: كتب مُعاوية

---

(١) أرزأ: رزأ فلان فلاناً برّه، ومنها انتقص، وأصاب منه خيراً، لسان العرب (١/ ٨٥).

(٢) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٢)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٧) ح(١٠٣٤)، أحمد (٣/ ٩١)، (٤/ ٩٢-٩٤).

(٣) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٤) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٢)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٧) ح(١٠٣٥)، أحمد (٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٤).

(٥) د، ط زيادة (وروي).

(٦) عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، علامة العصر في زمانه، يكنىٰ أبا عمرو الهمذاني ثم الشعبي، قيل إنه ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وقيل سنة ٣٢هـ، حدث عن جمع من الصحابة وعنه مكحول، وعطاء بن السائب وغيرهم، توفي سنة ١٠٥هـ/ طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٦)، المعارف (٤٤٩)، المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٩٢)، تذكرة الحفاظ (١/ ٧٤)، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٤.

(٧) كاتب المغيرة، اسمه «وراد» والمغيرة هو المغيرة بن شعبة الصحابي المشهور، سمع المغيرة

إلىٰ المغيرة بن شعبة[(١)] : أن اكْتُبْ إليَّ شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ فكتب إليه: سمعت النبي[(٢)] ﷺ يقول : « **إن الله كره لكم[(٣)] ثلاثاً[(٤)] ، قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال** » ، رواه البخاري ومسلم[(٥)].

وعن معاوية[(٦)] - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تُلْحِفوا في المسألة ، فوالله لا يسألني أحدٌ منكم شيئاً ، فتُخرج له مسألته منّي شيئاً وأنا[(٧)] كاره ، فيُبارك له فيما أعطيته** »[(٨)].

وروىٰ عنه المسيب بن رافع وعبد الملك بن عمير/ تاريخ بغداد (٨/ ١١١) ، التاريخ الكبير (٨/ ١٨٦) ، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٠٢) ، وفي حلية الأولياء (٥/ ١٧٦) اسمه «رواد».

(١) المغيرة بن شعبة ابن أبي عامر بن مسعود ، من كبار الصحابة ، شهد بيعة الرضوان ، توفي سنة ٥٠ هـ/ طبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٤) ، تاريخ الطبري (٥/ ٢٣٤) ، تاريخ بغداد (١/ ١٩١) ، أسد الغابة (٤/ ٤٠٦) ، سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١).

(٢) ش (رسول الله) بدل (النبي).

(٣) (لكم) سقط من أ ، ب ، غ.

(٤) (ثلاثاً) طمس من أ.

(٥) البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٧) ح(١٤٧٧) ، مسلم. الأقضية (٣/ ١٣٤١) ح(١٧١٥) ، أحمد (٤/ ٢٤٦).

(٦) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ، أبو عبد الرحمن الخليفة الصحابي ، أسلم قبل الفتح وكتب الوحي ، توفي في رجب سنة ٦٠ هـ/ التقريب (٢/ ٢٥٩) ، طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣) ، التاريخ الكبير (٧/ ٣٢٦) ، المعرفة والتاريخ (١/ ٣٠٥) ، تاريخ بغداد (١/ ٢٠٧).

(٧) أ ، د ، ط زيادة (له).

(٨) مسلم. الزكاة (٢/ ٧١٨) ح(١٠٣٨) ، صحيح النسائي. الزكاة (٢/ ٢٢٦) ح(٢٥٩٢) ، أحمد (٤/ ٩٨).

وفي لفظ «إنما أنا خازن ، فمن أعطيته عن طيب نفس فيُبارك له فيه ، ومن أعطيته عن مسألة وشَرَهٍ كان كالذي يأكل ولا يشبع» رواه مسلم[١].

وعن أبي مسلم الخولاني[٢] رضي الله عنه قال : حدثني الحبيب الأمين - أما هو : فَحبيب إليَّ ، وأما ما هو عندي : فأمين ، عوف بن مالك الأشجعي[٣] - قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية ، أو سبعة - فقال : «ألا تبايعون رسول الله؟» - وكنا حديثي[٤] عهد ببيعة[٥] - فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال[٦]: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : «ألا تبايعون رسول الله؟» قال : فبَسَطْنا أيدينا ، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك؟ قال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس، وتطيعوا[٧] - وأسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئاً»،

---

(١) سبق في نفس الموضع من صحيح مسلم ومسند أحمد في ص٢٠٢١.

(٢) أبو مسلم الخولاني ، عبد الله بن ثوب وقيل ثواب ، الداراني ، سيد التابعين وزاهد العصر ، قدم من اليمن ، أسلم في أيام الرسول ﷺ ودخل المدينة في خلافة الصديق، حدث عن عمر ومعاذ وأبي ذر وغيرهم ، توفي سنة ٦٢ هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٤٤٨) ، حلية الأولياء (٢/ ٢٢) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ٧).

(٣) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (حديث).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (ببيعته) وهو خلاف ما في مسلم.

(٦) الأصل (فقال) والمثبت من بقية النسخ ومسلم.

(٧) ط زيادة (لفظ الجلالة).

فلقد رأيتُ بعض أولئك النَّفر يسقُط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناولُهُ إياه» رواه مسلم(١).

وعن سمُرة بن جُندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المسألة كدٌّ يَكُد بها الرجل وجهه، إلا أن يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمر لا بدَّ منه» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح(٢).

وفي مسند الإمام أحمد عن زيد بن عقبة الفزاري(٣)، قال: دخلت علىٰ الحجاج بن يوسف(٤)، فقلت: أصلح الله الأمير، ألا أحدثك حديثاً سمعته من سَمُرة ابن جُندب عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلىٰ، قال سمعته يقول: «المسائل كدٌّ يكدّ بها الرّجُل وجهه، فمن شاء أبقىٰ علىٰ وجهه، ومن شاء ترك، إلا أن يسأل رجلاً ذا سلطان، أو يسأل في أمر لا بد منه»(٥).

---

(١) سبق تخريجه ص١٧٨٥.

(٢) سبق تخريجه ص١٧٨٧.

(٣) زيد بن عقبة الفزاري الكوفي، روىٰ عن سمرة بن جندب، وعنه ابنه سعيد وعبد الملك بن عمير ومعين بن خالد، قال العجلي: كوفي تابعي ثقة، وقال النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات/ تهذيب التهذيب (٣/ ٤١٩)، الثقات لابن حبان (٤/ ٢٤٧)، التاريخ الكبير (٣/ ٤٠٢).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (الثقفي) وهو الحجاج بن يوسف الثقفي، كان ذا شجاعة وإقدام وفصاحة وكان ظلوماً جباراً سفاكاً للدماء، ولي العراق عشرين سنة، توفي سنة ٩٥هـ/ المعارف (٣٩٥)، تاريخ ابن الأثير (٤/ ٥٨٣)، العبر (١/ ١١٢)، البداية والنهاية (٩/ ١١٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣).

(٥) أحمد (٥/ ١٠)، صحيح النسائي. الزكاة (٢/ ٢٢٩) ح(٢٦٠٠) وتقدم تخريجه ص١٧٨٧.

وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من يَتَقبَّل لي بواحدة وأتقبل له بالجنة » قال[1] : قلت : أنا ، قال : « لا تسأل الناس شيئاً » ، فكان ثوبان يقع[2] سوطه وهو راكب ، فلا يقول لأحد : ناولنيه ، حتىٰ ينزل[3] فيتناوله» رواه الإمام أحمد وأهل السنن[4].

وعن[5] ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصابته فاقة[6] ، فأنزلها بالناس : لم تُسدَّ فاقته ، ومن أنزلها بالله : أوشك الله له بالغنىٰ : إما بموت عاجل ، أو غنىٰ عاجل» رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن[7] صحيح[8].

وعن سهل بن الحنظلية قال :[9] «قدِم علىٰ رسول الله ﷺ عُيينة بن حِصن[10] ،

---

(١) (قال) سقطت من ط.

(٢) ب (يسقط).

(٣) ط زيادة (هو).

(٤) سبق تخريجه ص١٧٨٧ .

(٥) ط زيادة (عبد الله).

(٦) فاقة : الفقر والحاجة ، مختار الصحاح (٥١٥).

(٧) (حسن) سقطت من الأصل وهي فيما عداه من النسخ وفي الترمذي أيضاً.

(٨) تقدم تخريجه ص١٧٨٧.

(٩) ط (قال : قال).

(١٠) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، أسلم بعد الفتح وشهد حنيناً والطائف وكان من المؤلفة قلوبهم/ البداية والنهاية (٦/ ٥٦) ، تهذيب الأسماء والألقاب (٢/ ٤٨).

والأقرع بن حابس[١] ، فسألاه ، فأمر لهما بما سألاه ، وأمر معاوية فكتب لهما بما سألا ، فأما الأقرع فأخذ كتابه فلفَّه في عمامته وانطلق ، وأما عيينة فأخذ كتابه ، فأتىٰ النبي ﷺ بكتابه ، فقال : يا محمد ، أراني حاملاً[٢] إلىٰ قومي كتاباً لا أدري ما فيه ، كصحيفة المتلمّس[٣] ، فأخبر معاوية بقوله رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «من سأل وعنده ما يُغنيه : فإنما يستكثر من النار - وفي لفظ[٤] -: من جَمْرِ جهنم » قالوا : يا رسول الله ، وما يُغنيه؟ - وفي[٥] لفظ : ما[٦] الغنىٰ الذي لا تنبغي[٧] معه المسألة؟ - قال : « قَدْر ما يُغدِّيه و[٨]يُعشِّيه» وفي لفظ «أن يكون له شبع يوم وليلة» رواه أبو داود والإمام أحمد[٩].

---

(١) الأقرع بن حابس التميمي ، روىٰ عنه أبو هريرة/ الثقات لابن حبان (٣/ ١٨) ، الإصابة (١/ ٥٨) ، أسد الغابة (١/ ١١٩).

(٢) الأصل (حامل) والصحيح ما أثبته من ح٢ ، ط.

(٣) معجم الشعراء (٧١ ، ٢٠٢) ، الشعر والشعراء (٧٣) ، وانظر قصة المثل في جامع الأصول (١٠/ ١٥٢ ، ١٥٣).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب زيادة (آخر).

(٥) (في) سقطت من د.

(٦) الأصل (ما الغنىٰ) والبقية موافقة لما في أبي داود (وما الغنىٰ).

(٧) الأصل (لا ينبغي) والمثبت من بقية النسخ وأبي داود.

(٨) (وما) وهو خلاف بقية النسخ وأبي داود.

(٩) أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٨٠) ح(١٦٢٩) ، أحمد (٤/ ١٨١) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٩٦) وقال : رجاله رجال الصحيح.

وعن ابن الفراسي(١) أن الفِراسي قال لرسول الله ﷺ: أسأل يا رسول الله؟ قال: «لا وإن كنت سائلاً لا بُدَّ؟ فَسَلِ الصالحين» رواه النسائي(٢).

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحمَّلت حمالة، فأتيت النبي ﷺ أسأله فيها(٣) فقال: أَقِم حتىٰ تأتينا الصَّدقة فنأمر(٤) لك بها، قال(٥): ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحِلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة، فحلت له المسألة حتىٰ يصيبها ثم يُمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتىٰ يصيب قِواماً من عيش - أو قال: سَداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة(٦)، حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحِجىٰ(٧) من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلَّت له المسألة حتىٰ يصيب قِواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - فما سِواهنَّ من المسألة يا قبيصة سُحت يأكلها صاحبها سُحْتاً» رواه مسلم(٨).

---

(١) ابن الفراسي/ الإصابة (٥/ ٢٠٦)، الاستيعاب (٢/ ٥٢٢)، الثقات لابن حبان (٣/ ٣٣٢).

(٢) ورد بألفاظ متقاربة: انظر أحمد (٤/ ٣٣٤)، أبي داود. الزكاة (٢/ ٢٩٦) ح(١٦٤٦)، ضعيف النسائي للألباني. الزكاة (ص٨١) ح(٢٥٨٦)، الطبراني في الكبير (١/ ٣٣٦) ح(١٠٠٤)، ضعيف أبي داود للألباني (رقم ٢٩٢)، شعب الإيمان (٣/ ٢٧٠)، التمهيد (٤/ ١٠٧)، المشكاة (١/ ٥٨٠) ح(١٨٥٣).

(٣) (فيها) سقطت من م، أ، د، ط.

(٤) ط (نأمر).

(٥) (قال) سقطت من ط.

(٦) (فاقة) سقطت من د.

(٧) الحِجىٰ: العقل والفطنة، لسان العرب (١٤/ ١٦٥).

(٨) تقدم تخريجه ص١٧٨٨.

وعن عائِذ بن عمرو[1] رضي الله عنه أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فسأله ، فأعطاه ، فلما وضَع رِجله علىٰ أُسْكُفَّة[2] الباب ، قال رسول الله ﷺ : **« لو تعلمون[3] ما في المسألة ما مشىٰ أحد إلىٰ أحدٍ يسأله شيئاً»** رواه النسائي[4].

وعن مالك بن نضلة[5] قال : قال رسول الله ﷺ : **« الأيدي ثلاثة ، فيَدُ الله : العليا ، ويَدُ المعطي : التي تليها ، ويدُ السائل : السفلىٰ ، فأعط الفضْل ، ولا تعجز عن نفسك»** رواه الإمام أحمد وأبو داود[6].

وعن ثوبان[7] عن النبي[8] ﷺ قال : **«من سأل مسألة وهو عنها غني كانت**

(١) عائذ بن عمرو المزني ، من أصحاب الشجرة ومن خيار الصحابة/ التاريخ الكبير (٧/ ٥٨) ، طبقات ابن سعد (١٧/ ٣١) ، تهذيب التهذيب (٥/ ٧٧).

(٢) أسكفَّة : عتبة الباب . المعجم الوسيط (١/ ٤٣٩).

(٣) ط ، الأصل (يعلمون) والمثبت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب والنسائي.

(٤) النسائي. الزكاة (٥/ ٩٥) وحسّنه الألباني في صحيح النسائي (٢/ ٢٢٤) ح(٢٥٨٥) ، أحمد (٥/ ٦٥) ، الترغيب والترهيب (١/ ٥٧٣) ، وأورده في كنز العمال برقم (١٦٧٢٢).

(٥) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٦) أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٩٨) ح(١٦٤٩) ، أحمد (١/ ٤٤٦) ، الحاكم في المستدرك (١/ ١٠٢) ح(٤٠٨) ، شرح السنة (٦/ ١١٤) ح(١٦١٨) ، الترغيب والترهيب (٢/ ١٠) ، وقال الغالب علىٰ رواته التوثيق ، وقال الحافظ في الفتح إسناده صحيح (٣/ ٢٣٦) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٩٧).

(٧) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٨) ط (رسول الله).

شيئاً في وجهه يوم القيامة» رواه الإمام أحمد [(١)].

وعن عبد الرحمن بن عوف[(٢)] ـ رَضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ، والذي نفس محمد بيده، إن كنتُ لحالفاً عليهن: لا ينقص مال من صدقة، فتصدَّقوا، ولا يعفو عبدٌ عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقرٍ» رواه الإمام أحمد[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري[(٤)]، قال: سَرَّحَتني أمي إلىٰ رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني، فقال: «من استغنىٰ أغناه الله، ومن استعف أعفَّه الله، ومن استكفىٰ كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية، فقد[(٥)] ألحف»، فقلت: ناقتي الياقوتة[(٦)] هي خير من أوقية، ولم أسأله. رواه الإمام أحمد

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨١)، والدارمي في الزكاة (١/ ٣٢٥) ح(١٦٤٧)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣٢٤)، وعزاه لأحمد والطبراني وقال رجال أحمد محتج بهم في الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٣٣٦) ح(٧٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٩٦)، رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن كعب بن لؤي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، توفي سنة ٣٢هـ ودُفن في البقيع / سير أعلام النبلاء (١/ ٦٨)، طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٤).

(٣) أحمد (٤/ ٢٣١) (١/ ١٩٣)، الترمذي (٤/ ٧٦٢) ح(٢٣٣١) وقال حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٣٤٤) رقم (٨٠٨).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) أ، ب، غ (فلقد).

(٦) في الأصل وأبي داود وأحمد وفي م، أ، ح٢، ق (الياقية)، ب (الساقية).

وأبو داود[١].

وعن خالد بن عدي الجهني[٢] عن رسول الله ﷺ قال[٣]: «من جاءه من أخيه معروف من[٤] غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هو رِزق ساقه الله إليه» رواه الإمام أحمد[٥].

فهذا أحد المعنيين في قوله: «**إِنَّ**[٦] **مِن شُرُوطِ الرِّضَىٰ: تَرْكُ الإِلحَاحِ فِي المَسْأَلَةِ**» وهو أليق المعنيين وأولاها[٧]؛ لأنه قرنه بترك الخصومة مع الخلق، فلا يخاصمهم في حقه، ولا يطلب منهم حقوقه.

---

(١) أحمد (٣/ ٩)، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٧٩) ح(١٦٢٨)، النسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٥٢)، الدارقطني (٢/ ١١٨)، وأورده ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٠٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤/ ٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٤٢) ح(٦٠٢٧).

(٢) ط زيادة (رضي الله).

(٣) (قال) سقطت من م.

(٤) الأصل (عن) والمثبت من البقية والمسند.

(٥) أحمد (٤/ ٢٢٠)، صحيح ابن حبان (٨/ ١٩٦)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٧١) وقال صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، الطبراني في الكبير (٤/ ١٩٦) ح(٣٧٩) (٥/ ٢٤٨)، وأورده الألباني وصححه بالشواهد، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٥) رقم (١٠٠٥)، ونحوه في المسند عن أبي هريرة (٢/ ٣٢٣)، وفي الباب حديث عمر في البخاري. الزكاة (١/ ٤٥٦) ح(١٤٧٣)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٢٣) ح(١٠٤٥)، أحمد (٦/ ٢٥٩).

(٦) أ، ب (إنه).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (وأولاهما).

والمعنىٰ الثاني : أنه لا يُلِحُّ في الدعاء ، و(١) يبالغ فيه ، فإن ذلك يقدح في رضاه وهذا يصح من(٢) وجه دون وجه ، فيصح إذا كان الداعي يلح في الدعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة ، وأما إذا ألح علىٰ الله في سؤاله ما(٣) فيه رضاه والقرب منه : فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضىٰ أصلاً ، وفي الأثر «إنَّ الله يحبُّ الملحين في الدعاء»(٤) ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - يوم بدر - للنبي ﷺ : يا رسول الله ، قد ألححت علىٰ ربِّك ، كفاك بعض مناشدتك لربك(٥) . فهذا الإلحاح عين العبودية.

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة(٦) قال : قال رسول

---

(١) أ ، ب ، غ (ولا).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (في) بدل (من).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط ، د ، ق (بما).

(٤) الدعاء للطبراني (ص٢٨) عن عائشة ، ومسند الشهاب (٢/ ١٤٦) ، شعب الإيمان (٢/ ٢٨) ح(١١٠٨) ، ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٦٢١) ، وقال هذه الأحاديث التي رواها يوسف عن الأوزاعي كلها بواطيل ، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٥٢) ، وذكره ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٩٥) ، والألباني في إرواء الغليل (٣/ ١٤٣) ، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٧) ، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٦٣٧) باطل.

(٥) مسلم. الجهاد والسير (٣/ ١٣٨٣) ح(١٧٦٣) بلفظ (كذاك) ، الترمذي. التفسير (٥/ ٢٦٩) ح(٣٠٨١) ، أحمد (١/ ٣٢) بدون (ألححت) ، تفسير القرطبي (٤/ ١٩٣) ، وفي البخاري جزء منه. التفسير (٣/ ٣٠١) ح(٤٨٧٥).

(٦) ط زيادة (رضي الله عنه).

الله ﷺ : «من لم يسأل الله يغضب عليه» [١].

فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه.

وحقيقة الرضىٰ : موافقته سبحانه في رضاه ، بل الذي ينافي الرضىٰ : أنه [٢] يلح عليه ، متحكماً عليه متخيراً عليه [٣] ما لم يعلم : هل يرضيه أم لا؟ كمن يلح علىٰ ربه في ولاية شخص ، أو إغنائه ، أو قضاء حاجته ، فهذا ينافي الرضىٰ ؛ لأنه ليس علىٰ يقين أن مرضاة الرب في ذلك.

فإن قيل : فقد يكون للعبد حاجة يباح له سؤالها [٤] فيلح علىٰ ربه في طلبها حتىٰ يفتح له من لذيذ مناجاته وسؤاله ، والذل بين يديه وتملقه [٥] ، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وتفريغ القلب له ، وعدم تعلقه في حاجته

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ (من لم يدع الله) ، وأحمد (٢/ ٢٧٧) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٢٠٠) ، والترمذي (٥/ ٤٥٦) ، وقال لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، الأدب المفرد (٦٥٨) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩١) ، والبغوي في شرح السنة (١٣٨٩) ، وصححه الألباني في شرح الطحاوية (٥١٩) ، وفي السلسلة الصحيحة رقم(٢٦٥٤) ، وفي سنده الخوزي وهو ليّن الحديث كما في تهذيب الكمال (٣٣/ ٤١٨) ، وفي شاهده عند الطبراني في الدعاء (٢٤) ، حماد والكلبي والمبارك ابن أبي حمزة وهما ضعيفان ، كما في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٣٠) ، وباللفظ الذي ذكره المؤلف أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٤٢).

(٢) أ ، ب ، غ (أن).

(٣) الأصل سقطت (متخيراً عليه) والمثبت من بقية النسخ و ط.

(٤) ط (سؤله إياها).

(٥) تملقه : سبق ص١٩٥٨.

بغيره - : ما لم يحصل له بدون الإلحاح ، فهل يُكره له[1] هذا الإلحاح ، وإن كان المطلوب حظاً من حظوظه؟.

قيل هاهنا ثلاثة أمور :

أحدها : أن يفنىٰ بمطلوبه وحاجته عن مراده[2] ورضاه عنه[3] ويجعل الرب تعالىٰ وسيلة إلىٰ مطلوبه ، بحيث يكون أهم إليه منه ، فهذا ينافي كما الرضىٰ به وعنه.

الثاني : أن يفتح علىٰ قلبه - حال[4] السؤال - من معرفته[5] و محبته ، والذل له ، والخضوع والتملق : ما ينسيه حاجته ، ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته ، بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال ، وتكون آثر عنده من حاجته ، وفرحه بها[6] أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك ، فهذا لا ينافي رضاه.

[7]قال بعض العارفين : إنه لتكون[8] لي الحاجة[9] إلىٰ الله ، فأسأله إياها ،

---

(١) (له) سقطت من ش.

(٢) ش (مراد ربه).

(٣) (عنه) سقطت من ط ، وفي ق (منه).

(٤) ش (باب) بدل (حال).

(٥) أ ، ب ، غ (معرفة الله).

(٦) (بها) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٧) أ ، ب ، غ ، ط (وقال).

(٨) ط (ليكون).

(٩) أ ، ب ، غ ، م ، ط (حاجة).

فيفتح عليَّ من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر[1] قضاءها، وتدوم لي تلك الحال[2].

وفي أثر: إن العبد ليدعو ربه[3]، فيقول الله[4] لملائكته: اقْضوا حاجة عبدي وأخروها، فإني أحب أن أسمع دعاءه، ويدعوه آخر، فيقول الله لملائكته: اقضوا حاجته وعجلوها له[5] فإني أكره صوته[6].

وقد روىٰ الترمذي وغيره عن عبدالله بن مسعود[7] قال: قال رسول الله ﷺ: [**«إن الله يحبُّ أن يُسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج»**[8].

---

(١) ط (عني).

(٢) ح٢ (الحالة).

(٣) أ، ب، غ (عزّ وجلّ).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (عزّ وجلّ).

(٥) (له) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٦) عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل ..» ثم ساق الأثر، مسند الحارث «زوائد الهيثمي» (٢/ ٩٦٦)، شعب الإيمان (٧/ ٢١١) رقم (١٠٠٣٤، ١٠٠٣٥).

(٧) ط (رضي الله عنه).

(٨) الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٦٥) ح(٣٥٧١)، وعزاه لأبي نعيم من طريق آخر مرسلاً، وقال أشبه أن يكون أصح، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣١٦) ح(٢٥٣٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٢٤) ح(١٠٠٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٣)، والمزي في تهذيب الكمال (٧/ ٢٩١)، وابن أبي الدنيا في القناعة - الموسوعة - (١/ ٤٥) رقم(٩٧)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٢٤٨)، ثم قال وهذا الحديث يعرف بحماد بن واقد عن محمد بن ذكوان ولحماد بن واقد أحاديث ليست بالكثيرة، وعامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات،

وروي أيضاً من حديث أبي هريرة(١) قال : قال رسول الله ﷺ](٢) : «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد ، فليكثر من الدعاء في الرَّخاء»(٣).

وروي أيضاً من حديث أنس(٤) ، أن رسول الله ﷺ قال : «ليسألَ أحدكم ربَّه حاجته ، حتىٰ يسأله المِلْح ، وحتىٰ يسأله شِسْع نعله إذا انقطع»(٥).

وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٥٨) ، وقال حسَّن إسناده ابن حجر في بعض حواشيه وضعفه العراقي ، وحماد بن واقد ضعيف جداً ، انظر تهذيب الكمال (٧/ ٢٩٨) ، وفي المرسل حكيم بن جبير ضعيف جداً ، انظر تهذيب الكمال (٢/ ٣٩٩) ، والحديث ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٤٩٢).

(١) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٣) الترمذي. الدعاء (٥/ ٤٦٢) ح(٣٣٨٢) ، وقال حسن غريب ، الحاكم في المستدرك (١/ ٧٢٩) (١/ ٥٤٤)، وصحح سنده وافقه الذهبي، والبغدادي في تاريخ بغداد (١/ ٤١٤) ، وفي الكامل لابن عدي (٥/ ١٩٩٠) ، وقال : عبيد بن واقد له غير ما ذكرت من الحديث ، وعامة ما يرويه لا يتابع عليه ، ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية رقم (١٤١٠) وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٢/ ١٤٢) ح(٥٩٣).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنه).

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٧) ، والبزار في كشف الأستار (٣١٣٥) ، وأبو يعلىٰ في مسنده (٣٤٠٣) ، وابن عدي في الكامل (٦/ ٥٣) ، والطبراني في الدعاء (٢٥) ، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٨٩٤) ، والمزي في تهذيب الكمال (٢٣/ ٦٢٠) ، وابن حجر في فتح الباري (٢/ ٣٠٠) ، والحديث لا يصح إلا مرسلاً كما رجح ذلك الترمذي في الحديث رقم (٣٦٠٤) ، وكذلك رجح إرساله وبطلانه مرفوعاً القواريري ووافقه ابن عدي كما في الكامل (٦/ ٥٣) ، وأعله ابن المديني كما في العلل له (٧٢) ، وقال الهيثمي في مجمع

وفيه أيضاً عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما سُئل الله شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العافية[1] ، وإن الدعاء لينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عبادَ الله بالدُّعاء»[2].

[3]فإذا كان هذا محبة[4] الرب تعالىٰ للدعاء ، فلا ينافي الإلحاح فيه الرضىٰ.

الزوائد (١٠/ ٢٢٨) ، رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة ، وحسَّنه ابن حجر كما في زوائد البزار (٢/ ٤٢٧) ، وروي موقوفاً علىٰ عائشة بلفظ « سلوا الله كل شيء حتىٰ الشسع.. » رواه أبو يعلىٰ في مسنده (٥/ ٤٥) ، وعزاه إليه ابن حجر كما في المطالب العالية (٣/ ٢٣٢) ، وقد أجاد الألباني في بحث هذا الحديث وبيان ضعفه في سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (١٣٦٢).

(١) (العافية) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٥٢) ح(٣٥٤٨) ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي ، وهو ضعيف من قِبَل حفظه ، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٨) ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي في التلخيص وقال : (يعني عبدالرحمن ابن أبي بكر) ضعيف (١/ ٤٩٨) ، والمليكي مجمع علىٰ تضعيفه كما في تهذيب التهذيب (٦/ ١٣٣) ، تهذيب الكمال (١٦/ ٥٥٣) ، ويغني عنه حديث العباس بن عبدالمطلب : قلت يا رسول الله علِّمني شيئاً أسأله الله فقال لي : يا عباس ، يا عم رسول الله : «سل الله العافية.. » ، أخرجه أحمد (١/ ٢٠٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٢٤) ، والترمذي برقم (٣٥١٤) ، وقال صحيح ، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٦) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٢٣).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (وإذا) ، و ط (وإن).

(٤) ح٢ (يحبه).

الثالث : أن ينقطع طمعه عن(١) الخلق ، ويتعلق بربه في طلب حاجته ، (٢) قد أفرده بالطلب ، (٣) لا يلوي علىٰ ما وراء ذلك ، فهذا قد تنشأ له المصلحة من نفس الطلب ، وإفراد الرب بالقصد.

والفرق بينه وبين الذي قبله : أن ذلك قد فُتح عليه بما هو أحب إليه من حاجته ، فهو لا يبالي بفواتها بعد ظَفَره بما فتح(٤) عليه ، وبالله التوفيق.

فصل

الدرجة الثالثة من درجات الرضى

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : الرِّضَىٰ بِرِضَىٰ الله(٥) ، فَلَا يرَىٰ العَبدُ لِنَفسِهِ سُخطاً ، وَلَا رِضَىٰ فَيَبعَثهُ عَلىٰ تَركِ التَّحَكُّمِ(٦) وَحَسم الاختِيَارِ ، وَإِسقَاطِ التَّمييزِ ، وَلَو أُدخِلَ النَّارَ»(٧) .

إنما كانت هذه الدرجة أعلىٰ مما قبلها من الدرجات عنده : لأنها درجة صاحب الجمع ، الفاني بربه عن نفسه وعما منها(٨) ، قد غيبه شاهد رضىٰ الله

(١) م ، ح٢ ، ط (من).

(٢) ط (وقد).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ولا).

(٤) أ ، ب ، غ زيادة (الله).

(٥) الأصل (عزّ وجلّ) وليس في بقية النسخ ولا في المنازل أيضاً.

(٦) ش (التحكيم).

(٧) منازل السائرين (٤١).

(٨) قوله : (وعما منها) أي ما يصدر منه من أعمال وطاعات ، إشارة إلىٰ عدم رؤية العمل والإعجاب به.

بالأشياء في وقوعها علىٰ مقتضىٰ مشيئته عن شاهد[1] رضاه هو ، فيشهد الرضىٰ لله ومنه حقيقة ، ويرىٰ نفسه فانياً ، ذاهباً مفقوداً ، فهو يستوحش من نفسه ، ومن صفاتها ، ومن رضاها ، و[2] سخطها ، فهو عامل علىٰ التغيب عن وجوده وعما منه ، مترام إلىٰ العدم المحض ، قد[3] تلاشىٰ وجوده ونفسه وصفاتها في وجود مولاه[4] الحق وصفاته وأفعاله ، كما يتلاشىٰ ضوء السراج الضعيف في جرم الشمس ، فغاب برضىٰ ربه عن رضاه هو [5] عن ربه في أقضيته وأقداره ، وغاب بصفات وجود ربه عن صفاته ، وبأفعاله عن أفعاله ، فتلاشىٰ وجوده وصفاته وأفعاله في جنب وجود ربه وصفاته ، بحيث صار كالعدم المحض ، وفي هذا المقام لا يرىٰ لنفسه رضىٰ ولا سخطاً ، فيوجب له هذا الفناء : ترك التحكم علىٰ الله بأمر من الأمور ، وترك التخير عليه ، فتذهب مادة التحكم وتفنىٰ ، وتنحسم مادة الاختيار وتتلاشىٰ ، وعند ذلك يسقط تمييز العبد ويتلاشىٰ ، هذا تقرير[6] كلامه.

وبعد ، فهاهنا أمران :

---

(١) ق (شاهده).

(٢) أ ، ب ، غ زيادة (ومن).

(٣) ق (فلا).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (الملك).

(٥) ط (وعن).

(٦) أ ، غ ، ق ، ط (تقدير).

أحدهما : أن هذا حال يعرض ، لا مقام يطلب ، ويُشَمَّرُ إليه ، فإن هذه الحال متىٰ عرضت له وارَتْ عنه تمييزه ، ولا يمكن أن يدوم له ذلك ؛ بل يقصر زمنه ويطول ، ثم يرجع إلىٰ تمييزه وعقله ، وصاحب هذه الحال مغلوب: إمّا سَكْران بحاله ، وإما فانٍ عن وجوده ، والكمال وراء ذلك ، وهو أن يكون فناؤه(١) عن إرادته بإرادة ربه منه ، فيكون باقياً بوجود آخر غير وجوده(٢) الطبيعي ، وهو وجود مطهر(٣) كائن بالله ، ولله ، ومع الله ، وصاحبه(٤) هذا(٥) في مقام : «فَبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش» ، قد فني عن وجوده الطبيعي النفسي ، وبقي بهذا الوجود العلوي القدسي ، فيعود عليه تمييزه ، وفرقانه ، ورضاه عن ربه تعالىٰ ، ومقامات إيمانه ، وهذا أكمل وأعلىٰ من فنائه عنها كالسكران.

فإن قلت : فهل يمكن وصوله إلىٰ هذا المقام من غير درْب الفناء ، وعبوره إليه علىٰ غير جسره؟.

قلت : اخْتُلِفَ في ذلك ، فطائفة ظنت أنه لا يصل إلىٰ البقاء ، وإلىٰ هذا

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (فانياً) بدل (فناؤه).

(٢) ق (معبوده).

(٣) م ، ح٢ ، د (مظهر).

(٤) أ ، غ ، ط (صاحب).

(٥) (هذا) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق.

الوجود المطهر(١) إلا بعد عبوره علىٰ جسر الفناء ، [فعدّوه لازماً من لوازم السير إلىٰ الله.

وقالت طائفة : بل يمكن الوصول إلىٰ الله(٢) علىٰ غير درب الفناء ، والفناء عندهم عارض(٣) ، لا(٤) لازم ، وسببه : قوة الوارد ، وضعف المحل ، واستجلابه بتعاطي أسبابه.

والتحقيق : أنه لا يصل إلىٰ هذا المقام](٥) إلا بعد عبوره علىٰ جسر الفناء ، عن مُراده بمُراد سيِّده ، فما دام لم يحصل له هذا الفناء ؛ فلا سبيل له إلىٰ ذلك البقاء. وأما فناؤه عن وجوده : فليس بشرط(٦) لذلك البقاء ، ولا هو من لوازمه.

وصاحب هذا المقام : هو في رضاه عن ربه بربه لا بنفسه(٧) ، فيرىٰ ذلك كله

---

(١) م ، ح٢ ، د (المظهر).

(٢) د ، ق (البقاء) بدل (لفظ الجلالة).

(٣) د ، ق زيادة (من عوارض الطريق).

(٤) (لا) سقطت من م ، ش.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح٢.

(٦) ط (شرطاً).

(٧) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (كما هو في توكله وتفويضه ، وتسليمه ، وإخلاصه ، ومحبته ، وغير ذلك من أحواله بربه لا بنفسه).

من عين المنَّة والفضل، مستعملاً فيه، قد أقيم فيه[1]، لا أنه قد قام هو به، فهو واقف بين مشهد ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ومشهد ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير :٢٨، ٢٩]، والله المستعان.

* * *

(١) (فيه) سقطت من ش.

فصـــل(١)

منزلة الشكر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : « الشكر »(٢).

وهي من أعلىٰ المنازل ، وهي فوق منزلة «الرضىٰ» فإنه يتضمن الرضىٰ وزيادة(٣) فالرِّضىٰ مُندرج في الشكر ، إذا يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان - كما تقدم - والإيمان(٤) نصفان : نصف شكر ، ونصف صبر.

وقد أمر الله به ، ونهىٰ عن ضده ، وأثنىٰ علىٰ أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سبباً للمزيد من فضله ، وحارساً وحافظاً لنعمته ، وأخبر أن أهله هم(٥) المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسماً من أسمائه ، فإنه سبحانه هو «الشكور»(٦) وهو

---

(١) في حاشية الأصل ، ش (باب الشكر) ، ط (منزلة الشكر).

(٢) منزلة الشكر : هي عندهم أحد أقسام الأخلاق التي هي بمنزلة أركان الصلاة ، وهو اسم لمعرفة النعم ؛ لأنها السبيل إلىٰ معرفة المنعم ، وهو اعتراف بالنعمة بنعت الاستكانة ، واتصاف بالوفاق والخدمة ، واعتكاف علىٰ بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، وقال بعضهم هو الغيبة عن الشكر برؤية المنعم.. ينظر في ذلك لطائف الإعلام ٢/ ٤١ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٤١ ، التعرف ١١٨.

(٣) (فإنه يتضمن الرضىٰ) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٤) ش زيادة (هو).

(٥) (هم) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) قال تعالىٰ : ﴿والله شكور حليم﴾[التغابن : ١٧].

موصل[١] الشاكر إلىٰ مشكوره ؛ بل يعيد الشاكر مشكوراً ، وهو غاية رضىٰ[٢] الرب من عبده ، وأهله هم القليل من عباده ، قال[٣] تعالىٰ : ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ[٤] ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل :١١٤] ، وقال : ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة :١٥٢] ، وقال عن خليله إبراهيم ﷺ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل : ١٢٠، ١٢١] ، وقال عن نوح - عليه السلام - :﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء :٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا[٥] وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨] ، [وقال تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾][٦][البقرة :١٥١-١٥٢] ، [٧]وقال تعالىٰ :﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران :١٤٤] ، وقال[٨] : ﴿وَإِذْ

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (يوصل).

(٢) (رضىٰ) سقطت من ط.

(٣) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٤) (نعمة) سقطت من جميع النسخ سوىٰ غ ، ط.

(٥) م (إلىٰ قوله : ﴿لعلكم تشكرون﴾).

(٦) الآية التي بين المعقوفين سقطت من ط ، ومن أ ، ب ، غ (إلىٰ قوله : ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾).

(٧) ط (وقال تعالىٰ :﴿واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾).

(٨) ط زيادة (تعالىٰ).

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم :٧] وقال[1] :﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم :٥ ، لقمان :٣١ ، سبأ :١٩ ، الشورىٰ :٣٣].

وسمىٰ نفسه «شاكراً»[2] «وشكوراً»[3] ، وسمىٰ الشاكرين بهذين الاسمين ، فأعطاهم من وصفه ، وسماهم باسمه ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وإعادته للشاكر[4] مشكوراً، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان :٢٢] ورضىٰ الرب عن عبده به ، كقوله : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر :٧] وقلة أهله في العالمين تدل علىٰ أنهم هم خواصه ، كقوله تعالىٰ[5] : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ :١٣] ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتىٰ تورمت قدماه ، فقيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال[6] : «أفلا أكون عبداً شكوراً»[7].

وقال لمعاذ[8] : «والله يا معاذ ، إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول في دبر كل

---

(١) ط زيادة (تعالىٰ).

(٢) قال تعالىٰ : ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾ [النساء : ١٤٧].

(٣) قال تعالىٰ : ﴿إن الله غفور شكور﴾ [الشورىٰ :٢٣].

(٤) ح٢ (الشاكر).

(٥) (تعالىٰ) سقطت من ط.

(٦) ط (فقال).

(٧) البخاري. التفسير (٣/ ٢٩٣) ح(٤٨٣٦) ، مسلم. صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٧١) ح(٢٨١٩) ، أحمد (٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٥) (٦/ ١١٥).

(٨) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي ، الإمام المقدم في

صلاة : اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك»[1].

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي[2] ﷺ : «كان يدعو بهؤلاء الكلمات : اللهم أعنِّي ولا تُعن عليَّ ، وانصرني ولا تنصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ[3] ، واهدني ويسِّر الهدىٰ لي ، وانصرني علىٰ من بغىٰ عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكَّاراً لك ذكَّاراً ، لك رهَّاباً ، لك مُطواعاً[4]، لك[5] مخبتاً ، إليك أوّاهاً منيباً ربِّ تقبل توبتي ، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبِّت حجَّتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، واسلل سخيمة صدري»[6].

علم الحلال والحرام ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، بعثه النبي ﷺ إلىٰ اليمن ، توفي سنة ١٧ هـ/ طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٧) ، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٣) ، الإصابة (٦/ ١٠٦).

(١) أحمد (٥/ ٢٤٥) ، أبو داود. الصلاة (٢/ ١٨١) ح(١٥٢٣) ، المستدرك (١/ ٢٧٣) ، وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وقال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٣٣) ، أخرجه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم ، النسائي في السنن الكبرىٰ (٦/ ٣٢) ، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٧٩).

(٢) ط (رسول الله).

(٣) ط (بي).

(٤) ط (مطاوعاً).

(٥) (لك) سقطت من أ.

(٦) أحمد (١/ ٢٢٧) ، الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٥٤) ح(٣٥٥١)، وقال حسن صحيح، أبوداود. الصلاة (٢/ ١٧٥) ح(١٥١٠) ، ابن ماجه. الدعاء (٢/ ١٢٥٩) ح(٣٨٣٠) ، وابن حبان رقم(٦٨٢٩) ، وقال الألباني إسناده صحيح ، شرح السنة (١/ ١٦٨) ح(٣٨٤).

فصــل

وأصل «الشكر» في وضع[١] اللسان[٢]: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً، يقال: شكِرَتْ الدابة تَشْكَر شَكَراً علىٰ وزن سَمِنَت تَسْمَن سَمَناً: إذا ظهر عليها أثر العَلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما[٣] تعطَىٰ من العلف. تعريف الشكر في اللغة

وفي صحيح مسلم «حتىٰ إن الدواب لتشْكَر من لحُومِهم»[٤]، أي لتسمن[٥] من كثرة ما تأكل منها.

وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله علىٰ لسان عبده: ثناء واعترافاً، وعلىٰ قلبه: شهوداً ومحبة، وعلىٰ جوارحه: انقياداً وطاعة.

و«الشكر» مبني علىٰ خمس قواعد: خُضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافهُ بنعمته، والثناء[٦] عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

---

(١) ب (موضع).

(٢) لسان العرب ٤/ ٤٢٣، ٤٢٤.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (ما تأكل و).

(٤) أحمد (٥/ ٥١٠)، الترمذي. تفسير القرآن (٥/ ٣١٣) ح(٣١٥٣)، وقال حسن غريب، ابن ماجه. الفتن (٢/ ١٣٦٥) ح(٤٠٨٠)، الحاكم (٤/ ٤٨٨)، وقال علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولم أجده في مسلم.

(٥) (اللام) سقطت من د، ش، م، ح٢.

(٦) ط (وثناؤه).

فهذه الخمسة[1] هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتىٰ عُدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحَدِّه، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور.

المعنى الاصطلاحي للشكر

فقيل: حده أنه[2] الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع[3].

وقيل: الثناء علىٰ المحسن بذكر إحسانه[4].

وقيل: هو عكوف القلب علىٰ محبة المنعم، والجوارح علىٰ طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه.

وقيل: وهو مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة[5].

وما ألطف[6] ما قال حمدون القصار[7]: شكر النعمة أن ترىٰ نفسك فيها

---

(١) ط (الخمسة).

(٢) (أنه) سقطت من أ، ب، غ، ح٢.

(٣) الرسالة القشيرية قال: قال الأستاذ: فذكره ٢٧٦، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٤، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٤) الرسالة القشيرية قال: قال الأستاذ: فذكره ٢٧٦، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٤، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٥) القائل: أبو بكر الوراق، الرسالة القشيرية ٢٧٦، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٦) الأصل (وأما ألطف) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٧) حمدون بن أحمد القصار النيسابوري شيخ الصوفية صحب أبا تراب النخشي وأبا حفص النيسابوري، جمع السلمي جزءاً من حكاياته، توفي سنة ٢٧١هـ/ حلية الأولياء (١٠/ ٢٣١)، المنتظم (٥/ ٨٥)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٠).

طفيلياً[1][2].

وقال أبو عثمان : الشكر معرفة العجز عن الشكر[3].

وقيل : الشكر إضافة النعم إلىٰ موليها بنعت[4] الاستكانة له[5].

وقال الجنيد : الشكر أن لا ترىٰ نفسك أهلاً للنعمة[6].

هذا معنىٰ قول حمدون : «أن يرىٰ نفسه فيها طُفيلياً[7]»[8].

وقال رويم[9] : الشكر استفراغ الطاقة[10].

وقال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة[11].

قلت : يحتمل كلامه أمرين :

---

(١) ط (ضفيلاً).

(٢) الرسالة القشيرية ١٧٦ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٥ ، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٣) الرسالة القشيرية (٢٧٧) ، عدة الصابرين ٢٣٣ ، ومعناه في إحياء علوم الدين ٤/ ٨٥.

(٤) م (بنعمت).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٧٧ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٨٥ ، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٧) د (طفيلاً).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٧٦.

(٩) رويم بن أحمد أبو الحسن ، بغدادي الأصل ، من جملة مشايخ بغداد ، توفي سنة ٣٠٣هـ / صفة الصفوة (٢/ ٢٨٥) ، حلية الأولياء «١٠/ ٢٩٦» ، طبقات الشعراني (١/ ٨٨).

(١٠) الرسالة القشيرية ٢٧٧ ، عدة الصابرين ٢٣٣ وزاد (في الطاعة).

(١١) الرسالة القشيرية ٢٧٧، نحوه في التعرف ١١٨ ، القوت ١/ ٢٣٨ ، عدة الصابرين٢٣٣.

أحدهما : أن يفنىٰ برؤية المنعم عن رؤية نعمه[١].

والثاني : أن لا تحجبه رؤية نعمه ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها ، وهذا أكمل والأول أقوىٰ عندهم.

والكمال : أن تشهد النعمة والمنعم ؛ لأن شكره بحسب شهود النعمة ، فكلما كان أتم كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده : أن يشهد نعمه ، ويعترف[٢] بها ، ويثني عليه بها ، ويحبه عليها ، لا أن يفنىٰ عنها ، ويغيب عن شهودها.

وقيل : الشكر قَيد النعم الموجودة ، وصَيد النعم المفقودة[٣].

وشكر العامة : علىٰ المطعم والمشرب[٤] والملبس[٥] ، وقوت الأبدان[٦].

وشكر الخاصة : علىٰ التوحيد والإيمان وقوت القلوب[٧].

وقال داود[٨] : يا رب ، كيف أشكرك؟ وشكري[٩] نعمة عليَّ من عندك

---

(١) نحوه ما نقله الكلاباذي في التعرف عن بعض الكبراء ١١٨ ، وسوف يرد ابن القيم علىٰ هذا التعريف قريباً.

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (له).

(٣) عدة الصابرين ٢٣٣.

(٤) (المشرب) سقطت من ش.

(٥) (الملبس) سقطت من غ.

(٦) الرسالة القشيرية عزاه لأبي عثمان ٢٧٧ ، عدة الصابرين ٢٣٣.

(٧) الرسالة القشيرية وزاد « .. وشكر الخواص علىٰ ما يرد علىٰ قلوبهم من المعاني » ٢٧٧.

(٨) ط زيادة (عليه السلام).

(٩) ط زيادة (لك).

تستوجب بها شكراً ، فقال الآن شكرتني يا داود[١].

وفي أثر إسرائيلي : أن موسىٰ[٢] قال : «يا رب ، خلقت آدم بيدك ، ونَفَخْت فيه من روحك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت وفعلت ، فكيف أطاق شكرك؟ فقال[٣] الله عزّ وجلّ : علم أن ذلك مني ، فكانت معرفته بذلك شُكراً لي»[٤] .

وقيل : « الشكر التلذذ بثنائه ، علىٰ ما لم تستوجب من عطائه »[٥].

وقال الجنيد - وقد سأله سَري عن الشكر ، وهو صبي بعد[٦] : « الشكر أن لا يُستعان بشيء من نعم الله علىٰ معاصيه ، فقال : من أين لك هذا؟ قال من مجالستك »[٧].

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ٣/ ١٢ رقم (٥) وبرقم (٦) وعزاه لموسىٰ ـ عليه السلام ـ ، الرسالة القشيرية ٢٧٨.

(٢) ط زيادة (ﷺ).

(٣) أ ، ب ، غ زيادة (قال).

(٤) الرسالة القشيرية ٢٧٨ ، الشكر لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ٣/ ١٤ برقم (١٢) قال محققه فيه يوسف بن ميمون الصباغ ضعيف ، ونحوه في عدة الصابرين ٢٣٣.

(٥) عدة الصابرين ٢٣٣.

(٦) (بعد) سقطت من أ ، ب ، غ ، د ، ووُضِعَ مكانها في ط علامة (؟).

(٧) الرسالة القشيرية ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، صفة الصفوة ٢/ ٤١٧ ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٨ ، شذرات الذهب ٢٢٩ ، نحوه في القوت ١/ ٢٣٩ ، عدة الصابرين ٢٣٣.

وقيل : من قصرت يده[1] عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر[2].

والشكر معه المزيد أبداً ، لقوله تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم :٧] ، فمتىٰ لم تر حالك في مزيد ، فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلهي : يقول الله عزَّ وجلَّ : «أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رَحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يَتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأُطهِّرهم من المعايب»[3].

وقيل : من كتم النعمة فقد كفرها[4] ، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا[5] من قوله ﷺ : «إنَّ الله إذا أنعم علىٰ عبد بنعمة أحبَّ أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده»[6].

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (يداه).

(٢) عدة الصابرين (٢٣٤).

(٣) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب ٩.

(٤) (كفرها) سقطت من د.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (مأخوذ).

(٦) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة (٢/ ٣١١) ، ومن حديث عمران بن حصين (٤/ ٤٣٨) ، (٣/ ٣٧٤) ، والترمذي في الأدب (٥/ ١٢٣) ح(٢٨١٩) ، وحسنه والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٠)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢٦٠)، وقع لنا موصولاً لابن أبي الدنيا بتمامه ، وقال أيضاً له شاهد من حديث أبي سعيد ، وأخرجه النسائي وأبو داود وصححه ابن حبان والحاكم من حديث أبي الأحوص ، والبيهقي في

وفي هذا قيل :

ومن الرزية : أنَّ شكري صـامتٌ عمـا فعلـتَ وأنَّ بِرَّكَ ناطقُ

أأرىٰ[1] الصنيعة منك ثم أُسِرُّها إني إذاً لِنَدىٰ الكريم لسارق[2]

فصل

الفرق بين الحمد والشكر

وتكلم الناس في الفرق بين «الحمد» و «الشكر» أيهما أعلىٰ وأفضل؟ وفي الحديث «الحَمْدُ رأس الشكر، فَمن لم يحمد الله لم يَشْكُره»[3].

والفرق بينهما : أن «الشكر» أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، و «الحمد» أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنىٰ هذا : أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان

السنن الكبرىٰ (٣/ ٢٧١)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٣٥)، وابن حبان في الثقات (٣/ ٣٧٦)، وللحديث شواهد بألفاظ متقاربة عن عدد من الصحابة صححه بها الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٢٨٠) ح(١٢٩٠).

(١) م، أ، غ، ح٢، ب (أرىٰ)، ط (وأرىٰ)، وفي القصيدة (أأرىٰ)، انظر الديوان (٤٥٤) وهو في الأصل كذلك أيضاً.

(٢) بيت الشعر : لأبي تمام، انظر ديوانه ٤٥٤، الرسالة القشيرية ٢٨٠.

(٣) البغوي في شرح السنة (٢/ ١٤٤)، والخطابي في غريب الحديث (١/ ٣٤٦)، وعبدالرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤) وفي سنده انقطاع، والسيوطي في تدريب الراوي (٢/ ٥٧)، والديلمي في الفردوس (٢/ ١٥٥) رقم(٢٧٨٤)، شعب الإيمان (٣/ ٩٧)، وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع (٣/ ١١٣) ح(٢٧٨٩).

ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً، ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف الذاتية فلا يقال: شكرنا(١) الله(٢) علىٰ حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود علىٰ إحسانه وعدله، والشكر يكون علىٰ الإحسان والنعم.

فكل(٣) ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد(٤) بالقلب واللسان.

فصل

قال صاحب «المنازل»:

«الشُّكرُ: اسْمٌ لمعْرِفَةِ النِّعمَةِ؛ لأَنَّهَا السَّبِيلُ إِلىٰ مَعرِفَةِ المنعِمِ، وَلِهَذَا(٥) سَمَّىٰ اللهُ تَعَالىٰ الإسلاَمَ وَالإِيمَانَ فِي القُرآنِ شُكراً»(٦).

معرفة(٧) النعمة: ركن من أركان الشكر، لا أنها جملة الشكر، كما تقدم:

---

(١) (الألف) سقطت من ب.

(٢) (لفظ الجلالة) سقط من أ، غ.

(٣) ق (وكل).

(٤) ط (يقع).

(٥) منازل السائرين زيادة (المعنىٰ).

(٦) منازل السائرين ٤١.

(٧) ط (فمعرفة).

أنه الاعتراف بها[١]، والثناء عليه بها، والخضوع له ومحبته، والعمل بما يرضيه فيها، لكن لما كان معرفتها ركن الشكر الأعظم، الذي يستحيل وجود الشكر بدونه: جعل أحدهما اسماً للآخر.

قوله: «لأَنَّهَا[٢] السَّبِيلُ إِلىٰ مَعرِفَةِ المنعمِ».

يعني أنه إذا عرف النعمة توصل بمعرفتها إلىٰ معرفة المنعم بها.

وهذا من جهة معرفة كونها نعمة، لا[٣] من أي جهة عرفها[٤] بها، ومتىٰ عرف المنعم أحبه، وجَدَّ في طلبه، فإن من عرف الله أحبه لا محالة، ومن عرف الدنيا أبغضها لا محالة.

وعلىٰ هذا: يكون قوله: «الشُّكْرُ اسمٌ لمَعرفَةِ النِّعمَةِ» مستلزماً لمعرفة المنعم، ومعرفته تستلزم محبته، ومحبته تستلزم شكره.

فيكون قد ذكر بعض أقسام الشكر باللفظ[٥]، ونبه علىٰ سائرها باللزوم، وهذا من أحسن اختصاره، وكمال معرفته وتصوره، قدس الله روحه.

قال: «وَمَعَانِي الشُّكرِ ثَلاثَةُ أَشْيَاء: مَعرِفَةُ النِّعْمَةِ، ثُمَّ قَبُولُ النِّعمَةِ، ثُمَّ الثَّنَاءُ بِهَا، وَهُوَ أَيْضاً مِن سُبُلِ العَامَّةِ»[٦]. معاني الشكر وأقوال مأثورة في ذلك

---

(١) ب (فيها).

(٢) غ (لأن)، أ، ط (لأنه).

(٣) أ، ب، غ (لآخر).

(٤) ب (عرفناها).

(٥) غ (بها) بدل (اللفظ).

(٦) منازل السائرين ٤١.

أما معرفتها : فهو إحضارها في الذهن[١] ، ومشاهدتها و تمييزها.

فمعرفتها : تحصيلها ذهناً ، كما حصلت له خارجاً ، إذْ كثير من الناس يحسن[٢] إليه وهو لا يدري ، فلا يصح من هذا الشكر.

قوله : «ثُمَّ قَبُولُ النِّعْمَةِ».

قبولها : هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها ، وأنّ وصولها إليه بغير استحقاق منه ، ولا بذل ثمن ؛ بل يرىٰ نفسه فيها كالطفيلي ، فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة.

قوله[٣] : «ثُمَّ الثَّنَاءُ بِهَا».

الثناء علىٰ المنعم ، المتعلق بالنعمة نوعان : عام ، وخاص ، فالعام : وصفه بالجود والكرم ، والبر والإحسان ، وسعة العطاء ، ونحو ذلك.

والخاص : التحدث بنعمته ، والإخبار بوصولها إليه من جهته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[الضحىٰ :١١].

وفي هذا التحديث المأمور به قولان :

أحدهما: أنه ذِكْر النعمة والإخبار بها، وقوله[٤] : أنعم الله[٥] عليَّ بكذا وكذا،

---

(١) (في الذهن) سقطت من د.

(٢) ق ، ط (تحسن).

(٣) م (وقوله).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (قولك).

(٥) (لفظ الجلالة) سقط من م ، ح٢ ، د.

قال مقاتل : يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة : من جبر اليتم ، والهدىٰ[1] بعد الضلال ، والإغناء بعد العيلة [2].

والتحدث بنعمة الله شكر ، كما في حديث جابر مرفوعاً : «من صُنِع إليه معروف فليَجزِ به ، فإن لم يجد ما يجزي[3] فليُثْنِ عليه[4] فإنه إذا أثنىٰ عليه فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره ، ومن تحلَّىٰ بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور»[5].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة : شاكر النعمة المثنىٰ بها ، والجاحد لها والكاتم لها ، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها ، فهو متحلٍّ بما لم يعطه[6].

وفي أثر آخر مرفوع : «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدُّث بنعمة الله شُكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة،

---

(١) ش (الهداية).

(٢) فتح القدير ٥/ ٤٥٩ ، وعنه في زاد المسير : جميع الخيرات ٩/ ١٦٠ ، وعن قتادة في تفسير الطبري ٣٠/ ٣٣.

(٣) في الترمذي ، ط (به).

(٤) (عليه) في الأصل ، وفي أبي داود (به) ، وبقية النسخ بدونها.

(٥) أخرجه الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٧٩) ح(٢٠٣٤) ، وأبو داود. الأدب (٥/ ١٥٨) ح(٤٨١٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٤) ، مسند أبي يعلىٰ (٤/ ١٠٥) ، وقال محققه حسين أسد: إسناده ضعيف، والترغيب والترهيب (٢/ ٤٤)، وفي شعب الإيمان (٦/ ٥١٤) ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة وقال له طرق يتقوىٰ بها (٢/ ١٨١) ح(٦١٧).

(٦) ح٢ (يعط) ، أ (يعطه الله).

والفرقة عذاب»[1].

والقول الثاني :[2]التحدث بالنعمة المأمور به في هذا الآية : هو الدعوة إلىٰ الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة ، قال مجاهد : هي النبوة[3] ، قال الزجاج : أي بَلِّغ ما أرسلت به ، وحدث بالنبوة التي آتاك الله[4] ، وقال الكلبي[5] : هو القرآن ، أمره أن يقرأه[6].

والصواب : أنه يعم النوعين ، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير الإمام أحمد (٤/ ٣٧٥) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٤) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٤٦) ، وقال رواه عبدالله في زوائده بإسناد لا بأس به ، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٠٥) ح(٩٦٦) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٦٤) وعزاه لعبدالله بن أحمد بسند لا بأس به ، وفي شعب الإيمان (٣/ ١٠٢) ، ومن طريق عائشة صنفه ابن عدي في الكامل (٤/ ٤٢٩) ، وقال يروىٰ بإسناد أصلح من هذا ، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٢٩) ، وقال يروىٰ بغير هذا الإسناد من طريق أصلح من هذا.

(٢) أ ، ب ، غ زيادة (أنَّ).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٠ ، ابن كثير في التفسير (٤/ ٦٢٤) ، الدر المنثور (٨/ ٥٤٥).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٣٤٠ ، وزاد : وهي من أجلِّ النعم.

(٥) محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر ، شيعي متروك ، توفي سنة ١٤٦هـ/ طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٩) ، التاريخ الكبير (١/ ١٠١) ، الجرح والتعديل (٧/ ٢٧٠) ، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٤٨).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٠٠ ، الدر المنثور ٨/ ٤٤٥ ، وعزاه لمجاهد ، وكذلك الثعالبي ٤/ ٤٢٣ ، فتح القدير (٥/ ٤٥٩).

بها ، وإظهارها من شكرها.

قوله : «**وَهُوَ أَيضاً مِن سُبُل العَامَّةِ**».

مخالفة ابن القيم للهروي في جعل الشكر من سبل العامة

يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل[1][2] ، إذ[3] جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل[4].

بل «الشكر» سبيل رسل الله وأنبيائه ،[5] و[6]أخصّ خلقه ، وأقربهم إليه.

ويا عجباً! أي مقام أرفع من «الشكر» الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان ، حتىٰ المحبة والرضىٰ ، والتوكل وغيرها؟ فإن «الشكر» لا يصح إلا بعد حصولها ، وتالله[7] ليس لخواص[8] الله ، وأهل القرب منه سبيل أرفع من «الشكر» ولا أعلىٰ ، ولكن الشيخ - وأصحاب الفناء كلهم - يرون أن فوق هذا مقاماً أجل منه وأعلىٰ ، لأن «الشكر»[9] يتضمن نوع دعوىٰ ، وأنه شكر

---

(١) م (التعطيل).

(٢) من مخالفات ابن القيم للهروي.

(٣) الأصل (وجعل) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ.

(٤) ق (السبيل).

(٥) ط زيادة (ﷺ أجمعين).

(٦) (الواو) ساقطة من ط.

(٧) ب (وبالله).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (أولياء).

(٩) ط زيادة (عندهم).

الحق علىٰ إنعامه ، ففي الشاكر بقية من بقايا رسمه ، لم يفن[١] عنها[٢] فلو فني عنها - بتحققه أن الحق سبحانه هو الذي شكر نفسه بنفسه ، وأنَّ من لم يكن كيف يشكر من لم يزل - علم أن الشكر من منازل العامة ، ولو أن السلطان كَسَا عبداً من عبيده ثوباً من ثيابه ، فأخذ[٣] يشكر السلطان علىٰ ذلك : لعُدَّ مخطئاً مسيئاً للأدب ، فإنه مدع بذلك مكافأة السلطان بشكره ، فإن الشكر مكافأة[٤] ، والعبد أصغر قدراً من المكافأة[٥] ، والشهود للحقيقة يقتضي اتحاد[٦] نسبة الأخذ والعطاء ، ورجوعها إلىٰ وصف المعطي وقوته ، فالخاصة يسقط[٧] عندهم الشكر بالشهود ، وفي حقهم ما هو أعلىٰ منه.

هذا غاية تقرير كلامهم ، وكسوته أحسن عبارة ، لئلا يتعدىٰ عليهم بسوء[٨] التعبير الموجب للتنفير.

ونحن معنا العصمة النافعة : أن كل واحد - غير المعصوم[٩] - فمأخوذ من

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (لم يتخلص) ، ش (يفر).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ويفزع منها).

(٣) ق (وأخذ).

(٤) (التاء) ساقطة من غ.

(٥) (التاء) ساقطة غ ، ب ، ق.

(٦) م (إيجاد).

(٧) د (عنهم عندهم).

(٨) ش (لسوء).

(٩) ط زيادة (ﷺ).

قوله ومتروك ، وكل سبيل لا يوافق سبيله فمهجور غير مسلوك.

فأما تضمن «الشكر» لنوع دَعْوىٰ ، فإن أُريد بهذه الدعوىٰ إضافته[١] الفعل إلىٰ نفسه ، وأنه كان به وغاب بذلك عن كونه بحول الله وقوته ، ومُنتَهِ علىٰ عبده : فلعَمْرُ الله هذه علة مؤثرة ، ودعوىٰ[٢] كاذبة.

وإن أُريد : أن[٣] شهوده لشكره شهوده[٤] لنعمة الله عليه به ، وتوفيقه له فيه[٥] ، [٦] وإذنه له به ، ومشيئته ومنته عليه[٧] فشهد[٨] عبوديته وقيامه بها ، وكونها بالله ، فأي دعوىٰ في هذا؟ وأي علة؟.

نعم غايته : أنه لا يجامع الفناء[٩]فكان ماذا؟.

أنتم[١٠] جعلتم الفناء غاية ، فأوجب لكم ما أوجب ، وقدمتموه علىٰ ما قدمه الله ورسوله ، فتضمن[١١] ذلك تقديم ما أخّر ، وتأخير ما قدّم ، وإلغاء ما اعتبر ،

---

(١) د ، ق ، ط (إضافة العبد).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (باطلة).

(٣) (أن) سقطت من غ ، م ، وفي ب (به).

(٤) (الهاء) سقطت من ش.

(٥) (فيه) سقطت من ش.

(٦) ق زيادة (وإرادته).

(٧) ق (عليه ومنته).

(٨) ب (بشهود).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ولا يخوض تياره).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق بزيادة (الفاء).

(١١) أ ، ب ، غ ، ق (يتضمن).

واعتبار ما أَلْغَىٰ.

ولولا مِنَّة الله علىٰ الصادقين منكم بتحكيم الرسالة، والتقيد بالشرع لكان أمراً غير هذا، كما جرىٰ لغير واحد من السالكين علىٰ هذه[1] الطريق الخطرة، فلا إله إلا الله، كم فيها من قتيل وسليب، وجريح وأسير وطريد؟.

وأما[2] «إن الشاكر فيه بقية من بقايا رسمه».

فيقال: إذا كانت هذه البقية محض العبودية ومركبها، والحاملة لها: فأي نقص في هذا؟ فإن العبودية لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم بهذا الرسم، فلا نقص في حمل العبودية عليه، والسير به إلىٰ الله[3].

نعم، النقص كل النقص: [4]حمل النفس[5] والشهوة والحظ المخالف لمراد الرب تعالىٰ الديني[6] علىٰ هذا الرسم، والسير به إلىٰ النفس، ولعل العامل علىٰ الفناء بهذه المثابة وهو ملبوس عليه، فالعارف يستقصي التفتيش عن كمائن النفس.

---

(١) ب (هذا).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط زيادة (قولكم).

(٣) ط زيادة (عزّ وجلّ).

(٤) ط زيادة (في).

(٥) (النفس) سقطت من الأصل، والصحيح إثباتها كما في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٦) ش (الذي).

أما قولكم : «كيف يشكر من لم يكن[1] من لم يزل؟» فهذا بالشطح[2] أليق منه بالمعرفة ، فإن «من لم يزل» إذا أَمَرَ «من لم يكن» بالشكر ، ورضيه منه وأحبه وأثنىٰ عليه به ، واستدعاه واقتضاه منه ، وأوجب[3] له به المزيد ، وأضافه إليه ، واشتقّ له منه[4] الاسم ، وأوقع عليه به الحكم ، وأخبر أنه غاية رضاه منه ، وأمره - مع ذلك - أن يشهد أن شكره به ، وبإذنه ومشيئته وتوفيقه : فهذا شكر من لم يكن لمن يزل ، وهو محض العبودية.

وأما ضرب[5] مثل كسوة السلطان لعبده ، وأخذه في الشكر له مكافأة : فهذا من أبطل الأمثلة عقلاً ونقلاً وفطرة ، وهو الحجاب الذي أوجب لمن قال «إن شكر المنعم لا يجِب عقلاً»[6] ما قال ذلك ، حتىٰ زعم أن شكره قبيح عقلاً ،

---

(١) ط (من لم يكن كيف يشكر من لم يزل).

(٢) الشطح : شطح في السير أو القول : تباعد واسترسل ، والشطحة : يقال لفلان الصوفي : له أحوال وشطحات ، المعجم الوسيط ١/ ٤٨٢ ، وهو عند الصوفية : كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوىٰ إلا أن يكون صاحبه مستلباً و محفوظاً ، وقيل : عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة الدعوىٰ ، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب وهو من زلات المحققين.. معجم مصطلحات الصوفية ١٤٠. معنى الشطح

(٣) د (أحب).

(٤) ط (منه له).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (ضبركم).

(٦) (شكر المنعم لا يجب عقلاً) : هذا القول ينسجم مع مذهب الأشاعرة ، انظر في ذلك ما قاله الإيجي وهو يمثل الصياغة النهائية لمذهبهم ، المواقف ٣٢٣ ، حيث لا حكم قبل ورود الشرع فالعقل لا يقبح ولا يحس لذاته ، علىٰ النقيض من مذهب المعتزلة.

ولولا الشرع لما حسن الإقدام عليه ، وضرب هذا المثل الذي ضربتموه بعينه ، وهذا من القياس الفاسد ، المتضمن قياس الخالق علىٰ المخلوق ، وبمثله عبدت الشمس والقمر والأوثان ، إذ قال المشركون : جناب العظيم لا يُهجم عليه بغير وسائل ووسائط ، وسرت هاتان الرقيقتان[(١)] فيمن فسد من أهل التعبد وأهل النظر والبحث[(٢)] ، والمعصوم من عصمه الله.

فيقال : الفرق من وجوه [كثيرة جداً ، تفوت الحصر][(٣)].

منها : أن الملك محتاج فقير إلىٰ من أنعم عليه ، لا يقوم بملكه إلا به ، فهو محتاج إلىٰ معاوضته[(٤)] بتلك الكسوة - مثلاً - خدمة له ، وحفظاً له، وذبّاً عنه، وسعياً في تحصيل مصالحه ، فكسوته له من باب المعاوضة والمعاونة ، فإذا أخذ في شكره ، فكأنه جعل ذلك ثمناً لنعمته ، وليس بثمن لها.

وأما إنعام الرب تعالىٰ علىٰ عبده : فإحسان إليه ، وتفضل عليه ، ومجرد امتنان ، لا لحاجة منه إليه ، ولا لمعاوضة ، ولا لاستعانة به ، ولا يستكثر[(٥)] به

---

(١) الرقيقتان.. لعله إشارة إلىٰ ما يرقق الدين من الأقوال الفاسدة ، ففي لسان العرب والمعجم الوسيط معاني الرق والرقيق والاسترقاق ، لسان العرب ١٠/ ١٢٤ ، المعجم الوسيط ١/ ٣٦٦.

(٢) أهل التعبد : إشارة إلىٰ المتصوفة والخوارج ، وأهل النظر والبحث : إشارة إلىٰ أهل الكلام من المعتزلة والفلاسفة ، يُنظر في ذلك مقدمة التدمرية.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٤) ط ، أ ، غ (معاوضة).

(٥) ط (ليستكثر).

من[1] قلة ، ولا ليتعزز به من ذِلَّة ولا ليقوىٰ به من ضعف ، سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضاً : إنعام آخر عليه ، وإحسان منه إليه ، إذ منفعة الشكر ترجع إلىٰ العبد[2]، لا إلىٰ الله[3]، والعبد هو الذي ينتفع بشكره ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان: ١٢] ، فشكره[4] إحسان[5] منه إلىٰ نفسه[6] [فلا يذم ما أتىٰ به من ذلك][7] ، وإن كان لا يحسن مقابلة المنعم به[8] فإنما هو محسن إلىٰ نفسه بالشكر ، لا أنه مُكافِئٌ به لنعم الرب ، فالرب لا يُكافي أحد نعمه أبداً ولا أقلها[9] فالله أحسن إلىٰ عبده بنعمه ، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها فشُكْرُهُ نعمة منه يحتاج إلىٰ شكر آخر وهلمّ جرّا[10].

---

(١) (من) سقطت من أ.

(٢) أ ، م ، غ ، ح٢ ، ق زيادة (دنيا وآخرة).

(٣) د زيادة (دنيا وآخرة).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فشكر العبد).

(٥) د زيادة (أحب).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (دنيا وآخرة).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من م.

(٨) ط زيادة (ولا يستطيع شكره).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ولا أدنىٰ نعمة من نعمه فإنه تعالىٰ هو المنعم المتفضل الخالق للشكر ، والشاكر ، وما يُشكر عليه فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناءً عليه فإنه هو المحسن).

(١٠) أنشد محمود الوراق :

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم برِّه وكرمه وجوده: محبته له على[1] هذا الشكر، ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته[2] مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على الله، وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه، ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضىٰ عنك بذلك[3] ثم يعيد إليك منفعة شكرك، ويجعله سبباً لك لاتصال نعمه[4]، والزيادة[5] منها.

وهذا الوجه وحده يكفي وبه يتنبه اللبيب[6] علىٰ ما بعده.

وأما كون الشهود يسقط الشكر: فلعمر الله، إنه إسقاط لحق المشكور بحظ المشاهد[7]، نعم بحظ عظيم متعلق بالحق عزَّ وجلَّ، لا حظ سُفلي، متعلق بالكائنات ولكن صاحبه قد سار من حَرَم إلىٰ حَرَم.

وكان يقع لي هذا القدر منذ زمان[8]، ولا أتجاسر[9] علىٰ التصريح به، لأن

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف وقوعُ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيامُ واتَّصل العمرُ

الشكر لابن أبي الدنيا ـ الموسوعة ٣/ ٣٦ رقم (٨٢)، فضيلة الشكر للخرائطي ٤٧.

(١) ق (عند).

(٢) ش (وعائدته).

(٣) (بذلك) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (لتوالي نعمه واتصالها إليك).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (علىٰ ذلك).

(٦) ق (اللبيب به تنبه علىٰ ما قبله)، م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط (اللبيب ليتنبه به علىٰ).

(٧) أ، ب، غ (الشاهد).

(٨) ط (أزمان).

(٩) ط، ب (أتجرأ)، أ، غ (أتجارىٰ).

أصحابه يرون من ذَكَّرهم به بعين[1] الفرق الأول[2] ، فلا يصغون إليهم البتة ، لا سيما وقد ذاقوا حلاوته ولذته ، ورأوا تخبيط أهل الفرق الأول ، وتلوثهم[3] بنفوسهم وعوالمها ، وانضاف إلىٰ ذلك : أن جعلوه غاية ، فتركب[4] من هذا[5] الأمور ما تركب ، وإذا لاحت الحقائق فليقل القائل ما[6] شاء.

فصل

درجات الشكر[7]

درجات الشكر الدرجة الأولى

قال : « وهوَ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ ، الدَّرجةُ الأُولىٰ: الشُّكْرُ علىٰ[8]

---

(١) ش (بغير).

(٢) الفرق الأول : شهود الحقيقة الكونية والفناء فيها بحيث لا يفرق بين الأمر والنهي والمحبوب والمبغض. أما الفرق الثاني : فهو شهود الحقيقة الشرعية ، المدارج ١/ ٢٤٧ ، فأهل الجمع يشهدون الحقيقة الكونية فهم في الفرق الأول ، المدارج ١/ ١٥٣ ، وهنا تقسيم يتضح فيه الفرق :

التفرقة = موجب الإلهية = أمر ونهي شرعي.

جمع = موجب الربوبية = المشيئة والخلق قدري.

تفرقة الإرادة الدينية : شرعي - تفرقة ما يحبه ويرضاه : شرعي.

جمع الإرادة الكونية : قدري - في جمع ما قدره وقضاه : قدري ، مدارج السالكين ١/ ١٥٩.

(٣) أ ، م ، غ ، ب (تلونهم).

(٤) ح٢ (وتركب).

(٥) ق (هذه).

(٦) (الميم) سقطت من ط ، وفي ب (ما شاء).

(٧) (درجات الشكر) سقطت من م ، غ ، ح٢ ، ش ، ب ، د ، ق.

(٨) في المنازل (في المحاب).

المَحَابِّ، وَهَذَا شُكْرٌ تَشَارَكَتْ[1] فِيهِ المسْلِمُونَ وَاليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَالمجُوسُ، وَمِن سَعَةِ رَحْمَةِ[2] البَارِي سُبحَانَه أَنَّه[3] عَدَّهُ شُكْراً، وَوَعَدَ عَلَيهِ الزِّيَادَةَ، وَأَوْجَبَ فِيهِ[4] المثُوبَةَ»[5].

إذا علمت حقيقة «الشكر» وأن جزء حقيقته الاستعانة بنعم المنعم علىٰ طاعته ومرضاته: علمت[6] اختصاص أهل الإسلام بهذه الدرجة، وأن حقيقة الشكر علىٰ المحاب ليست لغيرهم.

نعم لغيرهم منها بعض أركانها وأجزائها، كالاعتراف بالنعمة، والثناء علىٰ المنعم بها، فإن جميع الخلق في نعم الله، وكل من أقر بالله[7] وتفرده بالخلق والإحسان، فإنه يضيف نعمته إليه، لكن الشأن في تمام حقيقة الشكر، وهو الاستعانة بها علىٰ مرضاته[8].

---

(١) في المنازل (شاركت المسلمين فيه..).

(٢) المنازل زيادة (بر).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (أن)، وهو خلاف البقية والمنازل.

(٤) المنازل (له).

(٥) منازل السائرين ٤١.

(٦) الأصل (علم)، والأقرب ما أثبته من بقية النسخ والمنازل.

(٧) ط زيادة (رباً).

(٨) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (وقد كتبت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلىٰ معاوية ـ رضي الله عنه ـ: «إن أقل ما يجب للمنعم علىٰ من أنعم عليه أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلاً إلىٰ معصيته» .. ذكر نحوه في عدة الصابرين ٢٣٣.

وقد عرف مراد الشيخ ، وهو أن هذا الشكر مشترك ، وهو الاعتراف بنعمه سبحانه ، والثناء عليه بها ، والإحسان إلىٰ خلقه منها ، وهذا بلا شك يوجب حفظها عليهم والمزيد منها ، فهذا الجزء من الشكر مشترك ، وقد تكون ثمرته في الدنيا بعاجل الثواب ، وفي الآخرة بتخفيف العقاب ، فإن النارَ[1] دركاتٌ ، ودرجاتُ أهلِها[2] في العقوبة مختلفة.

فصل

الدرجة الثانية

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الشُّكر فِي المكَارِه ، وَهَـٰذَا ممَّن تَستَوِي[3] عِندَهُ الحَالَاتُ إِظهَاراً[4] لِلرِّضَىٰ ، وَممَّن لا[5] يُميِّزُ بَينَ الأَحْوَالِ ، كَظم[6] الغَيظِ ، وَ[7] الشَّكْوَىٰ ، وَرِعَايَة الأَدَب ، وسُلُوك مَسلَك العِلم ، وَهَـٰذَا الشَّاكِرُ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَىٰ إِلىٰ الجَنَّةِ»[8].

يعني أن الشكر علىٰ المكاره : أشد وأصعب من الشكر علىٰ المحاب ،

(١) ب زيادة (أجارنا الله منها).

(٢) (ودرجات أهلها) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د.

(٣) منازل السائرين (يستوي).

(٤) المنازل (إظهار الرضىٰ).

(٥) أ ، ب ، غ ، ش ، ط سقطت (لا) وكذلك المنازل.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق (كضم) ، وفي ط (لكضم).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش ، ط زيادة (ستر).

(٨) منازل السائرين ٤٤.

وهذا كان فوقه في الدرجة، ولا يكون إلا من أحد رجلين:

إما رجل لا يميز بين الحالات؛ بل يستوي عنده المكروه والمحبوب، فشكر هذا إظهار منه للرضىٰ بما نزل به، وهذا مقام الرضىٰ.

الرجل[١] الثاني: من يميز بين الأحوال، فهو لا يحب المكروه، ولا يرضىٰ بنزوله به، فإذا[٢] نزل به مكروه شكر الله تعالىٰ عليه، فكان شكره كظماً للغيظ الذي أصابه، وستراً للشكوىٰ، و[٣]رعاية منه للأدب، وسلوكاً لمسلك العلم، فإن العلم[٤] والأدب يأمران بشكر الله علىٰ السراء والضراء، فهو يسلك بهذا الشكر[٥] مسلك العلم، لا أنه[٦] شاكر لله شكر من رضي بقضائه، كحال الذي قبله، فالذي قبله أرفع منه.

وإنما كان هذا الشاكر أول من يُدعىٰ إلىٰ الجنة: لأنه قابل المكاره - التي يقابلها أكثر الناس بالجزع والسخط، وأوساطهم بالصبر، وخاصتهم بالرضىٰ - فقابلها هو بأعلىٰ من ذلك كله، وهو الشكر، فكان أسبقهم دخولاً إلىٰ الجنة، وأول من يدعىٰ منهم إليها.

---

(١) في ط، الأصل (الوجه) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٢) ق (ولكن إذا..).

(٣) (الواو) ساقط من ش.

(٤) (العلم) ساقطة من د.

(٥) ط (الشرك).

(٦) أ، ب، غ، ح٢، ط (لأنه).

وقسَّم أهلَ هذه الدرجة إلىٰ قسمين : سابقين ، ومقرَّبين ، بحسب انقسامهم إلىٰ من يستوي عنده الحالات ، من المكروه والمحبوب ، فلا يؤثر أحدهما علىٰ الآخر ؛ بل قد فني بإيثاره ما يُرضىٰ له به ربه عما يرضاه هو لنفسه ، وإلىٰ من يؤثر المحبوب ، ولكن إذا نزل به المكروه قابله بالشكر.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : أَن لا يَشْهَدَ العَبدُ إِلَّا المنُعِمَ ، فَإِذَا شَهِدَ المنعِمَ عُبُودِيَّةً[1] : استَعْظَمَ مِنهُ النِّعمَةَ ، وَإِذَا شَهِدَهُ حُبّاً : اسْتَحْلىٰ مِنْهُ الشِّدَّةَ ، وَإِذَا شَهِدَهُ تَفرِيداً : لَم يَشهَدْ مِنهُ نِعْمَةً ، وَلَا شِدَّةً[2]»[3].

[4] هذه الدرجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة ، فلا يتسع شهوده للمنعم ولغيره.

وقَسم[5] أصحابها إلىٰ ثلاثة أقسام : أصحاب شهود العبودية ، وأصحاب شهود الحب ، وأصحاب شهود التَّفريد ، وجعل لكلٍّ منهم حُكماً ، هو أولىٰ به.

فأما شهوده عبودية : فهو مشاهدة العبد للسيد بحقيقة العبودية والملك له ،

---

(١) ق ، د ، ب (عبوديته) ، المنازل (عبودة).

(٢) المنازل (شدة ولا نعمة).

(٣) منازل السائرين ٤٢.

(٤) ق (فصل).

(٥) ش (ضم).

فإن العبيد إذا حضروا بين يدي سيدهم ، فإنهم ينسون ما هم فيه من الجاه ، والقرب الذي اختصُّوا به عن غيرهم باستغراقهم في أدب العبودية وحقها ، وملاحظتهم لسيدهم[1] ، خوفاً أن يشير إليهم[2] بأمر ، فيجدهم غافلين عن ملاحظته ، وهذا أمر يعرفه من شاهد أحوال الملوك وخواصهم.

فهذا هو شهود العبد للمنعم بوصف عبوديته له ، واستغراقه عن الإحساس[3] بما حصل له منه في[4] القرب الذي تميز به عن غيره.

فصاحب هذا المشهد : إذا أنعم عليه سيده في هذه الحال - مع قيامه في مقام العبودية - يوجب عليه أن يستصغر نفسه في حضرة سيده غاية الاستصغار ، مع امتلاء قلبه من محبته ، فأي إحسان ناله منه في هذه الحالة رآه عظيماً ، والواقع شاهد بهذا في حال المحب الكامل المحبة[5] ، المستغرق في مشاهدة محبوبه إذا ناوله شيئاً يسيراً ، فإنه يراه في ذلك المقام عظيماً جداً ، ولا يراه غيره[6] كذلك.

القسم الثاني : يشهد الحق شهود محبة غالبة قاهرة له ، مستغرق في شهوده

---

(١) ش (لسيده).

(٢) ب (عليهم).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط (الإحسان).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د (من) بدل (في).

(٥) (المحبة) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢.

(٦) ش (غير ذلك).

كذلك ، فإنه يستحلي في هذه الحال الشدة منه[١] ؛ لأن المحب يستحلي فعل المحبوب به.

وأقل ما في هذا المشهد :[٢] أن يخف عليه حمل الشدائد ، إن لم تسمح نفسه باستحلائها ، وفي هذا من الحكايات المعروفة عند الناس ما يغني عن ذكرها ، كحال الذي كان يُضرب بالسياط ولا يتحرك ، حتىٰ ضرب آخر[٣] سوط ، فصاح صياحاً شديداً ، فقيل له في ذلك ، فقال : العين التي[٤] كانت تنظر[٥] إليَّ وقت الضرب كانت تمنعني من الإحساس بالألم ، فلما فقدتُها وجدتُ ألمَ الضَّربِ.

وهذه الحال عارضة ليست بلازمة ، فإن الطبيعة تأبىٰ استحلاء المنافي كاستحلاء الموافق.

نعم قد يقوىٰ سلطان المحبة حتىٰ يستحلي المحب ما يستمره غيره ، ويستخف ما يستثقله غيره ، لذلك[٦] يأنس بما يستوحش منه الخَليُّ[٧] ،

---

(١) غ (معه).

(٢) م ، ب (أنه).

(٣) الأصل ، ق (في الآخر) والأقرب ما أثبته من البقية.

(٤) ب (الذي).

(٥) (تنظر) سقطت من ش.

(٦) أ ، ب ، غ (ويأنس).

(٧) الخلي : هو الفارغ البال من الهم ، وفي المثل : (ويل للشجي من الخلي) المعجم الوسيط ١/ ٢٥٤.

ويستوحش مما يأنس به ، ويستلين[1] ما يستوعره ، وقوة هذا وضعفه بحسب قهر سلطان المحبة ، وغلبته علىٰ قلب المحب.

القسم الثالث : أن يشهده تفريداً ، فإنه لا يشهد معه نعمة ولا شدة.

يقول : إن شهود التفريد ، يُفني الرسم ، وهذه حال صاحب[2] الفناء المستغرق فيه ، الذي لا يشهد نعمة ولا بليّة ، فإنه يغيب بمشهوده عن شهوده له ، ويفنىٰ به عنه ، فكيف يشهد معه نعمة أو بليّة؟ كما قال بعضهم في هذا : من كانت مواهبه لا تتعدىٰ يديه فلا واهب ولا موهوب.

وذلك مقام الجَمع عندهم ، وبعضهم يحرِّم العبارة عنه.

وحقيقته : اصطلامٌ[3] يرفع إحساس صاحبه برسمه ، فضلاً عن رسم غيره ، لاستغراقه في مشهوده[4] وغيبته به[5] عما سواه ، وهذا هو مطلوب القوم.

---

(١) د ، ق (يستأنس).

(٢) (صاحب) سقطت من ط.

(٣) اصطلام : معنىٰ الاصطلام في اللغة : الاستئصال ، اصطلم القوم أُبيدوا ، من الصلم وهو القطع ، لسان العرب ١٢/ ٣٤٠ ، مادة (صلم).

تعريف الاصطلام

أما معناه عند الصوفية : فهو نعت وَلَهٍ يرد علىٰ القلب ، فيسكن القلب تحت غلبته وسلطانه ، وهو قريب من الهيمان ، وهو عندهم وَلَه يسلب النفس والحس ، فهو بهذه الحالة ممحو الآثار ، لا تجري عليه أحكام التكليف ، انظر لطائف الإعلام ٢/ ٢٠٩ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٧ ، رشح الزلال ١١٣.

(٤) م ، ح٢ (شهوده).

(٥) (به) سقطت من ش.

وقد عرفت أن فوقه مقاماً أعلىٰ منه ، وأرفع وأجل ، وهو أن يصطلم بمراده عن غيره ، فيكون في حال مشاهدته واستغراقه : منفذاً لمراسيمه[١] ومراده ، ملاحظاً لما محبوبه ملاحظٌ له[٢] من المرادات والأوامر.

فتأمل الآن عبدين بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، وهما علىٰ موقف واحد بين يديه ، أحدهما مشغول بمشاهدته ، فَانٍ[٣] في استغراقه في ملاحظة الملك ، ليس فيه متسع إلىٰ ملاحظة شيء من أمور الملك البتة ، وآخر مشغول بملاحظة حركات الملك وكلماته ، وأيش[٤] أمره ولحظاته وخواطره ، ليرتب علىٰ كُلٍّ من ذلك ما هو مراد[٥] للملك.

وتأمل قصة بعض الملوك : الذي كان له غلام يخصه بإقباله عليه وإكرامه ، والحظوة عنده من بين سائر غلمانه - ولم يكن[٦] أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة - فقالوا له في ذلك ، فأراد السلطان أن يبين لهم فضل الغلام في الخدمة علىٰ غيره ، فيوماً من الأيام كان راكباً[٧]، ومعه الحشم، وبالبعد منه[٨]

---

(١) ق (لمراده ولمراسيمه).

(٢) ط (لما يلاحظه محبوبه).

(٣) ط سقطت (في) وفي ق (فانٍ استغراقه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (أيسر) ، و ق (أيس).

(٥) الأصل (مراداً) والصحيح من حيث اللغة ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ش.

(٦) د ، ق زيادة (الغلام).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (في بعض شؤونه).

(٨) غ (من).

جبل عليه ثلج ، فنظر السلطان إلىٰ ذلك الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ولم يعلم القوم لماذا ركض ، فلم يلبث أن جاء ومعه شيء من الثلج ، فقال السلطان : ما أدراك أني أريد الثلج؟ فقال الغلام : لأنك نظرت إليه ، ونظر السلطان[1] إلىٰ شيء[2] لا يكون عن غير قصد ، فقال السلطان : إنما أخصه بإكرامي وإقبالي لأن لكل واحد[3] شغلاً ، وشغله مراعاة لحظاتي ، ومراقبة أحوالي ، يعني في تحصيل مرادي.

وسمعت بعض الشيوخ يقول : لو قال ملك لغلامين له بين يديه ، مستغرقين[4] في مشاهدته ، والإقبال عليه : اذهبا إلىٰ بلاد عدوي[5] ، فأوصلا إليهم هذه[6] الكتب ، وطالعاني[7] بأحوالهم ، وافعلا كيت وكيت ، فأحدهما : مضىٰ من[8] ساعته لوجهه ، وبادر ما أمره[9] به ، والآخر قال : أنا لا أدع مشاهدتك ، والاستغراق فيك ، ودوام النظر إليك ، و[10]أشتغل بغيرك :

---

(١) د (الملوك).

(٢) (شيء) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (منكم).

(٤) أ ، ب ، غ زيادة (له).

(٥) أ ، ب ، غ (كذا وكذا) بدل (عدوي).

(٦) غ (وهذا).

(٧) ب (طالعا).

(٨) (من) سقطت من ق.

(٩) ش (ما أمر).

(١٠) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (ولا أشتغل).

لكان[١] هذا جديراً بمقت الملك له، وبغضه إياه وسقوطه من عينه، إذْ هو واقف مع مجرد حظه من الملك، لا مع مراد الملك منه، بخلاف صاحبه الأول[٢].

وسمعته أيضاً يقول: لو أن شخصين ادعيا محبة محبوب فجاءا حتىٰ[٣] حضرا بين يديه، فأقبل أحدهما علىٰ مشاهدته والنظر إليه فقط، وأقبل الآخر علىٰ استقراء مراداته ومراضيه وأوامره ليمتثلها، فقال لهما: ما تريدان؟ فقال أحدهما: أريد دوام مشاهدتك، والاستغراق في جمالك، وقال الآخر: أريد تنفيذ أوامرك، وتحصيل مراضيك، فمرادي منك ما تريده[٤] مني[٥]، والآخر قال: مرادي منك تمتُّعِي بمشاهدتك، أكانا[٦] عنده سواء؟.

ومن[٧] هو[٨] صاحب المحبة المعلولة[٩] النفسانية، وصاحب المحبة الصحيحة الصادقة والتامة[١٠].

---

(١) ق (فهذا).

(٢) (الأول) سقطت من أ، ب، غ، ح٢.

(٣) (فجاءا حتىٰ) سقطت من ط، و (حتىٰ) سقطت من غ، ح٢، م.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (أنت).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (لا ما أريده أنا منك).

(٦) ق الألف ساقطة من (أكانا).

(٧) ط (فمن).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (الآن).

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (المدخولة الناقصة).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (الكاملة أهذا أم هذا).

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحمه الله[١]- يحكي عن بعض العارفين[٢] أنه قال : الناس يعبدون الله ، و[٣]الصوفية يعبدون نفوسهم[٤].

أراد هذا المعنى[٥] ، وأنهم واقفون مع مرادهم من الله ، لا مع مراد الله منهم.

وهذا عين عبادة النفس ، فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل فإنه محك وميزان ، والله المستعان.

* * *

(١) ق (قدس الله روحه).

(٢) د (الصادقين).

(٣) د زيادة (بعض).

(٤) ط (أنفسهم).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (المتقدم).

فصـــل(١)

ومن منازل: «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الحياء»(٢). منزلة الحيـاء

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤](٣).

وفي الصحيح من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال: «دَعْه، فإن الحياء من الإيمان»(٤).

وفيهما عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»(٥).

---

(١) في حاشية ش (باب الحياء)، ط (منزلة الحياء).

(٢) الحياء: «انقباض النفس من شيء، وتركه حذراً من اللوم فيه، وهو عندهم ينقسم إلىٰ حياء العامة: وهو ما يحدث لهم عند علمهم بنظر الحق إليهم، وهو حامل علىٰ تكميل المجاهدة، وحياء الخاصة: وهو ما يحدث لهم عند مشاهدة كشف جمعية لا يمازجه حجاب تفرقة وغيرية، وهو شهود الأمر محققاً بالله، فالأول موجبه الخبر، والثاني موجبه العيان لبلوغه مقام الإيمان» الرسالة القشيرية.

انظر لطائف الإعلام (١/ ٤٣٦)، معجم مصطلحات الصوفية ٨٣.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (وقوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩]).

(٤) البخاري. الإيمان (١/ ٢٤) ح(٢٤)، مسلم. الإيمان (١/ ٦٣) ح(٣٦)، أحمد (٢/ ١٤٧).

(٥) البخاري. الأدب (٤/ ١١٣) ح(٦١١٧)، مسلم. الإيمان (١/ ٦٣) ح(٣٧)، أحمد (٤/ ٢٤٧).

وفيهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ[(١)]: «الإيمان بِضعٌ وسبعون شعبة – أو بضع وستون شعبة – فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان»[(٢)].

وفيهما عن أبي سعيد[(٣)] رضي الله عنه[(٤)] «كان رسول الله ﷺ أشدُّ حياءً من العَذراءِ في خِدرها، فإذا رأىٰ شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[(٥)].

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إنَّ مما أدرك الناس في كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستحِ فاصنع ما شِئت»[(٦)]، وفي هذا قولان:

أحدهما[(٧)]: أنه أمر تهديد، ومعناه الخَبَر، أي من لم[(٨)] يستح صنع ما شاء.

والثاني: أنه أمر إباحة، أي انظر إلىٰ الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (أنه قال).

(٢) البخاري. الإيمان (١/ ٢٠) ح(٩)، مسلم. الإيمان (١/ ٦٣) ح(٣٥)، أحمد (٢/ ٤١٤)، الترمذي. الإيمان (٥/ ١٠) ح(٢٦١٤).

(٣) ط، غ زيادة (الخدري).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (أنه قال).

(٥) البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٢)، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨٠٩) ح(٢٣٢٠)، أحمد (٣/ ٧١ـ ٩١).

(٦) البخاري. أحاديث الأنبياء (٢/ ٥٠١) ح(٣٤٨٣)، أحمد (٥/ ٣٨٣) (٤/ ١٢١)، أبو داود. الأدب (٥/ ١٤٨) ح(٤٧٩٧)، ابن ماجه. الزهد (٢/ ١٤٠٠) ح(٤١٨٣).

(٧) (أحدهما) سقطت من ح٢.

(٨) (لم) سقطت من د.

مما لا يُسْتَحىٰ[1] منه فافعله[2] ، والأول أصح وهو قول الأكثرين.

وفي الترمذي مرفوعاً : «استحيوا من الله حقَّ الحياء ، قالوا : إنَّا نستحي يا رسول الله ، قال : ليس ذلكم ، ولكن من استحىٰ من الله حق الحياء فليحفظ الرَّأس وما وعىٰ ، وليحفظ البطن وما حوىٰ ، وليذكرِ الموت والبِلىٰ ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدُّنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحىٰ من الله حق الحياء»[3].

فصل

تعريف الحياء والأقوال المأثورة فيه

و«الحياء» من الحياة ، ومنه «الحيا» للمطر ؛ لكن هو مقصور ، وعلىٰ حسب حياة القلب يكون[4] فيه قوة خُلُق الحياء ، وقلة الحياء من موت القلب والروح فكلما[5] كان القلب أحيا كان الحياء أتم.

قال الجنيد - رحمه الله - : « الحياء رؤية الآلاء ، ورؤية التَّقصير ، فيتولد

---

(١) م ، ش (تستحي).

(٢) ق (لا تستحي من فعله إذا فعلته).

(٣) الترمذي. صفة القيامة (٤/ ٦٣٧) ح(٢٤٥٨) ، وقال حديث غريب ، أحمد (١/ ٣٨٧) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٣) ، وصححه ووافقه الذهبي ، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٢) ، وسنده ضعيف فيه الصباح الأحمسي ، انظر تهذيب الكمال (٤/ ٣٧٤) ، وقد رجح الأئمة وقفه كما في العلل للدارقطني (٥/ ٢٧٠) ، والذهبي في الميزان (٢/ ٣٠٦) ، فهو موقوف علىٰ ابن مسعود ، وذكره الألباني في ضعيف الجامع (١/ ٢٦٥) رقم(٩٠٥).

(٤) م ، ش (تكون).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (وكلما).

بينهما حالة تسمىٰ الحياء ، وحقيقته خُلق يبعث علىٰ ترك القبائح ، ويمنع التفريط في حق صاحب الحق»(١).

ومن كلام بعض الحكماء : «أحيوا الحياء بمجالسة من يُسْتحىٰ منه(٢) ، وعمارة القلب بالهيبة والحياء ، فإذا ذهبا من القلب لم يبق به خير»(٣).

وقال ذو النون : «الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلىٰ ربك ، والحب ينطق والحياء يُسكت والخوف يُقلق»(٤).

وقال السري(٥) : «إن الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا»(٦).

وفي أثر إلهي يقول الله عزَّ وجلَّ : «ابن آدم ، إنك ما استحييت مني(٧) أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذُنوبك ، ومحوت من أمِّ الكتاب

---

(١) الرسالة القشيرية (٣٢٦) ، وذكره النووي في آخر باب الحياء ، رياض الصالحين ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٤٧).

(٢) عزاه البيهقي لابن الأعرابي ، انظر شعب الإيمان (٦/ ٥٠٦) ، الرسالة القشيرية(٣٢٣).

(٣) نحوه عن ابن عطاء ، الرسالة القشيرية(٣٢٣).

(٤) الرسالة القشيرية (٣٢٣) بنحوه ، أوله في شعب الإيمان (٦/ ١٤٧) رقم(٧٧٤٣).

(٥) أبو الحسن ، السري بن مغلس السقطي خال الجنيد وأستاذه ، له أقوال في الزهد والرقائق ، توفي سنة ٢٥١هـ/ صفة الصفوة (٢/ ٢٤٢) ، حلية الأولياء (١٠/ ١١٦).

(٦) الرسالة القشيرية (٣٢٤) ، شعب الإيمان (٦/ ١٤٨) رقم(٧٧٤٦) ، صفة الصفوة (٢/ ٣٨١).

(٧) (مني) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢.

زلاتك[1]، وإلا ناقشتك الحِساب يوم القيامة»[2].

وفي أثر آخر: «أوحىٰ الله عزَّ وجلَّ إلىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام: عظ نفسك، فإن اتعظت، وإلا فاستحي مني[3]: أن تعظ الناس»[4].

وقال الفضيل بن عياض: «خمس من علامات الشّقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل»[5].

وفي أثر إلهي «ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أنْ أردَّه، ويعصيني ولا يستحي مني[6]»[7].

---

(١) قال الإمام السعدي ـ رحمه الله ـ: «هذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال علىٰ الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي اللوح المحفوظ.. فالتبديل والتغيير يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ويجعل الله لثبوتها أسباباً ولمحوها أسباباً لا تتعدىٰ تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ.. فما يديره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ».

تفسير الكريم الرحمن ٤/ ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٥، شعب الإيمان بسنده إلىٰ أبي سليمان الداراني ٦/ ١٥٠.

(٣) م، ش (من).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢٥، حلية الأولياء ٢/ ٣٨٢، إحياء علوم الدين ١/ ٦٣.

(٥) الرسالة القشيرية (٣٢٩)، شعب الإيمان (٦/ ١٤٨) رقم(٧٧٤٧).

(٦) (مني) سقطت من أ، ب، غ.

(٧) عزاه في الرسالة القشيرية لبعض الكتب من دون تسمية لها ٣٢٦.

وقال يحيىٰ بن معاذ : «من استحيا من الله مُطيعاً استحيا[1] منه وهو مذنب»[2].

وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح.

ومعناه : أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتىٰ في حال[3] طاعته ، فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل : فإنه إذا واقع[4] ذنباً استحيا الله عزَّ وجلَّ من نظره إليه في تلك الحال[5] لكرامته عليه ، فيستحيي أن يرىٰ من وليه ومن يَكْرُم عليه : ما يشينه عنده ، وفي الشاهد شاهد بذلك ، فإن الرجل إذا اطلع علىٰ أخص الناس به ، وأحبهم إليه وأقربهم منه - من صاحب ، أو ولد ، أو من يحبه - وهو يخونه ، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب ، حتىٰ كأنه هو الجاني ، وهذا غاية الكرم.

وقد قيل : إن سبب هذا الحياء إنه يمثل نفسه[6] وهو الخائن فيلحقه الحياء ،

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (الله).

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٦.

(٣) (حال) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٤) ش ، د (وقع).

(٥) ح٢ (الحالة).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (في حال طاعته كأنه يعصي الله عزّ وجلّ فيستحي منه في تلك الحال ، ولهذا شرع الاستغفار عقيب الأعمال الصالحة ، والقرب التي يتقرب بها العبد إلىٰ الله عزّ وجلّ ، وقيل : أنه يمثل نفسه خائناً) ، وفي م ، ح٢ (جانياً).

كما إذا شاهد الرجل[١] مضروباً[٢] أو من[٣] أُحصِر علىٰ المنبر عن الكلام ، فإنه يخجل أيضاً ، تمثيلاً لنفسه بتلك الحال.

وهذا قد[٤] يقع، ولكن حياء من اطلع علىٰ محبوب له[٥] يخونه ليس من هذا، فإنه لو اطلع علىٰ غيره ممن هو فارغ البال منه ، لم يلحقه هذا الحياء ولا قريب منه ، وإنما يلحقه مقته وسقوطه من عينه ، وإنما سببه - والله أعلم - شدة تعلق قلبه ونفسه به ، فينزل الوهم فعله بمنزلة[٦] فعله هو ، و[٧]لا سيما إن قدر حصول المكاشفة بينهما ، فإن عند حصولها يهيج خلق الحياء منه تكرُّماً ، فعند تقديرها ينبعث الحياء ، هذا في حق الشاهد.

وأما حياء الرب[٨] من عبده : فذاك نوع آخر ، لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال ، فإنه[٩] حيي كريم يستحيي من عبده

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (رجلاً).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط زيادة (وهو صديقاً له) ، وفي ق (وهو صديق له مضروباً).

(٣) ط زيادة (قد).

(٤) (قد) سقطت من غ.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (محبوبه وهو).

(٦) ش (ما فعله).

(٧) (الواو) سقطت من ش.

(٨) ق ، ط زيادة (تعالىٰ).

(٩) ق ، ط زيادة (تبارك وتعالىٰ).

إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفراً [١]، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام [٢].

وكان يحيىٰ بن معاذ [٣] يقول: «سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو» [٤]، وفي أثر: «من استحيا من الله استحيا الله منه» [٥].

وقد قُسم «الحياء» علىٰ عشرة أوجه: حياء جِناية، وحياء تقصير، وحياء

(١) في هذا إشارة إلىٰ الحديث: «إن الله يستحي من عبده إذا رفع يديه..» أخرجه أبو داود. الصلاة (٢/ ١٦٥) ح(١٤٨٨)، الترمذي. الدعوات (٥/ ٥٥٦) ح(٣٥٥٦)، وقال حسن غريب، البيهقي في السنن (٢/ ٢١١) ح(٢٩٦٢)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦) ح(٦١٤٨)، صحيح ابن حبان (٣/ ١٦٠) ح(٨٧٥)، صحيح ابن ماجه (٢/ ٣٣١) ح(٣٨٦٧) وزيادة (أو قال خائبتين).

(٢) في هذا الكلام إشارة إلىٰ الحديث القدسي، وقد ورد من طريق أنس ولفظه «إن الله يستحي من عبده وأمته يشيبان في الإسلام يعذبهما..» أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٥/ ١٣٥)، وقال محققه حسين أسد إسناده ضعيف، مسند الحارث (زوائد الهيثمي) (٢/ ٩٧٦)، وابن عدي في الكامل (١/ ٣٥٧)، وفيه أيوب بن ذكوان عن الحسن، قال البخاري منكر الحديث، وابن حبان في المجروحين (٢/ ١٦٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٨٧)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٤)، وقال في سنده ضعف، وعزاه للسيوطي في الجامع الصغير عن ابن النجار.

(٣) ق زيادة (رحمه الله).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢٦.

(٥) ورد في معناه قصة الثلاثة نفر الذين مروا علىٰ رسول الله ﷺ في حلقة ذكر يعظ أصحابه، والقصة في الدعاء للطبراني (٥٣٣)، والتمهيد لابن عبدالبر (١/ ٣١٧).

أقسام الحياء

جلال[1]، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استِصْغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة[2]، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه[3].

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فَرَّ هارباً في الجنة، قال الله تعالىٰ: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا[4] يا ربّ، بل حياء منك[5].

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سُبحانك! ما عبدناك حق عبادتك[6].

وحياء الإجلال: هو حياء معرفة، وعلىٰ حسب معرفة العبد بربه يكون

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (إجلال).

(٢) ب، م (محب).

(٣) انظر هذه الأقسام في الرسالة القشيرية ٣٢٥.

(٤) (لا) سقطت من الأصل، والأقرب إثباتها كما في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٥) حلية الأولياء (٥/ ١١٣)، التوابين للمقدسي تحقيق الأرناؤوط ٩.

(٦) روي هذا الحديث من طرق متعددة وعن عدد من الصحابة: من طريق جابر عند الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٤)، والعظمة لأبي الشيخ (٣/ ١٠١٥)، وتعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٦٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٨) فيه عروة بن مروان قال الدارقطني ليس بقوي الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح، وأورده في شعب الإيمان (١/ ١٨٤)، ومن طريق عمر في المستدرك (٣/ ٩٣)، وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري ولم يخرجاه، ومن طريق سلمان في المستدرك (٤/ ٦٢٩)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، والزهد لابن المبارك (٤٧٨)، وفي الترغيب والترهيب (٤/ ٢٣٠)، وعن عدي بن أرطأة عن رجل، أخرجه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٤٧)، وقال إسناده لا بأس به.

حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبيّ ﷺ من القوم الذين دعاهم إلىٰ وليمة زينب، وطَوَّلوا[1] عنده فقام واستحيىٰ أن يقول لهم انصرفوا[2].

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه[3].

وحياء الاستحقار[4]، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عزّ وجل حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن[5] نفسه واستصغاراً لها، وفي أثر إسرائيلي «إن موسىٰ[6] قال: يا رب، إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحيي أن أسألك[7] يا رب، فقال الله تعالىٰ: سَلْني حتىٰ مِلْح عجينك[8] وعَلَف شاتك»[9].

---

(١) ط زيادة (الجلوس).

(٢) البخاري. النكاح (٣/ ٣٧٦) ح(٥١٥٤)، مسلم. النكاح (٢/ ١٠٤٨) ح(٤٢٨)، أحمد (٣/ ١٦٥).

(٣) الحديث في البخاري. الغسل (١/ ١٠٥) ح(٢٦٩)، مسلم. الحيض (١/ ٢٤٧) ح(٣٠٣)، أحمد (١/ ١٢٤)، وقوله: (حياء الحشمة) في الرسالة القشيرية(٣٢٥).

(٤) أ، ب، غ زيادة (وهي).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (بشأن).

(٦) ط زيادة (عليه السلام).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (هي).

(٨) أ، ب، غ (عجينتك).

(٩) ذكره أبو بكر الرازي بدون عزو في منازل السائرين ٤٥٣، الرسالة القشيرية ٣٢٦، وأورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم، طبعة دار المعرفة ٢٢٥.

وقد يكون لهذا[1] النوع من الحياء[2] سببان.

أحدهما : استحقار السائل نفسه[3].

الثاني : استعظامه[4] مسؤوله.

وأما حياء المحبة : فهو حياء المحب من محبوبه ، حتىٰ أنه[5] إذا خطر علىٰ قلبه في حال[6] غيبته هاج الحياء من قلبه ، وأحس به في وجهه ، ولا يدري[7] ما سببه ، وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته[8] محبوبه ومفاجأته[9] له روعة شديدة ، ومنه[10] قولهم «جمال رائع» وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس ، ولا ريب أن للمحبة[11] سلطاناً قاهراً للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن ، فأين من يقهر قلبك وروحك إلىٰ من يقهر بدنك؟ ولذلك[12]

---

(١) غ (هذا).

(٢) (من الحياء) سقطت من غ ، ب ، أ ، ط.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د زيادة (واستعظام ذنوبه وخطاياه).

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (استعظام).

(٥) (أنه) سقطت من ق.

(٦) (حال) سقطت من ط.

(٧) ش (يدرك).

(٨) ب ، ش (ملاقاة).

(٩) أ ، ب ، غ (مفاجأته).

(١٠) ش (منهم).

(١١) ق (للمحب).

(١٢) ح٢ (فلذلك).

تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق ، وقهر المحبوب لهم ، وذلهم له فإذا فاجأ[١] المحبوب محبه ، ورآه بغتة[٢] : أحس القلب بهجوم سلطانه عليه ، فاعتراه روعة وخوف.

وسألنا يوماً شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله[٣]- عن هذه المسألة؟ فذكرتُ أنا هذا[٤] الجواب ، فتبسَّم ولم يقل شيئاً.

وأما الحياء الذي يعتريه منه ، وإن كان قادراً عليه - كأمتِهِ وزوجته - فسببه - والله أعلم - أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيبته واحتشامه، فتولد منها الحياء ، وأما حصول ذلك له[٥] في غيبة المحبوب : فظاهر ، لاستيلائه علىٰ قلبه ، فوهمه[٦] يغالطه عليه[٧] ويكابره ، حتىٰ كأنه معه.

وأما حياء العبودية : فهو حياء ممتزج بين[٨] محبة وخوف ، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده ، وأن قدره أعلىٰ وأجل منها ، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

---

(١) ش (جاء).

(٢) ش (بغيته).

(٣) ط زيادة (قدس الله روحه).

(٤) (هذا) سقطت من ش.

(٥) (له) سقطت من د.

(٦) أ ، ب ، غ (فوهم).

(٧) (عليه) سقطت من ط.

(٨) ط زيادة (من) ، و (بين) سقطت من د.

وأما حياء الشَّرف والعزة : فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل عطاء أو إحسان ، فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة ، وهذا له سببان :

أحدهما : هذا . والثاني : استحياؤه[1] من الأخذ ،[2] حتىٰ إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه ، وهذا يدخل في حياء التكرم[3] ؛ لأنه يستحيي[4] من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه : فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة[5] من رضاها لنفسها بالنقص ، وبيعها[6] بالدون ، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه ، حتىٰ كأنه له نفسين[7] يستحيي بإحداهما من الأخرىٰ ، وهذا أكمل ما يكون من الحياء ، فالعبد إذا استحيىٰ من نفسه ، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.

---

(١) ش (استحياؤ).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (حتىٰ كأنه هو الآخذ السائل).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط (التلوم).

(٤) أ ، ب ، غ (لا يستحيي).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ط (الرفيعة).

(٦) ط (قناعتها) ، وم ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (قنعها).

(٧) الأصل (نفسان) والصحيح لغة ما أثبته من م ، ح٢ ، ط.

فصـــل

قال صاحب «المنازل» رَحمه الله[١] :

«الحَيَاءُ : مِنْ أَوَّلِ مَدَارِجِ أَهْلِ الخُصُوصِ ، يَتَوَلَّدُ مِن تَعْظِيمِ مَنُوطٍ بِودٍّ»[٢].

إنما جعل «الحياء» من أول مدارج أهل الخصوص : لما فيه من ملاحظة حضور من يستحيي منه ، وأول سلوك أهل الخصوص : أن يروا[٣] الحق سبحانه حاضراً معهم[٤] ، وعليه بناء سلوكهم.

وقوله : «إِنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِن تَعْظِيمِ مَنُوطٍ بِودٍّ».

يعني أن الحياء حالة تحصل[٥] من امتزاج التعظيم بالمودة ، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياءُ.

والجنيد - رحمه الله - يقول : إن تولده من مشاهدة النعم ، ورؤية التقصير[٦].

---

(١) (رحمه الله) سقطت من الجميع سوىٰ الأصل ، ق.

(٢) منازل السائرين (٤٢).

(٣) الرؤية هنا لا بد أن يكون معناها الاعتقاد القلبي وإلا فهي فاسدة.

(٤) إن كان هذا اللفظ علىٰ ظاهره فهو باطل ؛ لأنه ذريعة لقول الحلولية.

(٥) ط (حاصلة).

(٦) الرسالة القشيرية (٣٢٦) ، وأورد نحوه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٦) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٩٩).

ومنهم من يقول : تولده من شعور القلب بما يستحيي منه (وشدة نفرته عنه)[١] فيتولد من هذا الشعور والنفرة حالة تسمىٰ الحياء.

ولا تنافي بين هذه الأقوال ، فإن[٢] للحياء عدة أسباب ، قد تقدَّمَ ذكرُها ، فكل[٣] أشار إلىٰ بعضها[٤].

فصل

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِن عِلْمِ العَبْدِ بِنَظَرِ الحَقِّ إِلَيهِ ، فَيَجْذِبُهُ إِلىٰ تحمُّلِ[٥] ، [٦]المجُاهَدَةِ ، وَيحْمِلُهُ عَلىٰ استِقْبَاحِ الجِنَايَةِ ، وَيُسْكِتُه[٧] عَن الشَّكْوَىٰ»[٨]. درجات الحياء الدرجة الأولى

يعني أن العبد متىٰ علم أن الرب تعالىٰ ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه ، يجذبه إلىٰ احتمال أعباء الطاعة ، مثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيده ، فإنه يكون نشيطاً فيه ، محتملاً لأعبائه،[٩] بخلاف ما إذا كان غائباً عن سيده

---

(١) (وشدة نفرته عنه) ساقطة من ط.

(٢) غ ، أ ، ح٢ (وبأن) و ش ، م (لأن).

(٣) ش (وكل).

(٤) ق زيادة (والله أعلم).

(٥) غ (عمل).

(٦) د ، ط زيادة (هذه).

(٧) الأصل (ويستكفه) والأقرب ما أثبته من هامش الأصل ، م ، غ ، ب ، ش ، ق ، ط.

(٨) منازل السائرين (٤٢).

(٩) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط زيادة (ولا سيما مع الإحسان من سيده إليه و محبته لسيده).

والرب[١] تعالىٰ لا يغيب نظره[٢] عن عبده، ولكن يغيب نظر القلب والتفاته إلىٰ نظره سبحانه إلىٰ العبد[٣][٤].

وكذلك يحمله علىٰ استقباح جنايته[٥]، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدر زائد علىٰ استقباح ملاحظة الوعيد، وهو فوقه.

وأرفع درجة منه: درجة الاستقباح الحاصل عن المحبة، فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف، وكذلك[٦][٧] هذا الحياء يكف العبد عن أن يشتكي إلىٰ غير[٨] الله، فيكون قد شكا الله إلىٰ خلقه، ولا يمنع الشكوىٰ إليه سبحانه، فإن الشكوىٰ إليه[٩] فقر، وذلة[١٠]، وفاقة، وعبودية، فالحياء منه[١١] لا ينافيها.

---

(١) ق (فالرب).

(٢) (نظره) سقطت من أ، ب، غ، ح٢، ق.

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق (العبيد).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (فإن القلب إذا غاب نظره، وقل التفاته إلىٰ نظر الله تبارك وتعالىٰ إليه تولد له من ذلك قلة الحياء والقحة).

(٥) ط (جنابته).

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، د (ولذلك).

(٧) ط زيادة (فإن).

(٨) ط (لغير الله).

(٩) ط، ق زيادة (سبحانه).

(١٠) ق، غ (ذل) وهي مطموسة من ب.

(١١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط زيادة (في مثل ذلك).

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ[١] : حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِن النَّظَرِ فِي عِلمِ القُرْبِ ، فَيَدعُوهُ[٢] إِلىٰ رُكُوبِ المحبَّةِ ، وَيَربطه بِرَوحِ الأُنسِ ، وَيُكَرِّهُ إِلَيهِ مُلَابَسَةَ الخَلقِ»[٣].

النظر في علم القرب : تحقق القلب بالمعية الخاصة مع[٤] الله ، فإن المعية نوعان :

عامة : هي معية العلم والإحاطة ، كقوله تعالىٰ :﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] ، وقوله:﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصة : وهي معية القرب ، كقوله تعالىٰ :﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل :١٢٨] ،[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٣] ،[٦] ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت :٦٩].

فهذا معية قرب ، تتضمن الموالاة ، والنصر ، والحفظ[٧] ، وكلا المعنيين

---

(١) د (الثالثة).

(٢) أ (فيدعو).

(٣) منازل السائرين ٤٢.

(٤) أ ، ب ، غ (من).

(٥) ط (وقوله).

(٦) ط (وقوله).

(٧) ح٢ (الحفظ والنصر).

مصاحبة منه للعبد ؛ لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة ، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة ، فـ «مع» في لغة العرب[1] للصحبة اللائقة ، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ، ولا مجاورة ، ولا مجانبة ، فمن فهم[2] منها شيئاً من هذا فمن سوءِ فهمه أُتي.

وأما القرب : فلم[3] يقع في القرآن إلا خاصاً ، وهو نوعان : قُربُه من داعيه بالإجابة ، وقربُه من عابده بالإثابة.

فالأول : كقوله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة :١٨٦] ولهذا[4] نزلت جواباً للصحابة رضي الله عنهم ، وقد سألوا رسول الله ﷺ : ربُّنا قريبٌ فنناجيه؟ أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية»[5].

(١) ط (تفيد).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط (ظن) ، ح٢ (ظنها).

(٣) أ ، ب ، غ (فلا).

(٤) د (فهذا).

(٥) رواه الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده قال : جاء أعرابي إلىٰ النبي. . . ، انظر فوائد العراقيين (ص٣١) ، وقال محققه ، إسناده موضوع ، لسان الميزان (٣/ ١٩٥) ، وقال فيه الصلت بن حكيم مجهول روىٰ عن أبيه ، وعزاه للعلائي في الوشي ، وقال لم أر للصلت ذكراً في كتب الرجال ، الثقات لابن حبان (٨/ ٤٣٦) ، العظمة لأبي الشيخ (٢/ ٥٣٥) ، الطبري في التفسير (٢/ ١٥٨) ، أخرجه ابن كثير بسنده (١/ ٣٧١) ، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٦٩) ، البغوي في تفسيره (١/ ١٥٥) ، القرطبي في التفسير (٢/ ٣٠٨).

والثاني كقول النبي[١] : «أقرب ما يكون العبد من ربه : وهو ساجد ، وأقرب ما يكون الرب من عبده : في جوف الليل[٢]»[٣] ، فهذا قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح : عن أبي موسىٰ[٤] ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فارتفعت أصواتنا بالتكبير ، فقال : « أيها الناس، اربعوا علىٰ أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلىٰ أحدكم من عُنقِ راحلته»[٥].

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء[٦] العبادة والثناء والحمد ، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه ، واستواءه علىٰ عرشه ؛ بل يجامعه ويلازمه ، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولكنه نوع آخر ، والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي ، ويجده أقرب إليه من جليسه ، كما قيل :

ألا رُبَّ من يدنو ويَزعُم أنه ... يحبك والنائي أحَبُّ إليه وأقربُ[٧]

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (قوله ﷺ).

(٢) د (العبد).

(٣) مسلم. الصلاة (١/ ٣٥٠) ح(٤٨٢) ، صحيح النسائي (١/ ٣٦٩) ح(١١٣٦) ، أحمد (٢/ ٤٢١).

(٤) ح٢ (الأشعري).

(٥) البخاري. القدر (٤/ ٢١١) ح(٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٦) ح (٢٧٠٤) ، أحمد (٤/ ٤٩٣) ، ابن حبان في صحيحه (٣/ ٨٤).

(٦) ح٢ (ودعاء).

(٧) بيت الشعر : لم أجده.

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ، وورثته وأحباؤه الذي[1] هو عندهم أولىٰ بهم من أنفسهم، وأحبُّ[2] إليهم منها يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومَنْ حولها، هذا مع عدم تأتي القرب منها، فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء، وهو مستوٍ علىٰ عرشه، وأهل الذوق[3] لا يلتفتون في ذلك إلىٰ شُبهةِ مُعطِّل بعيد من الله خليٍّ من محبته ومعرفته.

والقصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلىٰ ركوب المحبة، وكلما زاد حباً ازداد قرباً، فالمحبة بين قُربين: قربٌ قَبلها، وقُرب بعدها، وبين معرفتين: معرفة قبلها حملت عليها، ودَعت[4] إليها، ومعرفة بعدها، هي من نتائجها وآثارها.

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (الذين).

(٢) أ (وحب).

(٣) الذوق: نور عرفاني يقذفه الحق في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره، وهو أول مبادئ التجليات، ولا ينالها إلا من خلا قلبه عن العلائق والعوائق، بخلاف الرسوم، وهو عندهم مثل الفرق بين من علم طعم العسل ومن ذاقه.
وقال القشيري: إنهم يعبرون به عن نتائج الكشوفات وبواده الواردات، انظر في هذه الأقوال: لطائف الإعلام (١/ ٤٧٢)، الرسالة القشيرية ١٤٦، معجم مصطلحات الصوفية (١٠٤)، رشح الزلال (٨١)، وهذه الأقوال تستند إلىٰ جرف هار من أقوال الحلاج وابن الفارض، حيث إن أعلىٰ درجات العلم عندهم هو الاتحاد، انظر لطائف الإعلام ١/ ٤٧٣.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (ودلت عليها).

وأما ربطه بروح الأنس: فهو تعلق قلبه[١] بالأنس بالله ، تعلقاً لازماً لا يفارقه، بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة ، ولا ريب أن هذا يُكرِّه إليه ملابسة الخلق ، بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه[٢] بربه ، وقرة عينه بحبه وقربه منه ، فإنه ليس مع الله غيره ، فإن لابسهم لابسهم برسمه[٣] دون سرِّه وروحه وقلبه ، فقلبه في ملأٍ[٤] ، وبدنه ورسمه في ملأٍ.

فصـــل

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : حَيَاءٌ يَتَوَلَّدُ مِن شُهُودِ الحَضْرةِ[٥] وَهَي الَّتِي يِشُوبُهَا[٦] الدرجة الثالثة

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، (بروح الأنس).

(٢) ط (أنه) بدل (أنسه).

(٣) رسمه : هو الخَلق وصفاته ، لأن الرسوم هي الآثار.. وهم يطلقونه ويريدون به كل ما سوىٰ الله ، لأن كل ما سوىٰ الله آثار عنه ، وآثار لقدرته.. لطائف الإعلام ١/ ٤٨٩ ، معجم مصطلحات الصوفية ١١٢.

(٤) الملأ : الجماعة.. مختار الصحاح ٦٣١.

(٥) شهود الحضرة : الشهود عند الصوفية مقامات ، فالحضور مع الشهود ، يطلق ويُرادُ به الجمع بين الحواس الظاهرة والباطنة ، وتتّحد في إدراكها والموجب لذلك نور من جناب الشهود يمحو ظلمة الحجاب ، فيفنىٰ كل ما سواه بظهوره.. ومنه شهود المتوسطين ، وشهود المنتهين ، وهو أعلاها عندهم ، فهو رؤية المجمل في المفصل ، والمفصل في المجمل ، بحيث يرىٰ كل شيء فلا ينحجب برؤية الحق علىٰ الخلق ولا برؤية الخلق عن الحق ، لطائف الإعلام ٢/ ٤٢ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٤٢.

(٦) م ، أ ، غ ، ب ، ش (لا تشوبها) ، وهو خلاف المنازل ٤٣.

هَيْبَةٌ ، وَلَا تُقَارِنُهَا تَفْرِقَةٌ(١) وَلا يُوقَفُ لهَا عَلىٰ غَايَةٍ»(٢).

شهود الحضرة : انجذاب الروح والقلب من الكائنات ، وعكوفه علىٰ رب البريات ، فهو في حضرة قربه مشاهداً لها ، وإذا وصل القلب إليها غَشِيته الهيبة وزالت عنه التفرقة ، إذ ما مع الله سواه ، فلا يخطر بباله في تلك الحال سوىٰ الله وحده ، وهذا مقام الجمعية.

وأما قوله : «وَلا يُوقَفُ(٣) لهَا عَلىٰ غَايَةٍ».

يعني(٤) أن كل من وصل إلىٰ مطلوبه ، وظفر به : وصل إلىٰ الغاية ، إلا صاحب هذا الشهود(٥) فإنه لا يقف بحضرة الربوبية علىٰ غاية ، فإنّ ذلك مستحيل ، بل إذا شهد تلك الروابي ، ووقف علىٰ تلك الرُّبوع ، وعاين الحضرة التي هي غاية الغايات ، شارف أمراً لا غاية له ولا نهاية ، والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم :٤٢] ، فانتهت إليه الغايات والنهايات ، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية : لا في وجوده ، ولا في مزيده وجوده(٦) ، إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء ، و«الآخر» الذي ليس

(١) الأصل (ولا يقاربها بفرقة) والأقرب ما أثبته من المنازل (ص٤٣) ، م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٢) منازل السائرين (٤٣).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ق (يقف).

(٤) ط (فيعني).

(٥) ق (المشهود) ، أ ، ب ، غ ، ح٢ (المشهد).

(٦) ش ، ط (مزيد) بسقوط الهاء.

بعده شيء ، ولا نهاية لمجده وحمده[١] وعطائه ، [٢]وكلما ازداد منه قرباً لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك ، وهكذا أبداً لا يقف علىٰ غاية ولا نهاية ، ولهذا جاء «إنّ أهل الجنَّة في مزيد دائمٍ بلا انتهاء[٣]»[٤].

فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه ، ولا لمزيده ولا لأوصافه ، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام[٥].

* * *

(١) ط (لحمده).

(٢) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (بل كلما ازداد له العبد شكراً زاده فضلاً ، وكلما زاده طاعة زاده لمجده مثوبة) ولفظة (لمجده) سقطت من ط.

(٣) ق (بلا نهاية).

(٤) لم أجده.

(٥) في م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ ، «يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر»).

فصـــل

منزلة الصـدق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الصدق»(١).

وهـي منزلـة(٢) القـوم الأعظـم ، الـذي منه تنشأ جميـع منـازل الـسالكين ، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهـالكين ، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان ، وسكان الجنان من أهل النيران ، وهـو سيف الله في أرضـه الـذي مـا وُضِـع عـلىٰ شيء إلا قطعـه ، ولا واجـه بـاطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تُردّ صولتُه ، ومن نطق به عَلَتْ علىٰ الخصوم كلمتُه ، فهو روح الأعمال ، و محكُّ الأحوال ، والحامل علىٰ اقتحام الأهوال ، والبابُ الذي دخل منه الواصلون إلىٰ حضرة ذي الجلال ، وهـو أسـاسُ بنـاء الـدّين ، وعمـود فـسطاط (٣) اليقين ، ودرجتـه(٤) تاليـة لدرجـة «النبـوة» التـي هـي أرفـع درجـات العـالمين ، ومـن مـساكنهم في الجنـان(٥) تجـري العيـون والأنهـار إلىٰ

---

(١) منزلة الصدق : لها عند القـوم تعريفـات وأقـسام ، وهـو الموافـق للحـق في الأقـوال والأفعـال والأحوال، وهو اجتماع الهم علىٰ الحق بحيث لا يختلج في القلب، تفرقه عن الحق بوجهه، ومن ترك ملاحظة الخلق بـدوام مشاهدة الحـق سـمي صـديقاً والـصديقية أعـلىٰ مقاماتهـا.. لطائف الأعلام (٢/ ٥٨) معجم مصطلحات الصوفية ١٥٠ ، الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٢) د ، ح٢ ، ش (منزل).

(٣) فسطاط : الفسطاط بيت من شَعَر ، مختار الصحاح (٥٠٣).

(٤)ح٢ (درجة)

(٥) م ، ح٢ ، ط (الجنات).

مساكن الصدِّيقين ، كما كان من قلوبهم إلىٰ قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان : أن يكونوا مع الصادقين ، وخصَّ المُنْعَم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة : ١١٩] وقال : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ(١)﴾ فهم أهل(٢) الرفيق الأعلىٰ ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] ولا يزال الله يُمدّهم بنعمه(٣) وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً ، ولهم مزية(٤) المعية مع الله ، فإن الله مع الصادقين ، ولهم منزلة القرب منه ، إذ درجتهم منه ثاني(٥) درجة النبيين(٦).

وأخبر تعالىٰ أنّ من صَدَقه فهو خير له ، فقال : ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد : ٢١].

وأخبر تعالىٰ عن أهل البرِّ ، وأثنىٰ عليهم بأحسن أعمالهم : من الإيمان ،

---

(١) ﴿والصالحين﴾ سقط من ط.

(٢) (أهل) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (بأنعمه).

(٤) ط (مرتبة) ، وفي ح٢ (العبودية والمعية).

(٥) أ ، ب ، غ (بأدنىٰ).

(٦) د (اليقين).

والإسلام، والصدقة، والصبر، بأنهم أهل الصدق[١] فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ[٢]﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]، وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان[٣].

وقسم الله سبحانه الناس إلىٰ صادق ومنافق، فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ[٤] إِن شَآءَ[٥] أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه[٦] من عذابه[٧] إلا صدقه، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ[٨] لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) (بأنهم أهل الصدق) سقط من أ، ب، غ.

(٢) ط زيادة (﴿وآتىٰ المال علىٰ حبِّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾).

(٣) غ (الإيمان والإسلام).

(٤) ب، أ (والمنافقات) وهو خطأ.

(٥) أ، ب، غ (الآية).

(٦) ق زيادة (ريغه).

(٧) ح٢ (عذاب الله).

(٨) أ، ب، غ (.. الآية).

ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة :١١٩] وقال : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر :٣٣ - ٣٤] ، فالذي جاء بالصدق : هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله ، فالصدق في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال : استواء اللسان علىٰ الأقوال ، كاستواء السنبلة علىٰ ساقها ، والصدق في الأعمال : استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس علىٰ الجسد ، والصدق في الأفعال(١) ، استواء القلب والجوارح علىٰ الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة ، فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصدق ، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صدِّيقيته ، و(٢) لذلك كان لأبي بكر الصديق(٣) ذروة سنام الصدِّيقية حتىٰ(٤) سمِّي «الصّدّيق» علىٰ الإطلاق ، أبلغ من الصدوق ، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلىٰ مراتب الصدق : مرتبة الصديقية ، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ ، مع كمال الإخلاص للمرسِل.

وقد أمر الله سبحانه رسوله : أن يسأله أن يجعل مَدْخَله ومخْرجه علىٰ

---

(١) بقية النسخ و ط (الأحوال).

(٢) ب ، ح٢ (كذلك).

(٣) م زيادة (رضي الله عنه وأرضاه).

(٤) (حتىٰ) سقطت من ط.

الصّدق فقال: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠]، وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن(١) يهب له لسان صدق في الناس(٢) فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾[الشعراء: ٨٤] وبشّر عباده أنّ(٣) لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ(٤)﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

تعريف الصدق والأقوال المأثورة فيه

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء، هو الحق الثابت، المتصل بالله الموصل إلىٰ الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله(٥) وفي مرضاته، متصلاً(٦) بالظّفر بالبُغية وحصول المطلوب، ضد مخرج

---

(١) م زيادة (يجعل).

(٢) د، ق، ط زيادة (الآخرين).

(٣) ط (بأنّ).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (﴿عند مليك مقتدر﴾).

(٥) ش (لله).

(٦) (متصلاً) سقطت من ط.

الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها ، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها ، كمخرج أعدائه يوم بدر ، ومخرج الصدق كمخرجه هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك[1] مدخله المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله ، وابتغاء مرضاة الله ، فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة ، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوه به المدينة يوم الأحزاب ، فإنه لم يكن بالله ، ولا لله ؛ بل[2] محادة[3] لله ورسوله ، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حِصْن بني قُريظة[4] ، فإنه لما كان مدخل كذب : أصابه معهم[5] ما أصابهم.

فكل مدخل[6] ومخرج كان بالله ولله ، فصاحبه ضامن علىٰ الله ، فهو مدخل

---

(١) (وكذلك) سقطت من د.

(٢) ط زيادة (كان).

(٣) أ ، ب ، غ (مخالفة).

(٤) بني قُريظة : حيٌّ من أحياء اليهود حول المدينة ، نقضوا عهد رسول الله ﷺ ومالؤوا الأحزاب، فباؤوا بغضب من الله ، وزلزلت الأرض من تحتهم فورث المسلمون أرضهم وديارهم وأموالهم.. وكان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة ، انظر البخاري. المغازي (٣/ ١١٨) ح(٤١١٧) ، البداية والنهاية (٣/ ١١٦).

(٥) (معهم) سقطت من ق.

(٦) ط زيادة (معهم).

صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلىٰ السماء، وقال: اللهم إنِّي أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك[١].

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صِدق، ولذلك فُسِّر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه[٢] من مكة، ودخوله المدينة[٣]، ولا ريب أن هذا علىٰ سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أَجَلِّ مداخله ومخارجه ﷺ وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق[٤] ومخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخلاً آخر - إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحَسَن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريَّته من الأنبياء[٥] والرسل[٦] ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) أخرجه ابن المبارك عن أبي هريرة بلفظ (مركباً) بدل (مخرجاً) ص٥، وكذا ابن أبي شيبة في الزهد ٢/ ١٧٧.

(٢) غ (بخروج رسول الله).

(٣) الطبري في التفسير ١٥/ ١٤٨، ١٥٠، الدر المنثور ٥/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٤) ط (إلا فمداخله كلها مداخل صدق ومخارجه مخارج صدق).

(٥) (الأنبياء) سقطت من أ، ب.

(٦) الأصل (ورسله) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

﴿لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن، فلما كان الصدق[1] باللسان، وهو محله[2]، عبر به عنه.

فإن اللسان يُراد به ثلاثة معان: هذا، واللُّغة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ[3]﴾ [إبراهيم: ٤]، وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، وقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ويُراد به الجارحة نفسها، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففُسِّر بالجنة، وفُسر بمحمد ﷺ، وفُسِّر بالأعمال الصالحة[4].

وحقيقة «القدم» ما قدموه، و[5]يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون علىٰ الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسّره بها أراد: ما يَقْدمون عليه، ومن فسّره بالأعمال وبالنبي ﷺ: فلأنهم قدّموها، وقدّموا الإيمان به بين أيديهم، فالثلاثة قَدَم صدق[6].

---

(١) (الصدق) ساقطة من الأصل، ش والأصح ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط.

(٢) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء علىٰ الصادق جزاء وفاقاً).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة ﴿ليبين لهم﴾.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ١٥ ـ ١٦ عن زيد بن أسلم، الدر المنثور ٤/ ٣٤١.

(٥) ط (وما يقدمون).

(٦) أخرجه الحاكم من قول أبيٍّ بن كعب: «(قدم صدق)، قال: سلف صدق عند ربهم»، المستدرك (٢/ ٣٦٨).

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[1].

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل، ولا مدخل.

علامات الصدق وآثاره

ومن علامات الصدق: طُمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي - مرفوعاً - من حديث الحسن بن علي - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال «الصدق طُمأنينة، والكذب ريبة»[2].

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ الصِّدق يهدي إلىٰ البرِّ، وإنّ البرَّ يهدي إلىٰ الجنَّة، وإنّ الرّجل ليَصدق حتىٰ يُكتب عند الله صِدِّيقاً، وإنّ الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وإنّ الرجل ليكذب حتىٰ يُكتب عند الله كذّاباً»[3]،

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٥٠.

(٢) الترمذي صفة القيامة (٤/ ٦٦٨) ح (٢٥١٨) وقال حسن صحيح، وقال محقق جامع الأصول: سنده صحيح (٦/ ٤٤٣-٤٤٤)، أحمد (١/ ٢٠٠)، المجمع (١/ ٢٣٨)، الطبراني (٣/ ٧٦٧٥) ح (٢٧٠٨) (٢٧١١)، الحاكم (٢/ ١٣) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ١٥٥) ح (٢٠٧٤).

(٣) البخاري. الأدب (٤/ ١٠٩) ح (٦٠٩٤)، الفتح (١٠/ ٦٠٩٤)، مسلم البر والصلة (٤/ ٢٠١٢) ح (٢٦٠٧)، أحمد (١/ ٤٣٢)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٥٩) ح (١٩٧١).

فجعل الصدق مفتاح الصدِّيقية ومبدأها ، وهي غايته ، فلا ينال درجتها كاذبٌ البتة لنفسه[١] لا في قوله ، ولا في عمله ، ولا في حاله ، ولا سيما كاذب علىٰ الله في أسمائه وصفاته ، بنفي[٢] ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه عن نفسه ، فليس في هؤلاء صِدِّيق أبداً.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه ، بتحليل ما حرمه ، وتحريم ما لم[٣] يحرمه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما لم يوجبه ، وكراهة ما أحبه ، واستحباب ما لم يحبه ، كل ذلك مناف للصديقية.

وكذلك الكذب معه في الأعمال : بالتحلِّي بحِلْية الصادقين ، المخلصين ، الزاهدين[٤] ، المتوكلين ، وليس[٥] منهم.

فلذلك كانت الصديقية : كمال الإخلاص والانقياد ، والمتابعة للخبر[٦] والأمر ظاهراً وباطناً ، حتىٰ إن صدق المتبايعين يحُِلُّ البركة في بيعهما ، وكذبهما يمحق بركة بيعهما ، كما في الصحيحين عن حكيم بن حزام[٧] ـ رضي

(١) (لنفسه) ساقطة من أ ، ب ، غ.

(٢) أ ، ب ، غ ، ط (ونفي).

(٣) د سقط (لم).

(٤) ط (والزاهدين).

(٥) ط زيادة (في الحقيقة).

(٦) ق (للمخبر).

(٧) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد القرشي الأسدي ، أسلم يوم الفتح ، وشهد حنيناً والطائف ،

الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «البيّعان[1] بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبيّنا بُورِك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما : محُقَت بركة بيعهما»[2].

* * *

كان من الأشراف العقلاء النبلاء ، ولد قبل عام الفيل بثلاثة عشر سنة ، وتوفي سنة ٥٤هـ/ أسد الغابة (٢/ ٤٠) ، تهذيب التهذيب (١/ ١٦٩) ، البداية والنهاية (٨/ ٦٨) ، شذرات الذهب (١/ ٦٠) ، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤).

(١) الأصل (في) والصحيح ما أثبته من البقية والصحيحين.

(٢) البخاري. البيوع (٢/ ٨٢) ح (٢٠٧٩) ، الفتح (٤/ ٢٠٧٩) ، مسلم البيوع (٣/ ١١٦) ح (١٥٣٢).

فصل

الكلمات[1] في حقيقة الصدق .

حقيقة الصدق والأقوال المأثورة فيه

قال عبد الواحد بن زيد[2]: الصدق الوفاء لله بالعمل[3].

وقيل: موافقة السر النطق[4].

وقيل: استواء السر والعلانية[5]، يعني أن الكاذب علانيته خير من سريرته، كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة[6].

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه[7].

وقال الجنيد: الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت علىٰ

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (في كلمات).

(٢) عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري الزاهد القدوة، شيخ العباد، حدث عن الحسن وعطاء وغيرهم، وعنه محمد بن السماك ووكيع وغيرهم، قال البخاري: تركوه، وقال النسائي: متروك الحديث، توفي بعد الخمسين ومائة/ صفة الصفوة (٣/ ٣٢١)، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٧٨)، المعرفة (٢/ ١٢٢)، حلية الأولياء (٦/ ١٥٥).

(٣) الرسالة القشيرية ٣١٩.

(٤) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٥) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٦) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٧) لم أجده.

حالة واحدة أربعين سنة[١].

وهذا الكلام يحتاج إلىٰ شرح ، وقد يسبق إلىٰ الذهن خلافه ، وأن الكاذب متلوّن ؛ لأن الكذب ألوان ، فهو يتلوّن بتلوّنه ، والصادق مستمر علىٰ حالة واحدة ، فإن الصدق واحد في نفسه ، وصاحبه لا يتلوّن ولا يتغير.

لكن مراد أبي القاسم صحيح غير هذا ، فإن المعارضات والواردات التي ترد علىٰ الصادق[٢] لا ترد علىٰ الكذاب[٣] المرائي؛ بل هو فارغ منها ، فإنه[٤] لا يرد عليه من قِبَل الحق موارد الصادق[٥] ،[٦] ولا يعارضه[٧] الشيطان ، كما يعارض الصادقين ، فإنه لا أرَب له في خَرِبة لا شيء فيها ، وهذه الواردات توجب تقلب[٨] الصادق بحسب اختلافها وتنوعها ، فلا تراه إلا هارباً من مكان إلىٰ مكان ، ومن عمل إلىٰ عمل ، ومن حال إلىٰ حال ، ومن سبب إلىٰ سبب؛ لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها ، ومكان وسبب: أن يقطعه عن مطلوبه ،

(١) الرسالة القشيرية ٣١٨.

(٢) م (الصادقين).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الكاذب).

(٤) (فإنه) سقطت من م ، ب ، غ.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الصادقين).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (علىٰ الكاذبين المرائين).

(٧) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ط (يعارضهم).

(٨) م (قلب).

فهو لا يساكن حالة ولا شيئاً دون مطلوبه ، فهو كالجوَّال[١] في الآفاق في طلب الغنىٰ الذي يفوق به الأغنياء ، فالأحوال[٢] والأسباب تتقلب به ، وتقيمه وتقعده ، وتحركه وتسكنه ، حتىٰ يجد فيها ما يعينه علىٰ مطلوبه ، [وهذا عزيز فيها ، فقلبه في تقلب وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه][٣] وعظمته وهمته أعلىٰ من أن يقف[٤] دون مطلبه علىٰ رسم أو حال ، أو يساكن شيئاً غيره ، فهو كالمحب الصادق ،[٥] الذي همه التفتيش علىٰ[٦] محبوبه ، وهكذا[٧] حال الصادق في طلب العلم ، وحال الصادق في طلب الدنيا ، فكل صادق في طلب شيء لا يستقر له قرار ، ولا يدوم علىٰ حالة واحدة.

وأيضاً: فإن الصادق[٨] مطلوبه رضىٰ ربه ، وتنفيذ أوامره ، وتتبع محابِّه ، فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها ، ويستقل معها أين استقلّت مضاربها فبينا[٩] هو في صلاة إذ رأته في ذكر ثم في غزو ، ثم في حج ، ثم في

---

(١) د (الجول).

(٢) ق ، ط (والأحوال).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٤) ق (تقف).

(٥) ق زيادة (في طلب).

(٦) د (عن).

(٧) ط (وكذا).

(٨) أ ، ب ، غ (فالصادق).

(٩) ق (فبينما).

إحسان للخلق بالتعليم وغيره ، من أنواع النفع ، ثم في أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو في قيام بسبب فيه عمارة للدين[١] والدنيا[٢].

فهو في تفرق دائم لله ، وجمعية علىٰ الله ، لا يملكه رسم ، ولا عادة ، ولا وضع ، ولا يتقيد بقيد ولا إشارة ، ولا بمكان معين لا يصلي إلا فيه[٣] ، وزِيٍّ[٤] معين لا يلبس سواه ، وعبادة معينة لا يلتفت إلىٰ غيرها ، مع فضلها[٥] عليها[٦] في الدرجة ، وبُعد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض.

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع ، وعبادة النفس ، وإيثار مرادها ، والإشارة إليها: كلها في هذه الأوضاع ، والرسوم والقيود ، التي حبستْ أربابهَا عن السير إلىٰ قلوبهم ، فضلاً عن السير من قلوبهم إلىٰ الله تعالىٰ ، فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزِيِّه وقيده وإشارته - ولو إلىٰ أفضل منه - استهجن[٧] ذلك ، ورآه نقصاً وانحطاطاً لرتبته عندهم[٨] ، وهذا شأن

---

(١) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (الدين).

(٢) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة ، أو نصرة مظلوم - إن أمكن - إلىٰ غير ذلك من أنواع القرب والمنافع).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (ولا بمكان معين يصلي فيه لا يصلي في غيره).

(٤) زي:- الزيُّ اللباس والهيئة ، مختار الصحاح ٢٧٩.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (فضل غيرها عليها).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط زيادة (أو هي أعلىٰ من غيرها) ، ق زيادة (أو هي علىٰ غيرها).

(٧) استهجن: تهجين الأمر تقبيحه ، لسان العرب ١٣/ ٤٣٣ . واستهجنه: استقبحه ، المعجم الوسيط ٢/ ٩٧٤.

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (وهو قد انحط وسقط من عين الله ، وقد يحس أحدهم

الكذّاب[١]، العامل علىٰ عمارة نفسه ومرتبته.[٢] ولو كان عاملاً علىٰ مراد الله منه، وعلىٰ الصدق مع الله: لأثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأىٰ الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه[٣].

فكلام أبي القاسم الجنيد حقٌّ، كلام راسخ في الصدق، عالم بتفاصيله وآفاته ومواضع اشتباهه بالكذب.

وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته تقلب الحمَّال[٤] بحمله الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً البتة، فهو حامل له في أي موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة،[٥] ولا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله.

وقال بعضهم[٦]: « لا يشم روائح[٧] الصدق عبد داهن نفسه أو غيره ».

ذلك من نفسه وحاله، ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيُّه وقيوده أن يسعىٰ في ترميم ذلك وإصلاحه).

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه).

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق زيادة (وهذا هو النفاق بعينه).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (ولما بالىٰ بأي ثوب لبس، ولا أي عَمَلٍ عَمِلَ إذا كان علىٰ مراد الله من العبد).

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (الحامل).

(٥) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (فهو).

(٦) القائل: سهل بن عبد الله، الرسالة القشيرية ٣١٨، آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي ٧٤.

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (رائحة).

وقال بعضهم[١]: الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحي من سره لو كُشف، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٩٤].

قلت: هذه الآية فيها للناس كلام معروف.

قالوا: إنها معجزة[٢] للنبي ﷺ أعجز بها اليهود، ودعاهم إلىٰ تمنِّي الموت، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أخبر: أنهم لا يتمنَّونه أبداً، وهذا عَلَم من أعلام نبوته، إذ لا يمكن الاطلاع علىٰ بواطنهم إلا بأخبار الغيب، ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنِّيه أبداً.

وقالت طائفة[٣]: لما ادَّعت اليهود أنَّ لهم الدار الآخرة عند الله، خالصة[٤] من دون الناس، وأنهم[٥] أحباؤه وأهل كرامته، كذَّبهم[٦] الله في دعواهم، وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت، لتصلوا إلىٰ الجنة دار النعيم، فإن الحبيب يتمنَّىٰ لقاء حبيبه، ثم أخبر سبحانه: أنهم لا يتمنَّونه[٧] [بسبب ما][٨]

---

(١) القائل: أبو سعيد القرشي، الرسالة القشيرية ٣١٩.

(٢) ذكر ذلك ابن كثير في قصة مباهلة الرسول ﷺ لليهود، عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة ﴾ في سورة البقرة، (١: ١٦١)، وانظر نماذج للجدل والمناظرة في كتاب منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، د/ عثمان علي حسن.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٠.

(٤) ق زيادة (خالصة عند الله).

(٥) ط (أبناؤه).

(٦) د، ش، ق (أكذبهم).

(٧) أ، ب، غ، ط زيادة (أبداً).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (بما).

قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه ، فقال: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥].

وقالت طائفة[١] - منهم محمد بن إسحاق وغيره - هذه من جنس آية المباهلة ، وأنهم لمَّا عاندوا ، ودفعوا الهُدىٰ عياناً ، وكتموا الحق: دعاهم إلىٰ أمر يحكم بينهم وبينه ، وهو أن يدعوا بالموت علىٰ الكاذب المفتري ، [و«التمني» سؤال ودعاء ، فتمنوا الموت وادعوا به علىٰ المبطل الكاذب المفتري][٢].

وعلىٰ هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم[٣] خاصة كما قاله أصحاب القولين الأولين ، بل[٤] ادعوا بالموت وتمنوه للمُبطِل ، وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق ، وأسلم[٥] من أن يعارضوه[٦] ،[٧] بقولهم: فتمنّوه أنتم أيضاً ، إن كنتم محقين أنّكم[٨] من[٩] أهل الجنّة ، لتقدموا علىٰ ثواب الله وكرامته

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٦١ ، ٤/ ٤٣٠.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من د سوىٰ كلمة (المبطل) ، وفي ق كلمة (المبطل) عقب (المفتري).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، م (أنفسهم).

(٤) ط زيادة (معناه).

(٥) (وأسلم) سقط من ش.

(٦) ط (يعارضوا).

(٧) ط زيادة (رسول الله).

(٨) (أنكم) سقطت من الأصل والصحيح ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٩) (من) سقطت من الأصل وغيره والصحيح ما أثبته من ب.

والقوم[١] كانوا أحرص شيء علىٰ معارضته ، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

وأيضاً فإنّا نشاهد كثيراً منهم يتمنىٰ الموت لضرِّه وبلائه ، وشدة حاله ، ويدعو به وهذا بخلاف تمنِّيه والدعاء به علىٰ الفرقة الكاذبة ، فإن هذا لا يكون أبداً[٢] ، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي ﷺ [البتة[٣] ، وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه ، وكفرهم[٤] حسداً وبغياً ، فلا يتمنوه أبداً ، لعلمهم أنهم هم الكاذبون ، وهذا القول: هو الذي نختاره ، والله أعلم بما أراد[٥] من كتابه.

وقال: إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤدّيه ، أو فضل يعمل فيه[٦].

وقال الجنيد: حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا يُنجيك منه إلا الكذب[٧].

---

(١) (القوم) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٢) (أبداً) سقطت من د.

(٣) من قوله: (البتة) إلىٰ قوله: (إن نطق أحس) قرابة صفحة من المخطوطة سقط من د ، ونهاية السقط في ص٢١٢٨ من هذه الرسالة.

(٤) ط (به).

(٥) ب (بمراده).

(٦) الرسالة القشيرية ٣٢٠ .

(٧) الرسالة القشيرية ٣٢٠.

وقيل: ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة[١].

وفي أثر إلهي: «من صَدَقني في سريرته صدقتُه في عَلانيَّته عند خلقي»[٢].

وقال سهل بن عبدالله: أول خيانة الصدِّيقين حديثهم أنفسهم[٣].

وقال يوسف بن أسباط: لأنْ أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله[٤].

وقال الحارث المحاسبي: الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلَّ قَدْر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس علىٰ مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس علىٰ السيئ من عمله، فإن كراهته لذلك دليل علىٰ أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من علامات الصديقين[٥].

وفي هذا نظر؛ لأن كراهته لاطلاع الناس علىٰ مساوئ عمله من جنس كراهته للضرب والمرض وسائر الآلام، وهذا أمر جِبلِّي طبيعي[٦]، ولا يُخرج

(١) الرسالة القشيرية ٣٢٠، قائله يوسف ابن أسباط، شعب الإيمان ٤/ ٢٣٣، حلية الأولياء ١٠/ ١٧٠، صفة الصفوة ٤/ ٢٦٤.

(٢) لم أجده.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٦) الأصل (طبيعي) وهي ساقطة من أ، ب، غ، والصحيح لغة (طبعي).

صاحبه عن الصدق ، لا سيما إذا كان قدوة متبعاً ، فإن كراهته لذلك من علامات صدقه ، لأن فيها مفسدتين: مفسدة ترك الاقتداء به ، واتباعه على الخير وتنفيذه ، ومفسدة اقتداء الجهال به فيها ، فكراهته[1] لاطلاعهم على مساوئ عمله: لا تنافي[2] صدقه ، بل قد تكون[3] من علامات صدقه.

نعم المنافي للصدق: أن لا يكون له مراد سوى عمارة حاله عندهم ، وسكناه في قلوبهم تعظيماً له ، فلو كان مراده تنفيذاً لأمر الله ، ونشراً لدينه ، وأمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، ودعوة إلى الله: فهذا الصادق حقاً ، والله يعلم سرائرَ القلوب ومقاصدَها.

وأظن أنَّ هذا[4] مراد المحاسبي بقوله: «ولا يكره اطلاع الناس[5] على السّيئ من عمله»[6] فإنهم يرون[7] ذلك فضولاً ، ودخولاً فيما لا يعني ، فرضي الله عن أبي بكر الصدِّيق حيث قال: «لأقاتلنَّ من فَرَّق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عناقاً - أو عقالاً - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[8] ،

---

(١) ط ، أ ، ب ، غ (كراهيته).

(٢) الأصل (لا ينافي) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ط.

(٣) الأصل (يكون) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ط.

(٤) م ، ح٢ ، ق ، ط زيادة (هو).

(٥) (اطلاع الناس) سقط من م.

(٦) أ ، غ ، ب زيادة (عنهم) ، ق ، م ، ح٢ (عندهم).

(٧) ط (يريدون).

(٨) البخاري. استتابة المرتدين (٤/ ٢٨٠) ح(٦٩٢٥) ، مسلم. الإيمان (١/ ٥١ ـ ٥٢) ح(٢٠) ، أحمد (١/ ٣٥) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ٣ ـ ٤) ح(٢٦٠٧).

فهذا وأمثاله يعدونه ويرونه من سيء الأعمال عند العوام والجهال.

وقال بعضهم: من لم يؤد الفرض الدائم لم يُقبل منه الفرض المؤقت.

قيل: وما الفرض الدائم؟ قال: الصدق(١).

وقيل: من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل(٢).

وقيل عليك بالصِّدق حيث تخافُ أنه يضرُّك، فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترىٰ أنه ينفعك، فإنه يضرك، وقيل: ما أملق تاجر صدوق(٣).

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -:

«الصِّدْقُ اسْمٌ لحَقِيقَةِ الشَّيءِ بِعَيْنِهِ حُصُولاً وَوُجُوداً»(٤).

الصدق: هو حصول الشيء وتمامه، وكمال قوته، واجتماع أجزائه، كما يقال: عزيمة صادقة، إذا كانت قوية(٥) تامة، وكذلك: محبة صادقة، وإرادة صادقة، وكذا قولهم: حلاوة صادقة، إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة، لم ينقص منها شيء.

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢١.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٢٢.

(٤) منازل السائرين ٤٣.

(٥) م (قوة).

ومن هذا أيضاً: صدق الخبر؛ لأنه وجود المخبر[١] بتمام حقيقته في ذهن السامع.

فالتمام والوجود نوعان: خارجي، وذهني، فإذا أخبرت المخاطب بخبر صادق حصلت له حقيقة المخبر[٢] بكماله وتمامه في ذهنه.

ومن هذا وصفهم الرمح بأنه «صدق[٣] الكُعُوب»[٤]، إذا كانت كُعُوبه[٥] صُلبة قوية ممتلئة[٦].

درجات الصدق

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: صِدْقُ القَصْدِ، وَبِهِ يَصِحُّ الدُّخُول فِي هَذَا الشَّأْنِ، وَيُتَلاَفَىٰ بِهِ كُل تَفْرِيطٍ، وَيُتَدَارَكُ بِهِ[٧] كُل فَائِتٍ، وَيُعَمَّرُ كُل خَرَابٍ، وَعَلاَمَةُ هَذَا الصَّادِقِ: أَن لَا يَتَحَمَّل[٨] دَاعِيةً تَدْعُو إِلَىٰ نَقْضِ عَهْدٍ، وَلاَ يَصْبِرَ عَلَىٰ صُحْبَةِ ضِدٍّ، وَلا يَقْعُدَ عَنِ الجِدِّ بِحَالٍ»[٩].

---

(١) ب (الخبر).

(٢) ط زيادة (عنه).

(٣) ط (صادق).

(٤) قال عنترة بن شدّاد: (جادت له كفي بعاجل طعنة بمثقف صدق الكُعُوب مقوم).

انظر: ديوان عنترة ٢١٠.

(٥) أ (صعوبه).

(٦) أ، ب، غ (مملية).

(٧) (به) سقطت من المنازل ٤٣ وإثباتها أقرب كما في جميع النسخ.

(٨) المنازل (يحتمل).

(٩) منازل السائرين ٤٣.

[يعني بصدق القصد](١): (٢) كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعية صادقة إلىٰ السلوك، وميل شديد يقهر السر علىٰ صحة التوجه(٣)، فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور، ولا يكون فيه قسمة بحال، ولا يصح الدخول في شأن السفر إلىٰ الله، والاستعداد للقائه إلا به.

«وَيُتَلاَفَىٰ بِهِ كُلّ تَفْرِيطٍ» فإنه حامل علىٰ كل سبب ينال به الوصول، وقطع كل سبب يحول بينه وبينه، فلا يترك فرصة تفوته، وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان، فيُصلِح من قلبه(٤) ما مزَّقته يد الغفلة والشهوة، ويُعَمِّر منه ما خربته يد البطالة، ويوقد منه(٥) ما أطفأته(٦) أهوية النفس، ويَلُمُّ منه ما شعَّثته(٧) يد التفريط والإضاعة، ويستردُّ منه(٨) ما سرقته(٩) يد(١٠) اللصوص والسُّرَّاق(١١)، ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به

(١) ما بين المعقوفين طمس من أ.

(٢) ب زيادة (يكون).

(٣) ش (التوحيد).

(٤) أ (قبله).

(٥) ط (فيه).

(٦) ق (ما أطفأ به).

(٧) شعّثته: الشعث: انتشار الأمر، والأشعث المغبر الرأس، مختار الصحاح (٣٣٩).

(٨) (منه) سقطت من ط.

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (نهبته)، ق (نهته).

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (أكف).

(١١) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (ويزرع منه ما وجده بواراً من أراضيه، ويقلع ما وجده شوكاً وشبرقاً في نواحيه).

إلىٰ الهلاك والعطب، ويداوي منه الجراحات التي أصابته عند الغارة عليه[١]، ويغسل منه الحوبات والأوساخ[٢] التي تراكمت عليه علىٰ تقادم الأوقات، حتىٰ لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغاً[٣] له، فيطهره بالماء البارد[٤]، قبل أن يكون طهوره بالجحيم[٥]،[٦] فإنه لا يجاور الرحمن قلب دنس[٧] أبداً، ولا بد من طهور، فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما، والله المستعان.

و[٨]قوله: «**وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّادِقِ**[٩]**: أَن لا يَتَحَمَّل**[١٠] **دَاعِيَةً تَدْعُو إِلىٰ نَقْضِ عَهْدٍ**».

يعني أن الصادق حقيقة: هو الذي قد انجذبت قوىٰ روحه كلها إلىٰ إرادة

---

(١) (عند الغارة عليه) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط وبدلاً عنها (من عبرات الرياء) وهي ليست في الأصل، ش.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ش (الأوساخ والحوبات).

(٣) دباغاً: دبغ الجلد يدبغه دباغة، والدبَّاغ: محاول ذلك، وحرفته الدباغة، لسان العرب ٨/ ٤٢٤.

(٤) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (من ينابيع الصدق الخالصة من جميع المكدورات).

(٥) (الجحيم) سقطت من ش.

(٦) م، أ، غ، ح٢، ب، ش زيادة (والحميم).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط زيادة (بأوساخ الشهوات والرياء).

(٨) (الواو) سقطت من ق.

(٩) ش، ح٢ (الصدق).

(١٠) ش (يحتمل).

الله وطلبه، والسير إليه، والاستعداد للقائه، ومن[١] هذه حاله: لا يحتمل سبباً يدعوه إلىٰ نقض عهده مع الله بوجه.

وقوله: «وَلاَ يَصْبِرَ عَلىٰ صُحْبَةِ ضِدٍّ».

الضِد عند القوم: هم أهل الغفلة، وقطاع طريق القلب إلىٰ الله، وأضر شيء علىٰ الصادق: صحبتهُم؛ بل لا تصبر نفسه علىٰ ذلك أبداً، إلا جمع ضرورة، وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشبحه[٢]، دون قلبه وروحه، [فإن هذا لما استحكمت الغفلة فيه[٣] كما استحكم الصدق في الصادق أحست روحه][٤] بالأجنبية التي بينه وبينه[٥] والمضادة[٦]، فاشتدت النفرة[٧]، و[٨]بحسب هذه[٩] الأجنبية وإحساس الصادق بها: تكون نفرته[١٠] عن الأضداد، فإن الضد

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط زيادة (تكون).

(٢) شبحه: الشبح: ما بدا لك شخصه غير جليٍّ من بُعد، وشبح الشيء ظله وخياله، المعجم الوسيط ١/ ٤٧٠.

(٣) ط (عليه).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق.

(٥) ط (بينهم)، وفي أ، ب، غ (وبينه وصحبتهم).

(٦) م، ح٢، ط سقطت (النقطتان من التاء).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط زيادة (وقوىٰ الهرب).

(٨) (الواو) سقطت من ق.

(٩) (هذه) سقطت من م، أ، غ، ح٢، ب.

(١٠) م، أ، غ، ح٢، ب زيادة (وهربه).

إن نطق أحس][1] قلب الصادق: أنه نطق بلسان الغفلة، والرياء والكبر، وطلب الظهور[2]،[3] فنفر قلبه منه، وإن صمت أحس قلبه: أنه صمت علىٰ غير حضور وجمعية علىٰ القلب، وإقبال بالقلب عليه، وعكوف السر[4]، فينفر منه أيضاً، فإن[5] قلب[6] الصادق قوي الإحساس، فيجد الغيرية[7] والأجنبية من الضد، ويشم الرائحة الخبيثة، فيزوي[8] وجهه لذلك، ويعتريه عبوس، فلا يأنس به إلا تكلُّفاً ولا يصاحبه إلا ضرورة، فيأخذ من صحبته قدر الحاجة، كصحبة من يشتري منه، أو يحتاج إليه في مصالحة[9].

قوله: «وَلاَ يَقعُدَ عَنِ الجِدِّ بِحَالٍ».

يعني أنه لما كان في طلبه صادقاً[10] مستجمع القوة: لم يقعد به[11] عزمه عن الجد في جميع أحواله، فلا تراه إلا جاداً، وأمره كله جد.

---

(١) هنا نهاية السقط من د.. وبدايته من ص٢١٢٠.

(٢) م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ط (الجاه).

(٣) في م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (ولو كان ذاكراً أو قارئاً أو مصلياً أو حاجاً أو غير ذلك).

(٤) ط زيادة (عليه).

(٥) (فإن) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط.

(٦) ق (قلت).

(٧) ب (الغيرة).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (فينزوي).

(٩) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (كالزوجة والخادم ونحوه).

(١٠) بقية النسخ (صادقاً في طلبه).

(١١) (به) سقطت من أ، ب، غ.

فصـــل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَن لَا يَتَمَنَّىٰ الحَيَاةَ إِلَّا لِلحَقِّ ، وَلَا يَشهَدَ مِن نَفسِهِ إِلَّا أَثَرَ النَّقصَانِ ، وَلَا يَلتَفِتَ إِلَىٰ تَرفِيهِ الرُّخَصِ»[١].

أي لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضىٰ محبوبه ، ويقوم بعبوديته ، ويستكثر من الأسباب التي تقربه منه[٢] ،[٣] كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - «لولا ثلاث في الدنيا[٤] لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل علىٰ جياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام ، كما يُنتقىٰ أطايب التَّمر»[٥].

يريد - رضي الله عنه - : الجهاد ، والصلاة ، والعلم[٦] ، وهذه درجات الفضائل ، وأهلها هم أهل الزلفىٰ ، والدرجات العالية[٧].

---

(١) منازل السائرين (٤٣).

(٢) ق ، ط (إليه) بدل (منه).

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (وتدنيه منه لا لعلة من علل الدنيا ، ولا لشهوة من شهواتها).

(٤) (في الدنيا) سقطت من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط سوىٰ م.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٥١ ، الزهد لوكيع ٢/ ٣١٦ رقم ٩٠ ، المروزي في زيادات زهد ابن المبارك ٤١٧ ، عيون الأخبار ١/ ٣٠٨ ، طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٠ ، وعن أبي الدرداء في حلية الأولياء ١/ ٢١٢ ، الزهد لابن المبارك ٩٤ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٤٠٩.

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (النافع).

(٧) ط (العليا).

وقال بعض الصحابة(١) - رضي الله عنهم - عند موته: «اللهم تعلم أني لم أكن أحب [البقاء لجري الأنهار ،ولا لغرس الأشجار ، ولا لنكح الأزواج ولكن](٢) ، إنما كنت أحبها(٣) لظمأ الهواجر ، ومكابدة الليل ،ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلق الذكر»(٤).

وقوله: «وَلاَ يَشْهَدَ مِن نَفْسِهِ إِلاَّ أَثَرَ النُّقْصَانِ».

يعني لا يرىٰ نفسه إلا مقصراً ، والموجب له هذه(٥) الرؤية: استعظام مطلوبه، واستصغار نفسه ، ومعرفته بعيوبها ، وقلة زاده في عينه ، فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين النقصان.

وأما(٦) قوله : «وَلاَ يَلتَفِتَ إِلىٰ تَرفِيهِ الرُّخصِ».

فلأنه - لكمال صدقه وقوة إرادته ، وطلبه للتقدم - يحمل نفسه علىٰ العزائم ، ولا يلتفت إلىٰ الرفاهية التي في الرخص.

---

(١) م ،أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (معاذ رضي الله عنه).

(٢) في الأصل (الدنيا لغرس الأشجار ولا لكري الأنهار) بدل ما بين المعقوفين والأقرب ما أثبته من م ،أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط ، وممن نقل عنه في غير هذا المصدر.

(٣) (وإنما كنت أحبها) سقطت من بقية النسخ.

(٤) حلية الأولياء عن معاذ - رضي الله عنه - ١/ ٢٣٩ ، والعاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الإشبيلي ١٢٦ ، صفة الصفوة ١/ ٥٠١ ، إحياء علوم الدين ٤/ ٤٨١.

(٥) ط (لهذه).

(٦) (وأما) سقطت من أ ، ب ، غ.

وهذا لا بد فيه من التفصيل ، فإن الصادق يعمل علىٰ رضىٰ الحق تعالىٰ ومحابه فإذا [كانت الرّخص أحب إليه[1] من العزائم: كان التفاته إلىٰ ترفيهها ، وهو عين صدقه ، فإذا][2] أفطر في السفر ، وقَصَر وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه ، وخفف الصلاة عند الشغل ، ونحو ذلك من الرخص التي يحب[3] الله تعالىٰ أن يؤخَذَ بها، فهذا[4] الالتفات إلىٰ ترفيهها لا ينافي الصدق.

بل هاهنا نكتة: وهي[5] أنه فرّق بين أن يكون التفاته إليها تَرَفُّهاً وراحة وأن يكون متابعة وموافقة ، ومع هذا فالالتفاف إليها ترفُّهاً وراحة لا ينافي الصدق ، فإن هذا هو المقصود منها ، وفيه شهود نعمة الله علىٰ العبد ، وتعبد[6] باسمه «البر ، اللطيف، المحسن، الرفيق»[7] فإنه رفيق[8] يحب الرفق ، وفي الصحيح

(١) ط زيادة (تعالىٰ).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (يحبها).

(٤) الأصل (فهذه) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ش ، ح٢.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب (وهو).

(٦) ط (تعبده).

(٧) البر: هو العطوف المحسن علىٰ عباده ، قال تعالىٰ: ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ [الطور:٢٨] ، اللطيف: قال تعالىٰ: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ وتقدم بيانه، وانظر: ولله الأسماء الحسنىٰ ١٨٧ ، أسماء الله الحسنىٰ ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦١ ، أما الرفيق: فقد أخبر رسول الله ﷺ عن ربه تعالىٰ «أنه رفيق يحب الرفق» مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٠٣) ح(٢٥٩٣) ، والمحسن: سبق ص١٧٦٩ .

(٨) (رفيق) سقطت من أ ، ب.

«ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً»[1]؛ لما فيه من روح التعبد باسم[2] «الرفيق ، اللطيف» ، وإجمام القلب[3] به[4] لعبودية أخرىٰ ، فإن القلب لا يزال[5] ينتقل في منازل العبودية ، فإذا أخذ بترفيه رخصة محبوبة: استعد بها لعبودية أخرىٰ ، وقد تقطعه عزيمتها عن عبودية هي[6] أحب إلىٰ الله منها ، كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه ، والمفطر الذي يضرب الأبنية[7] ويسقي الركاب[8] ، ويضم المتاع ، ولهذا قال فيهم النبي ﷺ : «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»[9].

أما الرخص التأويلية ، المستندة إلىٰ اختلاف المذاهب ، والآراء التي تصيب وتخطئ: فالأخذ بها عندهم عين البطالة و[10]مناف للصدق.

(١) البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٠) ، مسلم الفضائل (٤/ ١٨١٣) ح(٢٣٢٧) ، أحمد (٦/ ١٦٢) ، أبو داود. الأدب (٥/ ١٤٢) ح(٤٧٨٥) ، مالك في الموطأ (٢/ ٩٠٢) ح(٢).

(٢) ب ، أ ، ح٢ (باسمه).

(٣) أ ، ب ، غ (الطلب).

(٤) (به) سقطت من أ ، ب ، غ ، د ، ش.

(٥) (لا يزال) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) أ ، ب ، غ (وهي).

(٧) ط (الأخبية).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق (الركايب).

(٩) البخاري. الجهاد والسير (٢/ ٣٢٩) ح(٢٨٩٠) ، مسلم. الصيام (٢/ ٧٨٨) ح(١١١٩) ، صحيح النسائي (٢/ ٤٨٦) ح(٢١٥٣).

(١٠) (الواو) سقطت من ط.

فصل[1]

الدرجة الثالثة

قال: « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الصِّدقُ فِي مَعرِفَةِ الصِّدقِ، فَإِنَّ الصِّدقَ لَا يَستَقِيمُ - فِي أَهلِ[2] الخُصُوصِ - إِلَّا عَلَىٰ حَرفٍ وَاحِدٍ: وَهُوَ أَن يَتَّفِقَ[3] رِضَىٰ الحَقِّ بِعَمَلِ العَبدِ، أَو حَالِهِ، أَو وَقتِهِ، وَإِيقَانَ[4] العَبدِ وَقَصدَهُ فَيَكُونُ[5] رَاضِياً مَرضِيّاً، فَأَعمَالُهُ وَأَحوَالُهُ صَادِقَةٌ وَقُصُودُهُ مُستَقِيمَةٌ، وَإِن كَانَ العَبدُ كُسِيَ ثَوباً مُعَاراً، فَأَحسَنُ أَعمَالِهِ[6]: ذَنبٌ، وَأَصدَقُ أَحوَالِه: زُورٌ، وَأَصفَىٰ قُصُودِهِ: قُعُودٌ»[7].

يعني أن الصدق المتحقق إنما يحصل لمن صدق في معرفة الصدق، فكأنه قال: لا يحصل حال الصدق إلا بعد معرفة علم الصدق.

ثم عرَّف حقيقة الصدق[8]، فقال: «لاَ يَستَقِيمُ الصِّدقُ - فِي عِلمِ أَهلِ[9]

---

(١) (فصل) طمس من أ.

(٢) (أهل) سقطت من المنازل ٤٤.

(٣) الأصل (يتفن) والأقرب ما أثبته من م، أ، غ، ح٢، ب، د، ط، المنازل ٤٤، وفي ش (يتيقن).

(٤) الأصل (وإتقان) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ وفي المنازل (وإتيان).

(٥) الأصل (يكون) وم، أ، غ، ح٢، ب، ط (بكون) والأقرب ما أثبته من المنازل ٤٤.

(٦) ش (أحواله).

(٧) منازل السائرين ٤٤.

(٨) المعرِّف هو الهروي كما في منازل السائرين ٤٤.

(٩) (أهل) سقطت من أ، ب.

الخُصُوصِ - إِلاَّ عَلىٰ حَرفٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَن يَتَّفِقَ[١] رِضَىٰ الحَقَّ بِعَمَلِ العَبدِ ، أَو حَالِهِ ، أَو وَقتِهِ ، وَإِيقَانَهُ[٢] ، وَقَصدَهُ» ، هذا[٣] موجب الصدق وفائدته وثمرته.

فالشيخ - رحمه الله - ذكر الغاية الدالة علىٰ الحقيقة التي يعرف انتفاء الحقيقة[٤] بانتفائها ، وثبوتها بثبوتها.

فإن العبد إذا صدق الله: رضي الله بعمله ، وحاله ويقينه ، وقصده ، لا أن رضىٰ الله نفس الصدق ، وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه سبحانه ، ولكن من أين يعلم العبد رضاه؟.

فمن هاهنا كان الصادق مضطراً - أشد ضرورة - إلىٰ متابعة الأمر ، والتسليم للرسول ﷺ في ظاهره وباطنه ،[٥]والتعبد به[٦] في كل حركة وسكون ، مع إخلاص القصد لله[٧] ، فإن الله تعالىٰ لا يرضيه من عبده إلا ذلك ، وما عدا هذا فقوت النفس ، ومجرد حظها ،[٨]وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات

---

(١) الأصل (يتقن) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٢) الأصل (إتقانه) و م ، د (اتفاقه) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٣) ط (وهذا).

(٤) (الحقيقة) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (والاقتداء به).

(٦) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (بطاعته).

(٧) ط زيادة (عزّ وجل).

(٨) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (واتباع هواها) وفي ط (أهوائها).

والخلوات ما كان ، فإن الله سبحانه[١] أبىٰ أن يقبل من عبده عملاً ، أو يرضىٰ به، حتىٰ يكون علىٰ متابعة رسوله ﷺ خالصاً لوجهه[٢].

ومن هاهنا يفارق الصادق أكثر السالكين؛ بل يستوحش في طريقه[٣] ، فإن أكثرهم سائرون علىٰ أذواق نفوسهم[٤] ، ومتابعة رسوم شيوخهم ، والصادق في وادٍ ، وهؤلاء في وادٍ.

وقوله: «**فَيَكُونُ العَبْدُ رَاضِياً مَرضِيّاً**».

لأنه قد رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، فرضي الله به عبداً ، و[٥]أعماله إذاً مرضية لله ، وأحواله صادقة مع الله ، وقصوده مستقيمة علىٰ متابعة أوامر الله[٦].

قوله[٧]: «**وَإِنْ كَانَ العَبْدُ كُسِيَ ثَوْباً مُعَاراً ، فَأَحْسَنُ أَعْمَالِهِ: ذَنبٌ ، وَأَصْدَقُ أَحْوَالِهِ: زُورٌ ، وَأَصْفَىٰ قُصُودِهِ: قُعُودٌ**» ، هذا يُراد به أمران.

أحدهما: أن يكسىٰ حلية الصادقين ، ويلبس[٨] ثيابهم علىٰ غير قلوبهم

(١) ط زيادة (وتعالىٰ).
(٢) ط زيادة (سبحانه).
(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط زيادة (وذلك لقلة سالكها).
(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (علىٰ طرق أذواقهم وتجريد أنفاسهم لنفوسهم).
(٥) ق (فأعماله).
(٦) ط زيادة (عزّ وجل).
(٧) ط (وقوله).
(٨) م (لبس).

وأرواحهم ، فثوب الصدق عارية له ، لا ملك[١] ، فهو كالمتشبع بما لم يُعط ، فإنه كلابس ثوبي زور[٢] ، فهذا أحسن أعماله: ذنب يُعاقب عليه ، كما يعاقب المقتول في الجهاد ، والقارئ القرآن المتنسك[٣] ، والمتصدق ، ويكونون[٤] أول من تُسعَّر النار بهم يوم القيامة ، لما لبسوا ثياب الصادقين على قلوب المرائين[٥].

فهذا[٦] معنىٰ صحيح و[٧]ما أظن الشيخ قصده.

وإنما أظنه قصد معنىٰ آخر، وهو أنه متىٰ تيقن[٨] العبد: أن وجوده ثوبٌ مُعار، ليس منه[٩] فإنه ليس به ولا له ، وإنما إيجاده وصفاته ، وإرادته وقدرته ، وأعماله: عارية من الفعَّال وحده ، والعبد ليس له من ذاته إلا العدم ، فوجوده ،

---

(١) أ ، ب ، غ زيادة (له).

(٢) المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور: فيه حديث عن رسول الله ﷺ كما في البخاري. النكاح (٣/ ٣٩٢) ح(٥٢١٩) ، مسلم. اللباس (٣/ ١٦٨١) ح(٢١٢٩) ، أحمد (٦/ ٩٠).

(٣) د زيادة (المقتصد).

(٤) ح٢ (فيكونون).

(٥) في هذا إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة «.. أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة.. » ، أخرجه مسلم. الأمارة (٣/ ١٥١٣) ح(٩٠٥) ، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٩١) ح(٢٣٨٢) وقال حسن غريب ، صحيح ابن حبان (٢/ ١٣٧) ، صحيح ابن خزيمة (٤/ ١١٦).

(٦) (الفاء) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٧) (الواو) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط.

(٨) ح٢ (يتيقن).

(٩) (فإنه ليس به) في الأصل فقط.

وحياته: ثوب أُعيره، فمتىٰ نظر بعين الحقيقة إلىٰ كسوته: رأىٰ أحسن أعماله ذنوباً في هذا المقام، وأصدق أحواله زوراً، وأصفىٰ قصوده قعوداً، فلا يرىٰ لنفسه(١) عملاً، ولا حالاً ولا قصداً، فإنه ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم، فكل ما من نفسه(٢) فهو ذنب وزور وقعود، وما كان مرضياً فهو بالله ومن الله ولله، لا بالنفس، ولا منها، ولا لها، فإن العبد إذا رأىٰ أنه قد فعل الطاعة: كان(٣) رؤيته لذلك ذنباً، فإنه(٤) نَسب الفعل إليه، والله في الحقيقة هو المتفرد بالفعل.

فعلىٰ هذا لا يتخلَّص العبد من الذنب قط، فإنه إذا خلص فعله من الرياء ومن كل شيء يُفسده: اقترن به آخر، لا يمكنه الخلاص منه، وهو اعتقاده: أنه هو الفاعل.

والصواب: أن هذا ليس بذنب، ولا مقدور للعبد ولا مأمور(٥)، والكمال في حقه أن يشهد الأمر كما هو عليه، وأنه فاعل حقيقة، كما أضاف الله إليه الفعل في كتابه كله، والله هو الذي جعله فاعلاً، فإذا شهد نفسه فاعلاً حقيقية، وشهد فاعليته بالله ومن الله، لا من نفسه، فلا ذنب في هذا الشهود، ولا زور

---

(١) ط (منه).

(٢) غ، ط (النفس).

(٣) ط (كانت).

(٤) ط (قد).

(٥) ط (به).

بحمد الله ، وهو نظر بمجموع عينيه إلىٰ السبب ، والمسبب ، والشرع ، والقدر، والخلق ، والأمر [ثم لو صح ما ذكروه لكان الكافر والعاصي والفاسق أيضاً لا ذنب له ولا معصية في حقيقة الأمر](١) ، وأنه متىٰ شهد نفسه عاصياً ، مخالفاً ، مذنباً: كان عاصياً بهذا الشهود؛ لأن الفاعل فيه غيره ، وهذا مناف للعبودية أشد منافاة ، وهو من سَيْر القوم إلىٰ شهود الحقيقة الكونية(٢) ، واعتقاد(٣): أنه غاية السالكين(٤).

فإن قيل: الشيخ - رحمه الله - هاهنا ما نطق [بلسان الأبرار؛ بل(٥) بلسان](٦) المقربين ، ولا ريب أنَّ «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين» ولسنا نريد أنّ(٧) شهود فعله ذنب في الشرع؛ بل يكون حسنة كما ذكرتم ، لكن هو حسنة للبرِّ ، ذنب للمقرَّب ، فإنّ نصيب البر من السيئة: ما جاء به العلم ، ونصيب المقرب: ما جاءت به المعرفة التي هي أخص من العلم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب سوىٰ م ، د ، ق ، ط.

(٢) الحقيقة الكونية: هي الفرق الأول وهو مذموم وقد سبق ص١٧١٨ ، ١٨٧٣ ، وانظر المدارج ١/ ٢٤٧.

(٣) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط (واعتقادهم).

(٤) ق (للسالكين).

(٥) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، ق ، ط (وإنما نطق).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من د.

(٧) (أنّ) سقطت من ق.

قيل: هذا أيضاً باطل قطعاً؛ بل[1] المعرفة الصحيحة: مُطابقة للحق[2] في نفسه شرعاً وقدراً، وما خالف[3] ذلك فمعرفة فاسدة.

والحق في نفس الأمر: نسبة الأفعال إلىٰ الفاعلين قياماً ومباشرة، وصدوراً منهم[4]، وذلك محل الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

والقدح في ذلك مستلزم لإبطال الشرع والجزاء، فإنّ الشرع إنّما يأمر بأفعالنا[5] وننهىٰ عنها والجزاء إنما ترتب عليها، فشهود أفعالنا[6] كذلك من تمام الإيمان بالشرع والجزاء، ونسبتها إلىٰ الرب تعالىٰ، قضاءً وقدراً وخلقاً للأسباب التي منها إرادتنا وقدرتنا، فلم يجبرنا عليها ولم يكرهنا، بل خلقها بما أعطانا من القدرة والإرادة، اللتين[7] هما من أسباب الفعل.

فهذا المشهد يحقق عبودية: «إياك نستعين»، والمشهد الأول يحقق عبودية: «إياك نعبد»[8] ويحقّقان مشهدي: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن

---

(١) أ، ب، غ (فإنّ) بدل (بل).

(٢) ق (الحق).

(٣) ط (ومخالف).

(٤) (منهم) سقطت من د.

(٥) الأصل (بأفعالها) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٦) الأصل (أفعالها) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٧) ب (اللذين).

(٨) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط زيادة (هما).

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

وما جاء به العلم لا يناقض ما جاءت به المعرفة؛ بل المعرفة روح العلم ولُبُّه وكماله، وحقيقتها: العلم الذي أثمر لصاحبه مقصوده، ولسان الأبرار لا يخالف لسان المقربين، إنما يخالف لسان الفجار.

نعم لسان المقربين أعلىٰ منه وأرفع، علىٰ مقتضىٰ أعمالهم وأحوالهم، فنسبته إليه كنسبة مقام التوكل إلىٰ الرضىٰ، والرضىٰ إلىٰ الحمد والشكر.

فإن قيل كلامهم هذا بلسان العلم، ولو تكلمنا بلسان الحال لعلمتم صحة ما ذكرناه، فإن صاحب الحال صاحب شهود، وصاحب العلم صاحب غَيبة، والشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب، و(١)نحن نشير إليكم إشارة حالية علمية، تنزلاً من الحال إلىٰ العلم.

فنقول: الحال تأثر عن نور من أنوار الأُحدية والفردانية(٢)، تستر(٣) العبد عن نفسه، وتبدي(٤) ظهور مشهوده(٥)، ولا ريب أنه(٦) في هذا

---

(١) (الواو) سقطت من الأصل، د، والأقرب إثباتها كما في م، أ، غ، ح٢، ب، ق، ش، ط.

أقسام الأحدية عند الصوفية

(٢) الأحدية عندهم أقسام فمنها أحدية الذاتية والصفاتية، وأحدية الأسماء والفعلية، وأحدية الجمع، وهي اسم للذات باعتبار سقوط جميع الاعتبارات عنها، وبين الأحدية وأحدية الجمع مراتب، ينظر في ذلك: لطائف الإعلام (١/ ١٦٩ - ١٧١).

(٣) بقية النسخ (يستر).

(٤) بقية النسخ (يبدي).

(٥) م (شهوده).

(٦) أ، ب، غ، ط (أن).

الحال[1] قد يعتقد أنّ الشاهد هو المشهود ، حتىٰ قال أبو يزيد في مثل هذا الحال: سُبحاني[2] ، وما في الجبة[3] إلا الله[4] ، ولا شك أن هذا الاعتقاد زور ، وإن كان[5] سببه نوراً من أنوار الأحدية ، وصاحبه معذور ، ما دام مستوراً عن نفسه بوارده ، فإذا رُدَّ إلىٰ رسمه وعقله وحِسِّه: حال ذلك الحال وزال ، وعلم صاحبه أنه كان زوراً ، حيث ظنّ الشاهد هو المشهود.

فإن أنكرتم ذلك فلا كلام معكم ، وإن اعترفتم به حصل المقصود.

فهذا معنىٰ كون أصدق أحوال الصادق: زوراً ، وإذا[6] عُرف هذا في الحال عُرف مثله في كون أحسن أعماله: ذنباً ، فإنه - لصدقه في الطلب ، وبذله

---

(١) م ، ح٢ (الحالة).

(٢) ط (سبحاني سبحاني) تكرار.

(٣) ق (الجفة).

(٤) ذكر هذه المقولة شيخ الإسلام عن أبي يزيد البسطامي ثم علّق عليها وبيّن أنها من السكر والجنون ونقص العقل الذي فقد معه صاحبه التمييز ، انظر الفتاوىٰ ٢/ ٣٩٦ ، ٤٦١ ، ٨/ ٣١٣ ، ١٠/ ٣٣٩ ، ١٣/ ١٩٩ ، وهذه تُدْرج عند القوم في مصطلح الفناء ، انظر هذا المعنىٰ لديهم في لطائف الإعلام ٢/ ٢١٧ ـ ٢٢١ ، وهو النوع الثاني من أنواع الفناء ويُراد به الفناء عن شهود السوىٰ ، وتقدم الكلام علىٰ أقسام الفناء ١٦٦٤ ، وقد علق ابن القيم علىٰ هذه المسألة عند أول ورودها في المدارج ١/ ١١٩ ، وانظر في مسألة الفناء (الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرىٰ) دراسة مقارنة ، د/ عبد الباري محمد داود.

مقولة البسطامي وشطحاته والتعليق عليها

(٥) (كان) سقطت من أ ، ب ، غ ، د ، ط.

(٦) ش (فإذا).

الجهد في العمل، واستفراغه الوسع[١] فيه - يغيب بذلك عن شهود الحقيقة الكونية[٢]، وأن المحرك له سواه وأنه آلة ومجرىٰ للمشيئة، وأن نفسه أعجز وأضعف من أن يكون لها، أو بها، أو منها فعل، أو إرادة، أو حركة، فإذا رجع إلىٰ الحقيقة فشهد[٣] مِنَّة الله عليه، وأنه هو المحرك له[٤]، وأن مشيئته هي التي أوجبت سعيه، رأىٰ أحسن أعماله: ذنباً بهذا الاعتبار.

وأما «رُؤْيَتُهُ أَصْفَىٰ قُصُودِهِ: قُعُوداً» فلأن القاصد إلىٰ الحقيقة متىٰ شهد مقصوده، قعد عن قصده، فإنّ المقصود المراد: أقرب إلىٰ اللسان من نطقه، وإلىٰ القلب من قصده، فالقصد إليه: هو عين القعود عن القصد، لأنّ القصد إنّما يكون لبعيد عن المقصود[٥]، أما من هو أقرب إلىٰ القاصد من ذاته: فمتىٰ شهد القاصد الحقيقة: علم أنّ قصده عين القعود عن قصده، والعبارة تزيد هذا المعنىٰ جفوة، والحوالة فيه علىٰ الحال والذوق.

فالجواب أنْ يُقال: من أحالكَ علىٰ الحال فما أنصفك، فإنه أحالك علىٰ أمر مشترك بين الحق والباطل، فإنّ كلّ من اعتقد شيئاً وطلبه طلباً[٦] صادقاً،

---

(١) ق (التوسع).

(٢) الحقيقة الكونية: سبق ص ١٧١٨، ١٨٧٣ .

(٣) ق (وشهد).

(٤) (له) سقطت من غ، ب.

(٥) أ، ب، غ، ط (القاصد).

(٦) (طلباً) سقطت من ق.

واستفرغ وسعه في الوصول إليه: كان له(1) لا محالة فيه حال ليست لغيره، بحسب صدقه في طلبه، وجمع همته وقصده عليه، وهذا(2) يكون للأبرار والفجار؛ بل لأولياء الله وأعدائه، فكون(3) الرجل له شهود بمشهوده، وحال في طلبه، لا يوجب كونه حقاً ولا باطلاً، فإنّ كلّ من اعتقد عقيدة، وارتاضَ وصقل قلبه بأنواع الرياضة، وجزم بما اعتقده: تجلَّى(4) له صورة معتقده في عالم نفسه، فيظن ذلك كشفاً صحيحاً، وإن كان صادقاً في طلبه وحبه لما اعتقده: كان له فيه حال وتأثير بحسبه، فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير مليء به.

ومن هاهنا دخل الداخل على أكثر السالكين، وانعكس سيرهم، حيث أحالوا العلم على الحال، وحكموه عليه(5).

---

(١) (له) سقطت من ط.

(٢)ش زيادة (لا).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب، د، ق، ط (فيكون).

(٤) ط (تجلّت).

(٥) تقديم الحال على العلم، والإحالة على الذوق والكشف والحال: علّق عليها شيخ الإسلام في مواضع متعددة من كتبه منها: الاستقامة ١/ ٣٨٨ - ٤١٥، ٢/ ١٢٧، الفتاوى ١١/ ٧٥، الفرقان ضمن الفتاوى ١١/ ٢٨٦، ولقد سبق تعريف الحال ص١٨٢٨، وهذا المعتقد سارٍ عندهم حتى الآن، ويصرحون به، ومما يقوله مُنظِّرهم في العصر الحاضر/ عبد الحليم محمود: «وإذا عجز المنهج العلمي الحاوي عن دارسة التصوف في حقيقته وجوهره، وعجز المنهج العقلي كذلك، فإن الصوفية جميعاً، وفلاسفة الإشراق منذ فيثاغورس

تقديم الحال والإحالة على الذوق والكشف

وسير[١] أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين: بخلاف هذا، وهو إحالة الحال علىٰ العلم، وتحكيمه عليه وتقديمه، ووزنه به[٢] حكمه، فإن وافقه العلم، وإلا كان حالاً فاسداً، منحرفاً عن أحوال الصدِّيقين[٣] بحسب بُعْده عن العلم، فالعلم حاكم والحال محكوم عليه، والعلم راعٍ والحال من رعيته، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد، وغايته الانسلاخ من العلم والدين، كما جرىٰ ذلك لمن جرىٰ له، وبالله[٤] المستعان.

ونحن لا ننكر ما ذكرتم - من غيبة الشاهد بمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، وبمحبوبه[٥] عن حبه - لكن ننكر كون هذا أكمل حالاً من صاحب البقاء والتمييز، وشهود الحقائق علىٰ ما هي عليه، فلا يحتاج أن[٦] يشهد حاله زوراً؛ لأنه لم يحصل له ما حصل لصاحب السُّكْر[٧]

وأفلاطون إلىٰ يومنا هذا يعلنون منهجاً محدوداً يقرونه ويثقون به ثقة تامة، ذلك هو المنهج القلبي، أو المنهج الروحي، أو منهج البصيرة وهو منهج معروف أقرته الأديان..» عبد الحليم محمود/ تأليف مرسي أبو العباس ص١٠، وقد تقدم الكلام عن الحال كمصدر للتلقي عندهم، وذلك في مبحث تقويم منازل السائرين في مطلع هذه الرسالة ص١٦٥٧.

(١) ب (ومسير).

(٢) ط زيادة (وقبول).

(٣) أ، ب، غ، م، ط (الصادقين).

(٤) ب (والله).

(٥) م، ب (و محبوبه).

(٦) (أن) سقطت من الأصل وغيره والأقرب إثباتها كما في ط.

(٧) ق، ش (الشكر).

والاصطلام[1] من الزور، فهو أكمل منه حقيقة وشرعاً.

وأما الغائب عن الحقيقة الكونية بشهود فِعله: فإنه متىٰ صحبه استصحاب عقد التوحيد، وأن مصدر كل شيء مشيئة الله وحده، وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يتحرّك متحرِّك في ظاهره أو باطنه إلا به سبحانه: فلا تضرُّهُ[2] الغيبة عن هذا المشهد باستغراقه في القصد والفعل والطلب[3] إذ حكمه جار عليه في هذه الحال، وليس ضيق قلبه عن استحضار ذلك وقت استجماع إرادته وفعله وطلبه: ذنباً، لا للخاصة ولا للعامة، ولا بالنسبة إلىٰ مقامه أيضاً، فإن الذنب تعمُّد مخالفة الأمر، وهذا ليس كذلك، ولا هذا[4] مطالب بالغيبة عن شهود[5] الحقيقة، والفناء فيها عن شهود الفعل وقيامه به، مع اعتقاده[6] أنه بمشيئة الله وحوله وقوته.

وأما ما ذكرتم من أن مشاهدة القرب تجعل القصد قعوداً: فكلام له خبء[7]، وقد أفصح عنه بعض المغرورين المخدوعين بقوله:

---

(١) الاصطلام: سبق تعريفه ص٢٠٧٤ .

(٢) الأصل (يضره) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٣) ط (والطلب والفعل).

(٤) الأصل (هذا) والأقرب ما أثبته من ش، ق، ح٢، ط وقد سقطت من أ، ب، غ، د، م.

(٥) الأصل (بشهود)، ق (بشهوده) والأقرب ما أثبته من ب، ط.

(٦) (الهاء) سقطت من ط.

(٧) خبء.. الخبء: الخَبْأة، ما عُمِّيَ عن شيء ثم سئل عنه.. وخبأه: ستره، واختبأ: استتر، المعجم الوسيط (١/ ٢١٣).

ما بال عينــك لا يقرُّ قرارها؟ وإلام ظلــك لا يني متنقــلا؟
فلسوف تعلم أن سيرَك لم يكن إلا إليك ، إذا بلَغتَ المنــزلا[1]

وكأن صاحبه مشير[2] إلىٰ أنه وجود قلبه ولسانه ، ووجوده أقرب إليه من إرادته ولطفه[3] ، هذا خبء هذا الكلام ، وتعالىٰ الله عن إلحاد هذا وأمثاله وإفكهم عُلُواً كبيراً ، بل هو[4] سبحانه فوق سمواته علىٰ عرشه بائن من خلقه.

وأما ما[5] ذكرتم من القرب: فإن أردتم عموم قربه إلىٰ كل لسان[6] من نطقه وإلىٰ كل قلب من قصده: فهذا - لو صح - لكان قرب قدرة وعلم إحاطة ، لا قرباً بالذات والوجود ، فإنه سبحانه لا يمازج خلقه ، ولا يخالطهم ، ولا يتحد بهم ، مع أن هذا المعنىٰ لم يرد عن الله ورسوله ، ولا عن[7] أحد من السلف الأخيار تسميته قُرباً ، ولم يجئ القرب في القرآن والسنة قط إلا خاصاً كما تقدم.

وإن أردتم القرب الخاص إلىٰ اللسان والقلب: فهذا قرب المحبة ، وقرب

---

(١) بيت الشعر: لم أجده.

(٢) الأصل (مشير) والأقرب ما أثبته من ب ، ط.

(٣) د ، ش (نطقه).

(٤) من قوله: (بل هو) إلىٰ منزلة الإيثار سقط من ش.

(٥) (ما) سقطت من ط.

(٦) (لسان) سقطت من د.

(٧) (عن) سقطت من د ، م ، أ ، وفي غ (من).

الرضىٰ والأنس ، كقرب العبد من ربه وهو ساجد ، وهو نوع آخر من القرب ، لا مثال له ولا نظير ، فإن الروح والقلب يقربان[١] من الله وهو علىٰ عرشه ، والروح والقلب في البدن ، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك.

وهذا القرب لا ينافي القصد والطلب؛ بل هو مشروط بالقصد ، فيستحيل وجوده بدونه ، وكلما كان الطلب والقصد أتم: كان هذا القرب أقوىٰ.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس:

أحدهما: أنه قربه بعلمه ، ولهذا قرنه بعلمه [بوسوسة نفس الإنسان][٢] ، «وحبل الوريد» هو[٣] حبل العنق ،[٤] عرق بين الحلقوم والودجين[٥] متىٰ قُطع مات صاحبه وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضاً ، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء[٦].

---

(١) الأصل (يقرب) والأقرب ما أثبته من ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل ، ش والأقرب ما أثبته من م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق ، ط.

(٣) (هو) سقطت من ط.

(٤) م ، أ ، غ ، ح٢ ، ب ، د ، ق زيادة (وهو).

(٥) ط (الذي).

(٦) انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٩ ، ٢٢/ ١٠٦ ، ٢٦/ ١٥٧ ، زاد المسير ٨/ ٩ ، روح المعاني ٢٥/ ١٧٨.

والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلىٰ قلبه، فيكون[1] أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا[2].

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، فإن جبريل - عليه السلام - هو الذي قرأه عليه، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيره هذه الآية «فإذا قرأه رسولنا فأنصِت لقراءته حتىٰ يقضيها»[3].

قلت له فأول[4] الآية يأبىٰ[5] ذلك، [6]قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ قال: وكذلك[7] خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب، وتخليق الملائكة.

---

(١) د (فيكونون).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٣) واختاره شيخ الإسلام كما في شرح حديث النزول ضمن الفتاوىٰ (٥/ ٢٣٤ - ٢٣٦، ٤٩٤)، وأشار إلىٰ بعض الأقوال في ذلك، كالقدرة والرؤية ثم ضعفها، مبيناً أن لفظ القرب ليس مثل لفظ المعية.

(٣) البخاري. بدء الوحي (١/ ١٥) ح(٥)، البخاري. التفسير (٣/ ٥١٨) ح(٤٩٢٨ - ٤٩٢٩) بلفظ آخر قريب منه (٣/ ٣٥٠) ح(٥٠٤٤) (٤/ ٤١١) ح(٧٥٢٤)، وانظر الروايات في هذه الآية عن ابن عباس في تفسير ابن عباس ومروياته من كتب التفسير (٢/ ٩٤٧) د/ عبد العزيز الحميدي، مسلم. الصلاة (١/ ٣٣٠) ح(٤٨٨)، وانظر فتح الباري، ط/ دار الريان للتراث (٨/ ٥٥١).

(٤) ط (أوله).

(٥) ق (يأتي).

(٦) ط زيادة (فإنه).

(٧) ق (ولذلك).

قلت: وفي صحيح مسلم من[1] حديث حُذيفة بن أُسيد رضي الله عنه في تخليق النطفة: «**فيقول الملك الذي يخلقه: يا ربِّ أذكر أم أُنثىٰ؟ أسويٌّ أم غير سوي؟ فيقضي ربُّك ما يشاء ويكتب الملك**»[2]، فهو سبحانه الخالق وحده، ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه، فما ثمَّ خالق علىٰ الحقيقة غيره.

والمقصود: أنّ هذا موضع ضلت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام، واشتبه[3] فيه معية العلم والقدرة والإحاطة بالقرب، واشتبه[4] فيه آثار قرب المحبة والرضىٰ والموافقة[5]، وغلبة ذكره ومراقبته بقرب ذاته، واشتبه فيه ما في الذهن بما في الخارج، واشتبه اضمحلال شهود الرسم وانمحاؤه من القلب بعدمه وفنائه، واشتبه[6] فيه آثار الصفات بحقيقتها، وأنوار المعرفة بأنوار الذات. وأصحابه - لتحكيمهم الحال والذوق - لا يلتفتون إلىٰ لسان العلم، ولا يصغون إليه، وفي هذا كفاية، والله المستعان[7].

---

(١) م، أ، غ، ح٢، ب، د (في).

(٢) مسلم. القدر (٤/ ٢٠٣٧) ح(٢٦٤٥)، البخاري. القدر (٤/ ٢٠٨) ح(٦٥٩٥)، أحمد (١/ ٤٧٤).

(٣) ط، حاشية م (واشتبهت).

(٤) ط (واشتبهت).

(٥) م، ب (والمراقبة).

(٦) ط (واشتبهت).

(٧) م، د (وعليه التكلان).. وعند هذا انتهت مخطوطة د.

فصل

منزلة الإيثار

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الإيثار»(١).

قال الله تعالىٰ [في مدح أهله](٢): ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار ضدّ الشُّح، فإن المؤثر علىٰ نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص علىٰ ما ليس بيده، فإذا حصل بيده(٣) شحَّ عليه، وبخل بإخراجه، فالبخل(٤) ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: **«إياكم والشحَّ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمَرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»**(٥).

---

(١) الإيثار: هو تخصيص الغير علىٰ النفس، وهو مراتب، ومنه أن لا يريد العبد من الحق إلا ما أراده الحق له، وأعلىٰ منه إيثار: الإيثار لله، فلا ملك لك تؤثر به إنما هو لله، ومنه الإيثار بهبة ثواب القرب، ويحملهم الإيثار علىٰ فرط الشفقة والرحمة، ومنه إيثار الملامتية: وهو الإيثار بمقامك من الشرف والسؤدد.. انظر لطائف الإعلام ١/ ٢٥٧ - ٢٦١، معجم مصطلحات الصوفية ٢٨.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ، ش، ط.

(٣) م، أ، غ، ب، ق، ط زيادة (شيء).

(٤) ب (والبخل).

(٥) مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٦) ح(٥٧٨)، أحمد (٢/ ١٦٠، ١٩١، ١٩٥)، أبو داود. الزكاة (٢/ ٢٣٤) ح(١٦٩٨)، الحاكم في المستدرك (١/ ١١/ ، ٤١٥)، وصححه وأقره الذهبي.

فالبخيل: من أجاب داعي الشح، والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

و[١]كذلك السخاء[٢] عما في أيدي الناس هو السخاء[٣]، وهو أفضل من سخاء[٤] البذل.

قال عبدالله بن المبارك - رضي الله عنه -: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النَّفس بالبذل[٥].

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمِّي بمنزل[٦] «الإيثار» لأنه أعلىٰ مراتبه، فإن المراتب ثلاث:

أحدها[٧]: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه، فهو منزلة «السخاء». علامة الإيثار بالسخاء

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبقي له شيئاً، أو يبقي مثل ما أعطىٰ، فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، فهي[٨] مرتبة «الإيثار» وعكسها

---

(١) (الواو) سقطت من ط.

(٢) السخاء: الجود، مختار الصحاح ٢٩١.

(٣) ق (السخي).

(٤) ق (سخىٰ).

(٥) الرسالة القشيرية (٣٦٧)، مجموعة آثار السلمي (٢/ ٥٠٢)، الإخوان لابن أبي الدنيا، دار الكتب العلمية (٢٠١).

(٦) م، غ (بمنزلة).

(٧) ط (إحداها).

(٨) أ، ب، غ، ط (وهو)، ح٢، م (وهي)، ق (فهو).

«الأثرة[١]» [٢]، وهو[٣] استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار[٤]: «إنَّكم ستلقون بعدي أَثرة، فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض» [٥]، والأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، فوصفهم بأعلىٰ مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً[٦].

وكان قيس بن سعد بن عُبادة[٧] ـ رضي الله عنهما ـ من الأجواد المعروفين، حتىٰ أنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم[٨] يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزىٰ الله مالاً يمنع الإخوان من

---

(١) ق (الأثر).

(٢) الأثرة: استأثر به، خصّ به نفسه، المعجم الوسيط (١/ ٥).

(٣) م (وهي).

(٤) ط زيادة (رضي الله عنهم).

(٥) البخاري. المناقب (٣/ ٤١) ح(٣٧٩٣)، مسلم. الزكاة (٢/ ٧٣٣) ح(١٠٥٩)، أحمد (٣/ ١٦٦)، الترمذي. الفتن (٤/ ٤٨٢) ح(٢١٨٩).

(٦) قصة إيثار الأنصار، وسبب نزول الآية في البخاري. التفسير ٣/ ٣٠٦ ح(٤٨٨٩)، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٠.

(٧) قيس بن سعد بن عبادة بن دليم، الأمير المجاهد، سيد الخزرج، الأنصاري، الساعدي، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، توفي في آخر خلافة معاوية/ طبقات ابن سعد (٦/ ٥٢)، التاريخ الكبير (٧/ ١٤١)، أسد الغابة (٤/ ٢١٥)، الإصابة (٣/ ٢٤٩)، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٠٢).

(٨) أ، ب، غ، ق زيادة (كانوا).

الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلّ، فما أمسىٰ حتىٰ كُسرت عتبة بابه(١) لكثرة من عاده(٢).

وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخىٰ منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية علىٰ امرأة، فحضر زوجُها، فقالت إنّه نزل بك ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرىٰ فنحرها، فقلنا: ما أكلنا من التي نُحرت البارحة إلا اليسير، فقال: إني لا أطعم ضيفي(٣) البائت، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر، وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما طلع(٤) النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتموني ثمن قراي؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لتَأخُذُنَّه أو لأطاعننكم برمحي، فأخذناه وانصرف(٥).

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس علىٰ الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم علىٰ إيثارهم(٦) في الدنيا علىٰ نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن علىٰ الناس، فيظهر(٧) حينئذ

(١) ب زيادة (من).

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٧، وعزاه لابن عساكر ١٤/ ٢٢٩/ ب.

(٣) جميع النسخ (ضيفاي) وما أثبته هو الصحيح لغة.

(٤) الأصل (متع)، ح٢، غ (منع) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٦٢، ومواقفه التي وردت في سير أعلام النبلاء تشهد لكرمه ٣/ ١٠٧.

(٦) ط زيادة (إخوانهم).

(٧) م، أ، غ، ح٢، ب، ط (فتظهر).

فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك - مع كونك من أهل الإيثار - فاعلم أنه الخير يراد بك(١).

فصل

مراتب الجود

و«الجود» عشر(٢) مراتب:

إحداها: الجود بالنفس، وهو أعلىٰ مراتبه، كما قال الشاعر:

يجودُ بالنفس إذ(٣) ضنَّ البخيلُ بها   والجودُ بالنفس أَقْصىٰ غاية الجُودِ(٤)

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده علىٰ امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه، فيجود بها تعباً وكَدّاً في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته(٥) لمسامِرِه، كما قيل:

---

(١) ق (والله أعلم)، ط (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

(٢) ح٢، م، ق (عشرة).

(٣) أ، ب، غ (إذا).

(٤) بيت الشعر: قائله مسلم بن الوليد في ديوانه صريع الغواني، انظر شرح الديوان لأبي العباس الطبيخي ١٦٤، وانظر معجم لآلئ الشعر ١٤٢، ومعجم الحكم والأمثال لأحمد قبش ٧٦، وعزاه الطبري في التاريخ لعلي بن الجهم ٥/ ٢٠٥.

(٥) ط (ولذاته).

مُتيّمٌ بالنّدىٰ، لو قــال سَائلُه   هَبْ لي جميعَ كَرَىٰ عينيك، لم ينَمِ[١]

الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلىٰ مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به علىٰ مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه؛ بل تطرحه عليه طرحاناً[٢].

ومن الجود به[٣]: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها[٤] شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفُتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

شيخ الإسلام ابن تيمية أنموذج للجود بالفتوى

وقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية[٥] في ذلك أمراً عجيباً: كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قَدِرَ عليه[٦] ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون[٧] أنفع

---

(١) بيت الشعر: لم أجده.

(٢) ط (طرحاً).

(٣) أ، ب، غ، ح٢، ق، ط (بالعلم) بدل (به).

(٤) ط (جواباً).

(٥) ط زيادة (قدس الله روحه).

(٦) (عليه) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٧) الأصل (يكون) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

للسائل[١] من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات[٢]، واللوازم أعظم من فرحه بمسألته.

وهذه فتاواه[٣]، [٤]بين الناس: فمن أحب الوقوف عليها رأىٰ ذلك[٥].

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر علىٰ مسألة السائل، بل يذكر له نظيرها[٦] ومتعلقاتها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ النبي ﷺ عن التوضؤ[٧] بماء البحر؟ فقال: «**هو الطَّهور ماؤه، الحلُّ ميتته**»[٨]، فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

---

(١) غ (المسائل).

(٢) الأصل (التعلقات) والأقرب ما أثبته من أ، ب، ع، م، ش.

(٣) غ، ب، ط (فتاويه)، ق (فتواه).

(٤) ط (رحمه الله).

(٥) مما يعد نموذجاً لذلك رسالته لأهل البحرين حيث ضمنها الإجابة عن السؤال ومسائل يعلم حاجتهم إليها من الوصية بنبذ الفرقة والاختلاف، انظر الفتاوىٰ ٦/ ٤٨٥، ٥٠٩، ٢٤/ ١٦٣، ١٧٦.

(٦) ط (نظائرها).

(٧) ط (المتوضئ)، وبقية النسخ (التوضئ) وما أثبته هو الصحيح لغة.

(٨) أحمد (٢/ ٢٢٧)، أبو داود. الطهارة (١/ ٦٤) ح(٨٣)، الترمذي (١/ ١٠٠) ح(٦٩) وقال حسن صحيح، الحاكم في المستدرك (١/ ١٤١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/ ٤٢) رقم (٩).

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم علىٰ علته وحكمته، كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أينقص الرطب إذا جفَّ؟» فقالوا[١]: نعم. قال: «فلا إذن»[٢]، ولم يكن يخفىٰ عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم علىٰ[٣] علة الحكم، وهذا كثير جداً في أجوبته ﷺ مثل قوله: «إن بعت من أخيك ثمراً[٤]، فأصابها جائحة فلا يحلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً، بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟»[٥]، [٦]وفي لفظ: «أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم من مال أخيه، بغير حق؟» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه

---

(١) أ، ب، غ، ط (قالوا).

(٢) أبو داود. البيوع (٣/ ٦٥٤) ح(٣٣٥٩)، الترمذي. البيوع (٣/ ٥١٩) ح(٢٢٥) وقال حسن صحيح، ابن ماجه في التجارات (٢/ ٧٦١) ح(٢٢٦٤)، وابن حبان في صحيحه (٤/ ٥٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد وقال إسناده حسن (١/ ٢١٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل رقم (١٣٥٢).

(٣) ش (عن).

(٤) ط (ثمرة) والمثبت من الأصل، م، وصحيح مسلم.

(٥) مسلم. المساقاة (٣/ ١١٩٠) ح(١٥٥٤)، نحوه في أبو داود. البيوع (٣/ ٧٤٦) ح(٣٤٧٠)، ابن ماجه. التجارات (٢/ ٧٤٧) ح(٢٢١٩)، النسائي في المجتبىٰ (٧/ ٢٦٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢)، وقال صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأورده ابن حجر في فتح الباري (٤/ ٣٩٩).

(٦) أ، ق (فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن وهي منع وفي لفظ: «أرأيت إن منع الله الثمر بما يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن، وهي منع الله الثمرة).

بالثمن، وهي منع الله الثمرة التي(١) ليس للمشتري فيها(٢) صنع.

وكان خصومه(٣) يعيبونه بذلك، ويقولون يسأله السائل عن طريق مصر مثلاً فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند، وأي حاجة بالسائل إلىٰ ذلك؟.

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكِبر، وهذا موضع المثل المشهور: لقبوه بحامض، وهو حلو(٤)، مثل من لم يصل إلىٰ(٥) العُنقود(٦).

(٧)الخامسة: الجود بالنفع بالجاه، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلىٰ ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالب به العبد، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن علىٰ اختلاف أنواعه، كما قال النبي ﷺ: «**يُصبح علىٰ كل سُلامىٰ من أحدكم صدقة، كلّ يوم تطلع فيه الشمس، يَعدل بين اثنين(٨): صدقة، وتُعين الرجل في دابته فتحمله(٩) عليها أو يرفع له عليها متاعه: صدقة، والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلىٰ الصلاة:**

---

(١) س، غ، ب (الذي).

(٢) الأصل، ح٢ (فيه) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٣) ط (يعني شيخ الإسلام ابن تيمية).

(٤) أ، ب، غ، ط (خل).

(٥) (إلىٰ) سقطت من م.

(٦) المثل: لم أجده.

(٧) ق زيادة (وقول الآخر: سل الناس عنا إن جهلت وعنهم وليس يستوي عالم وجهول).

(٨) الأصل (الاثنين) وما أثبته من أ، ب، غ، ط، وصحيح مسلم.

(٩) الأصل (ليحمله) والمثبت في صحيح مسلم (١/ ٦٩٩) و أ، ب، غ، ط.

صدقة، ويميط الأذىٰ عن الطريق: صدقة» متفق عليه(١).

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة - رضي الله عنهم -، كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه(٢) لا مال لي، فأتصدق(٣) به علىٰ الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني، أو قذفني: فهو في حل، فقال النبي ﷺ: «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟»(٤).

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

---

(١) مسلم. الزكاة (٢/ ٦٩٩) ح(١٠٠٩)، في المسافرين (١/ ٤٩٩) ح(٧٢٠)، وقد ورد بألفاظ أخرىٰ بعضها في البخاري. الصلح (٢/ ٢٧٠) ح(٢٧٠٧)، أطرافه (٢٨٩١ - ٢٩٨٩)، أبو داود. الصلاة (٢/ ٦٠) ح(١٢٨٥)، أحمد (٥/ ١٦٧).

(٢) أ، ب، غ (أن لا مال).

(٣) ط (أتصدق).

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب (٥/ ١٩٨ - ١٩٩) ح(٤٨٨٦)، لكنه مقطوع ورقم (٤٨٨٧)، مرسل وهو الذي رجحه أبو داود، وكذلك الذهبي رجح المرسل كما في الميزان (٣/ ٥٩٧)، وروي بسند آخر عند ابن السني في عمل اليوم والليلة رقم(٦٥)، وفي سنده شعيب بن بيان، قال الحافظ صدوق يخطئ، تهذيب الكمال (١٢/ ٧٠٥)، وذكر ابن حجر طرقاً أخرىٰ في نتائج الأفكار (٢/ ٣٩٢)، وكلها معلولة، ورواه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٣٧)، والبغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٢٦)، من طريق أنس وفي سنده محمد بن عبدالله العمي قال عنه في تهذيب التهذيب (٩/ ٢٤٧): «ليِّن الحديث» وعلىٰ هذا فإن الطريقين الموصولين شاذان، والمحفوظ عن قتادة مقطوع وعن ثابت مرسل، والله أعلم.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء [١]، وهذه [٢] مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنه يجتني ثمرة عواقبه [٣] الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفُتوة، قال تعالىٰ: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، فذكر المقامات الثالثة في هذه الآية مقام العدل، وأَذن فيه، ومقام الفضل ونَدب إليه، ومقام الظلم، وحرّمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبِشر [٤] والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يُوضع في الميزان، قال النبي ﷺ: **«لا تحقرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقىٰ أخاك ووجهك منبسط إليه»** [٥]، وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع

---

(١) قال عثمان بن زائدة: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل، قال ـ الراوي ـ: فحدث به أحمد بن حنبل فقال: العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل، شعب الإيمان ٦/ ٣٣٠، تهذيب الكمال ١٩/ ٣٧٠.

(٢) ب (وهي).

(٣) (عواقبه) سقطت من ح٢.

(٤) أ، ب، غ (البشرة).

(٥) مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٢٦) ح(٢٦٢٦)، أحمد (٣/ ٥٨٣)، الترمذي. الأطعمة (٤/ ٢٧٤) ح(١٨٣٣).

المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بماله، و[١]يمكنه أن يسعهم بخُلقه واحتماله.

العاشرة[٢]: الجود بتركه[٣] ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه، وهذا هو[٤] الذي قال عبدالله ابن المبارك: «إنّه من جود[٥] البذل»[٦].

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: و[٧]إن لم أعطك ما[٨] تجود به علىٰ الناس، فجُد عليهم بزهدك في[٩] أموالهم، [وما في أيديهم، تَفضُلُ عليهم][١٠]، وتزاحمهم في الجود[١١]، وتنفرد عنهم بالراحة.

---

(١) ط (لا يمكنه).

(٢) ق (العاشر).

(٣) الأصل (بترفيه) والأقرب ما أثبته من ب، أ، ط.

(٤) (هو) سقطت من ح٢، ب.

(٥) ط (سخاء النفس بالبذل).

(٦) الرسالة القشيرية (٣٦٧)، نحوه في مجموعة آثار السلمي (٢/ ٥٠٢)، وقد ورد في البداية والنهاية مواقف تدل علىٰ ذلك (١٠/ ١٧٨).

(٧) (الواو) سقطت من ش.

(٨) م، ش (ما لا).

(٩) الأصل (فجُد عليهم بأموالهم) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ح٢، ق، ط.

(١٠) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والأقرب إثباته كما في أ، ب، غ، م، ح٢، ق، ط.

(١١) ب (بالجود).

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال، والله سبحانه ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك[١] والله المستعان.

فصـــل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله -:

الفرق بين الإيثار والأثرة

«الإِيثَارُ: تخَصِيصٌ وَاختِيَارٌ، وَالأَثَرَةُ: تحْسُن طَوْعاً، وَتَصحُّ كَرهاً»[٢].

فرّق الشيخ بين «الإيثار» و «الأثرة» وجعل «الإيثار» اختياراً و «الأثرة» منقسمة إلىٰ اختيارية اضطرارية، وبالفرق بينهما يعلم معنىٰ كلامه، فإن «الإيثار» هو البذل، وتخصيص من[٣] تؤثره علىٰ نفسك، وهذا لا يكون إلا اختياراً.

وأما «الأثرة[٤]» فهي[٥] استئثار صاحب الشيء به عليك، وحوْزه[٦] لنفسه دونك، فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه، إلا إذا كانت طوعاً، مثل أن يقدر علىٰ منازعته ومجاذبته، فلا يفعل، ويدعه وأثرته طوعاً فهذا حسن، وإن لم يقدر علىٰ ذلك كانت أثرة كرهٍ[٧].

---

(١) الأصل (علىٰ الممسك)، أ، ب، غ، ح٢، م (للمسك) والأقرب ما أثبته من ط.

(٢) منازل السائرين (٤٤).

(٣) م، أ، غ، ح٢، ب (تخصيصك لمن)، ط (من).

(٤) ب، غ (والأثر).

(٥) ب، غ (هي).

(٦) ق (وجوده).

(٧) ح٢، م (كرهاً).

ويعني بالصحة: الوجود، أي توجد كرهاً، ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعاً من المستأثر عليه.

فحقيقة «الإيثار» بذل صاحبه وإعطاؤه، و «الأثرة» استبداده(١) هو بالمؤثر به، فيتركه وما استبد(٢) به: إما طوعاً أو كرهاً، فكأنك آثرته باستئثاره حيث خلّيت بينه وبينه، ولم تنازعه.

قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: **«بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة، في عُسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأَثرةٍ علينا، وأن(٣) لا ننازع الأمر أهله»**(٤)، فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة، و(٥) عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة، فإنه ﷺ لم يستأثر عليهم.

* * *

(١) غ، ب، ط (استبداله).

(٢) غ، ب، ط (استبدل).

(٣) (أن) سقطت من غ، ب.

(٤) البخاري. الفتن (٤/ ٣١٣) ح(٧٠٥٦)، مسلم (٢/ ١٣٣٣) ح(١٧٠٩)، أحمد (٣/ ٤٤١).

(٥) (الواو) سقطت من ط.

فصل

درجات الإيثار

قال: «وَهُوَ عَلىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: أَنْ تُؤْثِرَ الخَلْقَ عَلىٰ نَفسِكَ فِيمَا يخْرِمُ[١] عَلَيكَ دِيناً، وَلاَ يَقطَعُ عَلَيكَ طَرِيقاً، وَلاَ يُفسِدُ عَلَيكَ وَقتاً»[٢].

الدرجة الأولى

يعني: أنْ تقدمهم علىٰ نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرىٰ، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلىٰ ارتكاب إتلافٍ[٣] لا يجوز في الدين، ومثل[٤] أن تؤثرهم بمالك وتقعد كَلاًّ مضطراً، مستشرقاً للناس أو سائلاً، وكذلك إيثارهم بكل ما يحرم[٥] علىٰ المؤثر دينه، فإنه سفه وعجز، يُذمُّ المؤثِر به عند الله، وعند الناس.

وأما قوله: «وَلا يَقْطَعُ عَلَيكَ طَرِيقاً» أي لا يقطع[٦] عليك طريق الطلب والمسير[٧] إلىٰ الله تعالىٰ، مثل أن تؤثر جليسك علىٰ ذكرك، وتوجهك[٨] وجمعيتك علىٰ الله، فتكون قد آثرته علىٰ الله، وآثرت بنصيبك من الله من[٩] لا

---

(١) المنازل (يحرم) ص٤٤.

(٢) منازل السائرين ٤٤، وقال ابن القيم في طريق الهجرتين: «.. فإن الإيثار المحمود الذي أثنىٰ الله علىٰ فاعله في الدنيا لا بالوقت والدين وما يعود لصلاح القلب» ١/ ٤٤٦.

(٣) الأصل وغيره (تلاف) والأقرب ما أثبته من ط.

(٤) هذه الأمثلة ملحقة بما لا يجوز في الدين الإيثار به.

(٥) ح٢، ش، ب، غ، م (يخرم)، ط (يحرمه).

(٦) (لا يقطع عليك) سقطت من ق.

(٧) ح٢ (والسير).

(٨) م، غ، ح٢، ب، ط (توجهك).

(٩) ب، غ، ط (ما لا).

يستحق الإيثار، فيكون مَثَلك كمثل[1] مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق، وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى، فإيثارهم عليه عين الغبن، وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره، وما أقل المؤثرين الله على غيره.

وكذلك الإيثار بما يُفسد على المؤثر وقته قبيح أيضاً، مثل أن يؤثر بقُوْتِه[2] ويتفرق[3] قلبه في طلب خلفه[4]، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه على الله فيتفرق[5] قلبه عليه بعد جمعيته ويتشتت[6] خاطره، فهذا أيضاً إيثار[7] غير محمود. وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك، [8]على الفكر في العلم[9] النافع، واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لا تخفى، بل ذلك حال الخلق والغالب عليهم. وكل سبب يعود عليك[10]

---

(١) م (مثل).

(٢) ط (بوقته).

(٣) ط (يفرق).

(٤) غ، م، ح٢، ق (خلقه).

(٥) ط (فيفرق).

(٦) ط (يشتت).

(٧) الأصل (غير إيثار محمود) والصحيح ما أثبته من م، غ، ح٢، ب، ش، ط.

(٨) ح٢، م، ب، غ (وعلى).

(٩) (في العلم) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(١٠) (عليك) سقطت من ش.

بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله، فلا تؤثر به أحداً[١] أبداً[٢] فإن[٣] آثرت به فإنما تؤثر الشيطان علىٰ الله، وأنت لا تعلم.

وتأمل أحوال أكثر الخلق في إيثارهم علىٰ الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم وأي جهالة وسفه فوق هذا؟.

ومن هذا[٤] تكلم الفقهاء في الإيثار بالقُرَب[٥]، وقالوا: إنه مكروه أو محرم[٦]، كمن يؤثر بالصف الأول غيره[٧] ويتأخر هو، أو[٨] يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإمامة[٩]، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه[١٠] عليه، فيفوز به دونه.

---

(١) (أحداً) سقطت من ط.

(٢) (أبداً) سقطت من غ ، ب ، ط.

(٣) الأصل (فإنما) والصحيح ما أثبته من ح٢ ، غ ، ب ، ق ، ط.

(٤) م (هنا).

(٥) مسألة الإيثار بالقرب: تحدث عنها أهل العلم منهم المصنف في زاد المعاد ٣/ ٥٠٥ ، وفي الروح ١٢٩ ، وابن عابدين في الحاشية ١/ ٣٨٢ ، والعز بن عبد السلام في قواعد الأحكام ١/ ٤٤ ، والسيوطي في الأشباه والنظائر ١٢٩ ، وأكثرهم علىٰ المنع ، وانظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب حول الإيثار في القراءة والمسارعة إلىٰ العلم ، والمجموع للنووي ٤/ ٥٤٥ ـ ٥٤٧ ، حيث ذكروا كراهة الإيثار بالقرب. مسألة الإيثار بالقرب

(٦) ط (حرام).

(٧) م ، غ ، ح٢ ، ب (لغيره).

(٨) (الألف) سقطت من ب.

(٩) م ، غ ، ح٢ ، ب ، ط (الإقامة).

(١٠) الأصل (يرفهه) والأقرب ما أثبته من ب ، ط.

وتكلموا في إيثار عائشة - رضي الله عنها - لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عنها[1] بمدفنه[2] عند رسول الله ﷺ في حجرتها[3].

وأجابوا عنه بأن الميت ينقطع عمله بموته وبقربه، فلا يُتصور بحقه الإيثار بالقرب بعد الموت، إذ لا تقرُّب في حق الميت، وإنما هذا إيثار بمسكن شريف فاضل لمن هو أولىٰ به منه[4]، فالإيثار به قربة إلىٰ الله عزّ وجلّ للمُؤثر، والله تعالىٰ[5] أعلم.

فصل

قال: «وَلَا يُستَطَاعُ[6] إِلاَّ بِثَلَاثَةِ أَشيَاء: بِتَعظِيمِ الحُقُوقِ، وَمَقتِ الشُّحِّ، وَالرَّغبَةِ فِي مَكَارِمِ الأَخلَاقِ»[7].

ذكر ما يعين علىٰ «الإيثار» فيبعث عليه، وهو ثلاثة أشياء.

تعظيم[8] الحقوق، فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق

(١) ط (عنه).

(٢) ط (بدفنه).

(٣) في البخاري. الجنائز (١/ ٤٢٨) ح(١٣٩٢).

(٤) ط (منها).

(٥) (تعالىٰ) سقطت من ط.

(٦) منازل السائرين (ويُستطاع هذا بثلاثة) ٤٥.

(٧) منازل السائرين ٤٥.

(٨) م (بتعظيم).

رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي، فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها.

الثاني: مقت الشح، فإنه إذا مقته وأبغضه التزم بالإيثار، فإنه يرىٰ أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار.

الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق، وبحسب رغبته فيها: يكون إيثاره، لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق.

فصل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إِيثَارُ رِضَىٰ الله عَلىٰ رِضَىٰ غَيرِهِ، وَإِن عَظُمَتْ فِيهِ المِحَنُ، وَثَقُلَتْ فِيهِ[1] المُؤَنُ، وَضَعُفَ[2] عَنهُ الطَّوْلُ والبَدَنُ»[3].

إيثار رضىٰ الله عزّ وجلّ علىٰ غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق وهذه[4] هي درجة الأنبياء، [وأعلاها الرسل][5]،[6] وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا محمد[7] ﷺ[8]، فإنه قاوم العالم كله، وتجرد

---

(١) المنازل (به) ٤٥.

(٢) المنازل (وضعفت) ٤٥.

(٣) منازل السائرين ٤٥.

(٤) ب (هذه)، ط (وهي).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٦) ط زيادة (عليهم الصلاة والسلام).

(٧) (محمد) سقطت من ط.

(٨) ح٢، غ، ب، م، ق، ط (عليه وعليهم).

للدعوة إلىٰ الله، واحتمل عداوة البعيد[١] والقريب في الله تعالىٰ، وآثر رضىٰ الله علىٰ[٢] الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان همُّه وعزمه وسعيه كله مقصوراً علىٰ إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه، حتىٰ ظهر دين الله علىٰ كل دين، وقامت حجته علىٰ العالمين، وتمت نعمته علىٰ المؤمنين، فبلَّغ الرسالة، وأدّىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد[٣]، وعبد الله حتىٰ أتاه اليقين من ربه، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما ناله[٤] صَلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله: «وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ المِحَنُ، وَثَقُلَتْ فِيهِ المُؤَنُ».

فإن المحنة تعظم فيه أولاً، ليتأخر من ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحنُ منحاً، وصارت تلك المؤَنُ عَوْناً، وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنه ما آثر عبد مرضاة الله عزّ وجلّ علىٰ مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر علىٰ محنته[٥]: إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمله[٦] من مرضاته، فانقلبت[٧] مخاوفه

---

(١) (البعيد) سقطت من غ، ب وفي ق (القريب والبعيد).

(٢) غ، ح٢، ق، ط زيادة (رضىٰ).

(٣) ق، غ، ب، ح٢ (جهاده).

(٤) (الهاء) سقطت من ط.

(٥) م، غ، ب (محنه).

(٦) ط (تحل).

(٧) م (وانقلبت).

أمانة، ومظان عَطَبه نجاة، وتعبه راحة، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، و محنته منحة، وسخطه رضىٰ، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذِلَّة المتهَيِّبين.

هذا وقد جرت[١] سنة الله - التي لا تبديل لها - أن من آثر مرضاة الخلق علىٰ مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محنته علىٰ يديه، فيعود حامده ذاماً، ومن آثر مرضاته ساخطاً، فلا علىٰ مقصوده منهم حصل، ولا إلىٰ ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضىٰ الخلق: لا مقدور، ولا مأمور[٢]، فهو مستحيل؛ بل لا بد من سخطهم عليك، فلأنْ يسخطوا عليك وتفوز برضىٰ الله عنك أحب[٣] إليك وأنفع لك من أن يسخطوا[٤] عليك والله عنك غير راضٍ[٥]، فإذا كان سخطهم لا بدّ منه - علىٰ التقديرين - فآثِرْ سخطَهم الذي تنال[٦] به رضىٰ الله، فإن هم

---

(١) ب (عرفت).

(٢) م، غ، ب، ط (مأثور) بدل (مأمور).

(٣) ب (وأحب).

(٤) ط (يسخوا).

(٥) في هذه المسألة قول رسول الله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس.. » الحديث، الترمذي. الزهد (٤/ ٦١٠) ح(٢٤١٤)، صحيح ابن حبان (١/ ٥١٠)، ورجح الألباني المرفوع كما في الصحيحة (٥/ ٢٩٢)، ورجح ابن أبي حاتم الموقوف كما في العلل (٢/ ١٠٣، ١١١)، وله شاهد من حديث ابن عباس في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٨٦)، وقال رجاله رجال الصحيح غير يحيىٰ بن سليمان الحفري وقد وثقه الذهبي.

(٦) ط (ينال).

رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضىٰ من لا ينفعك رضاه، ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم، وخاصة العقل: احتمال أدنىٰ المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنىٰ المصلحتين لتحصيل أعلاهما، فوازن بعقلك، ثم انظر أيَّ الأمرين خير فآثره، وأيهما شر فابعُد منه(١)، فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضىٰ الله علىٰ رضىٰ الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضىٰ الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لمصانعةُ وجهٍ واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها(٢).

وقال الشافعي - رضي الله عنه -: رضىٰ الناس غاية لا تدرك، فعليك بما فيه صلاح(٣) نفسك فالزمه(٤).

ومعلوم: أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضىٰ ربها ومولاها علىٰ غيره، ولقد

---

(١) بقية النسخ (عنه).

(٢) حلية الأولياء بسنده إلىٰ أبي حازم ٣/ ٢٣٩، وأوله في سير أعلام النبلاء عن أبي حازم ٦/ ١٠٠.

(٣) غ (إصلاح).

(٤) صفة الصفوة ٢/ ٢٥٤، وفي حلية الأولياء ٩/ ١٢٣ عن الشافعي، وفي حلية الأولياء ٦/ ٣٨٦ عزاه لسفيان الثوري.

أحسن أبو فراس - رحمه الله[١] - في قوله[٢] إلا أنه أساء كل الإساءة[٣] إذ يقول لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً:

فليتك تحلو[٤] والحياة مريرة وليتك ترضىٰ والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحّ منك الودُّ فالكل هينٌ وكل الذي فوق التراب تراب[٥]

ثم ذكر الشيخ - رحمه الله - ما يُستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن، فقال:

«وَيُستَطَاعُ هَـذَا بِثَلاثَـةِ أَشْـيَاء : بِطِيـبِ[٦] العَـوْدِ ، وَحُسْنِ الإِسْلامِ، وَقُـوَّةِ الصَّبْرِ»[٧].

من المعلوم: أن المؤثر لرضىٰ الله متصدٍ لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم في إتلافه ولا بُد، هذه سنة الله في خلقه ، وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم، فمن آثر رضىٰ الله فلا بد أن يعاديه رذالة[٨] العالم وسقطهم،

---

(١) (رحمه الله) سقطت من جميع النسخ سوىٰ الأصل.

(٢) ط زيادة (في هذا المعنىٰ).

(٣) ب ، س ، غ ، ح٢ ، ط (في قوله) وفي ق (إلا أنه أساء في قوله كل الإساءة).

(٤) م (تخلو).

(٥) ديوان أبي فراس (٤١) وليس فيه البيت الثالث.

(٦) الأصل (بطلب) ولعل الأقرب ما أثبته من المنازل ص٤٥ ، غ ، ب.

(٧) منازل السائرين ٤٥.

(٨) رذالة: الرذل: الدون الخسيس ، ورذال كل شيء رديئه ، مختار الصحاح ٢٤٠.

وغرثهم[١][٢]، وجُهّالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هَدْيه، فما يقدم علىٰ معاداة هؤلاء إلا طالب للرجوع[٣] إلىٰ الله، عامل علىٰ سماع خطاب: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، ومن إسلامُهُ صُلب كامل لا تُزعْزِعُه[٤] الرجال، ولا تُقَلْقِلُه[٥] الجبال، ومن عقد عزيمة صبره محُكَمٌ، لا تحلُّه المحن والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران[٦]: الزهد في الحياة والثناء، فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الخلق[٧] عليه، ونفرته من ذمِّهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخَّرت عنه العوارض كلها، وانغمس حينئذ في العساكر[٨].

---

(١) ط (غرائهم).

(٢) الغرث: أيسر الجوع وقيل شدته، لسان العرب ٢/ ١٧٢.

(٣) غ، ح٢، م، ب، ط (الرجوع).

(٤) هامش م (تزعجه).

(٥) ش (تقلقه).

(٦) الأصل (أمرين) وما أثبته هو الصحيح لغة كما في غ، م، ح٢، س، ب، ط.

(٧) م، غ، ب، ح٢، ق، ط (الناس).

(٨) العساكر: لعله يريد بذلك أن من تخلص من تلك الشوائب فقد حَشر نفسه مع حزب الله، وانظر قريباً من ذلك في طريق الهجرتين ١/ ٣٥٣، وفي لسان العرب ٤/ ٥٦٨، عسكر بالمكان: تجمَّع، والعسكر: مجتمع الجيش.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين، وقوة المحبة.

وملاك هذين الشيئين أيضاً: بصدق اللجإ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلىٰ هاهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعدُ بِيَدِ من أزمَّةُ الأمور كلها بيديه[1] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١﴾ [الإنسان: ٣٠-٣١].

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: إِيثَارُ[2] إِيثَارِ الله، فَإِنَّ الخَوْضَ[3] فِي الإِيثَارِ دَعْوىٰ فِي المِلْكِ، ثُمَّ تَركُ شُهُودِ رُؤْيَتِكَ إِيثَارَ الله، ثُمَّ غَيْبَتُكَ عَنِ التَّرْكِ»[4].

معنىٰ[5] إيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلىٰ الله دون نفسك، وأنه هو الذي تفرد بالإيثار، لا أنت، فكأنك سلَّمت الإيثار إليه، فإذا آثرت غيرك بشيء فإن الذي آثره هو الحق، لا أنت، فهو المؤثر حقيقة، إذ هو المعطي حقيقة.

ثم بين الشيخ - رحمه الله -[6] السبب الذي يصح به نسبة الإيثار إلىٰ الله،

(١) ط (بديه).

(٢) (إيثار) سقطت من ح٢.

(٣) غ (الخواص).

(٤) منازل السائرين ٤٥.

(٥) ق، غ، م، ح٢، ب، ط (يعني بإيثار إيثار الله).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وترك نسبته إلىٰ نفسه(١) فقال: «(٢) الخَوْضُ(٣) فِي الإِيثارِ: دَعْوَىٰ فِي المِلْكِ».

فإذا ادَّعىٰ العبد: أنه مؤثر فقد ادعىٰ ملك ما آثر به غيره، والملك(٤) في الحقيقة: إنما هو لله الذي له كل شيء، فإذا خرج العبد عن دعوىٰ الملك فقد آثر إيثار الله - وهو إعطاؤه - علىٰ إيثار نفسه، وشهد أن الله وحده هو المؤثر بملكه، وأما من لا ملك له: فأي إيثار له؟.

وقوله: «ثُمَّ تَرْكُ شُهُودِ رُؤْيَتِكَ إِيثَارَ اللهِ».

يعني أنك إذا آثرت إيثار الله بتسليمك معنىٰ الإيثار إليه: بقيت عليك من نفسك بقية أخرىٰ لا بد من الخروج عنها، وهو(٥) أن تعرض عن شهودك و(٦)رؤيتك أنك آثرت الحق بإيثارك، وأنك نسبت الإيثار إليه لا إليك، فإن في شهودك ذلك، ورؤيتك له: دعوىٰ أخرىٰ، هي أعظم من دعوىٰ الملك، وهي أنك ادّعيت أن لك شيئاً آثرت به الله وقدمته علىٰ نفسك فيه، بعد أن كان لك(٧)، وهذه الدعوىٰ أصعب من الأولىٰ، فإنها تتضمن ما تضمنته الأولىٰ من الملك،

---

(١) ق، ح٢، غ، ب، ط (نفسك).

(٢) في حاشية ش (فإن).

(٣) غ (الخواص).

(٤) ح٢ (والملك إنما هو في الحقيقة لله) وفي ق (والملك والملك).

(٥) ق، م، غ، ب، ح٢، ط (وهي).

(٦) (الواو) سقطت من ق، م، غ، ح٢، ب، ط.

(٧) (لك) سقطت من ش.

وتزيد عليها برؤية الإيثار به [فالأول: مدع للملك مؤثر به، وهذا مدعٍ للملك ومدعٍ للإيثار به](١)، فإذن يجب عليه ترك شهود رؤيته لهذا الإيثار؛ فلا يعتقد أنه آثر الله بهذا الإيثار؛ بل الله هو الذي استأثر به دونك، فإن الأثرة واجبة له بإيجابه(٢) إياها لنفسه(٣)، لا بإيجاب العبد إياها له.

قوله: «ثُمَّ غَيْبَتُكَ عَنِ التَّرْكِ».

يريد: أنك إذا تركت(٤) هذا الشهود، وهذه الرؤية: بقيت عليك بقية أخرىٰ، وهي رؤيتك لهذا الترك المتضمنة(٥) لدعوىٰ ملكك(٦) للترك، وهي دعوىٰ كاذبة، إذا ليس للعبد شيء من الأمر، ولا بيده لا(٧) فعل ولا ترك، وإنما الأمر كله لله.

وقد تبين في الكشف والشهود والعلم والمعرفة(٨): أن العبد ليس له شيء أصلاً والعبد لا يملك حقيقة، إنما المالك بالحقيقة سيده، فالأثرة والإيثار

(١) ما بين المعقوفين سقط من غ، ب.

(٢) ب (بإيثاره).

(٣) ط (بنفسه).

(٤) ط (نزلت) وكذلك في هامش ب.

(٥) ش زيادة (له).

(٦) (ملكك) سقطت من م.

(٧) (لا) سقطت من ط، ب، وفي م، غ، ح٢ (ولا بيده ولا فعل ولا ترك).

(٨) الكشف تقدم ص١٨٢٩، والشهود ص١٧٢٧، والعلم والمعرفة ص١٦٥٦.

والاستئثار كلها[١] لله ومنه وإليه ، سواء اختار العبد ذلك وعلمه، أو جهله، أم لم يختره ، فالأثرة واقعة ، كره العبد أم رضي ، فإنها استئثار المالك[٢] الحق بملكه تعالىٰ، وقد فهمت من هذا معنىٰ[٣] قوله: «**فَإِنَّ الأَثَرَةَ تَحْسُنُ طَوعاً، وَتَصِحُّ كَرهاً**» والله[٤] أعلم[٥].

* * *

---

(١) م (وكلها).

(٢) ح٢ (للمالك).

(٣) ش (المعنىٰ) وهي سقطت من غ ، ب.

(٤) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٥) هنا انتهت مخطوطة ح٢.

فصـــل

منزلة الخُلُق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الخُلُق»(١).

قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قال ابن عباس ومجاهد: لعلىٰ دين عظيم، لا دين أحب إليّ ولا أرضىٰ عندي منه، وهو دين الإسلام(٢).

وقال الحسن - رضي الله عنه -: هو آداب القرآن(٣).

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر(٤) به من أمر الله، وينتهي(٥) عنه من نهىٰ الله(٦)،

---

(١) الخُلُق: هو ما يرجع إليه المكلف من نعته، فخلق كل مخلوق هو ما اشتملت عليه نعوته أي صفاته، فهو صفات النفس، لذا فإن الإنسان مستور بخَلقِهِ مشهود بخُلُقه، وهو يكون مع الحق، فما يأتي من العبد فهو نقص يوجب عذراً، وما يأتي من الحق فهو جود يُوجِبُ شكراً، ويكون مع الخلق، وجماعُهُ بذل المعروف واحتمال الأذىٰ وكفه، ومنه الخلق الكامل، وهو ما استجمع العلم والجود والصبر ومنه الخلق العظيم وهو أكمل ما يمكن أن يتصف به إنسان من مكارم الأخلاق، قال الله تعالىٰ عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وإنّك لعلىٰ خلق عظيم﴾، انظر هذه التعريفات: الرسالة القشيرية ٣٥٤، لطائف الإعلام ١/ ٤٥١ - ٤٥٥، معجم مصطلحات الصوفية ٩٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/ ١٨، والقرطبي ١٨/ ٢٢٧، تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥، ابن كثير ٤/ ٤٧٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٨/ ١٩، زاد المسير ٨/ ٣٢٨، تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥، وفي الدر المنثور عن عطية العو في ٨/ ٢٤٣.

(٤) ط (يأمر) وهو خلاف الأصل وما أورده البغوي عن قتادة ٤/ ٢٤٣.

(٥) ط (وينهىٰ) وهو خلاف الأصل وما أورده البغوي عن قتادة ٤/ ٣٧٥.

(٦) تفسير الطبري ٢٩/ ١٢، تفسير البغوي ٤/ ٣٧٥، تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٢، وفي تفسير الطبري ٢٨/ ١٩ عن الضحاك.

والمعنىٰ: إنّك لعلىٰ الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين : أن هشام بن حكيم سأل عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ ؟ فقالت: «كان خُلُقه القرآن ، فقال: لقد هممت أن أقوم ولا[1] أسأل شيئاً»[2].

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] ، قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع من هذه الآية[3]، وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟ قال: لا أدري حتىٰ أسأل[4]، ثم رجع إليه، فقال: إن الله يأمرك أن تصِل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك»[5].

---

(١) الأصل (فلا) والمثبت من صحيح مسلم و أ ، ب ، غ ، م ، ط.

(٢) مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥١٢) ح(٧٤٦) ، أحمد (٦/ ٥٤) ، أبو داود. الصلاة (٢/ ٨٧) ح(١٣٤٢) ، وليس في سنده هشام بن حكيم ، ولعله تصحيف أو وهم حيث إن سعد ابن هشام استصحب حكيم بن أفلح إلىٰ عائشة فقد تكون العبارة (هشام وحكيم).

(٣) الطبري ١٣/ ٣٣٢ ، الكشاف ٢/ ١٣٨ ، المحرر الوجيز ٧/ ٢٨٢ ، وعند ابن كثير عن قتادة نحوه ٣/ ٣٤٩ ، الدر المنثور ٣/ ٦٢٩.

(٤) أ ، ب ، غ زيادة (فسأل).

(٥) السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٨٢) ، وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي ، ابن كثير (٣/ ٣٤٨).

ولا ريب أن للمطاع مع(١) الناس ثلاثة أحوال:

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له مُوالٍ، ومعادٍ له مُعارِض، وعليه في كل واحد من هذه الأحوال(٢) واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي(٣) به صلاحهم، وصلاح شأنهم، وينهاهم(٤) عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له(٥) من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوَّعت له به أنفسهم، سماحةً واختياراً، ولا يحملهم علىٰ العَنَت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض(٦) وعدم مقابلتهم(٧) والانتقام منهم(٨)

---

(١) ب (من).

(٢) (الأحوال) سقطت من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٣) (الذي) سقطت من ش.

(٤) ب (ينهرهم).

(٥) (له) سقطت من أ، ب، غ.

(٦) أ، ب، غ، م، ش، ق، ط (عنهم).

(٧) ط (بالمثل).

(٨) ش (منه).

لنفسه،(١) فقال الله(٢) لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، قال عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس(٣) وقال مجاهد: يعني(٤) خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسيس(٥)(٦)، مثل قبول الاعتذار(٧) والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش(٨) عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عباس ـ رَضي الله عنهما ـ: «خذ ما عفا لك من أموالهم، وهو الفضل(٩) عن العيال»(١٠)، وذلك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

---

(١) ط (فقد قال).

(٢) ط (تعالىٰ).

(٣) تفسير الطبري ٩/ ١٥٤، ١٣/ ٣٢٧، مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٨٨ رقم ١٦٦٧٧، السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٥٣ بنفس اللفظ المثبت في الأصل.

(٤) (يعني) سقطت من ق.

(٥) غ (تخسيس).

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٣٢٧، وابن كثير ٢/ ٣٤٨ بلفظ «من غير تحسُّس»، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٦٢٨، وعزاه لابن عمر وعبدالله بن الزبير.

(٧) أ، ب، غ (الأعذار).

(٨) ش زيادة (والبحث).

(٩) ط (الفاضل).

(١٠) تفسير الطبري ٩/ ١٥٤، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٨، الدر المنثور ٣/ ٦٣١، وفي الدر المنثور عن عائشة ٣/ ٦٢٩.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو كل معروف، وأعرفه: التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تُقابله بالسفه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وعلىٰ هذا[1] فليست بمنسوخة[2]؛ بل يُعرض عنه بإقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه.

فضل حسن الخلق ومنزلته

وهكذا[3] كان خلقه ﷺ، قال أنس - رضي الله عنه -: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً»[4]، وقال: «ما مَسَسْتُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته:

---

(١) ب (هذان).

(٢) روي عن ابن عباس أنها منسوخة بالزكاة، وقيل نُسِخَت بالأمر بالغلظة عليهم بالقتال، وقال مجاهد إنها مُحكمة، والمراد بها الزكاة، وقال القاسم وسالم إنها مُحكمة ويُراد بها غير الزكاة، علىٰ الندب وقال عبدالله، وعروة أبناء الزبير إنها محُكمة، ومعناها: خذ العفو من أخلاق الناس.. ورجح مكي ابن أبي طالب أنها مُحكمة، ومعناها الإعراض عن مخالطة المشركين، انظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخة ٢٩١ ـ ٢٩٣، وانظر تفسير الطبري ٩/ ١٥٤، ١٥٥.

(٣) م (وهذا).

(٤) البخاري الأدب (٤/ ١٢٨) ح(٦٢٠٣)، مسلم. الأدب (٣/ ١٦٩٢) ح(٢١٥٠)، أحمد (٣/ ٢١٢).

لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟» متفق عليه[١].

وأخبر[٢] ﷺ: «أن البرّ[٣] حُسنُ الخلق».

ففي[٤] صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «البِرُّ حُسْنُ الخُلق، والإثم ما حاك في صدرك[٥]، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[٦].

فقابَلَ البر بالإثم، وأخبر: أن البر حسن الخلق، و[٧]الإثم: حوازُّ[٨][٩] الصدور[١٠]، وهذا يدل علىٰ أن حسن الخلق: هو الدين كله، وهو حقائق

---

(١) البخاري. الصوم (٢/ ٥١) ح(١٩٧٣)، بلفظ «ولا مسست خزة ولا حريرة»، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨١٤) ح(٢٣٣٠) بلفظ «ولا مسست»، أحمد (٣/ ٢٦٥)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٨) ح(٢٠١٥).

(٢) ط زيادة (رسول الله).

(٣) أ، ب، غ، م، ش، ق زيادة (هو).

(٤) أ، ب، غ، م، ط (وفي).

(٥) أ (نفسك).

(٦) مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٨٠) ح(٢٥٥٣)، أحمد (٤/ ١٨٢)، الترمذي. الزهد (٤/ ٥٩٧) ح(٢٣٨٩) وقال حسن صحيح، الدارمي. البر والإثم (٢/ ٢٣٠) ح(٢٧٩٢).

(٧) أ زيادة (أن).

(٨) ش (حزاز).

(٩) حَوَازُّ: الحوز: الطبيعة من خير أو شر، وهو من حاز يحوز أي يجمع القلوب أي يحوز القلب ويغلب عليه حتىٰ يركب ما لا يحب.. وقيل: هو من (حزاز) أي ما حزَّ في القلب وحك فيه، لسان العرب ٥/ ٣٤٣.

(١٠) أ، ب (الصدر).

الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر: «البرُّ: ما اطمأنت إليه النَّفس، والإثم ما حاك في الصدر»[1]، وقد فُسِّر حسن الخلق بأنه البر، فدل علىٰ أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب، والإثم حواز[2] الصدور، وما حاك فيها، واسترابت به، وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس، كما سيأتي في[3] الصحيحين عنه[4] ﷺ: «خياركم: أحاسنكم أخلاقاً»[5].

وفي الترمذي[6] عنه ﷺ: «ما من شيءٍ أثقل في مِيزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالىٰ ليُبْغِضُ[7] الفاحش[8] البذيء» قال الترمذي حديث

---

(١) أحمد (٤/ ٢٢٨)، الدارمي في البيوع (٢/ ١٦١) ح(٢٥٣٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٣/ ١٦١)، وضعف إسناده محققه حسن أسد، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٥١)، وقال رواه أحمد بسند حسن، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٤) وعزاه للطبراني وأحمد، وقال رجال أحد إسنادي الطبراني ثقات، وحسنه الألباني بلفظ « البر ما سكنت إليه النفس »، صحيح الجامع (١/ ٥٥٧) ح(٢٨٨٠).

(٢) الأصل (جواز) والأقرب ما أثبته من ق، وفي ش (جزار).

(٣) ش (وفي).

(٤) ط (عن رسول الله).

(٥) البخاري. المناقب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٥٩)، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨١٠) ح(٢٣٢١)، أحمد (٢/ ١٩٣).

(٦) ط زيادة (عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي).

(٧) الأصل (يبغض) وما أثبته هو الموافق لما في الترمذي، أ، ب، غ، م، ش، ق.

(٨) الأصل (الفاجر) وما أثبته هو الموافق لما في الترمذي، أ، ب، غ، م، ش، ق.

حسن صحيح (١).

وفيه أيضاً - وصححه -(٢): أن رسول الله ﷺ سُئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: « تقوىٰ الله، وحُسن الخلق ». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج»(٣).

وفيه أيضاً(٤) - وصححه -(٥) أكمل المؤمنين إيماناً: « أحْسنهم خلقاً، وخياركم: خياركم لنسائهم»(٦).

---

(١) الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٢) ح(٢٠٠٢) وقال حسن صحيح، أبو داود. الأدب (٥/ ١٥٠) ح(٢٧٩٩)، أحمد (٦/ ٤٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢/ ٥٦٣)، وذكر تصحيح ابن حبان له برقم (١٩٢١).

(٢) ط زيادة (عن أبي هريرة رضي الله عنه).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الإمام أحمد (٢/ ٣٩٢)، والترمذي في البر والصلة (٤/ ٣٦٣) ح(٢٠٠٤) وقال صحيح غريب، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٠)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٢/ ١٨٦)، الترغيب والترهيب (٢/ ٣٤٧)، وحسَّنه الألباني كما في صحيح ابن ماجه (٢/ ٤١٧) ح(٣٤٢٤)، ورقمه في الصحيحة (٩٧٧).

(٤) أ، ط زيادة (عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ).

(٥) أ (ليدرك)، ط زيادة (إن من).

(٦) الترمذي. الإيمان (٥/ ٩) ح(٢٦١٢) بلفظ: « ألطفهم بأهله »، أحمد (٦/ ٤٧) بهذا اللفظ، وله شاهد عند ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٣٣٤) ح(١٩٧٨) ورقمه في الصحيحة (٢٨٥)، وفي مسلم: «إن من خياركم أحاسنكم..» (٤/ ١٨١٠) ح(٢٣٢١).

وفي الصحيح عن عائشة(١) عنه ﷺ: «إن المؤمن ليُدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»(٢)(٣).

وفيه أيضاً عنه(٤): «أنا زعيم ببيت(٥) في رَبَض الجنة: لمن ترك المِراء وإنْ كان محقاً، وببيت(٦) في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت(٧) في

(١) (عائشة) سقطت من ق.

(٢) ط زيادة (رواه أبو داود).

(٣) الحديث ليس في أحد الصحيحين وأخرجه من حديث عائشة: الإمام أحمد (٦/ ٩٠، ١٣٣، ١٨٧)، وأبو داود في الأدب (٥/ ١٤٩) ح(٤٧٩٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٨) وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه وشاهده على شرط مسلم والمزي في تهذيب الكمال (١٣/ ٢٦)، وبألفاظ أخرى عن عائشة أخرجه العقيلي (٤/ ٤٦٤) وابن عدي في الكامل (٣/ ٢٢٠)، وابن حبان في المجروحين (٣/ ١٤٤)، ومن حديث أبي أمامة أخرجه بألفاظ مختلفة الطبراني في الكبير (٨/ ١٦٩)، والرازي في الفوائد (٢/ ١٩٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥)، وقال فيه عفير بن معدان ضعيف، ومن حديث أبي الدرداء أورده العجلوني (٢/ ٢٦٠، ٤٠٤) وعزاه للطبراني وأبو داود والترمذي، والبخاري في الأدب المفرد من طريق أبي هريرة (١١٠)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١١)، وقال محقق شرح السنة: عن طريق عائشة صحيح بما قبله (١٣/ ١٨).

(٤) الأصل (وفيها عنه..) وفي ب، غ (وفيه عنه..) وفي أ، ق (وفيه صلى الله عليه وسلم) وفي ط (وعن ابن عمر رضي الله عنهما) والأقرب ما أثبته من م.

(٥) أ (بيت).

(٦) أ (بيت).

(٧) أ (بيت).

أعلىٰ الجنة: لمن حَسُنَ خُلقه»[1] وإسناده صحيح[2].

فجعل البيت العلوي جزءاً لأعلىٰ المقامات الثلاثة: وهي حسن الخلق، والأوسط، لأوسطها وهو ترك الكذب، والأدنىٰ لأدناها، وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل علىٰ هذا كله.

وفي الترمذي[3] عنه ﷺ: «إنَّ مِنْ أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، وإنَّ[4] أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون» قالوا: يارسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيقهون؟ قال: «المتكبرون»[5].

---

(١) ط (رواه الطبراني).

(٢) أخرجه من حديث أبي أمامة: أبو داود. الأدب (٥/ ١٥٠) ح(٤٨٠٠)، الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩٨)، تهذيب الكمال (٣/ ٤٩٨)، وابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٨١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣) وقال أخرجه الطبراني وفيه محمد بن الحصين ولم أعرفه والظاهر أنه التميمي وهو ثقة وبقية رجاله ثقات، ومن حديث معاذ: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٧٤)، الترغيب والترهيب (١/ ٧٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٧)، ونحوه من طريق أنس بن مالك: الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٥٨) ح(١٩٩٣)، وجمع طرقه وشواهده الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤٨) رقم(٢٧٣) وقال: وللحديث شواهد يرتقي بها إلىٰ درجة الحسن علىٰ أقل الأحوال.

(٣) ط زيادة (عن جابر رضي الله عنه).

(٤) ب، أ، ط (من).

(٥) أخرجه من حديث ثعلبة الخشني أحمد (٤/ ١٩٣، ١٩٤)، الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٧)، وعزاه لأحمد وقال رواته رواة الصحيح، والطبراني وابن حبان والترمذي من حديث جابر،

الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية، والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله علىٰ غيره، وأصله: من الفَهْق(١)، وهو الامتلاء.

فصل

تعريف حُسن الخلق

الدين كلُّه خُلُق، فمن زاد عليك في الخلق زادَ عليك في الدين، وكذلك التصوف.

قال الكتاني(٢): التصوُّف هو الخلق(٣)، فمن زاد عليك في الخلق: فقد زاد عليك في التصوف(٤).

وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٣١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١٠/ ١٩٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١)، وقال رجال أحمد رجال الصحيح، ومن حديث جابر أخرجه الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٧٠) رقم(٢٠١٨)، وقال حسن غريب، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥٢)، ومن حديث أبي هريرة: البخاري في الأدب المفرد (٤٤٣)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٤٣٤) رقم(٧٩١)، وأطال في ذكر شواهده وطرقه التي يرتقي بها إلىٰ درجة الحسن.

(١) أ، ب، غ (الفهو).

(٢) محمد بن علي بن جعفر الكتاني، يكنىٰ أبا بكر، أصله من بغداد، صحب الجنيد وأبا سعيد الخزاز وأبا الحسين الثوري، وأقام بمكة ومات بها سنة ٣٢٢هـ/ حلية الأولياء (١٠/ ٣٥٧)، صفة الصفوة (٢/ ٢٥٧)، تاريخ بغداد (٣/ ٧٤)، طبقات الصوفية للسلمي (٣٧٣)، الرسالة القشيرية (١٠١).

(٣) أ، ب، غ، م، ش (ومنها الخلق)، و م، ق والرسالة القشيرية ٣٥٤ بلفظ «خلق».

(٤) الرسالة القشيرية ٣٤٥، إحياء علوم الدين ٣/ ٥٢ وفي إتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٠٣ وعزاه لعوارف المعارف عن أبي زرعه عن أبي بكر خلف السلمي.

وقد قيل: إن حسن الخلق بذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، واحتمال الأذىٰ[(١)].

وقيل: حُسن الخُلُق: بذل الجميل، وكف القبيح.

وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل.

أركان حسن الخلق

وحسن الخلق يقوم علىٰ أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل[(٢)].

فالصبر: يحمله علىٰ الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذىٰ، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله علىٰ اجتناب الرذائل[(٣)] [والقبائح من القول والفعل، وتحمله علىٰ الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحش[(٤)] والبخل][(٥)] والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله علىٰ عزَّة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلىٰ البذل، والندىٰ الذي هو شجاعة النفس وقوتها علىٰ إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله علىٰ كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها[(٦)]

---

(١) المقدمة في التصوف ٦٠ ، إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣.

(٢) انظر لطائف الإعلام ١/ ٤٥٣ ، وإتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٠٠ ـ ٦١٠.

(٣) غ (الرذيل).

(٤) أ ، ب ، غ ، ط (الفحشاء).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٦) ق (شجاعته).

أمسك[١] عنانها، وكبحها[٢] [٣] بلجامها عن التسرع[٤] والبطش، كما قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٥]، وهذه[٦] حقيقة الشجاعة، وهي ملَكةٌ يقتدر[٧] بها[٨] علىٰ قهر خصمه.

والعدل: يحمله علىٰ اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط فيحمله علىٰ خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين [الإمساك والإسراف والتبذير، وعلىٰ خلق الحياء الذي هو توسط بين][٩] الذل والقحة[١٠]، وعلىٰ خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور[١١]، وعلىٰ خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة[١٢] وسقوط النفس[١٣].

---

(١) ط (يمسك).

(٢) ط (ويكبحها).

(٣) كبحها: كبح الدابة إذا جذبها إليه باللجام لكي تقف، مختار الصحاح ٥٦٠.

(٤) الأصل (الرع)، وفي ط (النزغ) ولعل ما أثبته من ش أقرب للصواب.

(٥) البخاري. الأدب (٤/ ١١٣) ح(٦١١٤)، مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠١٤) ح(٢٦٠٩)، أحمد (٢/ ٢٣٦).

(٦) أ، ب، غ، ط (وهو).

(٧) ب (يتقيد).

(٨) ط (العبد).

(٩) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(١٠) القحة: تقدم ١٨١٣.

(١١) التهور: الوقوع في الشيء بقلة مبالاة، مختار الصحاح ٧٠١.

(١١) المهانة: امتهن الشيء: احتقره، ورجل مهين: حقير، مختار الصحاح ٦٣٩.

(١٣) انظر إحياء علوم الدين في بيان أصول الأخلاق العالية والسافلة وأقسامها، والتوسط فيها بين الإفراط والتفريط ٣/ ٥٤.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

أركان سوء الخلق

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها علىٰ أربعة أركان: الجهل، والظلم والشهوة، والغضب[١].

فالجهل: يريه[٢] الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله علىٰ وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضىٰ[٣]، ويعجل[٤] في موضع الأناة[٥]، ويبخل في موضع البذل[٦]، ويحجم في موضع الإقدام، و[٧]يقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحملـه علىٰ الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنَّهمة[٨]

---

(١) ولقد حصرها شيخ الإسلام بالظلم والجهل، انظر الفتاوىٰ ٢٨/ ١٤٣، ١٧٩، الاستقامة ١/ ٣٧٩، درء التعارض ٨/ ٤٠٩.

(٢) الأصل (تريه) والصحيح ما أثبته من ط.

(٣) ط زيادة (ويرضىٰ في موضع الغضب).

(٤) أ، ب، غ، ط (ويجهل).

(٥) أ، ب، غ (الأناءة).

(٦) ق، م، أ، ب، غ، ط زيادة (ويبذل في موضع البخل).

(٧) ق (أو).

(٨) النَّهمة: بلوغ الهمة في الشيء، (ومنهوم) مولع به، والنَهَم: الإفراط في الشهوة، مختار الصحاح (٦٨٣).

والجشع[1] والذل والدناءات[2] كلها.

والغضب : يحمله علىٰ الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه[3] أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضَّعف، وإفراطها في القوَّة.

يتولد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل، والخسة[4] واللؤم[5]، والذل والحرص، والشح وسفساف[6] الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والبطش.

ويتولد من تزوج إحدىٰ[7] الخلقين بالآخر: أولاد غِيَّة[8] [9]كثيرون، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً، فيكون صاحبها أجبر[10] الناس إذا قدر، وأذلهم

---

(١) الجشع: أشد الحرص ، مختار الصحاح ١٧٥ .

(٢) الأصل (والدناءة) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، ط .

(٣) م ، أ ، ب ، غ ، ط (الأخلاق).

(٤) الخسّة: الخسيس: الدنيء ، مختار الصحاح ١٧٥ .

(٥) اللؤم: اللئيم: الدنيء الأصل ، الشحيح النفس ، مختار الصحاح ٥٨٧ .

(٦) سفساف: السَّفْسَافُ: الرديء من كل شيء ، والأمر الحقير ، مختار الصحاح ٣٠٢ .

(٧) م ، ب ، ش (أحد).

(٨) ق ، م ، ش (عنه) و ب (عنةٍ).

(٧) غيَّة : الغي الضلالة والخيبة والغوغاء من الناس الكثير المختلطون ، مختار الصحاح ٤٨٥ .

(١٠) ش (أجبن).

إذا قُهر، ظالم عسوف[١]، [٢] جبار، فإذا قُهر صار أذل من امرأة: جبان عن القوي، جريء[٣] علىٰ الضعيف.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.

كل خلق مكتنف بخلقين ذميمين

وكل خلق محمود مكتنَفٌ [٤]بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متىٰ انحرفت عن «التوسط» انحرف إلىٰ أحد[٥] الخلقين الذميمين ولا بُد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع[٦]» انحرفت: إما إلىٰ كبر وعلو، وإما إلىٰ ذل ومهانة وحقارة، وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما إلىٰ قحة وجراءة[٧] وإما إلىٰ عجز وخَور [٨] ومهانة، بحيث يُطمِع في نفسه

---

(١) أ، ب، غ، م، ط (عنوف).

(٢) عسوف: العسوف: الظلوم، مختار الصحاح ٤٣٢.

(٣) ق، أ، ب، غ (جبري).

(٤) أ زيادة (بين).

(٥) م، غ (إحدىٰ).

(٦) غ (التوضع).

(٧) ط، ش (جرأة).

(٨) الخور: الضعف، مختار الصحاح ١٩٢.

عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له علىٰ ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خُلق «الصبر المحمود» انحرفت: إما إلىٰ جزع وهلع(١) وجشع(٢) وتَسَخُّط، وإما إلىٰ غلظة كبد، وقسوة قلب، وحجرية(٣) طبع(٤)، كما قال بعضهم:

تبكي(٥) علينا ولا نبكي علىٰ أحـد فنحـن أغلظ أكباداً من الإبل(٦)

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت: إما إلىٰ الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلىٰ الذل والمهانة والحقارة، ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل(٧):

كلُّ حِلْم أتىٰ بغير اقتـدار حجة لاجئٍ إليهـا اللِّئام(٨)

---

(١) هلع: أفحش الجزع، مختار الصحاح ٦٩٧.

(٢) جشع: الجشع: أشد الحرص، مختار الصحاح ١٠٤.

(٣) ط (تحجر).

(٤) (طبع) سقطت من أ، ب، غ.

(٥) ش، ق (يبكي).

(٦) القائل: زيد الخيل، انظر الأمثال والحكم للماوردي ١٤١، وبهامشه إحالات أخرىٰ وفي بعضها (يُبكىٰ).

(٧) م (لأبي الطيب).

(٨) القائل: المتنبي، انظر ديوانه بشرح البرقوقي ٢/ ٢١٧.

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما إلىٰ عجلة وطيش وعنف[1]، وإما إلىٰ تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما إلىٰ كبر وإما إلىٰ ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت: إما إلىٰ تهور وإقدام غير محمود، وإما إلىٰ جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغِبطة[2]» انحرفت: إما إلىٰ حَسد،وإما إلىٰ مهانة، وعجز وذل ورضىٰ بالدون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: إما إلىٰ حِرْص وكَلَب[3]، وإما إلىٰ خِسَّة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خُلق «الرحمة» انحرفت: إما إلىٰ قسوة، وإما إلىٰ ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم علىٰ ذبح شاة، ولا إقامة حد ولا[4] تأديب ولد.

ويزعم أن الرحمة تحمله علىٰ ذلك، وقد ذبح أرحمُ الخلق بيده في

---

(١) (عنف) سقطت من ش.

(٢) الغبطة: تمنّي مثل حال المغبوط، من غير أن تريد زوالها عنه، مختار الصحاح ٤٦٨.

(٣) كَلَب: الكَلَبُ: مرض معدٍ يعرف برهبة الماء، المعجم الوسيط ٢/ ٧٩٤.

(٤) (لا) سقطت من ط.

موقف[1] واحد ثلاثاً وستين بدنة[2][3]، وقطع الأيدي من الرجال والنساء[4]، وضرب الأعناق[5]، وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتىٰ مات المرجوم[6]، وكان أرحم خلق الله علىٰ الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير[7] الخد[8]، وطي البِشْر[9] عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهِب الهيبة، ويزيل الوقار ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

---

(١) أ، ب، غ، ط (موضع).

(٢) (بدنة) سقطت من ق.

(٣) كما في صحيح مسلم في حديث جابر الطويل في الحج(٢/ ٨٨٦) ح(١٢١٨)، صحيح ابن حبان(٩/ ٣٢٧).

(٤) كما في حديث عائشة في البخاري. قصة المرأة (٤/ ٢٥٠) ح(٦٨٠٠)، وقطع الرجل كما في المسند (٢/ ١٤٥)، وأبي داود (٤/ ٤٣٦) ح(٤٣٨٦)، السنن الكبرىٰ للنسائي (٤/ ٣٣٥) ح(٧٣٣٩).

(٥) كما في سنن البيهقي (٩/ ٦٨) ح(١٧٨٠٨).

(٦) كما في البخاري. الحدود (٤/ ٢٥٤) ح(٦٨٢٠).

(٧) أ، ب، غ (تعصير)، ق (تصغر).

(٨) الأصل (للخد) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط، م.

(٩) البِشْر: من بشرني فلان بوجه حسن: أي لقيني وهو حسن البِشْر أي طلق الوجه، مختار الصحاح (٥٣).

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه، وفي صِفَة النبي[١] «من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه عِشْرة أحبَّه»[٢][٣].

فصل

أثر الرياضة وسياسة النفس في تقويم الخلق

[نافع جداً][٤] عظيم النفع للسالك، يوصله عن قريب، ويسيره بأخلاقه[٥] التي لا يمكنه إزالتها، فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية، تغيير الأخلاق التي طبعت[٦] عليها، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها؛ لكن النفوس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها، واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها

(١) أ، ب، غ، ط (نبينا).

(٢) الترمذي المناقب عن علي رضي الله عنه (٥/ ٥٩٩) ح(٣٦٣٨) وقال حسن غريب ليس إسناده بمتصل، مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٨)، شعب الإيمان (٢/ ١٥٠)، التمهيد لابن عبدالبر (٣/ ٣١)، تاريخ بغداد (١١/ ٣٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٤١٢)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٨).

(٣) ق (والله أعلم).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب.

(٥) ب (أخلاق).

(٦) ط زيادة (النفوس).

وإزالتها، ويكون سيره أقوىٰ وأجل وأسرع من سير العامل علىٰ إزالتها.

و[١]نقدم قبل هذا مثلاً نضربه، مطابقاً لما نريده، وهو: نهر جار في صَببه ومنحدره ومنتهٍ إلىٰ تغريق أرض وعمران ودور، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتىٰ يخرِّب دورهم، ويتلف أراضيهم وأموالهم، فانقسموا ثلاث فرق:

فرقة صرفت قواها وقوىٰ أعمالها إلىٰ سَكْره[٢] وحَبْسه وإيقافه، فلا[٣] تصنع هذه الفرقة كبير أمر، فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحْمِل علىٰ السكر[٤]، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة: رأت هذه الحالة، وعلمت أنه لا يُغني عنها شيئاً، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع[٥]، فرامت قطعه من أصله، فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية[٦] ذلك أشد الإباء، فهم دائماً في قطع الينبوع[٧]، وكلما سدُّوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

---

(١) ق (ونقل).

(٢) ب (سده).

(٣) ق (فلم).

(٤) ب (السد).

(٥) الأصل وغيره (المنبوع) والأقرب ما أثبته من ط، وهو الموافق للآية: ﴿حتىٰ تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ وانظر مختار الصحاح ٦٤٣.

(٦) ط زيادة (عليهم).

(٧) الأصل (المنبوع) كما سبق.

فجاءت فرقة ثالثة، خالفت رأي الفريقين، وعلموا أنهم قد ضاعت[1] عليهم كثير من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلىٰ خراب[2] العمران، وصرفوه[3] إلىٰ موضع ينتفعون بوصوله إليه ولا يتضررون[4] فصرفوه إلىٰ أرض قابلة للنبات[5] وسقوها به، فأنبتت[6] أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هي[7] أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه[8] اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان - بل[9] سائر الحيوان[10] - علىٰ طبيعة محمولة علىٰ قوتين: غضبية، وشهوانية، وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان

---

(١) ط (ضاع).

(٢) (خراب) سقطت من أ، ب، غ، ط، ش.

(٣) ط (فصرفون).

(٤) أ، ب، غ، ق، ط زيادة (به).

(٥) أ، ب، غ (النبات)، م (للبناء والغراس).

(٦) ق زيادة (لهم).

(٧) أ، ب، غ، م، ش، ق، ط (هم).

(٨) ط زيادة (قد).

(٩) ط (وسائر).

(١٠) أ، ب (الحيوانات).

في جِبِلَّة كل حيوان، فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب[١] المنافع إلىٰ نفسه، وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها، فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه، تولد منه[٢] القوة والغيرة[٣]، فإذا أعجزه[٤] ذلك الضار: أورثه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ورأىٰ غيره مستبداً[٥] به: أورثه الحسد، وإن[٦] ظفر به: أورثته[٧] شهوته وإرادته: خُلق البخل والشح، وإن[٨] اشتد حرصه وشهوته علىٰ الشيء، ولم [٩] يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه: فأورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم، ومنه يتولد: الكبر والخيلاء والفخر[١٠]، فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب، وتزوج أحدهما بصاحبه.

فإذا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين، وهو منصب في جدول[١١] الطبيعة

---

(١) الأصل (تجذب) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ط.

(٢) ب (منها).

(٣) ق م، ش (العزة).

(٤) ط (عجز عن).

(٥) م، أ، ب، غ (مستبدلاً).

(٦) أ، ب، غ، ق، ط (فإن).

(٧) أ، ب، غ، ط زيادة (شدة).

(٨) (وإن) سقطت من ش.

(٩) الأصل (لم) والأقرب إثبات الواو كما في أ، ب، غ، ط.

(١٠) ق (والفخر والخيلاء).

(١١) ق، ش (حدور).

ومجراها إلىٰ دور القلب وعمرانه وحواصله، يذهبها[1] ويتلفها ولا بد، فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرَّب ديار الإيمان، وقلع آثاره، وهدم عمرانه، وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حنظل[2] وضريع[3] وشوك وزقُّوم[4]، وهو الذي يأكله أهل النار يوم المعاد[5].

وأما النفوس الزكية الفاضلة فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر، فافترقوا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات[6]: راموا قطعه[7] من ينبوعه، فأبت[8] ذلك حكمة الله تعالىٰ، وما طبع عليه الجبلَّة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة، فاشتد القتال، ودام الحرب، وحمي الوطيس[9]،

---

(١) ط (يخربها).

(٢) حنظل: نبت مفترش ثمرته في حجم البرتقال، المعجم الوسيط ١/ ٢٠٢.

(٣) ضريع: يبيس الشبرق وهو نبت، مختار الصحاح ٣٨٠.

(٤) زقوم: شجرة مرَّة كريهة الرائحة، المعجم الوسيط ١/ ٣٩٦.

(٥) أ، ب، غ، م، ط (يوم القيامة).

(٦) الأصل (التمزقات) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٧) ق (قلعه).

(٨) ط زيادة (عليهم).

(٩) الوطيس: حفيرة يُختبز فيها ويشوىٰ، ويقال في المعركة: حمي الوطيس: جدّت الحرب واشتدت، المعجم الوسيط ٢/ ١٠٤١.

وصارت الحرب(١) دولاً وسجالاً وهؤلاء صرفوا قواهم إلىٰ مجاهدة النفس علىٰ إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها، وشغلوا نفوسهم بالأعمال، ولم يجيبوا دواعي(٢) تلك الصفات مع تخليتهم إياها علىٰ مجراها، لكن لم يمكِّنوا نهرها من إفساد عمرانهم؛ بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه، ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه، فإذا وصل(٣) إلىٰ بناء محكم لم(٤) يهدمه؛ بل يأخذ(٥) عنه يميناً وشمالاً، فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء، وأولئك صرفوها(٦) في قطع المادة الفاسدة من أصلها خوفاً من(٧) هدم البناء.

وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة، وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها(٨)؟.

---

(١) غ (حرب).

(٢) الأصل (دوعي) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، ق، ط.

(٣) ط (وصل) مكرر.

(٤) ط (فلم).

(٥) ط (أخذ).

(٦) (الهاء) سقطت من الأصل والصحيح إثباتها كما في أ، ب، غ، س، ق، ط.

(٧) الأصل (علىٰ) وفي ق (هذا) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٨) ط (وبتنظيفها).

فقال لي في[١] جملة كلامه: النفس مثل الباطوس - وهو جبُّ القَذَر - كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلىٰ قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت له[٢] سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل علىٰ تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع، ولم يمكنه السَّفر قط، ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض علىٰ سيرك.

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جداً، وأثنىٰ علىٰ قائله.

إذ تبين هذا، فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خُلقت سُدىٰ ولا عبثاً، وأنها بمنزلة ما[٣] يُسقىٰ به الورد[٤]، والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صنوان[٥] وأصداف لجواهر منطوية[٦] عليها، وإن[٧] خاف منه[٨] أولئك هو نفس

---

(١) (في) سقطت من ط.

(٢) (له) سقطت من أ، ب، غ، ش، ط.

(٣) أ، ب، غ، ط (ماء).

(٤) الأصل (العدو) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ش.

(٥) أ، ب، غ، م، س، ق (صوان).

(٦) الأصل (منظومة) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، س، ق، ط.

(٧) ق، أ، ب، غ، م، س (وإنما)، ط (وأن ما).

(٨) م (منها).

سبب الفلاح والظفر، فرأوا(١) أن الكبر نهر يسقي به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان، ويسقي به علو الهمة، والأنفة، والحمية والمراغمة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم، وهذه درة في صدفته(٢)(٣)، فصرفوا مجراه(٤) إلىٰ هذا الغراس، واستخرجوا هذه الدرة من صدفته، وأبقوه علىٰ حاله في نفوسهم، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع، وقد «رأىٰ النبي ﷺ أبا دُجانة يتبختر بين الصفين، فقال: إنها لمِشية يُبْغضها الله، إلا في مثل هذا الموضع»(٥).

فانظر كيف خلَّىٰ مجرىٰ هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر - وأظنه في المسند - «إنَّ منَ الخُيلاء ما يحُبها(٦) الله، ومنها ما يُبْغضها الله(٧)، فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصَّدقة»(٨).

---

(١) (فرأوا) سقطت من ب.

(٢) ب (في صدفة).

(٣) الصدفة: المحار وهو غشاء خلق في البحر وفي مثله يكون اللؤلؤ، لسان العرب (٩/ ١٨٨).

(٤) ق (مجراها).

(٥) الثقات لابن حبان (١/ ٢٢٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ١٠٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٤)، دلائل النبوة (٣/ ٢٣٤)، البداية والنهاية (٤/ ١٥)، سيرة ابن هشام (٤/ ١٣)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٢٤٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٠٩)، وقال: فيه من لم أعرفه.

(٦) ق (ما يحبه).

(٧) (لفظ الجلالة) سقط من ق.

(٨) أخرجه من حديث جابر بن عتيك عن أبيه: أحمد (٥/ ٤٤٥)، أبو داود. الجهاد (٣/ ١٥)

(١) فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصلاً؟.

فصاحب الرياضات، والعامل علىٰ [(٢) قطع أصول(٣) هذه الصفات مجتهد علىٰ قطع مادة الخيلاء(٤) والكبر، وهذا قد أقرها في موضعها وأعدها لأقرانها وهو مصرف(٥) لها في مصرف يعينه علىٰ مطلبه(٦)، يوصله إليه وكذلك خلق الحسد (٧) فإنه لا يُذم، وهو كالصدفة(٨) لدرة الغبطة والمنافسة كما قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله(٩) القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف(١٠)

ح(٢٦٩٥)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٧٧)، والنسائي في المجتبىٰ (٥/ ٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٣٠٨)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٤٠).

(١) أ، ب، غ (كذا).

(٢) بداية السقط من جميع النسخ والمطبوع وهو في الأصل، ش، م، فالعبارة في النسخ التي منها سقط هكذا (فصاحب الرياضات والعامل/ بطريقة الرياضات والمجاهدات والخلوات وهيهات هيهات) وهو خمس صفحات في المطبوع، ونهايته في هذه الرسالة ص٢٢١١.

(٣) (أصول) سقطت من م.

(٤) (همزة الخيلاء) سقطت من الأصل، ش والصحيح إثباتها كما في م.

(٥) م (يتصرف).

(٦) م (ويوصله إليه مطلبه).

(٧) الحسد: المراد به هنا الغبطة، كما سيأتي في الحديث.

(٨) سبق ص٢٢٠٤.

(٩) م (آتاه قرآناً).

(١٠) (أطراف) سقطت من م.

النهار»[1].

فالحسد يوصل[2] إلىٰ المنافسة التي يحبها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] فلا تعمل علىٰ إعدام هذا الخلق من نفسك بل احرفه إلىٰ الحسد المحمود الحامل علىٰ المنافسة في الرتب العالية، وتزاحم أهلها بالركب، [3]لا تتمنىٰ زوال نعمة الله عن عبده[4] فتزول عنك ويبقيها عليه، وكذلك خلق الحرص، فإنه من أنفع الأخلاق، وأوصلها إلىٰ كل خير وشدة الطلب بحسب قوة الحرص، فلا تعمل علىٰ قطعها ولكن علقها بما[5] ينفع النفس في معادها ويكملها ويزكيها، كما قال ﷺ: «احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[6].

فقوة الحرص لا تُذم، وإنما يُذم صرفها إلىٰ ما يضر الحرص عليه أو[7] لا

---

(١) الحديث أصله في البخاري. العلم (١/ ٤٣) ح(٧٣) وأطرافه (١٤٠٩، ٧١٤١، ٧٣١٦)، مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٥٩) ح(٨١٦)، أحمد (١/ ٤٣٢)، من حديث ابن مسعود، وللحديث طرق وروايات أخرىٰ في السنن والمسانيد وغيرها.

(٢) م (يوصله).

(٣) م زيادة (نعم).

(٤) م (عبد).

(٥) م (علىٰ).

(٦) مسلم. القدر (٤/ ٢٠٥٢) ح(٢٦٦٤)، أحمد (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه في المقدمة (١/ ٣١) ح(٧٩).

(٧) الهمزة سقطت من م.

ينفع، وغيره[١] أنفع للعبد منه.

وكذلك قوة الشهوة من أنفع القوىٰ للعبد وأوصلها إلىٰ كماله وسعادته، فإنها تثمر المحبة وبحسب شهوة العبد للكمال يكون طلبه له، وبحسب قوة شهوته للذة العيش ووصال الأحبة وقرة العين يكون طلبه لذلك، في الجنة[٢] وإن[٣] كان مؤمناً بها، موقناً مصدقاً، فصدق الشهوة وقوتها يحمله علىٰ بيع مشتهىٰ[٤] أعلىٰ منه وأجل وأرفع.

وكذلك قوة الشح والبخل محمودة جداً نافعة للعبد، فإنها تحمله علىٰ بخله وشحه بزمانه ووقته وأنفاسه أن يضيعها ويسمح بها لمن لا يساوي، ويشح أيضاً علىٰ حظه ونصيبه من الله أن يبيعه أو يهبه لأحد من الخلق، ويشح أيضاً بماله ويبخل به كل البخل أن لا يكون في ميزانه، وأن يتركه لغيره يتنعم به ويفوته هو أجره وثوابه، فالشحيح بماله المحب له هو الذي لا يسمح به لغيره بل يأخذه من بين يديه[٥] زاداً لمعاده، ومن لا يحبه ولا له قدر عنده يرىٰ أن يضيعه ويدعه للوارث أو الجائحة[٦]،[٧] والتلف ولا يستصحبه أمامه فهذا هو

---

(١) م، ش (أو ما غيره).

(٢) الأصل (المحبة) والأقرب ما أثبته من م، ش.

(٣) (الواو) سقطت من م.

(٤) (مشتهىٰ) سقطت من م، ش.

(٥) م (بل يأخذه بين يديه).

(٦) الأصل (الجايحة) والصحيح لغة ما أثبته من مختار الصحاح ١١٦.

(٧) **الجائحة**: جاح الشيء إذا استأصله، ومنه الجائحة وهي الشدة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة، مختار الصحاح ١١٦.

الزاهد في المال، والأول هو الراغب فيه المحب له، وكان عبدالله بن عمر - رَضي الله عنهما - إذا أعجبه شيء من ماله قدمه بين يديه(١).

وهذه قاعدة مطردة في جميع الصفات والأخلاق، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم(٢) جاؤوا بصرفها عن مجاريها المذمومة إلىٰ مجاري(٣) محمودة، وجاؤوا بصرف قوة الشهوة إلىٰ النكاح والتسري حتىٰ كان لسليمانَ - عليه السلام - مائة(٤) امرأة(٥)، ولداود - عليه السلام - تسع وتسعون(٦)، وجمع

---

(١) أي تصدق به، أورد الذهبي آثاراً وأفعالاً تشهد لهذا، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢١٧-٢١٩.

(٢) م زيادة (أجمعين).

(٣) ش (مجار).

(٤) الأصل، ش (ماية) والصحيح لغة ما أثبته من م.

(٥) البخاري. الإيمان (٤/ ٢٣٣) ح(٦٧٢٠) بلفظ تسعين امرأة، وأكثر عدد ورد في مسلم تسعون. الإيمان (٣/ ١٢٧٦) ح(١٦٥٤)، وعدد المائة في الترمذي (٤/ ٤٠٨) ح(١٥٣٤)، النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣٨٥)، تفسير سورة الكهف ومصنف عبد الرزاق (١/ ١٣٦).

(٦) لعله أخذها من الآية التي جاء فيها ذكر الخصمين والترافع إلىٰ داود والكنية عن المرأة بالنعجة، والقصة في سورة ص آية ٢٣، ومن أنفس ما قرأت في هذه الآية ما قال الإمام السعدي - رحمه الله - حيث يقول: «.. وهذا الذنب الذي صدر من داود - عليه السلام - لم يذكره الله لعدم الحاجة إلىٰ ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصَّه الله علينا من لطفه وتوبته وأنّه ارتفع محله فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها..»، تفسير السعدي ٦/ ٤١٦، البخاري. كتاب الأنبياء ٢/ ٤٨٢ باب(٣٩)، وفي المستدرك قال السدي: «وكان له تسع وتسعون امرأة..» ٢/ ٦٤١.

الرسول ﷺ بين تسع [١]، وأباح للأمة أربعاً مما طاب من النساء، ومن السراري [بلا حصر، صرفاً لقوة] [٢] هذه الشهوة عن مجرىٰ الحرام إلىٰ مجرىٰ الحلال، الذي يحبه الله، وهو أحب إليه من نفل العبادة عند أكثر الفقهاء، ولذلك [٣] جاؤوا بصرف قوة الغضبية، إلىٰ جهاد أعداء الله، والغلظة عليهم والانتقام منهم، وكذلك جاؤوا بصرف قوة اللهو والركوب ونحوه إلىٰ اللهو والرمي والمسابقة علىٰ الخيل وركوبها في سبيل الله واللهو في العرس، وكذلك شهوة استماع الأصوات المطربة اللذيذة لا يذم [٤] بل يحمد [٥]، وقد وقف النبي ﷺ علىٰ أبي موسىٰ الأشعري [٦] واستمع [٧] قراءته، وقال لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود [٨]، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يأمره

---

(١) البخاري. النكاح (٣/ ٣٩٢) ح(٥٢١٥)، وفي رواية أخرىٰ أن جمع بين إحدىٰ عشرة، كما في حديث الغسل في البخاري. الوضوء (١/ ١٠٥) ح(٢٧٦) وقد جمع بين الروايتين ابن حجر عند موضع هذا الحديث في فتح الباري (٦/ ٤٦٠).

(٢) الأصل، (بلا خصوص فالقوة) والصحيح ما أثبته من م.

(٣) م (وكذلك).

(٤) ش (تذم).

(٥) ش (تحمد).

(٦) م زيادة (رضي الله عنه).

(٧) ش زيادة (إلىٰ).

(٨) البخاري مع الفتح (٨/ ٧١٠) ح(٥٠٤٨)، مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٤٦) ح(٧٩٣)، أحمد (٥/ ٣٥١) (٢/ ٤٥٠).

إذا حضر عنده مع الصحابة أن يسمعهم قراءته، فيقرأ وهم يسمعون(1)، هذا كان سماع القوم فمن حرّم هذا السماع أو من(2) كرهه؟ وهل هذا الإسماع خواص الأولياء؟ فأين هذا من سماع المكاء والتصدية (3) وقرآن الشيطان(4)، وآلات(5) المعازف بنغمات الناشد(6)؟.

فلا بد للروح من سماع طيب تتغذىٰ(7) به، ولكن لا يستوي مَنْ غذاؤه(8) العسل والحلوىٰ(9) والطيبات، ومن غذاؤه(10) الرجيع(11) والميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، ويا عجباً! إن كان أُهِلَّ هذا(12) لا يرون آثاره علىٰ

(١) كما في المصنف لعبد الرزاق (٢/ ٨٤٦)، والدارمي في السنن (١/ ٣٣٢)، وابن حبان في صحيحه رقم(٢٢٦٤).

(٢) (من) سقطت من م.

(٣) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٣.

(٤) قال ابن القيم: «حب الكتاب وحب ألحان الغناء في قلب عبد ليس يجتمعان» شرح النونية ٢/ ٥٢١، وانظر تعليقه علىٰ هذه المسألة في كتاب الكلام علىٰ مسألة السماع ٣٣٦.

(٥) ش (ولآيات).

(٦) الأصل، ش (الشاهد) والأقرب ما أثبته من م.

(٧) الأصل، ش (تتغدىٰ) والأقرب ما أثبته من م.

(٨) ش، م (غذاه).

(٩) الأصل، ش (الحلوا) والأصح لغة ما أثبته من م.

(١٠) ش، م (غذاه).

(١١) الرجيع: الروث، مختار الصحاح ٢٣٥.

(١٢) م زيادة (الغذاء).

شفاههم ووجوههم، أفلا يستحون من معاينة أرباب البصائر[١] ذلك عليهم.

والمقصود أن رسوم الطبيعة وقواها لا يمكن تعطيلها في دار الابتلاء والامتحان، فالبصير العارف يستعملها في مواضعها النافعة له، التي لا تحرم[٢] عليه ديناً ولا تقطع عليه طريقاً، ولا تفسد عليه حاله مع الله، ولا تسقطه من عينه.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب لمن هو معتن بهذا الشأن[٣]، وعامل علىٰ صلاح قلبه وتزكية نفسه، وإنما دخل الداخل حيث ظن أن تزكية النفس، وتهذيب الأخلاق يتيسر][٤] بطريقة الرياضات والمجاهدات والخلوات. وهيهات[٥] هيهات، إنما يوقع[٦] ذلك في الآفات، والشبهات والضلالات، فإن تزكية النفوس مسلَّم إلىٰ الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها،

---

(١) الأصل، م، ش (البصاير) والأصح الهمزة، قال تعالىٰ: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ [الإسراء:١٠٢].

(٢) الأصل (يحرم) والأقرب ما أثبته من ش، وفي م (تخرم).

(٣) هذا الكلام من جنس ما قاله أبو حامد الغزالي عن حسن تصريف هذه الصفات وقبولها للتغيير بطريقة الرياضة، انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣، ٥٤، ٥٥.

(٤) هنا انتهىٰ السقط من جميع النسخ والمطبوع سوىٰ الأصل، ش، م وهو ما يقارب ٥ صفحات بداية من ص٢٢٠٥ في هذه الرسالة.

(٥) هيهات: كلمة تبعيد، مختار الصحاح (٧٠٤)، وهو بهذا يشير إلىٰ مسالك بعض الصوفية المنحرفة في تحصيل تزكية النفوس.

(٦) ط (يوقعه).

وجعلها علىٰ أيديهم دعوة، وتعليماً وبياناً وإرشاداً، لا خلقاً ولا إلهاماً فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكىٰ نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل(١): فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه دون(٢) معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلىٰ تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم(٣) وعلىٰ أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يكون(٤) الخلق كسبياً، أو(٥) هو أمر خارج عن الكسب؟.

---

(١) أ، ب، غ، م (الرسول).

(٢) أ، ب، غ، ط (من).

(٣) (طريقهم) سقطت من الأصل، ش والصحيح ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٤) ط (يقع)، وهامش ب (لعله أن يكون).

(٥) (الألف) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في أ، ب، غ، م، س، ط.

قلت: يمكن أن يقع كسبياً بالتخلق والتكلف، حتىٰ يصير لـه سجية وملكـة، وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس ـ رضي الله عنه ـ: «**إن فيكَ لخلقين**[1] **يحبُّهما الله: الحِلْم والأناة**» فقال: أخلقين تخلَّقت بهما، أم جبَلَني الله عليهما؟ فقال: «**بل جبلك الله عليهما**» فقال: الحمد لله الذي جبلني علىٰ خُلُقين يحبُّهما الله ورسوله[2].

فدل علىٰ أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب، وكان النبي ﷺ يقول في دعاء[3] الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها**[4] **لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»[5]، فذكر الكسب والقَدَر[6].

---

(١) ب (لخصلتين) وهي في الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٦) ح(٢٠١١).

(٢) مسلم. الإيمان (١/ ٨٤) ح(١٧)، أحمد (٣/ ٢٢)، أبو داود. الأدب (٥/ ٣٩٥) ح(٥٢٢٥)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦٦) ح(٢٠١١) بلفظ خصلتين، وقال حسن صحيح غريب.

(٣) أ، ب، غ (دعائه).

(٤) الأصل (سيئ الأخلاق) وما أثبته من صحيح مسلم والترمذي وغيرهما وهو في أ، ب، غ، ق، ط.

(٥) مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٣٥) ح (٧٧١)، أحمد (١/ ٩٤)، أبو داود (١/ ٤٨٢) ح(٧٦٠)، الترمذي. الدعوات (٥/ ٤٨٥) ح(٣٤٢١) وقال حسن صحيح، وفي النسائي (المجتبىٰ) (٢/ ١٣٠) «وقني سيئ الأعمال»، وصحح الألباني هذه الزيادة في صفة الصلاة (ص٨٦).

(٦) ط زيادة (والله أعلم).

فصـــل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله[١] - :

الفرق بين الخلـــق والتخلق

«الخُلُقُ: مَا يَرْجِعُ إِلَيهِ المُتَكَلِّفُ مِن نَعتِهِ[٢]»[٣].

أي خُلُقُ كل متكلف: فهو ما اشتملت عليه نعوته، فتكلُّفُه يرده إلىٰ خُلقه، كما قيل: إن التخلق يأتي[٤] دونه الخلق[٥].

وقال الآخر:

يراد من القلب نسيانكم وتأبىٰ الطباع علىٰ الناقل[٦]

---

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) ط (نعمته).

(٣) منازل السائرين ٤٥ ، ومعنىٰ (نعته) النعت: الصفة ، المعجم الوسيط ٢/ ٩٣٣ ، والنعت ما كان خاصاً بعضو ، كالأعور ، والأعرج ، والصفة للعموم ، كالعظيم والكريم ، ومن ثم قال جماعة: الله تعالىٰ يوصف ولا ينعت ، انظر معجم المناهي اللفظية للشيخ الدكتور بكر ابن عبدالله أبو زيد ٥٤١ ، الطبعة الثالثة ، الفروق للعسكري ١٨ .

(٤) م ، ش (يأبىٰ).

(٥) القائل عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالعرجي ، انظر ديوان العرجي ٣٣ ، وذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث رقم (٢٣٠) ولم ينسبه لأحد.
وأوله في الديوان «ارجع إلىٰ الحق إما كنت فاعله..».
وفي لآلئ الشعر ٢٦٣ أول البيت «عليك بالقصد فيما كنت فاعله».
وذكره صاحب مجمع الحكم والأمثال ١٣٧ وقال هو لسالم بن وابصة أو العرجي.

(٦) القائل: أبو الطيب المتنبي ، انظر شرح الديوان للعكبري ٣/ ٢٢ بلفظ (ويأبىٰ).

فمتكلف ما ليس من نعته ولا شيمته: يرجع إلىٰ شيمته، ونعته، وسجيّته[١]

فذاك الذي يرجع إليه: هو الخلق.

علاقة التصوف بالخلق

قال: «وَاجتَمَعَت كَلِمَةُ النَّاطِقِينَ فِي هَـذَا العِلـمِ: أَنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ الخُلُقُ، وَجِمَاعُ[٢] الكَلامِ فِيهِ يَدُورُ عَلىٰ قُطْبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ بَذلُ المَعرُوفِ، وَكَفُّ الأَذَىٰ»[٣].

قلت: من الناس من يجعلها[٤] ثلاثة[٥]: كف الأذىٰ، واحتمال الأذىٰ، وإيجاد الراحة.

ومنهم من يجعلها اثنين - كما قال[٦] الشيخ رحمه الله -: بذل المعروف، وكف الأذىٰ[٧].

ومنهم من يردها إلىٰ واحد: وهو بذل المعروف، والكل صحيح[٨].

---

(١) السجية: الطبيعة والخلق، المعجم الوسيط ١/ ٤١٨.

(٢) أ، ب، غ، م، ط (جميع) وهو خلاف الأصل والمنازل.

(٣) منازل السائرين ٤٥.

(٤) ب (جعلها).

(٥) ق (ثلاث).

(٦) أ، ب (ذكر).

(٧) نسبه في الرسالة القشيرية للكرماني ٣٥٥، وانظر لطائف الإعلام ١/ ٤٥٢، بلفظ « واحتمال المؤن ».

(٨) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣، ٦٠.

الأمور التي يدرك بها الخُلق

قال: «وَإِنَّمَا يُدْرَكُ إِمكَانُ ذَلِكَ فِي ثَلاَثَةِ أَشيَاء: فِي العِلمِ وَالجُودِ وَالصَّبرِ»(١).

فـ «العلم» يرشده إلىٰ مواقع بذل المعروف، والفرق بينه وبين المنكر، وترتيبه في وضعه مواضعه(٢)، فلا يضع الغضب موضع الحلم(٣)، [ولا بالعكس، ولا الإمساك موضع البذل، ولا بالعكس](٤)؛ بل يعرف مواقع(٥) الخير والشر ومراتبها، وموضع كل خلق: أين يضعه، وأين يحسن استعماله.

و «الجود» يبعثه علىٰ المسامحة بحقوق نفسه، والاستقصاء(٦) منها لحقوق(٧) غيره، فالجود قائد جيوش الخير.

و «الصبر» يحفظ عليه استدامة ذلك، ويحمله علىٰ الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذىٰ، وعدم المقابلة، وعلىٰ كل خير، كما تقدم، وهو أكبر

(١) منازل السائرين ٤٦، وفي إحياء علوم الدين: «أركان حسن الخلق الاعتدال في أربعة: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوىٰ الثلاث» ٣/ ٥٣ ثم فصلها بنحو ما ذكر ابن القيم رحمه الله.

(٢) أ (موضعه).

(٣) أ، ب، غ (البذل).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٥) أ (موقع).

(٦) أي وعدم الاستقصاء لها وإنما منها.. وممن جمع أقوالاً نفيسة في هذا الشأن ابن قتيبة في عيون الأخبار، باب الحلم والغضب ١/ ٢٨٢.

(٧) أ، ب، غ، م، ق، ط (بحقوق).

العون علىٰ نيل(١) كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة، قال(٢) تعالىٰ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ(٣)﴾ [البقرة:١٥٣].

فهذه الثلاثة أشياء: بها يدرك التصوف(٤)، والتصوف: زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وهو(٥) تزكية النفس وتهذيبها، لتستعد لسيرها إلىٰ صحبة(٦) الرفيق الأعلىٰ، ومعية(٧) من تحبه، فإن المرء مع من أحب، كما قال سمنون(٨): ذهب المحبون(٩) بشرف الدنيا والآخرة، فإن المرء مع من أحب(١٠).

---

(١) (نيل) سقطت من أ، ب، غ.

(٢) ط (الله).

(٣) أ، ب، غ، ط تكملة الآية ٤٥ من سورة البقرة ﴿وإنها لكبيرة إلا علىٰ الخاشعين﴾ بدل ﴿إن الله مع الصابرين﴾.

(٤) الأصل (التصرف) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، م، ش، ط.

(٥) (وهو) سقطت من ط.

(٦) (صحبة) سقطت من ق.

(٧) الأصل (وبقية) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٨) م (سحنون). وسمنون هو المحب بن حمزة الخواص، بصري سكن بغداد، إمام في الورع، ناسك متعبد، أخذ عن السقطي والقلانسي، توفي بنيسابور سنة ٢٩٨هـ/ طبقات الصوفية (١٩٥)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٠٩)، تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٤)، الكواكب الدرية (١/ ٢/ ٦٣٠).

(٩) ش (المجنوب)، ق (المحنون).

(١٠) الرسالة القشيرية ٤٤٩ وتكملته «لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب» فهم مع الله تعالىٰ»، والحديث في البخاري. الأدب (٤/ ١٢٣) ح(٦١٦٨)، ومسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٣٢) ح(٢٦٣٩).

فصـــل

درجات الخلق

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلىٰ ثَلاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: أَن تَعرِفَ مَقَامَ الخَلْقِ وَ[١] أَنَّهُم بِأَقدَارِهِم مَرْبُوطُونَ، وَفِي طَاقَاتِهِم مَحبُوسُونَ، وَعَلىٰ الحُكمِ مَوْقُوفُونَ، فَتَستَفِيدُ بِهَذِه المَعرِفَةِ ثَلاثَةَ أَشيَاء: أَمنُ الخَلْقِ مِنكَ، حَتَّىٰ الكَلب، وَمحَبَّةُ الخَلْقِ إِيَّاكَ، وَنَجَاةُ الخَلْقِ بِكَ»[٢].

فبهذه[٣] الدرجة: يكون تحسين الخُلُق مع الخلق في معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم.

وبالثانية: تحسين الخلق مع الله في معاملته.

وبالثالثة: درجة الفناء على[٤] أصله.

[٥]فيقال: إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدرية عليهم، وأنهم مُقيَّدون بالقدر و[٦]لا خروج لهم عنه البتة، و محسوبون في قدرتهم وطاقتهم، لا يمكنهم تجاوزها إلىٰ غيرها، وأنهم موقوفون علىٰ

---

(١) (الواو) سقطت من المنازل.

(٢) منازل السائرين ٤٦.

(٣) الأصل (يريد بهذه الدرجة)، م (فهذه) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٤) أ، ب، غ، م، ق، ط زيادة (قاعدته و).

(٥) ط (يقول).

(٦) (الواو) سقطت من أ، ب، غ، ش، م.

الحكم الكوني القدري، لا يتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:

أمن الخلق منك، وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة، يطالبهم بما لا يقدرون عليه، وامتثل فيهم(١) أمر الله(٢) لنبيِّه ﷺ بأخذ العفو منهم، فأمنوا من تكليفه إياهم، وإلزامه(٣) ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضاً فإنهم يأمنون لائمته، فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم؛ لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس، وعذرهم بما يُعذر به المحبوس، وإذا بدا منهم في حقِّك تقصير أو إساءة، أو تفريط، فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم؛ بل اغفر لهم ذلك، واعذرهم نظراً إلىٰ جريان الأحكام عليهم، وأنهم آلة، وههنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة(٤) عن شهود جنايتهم عليك، [كما قال بعض العارفين لرجل تعدىٰ عليه وظلمه، إن كنت ظالماً فالذي سلَّطك عليَّ ليس بظالم](٥).

وههنا للعبد أحد عشر(٦) مشهداً فيما يصيبه من أذىٰ الخلق وجنايتهم عليه.

---

(١) ق (فيها).

(٢) ط زيادة (تعالىٰ).

(٣) ط زيادة (لهم).

(٤) شهود الحقيقة تقدم ص١٧١٨.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٦) الأصل (عشرة مشهداً) و (أحد) ساقطة، وفي أ، ب، غ، م (إحدىٰ عشرة) والأقرب ما أثبته من ط.

مشاهد العبد فيما يصيبه من أذى الخلق

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ وهو مشهد « القدر » وأن ما جرىٰ عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره، يراه[1] كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار، فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان، ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده، وإذا شهد هذا: استراح، وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

[2]المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر علىٰ هذا - وهو محمود - صبر اضطراراً علىٰ أكثر[3] منه، وهو مذموم.

فصل

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه[4] متىٰ شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لغبش[5] في بصيرته، فإنه «ما زاد الله

(١) ط (فيراه).

(٢) أ، ب، غ، م، ق زيادة (فصل).

(٣) ط (أكبر).

(٤) (فإنه) سقطت من ش.

(٥) ق (الغبش)، أ، ب، غ، ط (العشىٰ).

عبداً بعفوٍ إلا عزاً»[١]، كما صح ذلك[٢] عن النبي ﷺ، وعُلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحدٌ[٣] لنفسه إلا ذل.

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزَّتها[٤] ورفعتها[٥] عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فصــل

المشهد الرابع: مشهد «الرضىٰ» وهو فوق مشهد «العفو والصفح»، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت[٦] به سببه القيام لله، [فإن كان ما أصيب به في الله][٧]، [وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله][٨] وهذا شأن كل محب صادق، يرضىٰ بما يناله في رضىٰ محبوبه من المكاره،

---

(١) مسلم. البر (٤/ ٢٠٠١) ح(٢٥٨٨)، أحمد (٢/ ٣٨٦)، الترمذي. البر (٤/ ٣٧٦) ح(٢٠٢٩) وقال حديث حسن صحيح.

(٢) (ذلك) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في أ، ب، غ، م، ش، ق، ط.

(٣) (أحد) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) أ، ب، غ، م، ش، ط (عزها).

(٥) ب (قنعها).

(٦) أ، ب، غ، م (أصيب).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٨) ما بين المعقوفين سقط من غ.

ومتىٰ تسخط به أو[١] تشكىٰ منه، كان ذلك دليلاً علىٰ كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قال[٢]:

من أجلك جعلتُ خدِّي أرضاً ... للشَّامت والحسُود حتَّىٰ ترضَىٰ[٣]

ومن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبه، فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر فليس من ذا[٤] الشأن.

فصل

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، فيحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويهون هذا عليه عِلْمُه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدىٰ إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلىٰ ما أحسن به إليك.

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة ، وهذا المسكين قد وهبك حسناته، فإن كنت من أهل الكرم فأثِبْه عليها، لتثبت الهبة ، وتأمن رجوع الواهب فيها.

---

(١) (الألف) سقطت من ط.

(٢) أ ، ب ، غ ، ط (قيل).

(٣) بيت الشعر: لم أجده.

(٤) غ زيادة (ذي).

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم، وأهل العزائم.

ويهونُه عليك أيضاً: عِلْمُك بأن[١] الجزاء[٢] من جنس العمل، فإذا[٣] كان هذا عملك في إساءة مخلوق إليك عفوت عنه، وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذلِّك، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك، فهذا لا بُدَّ منه، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأمَّلها.

فصـــل

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته، وهو أن لا يشغل[٤] قلبه وسره بما ناله من الأذىٰ، وطلب الوصول إلىٰ درك ثأره، وشفاء نفسه؛ بل يفرغ قلبه من ذلك، ويرىٰ أن سلامتَه وبردَه وخلوَّه منه أنفعُ له، وَألَذُّ وأَطْيَبُ، وأَعْونُ علىٰ مصالحه، فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه، فيكون بذلك مغبوناً، والرشيد لا يرضىٰ بذلك، ويراه[٥] من تصرفاته السيئة فأين سلامة القلب من

(١) الأصل (فإن) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ش، ق، ط.

(٢) ط (الجزء).

(٣) أ، ب، غ، ط (فإن).

(٤) أ، ب، غ، م، ق، ط (يشتغل).

(٥) أ، ب، غ، م، ق، ط (ويرىٰ أنه).

امتلائه بالغبن(١) والوسواس(٢)، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟.

فصل

المشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك، وإذا انتقم: واقعه الخوف ولا بد، فإن ذلك يزرع العداوة، والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيراً، فكم من حقير أردىٰ عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل(٣): أمن من تولد العداوة، أو زيادتها، ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه، ويكف من عزمه(٤)، (٥)بعكس الانتقام، والواقع شاهد بذلك أيضاً.

فصل

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذىٰ الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته.

---

(١) ط (الغِلّ).

(٢) أ، ب، غ، م، ش، ق، ط (الوساوس).

(٣) أ (يقاوم).

(٤) الأصل (غربه) و ط (جزعه) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ق، م.

(٥) ق (عنه).

وصاحب هذا المقام: قد اشترىٰ اللهُ منه نفسَه ومالَه وعرضَه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يُسَلَّم إليه الثمن فليُسلِّم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له علىٰ من آذاه، ولا شيء له قِبَله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره علىٰ الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سُكنىٰ مكة - أعزّها الله(١)- ولم يردّ علىٰ أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمِّنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصدِّيق - رضي الله عنه - تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه - بمشهد من الصحابة - رضي الله عنهم -: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها علىٰ الله، ولا دية لشهيد»، فأصفق(٢) الصحابة علىٰ قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتىٰ أوذي في الله: حرم(٣) عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

(١) منع المهاجرين سكنىٰ مكة في البخاري. مناقب الأنصار (٣/ ٧٨) ح(٣٩٣٣) وأجاز ذلك جماعة من أهل العلم وذلك بعد الفتح، انظر الأقوال في فتح الباري (١٧/ ٣١٣ ـ ٣١٤)، مسلم. الحج (٢/ ٩٨٥) ح(١٣٥٢).

(٢) أصفق: الصفقة: الاجتماع علىٰ الشيء، أصفقوا علىٰ الأمر اجتمعوا عليه، أطبقوا، لسان العرب ١٠/ ٢٠١.

(٣) أ، ب، غ، ق، ط زيادة (الله).

فصل

المشهد التاسع: مشهد «النِّعمة» وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر، ولم يجعله ظالماً يترقب[1] المقت والأخذ، فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين - ولا بد من إحداهما - لاختار أن يكون مظلوماً.

ومنها: أن يشهد نعمة الله عليه[2] في التكفير بذلك من خطاياه، فإنه ما أصاب المؤمن[3] من هم ولا غم ولا أذىٰ، إلا كفر الله به من خطاياه[4]، فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب، ومن رضي أن يلقىٰ الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو مغبون سفيه، فأذىٰ الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلىٰ مرارة الدواء وكراهته ومن كان علىٰ يديه، وانظر إلىٰ شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك علىٰ يدي من نفعك بمضرته.

ومنها أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها، فإنه ما من محنة إلا

---

(١) ق، ش (يرتقب).

(٢) (عليه) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٣) ب، م (مؤمن).

(٤) الحديث: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن...» البخاري. المرضىٰ (٤/ ٢٣) ح(٥٦٤١)، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٢) ح(٥٧٢).

وفوقها ما هو أقوىٰ منها وأمر، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلىٰ سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين جلل(١)، وأنها في الحقيقة نعمة، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

ومنها توفية أجرها يوم الفقر والفاقة، وفي بعض الآثار: أنه يتمنىٰ أناس يوم القيامة(٢) أنّ جلودهم(٣) كانت(٤) تُقْرض بالمقاريض، لما يرونه من ثواب أهل البلاء.

هذا، وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض، فالعاقل يَعُدّ هذا ذُخْراً ليوم الفقر والفاقة، ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً.

فصل

المشهد العاشر: مشهد «الأسْوة» وهو مشهد(٥) لطيف شريف(٦) جداً، فإن العاقل اللبيب يرضىٰ أن يكون له أسوة برسُل الله، وأنبيائه(٧) وأوليائه، وخاصته

(١) أ، ب، غ، م، س، ق، ط (فهينة).

(٢) ط زيادة (لو).

(٣) في حاشية ش (أبدانهم).

(٤) (كانت) سقطت من أ، ب.

(٥) (وهو مشهد) سقط من أ، غ.

(٦) ق (شريف لطيف).

(٧) أ، ب (أنبياء الله).

من خلقه، فإنهم أشدُّ الخلق امتحاناً بالناس، وأذىٰ الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور ويكفي تدبر قصص الأنبياء ـ عَليهم السلام ـ مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذىٰ أعدائه له بما لم يُؤذَ به من[1] قبله، وقد قال له ورقة بن نوفل: «لتكذّبنّ، ولتُخرجنّ، ولتؤذَينَّ»[2]، وقال له: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»[3]، وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

أفلا يرضىٰ العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده[4]: الأمثل فالأمثل[5]؟.

ومن أحب معرفة ذلك فليقف علىٰ مِحَن العلماء، وأذىٰ الجهال لهم، وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتاباً أسماه «محن العلماء»[6].

---

(١) (يؤذ به من) سقطت من الأصل، وفي أ، ب، غ، ط (يؤذه من) وما أثبته من م، ق.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٢.

(٣) البخاري. بدء الوحي (١/ ١٤) ح(٣)، مسلم. الإيمان (١/ ١٤٢) ح(١٦٠).

(٤) أ، ب (خلقه).

(٥) لحديث: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل..»، الترمذي (٤/ ٦٠١) ح(٢٤٠٤) وقال حسن صحيح، الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٨٦)، وصححه، وابن حبان (٧/ ١٦٠)، وحسنه الألباني في المشكاة (١/ ٤٩٢) ح(١٥٦٢).

(٦) كتاب «محن العلماء» لابن عبد البر، ذكر ذلك ليث بن سعود بن جاسم في رسالته: ابن عبدالبر وجهوده في التاريخ، والدكتور سليمان الغصن في رسالته عقيدة ابن عبدالبر.

فصــل

المـشهد الحـادي عـشر [وهـو مـن أجـلِّ المـشاهد وأرفعهـا](١): مـشهد «التوحيد»، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضـاته، والتقرب إليه وقرة عينه(٢)، [وابتهج قلبه بحبه](٣) والأنـس بـه، والاطمئنـان إليـه، وسكن إليه واشتاق إلىٰ لقائه، واتخذه ولياً دون ما(٤) سـواه، بحيـث فَوَّض إليـه أموره كلها، ورضي به وبأقضيته(٥)، وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكـره، والتوكـل عليه، عن كل ما سواه: فإنه لا يبقىٰ في قلبه متسع لـشهود أذىٰ النـاس لـه البتـة، فضلاً عن أن يشغل قلبه وفكره وسرَّه بتطلب الانتقام والمقابلة، فهـذا لا يكـون إلا من قلـب لـيس فيه مـا يغنيـه عـن ذلـك ويعوضـه منـه، فهـو قلـب جـائع غـير شبعان، فإذا رأىٰ أيَّ طعام رآه هفت(٦) إليه نوازعه، وانبعثـت إليـه دواعيـه، وأمـا من امتلأ قلبه بأعلىٰ الأغذية وأشرفها: فإنه لا يلتفت إلىٰ ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) ما بين المعقوفين تأخر ذكره إلىٰ ما بعد كلمة التوحيد في أ، ب، ش، ط.

(٢) أ، ب، غ، ط (العين به)، م، ق، ش (عينه بالله).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ، ط.

(٤) ط (من).

(٥) ب (باقتضائه).

(٦) هفت: هفت النفس إلىٰ الشيء حنَّت واشتاقت، أو طربت، المعجم الوسيط ٢/ ٩٨٩.

فصـــل

وأما قوله: «أنه[١] يستفيد بمعرفة أقدار[٢] الناس، وجريان الأحكام عليهم:[٣] محبتهم له، ونجاتهم به».

فلأنه إذا عاملهم بهذه المعاملة: من إقامة أعذارهم، والعفو عنهم، وترك مقابلتهم: اشتدت[٤][٥] محبتهم له، وكان ذلك سبباً لنجاتهم الأخروية أيضاً، إذ يرشدهم ذلك إلىٰ القبول منه، وتلقي ما يأمرهم به، وينهاهم عنه أحسن التلقي، هذه طباع الناس.

فصـــل

الدرجة الثانية

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: تَحسِينُ خُلُقِكَ مَعَ الحَقِّ، وَتَحسِينُهُ مِنكَ: أَنْ تَعلَمَ أَنَّ كُلَّ مَا يَأتِي مِنكَ يُوجِبُ عُذْراً، وَأَن كُلَّ[٦] مِنَ الحَقِّ يُوجِبُ شُكراً، وَأَن لَا تَرَىٰ لَهُ مِنَ الوَفَاءِ بُدّاً»[٧].

---

(١) م، أ، ب، غ، ط (أن)، ق (أنا نستفيد).

(٢) أ (أقدر).

(٣) م زيادة (واو).

(٤) أ، ب، غ، ط (استوت).

(٥) ط زيادة (كراهتهم و).

(٦) المنازل (وكل ما يأتي)، غ (وإنما كلما).

(٧) منازل السائرين (٤٦).

هذه الدرجة مبنية علىٰ قاعدتين:

إحداهما: أن تعلم أنك ناقص، وكلُّ ما يأتي من الناقص ناقص[١]، فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة، فعلىٰ العبد أن يعتذر إلىٰ ربه من كل ما يأتي به من خير وشر، أما الشر فظاهر، وأما الخير، فيعتذر من نقصانه، ولا يراه صالحاً لربه[٢].

فهو - مع إحسانه - معتذر في إحسانه، ولذلك[٣] مدح الله أولياءه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: «هو الرجل يصوم، ويتصدّق، ويخاف أن لا يقبل منه»[٤]، فإذا خاف فهو بالاعتذار أولىٰ.

والحامل له علىٰ هذا الاعتذار أمران.

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

والثاني: صدق محبته، فإن المحب الصادق يتقرب إلىٰ محبوبه بغاية

---

(١) (ناقص) سقطت من أ، ب.

(٢) ومن ذلك مشروعية الاستغفار بعد الصلاة.

(٣) ب (ولهذا).

(٤) أخرجه من حديث عائشة، أحمد (٦/ ١٩٥)، الترمذي في التفسير والقرآن (٥/ ٣٢٧) ح(٣١٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٤) ح(٤٢٠٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٤٠٨) ح(٤١٩٨).

إمكانه، وهو معتذر إليه [غاية الاعتذار][١] مستحي[٢] منه: أن يواجهه بما واجهه به،[٣] يرىٰ أن قدره فوقه وأجل منه، وهذا مشاهد في محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك، وأنك عاجز عن شكره، ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة، فإن المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله منه[٤] فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه[٥]: كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه[٦]: أعظم عنده من سروره بذلك العطاء[٧]؛ بل يغيب بسروره[٨] بذكره له عن سروره بالعطية، وإذا[٩] كان المحب يسرُّه ذكر محبوبه له، وإن ناله بمساءة، كما قال القائل:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة فقد[١٠] سرَّني أني خطرت ببالكا[١١]

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(٢) ش (يستحق)، ب (يستحي).

(٣) ط (وهو).

(٤) (منه) سقطت من ط.

(٥) (إياه) سقطت من أ، ب، غ.

(٦) م، ش (بعطائه).

(٧) الأصل (المعطاء) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٨) الأصل (سروره) والأقرب ما أثبته من ش، م، ط.

(٩) أ، ب، غ، ط (وإن).

(١٠) م، أ، ب، غ، ط (لقد).

(١١) القائل: عبد الصمد بن المعذَّل، انظر ديوانه ١٥٢.

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرة - وإن دقت - فإنه لا يراها إلا جليلة خطيرة، فكيف هذا مع أن(١) الرب سبحانه(٢) وتعالىٰ(٣) لا يأتي منه(٤) أبداً إلا الخير(٥)؟ ويستحيل خلاف ذلك في حقه، كما يستحيل عليه خلاف كماله، وقد أفصح أعرف الخلق بربه عن هذا بقوله: «والشرُّ ليس إليك»(٦)، أي لا يضاف إليك، ولا ينسب إليك، ولا يصدر منك، فإن أسماءه كلها حسنىٰ، وصفاته كلها كمال، وأفعاله كلها فضل وعدل، وحكمة ورحمة ومصلحة، فبأي وجه ينسب الشر إليه سبحانه وتعالىٰ؟ فكل ما يأتي منه فله(٧) الحمد والشكر، وله فيه النعمة والفضل.

قوله: «وَأَنْ لاَ تَرَىٰ(٨) مِنَ الوَفَاءِ بُدّاً».

---

(١) (أن) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في م، ش.

(٢) (سبحانه) سقطت من ط.

(٣) أ، ب، غ، ط زيادة (الذي).

(٤) (منه) سقطت من ط.

(٥) ط (إلا بالخير).

(٦) مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٣٥) ح(٧٧١)، أحمد (١/ ١٠٢)، أبو داود. الصلاة (١/ ٤٨٢) ح(٧٦٠)، الترمذي. الدعوات (٥/ ٤٨٦) ح(٣٤٢٢) وقال حسن صحيح، الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٥)، وقال صحيح على شرط الشيخين، وفي معنىٰ الحديث انظر شرح النووي لصحيح مسلم (٥ ـ ٦/ ٣٠٦) ح(٧٧١).

(٧) أ، ب، غ، س، م، ق، ط زيادة (عليه).

(٨) ط (يرىٰ).

يعني: أن معاملتك للحق سبحانه بمقتضىٰ الاعتذار من كل ما منك، والشكر علىٰ ما منه: عقد مع الله تعالىٰ، لازم لك أبداً، لا ترىٰ من الوفاء به لله[1] بدأ، فليس ذلك بأمر عارض، وحال يحول؛ بل عقد، لازم عليك الوفاءُ به إلىٰ يوم القيامة.

فصل

الدرجة الثالثة قال: «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: التَّخَلُّقُ[2] بِتَصفِيَةِ الخُلُقِ، ثُمَّ الصُّعُودُ عَنْ تَفرِقَةِ التَّخَلُّقِ، ثُمَّ التَّخَلُّقُ بِمُجَاوَزَةِ الأَخلاَقِ**»[3].

هذه الدرجة[4]، [5]ثلاثة أشياء:

أحدها: تصفية الخلق بتكميل ما ذكر في الدرجتين قبله، فيصفيه من كل شائبة وقذىٰ ومشوش، فإذا فعلت ذلك صعدت من تفرقته إلىٰ جمعيتك علىٰ الله، فإن التخلق والتصوف، تهذيب واستعداد[6] للجمعية، وإنما سماه تفرقة: لأنه اشتغال بالغير، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلية، والاشتغال بالرب وحده عما سواه.

---

(١) (لفظ الجلالة) سقط من أ، ب، غ، ط.

(٢) ش (التخلص).

(٣) منازل السائرين (٤٦).

(٤) (هذه الدرجة) سقطت من أ، ب.

(٥) ق زيادة (تتضمن).

(٦) (واستعداد) سقط من أ، ب، غ.

ثم يصعد إلىٰ ما[1] فوق ذلك، وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأن يغيب عن الخلق والتخلق، وهذه الغيبة لها مرتبتان عندهم.

إحداهما: الاشتغال بالله عزّ وجل[2] عن كل ما سواه.

والثانية: الفناء في الفردانية التي يسمونها «حضرة الجمع»[3] وهي أعلىٰ الغايات عندهم، وهي موهبية لا كسبية؛ لكن العبد إذا تعرض وصدق في الطلب: رجي[4] له الظفر بمطلوبه، والله أعلم.

فصل

ومدار[5] حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: علىٰ حرفين، ذكرهما الشيخ[6] عبدالقادر الكيلاني[7] - رحمه الله -[8] فقال: كن مع الحق بلا خلق، ومع

---

(١) (الميم) سقطت من ش.

(٢) (عز وجل) سقطت من ق.

(٣) انظر لطائف الإعلام (٢/ ٢١٩ ـ ٢٢١)، التعاريف للمناوي (٢/ ٢٥٢).

(٤) الأصل (رجىٰ) والأقرب ما أثبته من ق.

(٥) (مدار) سقطت من أ.

(٦) (الشيخ) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٧) في حاشية م (الجيلاني) وهو عبد القادر بن موسىٰ بن عبد الله الكيلاني أو الجيلاني، صوفي تنسب إليه الطريقة القادرية، ولد سنة ٤٧٠هـ، ودخل بغداد وتفقه بها، وتوفي سنة ٥٦١هـ/ شذرات الذهب (٤/ ١٩٨)، طبقات الأولياء (١٩٣)، باسم عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قطب العارفين، معجم المؤلفين (٥/ ٣٠٧).

(٨) (رحمه الله) سقطت من ط.

الخلق بلا نفس[1].

فتأمل، ما أجل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك، ولكل خلق جميل! وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله[2]، وتوسط النفس بينك وبين خلقه، فمتىٰ عزلت الخلق - حال كونك[3] مع الله[4] - وعزلت النفس - حال كونك مع الخلق - فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم، وشمروا إليه، وحاموا حوله، والله المستعان.

* * *

(١) ذكره المناوي في التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ٢/ ٢٥٢ دون نسبة، ومعناه في حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٣.

(٢) ط زيادة (تعالىٰ).

(٣) ق (كونها).

(٤) ط (تعالىٰ).

فصـــل[١]

منزلة التواضع وتعريفه

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : « التواضع »[٢] .

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي سكينة ووقاراً متواضعين ، غير أَشِرين[٣] ولا مَرِحين ولا مُتكبّرين ، قال الحسن : علماء حلماء[٤] ، وقال محمد بن الحنفية[٥] : أصحاب وقار وعفة لا

---

(١) في حاشية الأصل (باب التواضع).

(٢) التواضع : هو خفض الجناح وكسر الجانب ، وضبط الأحوال الاختيارية عن التفريط والإفراط والانقياد للحق بسهولة ، ومنه أن لا تعارض منقولاً بمعقول ، وترك جميع المطالب بحيث لا يريد من الحق إلا ما أراده ، وأن تنزل عند رسمك ، لتفنيه الحقيقة ، ومع الخلق انتفاء الخضوع عند الحاجة ، وانتفاء الجفاء عند الغنىٰ ، واللين مع الناس ، والزهد بما في أيديهم ، والتذلل لعلام الغيوب ، وقبول الحق من الحق للحق. انظر التعرف ١١٤ ، روضة الطالبين ٩٩ ضمن رسائل الغزالي ٢ ، لطائف الإعلام ١/ ٣٦٢ ، معجم مصطلحات الصوفية ٥١ ، إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٥٢ ـ ٣٦٤ ، الرسالة القشيرية ٢٣٨ ـ ٢٤٥.

(٣) أشرين : الأشر البطر ، مختار الصحاح ١٧.

(٤) الطبري ١٩/ ٢٢ ، ابن كثير ٣/ ٤٠٤ ، تفسير البغوي ٣/ ٣٧٥ ، الدر المنثور ٦/ ٢٧٣ وعزاه لابن عباس في ٦/ ٢٧٣ وانظر جميع الأقوال في تفسير الحسن البصري ، جمع وتوثيق ودراسة د/ محمد عبد الرحيم ٢/ ١٧١ .

(٥) محمد بن علي بن أبي طالب ، ابن الحنفية ، أخو الحسن والحسين وأمه من سبي اليمامة ، وهو من كبار التابعين ، ولد في العام الذي توفي فيه أبو بكر الصديق ، توفي سنة ٨١هـ ، طبقات ابن سعد (٥/ ٩١) ، العبر (١/ ٩٣) ، البداية والنهاية (٩/ ٣٨) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٠).

يسفهون، وإن سُفه عليهم حلموا[1].

«والهون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين، و«الهون» بالضم: الهوان[2][3]، فالمفتوح منه صفة أهل الإيمان، والمضموم: صفة أهل الكفران، وجزاؤهم من الله تعالىٰ[4].

أدلته ومنزلته من الدين

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدّاه بأداة «علىٰ[5]» تضميناً لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يُرد به ذلَّ الهوان الذي صاحبُه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول، كما في الحديث: «المؤمن كالجمل الذَّلول، والمنافق والفاسق ذليل»[6] وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب، والنمام، والبخيل، والجبار[7].

---

(١) أخرج نحو هذه الأقوال الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٤، وبهذا اللفظ أورده البغوي في التفسير البغوي ٣/ ٣٧٥.

(٢) (الهوان) سقطت من ق.

(٣) انظر لسان العرب (١٣/ ٤٣٨ - ٤٣٩).

(٤) أ، ب، غ، م، ط (النيران) بدل (تعالىٰ).

(٥) ق (إلىٰ).

(٦) لم أجده.

(٧) ق (الجبان)، ش، م (الجنان).

وقوله : ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة ، قال عطاء - رَضي الله عنه - : للمؤمنين كالولد لوالده(١) ، وعلىٰ الكافرين(٢) كالسبع علىٰ فريسته(٣).

كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح :٢٩] وهذا عكس حال من قيل فيهم :

كِبراً علينا ، وجُبناً عن(٤) عدوكم لبئست الخلّتان : الكِبر والجُبن(٥)

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار - رَضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن الله أوحىٰ إليّ: أن تواضعوا، حتىٰ لا يفخر أحدٌ علىٰ أحد ، ولا يبغي أحد علىٰ أحد**»(٦).

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود - رَضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(٧).

---

(١) ط (كالوالد لولده) وهو خلاف ما في تفسير البغوي ، وهو مردود من حيث المعنىٰ.

(٢) أ ، ب ، غ (الكافر).

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٧ ، وعزاه القرطبي لابن عباس ٦/ ٢٢٠ ، ١٦/ ٢٩٢.

(٤) ط (من).

(٥) القائل هو ابن أم صاحب كما في مجمع الحكم والأمثال ٦١ ، تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٤ أوله «جهلاً علي وجبناً عن عدوهم».

(٦) أخرجه من حديث عياض بن حمار - رَضي الله عنه - : مسلم. الجنة وصفتها (٤/ ٢١٩٧) ح(٢٨٦٥) ، أبو داود. الأدب (٥/ ٢٠٣) ح(٤٨٩٥).

(٧) أخرجه من حديث عبدالله بن مسعود : مسلم. الإيمان (١/ ٩٢) ح(٩١) ، أبو داود. اللباس (٤/ ٣٥١) ح(٤٠٩١) ، الترمذي. البر (٤/ ٣٦١) ح(١٩٩٩) وقال حسن صحيح غريب.

وفي الصحيحين مرفوعاً «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍ جوَّاظ مستكبر»(١).

وفي حديث احتجاج الجنة والنار «أن النار قالت : ما لي لا يدخلني إلا الجبارون، والمتكبرون؟[وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم](٢)»(٣)، وهو في الصحيح.

وفي صحيح مسلم عن(٤) أبي هريرة - رَضي الله عنه - قال(٥) : قال رسول الله ﷺ يقول الله عزَّ وجل(٦) : «العزة إزاري والكبرياء ردائي(٧) فمن ينازعني(٨)(٩)عذبته»(١٠).

---

(١) أخرجه من حديث حارثة بن وهب الخزاعي : البخاري. الأدب (٤/ ١٠٤) ح(٦٠٧١)، مسلم. صفة الجنة (٤/ ٢١٩٠) ح(٢٨٥٣).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وهو في البخاري ومسلم و أ، ب، غ، م، ط.

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة : البخاري. التفسير (٣/ ٢٩٦) ح(٤٨٥٠)، مسلم. الجنة (٤/ ٢١٨٦) ح(٢٨٤٦)، أحمد (٢/ ٥٠٧).

(٤) ط (عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة) وهو في مسلم أيضاً.

(٥) ط (قالا).

(٦) (يقول الله عزّ وجل) ساقطة من ط.

(٧) الأصل (العزة إزاري، والكبرياء ردائي) وما أثبته من مسلم، ط.

(٨) ط (نازعني).

(٩) الأصل (فقد) وليست في مسلم، ط.

(١٠) أخرجه من طريق أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما مسلم. البر والصلة (٤/ ٢٠٢٣) ح(٢٦٢٠)، أبو داود. اللباس (٤/ ٣٥٠) ح(٤٠٩٠) بلفظ « قال الله عزّ وجل : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار ».

وفي جامع الترمذي مرفوعاً: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتىٰ يُكتب في ديوان الجبارين، فيصيبه ما أصابهم»[1].

وكان النبي ﷺ يمر علىٰ الصبيان فيسلم عليهم»[2].

وكانت الأمَة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[3].

وكان إذا أكل لعق أصابعه الثلاث[4].

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله[5]، ولم يكن ينتقم[6] لنفسه قط[7].

---

(١) أخرجه من حديث سلمة بن الأكوع عن أبيه الترمذي في البر والصلة (٤/ ٣٦٢) ح(٢٠٠٠) وقال حسن غريب، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥٨)، وقال ابن عدي في الكامل (٥/ ١٦)، فيه عمر بن راشد وهو إلىٰ الضعف أقرب منه إلىٰ الصدق.

(٢) البخاري. الاستئذان (٤/ ١٤٠) ح(٦٢٤٧)، مسلم. السلام (٤/ ١٧٠٨) ح(٢١٦٨)، الترمذي. الاستئذان (٥/ ٥٧) ح(٢٦٩٦).

(٣) البخاري. الأدب تعليقاً (٤/ ١٠٤) ح(٦٠٧٢)، أحمد (٣/ ٩٨)، وصححه الألباني كما في صحيح ابن ماجه. الزهد (٢/ ٤٠٦) ح(٤١٧٧).

(٤) مسلم. الأشربة (٣/ ١٦٠٧) ح(٢٠٣٤)، أحمد (٣/ ٣٩٠)، الترمذي. الأشربة (٤/ ٢٥٩) ح(١٨٠٣) وقال حسن غريب، أبو داود. الأطعمة (٤/ ١٨٣) ح(٣٨٤٥).

(٥) البخاري. الأذان (١/ ٢٢٤) ح(٦٧٦)، أحمد (٦/ ٤٩)، الترمذي. صفة القيامة (٤/ ٦٥٤) ح(٢٤٨٩).

(٦) الأصل (منتقم) والصحيح ما أثبته من أ، ب، غ، م، س، ق، ط.

(٧) البخاري في الأدب (٢/ ٥١٨) ح(٣٥٦٠)، مسلم. الفضائل (٤/ ١٨١٣) ح(٢٣٢٧).

وكان(١) يخصف نعله، ويرقع ثوبه(٢)، ويحلب الشاة لأهله(٣)، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم(٤)، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم(٥) في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام(٦)، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلىٰ أيسر شيء(٧).

وكان ﷺ هيّن المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، ليّن الجانب لهم.

وقال ﷺ: «ألا(٨) أخبركم بمن(٩) يحرم علىٰ النار؟ - أو تحرم عليه النار -

---

(١) ط (ﷺ).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٦)، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٤٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ٤٢٢)، وصححه العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٩).

(٣) ابن ماجه. الطهارة (١/ ١٦٧) ح(٥٠١)، صحيح ابن حبان (١٢/ ٤٨٩)، وقال البوصيري فيه زمعة بن صالح ضعيف، مصباح الزجاجة (١/ ٧٢).

(٤) البخاري. الأطعمة (٣/ ٤٤٧) ح(٥٤٦٠).

(٥) السنن الكبرىٰ للنسائي (١/ ٥٣١) ح(١٧٢٢)، الدارمي. التواضع (١/ ٤٨)، صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٣٤)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٤) وقال علىٰ شرطهما وقواه الذهبي.

(٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٩)، وذكره ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٣) فيه من لم يسمَّ.

(٧) شاهده سوف يرد قريباً.

(٨) (الألف) سقطت من ب.

(٩) ق (من).

تحرم علىٰ كل قريب هيِّن ليِّن سهل» رواه الترمذي، وقال: حديث[1] حسن[2].

وقال: «لو دُعيت إلىٰ ذارع - أو كراع[3] - لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع - أو كراع[4] - لقبلت» رواه البخاري[5].

وكان[6] يعود المريض[7]، ويشهد الجنازة[8]، ويركب الحمار[9]، ويجيب دعوة العبد[10].

---

(١) (حديث) سقطت من الأصل، والصحيح إثباتها كما في بقية النسخ والترمذي.

(٢) الترمذي. صفة القيامة (٤/ ٦٥٤) ح(٢٤٨٨) وقال حديث حسن غريب، أحمد (١/ ٤١٥)، الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨٥) ح(١٠٥٦٢)، مجمع الزوائد (٤/ ٧٥)، وعزاه للطبراني في الأوسط وفيه من لا يُعرف، رقمه في المشكاة (٥٠٨٤)، شرح السنة (١/ ٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٩٣٨).

(٣) أ، ب، غ (كراع أو ذراع)، هو خلاف الأصل والبخاري.

(٤) أ، ب، غ (كراع أو ذراع)، هو خلاف الأصل والبخاري.

(٥) البخاري في الهبة (٢/ ٢٢٧) ح(٢٥٦٨)، أحمد (٢/ ٤٢٤).

(٦) ط (ﷺ).

(٧) عاد رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص كما في البخاري. النفقات (٣/ ٤٢٤) ح(٥٣٥٤)، ومسلم الوصية (٣/ ١٢٥٠) ح(١٦٢٨).

(٨) شهود الجنائز فيه حديث البراء أخرجه أبو داود في السنة (٥/ ١١٤) ح(٤٧٥٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٥٤)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٩).

(٩) ورد ركوبه ﷺ الحمار في البخاري. الجهاد والسير (٢/ ٣٥٥) ح(٢٩١٧)، ومسلم. الجهاد والسير (٣/ ١٤٢٢) ح(١٣٩٨).

(١٠) سوف يأتي دليله قريباً.

وكان يوم[١] قريظة علىٰ حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف[٢] من ليف»[٣].

فصل

أقوال مأثورة في التواضع

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله[٤].

وقيل: التواضع أن لا ترىٰ لنفسك قيمة، فمن رأىٰ لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب[٥].

---

(١) حاشية م (بني).

(٢) إكاف: الإكاف من المراكب شبه (الرِّحال) (والأقتاب) لسان العرب (٩/ ٨).

(٣) أخرجه من حديث أنس، الترمذي في الجنائز (٣/ ٣٢٨) ح(١٠١٧) وقال لا نعرفه إلا من حديث مسلم بن الأعور، ثم قال: يضعّف ومسلم بن كيسان تكلم فيه، وأخرجه ابن ماجه في الزهد (٢/ ١٣٩٨) ح(٤١٧٨)، وفيه إجابة دعوة العبد، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٧٠).

(٤) إحياء علوم الدين مع إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٢٥٩)، الرسالة القشيرية (٢٤١)، طبقات السلمي (ص١٢).

(٥) الرسالة القشيرية (٢٤١)، التعرف (١١٤) وعزاه لعوارف المعارف.

وقال أبو يزيد[1] - رحمه الله - : هو أن لا يرىٰ لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرىٰ في الخلق شراً منه[2].

وقال ابن عطاء - رَحمه الله[3] - : هو قبول الحق ممن كان، والعزُّ في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب[4] الماء من النار[5].

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع، والعز في التقوىٰ، والحرية في القناعة[6].

ويذكر عن سفيان الثوري - رضي الله عنه -[7] أنه قال : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سُنِّي[8].

وقال عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- : رأيت عمر بن الخطاب -رَضي

---

(١) ط زيادة (البسطامي).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٢)، الرسالة القشيرية (٢٤٢)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٦) ونحوه عن الفضيل في الرسالة القشيرية ص٢٤١.

(٣) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٤) ب (كمتطلب).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٤٢، طبقات السلمي ٣٩٦، وفي التعرف ١٤ قبول الحق من الحق للحق.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٤٢، إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٢٥٥ وقال العراقي رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلاً أوله من رواية الحسن بن سمرة وقال صحيح الإسناد.

(٧) ط (رحمه الله).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٤٢).

الله عنه ـ علىٰ عاتقه قِربة ماء[١] ، قلت[٢] : «يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لـك هـذا ، فقال : لما أتاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسي نخوة فأحببت[٣] أن أكسرها»[٤].

وولي أبو هريرة ـ رَضي الله عنه ـ إمارةً مرة ، فكان يحمل حُزمة الحطب علىٰ ظهره وهو يقول[٥] : طرِّقوا للأمير[٦].

وركب زيد بن ثابت – رضي الله عنه –[٧] فدنا ابن عباس – رضي الله عنهما –[٨] ليأخذ بركابه ، فقال : مَهْ يا ابن عم رسول الله! فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا ، فقال زيد :[٩] أرني يدك ، فأخرجها إليه فقبلها ، وقال[١٠] : هكذا أُمرنا أن[١١] نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ[١٢].

---

(١) (ماء) سقطت من ب.

(٢) ط (فقلت).

(٣) أ ، ب ، غ ، ط (فأردت).

(٤) الرسالة القشيرية ٢٤٢ ، البداية والنهاية ٧/ ١٣٥ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٢٩.

(٥) أ ، ب ، غ ، ط (ويقول) بدل (وهو).

(٦) الرسالة القشيرية ٢٤٣ ، حلية الأولياء ٢/ ٢.

(٧) (رضي الله عنه) سقطت من ط وبدلها لفظة (مرة) في أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

(٨) (رضي الله عنهما) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٩) (زيد) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(١٠) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (فقال).

(١١) (أن) سقطت من ط.

(١٢) الرسالة القشيرية ٢٤٢ ، جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٢٨.

وقسم عمر بن الخطاب بين الصحابة[١] حللاً ، فبعث إلىٰ معاذ حُلّة مثمنة[٢]، فباعها ، واشترىٰ بثمنها ستة أعبدٍ وأعتقهم[٣] ، فبلغ[٤] عمر ، [فبعث إليه بعد ذلك][٥] حلة دونها ، فعاتبه معاذ ، فقال[٦] : لأنك بعت الأولىٰ ، فقال معاذ : وما عليك؟ ادفع إلي[٧] نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك. فقال عمر - رَضي الله عنه - : رأسي بين يديك ، وقد يرفق الشاب بالشيخ[٨].

ومر الحسن[٩] علىٰ صبيان معهم كِسر خبز ، فاستضافوه ، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلىٰ منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال اليد لهم ، لأنهم لا[١٠] يجدون شيئاً غير ما أطعموني ، ونحن نجد أكثر منه[١١].

---

(١) ط زيادة (رضي الله عنهم).

(٢) مثمنة : الشيء المثمن هو ما جعل له ، ثمانية أركان ، لسان العرب ١٣/ ٨٣ ، هذا علىٰ تشديد (مثمّنة) وإذا كانت (مثمنة) بدون تشديد ، فهو دليل علىٰ ارتفاع سعرها.

(٣) أ ، ب (فأعتقهم).

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط زيادة (ذلك).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ.

(٦) ط زيادة (عمر).

(٧) ط (لي).

(٨) الرسالة القشيرية ٢٤٥.

(٩) ق (بن علي بصبيان) و في الرسالة القشيرية (الحسن بن علي) ص٢٤٥.

(١٠) ق ، م (لم) بدل (لا).

(١١) الرسالة القشيرية (٢٤٥).

ويذكر أن أبا ذر - رَضي الله عنه - عيَّر بلالاً - رَضي الله عنه - بسواده ، ثم إنه[١] ندم ، فألقىٰ نفسه وحلف[٢] : لا رفعت رأسي حتىٰ يطأ بلال خدِّي بقدمه ، فلم يرفع رأسه حتىٰ فعل بلال[٣].

وقال رجاء بن حيوة[٤] : قوَّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه - وهو يخطب - باثني عشر درهماً ، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة[٥].

ورأي محمد بن واسع ابناً له يمشي مشية منكرة ، فقال : تدري بكم شريت أمَّك؟ بثلاثمائة درهم ، وأبوك - لا كثَّر[٦] في المسلمين مثله[٧] - أنا[٨] وأنت

(١) (أنه) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٢) ط (بنفسه فحلف).

(٣) الرسالة القشيرية ٢٤٥ ، أصل القصة في البخاري. الإيمان (١/ ٢٠) ح(٣٠) ، ومسلم (٣/ ١٢٨٢) ح(١٦٦١) ، وليس فيهما أنه وضع خده وأن بلالاً فعل ما طلب منه أبو ذر.

(٤) رجاء بن حيوة بن جرول ، وقيل : «جزل» ، الإمام القدوة ، أبو نصر الكندي الأزدي ، فقيه من جلّة التابعين حدّث عن معاذ وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت ، وعنه مكحول والزهري وقتادة وغيرهم، توفي سنة ١١٢هـ/ طبقات ابن سعد (٧/ ٤٥٤)، حلية الأولياء (٥/ ١٧٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ١١١) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٧).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٤٤.

(٦) الأصل (أكثر) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ط.

(٧) أ (مثلي).

(٨) الأصل (أباً) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ط.

تمشي[1] هذه المشية؟[2].

وقال حمدون القصار : التواضع أن لا ترىٰ لأحد إلىٰ نفسك حاجة ، لا في الدين ولا في الدنيا[3].

وقال إبراهيم بن أدهم[4] : ما سررت في إسلامي إلا ثلاث مرات : كنت في سفينة ، وفيها رجل مِضحاك ، كان يقول : كنا في بلاد الترك فأخذ[5] العلج[6] هكذا - وكان يأخذ[7] بشعر رأسي ويهزني - لأنه لم يكن في تلك السفينة أحد أحقر مني ، والأخرىٰ : كنت عليلاً في مسجد ، فدخل المؤذن ، وقال اخرج ، فلم أطق، فأخذ برجلي وجرني إلىٰ خارج، والأخرىٰ: كنت بالشام وعليَّ فرو، فنظرت فيه فلم أميز بين شعره وبين القمَّل لكثرته فسرني ذلك[8].

---

(١) أ ، ب ، غ (نمشي).

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ ولفظه : « قيل اشتكىٰ رجل من ولد محمد بن واسع إليه فقال لولده : تستطيل علىٰ الناس وأمك اشتريتها بأربعمائة درهم وأبوك فلا كثر الله في المسلمين مثله.. ».

(٣) الرسالة القشيرية ٢٤٤.

(٤) إبراهيم بن أدهم ، من الأشراف ، روىٰ عن جماعة من التابعين ، توفي سنة ١٦٢ هـ ، وكان من المشهورين بالزهد ، له أقوال مأثورة في الورع وترك الدنيا/ صفة الصفوة (٤/ ١٣٤) ، حلية الأولياء (٧/ ٣٦٧) ، شذرات الذهب (١/ ٢٥٥).

(٥) ش (نأخذ).

(٦) العلج : الواحد من كفار العجم ، مختار الصحاح (٤٤٩).

(٧) م ، أ ، ب ، غ (آخذ) بدل (يأخذ).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٤٥).

وفي رواية أخرىٰ[١] : كنت يوماً جالساً ، فجاء إنسان فبال عليَّ[٢].

وقال بعضهم : رأيت في الطواف رجلاً بين يديه شاكرية[٣] يمنعون الناس لأجله عن الطواف ، ثم رأيته بعد ذلك بمدة علىٰ جسر بغداد يسأل شيئاً ، فتعجبت منه ، فقال لي : إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه[٤] فابتلاني الله بالذل في موضع يرتفع فيه[٥] الناس[٦].

وبلغ عمر بن عبد العزيز - رَضي الله عنه - : أن ابناً له اشترىٰ خاتماً بألف درهم فكتب إليه عمر : بلغني أنك اشتريت فِصّاً بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم ، وأشبع به ألف بطن ، واتخذ خاتماً بدرهمين ، واجعل فِصَّه حديداً صينياً ، واكتب رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه[٧][٨].

---

(١) (أخرىٰ) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط

(٢) الرسالة القشيرية ٢٤٥ ، هذا ليس من التواضع بل هو من المهانة وابتذال النفس وضعتها ، ولا يليق هذا المقام بالمسلم الذي كرمه الله عز وجل ، وانظر الفرق بين خلق التواضع والمهانة في كتاب الروح لابن القيم ٣١٣.

(٣) شاكرية : أطلقت علىٰ «فرقة من الجند» ظهرت في العصر العباسي كانت من عناصر الفوضىٰ السياسية في بغداد استفحل أمرها في أيام الخليفة المستعين بالله سنة ٢٥٢هـ ، انظر معجم المصطلحات التاريخية ٢٧٦ ، وكلمة «شكر» من استعمالاتها : «شاكار ، شاكر ، شاكر باه ، شاكرد» تستخدم لمعاني فيها الخدمة والتسخير ، انظر المعجم الفارسي الكبير ٢/ ١٦٨٠.

(٤) الأصل (تواضع الناس هناك) والأقرب ما أثبته من س، م، ط، و (هناك) سقطت من أ، ب، غ.

(٥) م ، ب ، ش ، ط (يترفع الناس فيه).

(٦) لم أجده.

(٧) ط زيادة (والله أعلم).

(٨) الرسالة القشيرية (٢٤٤).

فصل

أول ذنب عصيٰ الله به أبوا[١] الثقلين : الكِبر والحرص[٢] ، فكان الكبر ذنب إبليس اللعين ، فآل أمره إلىٰ ما آل إليه ، وذنب آدم علىٰ نبينا وعليه السلام : كان من الحرص والشهوة ، فكان عاقبته التوبة والهداية ، وذنب إبليس حمله علىٰ الاحتجاج بالقدر والإصرار ، وذنب آدم أوجب له إضافته إلىٰ نفسه ، والاعتراف به والاستغفار. أول ذنب عُصي الله به

فأهل الكبر والإصرار ، والاحتجاج بالأقدار : مع شيخهم وقائدهم إلىٰ النار إبليس ، وأهل الشهوة : المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب ، الذين[٣] لا يحتجون عليها بالقدر : مع أبيهم آدم في الجنة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : المتكبر[٤] شر من المشرك[٥] فإن المتكبر يتكبر[٦] عن عبادة الله تعالىٰ ، والمشرك يعبد الله علاقة الشرك بالكبر

---

(١) (الألف) سقطت من ط.

(٢) دليل المسألة قوله تعالىٰ : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين﴾ ، وقال تعالىٰ عن حرص آدم : ﴿.. هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لا يبلىٰ﴾ ، وانظر الكبائر للذهبي ٧٧ ، وقيل الحسد كما روىٰ ذلك البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن ٥/ ٢٧٣.

(٣) (الذين) سقطت من ق.

(٤) ط (التكبر).

(٥) ط (الشرك).

(٦) ق ، م ، أ ، ب ، غ ، ش (متكبر).

وغيره[١].

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قال تعالىٰ في[٢] سورة غافر: ﴿[٣] ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦] وفي سورة النحل: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] وقال[٤] في سورة تنزيل: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله علىٰ قلوبهم، فقال[٥]: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٦] رواه مسلم - رحمه الله -.

[٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦] تنبيهاً[٨] علىٰ

---

(١) انظر تقسيم شيخ الإسلام لطوائف القدرية وذكر منهم (الإبليسية)، الفتاوىٰ ٨/ ٢٥٦ ـ ٢٦٢.

(٢) أ، ب، غ، ط زيادة (في سورة الزمر).

(٣) ق (فادخلوا).

(٤) (قال) سقطت من ط.

(٥) ط زيادة (تعالىٰ).

(٦) مسلم (١/ ٩٣) ح(٩١)، الترمذي. البر والصلة (٤/ ٣٦١) ح(١٩٩٩) وقال حسن صحيح غريب، وأبو داود. البر والصلة (٤/ ٩٥) ح(٤٠٩١)

(٧) ـ أ، ب، غ، ق، ط زيادة حديث (وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمص الناس») وهو في الترمذي (٤/ ٣٩١)، وفي مسلم (غمط) (١/ ٩٣) ح (٩١).

(٨) ق (تنبيه).

أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك ، وكما أن «من تواضع لله رفعه»[1] فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله[2] ووضعه ، وصغّره وحقّره ، ومن تكبر عن الانقياد للحق - ولو جاء علىٰ يد صغير ، أو من يبغضه أو يعاديه - فإنما تكبره[3] علىٰ الله فإن الله ، هو الحق ، وكلامه حق ، ودينه حق ، والحق صفته ، ومنه وله ، فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله : فإنما رد علىٰ الله ، وتكبر عليه[4].

---

(١) أخرجه من حديث عمر - رضي الله عنه - المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٧٦) ، وفي مسند الشهاب (١/ ٢١٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٨٢) ، وعزاه لأحمد . ولم أجده بهذا اللفظ . وقال رجاله رجال الصحيح ، وقال في إسناد الطبراني سعيد بن سلام العطار كذاب ، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣٢٥) ح(١٣٥٦) ، وقال : قال الخطيب غريب من حديث الثوري تفرد به سعيد بن سلام ، قال أحمد سعيد كذاب ، وقال البخاري يذكر بالوضع ، وقال الدارقطني متروك ، وأخرجه من حديث عائشة الطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٩) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٥) ، وقد تقدم الكلام عليه ، ومن طريق ابن عباس في مسند الربيع (٢٧٣) ، وقال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٤٧) أخرجه ابن ماجه وصححه ابن حبان ولم أجده فيهما بهذا اللفظ ، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٦١) ح(٦١٦٢) وذكر الشواهد والطرق من مصادر أخرىٰ في السلسلة الصحيحة (٥/ ٤٣٢) ح(٢٣٢٨).

(٢) ق ، ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٣) ق (تكبر).

(٤) ق ، ط زيادة (والله أعلم).

فصـــل

قال صاحب المنازل - رحمه الله -[١] :

من معاني التواضع

«التَّوَاضُعُ : أَنْ يَتَوَاضَعَ العَبْدُ لِصَولَةِ الحَقِّ»[٢].

يعني : أن يتلقىٰ سلطان الحق بالخضوع له ، والذل ، والانقياد ، والدخول تحت رِقِّه ، بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه ، فبهذا[٣] يحصل للعبد خُلق التواضع ولهذا فسر النبي ﷺ الكبر بضده فقال : «**الكبر بطر الحق ، وغمص[٤] الناس**» فبطر الحق رده وجحده ، والدفع في صدره ، كدفع الصائل ، و«غمص[٥] الناس» احتقارهم وازدراؤهم ، ومتىٰ احتقرهم وازدراهم : دفع حقوقهم ، وجحدها واستهان بها.

ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة : كانت النفوس المتكبرة لا تُقرُّ له بالصولة علىٰ تلك الصولة التي فيها[٦] ، ولا سيما النفوس المبطلة[٧] ، فتصول علىٰ صولة الحق بكبرها وباطلها ، فكان حقيقة التواضع : خضوع العبد

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) منازل السائرين ٤٦ بلفظ (يتضع).

(٣) غ (فلهذا).

(٤) ش (غمط) وهي في مسلم كما تقدم قريباً.

(٥) ش (غمط).

(٦) أي أنهم اعتادوا الصولة علىٰ الناس.

(٧) (المبطلة) سقطت من ق.

لصولة الحق ، وانقياده لها ، فلا يقابلها بصولته عليها.

درجات التواضع

الدرجة الأولى

قال : «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : التَّوَاضُعُ لِلدِّينِ ، وَهُوَ أَنْ لا يُعَارِضَ بِمَعقُولٍ مَنقُولاً ، وَلا يَتَّهِم للدِّينِ[1] دَلِيلاً ، وَلاَ يَـرَىٰ إِلَىٰ الخِلَافِ سَبِيلاً»[2].

«التَّوَاضُعُ لِلدِّينِ» هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ ، والاستسلام له ، والإذعان وذلك بثلاثة أشياء.

الأول : أن لا يعارض شيئاً مما جاء به[3] من المعارضات الأربع السارية في العالم المسماة : بالمعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسية[4][5].

---

(١) منازل السائرين (علىٰ الدين).

(٢) منازل السائرين ٤٧.

(٣) ط زيادة (بشيء).

(٤) هامش م (يعني قانون).

المعارضات الأربع

(٥) المعارضات الأربع : المعقول : تقديم العقل ، والقياس : هو حمل فرع علىٰ أصل في حكم جامع بينهما ، ولا بد في كل قياس من فرع وأصل وعلة وحكم ينظر في ذلك : ابن قدامة وآثاره الأصولية ٢/ ٢٧٥.

والذوق : من ألفاظ الصوفية وتقدم التعريف به ٢٠٩٨.

والسياسة : من ساس الأمر سياسة ، قام به وتولىٰ أمره وأصلحه ، لسان العرب ٦/ ١٠٨ ، وهي : المشاركة في شئون الدولة وتوجيهها وإدارة البلاد.. الموسوعة الفلسفية ٢٥٢ ، ومن نفيس كلام شيخ الإسلام في هذه المسألة قوله :[وعامة البدع والأهواء إنما تنشأ من هذين الأصلين.. أما الأول فشبه التأويل الفاسد ، أو القياس الفاسد ـ إلىٰ أن قال ـ : فالقياس والرأي

فالأول: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل، وعزلنا النقل، إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل[1].

والثاني: للمتكبرين من المنتسبين إلىٰ الفقه، قالوا: إذا عارض[2] القياس والرأي[3] النصوص: قدمنا القياس علىٰ النص، ولم نلتفت إليه.

والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلىٰ التصوف والزهد، فإذا[4]

والذوق هو عامة خطأ المتكلمة والمتصوفة وطائفة، وتأويل النصوص الصحيحة أو الضعيفة عامة خطأ طوائف المتكلمة والمحدثة، والمقلدة، والمتصوفة، والمتفقهة - إلىٰ أن قال - ولهذا قال أحمد بن حنبل لبعض أصحابه: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس] الفتاوىٰ ١٩/ ٧٤ - ٧٥.

(١) عزل التفويض هو نفي العلم بالمعنىٰ، ويزعمون بذلك أن معاني نصوص الصفات لا يعلمها أحد، ولقد رد عليهم وبين فساد قولهم شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٥ وما بعدها، أما عزل التأويل فالمراد به التأويل الفاسد حيث يصرفون الكلام عن ظاهره إلىٰ غيره من غير دليل أو بديل فاسد، وهو أحد معاني التأويل كما ذكر ذلك شيخ الإسلام في التدمرية، انظر التوضيحات الأثرية علىٰ متن التدمرية ١٨٤، ومسألة التأويل أُلِّفت فيها رسائل إضافة علىٰ كونها مبثوثة في كتب أهل العلم من تلك المؤلفات: مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات/ أحمد القاضي، علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين/ رضا نعسان، تبرئة السلف من تفويض الخلف/ محمد اللحيدان.

(٢) ط (تعارض).

(٣) ط زيادة (واو).

(٤) (الفاء) سقطت من أ، ب، غ، م، ق، ط.

تعارض عندهم الذوق والأمر ، قدَّموا الذوق والحال ، ولم يعبأوا بالأمر[١].

والرابع : للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين ، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة ، قدموا السياسة ، ولم يلتفتوا لحكم الشريعة[٢].

فهؤلاء الأربعة : هم أهل الكبر ، والتواضع : التخلص من ذلك كله.

الثاني : أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين ، بحيث يظنه فاسدَ الدلالة ، أو ناقصَ الدلالة ، أو قاصرَها ، أو أن غيره كان أولىٰ منه ، ومتىٰ عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه ، وليعلم أن الآفة منه ، والبليَّة فيه[٣] ، كما قيل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً　　　وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه　　　علىٰ قدر القرائح والفهوم[٤]

وهكذا الواقع في الواقع[٥] حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلاً للدين إلا وكان هو المتهم[٦]

---

(١) تقدم ذلك عند الحديث عن الكشف ١٨٢٩ ، ومما قاله ابن عربي في ذم من يسميهم علماء الرسوم : «ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم علىٰ أهل الله المختصين بخدمته.. » الفتوحات باب/ ٥٤ ص٣٩.

(٢) هذا حال كل من قدم حكمه ونظامه علىٰ حكم الله وشرعه ، وشواهده أظهر من أن تذكر.

(٣) ق (منه).

(٤) القائل المتنبي ، انظر ديوانه بشرح البرقوقي ٢/ ٢٤٦.

(٥) (في الواقع) سقطت من غ ، ق.

(٦) ط (المتهم هو).

الفاسد الذهن مأووف[1][2] في عقله، وذهنه، فالآفة من الذهن العليل، لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصىٰ عليك، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم، و[3]لم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلىٰ غيرك: فاتهم آراء الرجال علىٰ نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست علىٰ شيء، ولو.. ولو.. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

قال الشافعي - قدس الله روحه[4] -: وأجمع[5] المسلمون علىٰ أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد[6].

الثالث: أن[7] لا يجد إلىٰ خلاف النص سبيلاً البتة، لا بباطنه، ولا بلسانه

(١) ط (مأفون).

(٢) مأووف: أصابته آفة، لسان العرب ٩/ ١٦ ومأفون، يقال رجل مأفون أي ضعيف العقل والرأي، لسان العرب ١٣/ ١٩.

(٣) (الواو) سقطت من ق.

(٤) ق (رضي الله عنه) بدل (قدس الله روحه).

(٥) (الواو) سقطت من ب.

(٦) الرسالة للإمام الشافعي ٤٧١، ذم الهوىٰ ٥٥، زاد المهاجر ٣٧، الروح ٢٦٤.

(٧) الأصل (أنه) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

ولا بفعله ، ولا بحاله؛ بل إذا أحس بشيء من الخلاف : فهو كخلاف المُقْدم علىٰ الزنا ، وشرب الخمر ، وقتل النفس؛ بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك ، وهو داع إلىٰ النفاق ، وهو الذي خافه الكبار ، والأئمة علىٰ نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص - لقول متبوعه وشيخه ومقلِّده ، أو لرأيه ومعقوله ، وذوقه ، وسياسته إن كان عند الله معذوراً ، ولا والله ما هو بمعذور - فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولىٰ بالعذر عند الله(١) ورسوله ، وملائكته ، والمؤمنين من عباده.

فواعجباً إذا اتسع بطان(٢)(٣) المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً ، أو تأويلاً ، أو لغير ذلك ، فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم ، وأقوال شيوخهم ، لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل ، وبغوه(٤) الغوائل(٥) ، ورموه بالعظائم ، وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذاً(٦) ، وقذفوه بمصابهم ، وجعلوا تعظيم المتبوعين

(١) (لفظ الجلالة) سقط من الأصل والأصح إثباته كما في ق وفي ق زيادة (وعند).

(٢) ط (بطلان).

(٣) بطان : هو ما ينسج ويشد به الرحل علىٰ البعير كالحزام للسرج ، النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٩٨ ، القاموس المحيط ١/ ١١٠٩٣.

(٤) (الهاء) سقطت من ب.

(٥) الغوائل : المهالك ، النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٩٧.

(٦) لواذاً : لاذ به لجأ إليه وعاذ به (ولياذاً) بالكسر ، ولاذ القوم لواذاً إذا لاذ بعضهم ببعض ، مختار الصحاح ٦٠٨.

ملاذاً لهم ومعاذاً(١).

فصـــل

الأمور التي تعين على التواضع

قال: «وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ(٢) إلاَّ بأَن يُعْلَمَ: أَنَّ النَّجَاةَ فِي البَصِيرَةِ، وَالاستِقَامَةَ بَعدَ الثِّقَةِ، وَأَنَّ البَيِّنَةَ وَرَاءَ الحُجَّةِ»(٣).

يقول: إن ما ذكرناه من التواضع للدين بهذه الأمور الثلاثة:

الأولىٰ(٤): علمه(٥) أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هي في البصيرة، فمن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الأخرىٰ(٦).

والبصيرة نور الله يجعله الله في عين القلب، يفرق به(٧) بين الحق والباطل، ونسبته إلىٰ القلب، كنسبة ضوء العين إلىٰ العين.

وهذه «البصيرة» وهبية(٨) وكسبية، فمن أدام(٩) النظر في أعلام الحق وأدلته،

---

(١) ط زيادة (والله أعلم).

(٢) منازل السائرين زيادة (له).

(٣) منازل السائرين ٤٧ بلفظ (ولا يصح ذلك له).

(٤) ط زيادة (الأولىٰ).

(٥) ب (علم).

(٦) ش، ط (الآخرة).

(٧) ط زيادة (العبد).

(٨) ش (موهبية).

(٩) أ، ب، غ، ط (أراد).

وتجرد لله[١] عن[٢] هواه : استنارت بصيرته ، ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل[٣].

الثاني : أن يعلم أن الاستقامة [إنما تكون بعد الثقة ، أي لا يتصور حصول الاستقامة][٤] في القول والعمل والحال ، إلا بعد الثقة بصحة ما معه من العلم ، وأنه مقتبس من مشكاة النبوة ، ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة[٥].

الثالث : أن يعلم أن البينة وراء الحجة ،[٦] «البينة» مراده بها : استبانة الحق وظهوره ، وهذا إنما يكون بعد الحجة فإن الحجة[٧] إذا قامت استبان الحق وظهر واتضح.

وفيه معنىٰ آخر وهو : أن العبد إذا قبل حجة الله لمحض[٨] الإيمان والتسليم والانقياد : كان هذا القبول هو سبب تبيُّنِها له[٩] وظهورها ، وانكشافها لقلبه ،

---

(١) ط (الله).

(٢) ط (من) بدل (عن).

(٣) قال الله تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً..﴾ [الأنفال :٢٩].

(٤) ما بين المعقوفين سقط من غ.

(٥) الأصل (فلا استقامة له) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

(٦) ط زيادة (الواو).

(٧) (فإن الحجة) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٨) غ ، م ، ب (بمحض).

(٩) (له) سقط من أ ، ب ، غ ، ط.

فلا يصير[١] علىٰ بينة من[٢] ربه إلا بعد قبول حجته.

وفيه معنىٰ آخر أيضاً وهو[٣] : أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذي هو حجة الله علىٰ العبيد ، فإذا عرف الحجة اتضح[٤] له بها ما كان مشكلاً عليه من علومه ، وما كان معيباً[٥] من أعماله.

وفيه معنىٰ آخر أيضاً : وهو أن يكون «وراء» بمعنىٰ أمام ، والمعنىٰ : أن الحجة إنما تحصل للعبد بعد تبيُّنِها ، فإذا لم تتبيَّنْ له لم تكن له حجة ، يعني فلا يقنع[٦] من الحجة بمجرد حصولها بلا تبيُّن ، فإن التبيُّنَ أمام الحجة[٧].

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَن تَرضَىٰ بِمَن[٨] رَضِيَ بِهِ الحَقُّ[٩] لِنَفسِهِ عَبداً مِن المُسلِمِينَ أَخاً، وَأَنْ لا تَرُدَّ عَلَىٰ عَدوِّكَ حَقّاً، [١٠]وَتَقبَلَ مِنَ المُعتَذِرِ مَعَاذِيرَهُ»[١١].

---

(١) ط (يصبر).

(٢) (من) سقطت من ط.

(٣) (وهو) ساقطة من ط.

(٤) ش (أفصح).

(٥) ق (مغيباً).

(٦) أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ط (يقنع).

(٧) ق ، ط زيادة (والله أعلم).

(٨) ط (بما).

(٩) الأصل (الحق به) والأقرب ما أثبته من أ ، و (به) ليست في المنازل.

(١٠) ط زيادة (أن).

(١١) منازل السائرين ٤٧.

يقول : إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبداً ، [١]أفلا ترضىٰ انتسابه[٢] أخاً ، فعدم رضاك به أخاً - وقد رضيه سيدُك الذي أنت عبده عبداً لنفسه - عين الكبر ، وأيُّ قبيح أقبح من تكبّر العبد علىٰ عبد مثله ، لا يرضىٰ بأخوته ، وسيدُه راضٍ بعبوديَّتِه؟.

فيجيء من هذا : أن المتكبر غير راض بعبودية سيِّده ، إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده ، وهذا شأن عبيد الملوك ، فإنهم يرون بعضهم خشداشية[٣][٤] بعض ، ومن ترفّع منهم عن ذلك ، لم يكن من عبيد أستاذهم.

قوله : «وَأَن لا تَرُدَّ عَلىٰ عَدُوِّكَ حَقّاً[٥]».

أي لا تصح[٦] لك درجة «التواضع» حتىٰ تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك ، وإذا لم ترد عليه حقَّه ، فكيف تمنعه حقاً له قبلك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك بحق[٧] قبلته منه ، وإذا كان له عليك

---

(١) أ ، ش سقطت (الألف).

(٢) م ، ط (أنت به) بدل (انتسابه).

(٣) ش (حسداسية).

(٤) خشداشية : خشداش ، فارسية معربة ، معناها الزميل في الخدمة ، ومنها اشتقت (الخشداشية) لقب الأمراء المماليك الذين نشأوا عند سيد واحد فنمت بينهم رابطة الزمالة ، انظر معجم المصطلحات التاريخية ١٦٢ ، وقال صاحب المعجم الفارسي ١/ ١٠٤٧ خشداش : تركي معرب ، وخشداشية : أتباع.

(٥) ق (حق).

(٦) الأصل (يصح) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ق ، ط.

(٧) (بحق) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

حقٌّ أديته إليه ، فلا تمنعك عداوتُه من قبول حقه ، ولا من إيفائه[١] إياه.

وأما «قَبُولُكَ مِنَ المعتَذِرِ مَعَاذِيرَهُ».

فمعناه : أن من أساء إليك ، ثم جاء يعتذر من إساءته ، فإن «التواضع» يوجب عليك قبول[٢] معذرته ، حقاً كانت أو باطلاً ، وتكِلُ سريرته إلىٰ الله تعالىٰ ، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو ، فلما قدم جاؤوا يعتذرون إليه ، فقبل أعذارهم ، ووكل سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ.

وعلامة الكرم والتواضع : أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه[٣] عليه ولا تحاجّه ، وقل[٤] : يمكن أن يكون الأمر كما تقول ، ولو قضي شيء لكان ، والمقدور لا مدفع له ، ونحو ذلك.

فصل

الدرجة الثالثة

قال : « الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : أَن تَتَّضِعَ[٥] لِلحَقِّ ، فَتَنـزِلَ عَن رَأيِكَ وَعَوَائِدِكَ[٦] فِي الخِدمَةِ وَرُؤيَةِ حَقِّكَ فِي الصُّحْبَةِ ، وَعَن رَسمِكَ فِي المُشَاهَدَةِ»[٧].

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (إيتائه).

(٢) (قبول) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ق ، ط.

(٣) ب (توافقه).

(٤) ش زيادة (وقد).

(٥) ب (تضع).

(٦) (عوائدك) ليست في منازل السائرين.

(٧) منازل السائرين ٤٧.

يقول «التواضع(١)» بأن تخدم الحق سبحانه، وتعبده بما أمرك به، علىٰ مقتضىٰ أمره [لأجل أنه أمرك](٢)، لا علىٰ ما تراه من رأيك، و(٣)لا يكون الباعث لك داعي العادة، كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرىٰ عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك.

وحاصله: أنه لا يكون باعثه علىٰ العبودية مجرد رأي، وموافقة هوىٰ ومحبة، ولا عادة(٤)؛ بل الباعث مجرد الأمر، والرأي والمحبة والهوىٰ والعوائد: منفذة تابعة، لا(٥) أنها مطاعة باعثة، وهذه نكتة لا يتنبّه لها إلا أهل البصائر.

وأما «نُزُولُهُ عَن رُؤيَة حَقِّهِ في الصُّحْبَةِ».

(٦) أي أن(٧) لا يرىٰ لنفسه حقاً علىٰ الله لأجل عمله، فإن صحبته مع الله بالعبودية والفقر المحض، والذل والانكسار، فمتىٰ رأىٰ لنفسه عليه حقاً فسدت الصحبة، وصارت معلولة وخيف منها المقت، ولا ينافي هذا ما أحقه

---

(١) (التواضع) سقطت من الأصل والأقرب إثباتها كما في أ، ب، غ، ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والأقرب إثباتها كما في جميع النسخ و ط.

(٣) (الواو) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) (لا) سقطت من ط.

(٥) أ، ب، غ زيادة (لأنها).

(٦) ط (فمعناه).

(٧) (أن) سقطت أ، ب، غ، م، ق.

الله سبحانه علىٰ نفسه [من إثابة عابديه وإكرامهم، فإن ذلك حق أحقه علىٰ نفسه][١] بمحض[٢] كرمه وبرِّه وجوده وإحسانه، لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفرق[٣] الطرق، والناس فيه ثلاث فرق.

فرقة رأت أن العبد أقل وأعجز من أن يوجب علىٰ ربه حقاً، فقالت: لا يجب علىٰ الله شيء البتة، وأنكرت وجوب ما أوجبه[٤] علىٰ نفسه.

وفرقة رأت أنه سبحانه أوجب علىٰ نفسه أموراً لعبده، فظنت أن العبد أوجبها عليه بأعماله، وأن أعماله كانت سبباً لهذا[٥] الإيجاب، والفرقتان غالطتان.

والفرقة الثالثة: أهل الهدىٰ والصواب، قالت: لا يستوجب العبد علىٰ الله سعيه نجاة ولا فلاحاً، ولا يدخل أحداً عمله الجنة أبداً، ولا ينجيه من النار، والله سبحانه[٦] تعالىٰ - بفضله وكرمه، ومحض جوده وإحسانه - أكد إحسانه وجوده

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ، ب، غ.

(٢) ق (بعض) بدل (بمحض).

(٣) ط (مفترق).

(٤) (الهاء) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٥) الأصل (لهذه).

(٦) (سبحانه) سقطت من بقية النسخ.

وبره بأن أوجب لعبده عليه[١] حقاً[٢] بمقتضىٰ الوعد، فإن وعد الكريم إيجاب، ولو بـ «عسىٰ، ولعل».

ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- «عسىٰ: من الله واجب»[٣].

ووعد اللئيم خلف، ولو اقترن به العهد والحلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً علىٰ الله لا ينافي ما أوجب[٤] الله علىٰ نفسه، وجعله حقاً لعبده، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه-: «يا معاذ[٥]، أتدري ما حق الله علىٰ العباد؟» قال[٦]: الله ورسوله أعلم، قال: «حقه عليهم أن يعبدوه و[٧]لا يشركوا به شيئاً، يا معاذ أتدري ما حق العباد علىٰ

---

(١) ط زيادة (سبحانه).

(٢) (حقاً) سقطت من أ، ب.

(٣) البرهان (٤/ ٢٨٨)، الدر المنثور (٤/ ٢٧٧)، تفسير القرطبي (٨/ ٩١)، فتح القدير (١/ ٢١٧) عزاه للحسن في أحكام القرآن (٣/ ٢٢٨)، وعزاه القرطبي لأبي عبيدة (٣/ ٣٩)، والشوكاني في فتح القدير (١/ ٢١٦)، وقال ابن كثير: «وكل ـ عسىٰ ـ في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار: «عسىٰ من الله حق»، انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٣)، وقال الطبري (٥/ ١٨٥)، وقد بينا فيما مضىٰ أن «عسىٰ في حق الله واجبة» وعزاه في (٢٨/ ٦٠) لابن زيد.

(٤) أ، ب، غ، ط (أوجبه).

(٥) (يا معاذ) سقطت من أ، ب، غ، ش.

(٦) ط (قلت) بدل (قال).

(٧) (الواو) سقطت من الأصل وهي في ق، وصحيح البخاري.

الله إن فعلوا ذلك؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حقُّهم عليه : أن لا يعذبهم بالنار»[١].

فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق ، ولا يضيع لديه سعي ، كما قيل :

ما للعباد عليه حقٌّ واجبُ   كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عُذِّبوا فبعدله ، أو نُعِّموا   فبِفَضْله[٢] وهو الكريم الواسع[٣]

وأما قوله : «وَتَنزِل عَن رَسْمِكَ فِي المُشَاهَدةِ».

أي من جملة التواضع للحق : فناؤك عن نفسك ، فإن رسمه هي نفسه ، والنزول عنها : فناؤه عنها حين شهود[٤] الحضرة[٥] ، وهذا النزول[٦] يصح أن يقال كسبي باعتبار، وإن كان عند القوم غير كسبي، لأنه يحصل عند التجلّي[٧]، والتجلّي[٨] نور ، والنور يقهر الظلمة ويبطلها ، والرسم عند القوم ظلمة ، فهي

(١) البخاري. التوحيد (٤/ ٣٧٨) ح(٧٣٧٣) بدون (بالنار) وفي الجهاد (٢/ ٣٢٠) ح(٢٨٥٦)، مسلم الإيمان (١/ ٥٨) ح(٣٠) ، الترمذي. الإيمان (٥/ ٢٦) ح(٢٦٤٣).

(٢) ب (فبضله).

(٣) بيتي الشعر : طريق الهجرتين ١/ ٤٧٠ ، بدائع الفوائد ٢/ ٣٩٠ ، الوابل الصيب ٩٠ ، وقال محققه أورده الخطابي في العزلة عن الخزاعي.

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ط (شهوده).

(٥) شهود الحضرة : تقدم في تعريف الشهود وهو شهود المجمل في المفصل .

(٦) الأصل (النازل) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، س ، ق ، ط.

(٧) التجلي : سوف يأتي الحديث عنه قريباً في منزلة البسط.

(٨) الأصل (التخلي ، والتحلي) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، س ، ط ، وفي ق (التخلي).

تنفر من النور بالذات ، فصار[1] النزول عن الرسم حين التجلي ذاتياً.

ووجه كونه كسبياً : أنه نتيجة المقامات الكسبية ، ونتيجة الكسبيّ[2] ، وثمرته وإن حصلت ضرورة بالذات ،لم تمنع أن يطلق عليها كونها كسبية باعتبار السبب ، والله أعلم.

* * *

---

(١) أ زيادة (النور).

(٢) ط زيادة (كسبي).

فصل[1]

منزلة الفتوة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الفتوة»[2].

هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلىٰ الناس، وكف الأذىٰ عنهم، واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

الفرق بين المروءة والفتوة

والفرق بينهما وبين المروءة أن المروءةَ أعمُّ منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة، فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلىٰ غيره، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به، أو متعلق بغيره.

---

(١) في حاشية الأصل (باب التواضع).

(٢) الفتوة: لغة: فتاً، والفتاء الشباب، والفعل (فَتُوَ يفتو فتاء)، لسان العرب ١٥/ ١٤٥، وهي عند الطائفة أن لا تشهد لنفسك فضلاً ولا ترىٰ حقاً وهي فوق التواضع، وهي اسم جامع لمعانٍ جميلة، وخصال حميدة، وهذه فتوة التخلق كالسخاء والجود، أما فتوة التحقق، فهي أن لا تتعلق بسيرك إلىٰ ربك علىٰ الدليل، لا من عقل ولا نقل ـ وهذا غاية الفساد في تعريف الفتوة ـ وهي في الجملة أحد مكارم الأخلاق التي يتناصحون بها، هذا في جانب التخلق وهي: الحض علىٰ المثالية، والنجدة والإغاثة. انظر: المقدمة في التصوف (٤٨)، لطائف الإعلام (٢/ ١٩٥ - ١٩٧)، معجم مصطلحات الصوفية (٢٠٤)، منارات السائرين (ص٤٦٠)، الرسالة القشيرية (٣٣٧)، التعريفات للجرجاني (٢/ ٢١٢)، الفتاوىٰ (١١/ ٨٢، ٩٠)، الحركة الصوفية (١٥٧).

و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

فهي ثلاث منازل: منزلة التخلّق وحسن الخلق، ومنزلة الفتوة، ومنزلة المروءة، وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة»؛ بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ «**إن الله بعثني بتمام**(١) **مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال**»(٢).

معنى الفتوة والأقوال فيها

و(٣)أصل «الفتوة» من «الفتىٰ» وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالىٰ

(١) الأصل (لتمام) وما أثبته من رواية الطبراني في الأوسط.

(٢) أخرجه من حديث جابر: الطبراني في الأوسط (٧/ ٤٧)، وفي الكبير رقم(٦٨٩١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٣١) رقم(٧٩٧٩)، وضعفه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٨)، وعزاه للطبراني وقال فيه عمر بن إبراهيم القرشي ضعيف، وضعفه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٤٥)، وقال لكن معناه صحيح، وأخرجه من رواية أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وفي التاريخ الكبير (٧/ ١٨٨)، والطحاوي في مشكل الآثار رقم(٤٤٣٢)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٣٣٣)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢)، وأكثر الروايات بلفظ «صالح الأخلاق»، وبعضها بلفظ «مكارم»، وصححه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٣)، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٤٣) (٩/ ١٥) رجاله رجال الصحيح وتبعه السخاوي في المقاصد الحسنة (ص١٢٢)، وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٣٣٣) هو متصل صحيح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً.

(٣) (الواو) سقطت من ق.

عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ(١) ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، وقال عن قوم إبراهيم: - إنهم قالوا فيه(٢) - ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ(٣) يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وقال تعالىٰ عن يوسف عليه السلام(٤): ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦] ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢].

فاسم «الفتىٰ» لا يشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدث، ولذلك لم يجيء اسم «الفتوة» في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق.

وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبداً في أمر غيره.

وأقدم من علمته تكلم في «الفتوة» جعفر بن محمد، ثم الفضيل بن عياض، والإمام أحمد، وسهل بن عبدالله، والجنيد، ثم الطائفة.

فيذكر أن جعفر بن محمد(٥) سئل عن الفتوة؟ فقال للسائل: ما تقول أنت؟

---

(١) أ، ب، غ، م (قال عند قوله ﴿ فتية.. ﴾ الآية) ولم يكمل الآية.

(٢) ق (عنه).

(٣) أ، ب، غ، م (قال هنا الآية).

(٤) (عليه السلام) سقطت من بقية النسخ.

(٥) جعفر بن محمد الخلدي، أبو محمد الخواص، نشأ في بغداد وصحب الجنيد وسمنون، توفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ، وكان مرجعاً للقوم في فهم حكاياتهم/ حلية الأولياء (١٠/ ٣٨١)، صفة الصفوة (٢/ ٢٦٤)، شذرات الذهب ٢/ ٣٧٨، الكواكب الدرية ٢/ ٥٦.

فقال : إن أُعطيت شكرت، وإن منعت صبرت، فقال : الكلاب عندنا كذلك[١] ، فقال السائل : يا ابن رسول الله ، فما الفتوة عندكم؟ فقال : إن أُعطينا آثرنا ، وإن منعنا شكرنا[٢].

وقال الفضيل بن عياض : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان[٣].

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه - في رواية ابنه عبدالله - عنه ، وقد سئل ما الفتوة[٤] ، فقال : ترك ما تهوىٰ لما تخشىٰ[٥].

ولا[٦] أعلم لأحد من الأئمة الأربعة كلاماً[٧] فيها سواه.

وسئل الجنيد عن الفتوة؟ فقال : أن[٨] لا تنافِر فقيراً ، ولا تعارض غنياً[٩].

---

(١) ب (لذلك).

(٢) الرسالة القشيرية ٣٣٩ ، وأورده أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٧ عن إبراهيم بن أدهم حينما سأله شقيق البلخي.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٤٢ بلفظ قريب من هذا ، وفي مقدمة التصوف عن الثوري «العفو عن زلل الإخوان» ٤٨ ، في لطائف الإعلام «الفتوة التغافل عن الزلة» ٢/ ١٩٥ ، آداب الصحبة ٤٦ ، إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٧ ، وفي طبقات الصوفية للسلمي عن عمرو المكي ٢٠٢.

(٤) ش ، ب (عن الفتوة).

(٥) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، وذكره شيخ الإسلام عن الإمام أحمد في الفتاوىٰ ١١/ ٨٤ ، وابن القيم في روضة المحبين ٣٣٠ ، وفي الروح ٢٧ ، وفي عدة الصابرين ٦٥.

(٦) م (فلا).

(٧) (كلاماً) سقطت من ط.

(٨) (أن) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٩) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

وقال الحارث المحاسبي : الفتوة أن تنصف ولا تنتصف[1].

وقال عمر بن عثمان المكي : الفتوة حسن الخلق[2].

وقال محمد بن علي الترمذي[3] : الفتوة أن تكون خصماً لربك علىٰ نفسك[4].

وقيل : الفتوة أن لا ترىٰ لنفسك فضلاً علىٰ غيرك[5].

وقال الدقاق : هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسي نفسي ، وهو يقول «أمتي أمتي»[6].

وقيل : الفتوة كسر الصنم الذي بينك وبين الله تعالىٰ ، وهو نفسك ، فإن الله حكىٰ عن خليله إبراهيم- عليه السلام - : أنه جعل الأصنام جذاذاً ، فكسر

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، مجموعة آثار السلمي ٢/ ٢٢٥ ، في حلية الأولياء «أداء الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف» ١٠/ ٢٣٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٣٨ وفي طبقات الأولياء عزاه لأبي عثمان الحيري ١٩١ وفي طبقات الصوفية ٥٠٦.

(٣) محمد بن علي الترمذي ، الملقب بالحكيم الترمذي ، من كبار مشايخ خراسان/ صفة الصفوة (٤/ ١٤٦) ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٣) ، طبقات الشعراني (١/ ٩١).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٣٧ ، نحوه في حلية الأولياء في وصية ذي النون ٩/ ٣٨٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٣٧ ، وفي التعاريف «أن يؤثر الخلق علىٰ نفسه في الدنيا والآخرة» ٢/ ٥٥٠.

(٦) الرسالة القشيرية ٣٣٧ وحديث الشفاعة في البخاري. التفسير ٣/ ٢٥٠ ح ٤٧١٢ ، مسلم. الإيمان ١/ ١٨٣ ح ١٩٣.

الأصنام له ، فالفتىٰ من كسر صنماً واحداً في الله[١].

وقيل الفتوة أن لا تكون خصماً لأحد ، يعني في حفظ[٢] نفسك ، وأما في حق الله فالفتوة : أن تكون خصماً لكل أحد[٣] ، ولو كان الحبيبَ المصافيا.

وقال الترمذي : الفتوة أن يستوي عندكم المقيم والطارئ[٤].

وقال بعضهم : الفتوة أن لا يميز بين[٥] أن يأكل عنده ولي أو كافر[٦].

وقال الجنيد - رحمه الله[٧] - أيضاً : الفتوة كف الأذىٰ وبذل الندىٰ[٨].

وقال سهل - رحمه الله[٩] - : هي اتباع السنة[١٠] ، وقيل : هي الوفاء

(١) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، ذم الهوىٰ ص٢٧ ، روضة المحبين ٤٨٢.

(٢) ق (خط) ، ش (خصماً).

(٣) غ (واحد).

(٤) الرسالة القشيرية ٣٣٨ وعزاه لمحمد بن علي الترمذي.

(٥) (بين) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، وهذا ليس علىٰ إطلاقه إذ لا بد من هدف صحيح ، وإلا فإن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي سعيد : «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي» أخرجه أبو داود في الأدب (٥/ ١٦٧) ح(٤٨٣٢) ، والترمذي. الزهد (٤/ ٦٠٠) ح(٢٣٩٥) ، وحسنه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٤٣) وقال صحيح علىٰ شرطهما ولم يخرجاه ، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣١٤).

(٧) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٨) الرسالة القشيرية ٣٣٨ ، القرطبي في التفسير ١٠/ ٣٦٤ وزاد : وترك الشكوىٰ.

(٩) (رحمه الله) سقطت من ط.

(١٠) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

والحفاظ[١].

وقيل[٢] : فضيلة تأتيها ، ولا ترىٰ نفسك فيها[٣] . وقيل : أن لا تحتجب ممن قصدك[٤].

وقيل : أن لا تهرب إذا أقبل العافي يعني طالب المعروف . وقيل : إظهار النعمة وإسرار المحنة . وقيل : أن لا تدخر ولا تعتذر[٥].

وقيل : تزوج رجل بامرأة ، فلما دخلت عليه رأىٰ بها الجدري ، فقال : اشتكيت عيني ، ثم قال : عميت ، فبعد عشرين سنة ماتت[٦] ، ولم تعلم أنه بصير ، فقيل له في ذلك فقال ، كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها ، فقيل له : سبقت الفتيان[٧].

وقيل : ليس من الفتوة أن تربح علىٰ صديقك.

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

(٢) م (هي).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٣٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٣٩.

(٥) ذكر السلمي في مبحث الفتوة جملة من الأقوال دون نسبة تشتمل علىٰ كثير مما ذكر هنا ، انظر المقدمة في التصوف ٥٠ ، وكذا في الرسالة القشيرية ٣٣٨-٣٤٠.

(٦) ق (مات).

(٧) الرسالة القشيرية ٣٣٩.

واستضاف رجل جماعة[1] من الفتيان ، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء علىٰ أيديهم ، فانقبض واحد منهم ، وقال : ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء علىٰ أيدي الرجال ، فقال آخر منهم : أنا منذ سنين أدخل إلىٰ هذه الدار ، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء علىٰ أيدينا أو رجلاً[2].

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتىً ، فقال الرجل : يا غلام قدم السفرة ، فلم يقدم فقالها ثانياً وثالثاً فلم يقدم[3] ، فنظر بعضهم إلىٰ بعض ، وقالوا ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل[4] من يتعاصىٰ عليه في تقديم السفرة كل هذا ، فقال الرجل : لم أبطأت السفرة؟ فقال الغلام : كان عليها نمل ، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلىٰ الفتيان مع النمل ، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم[5] عن الزاد ، فلبثت حتىٰ دب النمل ، فقالوا : مثلك يا غلام يخدم الفتيان[6].

ومن الفتوة التي لا تلحق : ما يذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة ، ففقد همياناً[7] فيه ألف دينار ، فقام فزعاً ، فوجد جعفر بن محمد فعلق به ،

---

(١) الأصل (بجماعة) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٤٠.

(٣) في الأصل (فلم يقدم) جاءت بعد قوله :(ثانياً) والمثبت أقرب كما في أ ، ب ، غ ، ق ، ط.

(٤) ب (رجل).

(٥) ش (طردها).

(٦) الرسالة القشيرية ٣٤١.

(٧) همياناً : الهميان : كيس النفقة يُشد علىٰ الوسط ، المعجم الوسيط ٢/ ٩٩٦ ، في النهاية غريب الحديث (هي المنطقة والتكة وهو موضع عقد الإزار) ص٥/ ٢٧٥.

وقال أخذت همياني ، فقال : أي شيء[١] كان فيه؟ قال : ألف دينار ، فأدخله داره ووزن له ألف دينار ، ثم إن الرجل وجد هميانه ، فجاء إلىٰ جعفر معتذراً بالمال ، فأبىٰ أن يقبله منه ، وقال : شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبداً ، فقال الرجل للناس : من هذا؟ فقالوا[٢] : هذا جعفر بن محمد رضي الله عنهما[٣][٤].

فصل

قال صاحب «المنازل» -رحمه الله[٥]- :

«نُكتةُ الفُتوةِ : أَن لا تَشهَدَ لَكَ فَضلاً ، وَلا تَرىٰ لَكَ حَقّاً»[٦].

يقول : قلب الفتوة ، وإنسان عينها : أن تفنىٰ بشهادة نقصك ، وعيبك عن فضلك وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.

والناس في هذا مراتب ، فأشرفها : أهل هذه المرتبة ، وأخسها عكسهم ، وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم ، وشهود[٧] حقوقهم علىٰ

---

(١) الأصل (إيش) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

(٢) ب (قالوا).

(٣) غ ، أ ، م (عنه) ، ب (عنهم).

(٤) صفة الصفوة ٢/ ٢٦٠ ، وفيه أبو حازم المعلىٰ بن سعيد البغدادي ، وابن الجوزي أورده من رواية محمد بن جرير الطبري ثم ذكر القصة مرة أخرىٰ لكن عن شخص آخر ٤/ ٤٠١.

(٥) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٦) منازل السائرين ٤٧.

(٧) ق (وبشهود).

الناس عن[1] حقوق الناس عليهم.

وأوسطهم: من شهد هذا وهذا، [2]يشهد ما فيه من العيب[3] والكمال، ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم.

درجات الفتوة

قال: «وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ الأُولَىٰ: تَرْكُ الخُصُومَةِ، وَالتَّغَافُلُ عَنِ الزَّلَّةِ، وَنِسْيَانُ الأَذِيَّةِ»[4].

الدرجة الأولى

هذه الدرجة من باب الترك والتخلي، وهي أن لا يخاصم[5] أحداً، فلا ينصب[6] نفسه خصماً لأحد غيرها، فهي خصمه.

وهذا المنزل[7] أيضاً ثلاث درجات، لا يخاصم بلسانه، ولا ينوي الخصومة بقلبه ولا يخطرها علىٰ باله، هذا في حق نفسه.

وأما في حق ربه: فالفتوة أن يخاصم بالله[8]، وفي الله، ويحاكم إلىٰ الله، كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «وبك خاصمت، وإليك

---

(١) أ، ب، غ، ق، ط زيادة (شهود).

(٢) أ، ب، غ، ط زيادة (الفاء).

(٣) أ، ب، غ، ط (ما في).

(٤) منازل السائرين ٤٨.

(٥) الأصل (تخاصم) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٦) الأصل (تنصب) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ق، ط.

(٧) ق (وهذه المنزلة).

(٨) أ، ب، غ (في الله وبالله).

حاكمت»[١] ، وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة[٢] إلىٰ الله تعالىٰ ، وأما التغافل عن الزلة فهو أنه إذا رأىٰ من أحد زلة يوجب عليه الشرع أخذه بها ، أظهر أنه لم يرها لئلا يعرض صاحبها للوحشة ويريحه من تحمل العذر.

وفتوة التغافل : أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية[٣].

قال أبو علي الدقاق- رحمه الله[٤] - : جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة؟ فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة ، فخجلت فقال حاتم : ارفعي صوتك ، فأوهمها أنه أصم ، فَسُرَّت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فلقب[٥] بحاتم الأصم وهذا التغافل هو نصف الفتوة[٦].

وأما «نِسْيَانُ الأَذِيَّةِ» فهو أنك[٧] تنسىٰ أذية من نالك بأذىٰ، ليصفو قلبك[٨] ولا

---

(١) البخاري. التهجد (١/ ٣٤٩) ح(١١٢٠) ، مسلم. صلاة المسافرين (١/ ٥٣٣) ح(٧٦٩).

(٢) (التاء) سقطت من ش.

(٣) ومما قيل في موضوع التغافل ، قول عمرو بن عثمان المكي : « المروءة التغافل عن زلل الإخوان » شعب الإيمان ٦/ ٣٣٠ ، وقال سفيان : « ما زال التغافل من فعل الكرام » عون المعبود ١٠/ ١٢٩ ، وقال الإمام أحمد : « العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل » تهذيب الكمال ١٩/ ٣٧٠.

(٤) (رحمه الله) سقطت من جميع النسخ.

(٥) أ ، ب ، غ (ولقب).

(٦) تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٤.

(٧) ط (بأن) بدل (أنك).

(٨) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط زيادة (له).

تستوحش منه.

قلت : وهنا نسيان آخر أيضاً ، وهو من الفتوة ، وهو نسيان إحسانك إلىٰ من أحسنت إليه ، حتىٰ كأنه لم يصدر منك ، وهذا النسيان أكمل من الأول ، وفيه قيل(١) :

يَنسَىٰ صَنَائعَه ، واللهُ يظْهِرُها   إنَّ الجَمِيلَ إذا أخْفَيتَهُ ظَهَرا(٢)

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ تُقَرِّبَ مَن يُقْصِيكَ ، وَتُكَرِّمَ مَنْ يُؤْذِيكَ ، وَتَعْتَذِرَ إِلىٰ مَنْ يَجْنِي عَلَيكَ ، سَمَاحَةً لَا كَظْماً ، وَمَوَدَّةً(٣) لاَ مُصَابَرَةً(٤)»(٥).

هذه الدرجة أعلىٰ مما قبلها وأصعب ، فإن الأولىٰ : تتضمن ترك المقابلة والتغافل ، وهذه تتضمن الإحسان إلىٰ من أساء إليك ، ومعاملته بضد ما عاملك به ، فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين، فخطتك: الإحسان ، وخطته : الإساءة وفي مثلها قال القائل :

---

(١) م (كما قيل).

(٢) القائل سهل بن هارون ، انظر أدب الدنيا والدين ٢٤٧.

(٣) ط (مودة) ، المنازل (وبراحاً) ، وفي هامش طبعة رشيد رضا قال : في نسخة المتن - ولعله المنازل - (تواداً)٢/ ١٩٣.

(٤) أ (لا صبراً).

(٥) منازل السائرين (٤٨).

إذا مَرِضْنا أَتيناكُم نعُودُكم وتُذْنبون ، فنأتِيكُم[١] ونَعْتذِرُ[٢]

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي ، فلينظر إلىٰ سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها[٣] هذه بعينها ، ولم يكن[٤] كمال هذه الدرجة لأحد سواه ، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة ، وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني[٥] مثله لأعدائه ، وخصومه[٦].

وما رأيته يدعو علىٰ أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه ، وأشدّهم عداوة وأذىٰ له ، فنهرني وتنكّر لي واسترجع ، ثم قام من فوره إلىٰ بيت أهله فعزّاهم ، وقال : أنا[٧] لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلىٰ مساعدة إلا وساعدتكم فيه[٨] ،

---

(١) أ ، ب ، غ (ونأتيكم).

(٢) القائل : المؤمل بن أميل المحاربي ، معجم الشعراء (ص٣٨٥) ، ورواية البيت (فنعتذر).

(٣) الأصل (تجدها) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ط.

(٤) ق (تكن).

(٥) الأصل (أنّ) والصحيح ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ط.

(٦) ومما قال بعض خصومه : « ما رأينا مثل ابن تيمية حرّضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا ».

انظر : البداية والنهاية ١٤/ ٥٣ ـ ٥٥.

(٧) ط (إني).

(٨) م (عليه).

ونحو هذا[1] الكلام ، فسروا به[2] ودعوا له ، وعظّموا هذه الحال منه[3] ، وهذا مفهوم.

إلا[4] [الاعتذار إلىٰ من يجني عليك فإنه غير مفهوم][5] في بادي الرأي ، إذ لم يصدر منك جناية توجب اعتذاراً ، وغايتك : أنك لا تؤاخذه ، فهل تعتذر إليه من تلك المؤاخذة.

ومعنىٰ هذا : أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه ، والجاني خليق بالعذر.

والذي يُشهدك هذا المشهد : أن[6] تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنب ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ[7]﴾[الشورىٰ : ٣٠].

فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله[8] منك علىٰ يده : كنت في الحقيقة أولىٰ بالاعتذار.

والذي يهوِّن عليك هذا كله : مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة ،

---

(١) م ، أ ، ب ، ق زيادة (من) ، ط (هذا من).

(٢) ق (بذلك) بدل (به).

(٣) ق زيادة (فرحمه الله ورضي عنه).

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ط (وأما) بدل (إلا).

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٦) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (أنك).

(٧) ط زيادة (ويعفو عن كثير).

(٨) ط (بالله).

فعليك بها، فإن فيها كنوز المعرفة والبر.

وقوله: «سَمَاحَةً لا كَظْماً، وَتَوَاداً[1] لا[2] مُصَابَرَةً».

يعني: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة، وطيبة نفس، وانشراح صدر، لا عن كظم، وضيق ومصابرة، فإن ذلك دليل علىٰ أن هذا ليس في خلقك، وإنما هو تكلف يوشك أن يزول، ويظهر حكم الخلق[3] فتفتضح، وليس المقصود إلا إصلاح[4] الباطن والسر والقلب.

وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور علىٰ جسر المصابرة والكظم فحينئذ[5] إذا تمكن فيه[6] أفضىٰ به إلىٰ هذه المنزلة بعون الله[7].

فصل

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ لا تَتَعَلَّقَ فِي السَّيرِ بِدَلِيلٍ، وَلا تَشُوبَ إِجَابَتَكَ بِعِوَضٍ[8]، وَلا تَقِفَ فِي شُهُودِكَ عَلَىٰ رَسْمٍ»[9].

---

(١) أ، ب، غ (موادة)، ط (مودة).

(٢) ط زيادة (الواو) أي (ولا).

(٣) ط زيادة (صريحاً).

(٤) ش سقطت (الألف) من (صلاح).

(٥) (فحينئذ) سقطت من ط وفيها (فإذا) بدل (إذا).

(٦) أ، ب، غ، ط (منه).

(٧) ق، ط زيادة (والله أعلم).

(٨) ب (تعويض).

(٩) منازل السائرين ٤٨.

هذه ثلاثة أمور اشتملت عليها هذه الدرجة.

فأما[١] عدم تعلقه في السير بدليل : فقد بين مراده[٢] به في آخر الباب ، إذ يقول : «وَفِي عِلمِ الخُصُوصِ : مَنْ طَلَبَ نُورَ الحَقِيقَةِ عَلَىٰ قَدَمِ[٣] الاستِدلالِ[٤] لَمْ يَحِلَّ لَهُ دَعوَىٰ الفُتوةِ أَبَداً»[٥].

وهذا موضع عظيم يحتاج إلىٰ تبيين وتقدير[٦].

والمراد : أن السائر إلىٰ الله يسير علىٰ قدم اليقين ، وطريق البصيرة والمشاهدة فوقوفه مع الدليل[٧] ، دليل علىٰ أنه لم يَشُمّ رائحة اليقين ، والمراد بهذا : أن المعرفة عندهم[٨] ضرورية لا استدلالية ، وهذا هو الصواب ، ولهذا لم تَدْعُ الرسل قط الأمم إلىٰ الإقرار بالصانع سبحانه وتعالىٰ ، وإنما دعوهم إلىٰ عبادته وتوحيده ، وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالىٰ ، ولا هو محتاج إلىٰ الاستدلال عليه[٩] ، ولهذا ﴿ قَالَتْ[١٠] رُسُلُهُمْ

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط سقطت (الفاء).

(٢) ق (أموره).

(٣) ق (طلب).

(٤) أ ، ب (استخداء) و م ، غ (استحذاء) و ق (الاستخذاء).

(٥) منازل السائرين ٤٨.

(٦) ق (تقرير).

(٧) الأصل وغيرها (دليل) والأقرب ما أثبته من ط ، وطبعة رشيد رضا ٢/ ١٩٤.

(٨) حاشية م (عندك).

(٩) (عليه) سقطت من ش.

(١٠) جميع النسخ سوىٰ ط زيادة (لهم) والصحيح حذفها كما هو في القرآن الكريم.

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وكيف يصح الاستدلال علىٰ مدلول هو[١] أظهر من دليله؟ حتىٰ قال بعضهم: كيف أطلب الدليل علىٰ من هو دليل علىٰ كل شيء؟ فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل علىٰ عدم يقينه، بلىٰ[٢] إنما يتقيد بالدليل الموصل له إلىٰ المطلوب بعد معرفته به، فإنه يحتاج بعد معرفته به[٣] إلىٰ دليل يوصله إليه، ويدله علىٰ طريق الوصول إليه، وهذا الدليل: هو الرسول ﷺ، فهو موقوف عليه يتقيد به، لا يخطو خطوة إلا وراءه.

وأيضاً[٤] فالقوم يشيرون إلىٰ الكشف، ومشاهدة الحقيقة، وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلاً، ولا يقال: ما الدليل علىٰ حصول هذا؟ وإنما يحصل بالسلوك في منازل السير، وقطعها منزلة منزلة، حتىٰ يصل إلىٰ المطلوب، فوصوله إليه بالسير لا بالاستدلال،[٥] بخلاف وصول المستدل، فإنه إنما يصل إلىٰ العلم، ومطلوب القوم وراءه، والعلم منزلة من منازلهم - كما سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالىٰ - ولهذا يُسمون أصحاب الاستدلال: أصحاب القال، وأصحاب الكشف: أصحاب الحال، والقوم عاملون علىٰ الكشف الذي

(١) أ، ب زيادة (الواو) أي (وهو).

(٢) ط (بل).

(٣) (به) سقطت من أ، ب، غ، ط.

(٤) ق (فإن).

(٥) ق زيادة (لا).

يحصل بنور العيان، لا علىٰ العلم الذي ينال بالاستدلال والبرهان[1].

وهذا موضع غلط واشتباه، فإن الدليل في هذا المقام شرط، و[2]كذلك العلم وهو باب لا بد من دخوله إلىٰ المطلوب، ولا يوصل إلىٰ المطلوب إلا من بابه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

ثم إنه يُخاف علىٰ من لا يقف مع[3] الدليل ما هو أعظم الأمور[4]، وهو الانقطاع عن المطلوب[5] بالكُلِّية، والوصول إلىٰ مجرد الخيال والمحال، فمن خرج عن الدليل: ضلّ[6] سواء السبيل.

---

(١) قال شيخ الإسلام معلقاً علىٰ أحوال بعض الصوفية: «فالمخاطبات كدلالة النصوص والإشارات كدلالة القياس..» الاستقامة ١/ ٣٩٠، وهذا مستمد من مذهب أفلاطون والغنوصيين إذْ الألفاظ عندهم ظل شاحب، وأن المعرفة الحقة لا تدرك إلا بالتأمل الباطن العميق، والنصوص العلمية عند الفلاسفة الصوفية حجاب يمنع الحقائق، أما الكشف والمشاهدة فهي رافعة للشك والظن، فحل علم القلوب التأملي الباطن محل العلم المستمد من الكتاب والسنة، انظر في ذلك الفتوحات المكية ٤/ ٣٠٤، طبقات الشعراني ١/ ٥، انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/ ٤٨٠، وانظر ملخص ذلك في نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها. عرفان فتاح ص٧٧ـ٧٩.

(٢) م (لذلك).

(٣) الأصل (علىٰ) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ق، م، ش، ط.

(٤) ط زيادة (وأشدها خطراً).

(٥) أ، ب، غ، ط (الطلب).

(٦) م زيادة (عن) وكذا حاشية غ و (ضل) ساقطة من ق.

فإن قيل : تعلقه في السير[١] بالدليل : يفرق عليه عزمه وقلبه ، فإن الدليل يفرق والمدلول يجمع ، فالسالك يقصد الجمعية علىٰ المدلول ، فما له[٢] ولتفرقة الدليل؟.

قيل : هذه هي البلية التي لأجلها أعرض من أعرض من السالكين عن العلم ونهىٰ عنه، وجعله[٣] علة[٤] في الطريق ، ووقع في زمن الشيوخ القدماء العارفين فأنكروه غاية الإنكار ، وتبرّؤوا منه ومن قائله ، وأوصوا بالعلم ، وأخبروا أن طريقهم مقيدة بالعلم ، لا يفلح فيها من لم يتقيد بالعلم ، والجنيد كان من أشد الناس مبالغة في الوصية بالعلم ، وحثاً لأصحابه عليه[٥].

والتفرق في الدليل خير من الجمعية علىٰ الوهم والخيال ، فإنه لا يعرف كون الجمعية حقاً[٦] إلا بالدليل والعلم ، فالدليل والعلم ضروريان للصادق ، لا يستغني عنهما.

نعم بيِّنتُه[٧] ونورُ بصيرتِه وكشفُه : يغنيه عن كثير من الأدلة التي يتكلفها

(١) أ ، ب ، غ ، ط (المسير).

(٢) ق (فما باله).

(٣) غ ، ط (جعلت).

(٤) (علة) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٥) نقل وصية الجنيد بالعلم شيخ الإسلام في الاستقامة ٢/ ١٤١ ، ولشيخ الإسلام كلام نفيس حول هذه المسألة ، انظر العقيدة الأصفهانية ٢/ ١٤٧.

(٦) ق زيادة (أو باطلاً).

(٧) أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ق ، ط (يقينه).

المتكلمون[١] وأرباب القال ، فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها ، وهو الغاية المطلوبة.

مثاله : أن المتكلم يفني زمانه في تقرير حدوث العالم ، وإثبات وجود الصانع ، وذلك أمر مفروغ منه عند السالك الصادق صاحب اليقين ، فالذي يطلبه هذا بالاستدلال - الذي هو عرضه الشبه ، والأسئلة ، والإيرادات التي لا نهاية لها - هو كشف ويقين للسالك ، فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع ، وخروج عن الفتوة.

وهذا حق لا ينازع فيه عارف ، فترىٰ المتكلم يبحث في الزمان والمكان ، والجواهر والأعراض ، والأكوان ، وهمته مقصورة عليها لا يعدوها ليصل[٢] منها إلىٰ المكون وعبوديته ، والسالك قد جاوزها إلىٰ جمع القلب علىٰ المكون وعبوديته بمقتضىٰ أسمائه وصفاته ، لا يلتفت إلىٰ غيره ، ولا يشتغل قلبه بسواه.

فالمتكلم متفرق[٣] مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعاً في غير السير إلىٰ رب الزمان والمكان.

وبالجملة : فصاحب هذه الدرجة لا يتعلق في سيره بدليل ، ولا يمكنه السير إلا خلف الدليل ، وكلاهما يجتمع في حقه ، فهو لا يفتقر إلىٰ دليل علىٰ

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (المتكلفون).

(٢) ق ، ش (ليصعد) وهي كذلك في حاشية م.

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (مستغرق).

وجود المطلوب ولا يستغني طرفة عين عن دليل يوصله إلىٰ المطلوب ، فسير الصادق علىٰ البصيرة واليقين والكشف ، لا علىٰ النظر والاستدلال(١).

وأما قوله : «وَلا تَشُوبَ إِجَابَتَكَ بِعِوَضٍ».

أي تكون إجابتك لداعي الحق خالصة ، إجابة محبة ورغبة ، وطلب للمحبوب ذاته غير مشوبة بطلب من الحظوظ والأعواض ، فإنه متىٰ حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ(٢) وكل قسم ، كما في الأثر الإلهي : «ابن آدم، اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كلّ شيء، وإن فُتّك(٣) فاتك كل شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء»(٤).

فمن أعرض عن طلب(٥) ما سوىٰ الله ، ولم يشب طلبه له بعوض ، بل كان حُبّاً له ، وإرادة خالصة لوجهه ، فهو في الحقيقة الذي يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلها ، فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه ، توفرت عليه في حصولها ، وهو(٦) محمود مشكور مقرب ، ولو كانت هي مطلوبة لنقصت عليه

---

(١) قوله : «علىٰ البصيرة واليقين» تدل علىٰ ضرورة اتباع الدليل فهما لا يحصلان إلا به ، ولعل نفيه النظر والدليل يكفي عنه ما سبق من تعليق ، وهو أنه لا يحتاج إلىٰ دليل في معرفة الخالق ووجوده.

(٢) ط زيادة (به).

(٣) ب (فاتك ، فاتك).

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٢ ، ٤/ ٢٣٩ ، جامع العلوم والحكم ٣٦٢.

(٥) ب زيادة (كل).

(٦) غ (وهي).

بحسب اشتغاله بطلبها وإرادتها عن طلب الرب تعالىٰ لِذاته وإرادته.

فهذا قلبه ممتلئ بها [والحاصل له منها : نزر(١) يسير ، والعارف ليس قلبه متعلقاً بها وقد حصلت له كلها ، فالزهد](٢) فيها لا يُفتكَهَا ، بل هو عين حصولها ، والزهد في الله هو الذي يفيتكه ويفيتك الحظوظ ، وإذا كان لك أربعة عبيد(٣) ، أحدهم يريدك ولا يريد منك؛ بل إرادته مقصورة عليك وعلىٰ مرضاتك ، والثاني يريد منك ولا يريدك؛ بل إرادته مقصورة علىٰ حظوظه منك، والثالث يريدك ويريد منك ، والرابع لا يريدك ولا يريد منك؛ بل هو متعلق القلب ببعض عبيدك ، فله يريد ومنه يريد ، فإنّ آثَرَ العبيد عندك و(٤)أحبّهم إليك وأقربهم منك منزلة ، والمخصوص من إكرامك و(٥)عطائك بما لا يناله(٦) العبيد الثلاثة : هو الأول و(٧)هكذا نحن عند الله سواء.

وأما قوله : «وَلاَ تَقِفَ فِي شُهُودِكَ عَلَىٰ رَسْمٍ».

«(٨) أي لا يكون منك نظر إلىٰ السوىٰ عند الشهود »(٩) ، كما تقدم مراراً.

---

(١) ب (نزل).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٣) أ (عبيد أربعة).

(٤) (الواو) سقطت من أ ، ب.

(٥) م ، أ ، ب زيادة (الألف).

(٦) ش (تنال).

(٧) (الواو) سقطت من بقية النسخ.

(٨) ط (فيعني أن لا يكون).

(٩) موضوع الشهود والفناء عن السوىٰ تقدم (ص ١٦٦٤، ١٧٢٣، ١٧٢٧).

وهذا عند القوم غير مكتسب ، فإن الشهود إذا صحَّ محَا الرسومَ ضرورةً في نظر الشاهد ، فلا حاجة إلىٰ أن يشرط عليه عدم الوقوف عليها[١] ، والشهود الصحيح ماحٍ لها بالذات؛ لكن أوله قد لا يستغني عن الكسب ، ونهايته لا تقف علىٰ كسب.

قال : «وَاعلَمْ أَنَّ مَنْ أَحوجَ عَدُوَّهُ[٢] إِلىٰ شَفَاعَةٍ ، وَلَمْ يَخْجَلْ مِن المَعْذِرَةِ إِلَيهِ : لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الفُتوةِ»[٣].

يعني أن العدو متىٰ علم أنك متألم من جهة ما نالك من الأذىٰ منه احتاج إلىٰ أن يعتذر إليك[٤] ، ويُشَفِّع إليك[٥] شافع[٦] يزيل ما في قلبك منه ، فالفتوة كل الفتوة : أن لا تحوجه إلىٰ الشفاعة ، بأن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته ، ولا تطوي عنه بشرك ولا بِرَّك ، وإذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر لم يكن لك في الفتوة نصيب.

ولا تستعظم هذا الخلق ، فإن في الفتيان[٧] ما هو أكبر[٨] منه ولا تستصعبه ،

---

(١) (عليها) سقطت من ق.

(٢) ش (عدوك).

(٣) منازل السائرين (٤٨).

(٤) الأصل (إليه) والأقرب ما أثبته من ق ونسخة رشيد رضا (ص٢/ ١٩٦).

(٥) (إليك) سقطت من أ ، ب ، غ.

(٦) ط (شافعاً).

(٧) غ (فإن الفتيان) ، ط (فإن للفتيان).

(٨) ش (أكثر).

فإنه موجود[1] في كثير من الشطار[2] والعشراء[3][4] الذين ليس لهم في حال المعرفة ولا في لسانها نصيب، فأنت أيها العارف أولىٰ به.

قال: «وَفِي[5] عِلْمِ الخُصُوصِ: مَنْ طَلَبَ نُورَ الحَقِيقَةِ عَلَىٰ قَدَمِ الاستِدلَالِ: لَمَ يَحِل لَهُ دَعْوَىٰ الفُتُوَّةِ أَبَداً»[6].

كأنه يقول: إذا لم تحوج عدوك إلىٰ العذر والشفاعة، ولم تكلّفه[7] طلب الاستدلال علىٰ صحة عذره، فكيف تحوج وليك وحبيبك إلىٰ أن يقيم لك الدليل علىٰ التوحيد والمعرفة، ولا تشير إليه حتىٰ يقيم لك دليلاً علىٰ وجوده ووحدانيته، وقدرته ومشيئته؟ فأين هذا من درجة الفتوة؟.

وهل هذا إلا خلاف الفتوة من كل وجه؟.

ولو أن رجلاً دعاك إلىٰ داره، فقلت للرسول: لا آتي معك حتىٰ تقيم الدليل علىٰ وجود من أرسلك، وأنه مطاع، وأنه أهل أن يغشىٰ بابه، لكنت[8]

---

(١) ب (موجب) وفي هامشها (موجود).

(٢) الشطار: الشاطر الذي أعيا أهله خُبثاً، مختار الصحاح ٣٣٧.

(٣) (العشراء) سقطت من غ.

(٤) العشراء: اعتشر القوم، تخالطوا وتصاحبوا، من العشرة والمخالطة، المعجم الوسيط ٢/ ٦٠٢.

(٥) في المنازل (ثمّ في)

(٦) منازل السائرين ٤٨.

(٧) الأصل (يكلفه) والأقرب ما أثبته من ق ونسخة رشيد رضا ٢/ ١٧٩.

(٨) ط (لسكنت).

في دعوىٰ الفتوة زنيماً[1] فكيف بمن وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته وإلهيته: أظهر من كل دليل تطلبه؟ فما دليل يستدل به، إلا ووحدانية الله وكماله أظهر منه، فإقرار الفطر بالرب سبحانه خالق العالم: لم يوقفها عليه[2] موقف، ولم تحتج فيه إلىٰ نظر واستدلال ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] فأبعد الناس من درجة الفتوة: طالب الدليل علىٰ ذلك.

وليس يَصحُّ في الأذهان شَيءٌ   إذا احتاج النَّهارُ إلىٰ دَلِيلِ[3].

* * *

(١) زنيماً: الزنيم المستلحق في قوم ليس منهم، مختار الصحاح ٢٧٦.

(٢) ط (عليها).

(٣) القائل المتنبي، انظر ديوانه بشرح العكبري (٣/ ٩٢)، وبشرح البرقوقي (٣/ ٢١٥) ولفظه (في الأفهام).

فصل(١)

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «المروءة»(٢). منزلة المروءة

و(٣) «المروءة» فعولة من لفظ المرْء ، كالفتوة(٤) من الفتىٰ ، والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها : اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم ، والشيطان الرجيم ، فإن في النفس ثلاثة(٥) دواع متجاذبة : داع يدعوها إلىٰ الاتصاف بأخلاق الشيطان : من الكبر والحسد والعلو ، والبغي ، والشر ، والأذىٰ ، والفساد ، والغش.

---

(١) في حاشية الأصل (منزلة المروءة).

(٢) المروءة : قوة للنفس ، مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدح شرعاً وعقلاً وعرفاً. وقيل هي إصلاح المال ، والرزانة في المجلس والغداء والعشاء بالفناء وقيل هي مجانبة اللذة، وقيل هي العفّة والحرفة، ومنها طلاقة الوجه والتودد للخلق وقضاء حوائجهم، وقيل الرياسة والفصاحة ، وفي لسان العرب هي كمال الرجولة ، وهذه المنزلة ذكرها ابن القيم وليست من منازل السائرين. انظر التعريفات ٢١٠ ، عيون الأخبار ١/ ٢٩٥ ، شعب الإيمان ٢/ ٢٧٥ ، ٣/ ١٨٣ ـ ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، لسان العرب ١/ ١٥٤. ومن المراجع التي جمعت جملة من المعاني/ عيون الأخبار ١/ ٢٩٥، شعب الإيمان ٢/ ٢٥٧ ،٣/ ١٨٣ ، التوقيف للمناوي ٢/ ٦٥٠ ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٩٣ ، حلية الأولياء ٢/ ٣٦ ، ٣/ ١٥٥.

(٣) (الواو) سقطت من ط.

(٤) في لسان العرب قال (المروءة) مرؤ الرجل يمرؤ مروءة فهو مريء علىٰ (فعيل) وتمرأ علىٰ (تفعّل) ١/ ١٥٥.

(٥) ب ، م (ثلاث).

وداع يدعوها إلىٰ أخلاق الحيوان، وهو[1] داعي الشهوة.

وداع يدعوها إلىٰ أخلاق الملك: من الإحسان، النُّصح، البِرّ، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بغض ذينك الداعيين، وإجابة[2] الداعي الثالث، وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية والمروءة والفتوة: كلها في عصيان الداعيين، وإجابة الداعي الثالث، كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقول، وخلق ابن آدم، وركّب فيه العقل والشهوة، فمن غلب عقله علىٰ شهوته: التحق بالملائكة، ومن غلبت شهوته عقله: التحق بالبهائم[3].

حقيقة المروءة وتعريفها

ولهذا قيل في حد المروءة: أنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدِّها: هي استعمال ما يجمل العبد ويزينه، وترك ما يدنِّسه ويشينه[4].

---

(١) ق (وهي).

(٢) الأصل (هذا) والأقرب حذفها كما في أ، ب، غ، ط.

(٣) نحوه شعب الإيمان ١/ ١٧٩، عدة الصابرين ١٥، مفتاح دار السعادة ١/ ١٠٤.

(٤) روضة القضاة للسمناني ١/ ٢٣٩.

وقيل المروءة استعمال كل خلق حسن، واجتناب كل خلق قبيح[١].

وحقيقة «المروءة» تجنب الدنايا[٢] والرذائل، من الأقوال والأخلاق والأعمال.

فمروءة اللسان[٣]: حلاوته وطيبته ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخُلُق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلاً وعرفاً[٤] وشرعاً.

ومروءة الجاه[٥]: بذله لمن يحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره وتوفيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك: فكترك[٦] الخصام والمعاتبة، والمطالبة والمماراة، والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك، وترك الاستقصاء في طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير، وهي ثلاث درجات.

---

(١) انظر التوقيف للمناوي ٢/ ٦٥٠.

(٢) ط (للدنايا).

(٣) الأصل وغيرها (الإنسان) والأقرب ما أثبته من ط.

(٤) (عرفاً) سقطت من أ، ب.

(٥) (الجاه) سقطت من أ، ب، غ.

(٦) أ، ب، غ، ط (فترك).

درجات المروءة

الدرجة الأولى

الدرجة الأولىٰ : مروءة المرء مع نفسه ، وهي أن يحملها سراً[1] علىٰ مراعاة[2] ما يجمل[3] ويزين ، وترك ما يدنس ويشين ، ليصير لها ملكة في العلانية ، فمن اعتاد[4] شيئاً في سره وخلوته : ملكه في علانيته وجهره[5] ، فلا يكشف عورته في الخلوة ، ولا يتجشَّأ بصوت مزعج ما وجد إلىٰ خلافه سبيلاً ، ولا يُخرج الرِّيح بصوت وهو يقدر علىٰ خلافه ، ولا يجشع[6] وينهم عند أكله وحده.

وبالجملة : فلا يفعل خالياً ما يستحي من فعله في الملأ ، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل ، ولا يكون إلا في الخلوة ، كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الدرجة الثانية

الدرجة الثانية : المروءة مع الخلق ، بأن يستعمل[7] معهم شروط الأدب والحياء ، والخلق الجميل ، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه[8] ، وليتخذ الناس مرآة لنفسه ، فكل ما كرهه ونفر عنه ، من قول أو فعل أو خلق ،

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (قسراً).

(٢) (مراعاة) سقطت من ط.

(٣) الأصل (يحمل) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٤) أ ، ب ، غ ، ط (أراد).

(٥) ط (جهره وعلانيته).

(٦) ب (يتجشع).

(٧) ط (يستعلم).

(٨) (لنفسه) سقطت من ش.

فليجتنبه[1] ، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص ، وسيئ الخلق وحسنه ، وعديم المروءة وغزيرها[2].

وكثير من الخلق[3] : يتعلم المروءة ، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روي[4] عن[5] بعض الأكابر : أنه[6] كان له مملوك سيئ الخلق ، فظٌّ[7] غليظ ، لا يناسبه ، فسئل عن ذلك؟ فقال : أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا[8] يكون بمعرفة مكارم الأخلاق من[9] ضد أخلاقه ، ويكون[10] بتمرين النفس علىٰ مصاحبته ومعاشرته ، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة : المروءة مع الحق سبحانه ، بالاستحياء من نظره إليك ، الدرجة الثالثة

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (فليتجنبه).

(٢) الأصل (وعزيرها) وفي ب (وعزيزها) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (الناس).

(٤) ق ، ش (رأىٰ).

(٥) الأصل (عند) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ط.

(٦) (أنه) سقطت من ش.

(٧) فظّ : الفظّ من الرجال الغليظ ، مختار الصحاح ٥٠٧.

(٨) (وهذا) سقطت من م.

(٩) أ ، ب ، غ ، ط (في).

(١٠) ب (بكون).

واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس ، و(١)بإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، فإنه قد اشتراها منك وأنت ساع في تسليم المبيع ، وتقاضي الثمن ، وليس من المروءة تسليمه علىٰ ما فيه من العيوب ، وتقاضي الثمن كاملاً ، أو رؤية شهود(٢) مننه(٣) في هذا الإصلاح ، وأنه هو المتولي له ، لا أنت ، فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة ، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلىٰ عيب غيرك ، وشهود الحقيقة عن رؤية فعلك وصلاحك.

وكل ما تقدم في منزلة «الخلق» و «الفتوة» فإنه بعينه في هذه المنزلة(٤) ، فلذلك اقتصرنا منها علىٰ هذا القدر ، وصاحب المنازل - رحمه الله - استغنىٰ عنها(٥) بما ذكر في الفتوة ، والله أعلم.

* * *

(١) (الباء) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط .

(٢) (شهود) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط ، وفي ش (رؤيتك شهود) وفي م (وبرؤية شهود).

(٣) أ ، ب ، غ ، ق ، ط (منته).

(٤) ب ، غ ، ط (المسألة).

(٥) (عنها) سقطت من ط.

فصل[1]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «العزم[2]»[3]. منزلة العزم

[4] وقد ذكرنا في أول الكتاب أنه نوعان[5] :

أحدهما : عزم المريد علىٰ الدخول في الطريق ، وهو بداية.

والثاني : عزم السالك ، وهو مقام ذكره صاحب المنازل في وسط كتابه في قسم الأصول - فقال : «هُوَ تحقِيقُ القَصدِ طَوْعاً أَو كَرْهاً»[6].

أما قوله : «تحقِيقُ القَصْدِ» فهو أن يكون قصده محققاً ، لا يشوبه شيء من التردد.

---

(١) هامش ش (باب العزم).

(٢) في هامش أ ، غ كتبت هذه العبارة (قسم الأصول وهو عشرة أبواب، القصد، والعزم والإرادة ، واليقين والأنس والفقر والغنىٰ ومقام المراد) وهي من كلام الهروي في المنازل ٥٠ ، وقد ذكر ابن القيم (القصد) في أول الكتاب ١/ ١٣٣ .

(٣) العزم : تحقيق القصد وهو يعد ثاني أركان أصول الدخول في الطريق حيث إن القصد أولها كما ذكر ذلك الهروي في المنازل ، وهي قوة باعثة علىٰ السير عند الفتور والتراخي والالتفات إلىٰ الوراء ، ومن مقوياته الأدب إذ هو خوف بصورة قبض ، ورجاء بصورة بسط ، لطائف الإعلام ٢/ ١٥٢ .

(٤) غ ، ب (تقدم) بدل (وقد).

(٥) المدارج ١/ ١٣٣ .

(٦) منازل السائرين ٥١ .

وأما تقسيمه هذا التحقيق إلىٰ طوع وكره ، فصحيح ، فإن المختار : تحقيق قصده طوعاً ، وأما المكره : فتحقيق قصده كرهاً ، فإنه إذا أكره علىٰ فعل ، وعزم عليه : فقد حقق قصده كرهاً[1] لا طوعاً.

واختلف الفقهاء والأصوليون في المكره : هل يسمىٰ مختاراً ، أم لا[2].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : التحقيق أنه محمول

---

(١) (كرهاً) سقطت من ب.

(٢) الإكراه : هو حمل الغير علىٰ ما لا يرضاه من قول أو فعل بحيث لا يختار مباشرته لو خلّي ونفسه ، انظر : التلويح علىٰ التوضيح ٣/ ٢٢٦ وله أنواع وشروط ينظر في ذلك عند الأحناف، كشف الأسرار علىٰ البزودي ٤/ ٣٨٣ ، فتح الغفار ٣/ ١١٩ ، وعند المالكية والشافعية والحنابلة ، نزهة المشتاق ١٠٤ ، « وخلاصة الأقوال أن الإكراه ثلاثة أنواع :

مسألة الإكراه

إكراه يعدم الإرادة ويسلب القدرة وليس محلاً للتكليف والمسؤولية علىٰ المكره ، وهذا هو الإكراه الملجئ عند الجمهور.

الثاني : إكراه لا يعدم الاختيار بالكلية لكنه يفسده إفساداً يؤثر في الأحكام وهذا هو الملجئ عند الحنفية وعند غيرهم غير ملجئ ؛ لأنه فيه نوع اختيار ، وإن كان اختياراً لأشد الضررين.

الثالث : إكراه غير مفسد للاختيار؛ لكنه يعدم الرضا وهذا هو غير الملجئ عند الحنفية وغيرهم » انتهىٰ ملخصاً من رفع الجروح في الشريعة الإسلامية لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، ومن مظان البحث في هذه المسألة لمن أراد الزيادة : المبسوط للسرخسي ٢٤/ ٤٨ ، حاشية ابن عابدين ٥/ ٨٠ ، فتح القدير لابن الهمام الحنفي ٧/ ٢٩٨ ، بدائع الصنائع للكاساني ٩/ ٤٤٧٩ ، تحفة المحتاج للشربيني ٧/ ٣٦٩ ، الأشباه والنظائر للسيوطي ص٢٠٩ ، الفروع لابن مفلح ٣/ ٣٨٤ ، فتح الباري ١٢/ ٣٨٥ ، أعلام الموقعين ٣/ ١١٨ ، ١٣٤ ، ٤/ ٣٢ ، ٤٨.

علىٰ الاختيار، فله اختيار في الفعل، وبه صح وقوعه، فإنه لولا إرادته واختياره: لما وقع الفعل، ولكنه محمول علىٰ أن[1] هذه الإرادة والاختيار ليست من قبله، فهو مختار باعتبار أن حقيقة الإرادة والاختيار منه، وغير مختار باعتبار أن غيره حمله علىٰ الاختيار، ولم يكن مختاراً من نفسه، هذا معنىٰ كلامه[2].

درجات العزم

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: إِبَاءُ الحَالِ عَلىٰ العِلْمِ، لِشَيْمِ[3] بَرْقِ الكَشْفِ، وَاسْتِدَامَةُ نُورِ الأُنْسِ، والإِجَابَةُ لإِمَاتَةِ الهَوَىٰ»[4].

يريد بـ «إِبَاءِ الحَالِ عَلىٰ العِلْمِ» استعصاؤه[5] عليه، وأن صاحب الحال: تأبىٰ[6] عليه حاله أن ينزل منه إلىٰ درجة العلم، ويصعب عليه ذلك كل الصعوبة، وهو انحطاط في رتبته.

ولا يريد امتناع الحال عن طاعة العلم وتحكيمه، فإن هذا انحلال، وانسلاخ من الطريق بالكلية، فكل حال لا يطيع العلم ولا يحكمه فهو حال

---

(١) (أن) سقطت من الجميع وما أثبته من ط وهو الصحيح.

(٢) انظر الفتاوىٰ ٨/ ٤٨١ ـ ٥٠٢، ١٥/ ١١٥.

(٣) المنازل (بِشَيْم) ٥١.

(٤) منازل السائرين ٥١.

(٥) ب (استعصاره).

(٦) ش (يأبىٰ) والأصل (مهمل) أي بدون نقط وما أثبته من بقية النسخ.

فاسد ، مبعد عن الله؛ لكن من وصل إلىٰ حال العلم لم يجبه[1] حاله أن ينزل إلىٰ درجة العلم ، وينحطّ إليها بلا حال.

فإن كان مراده هذا المعنىٰ : فهو[2] صحيح وإن كان مراده : امتناع الحال عن طاعة العلم؛ لأن العلم يدعو إلىٰ أحكام الغيبة والحجاب ، والحال يدعو إلىٰ أنس الكشف والحضور ، فصاحب الحال لا يلتفت إلىٰ العلم : فباطل فإنّ العلم شرط في الحال تستحيل معرفةُ صحته بدونه[3]. نعم لا ينكر حصوله بدون العلم؛ لكن صاحبه علىٰ غير بصيرة ولا وثوق به.

«وشَيْمُ[4][5] بَرْقِ[6] الكَشْفِ[7]» هو النظر إليه علىٰ بعد ، فإن صاحب الحال :

---

(١) ط (يحجبه حاله).

(٢) غ (فصحيح).

(٣) تقدمت الإشارة إلىٰ هذه المسألة وملخص ما قاله الغزالي وغيره فيها عند منزلة الفتوة عند قوله : (أصحاب الكشف أصحاب حال) ص٢٢٨٦.

(٤) م ، غ (يشم).

(٥) شيم : من شام ، مخايل الشيء تطلع نحوها ببصره منتظراً له ، وشام البرق نظر إلىٰ سحابته أين تمطر ، مختار الصحاح ٣٥٣.

(٦) البرق : هو أول ما يبدو للعبد من اللوامع النورانية ، معجم مصطلحات الصوفية ٣٤ ، وهذا يرجع إلىٰ ترتيب أرباب السلوك في عد المقامات والأحوال ، إذ كلٌّ يصف سيره وحاله وسلوكه؛ لكن اللوامع والبوارق واللوائح تعد عند أول الظهور والبُدوّ كما يلمع البرق ويلوح عن بعد ، انظر مدارج السالكين ١/ ١٣٥.

(٧) الكشف : تقدم ص١٨٢٩.

عامل علىٰ شيم برق الكشف ، لأن شيم برق الكشف : يوجب نوراً يأنس به القلب ، فعزيمة صاحبه : علىٰ استدامته وحفظه.

وأما «الإِجَابَة لإِمَاتَةِ الهَوَىٰ».

فهو أن السالك إذا أشرف علىٰ الكشف : أحس بحالة شبيهة بالموت ، حتىٰ أن منهم من يسقط إلىٰ(١) الأرض ، ويظن ذلك موتاً ، وهذه الحال من مبادئ الفناء فتهوىٰ نفسه العود إلىٰ الحجاب ، خوفاً من الانعدام ، لما جُبِلت عليه النفس البشرية من كراهة الموت ، فإذا حصل العزم أميت هذا الهوىٰ ، ولم يلتفت إليه ، رغبة فيما يطلبه من الفناء في الفردانية ، فإن الحقيقة(٢) لا تبدأ بعد فناء البشرية(٣).

وهذا الذي قاله حق ، لا ينكره إلا من لم يذقه ، وإنما الكلام في مرتبته ، وأنه غاية أو توسط أو لازم ، أو عارض؟(٤).

فشيخنا(٥) - رحمه الله - كان يرىٰ أنه عارض من عوارض الطريق لا يعرض(٦) للكمَّل(٧) ، ومن السالكين من لم يعرض له البتة.

---

(١) م (علىٰ).

(٢) الحقيقة : تقدم ص١٧١٨ ، ١٨٧٣.

(٣) فناء البشرية : يوافق هذا النوع الثاني من الفناء وهو الفناء عن شهود السوىٰ/ تقدم ص١٦٦٧.

(٤) هذا راجع إلىٰ تقسيم الأحوال والمقامات ، وقد شرحه ابن القيم في أول المنازل ١/ ١٣٣.

(٥) يعني به (الهروي) صاحب منازل السائرين.

(٦) أ ، ب ، غ (لا يتعرض).

(٧) ط (للكل).

ومن الناس من يراه لازماً للطريق لا بد منه.

ومن الناس من يراه غاية لا شيء فوقه.

ومنهم من يراه توسطاً ، وفوقه ما هو أجل منه وأرفع ، وهو حالة البقاء[١].

فصل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيةُ : الاستِغرَاقُ فِي لَوَائِحِ المُشَاهَدَةِ ، وَاستِنَارَةُ ضِيَاءِ الطَّرِيقِ ، وَاستِجمَاعُ قُوَىٰ الاستِقَامَةِ»[٢].

هذه ثلاثة أشياء[٣].

أحدها : فقدان الإحساس بغير شهوده[٤] ، لاستغراقه في مشاهدته[٥].

الثاني[٦] : «استِنَارَةُ ضِيَاءِ الطَّرِيقِ».

يعني : ظهور الجادة له ووضوحها ، و[٧]اتصالها بمطلوبه ، وهذا كمن هو سائر إلىٰ مدينة ، فإذا شارفها ورآها : رأىٰ الطريق حينئذ واضحة إليها ،

---

(١) أ ، ب ، غ زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

(٢) منازل السائرين ٥١.

(٣) م (أمور).

(٤) أ ، ب (بغير شهوة) و ش (يعني شهوده) و ط (بغيره) وقد سقطت منها (شهوده).

(٥) ق زيادة (الناس).

(٦) (الثاني) سقطت من ق.

(٧) أ ، ب ، غ (إيصالها).

واستنار له ضياؤها واتصالها بالمدينة ، وكان قبل مشاهدة المدينة علىٰ علم - أو ظن - يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة ، وأما الآن : فقد أمن من أن يضيع عن الباب ، وكذلك هذا السالك : قد انقطعت عنه الموانع ، واستبان له الطريق ، وأيقن بالوصول ، وصارت حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه ، وكحال معاين الشفق الأحمر قبل طلوع الشمس حيث يتيقن(١) أن الشمس بعده.

قوله : «واسْتِجْمَاعُ قُوَىٰ الاسْتِقَامَةِ».

يعني : تستجمع(٢) له قوىٰ الظاهر والباطن علىٰ قصد الوصول والعزم عليه ، لمشاهدته ما هو سائر إليه ، وهكذا عادة المسافر : أنه إذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير وبذل الجهد ، وكذلك المسابق إذا عاين الغاية : استفرغ قوىٰ جريه وسوقه ، وكذلك الصادق في آخر عمره : أقوىٰ عزماً وقصداً من أوله ، لقربه(٣) من الغاية التي أجرىٰ(٤) إليها(٥).

---

(١) أ ، ب ، غ ، ق ، ط (تيقن).

(٢) م ، ش (يستجمع).

(٣) أ ، ط (لقرابه).

(٤) ط (يجري).

(٥) أ ، ب ، غ ، ط زيادة (والله أعلم).

فصل (١)

الدرجة الثالثة

قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : مَعْرِفَةُ عِلَّةِ العَزْمِ ، ثُمَّ العَزْمُ(٢) عَلَىٰ التَّخَلُّصِ مِنَ العَزْمِ، ثُمَّ الخَلَاصُ مِنْ تَكَالِيفِ تَرْكِ العَزْمِ ، فَإِنَّ العَزَائِمَ لَمْ تُوَرِّثْ أَرْبَابَهَا مِيرَاثاً أَكْرَمَ مِن وُقُوفِهِمْ عَلَىٰ عِلَلِ العَزَائِمِ» (٣).

«مَعْرِفَةُ العَزْمِ» هي نسبته إلىٰ نفسه ، فإذا عرف أن العزم مجرد فضل الله وإيثاره وتوفيقه ، وأنه ليس من العبد : فنسبته إياه بعد ذلك إلىٰ نفسه علة قادحة فيه ، فإذا لاح له لائح الكشف ، وشهد توحيد الفضل(٤) ، علم حينئذ علة عزمه، وهو نسبته إياه إلىٰ نفسه ، ورؤيته له ، فإذا عرف هذه العلة عزم علىٰ التخلص منها بالعزم علىٰ التخلص من العزم.

وهذا قد يسبق منه إلىٰ الذهن تناقض وتدافع ، فكيف يتخلص من العزم بالعزم؟

ومراده : أن يعزم علىٰ التخلص من العزم المنسوب إليه بالعزم الذي هو مجرد فضل الله وموهبته ، ولا(٥) تناقض حينئذ ، فيتخلص من العزم بالعزم ،

---

(١) (فصل) سقطت من ط.

(٢) (ثم العزم) سقطت من أ ، ب ، غ ، ط.

(٣) منازل السائرين ٥١.

(٤) الأصل (الفعل) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط.

(٥) ق (فلا).

كما ينازع القدر بالقدر.

وأما «الخَلاصُ مِن تَرْكِ تَكَالِيفِ العَزْمِ».

فهو أنه إذا تخلص من هذا العزم وتركه : بقيت عليه بقية ، وهي رؤيته أنه قد ترك ، فعليه التخلص من رؤية هذا الترك ، فهو يطلب الآن الخلاص من رؤية ترك العزم ، كما كان يطلب ترك العزم.

قوله : «فَإِنَّ العَزَائِمَ لمَ تُوَرِّثْ أَرْبَابَهَا مِيرَاثاً أَكْرَمَ[1] مِن وُقُوفِهِم عَلَىٰ عِلَلِ العَزَائِمِ».

مدار علل العزائم : علىٰ ثلاثة أشياء.

أحدها : فتورها وضعفها.

الثاني : عدم تجردها من الأغراض وشوائب الحظوظ.

الثالث : رؤية العزائم وشهودها ، ونسبتها إلىٰ أنفسهم.

فإذا عرف هذه الثلاثة[2] : عرف علل العزائم.

والله المستعان[3].

* * *

(١) ق (ألزم).

(٢) أ (الأمور).

(٣) أ (وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم) ، ق (وهو أعلم).

فصـــل (١)(٢)

منزلة الإرادة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الإرادة»(٣).

---

(١) هامش الأصل (منزلة الإرادة) ، هامش ش (باب الإرادة).

(٢) من بداية هذه المنزلة بدأت نسخة (ح١).

(٣) الإرادة : هي نزوع النفس وميلها إلىٰ الفعل ، وهي أول حركة النفس إلىٰ استكمال الفضائل ، واستدامة الكد ، وترك العادة والراحة ، ومغايرة الشهوة. ولا تكون إلا مع صحة القصد ، وصدق النية ، والإقبال بالكلية علىٰ الحق ، وهي بداية المحبة ولها عندهم تسعة مظاهر ، ومن أقوالهم في تعريفها : أنها صفة تجلي علم الحق علىٰ حسب المقتضىٰ الذاتي. وقال ابن سينا : إنها ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني ، وهي من الحقائق السبعة الكلية الأصلية وهي : «الحياة ، العلم ، الإرادة ، القدرة ، الكلام ، العدل ، الأقساط» وهذه الحقائق يندرج بعضها في بعض ، وهي هنا تدخل في لبس شديد إذ يلتقي تفسيرها هنا بما يقوله ابن عربي والحلاج من ذلك قول ابن عربي : «ويحول بينه وبين ما كان عليه مما يحجبه عن مقصوده». وقال أيضاً : «فليمحو إرادته في إرادته فلا يريد إلا ما يريد الحق..» وهذا هو عين القول بالحقيقة القدرية الكونية ، وتقدم الكلام عليها أول البحث.

ومن عباراتهم «الانحطاط من الحقيقة إلىٰ العلم» الرسالة القشيرية ٣٩٨ ، وقول الحلاج :

أريدك لا أريدك للثواب ... لكنني أريدك.. للعقاب

وكل مآربي قد نلت منه ... سوىٰ ملذوذ وجدي بالعذاب

فهو بهذا جعل الآلام شيئاً مقصوداً لحال تعلق الإرادة به ، ومعظم التعريفات تكتمل عند تعريف المريد ، إذ تنمحي إرادته بإرادته فلا يريد إلا ما يريد الحق ، وقد بين شيخ الإسلام فساد هذا التصور - وهو انعدام الإرادة - في الفتاوىٰ ١٠/ ٦٣.

انظر الرسالة القشيرية ٣٠٦ ، لطائف الإعلام ١/ ٨٩ ، ١٩٠ ، ٤٢٩ ، ٢/ ٣٨ ، رشح الزلال ٣٧ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٤ ، التعريفات ٣٠ ، التوقيف ٢/ ٩٥١ ، التعريفات ٢/ ٢٦٩.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال[1]: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وقد أشكل علىٰ المتكلمين تعلق الإرادة بالله، وكون وجهه تعالىٰ مراداً.

و[2]قالوا: الإرادة لا تتعلق إلا بالحادث، وأما بالقديم[3]: فلا؛ لأن القديم لا يراد.

وأولوا «الإرادة» المتعلقة به بإرادة التقرب إليه، ثم إنه لا يتصور عندهم التقرُّب إليه، فأوَّلوا ذلك بإرادة الطاعة الموجبة لجزائه.

هذا حاصل ما عندهم، وحجابهم في هذا الباب: غليظ كثيف من أغلظ الحجب وأكثفها، ولهذا تجدهم أهل قسوة، ولا تجد عليهم روح السلوك، ولا بهجة المحبة.

والطلب والإرادة عند أرباب السلوك: هي التجرُّد عن الإرادة، فلا تصح عندهم «الإرادة» إلا لمن لا إرادة له، ولا تظن أن هذا تناقض[4]؛ بل هو محض

---

(١) زيادة (تعالىٰ) في بقية النسخ.

(٢) (الواو) سقطت من ط.

(٣) الأصل (بالتقديم) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٤) الأصل (تناقضاً) والصحيح لغة ما أثبته من بقية النسخ.

الحق، واتفاق كلمة القوم عليه[١][٢].

معنى الإرادة والأقوال فيها

وقد تنوعت عبارات القوم عنها، وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة[٣].

ومعنىٰ هذا: أن عادة الناس غالباً التعريج علىٰ أوطان الغفلة، وإجابة داعي الشهوة، والإخلاد إلىٰ أرض الطبيعة، والمريد منسلخ عن ذلك، فصار خروجه عنه: أمارة ودلالة علىٰ صحة الإرادة، فسُمِّي انسلاخه وتركه إرادة[٤].

وقيل: نهوض القلب في طلب الحق[٥].

ويقال: لوعةٌ تهوِّن كلَّ روْعة[٦].

قال: الدقاق -رحمه الله[٧]-: الإرادة لوعة في الفؤاد، لذعة في القلب،

---

(١) (عليه) سقطت من ق.

(٢) لكن يقال هنا من باب الاحتراز: «ألا يكون هذا علىٰ تفسيرهم المؤدي إلىٰ القول بالعمل علىٰ مقتضىٰ الحقيقة الكونية»، فهذا يلغي الأمر والنهي وأحكام الشرع جرياً خلف هذه المقولة، التي حقيقتها اتباع ما تهوىٰ الأنفس، والتلبيس علىٰ الناس، إذ من أقسام الحرية عندهم، حرية خاصة الخاصة وهي: «التحرر عن رق الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار»، التعريفات ٢/ ١١٦.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ٣٠٦.

(٤) هذا يصلح لتفسير قوله: «لا تصلح الإرادة إلا لمن لا إرادة له»، وقد قال الواسطي: «أول مقام المريد: إرادة الحق سبحانه بإسقاط إرادته»، الرسالة القشيرية ٣٠٩.

(٥) انظر رشح الزلال ٣٩.

(٦) الرسالة القشيرية ٣٠٧.

(٧) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تأجج في القلوب»[1].

وقيل: من صفات المريد: التحبب إلىٰ الله بالنوافل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والصبر علىٰ مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة بالخمول، وعدم قرار القلب حتىٰ يصل إلىٰ وليِّه ومعبوده[2].

وقال حاتم الأصم - رحمه الله[3] -: إذا رأيت المريد يريد غير مراده، فاعلم أنه أظهر نذالته[4].

وقيل: من حكم المريد: أن يكون نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة[5].

وقال بعضهم: نهاية الإرادة: أن تشير إلىٰ الله، فتجده مع الإشارة، فقيل له: وأين تستوعبه الإشارة[6]؟ فقال: أن تجد الله بلا إشارة[7]، وهذا كلام متين،

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٠٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٠٨.

(٣) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٠٨ بلفظ (بذالته) وأشار إلىٰ خلافها في الهامش.

(٥) القائل: محمد بن علي الكتاني سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٣٤.

(٦) الأصل (الإرادة) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، س، ح١.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٠٨، وبالرغم من التماس ابن القيم له المحامل إلا أن فيه إبهاماً والتباساً، فهو مدخل لمن نفىٰ العلو لله تعالىٰ.

فإن المراتب ثلاث :

أعلاها : أن تكون[1] واجداً لله في كل وقت ، لا يتوقف وجوده[2] له على الإشارة[3] منه ولا من غيره.

الثاني : أن يكون له ملكة وحال وإرادة تامة ، بحيث[4] متى أشير له إلى الله وجده عند إشارة المشير.

الثالث : أن لا يكون كذلك ، ويتكلف وجدانه عند الإشارة إليه.

فالمرتبة الأولى : للمقربين السابقين ، والوسطى : للأبرار المقتصدين ، والثالثة : للغافلين[5].

وقال أبو عثمان الحيري[6] : من لم تصح إرادته ابتداءً ، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدباراً[7].

وقال : المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به : صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به ، وإذا تكلم انتفع به من سمعه ، ومن سمع شيئاً من

---

(١) أ ، ب ، غ ، ط (يكون).

(٢) (الهاء) سقطت من غ.

(٣) ش (إشارة).

(٤) ط زيادة (أنه).

(٥) الأصل (للعارفين) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ.

(٦) الأصل (الحريري رحمه الله) والصحيح ما أثبته من بقية النسخ والرسالة القشيرية ٣٠٩.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٠٩.

علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها[١].

وقال الواسطي -رحمه الله[٢]- : أول مقام المريد : إرادة الحق بإسقاط إرادته[٣].

وقال يحيىٰ بن معاذ : أشدُّ شيء علىٰ المريد : معاشرة الأضداد[٤].

وسئل الجنيد -رضي الله عنه[٥]- : ما[٦] للمريد حظ في مجاراة الحكايات؟ فقال: الحكايات جُند من جند الله يثبِّت بها قلوب المريدين، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠][٧]. وقد ذكر عن الجنيد - رحمه الله -[٨] كلمتان في الإرادة مجملتان تحتاج[٩] إلىٰ تفسير الكلمة الواحدة ، قال أبو عبد الرحمن السُّلمي : سمعت محمَّد بن

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٠٩.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ .

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٩ ، في حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩ «رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد أتم».

(٤) الرسالة القشيرية ٣٠٩ ، حلية الأولياء ١٠/ ٥٨ ، وفي شعب الإيمان ٧/ ٦٨ عن الروذباري : «أضيق السجون معاشرة الأضداد».

(٥) (رضي الله عنه) سقطت من بقية النسخ.

(٦) (ما) سقطت من ش.

(٧) الرسالة القشيرية (٣٠٩).

(٨) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٩) ط زيادة (كل منهما).

مخلد[١] يقول : سمعت جعفراً يقول : سمعت الجنيد يقول : المريد الصادق غنيٌّ عن علم[٢] العلماء[٣].

وقال جعفر[٤] أيضاً : سمعت الجنيد يقول : إذا أراد الله بالمريد خيراً : أوقعه إلىٰ الصُّوفية ومنعه صحبة القرّاء[٥].

قلت إذا صدق المريد ، وصح عقد صدقه مع الله : فتح الله علىٰ قلبه ببركة الصدق ، وحسن المعاملة مع الله : ما يغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم ، وعن العلوم التي هي فضلة ليست من زاد القبر ، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم ، التي أفنوا فيها أعمارهم : من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها ، ومعرفة مفسدات الأعمال ، وأحكام السلوك ، فإن حال

---

(١) محمد بن مخلد بن حفص الإمام الحافظ الثقة ، أبو عبد الله الدوري البغدادي العطار ، ولد سنة ٢٣٣هـ ، سمع من الإمام مسلم وغيره ، وحدث عنه الدارقطني وغيره ، كان موصوفاً بالعلم والصلاح ، توفي سنة ٣٣١هـ/ تاريخ بغداد (٣/ ٣١٠) ، طبقات الحنابلة (٢/ ٧٣) ، المنتظم (٦/ ٣٣٤) ، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٥٦).

(٢) ط (من) بدل (عن) وسقطت (علم) فتكون العبارة (غني من العلماء).

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٩ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٧٠ وهي الكلمة الأولىٰ.

(٤) أ ، ب ، غ ، س ، م ، ق ، ح١ (لجعفر) وهي ساقطة من ط.

(٥) الرسالة القشيرية (٣٠٨) وهذه الأقوال تضم إلىٰ ما روي عنه من الحث علىٰ التزام الكتاب والسنة ، فيتوجه الكلام إلىٰ أنه يريد بالقرّاء معنىٰ آخر كما سوف يوضحه ابن القيم قريباً ، أو الاقتصار علىٰ العلم دون العمل ، والاستغراق في البحث والتنقير بما يُنسىٰ المراد من العلم كأهل الكلام والجدل ، والله أعلم ، وأقواله في الحث علىٰ العلم والعمل في الرسالة القشيرية ٧٠ - ٧١.

صدقه ، وصحة طلبه : يريه ذلك كله بالفعل.

ومثال ذلك : رجل قاعد في البلد يدأب ليله ونهاره في علم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ، ومواضع المتاهات[1] فيها ، والموارد والمفاوز ، وآخر : حمله الوجد وصدق الإرادة علىٰ أن ركب[2] الطريق وسار فيها ، فصدقه يغنيه عن علم ذلك القاعد ، ويريه إياها في سلوكه عياناً.

وأما أن يغنيه صدق إرادته عن علم الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها ، وعن علم أحكام الله ورسوله علىٰ ظاهره وباطنه ، فقد أعاذ الله من هو دون الجنيد من ذلك ، فضلاً عن سيِّد الطائفة وإمامها ، وإنما يقول ذلك قُطاع الطريق ، وزنادقة الصوفية وملاحدتهم ، الذين لا يرون اتباع الرسول شرطاً في الطريق.

وأيضاً فإن المريد الصادق يفتح الله علىٰ قلبه ، وينوّره بنورٍ من عنده ، مضاف إلىٰ ما معه من نور العلم ، يعرف كثيراً من أمر دينه[3] ، فيستغني به عن

---

(١) ق (المياه) بدل (المتاهات).

(٢) م ، غ (يركب).

(٣) قال الله تعالىٰ : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله..﴾ [البقرة :٢٨٢] ، وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾[الأنفال :٢٩].

ذلك أن العلم بدون عمل وتقوىٰ لا تكتمل بصيرة صاحبه.. ومما يذكر هنا قول عوف بن عبدالله : «.. إن من تمام التقوىٰ أن تبتغي إلىٰ ما قد علمت منها علم ما لم تعلم..» حلية الأولياء ٤/ ٢٤٦ ، والحديث الوارد في ذلك ضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٢) ، الإيمان (٣٢٢).

كثير من علم الناس[١]، فإن العلم نور، وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق، ومعه نور الإيمان، والنور يهدي إلىٰ النور، والجنيد ـ رحمه الله[٢] ـ أخبر بهذا عن حاله، وهذا أمر جزئي[٣] ليس علىٰ عمومه؛ بل صدقه يغنيه عن كثير من العلم، وأما عن جملة العلم: فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورة الصادق إلىٰ العلم، وأنه لا يفلح من لم يكن له علم، وأن طريق القوم مقيدة بالعلم، وأنه لا يحل لأحد[٤] يتكلم في الطريق إلا بالعلم، مشهور معروف قد ذكرنا فيما مضىٰ طرفاً منه[٥] كقوله: «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدىٰ به في هذا الأمر؛ لأن علمنا مقيَّد بالكتاب والسنة»[٦].

وأيضاً فإن علم العلماء الذين أشار إليهم: هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن[٧] والسنة.

---

(١) يفسره ما قبله من قوله: «ما يغنيه عن العلوم التي هي من نتائج أفكار الناس وآرائهم» وهذا كله ببركة الصدق مع الله.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) الأصل (مروزي) وما أثبته من بقية النسخ.

(٤) ط، وحاشية ش (أن).

(٥) أقوال الجنيد في الحث علىٰ العلم: منها ما في الرسالة القشيرية: «الطريق كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا من اقتفىٰ أثر الرسول عليه الصلاة والسلام»، وقال: «مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة»، الرسالة القشيرية ٧٠ ـ ٧١.

(٦) الرسالة القشيرية ٧١.

(٧) غ (الكتاب) وفي الهامش (القرآن).

والمريد الصادق : هو الذي قرأ القرآن وحفظ السنة ، والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فهما في كتابه وسنة رسوله يغنيه عن تقليد فَهْمِ غيره[١].

وأما قوله - يعني الجنيد[٢] - : «إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه علىٰ الصوفية ومنعه صحبة القراء»[٣].

فالقراء في لسانهم : هم أهل التنسك والتعبُّد ، سواء كانوا يقرؤون القرآن أم لا ، فالقارئ عندهم : هو الكثير التعبد والتنسك ، الذي قد قَصَر همته علىٰ ظاهر العبادة ، دون أرواح المعارف ، ودون حقائق الإيمان ، وروح المحبة ، وأعمال القلوب ، فهممهم[٤] كلها إلىٰ العبادة ، ولا خبر عندهم مما عند أهل التصوف ، وأرباب القلوب وأهل المعارف ، ولهذا قال من قال : طريقنا تفتٌّ لا تقرٍ[٥].

فسير هؤلاء بالقلوب والأرواح، وسير أولئك مجرد[٦] الأشباح والقوالب[٧]، وبين أرواح هؤلاء وقلوبهم وأرواح هؤلاء وقلوبهم : نوع تناكر وتنافر ، ولا

---

(١) وهذا يصدق علىٰ المجتهد الذي يجوز له التقليد؛ لكن بعد أن يستكمل شروط الاجتهاد ، وصفات المجتهد.

(٢) (يعني الجنيد) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح٢ ، س ، م ، ق.

(٣) هذه هي الكلمة الثانية التي تحتاج إلىٰ تفسير ، كما ذكر ابن القيم -رحمه الله-.

(٤) ط (فهمتهم).

(٥) ح١ ، أ ، ب ، غ ، ط (تقسُّر) وضبطها في ش (تقرّ) وفي ق (تقرِ) ، ولعلها (تقرَّ).

(٦) ح١ ، ط (بمجرد).

(٧) ط (القوالب والأشباح).

يقدر أحدهم علىٰ صحبة النوع الآخر إلا علىٰ نوع إغضاء[1] ، وتحميل للطبيعة ما تأباه ، وهو من جنس ما بينهم وبين ظاهرية الفقهاء[2] من التنافر، ويسمونهم : أصحاب الرسوم ، ويسمون أولئك القراء والطائفتان عندهم : أهل ظواهر ، لا أرباب حقائق ، هؤلاء رسوم العلم ، وهؤلاء رسوم العبادة[3].

المفاضلة بين الصوفي والفقير

ثم إنهم - في أنفسهم - فريقان : صوفية وفقراء ، وهم متنازعون في ترجيح الصوفية علىٰ الفقراء ، أو بالعكس ، أو هما سواء ، علىٰ ثلاثة أقوال.

فطائفة رجحت الصوفي ، منهم كثير من أهل العراق ، وعلىٰ هذا صاحب العوارف[4] وجعلوا نهاية الفقير بداية الصوفي[5].

---

(١) غ (غض) ، ح١ (تكلف).

(٢) وظاهرية الفقهاء يراد بها غمزهم لصدورهم عن الدليل ، وليس مرادهم المذهب الظاهري المعروف كابن حزم ومن تبعه.

(٣) تقدم قريباً مرادهم بهذه الطائفة وهم أهل النسك والعبادة ، والحكمة عندهم علمية وعملية ، فالمنطوق بها علوم الشريعة ، والمسكوت عنها أسرار الحقيقة ، فإذا اطلع عليها علماء الرسوم أضرت بهم انظر التوقيف٢/ ٢٩٢ ، وقال الجرجاني في التعريفات ٢/ ١١٦ : «وهي حرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار».

(٤) كتاب (عوارف المعارف) لمؤلفه شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي ، وهو مطبوع مع جملة من الملحقات في آخر كتاب (إحياء علوم الدين) دار المعرفة بيروت.

(٥) نهاية الفقير بداية الصوفي : من قارن بين الأقوال في باب الفقر وباب التصوف في الرسالة القشيرية ٣٨٨ ـ ٤٠٤ تظهر لك قوة العلاقة بينهما وانظر عوارف المعارف ٥/ ٢٥٣ ، وتحذيره من مجالسة الفقراء ، وفي ٥/ ٦٣ بيَّن الفرق بين الصوفي والفقير.

وطائفة رجحت الفقير، وجعلوا الفقر لب التصوف وثمرته، وهم كثير من أهل خراسان.

وطائفة ثالثة قالوا: الفقر والتصوف شيء واحد، وهؤلاء هم أهل الشام(١).

ولا يستقيم الحكم بين(٢) هؤلاء حتىٰ تتبين(٣) حقيقة الفقر والتصوف، وحينئذ يعلم هل هما حقيقة واحدة أو حقيقتان؟ ويعلم راجحهما من مرجوحهما.

وسترىٰ ذلك مبيناً إن شاء الله تعالىٰ(٤) في منزلتي «الفقر والتصوف» إن(٥) انتهينا إليهما، إن ساعد الله ومنَّ بفضله وتوفيقه، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وبه المستعان، وعليه التكلان، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

والمقصود: أن(٦) المراتب عندهم ثلاث: مرتبة «التقوىٰ» وهي مرتبة

---

(١) لمعرفة أقسام الصوفية خراسانيين وبغداديين وشاميين ومصريين واختلاف مناهجهم ونماذج أعلامهم انظر الفتاوىٰ ١٠/ ٣٥٩، تلبيس إبليس ٦١، دراسات في الفكر الإسلامي ٢١٦ - ٢٣٠، ٣٢٨، التصوف الثورة الروحية. علاء عفيفي ٢١٣، التصوف المنشأ والمصادر. إحسان إلهي ظهير ص٣٢- ٤١، الطرق الصوفية في مصر. د/ عامر النجار، نشأة الفلسفة الصوفية. عرفان فتاح، الصوفية نشأتها وتطورها. محمد العبدة، طارق عبد العليم، موقف متصوفة إفريقية وزهادها من الاحتلال العبيدي. أبو لبابة حسين.

(٢) ط (هؤلاء وهؤلاء).

(٣) الأصل (يتبين) وما أثبته من بقية النسخ.

(٤) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

(٥) أ، ب، غ، ش، م، ط (إذا) وفي ح١ (إلىٰ).

(٦) (أن) سقطت من ح١.

العبادة(١) : التعبد والنسك.

ومرتبة «التصوف» وهي مرتبة التَّفَتِّي(٢) بكل خلق حسن، والخروج من كلِّ خلق(٣) ذميم.

ومرتبة «الفقر» وهي مرتبة التجرد، وقطع كل علاقة تحول بين القلب وبين الله تعالىٰ.

فهذه مراتب طُلاب الآخرة، ومن عداهم فمع القاعدين المتخلفين.

فأشار أبو القاسم الجنيد -رحمه الله(٤)- إلىٰ أن المريد لله بصدق، إذا أراد الله به خيراً: أوقعه علىٰ طائفة الصوفية يُهذِّبون أخلاقَه، ويدلُّونَه علىٰ تزكية نفسه، وإزالة أخلاقها الذميمة والاستبدال بالأخلاق الحميدة، ويُعرِّفونه(٥) منازل الطريق، ومحاراتها(٦) وقواطعها، وآفاتها.

وأما القراء، فيدقونه بالعبادة من الصوم والصلاة دقاً، ولا يذيقونه شيئاً من

---

(١) (العبادة) سقطت من أ، ب، غ، ح١، م، ش.

(٢) التفتي: تقدم الحديث عنها في منزلة الفتوة ص٢٢٧٠.

(٣) (خلق) سقطت من الأصل والأقرب ما أثبته من م، ح١، أ، ب، غ، ق، ط.

(٤) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٥) ق (ويعرفون).

(٦) أ، ب، غ، ح١ (مغاراتها)، ش (مجاراتها)، م (مجازاتها)، ط (مغازاتها).

حلاوة أعمال القلوب، وتهذيب النفوس، إذ ليس ذلك طريقهم[1]، ولهذا بينهم وبين أرباب التصوف نوع تنافر[2] كما تقدم.

والبصير الصادق: يضرب في كل غنيمة بسهم، ويعاشر كل طائفة علىٰ أحسن ما معها، ولا يتحيز إلىٰ طائفة، وينأىٰ عن الأخرىٰ[3] بالكلية إلا أن[4] يكون معها شيء من الحق[5][6]، فهذه طريقة الصادقين، ودعوىٰ الجاهلية كامنة في النفوس.

ولا أعني[7] بذلك أصغريهم ... ولكني أريد به الذُّوينا[8][9]

و[10]سمع النبيّ ﷺ في بعض غزواته قائلاً يقول: «يا للمهاجرين، وآخر

(١) أ، ب، غ، م، ح١ (طريقتهم).

(٢) غ (تنافي).

(٣) ش (أخرىٰ).

(٤) ق، م، ش (إلا أن لا يكون)، ط (أن لا يكون).

(٥) ق (الخوف).

(٦) معنىٰ عبارة الأصل: «أي لا يجوز له الانحياز إلىٰ طائفة بقدر الحق الذي معهم فيوافقهم فيه»، والعبارة في ق، م، ش (إلا أن لا يكون) يرجع إلىٰ سبب النأي عن الأخرىٰ، وهو انتفاء الحق فيها يوجب النأي عنها.

(٧) ب (أعتني).

(٨) ش (الذوبياء).

(٩) بيت الشعر: لم أجده.

(١٠) (الواو) سقطت من ط.

يقول: يا للأنصار! فقال: **ما بال دعوىٰ الجاهلية، وأنا بين أظهركم؟**»[(١)].

هذا، وهما اسمان شريفان، سماهم الله بهما في كتابه، فنهاهم عن ذلك، وأرشدهم إلىٰ أن يتداعوا بـ«المسلمين» و«المؤمنين»[(٢)]«عباد الله» وهي الدعوىٰ الجامعة بخلاف الدعوىٰ[(٣)] المفرقة، كـ«الفلانية» و«الفلانية[(٤)]» فالله المستعان.

وقال ﷺ[(٥)] لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك جاهليَّة**، فقال: علىٰ[(٦)] كبر السن مني يا رسول الله؟ **قال: نعم**»[(٧)]، فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟[(٨)].

---

(١) البخاري. الأنبياء (٣/ ٣١٠) ح(٤٩٠٥)، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٩٨) ح(٢٥٨٤)، أحمد (٣/ ٣٣٨).

(٢) ش زيادة (الواو).

(٣) (الدعوىٰ) سقطت من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٤) (الفلانية) سقطت من ش.

(٥) (ﷺ) سقطت من الأصل.

(٦) (علىٰ) سقطت من أ، ب، غ.

(٧) البخاري. الإيمان (١/ ١٤)، مسلم. الإيمان (٣/ ١٢٨٢) ح(١٦٦١).

(٨) مأخوذ من البيتين للقطامي الكلبي حين اتهم الخوارج شهراً بالسرقة:

لقد باع شهر دينه بخريطة ... فمن يأمن القراء بعدك يا شهر

أخذت بها شيئاً طفيفاً فبعته ... من ابن جرير إن هذا هو الغدر

ولقد أشار إليه في هامش م لوحة ١٠٨ وفي سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٧٥، والمقصود به شهر ابن حوشب الأشعري الشامي سوف يترجم له في آخر البحث، والشاعر هو: الحصين بن جمال بن حبيب القطامي، معجم الشعراء ١٦٦.

ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان ، و(١)طعم الصدق واليقين ، حتىٰ تخرج الجاهلية كلها من قلبه ، و(٢)والله لو تحقق الناس في هذا الزمان ذلك في(٣) قلب رجل واحد(٤) لرموه عن قوس واحدة ، وقالوا هذا مبتدع ، ومن دعاة البدع ، فإلىٰ الله المشتكىٰ ، وهو المسؤول الصبر والثبات ، فلا بد من لقائه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طـه :٦١] ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢٧].

فصل

قال صاحب «المنازل» - رحمه الله - :

«بَابُ الإِرَادَةِ : قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]»

في تصديره الباب بهذه الآية دلالة علىٰ عظم قدره ، وجلالة محله من هذا العلم ، فإن معنىٰ الآية : كل يعمل علىٰ(٥) ما يشاكله ، ويناسبه ، ويليق به ، فالفاجر يعمل علىٰ ما يليق به ، وكذلك الكافر والمنافق ، ومريد الدنيا وجيفتها(٦) : عامل علىٰ ما يناسبه ، ولا يليق به سواه ، ومحب الصور : عامل

---

(١) (الواو) سقطت من ط.

(٢) (الواو) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٣) ط (من) بدل (في).

(٤) (واحد) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ش ، ق ، ط.

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ زيادة (علىٰ شاكلته).

(٦) م (وحتفها).

علىٰ ما يناسبه ويليق به.

فكلُّ امرئٍ يهفو إلىٰ ما يحبُّه وكلُّ امرئٍ يصبو إلىٰ ما يناسبه[١]

فالمريد الصادق المحب لله : يعمل ما هو اللائق به والمناسب له ، فهو يعمل علىٰ شاكلة إرادته ، وما هو الأليق به ، والأنسب لها.

قال : «الإِرَادَةُ : مِن بَينِ قَوَانِينِ هَذَا العِلْمِ ، وَجَوامِعِ أَبْنِيتِهِ ، وَهِيَ الإِجَابَةُ لِدَوَاعِي الحَقِيقَةِ ، طَوْعاً أَوْ كَرْهاً[٢]»[٣].

يريد : أن هذا العلم مبني علىٰ الإرادة ، فهي أساسه ، ومجمع بنائه ، وهو مشتمل علىٰ تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، ولهذا سمي : «علم الباطن» كما أن علم «الفقه» يشتمل علىٰ تفاصيل أحكام الجوارح ، ولهذا سموه : «علم الظاهر».

فهاتان حركتان اختياريتان ، وللعبد حركة[٤] طبيعية اضطرارية ، فالعلم المشتمل علىٰ تفاصيلها ، وأحكامها : هو علم الطب[٥] ، فهذه العلوم الثلاثة : هي الكفيلة بمعرفة حركات النفس والقلب ، وحركات اللسان والجوارح ، وحركات الطبيعة.

---

(١) بيت الشعر : لم أجده.

(٢) جميع النسخ (أو كرهاً) وليست في منازل السائرين.

(٣) منازل السائرين ٥٢.

(٤) (وللعبد حركة) سقطت من ح١.

(٥) ح١ (الطلب).

فالطبيب: ينظر في تلك الحركات من جهة تأثر البدن عنها صحة واعتلالاً، وفي لوازم ذلك ومتعلقاته.

والفقيه : ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع ، ونهيه وإذنه وكراهته ، ومتعلقات ذلك.

والصوفي : ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له[1] إلىٰ مراده ، أو قاطعة عنه ، ومفسدة لقلبه ، أو مصححة له.

وأما قوله : «وَهِيَ الإِجَابَةُ لِدَاعِي الحَقِيقَةِ».

فـ «الإجابة» هي الانقياد ، والإذعان ، «والحقيقة»[2] عندهم : مشاهدة الربوبية ، و«الشريعة»[3] التزام العبودية ، فالشريعة : أن تعبده ، والحقيقة أن

---

(١) (له) سقطت من م.

(٢) الحقيقة تقدم ذكرها ص١٧١٨ ، ١٨٧٣ ، ومعنىٰ مشاهدة الربوبية : «بمعنىٰ أنه هو الفاعل في كل شيء والمقيم له ؛ لأن هويته قائمة بنفسها مقيمة لكل شيء سواه» لطائف الإعلام ١/ ٤٢٤ ، ٢/ ٣٧.

(٣) الشريعة : عندهم ميزان كل عادل يأتي به الخليفة الكامل من جانب حقيقته يحفظ به حكم الوحدة والعدالة ، علىٰ طرق خليقته الذي يتعلق به جانب بنوته في نفسه أولاً ، وفيمن يأخذ المدد الوجودي بواسطته ثانياً.. فهذا الميزان الكلي هو المسمىٰ «شريعة» ، ويطلقونه ويريدون به الأمر بالتزام العبودية فهي القيام بالأوامر ، والشريعة حقيقة من حيث هي واجبة بأمره أيضاً .

انظر الرسالة القشيرية ١٥٩ ، لطائف الإعلام ٢/ ٣٧ ، رشح الزلال ٤٦ .

وهذا لا يعني عدم خروجهم عن حدود الشريعة في لحظات الغيبة والفناء والسكر.

تشهده، فالشريعة: قيامك بأمره، والحقيقة: شهودك[1] لوصفه، وداعي الحقيقة: هو صحة المعرفة، فإنَّ من عرف الله أحبَّه ولا بُد.

ولا بد في هذه «الإجابة» من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة، لا تعوز[2] إلا الداعي، ودعوة مستمعة، وتخلية الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

وقوله: «طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» يشير إلىٰ المجذوب، المختطف من نفسه، والسالك إرادة واختياراً ومجاهدة.

درجات الإرادة

الدرجة الأولى

قال: «وَهِيَ عَلىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ: ذَهَابٌ عَنِ العَادَاتِ بِصُحبَةِ العِلمِ، وَالتَّعَلُّقُ[3] بِأَنفَاسِ السَّالِكِينَ، مَعَ صِدقِ القَصدِ، وَخَلْعُ كُلِّ شَاغِلٍ مِنَ الإِخوَانِ وَمُشَتِّتٍ مِنَ الأَوطَانِ»[4].

هذا يوافق من حَدَّ «الإرادة» بأنها: مخالفة العادة، وهي ترك عوائد النفس، وشهواتها، ورعونتها وبطالاتها، ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء التي أشار إليها[5]، وهي صحبة العلم ومعانقته، فإنه النور الذي يُعرِّف العبدَ مواقعَ ما

(١) مسألة الشهود - تقدم الحديث عنها ص١٧١٨، ٢٠٩٩ - وقوله: «شهودك لوصفه: أي أنه الفاعل» لطائف الإعلام ١/ ٤٢٤.

(٢) هامش ب، م (لعله لا تعوز إلا للداعي).

(٣) منازل السائرين (وتعلق).

(٤) منازل السائرين ٥٢.

(٥) انظر شروط الإرادة وهي خمسة في لطائف الإعلام ١/ ١٨٩ ـ ١٩٢، ٢/ ٣٨.

ينبغي إيثار طلبه ، وما ينبغي إيثار تركه ، فمن لم يصحبه العلم : لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين ، ولا عبرة بقطاع الطريق.

وقال بعضهم : متىٰ رأيت الصوفي الفقير يقدح في العلم ، فاتهمه علىٰ الإسلام[1].

ومنها التعلق بأنفاس السالكين ، ولا ريب أن كل من تعلق بأنفاس قوم انخرط في سلكهم[2] ، ودخل في جملتهم[3].

وقال «أَنفَاسُ السَّالِكِينَ» ولم يقل أنفاس العابدين ، فإن[4] العابدين[5] شأنهم القيام بالأعمال ، وشأن السالكين مُراعاة الأحوال.

وقوله : «مَعَ صِدْقِ القَصْدِ».

صدق القصد[6] يكون بأمرين أحدهما: توحيده ، والثاني : توحيد المقصود، فلا يقع في قصدك قسمة ، ولا في مقصودك[7][8].

---

(١) نحوه في سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢١٣ ، حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

(٢) ط (مسلكهم).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح٢ ، ط (جماعتهم).

(٤) أ ، ب ، غ (فالعابدون).

(٥) ط زيادة (من).

(٦) (صدق القصد) سقطت من ط.

(٧) (الكاف) سقطت من الأصل والأصح إثباتها كما في أ ، ب ، غ ، ق ، ح٢ ، م ، ط.

(٨) لعله يريد بتوحيده : إفراده بما يختص به من الأسماء والصفات والأفعال التي لا يشركه فيها

وقوله : «وَخَلْعُ كُلِّ شَاغِلٍ مِنَ الإخوَانِ ، وَمُشَتِّتٍ مِنَ الأَوطَانِ».

يشير إلىٰ ترك الموانع ، والقواطع العائقة عن السلوك : من صحبة الأغيار ، والتعلق بالأوطان ، التي ألف فيها البطالة والنذالة ، فليس علىٰ المريد الصادق أضر من عُشَرائه[1] ووطنه ، القاطعين[2] له عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ فليتغرب[3] عنهم بجهده[4][5].

فصــل

الدرجة الثانية قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : تُقطَعُ بِصُحبَةِ الحَالِ[6] ، وَتَروِيحِ الأُنسِ[7] ، وَالسَّيرِ بَينَ القَبْضِ وَالبَسْطِ»[8].

أحد ، وتوحيد المقصود : أي صرف العبادة له وحده دون سواه ، فيكون الأول توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، والثاني توحيد الألوهية.

(١) الأصل (عشائره) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٢) أ ، ب زيادة (الواو).

(٣) بقية النسخ (فليغترب).

(٤) ق زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

(٥) مسألة الاغتراب وتقليل الخلطة بالأصحاب والتخلص من العوائق والعلائق ، تحدث عنها ابن القيم في معظم كتب السلوك ، كالفوائد وغيره وهي في كتب الخلطة والعزلة أكثر تفصيلاً.

(٦) (الحال) سقطت من أ ، ب.

(٧) الأنس : سوف تفرد قريباً بمنزلة مستقلة.

(٨) منازل السائرين ٥٢ .

أي ينقطع إلىٰ صحبة الحال، وهو الوارد الذي يرد علىٰ القلب من تأثره[1] بالمعاملة، السالب لوصف الكسل والفتور، الجالب له إلىٰ مرافقة الرفيق[2] الأعلىٰ[3] الذين[4] أنعم الله عليهم، فينتقل من مقام العلم إلىٰ مقام الكشف[5]، ومن مقام رسوم الأعمال إلىٰ مقام حقائقها[6] وأذواقها، ومواجيدها[7]، وأحوالها[8]، فيرتقي من الإسلام إلىٰ الإيمان، ومن الإيمان إلىٰ الإحسان.

وأما «تَروِيحُ الأُنسِ» الذي أشار إليه: فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكليف[9] ومشقة العمل، لعدم أنس قلبه بمعبوده، فإذا حصل للقلب روح الأنس به[10] زالت عنه تلك التكاليف والمشاق و[11]صارت قرة عين له، وقوة

---

(١) ط (تأثيره).

(٢) (الرفيق) سقط من ش.

(٣) هناك فرق بين مرافقة الرفيق الأعلىٰ والذين أنعم الله عليهم.

(٤) الأصل، ق (الذي) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

(٥) مقام العلم هو الدليل ومقام الكشف لا ضابط له إنما هي تجليات وخطرات لا يصار إليها وقد سبق التعليق علىٰ هذه المسألة في مصطلح الكشف والتجلي ص١٨٢٩، ٢٣٠٤.

(٦) ش (حقائقه).

(٧) ح١ (موجيدها).

(٨) موقف غلاة الصوفية من الرسوم معلوم، فهم يرونها قيوداً تعيق الوصول بزعمهم، فهناك صوفية عمل وصوفية علم، انظر عوارف المعارف (ص١٥٣، ص١٣٥٨)، نشأة الفلسفة الصوفية ٢٢ ـ ٢٥.

(٩) ح١، أ، ب، غ (التكلف)، ط (التكاليف).

(١٠) (به) سقطت من أ، ب، غ، ح١، ط.

(١١) ط (فصارت).

ولذة[1] فتصير الصلاة قرة عينه، بعد أن كانت[2] حملاً[3] عليه، ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها، فله ميراث من قوله[4] ﷺ[5]: «**أرحنا بالصَّلاة يا بلال**»[6]، «**وجعلت قرة عيني في[7] الصلاة**»[8] بحسب إرادته، و محبته، وأنسه بالله[9]، ووحشته مما سواه.

---

(١) (ولذة) سقطت من ب.

(٢) (ح١، أ، ب، غ (كان).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط (عملاً).

(٤) (قوله) سقطت من ش.

(٥) (ﷺ) ليست في الأصل.

(٦) أخرجه أحمد من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم (٥/ ٣٦٤)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٦) عن رجل من خزاعة، وفي (٧/ ٤) عن رجل من أسلم، والدارقطني في العلل (٤/ ١٢١) عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن الحنفية، وذكره صاحب كشف الخفاء (١/ ١١٧) عن محمد بن الحنفية عن علي عن بلال، وفي تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٣) عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن الحنفية، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٥) عن رجل من أسلم، وأورده صاحب المشكاة: «**أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها**» (١/ ٣٩٣)، وصححه الألباني والحديث عند أبي داود (٤/ ٢٩٦) رقم(٤٩٨٥)، بلفظ: «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**».

(٧) غ (بالصلاة).

(٨) أخرجه من حديث أنس أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٥/ ٢٨٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ١٢٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٧)، وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، تلخيص الحبير (٣/ ١١٦) وقال رواه النسائي وإسناده حسن.

(٩) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

وأما «السَّيرُ بَينَ القَبْضِ وَالبَسْطِ».

فـ «القبض» و «البسط» حالتان تعرضان[1] لكل سالك و[2]يتولدان من الخوف[3] والرجاء تارة، فيقبضه الخوف، ويبسطه الرجاء.

ويتولدان من الوفاء[4]، والجفاء تارة، فوفاؤه[5] [يورثه البسط، وجفاؤه[6] يورثه القبض.

ويتولدان من التفرقة[7]، والجمعية تارة، فتفرقته تورثه القبض][8] وجمعيته تورثه البسط.

ويتولدان من أحكام الوارد تارة، فوارد يورث قبضاً، ووارد يورث بسطاً.

وقد يهجم على قلب السالك قبض لا يدري ما سببه، وبسط لا يدري ما سببه، وحكم صاحب هذا القبض أمران: [9]التوبة والاستغفار؛ لأن ذلك القبض نتيجة جناية أو[10] جفوة، لا[11] يشعر بها.

---

(١) الأصل (يعرضان) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ش، م، ق، ط.

(٢) (الواو) سقطت من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٣) ط زيادة (تارة).

(٤) ط زيادة (تارة).

(٥) أ، ب، غ، ح١ (فوفاه).

(٦) ط (ورجاؤه).

(٧) ط زيادة (تارة).

(٨) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٩) ط زيادة (الأول).

(١٠) (الألف) سقطت من ط، وفي أ، ب، غ (جفوٍ).

(١١) ط زيادة (الواو) قبل (اللام).

الثاني[1] : الاستسلام حتىٰ يمضي عنه ذلك الوقت[2] ، ولا يتكلف دفعه ، ولا يستقبل وقته مغالبة وقهراً ، ولا يطلب طلوع الفجر في[3] وسط الليل ، بل يصبر حتىٰ يهجم عليه[4]، وليرقد حتىٰ يمضي عامة الليل، ويحين طلوع الفجر، وانقشاع[5] ظلمة الليل ، بل يصبر حتىٰ يهجم عليه الوقت ويزول القبض[6] فالله يقبض ويبسط ، وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز ، وليحرزه بالسكون والانكماش [والاستقرار ويلقيه بالثبات فإنه في هذا الوقت عليه خطر عظيم فليحذر مكراً خفياً][7] فالعاقل يقف علىٰ

---

(١) ط زيادة (الواو).

(٢) الوقت : حالك في زمان الحال ، لا تعلق له بالماضي ولا بالمستقبل ، ويراد به ما يهجم علىٰ العبد من غير كسبه ، فهو محكوم عليه بتعريف الله تعالىٰ له وهم يعنون بذلك أن الصوفي ابن وقته لا يهمه ماضي وقته ولا آتيه؛ بل دائماً يهمه الوقت الذي هو فيه ، فهو مشتغل بالحال دون الفائت ، مستسلم لحكم الحق من غير اختيار ولا اعتراض ، ومن عارض انتكس ، فصار صاحب (مقت) وليس (وقت) ، وعندهم إذا غلب عليه الصحو قام بالشريعة ، وإن كان وقت المحو غلبت عليه أحكام الحقيقة ، وقيل : هو بداية حال السالك ، وما يعتريه من بروق تومض ثم تخمد ، وقيل : هو ما يعتري النفس من أحوال تبلغ حد المقام ، فسمي بذلك لعدم إقامته فهو أمر وقتي ، انظر لطائف الإعلام ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٦ ، رشح الزلال ٤٥ ، معجم مصطلحات الصوفية ٢٦٨. الوقت

(٣) (في) سقطت من غ.

(٤) (بل يصبر حتىٰ يهجم عليه) سقطت من بقية النسخ.

(٥) الأصل (انقشاط) ، والأقرب ما أثبته من بقية النسخ سوىٰ ق (انقسام).

(٦) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (الملك) بدل (القبض).

(٧) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح١.

البساط ، ويحذر من الانبساط[١] ، وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم : إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم ويهيج أفراحهم ، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتىٰ كأنه لم يهجم عليهم[٢] ، وقال كعب بن زهير في مدح المهاجرين[٣] :

ليسُوا مَفَاريحَ إن نالتْ رماحُهُم   قوماً وليسُوا مجَازِيعاً إذا نِيلُوا[٤]

الدرجة الثالثة قال : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : ذُهُول مَعَ صُحْبَةِ[٥] الاستِقَامَةِ ، وَمُلَازَمَةُ الرِّعَايَةِ عَلىٰ تَهذِيبِ الأَدَبِ»[٦].

«الذهول» هاهنا هو[٧] الغيبة في المشاهدة بالحال الغالب ، المذهل لصاحبه

الانبساط (١) الانبساط يعنون به السير مع الجبلة بإرسال السجية ، من غير تكلف ولا تصنع وهو قسمان مع الخلق ومع الحق ، وهو مع الخلق عدم الانعزال عنهم وإيثار النفس بالخلوة ، أو الاسترسال معهم بالفضل والمواساة وأن تسعهم بخلقك ، أما مع الحق : فكما تخاف نقمته ترجو رحمته، أما الانبساط في الانبساط فهو انطواء انبساط العبد في بسط الحق بحيث لا ترىٰ لنفسه بسطاً ولا قبضاً ، لطائف الإعلام ١/ ٢٤٥ ، رشح الزلال ٤٧ .

(٢) الأصل (عليه) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ق ، م ، ح١ ، ط.

(٣)ق (والأنصار).

(٤) ديوان كعب بن زهير ٤٢ ، وروايته :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم   قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

(٥) المنازل (صحة).

(٦) منازل السائرين (٥٢).

(٧) (هو) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

عن التفاته إلىٰ غيره ، وهذا إنما ينفع إذا كان مصحوباً بالاستقامة ، وهي حفظ حدود العلم ، والوقوف معها ، وعدم إضاعتها ، وإلا فأحسن أحوال هذا الذاهل(١) أن يكون كالمجنون الذي رفع عنه القلم ، فلا يقتدىٰ به ، ولا يعاقب علىٰ ترك(٢) الاستقامة(٣).

وأما إن كان سبب الذهول المخرج عن الاستقامة ، باستدعائه وتكلفه وإرادته فهو عاصٍ مفرط ، مضيع لأمر الله ، له حكم أمثاله من المفرطين.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله وقدس الله روحه - يقول : متىٰ كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً(٤).

وقوله : «**وَمُلَازَمَةُ الرِّعَايَةِ عَلَىٰ تَهْذِيبِ الأَدَبِ**».

يريد به ملازمته رعاية حقوق الله مع التأدب بآدابه ، فلا يخرجه ذهول عن استقامته ، ولا عن رعاية حقوق سيِّده ، ولا عن الوقوف بالأدب بين يديه(٥) ، والله المستعان.

---

(١) غ (الذهل).

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (تركه).

(٣) تقدم بيان ذلك عند الكلام عن أقسام الفناء (ص١٦٦٧).

(٤) الفتاوىٰ ٢/ ٣٩٧ ، ٤٦١ ، ١٠/ ٦٠ ، ٣٥١ ، ١١/ ٥٩٩.

(٥) ب (يدي) الله بدل (يديه).

فصل

منزلة الأدب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة : «الأدب»(١).

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم :٦] ، قال ابن عباس وغيره علموهم وأدبوهم(٢)(٣).

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع ، فالأدب اجتماع خصال الخير في العبد ، ومنه المأدبة ، وهو(٤) الطعام الذي يجمع(٥) عليه الناس.

---

(١) الأدب : يطلق علىٰ العلم والتهذيب وحميد الخصال وجميلها وحسن السيرة ، ويطلق علىٰ الفصاحة والبلاغة ، ويطلق علىٰ الاحتراز من جميع الأخطاء ، وحفظ الحد بين الغلو والجفاء ، ويكون مع الحق ومع النفس ، وهو عندهم يكون مع الشريعة ، وأدب الخدمة وأدب الصبيان والشيوخ وأدب الحقيقة ، والأديب هو الذي بلغ الغاية ، فهو العارف الرباني ، وهو من أهل البساط ، وأدب الشريعة يعنون به الوقوف عند رسومها ، وقيل : هو الورع عند أهل الشرع ، وعند أهل الحكمة : صيانة النفس. انظر : الرسالة القشيرية ٤٠٥ ، رشح الزلال ٤٦ ، لطائف الإعلام ١/ ١٨٢-١٨٧ ، معجم مصطلحات الصوفية ١٣.

(٢) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط (أدبوهم وعلموهم).

(٣) وأخرجه الطبري في تفسيره عن علي ٢٨/ ١٦٥ ، وابن كثير ٤/ ٣٩٢ ، السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٢٢٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣١٢ ، والشوكاني في فتح القدير ٥/ ٢٥٤ ، وعن ابن عباس بلفظ مختلف عن هذا أخرجه الطبراني في تفسيره ٢٨/ ١٦٦ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٣١٧ ، وعن مجاهد كما في تفسير مجاهد ٢/ ٢٨٣ ، الرسالة القشيرية ٤٠٥.

(٤) ق ، أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (وهي).

(٥) ط (يجتمع).

وعلم الأدب : هو علم إصلاح اللسان والخطاب ، وإصابة مواقعه ، وتحسين ألفاظه ، وصيانته عن الخطأ والخلل ، وهو شعبة[١] من الأدب العام[٢].

فصل

«والأدب» ثلاثة أنواع : أدب مع الله[٣] ، وأدب مع رسوله[٤] ، وشرعه[٥].

أنواع الأدب

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع :

أحدها صيانة معاملته[٦] : أن يشوبها بنقيصة.

الثاني : صيانة قلبك[٧] : أن يلتفت إلىٰ غيره.

الثالث : صيانة إرادتك[٨] أن تتعلق بما يمقتك[٩] عليه.

أقوال مأثورة في الأدب

قال أبوعلي الدقاق : العبد يصل بطاعة الله تعالىٰ إلىٰ الجنة ، ويصل بأدبه

---

(١) (شعبة) سقطت من م ، ق.

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (والله أعلم).

(٣) ط (سبحانه).

(٤) ط (ﷺ).

(٥) (وشرعه) سقطت من ش.

(٦) ش (ملتنه) وبهامشها (ملته).

(٧) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (قلبه).

(٨) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (إرادته).

(٩) ق (يمقته).

في طاعته إلىٰ الله [1].

وقال : رأيت من أراد أن يمدَّ يده[2] في الصلاة إلىٰ أنفه فقُبض علىٰ يده[3].

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع[4] المستحسنات فقيل له : وما معناه؟ فقال : أن تعامل الله[5] بالأدب سراً وعلناً [6] ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكلِّ ملاحةٍ وإن سكتت جاءت بكل مليح[7]

وقال أبو علي : من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلىٰ القتل[8].

وقال يحيىٰ بن معاذ : إذا ترك العارف أدبه مع معروفه ، فقد هلك مع الهالكين [9].

وقال أبو علي - رحمه الله[10] - : ترك الأدب يوجب الطرد ، فمن أساء

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٠٥ .

(٢) الأصل (يديه) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ق ، ح١ ، م ، ط.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٠٥ .

(٤) ط (علىٰ) بدل (مع).

(٥) أ ، ب ، غ ، ق ، م ، ح١ ، ط (تعامله سبحانه) بدل (لفظ الجلالة).

(٦) الرسالة القشيرية ٤٠٥ .

(٧) لم أجده.

(٨) الرسالة القشيرية ٤٠٦ .

(٩) الرسالة القشيرية ٤٠٦

(١٠) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

الأدب علىٰ البساط رُدَّ إلىٰ الباب ، ومن أساء الأدب علىٰ الباب رد إلىٰ سياسية الدواب[1].

وقال يحيىٰ بن معاذ-رحمه الله[2]- : من تأدَّب بأدب[3] الله صار من أهل محبة الله [4].

وقال ابن المبارك : نحن إلىٰ قليل من الأدب أحوج منا إلىٰ كثير من العلم[5].

وسئل الحسن البصري - رضي الله عنه -[6] عن أنفع الأدب؟ فقال : التفقه[7] في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك [8].

وقال سهل - رحمه الله -[9] : القوم استعانوا بالله علىٰ أمر[10] الله ، وصبروا

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٠٦.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) ش (تأدب) ، ق (بآداب).

(٤) الرسالة القشيرية ٤٠٧ وانظر حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٣.

(٥) الرسالة القشيرية ٤٠٧ ، ونحوه في الجرح والتعديل لأبي حاتم ٤/ ٣٥٤ ، وعزاه في حلية الأولياء ٥/ ١٤٤ لابن محيريز بدون لفظ (قليل).

(٦) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ط زيادة (رحمه الله).

(٧) ب (الثقة).

(٨) الرسالة القشيرية ٤٠٧ نحوه في حلية الأولياء ٢/ ١٦٢.

(٩) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(١٠) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (مراد) بدل (أمر).

لله علىٰ آداب[١] الله [٢].

وقال ابن المبارك ـ رحمه الله[٣] ـ : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدِّبون[٤].

وقال : الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف[٥].

وقال أبو حفص ـ رحمه الله[٦] ـ لما قال له الجنيد رحمه الله[٧] : لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين – فقال : حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن ، فالأدب مع الله حسن الصحبة معه ، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة علىٰ مقتضىٰ التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالس الملوك ومصاحبتهم[٨][٩].

وقال أبو نصر السراج رحمه الله[١٠] : الناس في الأدب علىٰ ثلاث طبقات :

---

(١) غ (أدب).

(٢) الرسالة القشيرية (٤٠٧).

(٣) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٤) الرسالة القشيرية ٤٠٧ بسنده ، حلية الأولياء ٨/ ١٦٩.

(٥) الرسالة القشيرية ٤٠٧ ونسبه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية ٢٢٥ لأبي بكر الوراق.

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٧) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٨) بقية النسخ (ومصاحبهم).

(٩) الرسالة القشيرية (٤٠٧) ، حلية الأولياء (١٠/ ٣٣٠).

(١٠) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

أما أهل الدنيا : فأكبر[١] آدابهم في الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم، وأسمار الملوك، وأشعار العرب.

وأما أهل الدين : فأكبر[٢] آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية : فأكثر[٣] آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلىٰ الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب[٤].

وقال سهل - رحمه الله[٥]- : من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص[٦].

وقال[٧] ابن المبارك - رحمه الله[٨] - : قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول : إنه معرفة النفس[٩]، [أراد أن أصله معرفة

(١) م، ش (فأكثر).

(٢) ق، م، غ، أ، ح١، ط (أكثر).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط (أكبر).

(٤) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٥) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٦) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٧) أ، ب، غ، ح١، ط زيادة (عبدالله).

(٨) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٩) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

النفس][1] ورعوناتها ، وتجنب تلك الرعونات.

وقال الشبلي : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب [2].

وقال بعضهم: الحق سبحانه يقول: «من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي: ألزمته الأدب ، ومن كشفت له[3] حقيقة ذاتي : ألزمته العطب ، فاختر الأدب أو العطب»[4]. ويشهد لهذا : أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ، ولم يثبت علىٰ[5] عظمة الذات.

وقال أبو عثمان - رحمه الله -[6] : إذا صحت المحبة تأكدت علىٰ المحب ملازمة الأدب[7].

وقال الثوري[8] - رحمه الله - : من لم يتأدب للوقت فوقته مقت[9].

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٢) الرسالة القشيرية ٤٠٨.

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، س ، ح١ ، ط زيادة (عن).

(٤) الرسالة القشيرية (٤٠٨).

(٥) ب ، ح١ (عن).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٧) الرسالة القشيرية (٤٠٩).

(٨) ط ، م (النوري). وهو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري ، خراساني الأصل ، بغدادي المولد يعرف بالبغوي ، لقي أحمد بن أبي الحواري ، وصحب سرياً السقطي وتوفي سنة ٢٩٥هـ ، ، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٩) ، صفة الصفوة (٢/ ٢٨٣ ، ٢٩٤) ، تاريخ بغداد (٥/ ١٣٠) طبقات الصوفية للسلمي (١٦٤) ، الرسالة القشيرية (٧٥).

(٩) الرسالة القشيرية (٤٠٩).

وقال ذو النون - رحمه الله -(١) : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء(٢).

وتأمل أحوال الرسل [صلوات الله وسلامه عليهم](٣) مع الله ، وخطابهم وسؤالهم ، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح(٤) : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة :١١٦] ولم يقل : لم أقله ، وفرقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب ، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره(٥) ، فقال :﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة :١١٦] ثم برَّأ نفسه(٦) عن(٧) علمه بغيب ربه وما يختص به(٨) فقال: [﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال :](٩) ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة :١١٦] ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه(١٠) به

---

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) الرسالة القشيرية (٤٠٩).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وهو في بقية النسخ.

(٤) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (عليه السلام).

(٥) ق (وبشره).

(٦) (ثم برَّأ نفسه) سقط من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٧) م (من).

(٨) ق ، أ ، ب ، غ ، م زيادة (سبحانه).

(٩) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(١٠) (ربه) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق .

- وهو محض التوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عزّ وجل وحده(١) المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنتَ(٢) عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء(٣) من أبخس(٤) العبيد، وأعتاهم علىٰ سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم(٥)؛ لأن مرتبة(٦) العبودية تستدعي إحسان السيد إلىٰ عبده ورحمته، فلماذا(٧) يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عتوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

---

(١) ط زيادة (هو).
(٢) جميع النسخ (وأنه).
(٣) أ (سيئ).
(٤) أ، ب، غ، ح١ (أنجس).
(٥) أ، ب، غ، ح١، ق (يعذبهم).
(٦) أ، ب، غ، ح١، ط (قربة).
(٧) أ، ب، غ، ح١ (فماذا).

وقد تقدم قوله : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي[1] عبادك ، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم ، فإذا عذبتهم : عذبتهم علىٰ علم منك بما تعذبهم عليه ، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه ، فليس في هذا استعطاف لهم ، كما يظنه الجهال ، ولا تفويض إلىٰ محض المشيئة[2] والملك المجرد عن الحكمة[3] ، كما تظنه القدرية ، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه[4] بحكمته وعدله ، وكمال علمه بحالهم ، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة :١١٨] ولم يقل: «الغفور الرحيم» ، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالىٰ ، فإنه قاله[5] في[6] وقت غضب الرب عليهم ، والأمر بهم إلىٰ النار ، فليس[7] مقام استعطاف ولا شفاعة؛ بل مقام براءة منهم ، فلو قال :«فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه[8] علىٰ أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم ، فالمقام مقام موافقة

(١) ط ، وهامش ش زيادة (هم).

(٢) القائلون بمحض المشيئة هم الأشاعرة نفاة الحكمة والتعليل القائلين بالجبر ، وتقدم الكلام عن العلل والأسباب ص١٧٢٩ ، وانظر تفصيل المسألة في رسالة الدكتور المحمود ، موقف شيخ الإسلام من الأشاعرة ٣/ ١٣١٠ وما بعدها.

(٣) أ ، ب (القدرة) بدل (الحكمة).

(٤) ط زيادة (سبحانه).

(٥) (قاله) سقطت من الأصل وما أثبته من بقية النسخ.

(٦) (في) سقطت من ح١ ، غ.

(٧) ط زيادة (هو).

(٨) ط زيادة (ربه).

للرب في غضبه علىٰ من غضب عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلىٰ ذكر العزة والحكمة ، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنىٰ : إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجز عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم ، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه[1] ، ولجهله بمقدار إساءته[2] إليه ، والكمال هو مغفرة القادر العالم ، وهو العزيز الحكيم ، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا[3] وبحمدك ، لك الحمد علىٰ حلمك بعد علمك ، واثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، لك الحمد علىٰ عفوك بعد قدرتك»[4] ، ولهذا يقترن كل

---

(١) (منه) سقطت من م.

(٢) ق (سابق) بدل (إساءته).

(٣) (ربنا) سقطت من م.

(٤) ذكره ابن كثير في التفسير وقال إسناده جيد ، وقال إنهم اليوم أربعة فإذا كانوا يوم القيامة كانوا ثمانية ، أو المقربين من حملة العرش أربعة (٤/ ٨٦) (٤/ ٤٨٩) ، وفي العظمة لأبي الشيخ (٢/ ٧٦١) ، ولفظ « حملة العرش أربعة » مخالف لنص الآية ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [الحاقة : ١٧] : والحديث الوارد في ذلك : « حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك وبحمدك علىٰ حلمك بعد علمك ، ويقول الأربعة الآخرون : سبحانك وبحمدك علىٰ عفوك بعد قدرتك » ، أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٧) ، عن شهر بن

من هاتين الصفتين بالأخرىٰ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢] وقوله: ﴿كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا(١)﴾ [النساء: ١٤٩].

وكذلك(٢) قول إبراهيم الخليل -عليه السلام-: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠] ولم يقل: «وإذا أمرضني» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر -عليه السلام- في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] ولم يقل: «فأراد ربك أن أعيبها» وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ(٣)﴾ ولم يقولوا(٤): «أراده ربهم»، ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وألطف من هذا قول موسىٰ -عليه السلام-: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل: «أطعمني».

حوشب، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٢٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤)، وابن أبي شيبة في العرش (١/ ٦٣)، وأورده ابن كثير (٤/ ٤٨٩) عن شهر بن حوشب، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٥٥).

(١) ب، م ﴿عليماً قديراً﴾ [فاطر: ٤٤].

(٢) ق (ولذالك).

(٣) ق ذكر الآية بتمامها.

(٤) الأصل، ش (يقل) وما أثبته من بقية النسخ.

وقول آدم(١) : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف :٢٣] ولم يقل : «رب قدّرت عليَّ وقضيت عليَّ».

وقول أيوب- عليه السلام- : ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء :٨٣] ، ولم يقل : «فعافني واشفني».

وقول يوسف - عليه السلام(٢)- لأبيه وإخوته : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ(٣)﴾ [يوسف :١٠٠] ولم يقل : «أخرجني من الجب» حفظاً للأدب مع إخوته ، وتفتِّياً عليهم : أن لا يخجلهم بما جرىٰ في الجب ، وقال :﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ ولم يقل : «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم ، وأضاف ما جرىٰ إلىٰ السبب ولم يضفه إلىٰ المباشر الذي هو أقرب إليه منه ، فقال :﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف :١٠٠] فأعطىٰ الفتوة والكرم والأدب حقه ، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -.

ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل :«أن يستر عورته ، وإن كان خالياً لا يراه أحد»(٤) ، أدباً مع الله ، علىٰ حسب القرب منه ، وتعظيمه وإجلاله ، وشدة

---

(١) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (عليه السلام).

(٢) (عليه السلام) سقطت من بقية النسخ.

(٣) ق زيادة ﴿وجاء بكم من البدو﴾.

(٤) للحديث الذي أخرجه أحمد (٥/ ٤) ، الترمذي. الأدب (٤/ ٩٧) ح(٢٧٦٩) وقال: حديث

الحياء منه ، ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلا عُوقِبَ ظاهراً ، وما أساء الأدب[1] باطناً إلا عوقب [باطناً[2].

وقال عبدالله بن المبارك - رحمه الله - : من تهاون بالأدب عُوقب][3] بحرمان السُّنن ، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة[4].

وقيل : الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وحقيقة «الأدب» استعمال الخلق الجميل ، ولهذا كان الأدب : استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلىٰ الفعل.

فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي[5] فيه كامنة كالنار في الزناد ، فألهمه ومكّنه ، وعرفه وأرشده ، وأرسل إليه

حسن، وأبو داود. اللباس (٤/ ٣٠٤) ح(٤٠١٧)، وذكره الألباني في الصحيحة (٤/ ٢٨٢) ، ولفظه : « احفظ عورتك إلا من زوجتك.. » وفي مسلم : « ارجع إلىٰ ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة » مسلم. الحيض (١/ ٢٦٨) ح(٣٤١).

(١) غ ، ق ، ط زيادة (أحد).

(٢) صفة الصفوة ٤/ ١٢٥ ، عن عائشة بنت أبي عثمان بن إسماعيل الحيري النيسابوري.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٤) شعب الإيمان ٣/ ١٨٢.

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (جعلها).

رسله ، وأنزل(١) كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهّله بها (٢)لكماله إلىٰ الفعل ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس :٧ - ١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة(٣) علىٰ الاعتدال والتمام ، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوىٰ ، وأن ذلك بإلهامه(٤) امتحاناً واختباراً ، ثم خص بالفلاح من زكاها فنمّاها(٥) وعلاّها ، ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه ، وهي التقوىٰ ، ثم حكم بالشقاء علىٰ من دسّاها ، فأخفاها وحقرها(٦) ، وصغرها وقمعها بالفجور(٧).

* * *

---

(١) ط زيادة (إليه).

(٢) أ ، ب ، غ سقطت (اللام).

(٣) الأصل (الدالة) وما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط.

(٤) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (نالها منه) بدل من (بإلهامه).

(٥) (فنماها) سقطت من ح١.

(٦) (وحقرها) سقطت من غ ، أ.

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

فصل

صلة قوله تعالى : ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ بالأدب

وجرت عادة القوم : أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالىٰ عن نبيه ﷺ ، حين أراه ما أراه : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم :١٧] وأبو القاسم القشيري -رحمه الله(١)- صدّر باب الأدب(٢) بهذه الآية ، وكذلك غيره(٣).

وكأنهم نظروا إلىٰ قول من قال من أهل التفسير : إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانباً ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب(٤) ، والإخلال به : أن يلتفت الناظر عن يمينه وشماله ، أو يتطلع(٥) إلىٰ ما(٦) أمام المنظور ، فالالتفات زيغ ، والتطلع إلىٰ ما(٧) أمام المنظور : طغيان ومجاوزة ، فكمال الأدب(٨) إقبال الناظر علىٰ المنظور : أن(٩) لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ، ولا يتجاوزه.

---

(١) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٢) (الأدب) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٣) باب الأدب عند القشيري في الرسالة القشيرية ٤٠٥ ، وهو تصدَّر بهذه الآية.

(٤) تفسير الطبري ٩/ ٣٤ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٨.

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ (يطلع).

(٦) (ما) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، (إلىٰ ما) سقطت من ط.

(٧) (ما) سقطت من ش.

(٨) (الأدب) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٩) (أن) سقطت من ق.

هذا معنىٰ ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

و[1] في هذه الآية أسرار عجيبة ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ : تواطأ هناك بصره وبصيرته ، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره ، فالبصيرة مواطئة[2] له ، وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر ، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه[3] : ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم : ١١ - ١٢] أي ما كذَب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر[4] ﴿ما كذّب الفؤاد ما رأىٰ﴾[5] - بتشديد الذال - أي لم يكذِّب الفؤاد البصر؛ بل صدقه وواطأه ، لصحة الفؤاد والبصر ، أو استقامة البصيرة والبصر ، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً ، وقرأ الجمهور ﴿ما كذَب الفؤاد﴾ بالتخفيف ، وهو متعد ﴿وما رأىٰ﴾ مفعوله : أي ما كذب قلبه ما رأته عيناه؛ بل واطأه ووافقه ، فلمواطأة قلبه لقالبه[6] ، وظاهره

---

(١) في بقية النسخ زيادة (الواو).

(٢) ش (مواضبة).

(٣) ط زيادة (وتعالىٰ).

(٤) أبوجعفر هو يزيد بن القعقاع المخزومي المدني أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات، قرأ علي أبي هريرة وابن عباس وقرأ عليه نافع وغيره ، وثقه ابن معين والنسائي. طبقات ابن سعد ٦/ ٣٥٢ ، التاريخ الكبير ١/ ٣٥٣ شذرات الذهب ١/ ١٧٦ ، سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٧.

(٥) تفسير الطبري ٩/ ٢٩ ، تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ ، زاد المسير ٨/ ٦٨.

(٦) (لقالبه) سقطت من أ ، ب ، غ.

لباطنه ، وبصره لبصيرته ،لم يكذب الفؤاد البصر ، ولم يتجاوز البصر حده فيطغىٰ ولم يمل عن المرئي[١] فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي ، ما جاوزه ولا مال عنه ، كما اعتدل القلب في الإقبال علىٰ الله ، والإعراض عما سواه ، فإنه أقبل علىٰ الله بكليته [وأعرض عما سواه بكليته][٢] ، وللقلب زيغ وطغيان ، [كما أن للبصر زيغاً وطغياناً][٣] ، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره ، فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلىٰ غيره ، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس ، إذا أقيمت في مقام عال رفيع : أن تتطلع إلىٰ ما هو أعلىٰ[٤] منه ، وفوقه ، ألا ترىٰ موسىٰ ﷺ لما أقيم في مقام التكليم[٥] والمناجاة : طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام ، وفَّاه حقه ، لم يلتفت بصره ولا قلبه إلىٰ غير ما أقيم[٦] فيه البتة؟.

ولأجل هذا ما عاقه عائق ، ولا وقف به مراد ، حتىٰ جاوز السماوات السبع حتىٰ عاتب موسىٰ ربه فيه، وقال: «يقول بنو إسرائيل: إني أكرم[٧] الخلق علىٰ

---

(١) الأصل (الرأي) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ق ، ط.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ ، ب ، غ.

(٤) ق (أغلىٰ).

(٥) ش (التكلم).

(٦) ط (يقيم).

(٧) أ ، ب ، غ ، ط (كريم).

الله ، [وهذا قد جاوزني وخلَّفني عُلواً ، فلو أنه وحده؟ ولكن معه كل أمته» وفي رواية للبخاري «فلما جاوزته بكىٰ ، قيل ما يبكيك؟ قال أبكي أن غلاماً بُعِث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي» (١) ، ثم جاوزه علواً](٢) فلم تعقه إرادة ، ولم تقف(٣) به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطَّرف ، فيضع قدمه عند منتهىٰ طرفه مشاكلاً لحال راكبه ، وبعد شأوه ، الذي سبق العالم أجمع في سيره ، فكان قدم البراق (٤) لا يتخلف(٥) عن(٦) موضع نظره ، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة(٧) (٨) كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة(٩)

---

(١) الحديث أخرجه البخاري. بدء الخلق (٢/ ٤٢٢) ح(٣٢٠٧) ، مسلم. الإيمان (١/ ١٤٩) ح(١٦٤) ، أحمد (٤/ ٢٠٧).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل ، ش وهو في بقية النسخ.

(٣) ب ، ح١ (تفنىٰ).

(٤) البراق : الدابة التي حملت رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ بيت المقدس ، انظر : شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٢١٠) ، فتح الباري (٢/ ٧٨).

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ط (يختلف).

(٦) أ ، ب (من).

(٧) ط (حفارة).

(٨) خفارة سبق ص١٧٨٩.

(٩)أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (مراتب).

عبوديته له ، حتىٰ خرق حجب السماوات ، وجاوز السبع الطباق ، وجاوز[1] سدرة المنتهىٰ ، ووصل إلىٰ محل من القرب سبق به الأولين والآخرين ، فانصبت إليه[2] هناك أقسام القرب انصباباً ، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً ، وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون ، فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً ، يغبطه به الأولون والآخرون ، واستقام هناك علىٰ صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ، ما زاغ البصر عنه وما طغىٰ ، فأقامه في هذا العالم علىٰ أقوم صراط من الحق والهدىٰ ، وأقسم بكلامه علىٰ ذلك في الذكر الحكيم فقال[3] : ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس : ١-٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه علىٰ الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتىٰ يجوزه[4] إلىٰ جنات النعيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

علاقة الأدب بالدين وصلته بالعمل

و«الأدب» هو الدين كله فإن ستر العورة من الأدب ، والوضوء وغسل الجنابة[5] ، والتطهر من الخبث من الأدب ، حتىٰ يقف بين يدي الله طاهراً ،

(١) ط (جاور).

(٢) ح١ (له) بدل (إليه).

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ط زيادة (تعالىٰ).

(٤) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط (يجوزونه).

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط زيادة (من الأدب).

ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله(١) - يقول: أمر الله بقدرٍ زائد علىٰ ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة(٢)، فقال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فعلق الأمر بأخذ(٣) الزينة، لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة، ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله(٤) يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده(٥)، لا سيما إذا وقف بين يديه، فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً

---

(١) ح١ (قدس الله روحه) بدل (رحمه الله).

(٢) قول شيخ الإسلام في أخذ الزينة أشار إليه شيخ الإسلام في الفتاوىٰ (٢٢/ ١٠٩)، منهاج السنة (٥/ ٣١٥).

(٣) الأصل (باسم) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط.

(٤) أ، ب، غ، ح١، م، ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٥) للحديث الوارد في ذلك وهو قوله ﷺ: «إن الله عزّ وجل إذا أنعم علىٰ عبد نعمة يحب أن يرىٰ أثر النعمة عليه..»، أخرجه الترمذي. الأدب (٥/ ١٣٣) ح(٢٨١٩) وحسنه، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٠) وقال رجاله رجال الصحيح ولم يخرجاه، ابن حبان (١٢/ ٢٣٥)، البيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ٢٧١) ح(٥٨٨٢)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٣٣٣) وقال رجاله رجال الصحيح والألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٣١٠) ح(١٣٢٠).

وباطناً.

ومن الأدب: نهىٰ النبي ﷺ المصلي[1] أن يرفع بصره إلىٰ السماء[2].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: هذا من كمال أدب الصلاة، أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلىٰ الأرض، ولا يرفع بصره إلىٰ فوق.

قال: والجهمية - لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه - ظنوا أن هذا دليل علىٰ[3] أن الله ليس فوق سماواته، علىٰ عرشه، كما أخبر به عن نفسه، واتفقت عليه رسله، وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم؛ بل هذا دليل لمن عقل عن رسول الله ﷺ علىٰ نقيض قولهم، إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يُطرق إلىٰ الأرض، ولا يرفع بصره إليهم، فما الظن بملك الملوك سبحانه؟.

وسمعته يقول - في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود[4] - إن

(١) (المصلي) سقطت من ط.

(٢) البخاري. صفة الصلاة (١/ ٢٤٤) ح(٧٥٠)، مسلم. الصلاة (١/ ٣٢١) ح(٤٢٨)، أحمد (٢/ ٣٣٣).

(٣) (علىٰ) سقطت من غ، ح١، ب، ط.

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس مسلم (١/ ٣٤٨) ح(٤٧٩)، أحمد (١/ ١٥٥)، أبو داود. الصلاة (١/ ٥٤٥) ح(٨٧٦).

القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا[1] الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولىٰ به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة، ما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم[2][3]، والصحيح: أن هذا الأدب يعم الفضاء والبنيان، كما ذكرنا في غير هذا الموضع[4]. الأدب مع الله

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليد اليمنىٰ علىٰ اليد اليسرىٰ حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد «أنّه من السنة»[5] و«كان الناس يؤمرون به» ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيم العظماء أحق به. الأدب مع الله

---

(١) م (حالة).

(٢) أ، م، ط زيادة (رضي الله عنهم).

(٣) لقوله ﷺ: «لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرِّقوا وغرِّبوا»، أخرجه البخاري. الوضوء (١/ ٦٨) ح(١٤٤)، مسلم الطهارة (١/ ٢٤٤) ح(٢٦٤)، أحمد (٥/ ٤٢١).

(٤) انظر اختيار شيخ الإسلام، وابن القيم لذلك في الاختيارات (ص٨)، تهذيب السنن (١/ ٢٢)، أعلام الموقعين (٢/ ٢٠٢) (٤/ ٢٨٠).

(٥) وضع اليد اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ حال القيام كما ورد في الموطأ، قصر الصلاة في السفر (١/ ١٥٨) ح(٤٦)، والبخاري. الصلاة (١/ ٢٤٢) ح(٧٤٠)، مسلم. الصلاة (٣٠١٨) ح(٤٠٤).

ومنها السكون في الصلاة، وهو الدّوام الذي قال الله تعالىٰ[1] فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا، ولكنه إذا[2] صلىٰ لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه[3].

قلت: هما أمران، الدَّوام عليها، والمداومة عليها، فهذا الدوام، والمداومة في قوله[4]: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، وفُسِّر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة[5].

وأدبه في استماع القراءة: أن يُلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي، ويعظم الله[6] حتىٰ لا يكون في قلبه شيء أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتىٰ يكون أقل من الهباء[7].

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالىٰ[8]: هو القيام بدينه، والتأدب

---

(١) (تعالىٰ) سقطت من ب.

(٢) ق زيادة (ما).

(٣) تفسير الطبري ٢٩/ ٥٠، تفسير البغوي ٤/ ٣٩٥.

(٤) ح١، ط زيادة (تعالىٰ).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٨).

(٦) أ، ب، غ، ح١، ط (تعالىٰ).

(٧) الهباء: الشيء المنبث، والدقيق من التراب، مختار الصحاح (٦٨٩).

(٨) (تعالىٰ) سقطت من الأصل و ش والأقرب ما أثبته من بقية النسخ.

بآدابه ظاهراً وباطناً.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفةً به[١] وبأسمائه وصفاته، ومعرفةً[٢] بدينه وشرعه، وما يحب ويكره، ونفس مستعدة قابلة ليِّنة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً، والله المستعان.

فصل

الأدب مع الرسول ﷺ

وأما الأدب مع رسول الله[٣] ﷺ: فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولاً، أو يحمله شبهة أو شك[٤]، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحَّد المرسِلَ[٥] بالعبادة والخضوع والذل[٦]، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرُسِل،

---

(١) ط (معرفته بأسمائه..).

(٢) ط (معرفته).

(٣) ط (الرسول).

(٤) الجميع (شكاً) والصحيح لغة (شك).

(٥) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٦) ق (الذات).

وتوحيد متابعة الرسول ، فلا يحاكم إلىٰ غيره ، ولا يرضىٰ بحكم غيره ، ولا يقف تنفيذ أمره ، وتصديق خبره علىٰ عرضه علىٰ قول شيخه وإمامه ، وذوي[1] مذهبه وطائفته ، ومن يعظمه ، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره ، وإلا فإن طلب السلامة : أعرض عن أمره وخيره وفوضه إليهم ، وإلا حرفه عن مواضعه ، وسمىٰ تحريفه : تأويلاً ، وحملاً ، فقال نؤوله ونحمله.

فلأنْ يلقىٰ العبدُ ربَّه بكل ذنب علىٰ الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء ، فقلت له : سألتك بالله[2] ، لو قُدِّر أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا ، وقد واجهنا بخطابه وبكلامه[3] ، أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه علىٰ رأي غيره وكلامه ومذهبه ، أم لا نتبعه حتىٰ نعرض ما سمعناه منه علىٰ آراء الناس وعقولهم؟.

فقال : بل كان الفرض المبادرة إلىٰ الامتثال من غير التفات إلىٰ سواه.

فقلت له[4] : فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأيِّ شيء نُسِخ؟.

فوضع إصبعه علىٰ فيه ، وبقي باهتاً متحيراً ، وما نطق بكلمة.

---

(١) الأصل (وذي) وما أثبته من جميع النسخ ، ط.

(٢) الأصل ، ش (الله) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٣) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (بكلامه وبخطابه).

(٤) (له) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

هذا أدب الخواص معه[1]، لا مخالفة أمره والشرك به، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم[2]، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة الله أو يتلقىٰ[3] منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة الله[4]: علىٰ العقول المتهوكة[5] المتحيرة المتناقضة[6]، وفي الأحكام: علىٰ تقليد الرجال وآرائها، والقرآن[7] والسنة إنما نقرؤهما تبركاً، لا أنا نتلقىٰ منهما أصول الدين ولا فروعه، ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته[8] ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم

---

(١) (معه) سقطت من غ.

(٢) شاهد هذه الحال أصحاب الموالد وعنايتهم في الألفاظ والألقاب في الوقت الذي يخالفون فيه هديه ﷺ وسنته وأمره ونهيه.. والله المستعان.

(٣) ش (تتلقىٰ).

(٤) المقصود بذلك عند غلاة الصوفية والمتعصبين من أصحاب المذاهب الفقهية.

(٥) ط (المنهوكة).

(٦) م (الناقضة).

(٧) (القرآن) سقطت من الأصل، والصحيح ما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٨) شأفته: أي إزالته من أصله، كالقرحة تستأصل بالكي، المعجم الوسيط ١/ ٤١٩.

بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون :٦٣-٧٤].

والناصح لنفسه ، العامل[١] علىٰ نجاتها : يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ، ويتأملها حق تأملها ، وينزلها علىٰ الواقع : يرىٰ[٢] العجب ، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك ، واسمعي يا جارة[٣]»[٤] ، والله المستعان.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ : أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ، ولا إذن ولا تصرف ، حتىٰ يأمر[٥] هو وينهىٰ ويأذن ، كما قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات :١] وهذا باق إلىٰ يوم القيامة لم[٦] ينسخ ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ، كالتقدم بين يديه في حياته ، [٧]لا فرق

---

(١) ط (العالم).

(٢) ط (فيرىٰ).

(٣) ب (جارتي).

(٤) من أمثال العرب: يضرب لمن يخاطب امرأ ويريد غيره وأول من قاله سهل بن مالك الفزاري، انظر مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٩.

(٥) غ (يأمرهم).

(٦) أ ، ب ، غ ، ط زيادة (الواو).

(٧) ط زيادة (الواو).

بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد - رضي الله عنه[١] -: لا تفتاتوا علىٰ رسول الله ﷺ [بشيء حتىٰ يقضيه الله علىٰ لسانه[٢].

وقال الضحاك - رحمه الله - : لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ][٣][٤].

وقال أبو عبيدة - رحمه الله[٥] - : تقول[٦] العرب : لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب ، أي لا تعجل[٧] بالأمر والنهي دونه[٨].

وقال غيره : لا تأمروا حتىٰ يأمروا ، ولا تنهوا حتىٰ ينهىٰ.

ومن الأدب معه : أن لا ترفع الأصوات فوق صوته ، فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ، ونتائج الأفكار علىٰ سُنَّتِهِ وما جاء به؟ أترىٰ ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الأصوات فوق صوته موجب لحبوطها؟.

---

(١) ط (رحمه الله).

(٢) تفسير الطبري ٢٦/ ١١٦ ، تفسير البغوي ٤/ ٢٠٩ ، ابن كثير ٤٤/ ٢٤٣.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٢ ، وفي الطبري عن زيد ٢٦/ ١١٧ ، والذي نقل عن الضحاك قوله : «يعني بذلك في القتال» تفسير الطبري ٢٦/ ١١٧.

(٥) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٦) بقية النسخ (تقول).

(٧) ط (تعجلوا).

(٨) تفسير الطبري ٢٦/ ١١٦ ، تفسير البغوي ٤/ ٢٠٨.

ومن الأدب معه: أن لا تجعل[١] دعاءه[٢] كدعاء غيره، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً؛ بل[٣] قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ المفعول[٤]، أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنىٰ لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً؛ إن شاء أجاب، وإن شاء ترك؛ بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل، أي دعاؤه إياكم[٥].

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه علىٰ أمر جامع - من خطبة، أو جهاد أو رباط[٦] - لم يذهب أحد منهم مذهباً في حاجته[٧] حتىٰ يستأذنه، كما قال

---

(١) أ، ب، غ، ح١، م (يجعل).

(٢) ش (دعاؤه).

(٣) (بل) سقطت من أ، ب، غ.

(٤) أ، ب، ح١ (الفعل).

(٥) تفسير الطبري ٨/ ١٧٧، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٧، لباب النقول ١٢٦.

(٦) (رباط) سقطت من م.

(٧) ش (حاجة له).

تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور :٦٢] ، فإذا كان هذا[1] مذهباً مقيداً لحاجة[2] عارضة ،لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين : أصوله وفروعه ، دقيقه وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل :٤٣ ، الأنبياء :٧].

ومن الأدب معه : أن لا يستشكل قوله؛ بل يستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصّه بقياس؛ بل تهدر الأقيسة وتلغىٰ[3] لنصوصه ، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال تسميه[4] أصحابه معقولاً ، نعم هو مجهول ، وعن الصواب معزول ، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ علىٰ موافقة أحد ، فكل هذا من قلّة الأدب معه ﷺ[5] ، وهو عين الجراءة[6].

فصل[7]

وأما الأدب مع الخلق : فهو معاملتهم - علىٰ اختلاف مراتبهم - بما يليق الأدب مع الخلق

(١) (هذا) سقطت من ش.

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ط (بحاجة).

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ط (تلقىٰ).

(٤) أ ، ب ، غ ، ش ، ح١ ، ط (يسميه).

(٥) (ﷺ) ليست في الأصل.

(٦) ب ، ط (الجرأة).

(٧) (فصل) سقط من ط.

بهم، ولكل(١) مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص، فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به، وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته، ولكلِّ حالٍ أدب: فللأكل(٢) آداب وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره.

فما استُجْلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلىٰ الأدب مع الوالدين: كيف نَجَّىٰ صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة(٣)؟ والإخلال به مع الأم -تأويلاً وإقبالاً- علىٰ الصلاة كيف امتُحن صاحبه بهدم صومعته(٤)، وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟.

---

(١) أ، ب، غ، ح١، ق، ط (فلكل).

(٢) (فللأكل) سقطت من ش.

(٣) قصة أصحاب الغار أخرجها: البخاري. الأدب (٤/ ٨٧) ح(٥٩٨٤)، مسلم. الذكر (٤/ ٢٠٩٩) ح(٢٧٤٣)، أحمد (٢/ ١١٦).

(٤) قصة جريج الراهب أخرجها: البخاري. الأنبياء (٢/ ٤٨٧) ح(٣٤٨٦)، مسلم. البر والصلة (٤/ ١٩٧٦) ح(٢٥٥٠)، أحمد (٢/ ٣٠٨، ٣٨٥، ٤٣٣).

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب [هو الذي ساقه](١) إلىٰ الحرمان؟.

وانظر قلة أدب عوف(٢) مع خالد: كيف حرمه السَّلَب بعد أن بَرَد بيديه؟(٣).

وانظر أدب الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأرضاه(٤) مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدَّم بين يديه، قال(٥): «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ»(٦)، كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلىٰ خلفه - وقد أومأ إليه أن: اثبت مكانك - جَمْزاً(٧)، وسعياً إلىٰ قدام؟ بكل خطوة إلىٰ وراء مراحل إلىٰ قدَّام، تنقطع فيها أعناق المطي(٨).

---

(١) ما بين المعقوفين في ط (هي التي ساقته).

(٢) عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني، أبو عبد الرحمن، من نبلاء الصحابة، شهد فتح مكة، حدث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولاني، توفي سنة ٧٣هـ/ التاريخ الكبير (٧/ ٥٦)، أسد الغابة (٤/ ٣١٢)، الإصابة (٧/ ١٧٩)، شذرات الذهب (١/ ٧٩)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٧).

(٣) قصة عوف بن مالك مع خالد أخرجها: مسلم في الجهاد (٣/ ١٣٧٣) ح(١٧٥٣)، وأحمد (٦/ ٢٨)، أبو داود. الجهاد (٣/ ٧١) ح(٢٧١٩).

(٤) (وأرضاه) سقطت من ط.

(٥) أ، ب، غ، ط (فقال).

(٦) مسلم. الصلاة (١/ ٣١٦) ح(٤٢١)، أبو داود. الصلاة (١/ ٢٤٥) ح(٩٤٠)، الموطأ (١/ ١٦٣).

(٧) جمزاً: الجمز ضرب من السير أشد من العَنَق، مختار الصحاح (١٠٩).

(٨) أ، ب، غ، م، ح١، ق، ط زيادة (والله أعلم).

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله[١]- :

حدّ الأدب

«الأَدَبُ حِفظُ الحَدِّ، بَينَ الغُلُوِّ وَالجَفَاءِ، بِمَعرِفَةِ ضَرَرِ العُدوَانِ»[٢].

هذا من أحسن الحدود، فإن الانحراف إلىٰ أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلَّة الأدب، والأدب: الوقوف[٣] في الوسط بين الطرفين، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدوداً له، فكلاهما عدوان، والله لا يحب المعتدين، والعدوان: هو سوء الأدب.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه[٤].

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء، ولم يوف الصلاة آدابها التي سنَّها رسول الله ﷺ وفعلها، وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر

---

(١) (رحمه الله) سقطت من ط.

(٢) منازل السائرين ٥٢.

(٣) م، ح١، ق (الوقف).

(٤) قال الحسن البصري، السنة بين الغالي والجافي، سنن الدارمي ١/ ٨٣ رقم(٢٢٢)، وقال يزيد بن عبدالله: «القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة» المصدر السابق، وفي الإبانة عن شريعة الديانة ١/ ٣٥٧ وما بعدها، أقوال السلف كلها في هذا المعنىٰ.

بالأذكار والدعوات التي شرعت سراً[1]، وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه، كالتشهد الأول والسلام الذي حذفه سنة[2]، وزيادة التطويل علىٰ ما فعله

الجهر بالذكر بعد الصلاة

(١) مسألة الجهر بالذكر بعد الصلاة المكتوبة اختلف فيها أهل العلم علىٰ أقوال: فمنهم من يرىٰ عدم الجهر في الأذكار التي تقال بعد الصلاة، والراجح والله أعلم خلاف ذلك لحديث ابن عباس: «كان رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة المكتوبة علىٰ عهد رسول الله ﷺ ..» رواه البخاري، انظر الفتح ٢/ ٣٢٤، شرح النووي لمسلم ٣/ ٩٠، الأم للشافعي ١/ ١١٠، حاشية ابن عابدين ١/ ٦٦٠، عمدة القاري للعيني ٦/ ١٢٦، المعيار المعرب ١/ ٢٨٧، وانظر مسألة الجهر بالدعاء والمشروع الإسرار به أقوال العلماء عن قوله تعالىٰ: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ تفسير الطبري ٥/ ٥١٤، أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٤، حلية الأولياء ٦/ ٧٣، شرح النووي لمسلم ١٧/ ٢٥، فتح الباري٣٢/ ٤٤١، /٢ ٢٦٢، ٦/ ١٦٦ وانظر حول المواضع التي يستحب فيها الجهر بالذكر مع دراسة جيدة كتاب (سياحة الذكر في الجهر بالدعاء) لأبي الحسنات اللكنوي.

تخفيف التشهد الأول

(٢) سنية تخفيف التشهد الأول يدل علىٰ ذلك حديث ابن مسعود، قال: «كان النبي ﷺ إذا جلس في الركعتين الأوليين كأنه علىٰ الرضف»، أحمد ١/ ٢٨٦، الترمذي. الصلاة ٢/ ٢٠٢ رقم ٣٦٦ وحسنه، النسائي ١/ ٢٥٤ ح ٧٦٤، أبو داود ١/ ٦٠٦ح ٩٩٥، الحاكم ١/ ٢٦٩، والبغوي في شرح السنة ١/ ١٦٨ رقم ٦٧٠، الشافعي في الأم ١/ ١٢١، كلهم من حديث أبي عبد الله بن عبدالله بن مسعود عن أبيه، ورجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، كما ذكر ذلك الترمذي في السنن، والدارقطني في العلل ٥/ ٣٠٨، وقال ابن حجر إنه منقطع كما في تلخيص الحبير (١/ ٤٧٤.

وتخفيف الجلوس للتشهد الأول ثبت عن أبي بكر أنه كان إذا جلس في الركعتين كأنه علىٰ الرضف كما في مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٢٩٠ وصحح إسناده ابن حجر في التلخيص الكبير، وكذلك نهوض الرسول ﷺ بعد قراءة التشهد كما في حديث ابن مسعود، أخرجه الإمام أحمد ١/ ٤٥٩، وابن خزيمة في صحيحه برقم (٧٠٢).

رسول الله ﷺ، لا على ما يظنه سرّاق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه[1]، فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه، وقد صانه الله من[2] ذلك، وكان يأمرهم بالتخفيف، ويؤمهم بالصَّافات، ويأمرهم بالتخفيف، وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلى البقيع، فيقضي حاجته، ويأتي أهله ويتوضأ، ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى، فهذا هو التخفيف الذي أمر به، لا نقر الصلاة وسرقها، إن ذلك[3] اختصار؛ بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم، ويسمى به مصلياً، وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع على القول الآخر، وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جداً، فأكل منه لقمة

حذف السلام: أما ما السنة حذفه: يعني عدم مدِّه وتطويله، فهو السلام، حيث يرى أكثر الفقهاء أن حذفه سنة وقال الترمذي هو الذي يستحبه أهل العلم، انظر: المغني ٢/ ٢٤٩، الفتاوى الحديثة للسخاوي ١/ ٣٧٧، وحذفه: أن لا تمده، قاله ابن المبارك كما في سنن الترمذي ١/ ٣٢٩، وقال البوشنجي كما روى ذلك عنه البيهقي في سننه ٢/ ٢٥٦، وقال به أحمد كما في المغني ٢/ ٢٤٩ وابن الأثير كما في النهاية ١/ ٣٥٦ قال هو تخفيفه وترك الإطالة فيه، ويستدلون لهذا بحديث: «حذف السلام سنة» أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٢)، أبو داود (١/ ٦١٠) ح(١٠٠٤)، وابن خزيمة (٧٣٤)، والحاكم (١/ ٢٣١)، والبيهقي (٢/ ١٨٠)، والحديث منكر لا يصح رفعه، انظر: الجرح والتعديل (١/ ٢٦٩)، والعلل لأبي حاتم (١/ ١٣٢)، العلل للدارقطني (٩/ ٢٤٦) ورجح وقفه، وللسيوطي رسالة مطبوعة حول حذف السلام.

(١) م (يشهونه).

(٢) غ (عن).

(٣) (فإن ذلك) سقطت من الأصل، ش وما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ق، ط وفي م (ذاك).

أو لقمتين، فماذا يغنيان عنه؟ ولكن لو أحسَّ بجوعه لما قام عن[1] الطعام حتىٰ يشبع منه وهو يقدر علىٰ ذلك؛ لكن القلب شبعان من شيء آخر.

ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء -عليهم السلام- : أن لا يغلو فيهم، كما غلت النصارىٰ في المسيح، ولا يجفو عنهم، كما جفت اليهود، فالنصارىٰ عبدوهم، واليهود قتلوهم وكذبوهم، والأمة الوسط: آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم، واتبعوا ما جاؤوا به.

ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم[2]، بحيث[3] يشتغل بها عن حقوق الله، أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لا يجفو عنها حتىٰ يعطلها بالكلية، فإن الطرفين من العدوان الضَّار، وعلىٰ هذا الحد، فحقيقة الأدب: هو[4] العَدْلُ[5].

* * *

(١) ط (من).

(٢) أ، ب، غ، ح١، ق، ط زيادة (ولا يستغرق فيها).

(٣) م، ب (حيث).

(٤) بقية النسخ (هي).

(٥) أ، ب، غ، م، ح١، ط زيادة (والله أعلم).

فصل

درجات الأدب

الدرجة الأولى

قال: «وَهُوَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ، الدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: مَنْعُ الخَوْفِ: أَنْ[1] يَتَعَدَّىٰ إِلَىٰ اليَأْسِ، وَحَبْسُ الرَّجَاءِ: أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الأَمْنِ[2]، وَضَبْطُ السُّرُورِ: أَنْ يُضَاهِيَ الجَرَاءَةَ[3]»[4].

يريد: أنه لا يدع الخوف يفضي به إلىٰ حدٍّ يوقعه في القنوط، واليأس من رحمة الله، فإن هذا خوف[5] مذموم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله[6] - يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله، فما زاد علىٰ ذلك، فهو غير محتاج إليه.

وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة الأدب علىٰ رحمة الله تعالىٰ، التي سبقت غضبه، وجهلٌ بها.

وأما «حَبْسُ الرَّجَاءِ: أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الأَمْنِ».

فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلىٰ حد يأمن معه العقوبة، فإنه لا يأمن مكر الله إلا

---

(١) ط زيادة (لا).

(٢) (إلىٰ الأمن) سقطت من ق.

(٣) ش، ومنازل السائرين (الجرأة).

(٤) منازل السائرين ٥٣.

(٥) ط (الخوف).

(٦) أ، ب، م زيادة (تعالىٰ).

القوم الخاسرون ، وهذا انحراف[1] في الطرف الآخر.

بل حد الرجاء : ما طيَّب لك العبادة ، وحملك علىٰ السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة ، فإذا انقطعت وقفت السفينة ، وإذا زادت ألقتها إلىٰ المهالك ، وإذا كانت بقدرٍ : أوصلتها[2] إلىٰ البغية.

وأما «**ضَبطُ السُّرُورِ : أَنْ يَخرُجَ إِلىٰ مُشَابَهَةِ الجَرَاءَةِ[3]**».

فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم ، الذين لا تستفزهم[4] السراء ، فتغلب[5] شكرهم ، ولا تضعفهم الضراء ، فتغلب صبرهم ، كما قيل :

لا تغلب السرَّاء منهم شكرهم كلا ، ولا الضرَّاء صبر الصَّابر[6]

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته ، وتشبهه في صفاته ، ومواهب الرب تبارك وتعالىٰ تنزل علىٰ القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فإذا نزلت علىٰ القلب تلك المواهب : وثَبَتْ لتأخذ قسطَها منها ، وتصيِّره من عدتها وحواصلها ، فالمسترسل معها ، الجاهل بها : يدعها تستوفي ذلك ، فبينا هو في موهبة للقلب[7] والروح وعدة وقوة له ، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس

---

(١) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (إغراق) بدل (انحراف).

(٢) ق (وصلت).

(٣) ش ، ومنازل السائرين (الجرأة).

(٤) الأصل (يستفزهم) وما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٥) الأصل (فيغلب) وما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٦) بيت الشعر : لم أجده.

(٧) ب ، ط (القلب).

وآلتها ، وعددها ، فصالت به وطغت؛ لأنها رأت غناها به ،والإنسان يطغىٰ أن رآه استغنىٰ بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطراً ، وأجل قدراً من المال ، بما لا نسبة بينهما : من علم ، أو حال ، أو معرفة ، أو كشف؟ فإذا صار ذلك من حاصلها : انحرف العبد به - ولا بد - إلىٰ طرف مذموم من جراءة[1] أو شطح ، أو إدلال ، ونحو ذلك.

والله[2] كم ههنا من قتيل ، وسليب وجريح[3] يقول : من أين أتيت؟ ومن أين دُهِيت[4]؟ ومن أين أُصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك : أن يغلق عنه باب المزيد ، ولهذا[5] العارفون وأرباب البصائر : إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلىٰ طرف الذل والانكسار ، ومطالعة عيوب النفوس ، واستدعوا حارس الخوف ، وحافظوا علىٰ الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلىٰ أقرب الخلق من الله ، وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكة يوم الفتح، وذقْنه تمسُّ قربوس[6] سرجه :

---

(١) ش (جرأة).

(٢) ط (فوالله).

(٣) الأصل (وحريب) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٤) أ ، ب ، غ (ذهبت).

(٥) ط زيادة (كان).

(٦) قربوس: اسم للسَّرج ، مختار الصحاح ٥٢٧ ، وفي المعجم الوسيط : حنو السرج (٢/ ٧٢٣).

انخفاضاً وانكساراً، وتواضعاً لربه[1] تعالىٰ في مثل ذلك[2] الحال، التي عادة النفوس البشرية فيها: أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، ويرفعها إلىٰ عنان السماء.

فالرجل: من صان فتحه ونصيبه من الله، ووارده[3] عن استراق نفسه، وبخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به، فيا له من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها، والله المستعان.

فصل

الدرجة الثانية

قال[4]: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الخُرُوجُ مِنَ[5] الخَوْفِ إِلىٰ مَيدَانِ القَبْضِ، وَالصُّعُودُ[6] عَنِ[7] الرَّجَاءِ إِلىٰ مَيدَانِ البَسْطِ، ثُمَّ[8] التَّرَقِّي عَنِ[9] السُّرُورِ إِلىٰ مَيدَانِ المُشَاهَدَةِ»[10].

---

(١) ب (لله).

(٢) ش، ط (تلك).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط (وواراه).

(٤) أ زيادة (وهو علىٰ ثلاث درجات).

(٥) ط (عن).

(٦) ق (القعود).

(٧) ط (من).

(٨) منازل السائرين (و) بدل (ثم).

(٩) ط (من).

(١٠) منازل السائرين ٥٣.

ذكر في الدرجة الأولىٰ : كيف يحفظ الحد بين المقامات ، حتىٰ لا يتعدىٰ إلىٰ غلو أو جفاء[1] ، وذلك سوء أدب.

فذكر منع[2] الخوف : أن يخرجه إلىٰ اليأس ، و[3]الرجاء : أن يخرجه إلىٰ الأمن و[4]السرور : أن يخرجه إلىٰ الجراءة[5].

ثم ذكر في هذه الدرجة: أدب الترقي من هذه الثلاثة إلىٰ ما يحفظها عليه[6]، ولا يضيعها بالكلية ، كما أن في الدرجة الأولىٰ : لا يبالغ به[7]؛ بل يكون خروجه من الخوف إلىٰ القبض ، يعني لا يزايل الخوف بالكلية ، (فإن قبضه)[8] لا يؤيسه ولا يقنطه ، ولا يحمله علىٰ مخالفة ولا بطالة[9] ، وكذلك رجاؤه لا يقعد به عن ميدان[10] البسط؛ بل يكون بين القبض والبسط، وهذه حالة[11]

---

(١) (الألف) سقطت من ش.

(٢) ط (مع).

(٣) ط زيادة (ومع).

(٤) ط زيادة (ومع).

(٥) ش (الجرأة).

(٦) أ ، ب ، غ ، ط (يحفظه عليها).

(٧) (به) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ .

(٨) (فإن قبضه) سقطت من الأصل وما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط.

(٩) الأصل (يطالبه) وما أثبته من بقية النسخ و ط.

(١٠) ب (بيان).

(١١) ط (حال).

الكمال[1] ، وهي السير بين القبض والبسط.

و[2]سروره : لا يقصد[3] به عن ترقيه إلىٰ ميدان مشاهدته ، بل يرقىٰ[4] بسروره إلىٰ المشاهدة ، ويرجع من رجائه إلىٰ البسط ، ومن خوفه إلىٰ القبض.

ومقصوده : أن ينتقل من أشباح هذه الأحوال إلىٰ أرواحها ، فإن الخوف شبح ، والقبض روحه ، والرجاء شبح ، والبسط روحه ، والسرور شبح ، والمشاهدة روحه ، فيكون حظه من هذه الثلاثة : أرواحها وحقائقها ، لا صورها ورسومها.

فصل

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : مَعرِفَةُ الأَدَبِ ، ثُمَّ الفَنَاءُ[5] عَنِ التَّأَدُّبِ بِتَأدِيبِ الحَقِّ ، ثُمَّ الخَلَاصُ مِن شُهُودِ أَعبَاءِ الأَدَبِ**»[6]. الدرجة الثالثة

قوله : «**مَعْرِفَةُ الأَدَبِ**».

يعني لا بد من الاطلاع علىٰ حقيقته[7] في كل درجة ، وإنما يكون ذلك في

---

(١) ب (الكمل).

(٢) (الواو) سقطت من الأصل ، ش والأقرب إثباتها كما في بقية النسخ.

(٣) الأصل (لا يقصد) وما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٤) ش (يرقىٰ).

(٥) المنازل (الفنىٰ).

(٦) منازل السائرين ٥٣.

(٧) أ ، غ (حقيقة).

الدرجة الثالثة ، [فإنه يشرف منها علىٰ الأدب في الدرجتين الأوليين[1] ، فإذا عرفه وصار له حالاً][2] ، فإنه ينبغي له أن يفنىٰ عنه ، بأن يُغلِّب عليه شهود من أقامه فيه ، فينسبه إليه تعالىٰ دون نفسه ، ويفنىٰ عن رؤية نفسه ، وقيامها بالأدب بشهود الفضل لمن أقامه[3] فيه ومنّته ، فهذا هو الفناء عن التأدُّب بتأديب[4] الحق.

قوله : «ثُمَّ الخَلَاصُ مِن شُهُودِ أَعْبَاءِ التَّأَدُّبِ».

يعني : أنه يفنىٰ عن مشاهدة الأدب بالكلية ، لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيبته عن الأدب ، ففناؤه عن الأدب فيها[5] : هو الأدب حقيقة ، فيستريح حينئذ[6] من كلفة حمل أعباء الأدب وأثقاله ، لأن استغراقه في شهود الحقيقة لم يبق عليه شيئاً من أعباء الأدب[7].

* * *

(١) الأصل ، ق (الأوليتين) ، ش (مهمل بدون نقط) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من أ.

(٣) ط (أقامها).

(٤) أ ، ب ، غ (بتأدب).

(٥) (فيها) سقطت من ح١ ، م ، ب.

(٦) (حينئذ) سقطت من ب.

(٧) أ ، ب ، غ ، ط زيادة (والله سبحانه وتعالىٰ أعلم) و م ، ق زيادة (والله أعلم).

فصل(١)

منزلة اليقين

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «اليقين»(٢).

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وفيه(٣) تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه، وإشارتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال(٤) تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا(٥) مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

(١) ش (باب اليقين).

(٢) اليقين: هو السكون والاطمئنان لما غاب بناءً علىٰ ما حصل من الإيمان به، وارتفع الريب عنه، بناءً علىٰ قوة الدليل، فهو علم اليقين، وإذا كان عند شهود الفعل في الوحداني في كل شيء فهو عين اليقين، فإذا حصل شمس التجلي كان حق اليقين، وهو ارتفاع الشك بحصول المشاهدة، وهو علم القلوب وقلة الاهتمام للغد وزوال المعارضات، وارتفاع الريب في مشهد الغيب، فعين اليقين ما كان من طريق الكشوف، وله عندهم اسم ورسم وعلم وعين وحق، فالاسم والرسم للعوام، والعلم للأولياء، والعين لخواص الأولياء، والحق للأنبياء. انظر أقوالهم في حدِّه وتعريفه في الرسالة القشيرية ٢٨١، التعرف ١٢١، عوارف المعارف آخر كتاب إحياء علوم الدين ٥/ ٢٥٠، قوت القلوب ١/ ١٧٣، كشف المحجوب ٢/ ٦٢٥-٦٢٦.

(٣) ط (به).

(٤) ط زيادة (الله).

(٥) الأصل (وجعلناهم).

وخصَّ سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين ، فقال ، وهو أصدق القائلين : ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات : ٢٠].

وخصَّ أهل اليقين بالهدىٰ والفلاح من بين العالمين[١] فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة : ٤ - ٥].

وأخبر عن أهل النار : بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين ، فقال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية : ٣٢].

فـ «اليقين» روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصدّيقيَّة ، وهو قُطْبُ رَحَىٰ[٢] هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروىٰ خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خثيمة عن عبدالله[٣] عن النبي ﷺ قال : «**لا ترضين أحداً بسخط الله ، ولا تحمدنَّ أحداً علىٰ فضل الله ، ولا تذمنَّ أحداً علىٰ ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ، ولا يردُّه عنك كراهية كاره ، وإنَّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضىٰ واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[٤].

---

(١) الأصل (العاملين) ، م (القائلين) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٢) (رحىٰ) سقطت من ط.

(٣) ط زيادة (بن مسعود).

(٤) أخرجه من حديث ابن مسعود : أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٢١ ، ١٠/ ٤١ ، وتكلم فيه

واليقين قرين التوكل، ولهذا فسر التوكل[1] بقوة اليقين.

صلة اليقين بالتوكل

والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حَسُن اقتران الهدىٰ به، قال[2] تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله: ﴿وما لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتىٰ وصل «اليقين» إلىٰ القلب امتلأ به[3] نوراً وإشراقاً، وانتفىٰ عنه كل ريب وشك وسخط وهمٍّ وغمٍ، فامتلأ محبة لله، وخوفاً منه ورضىٰ به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

واخْتُلِف فيه: هل هو كسبي، أو موهبي؟.

تعريف اليقين والأقوال فيه

فقيل: هو العلم المستودع في القلوب يشير إلىٰ أنه غير كسبي[4].

وقال سهل - رحمه الله[5] -: اليقين من زيادة الإيمان، ولا ريب أن الإيمان كسبي[6].

الطبراني في الكبير ١٠/ ٢٦٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٢٢١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧١)، فيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع.

(١) (التوكل) سقطت من أ، ب.

(٢) ق زيادة (الله).

(٣) (به) سقطت من ط.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٢.

(٥) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٢ ولفظه (شعبة من الإيمان) وهو دون التصديق.

والتحقيق : أنه كسبي باعتبار أسبابه موهبي باعتبار نفسه وذاته.

قال سهل : ابتداؤه المكاشفة ، كما قال بعض السلف : «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» ثم المعاينة والمشاهدة [1].

وقال ابن خفيف[2] -رحمه الله[3]-: هو تحقُّق الأسرار بأحكام المغيبات[4].

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم تعارضه[5][6] الشكوك ، واليقين لا شك فيه[7].

وعند القوم : اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون إلىٰ غير الله [8].

وقال ذو النون ـ رحمه الله[9]ـ : اليقين يدعو إلىٰ قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلىٰ الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، وهي تورث النظر في العواقب[10].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٢ ، نحوه في سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٠١ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٠٣ ، التعرف ١٢٢ ، والقائل هو عامر بن عبد قيس ، وقيل علي بن أبي طالب.

(٢) ق (حفيف) ، وهو محمد بن خفيف ابن أسفكشاذ الضبي الشيرازي ، شيخ الصوفية في وقته ، صحب رويماً والجريري وأبا العباس بن عطاء، توفي سنة ٣٧١هـ/ طبقات الصوفية (٤٦٢)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٨٥) ، شذرات الذهب(٣/ ٧٦) ، الرسالة القشيرية (١١٢).

(٣) (رحمه الله) في الأصل فقط.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٢ ، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٦.

(٥) الأصل وغيره (بعارضه) والأقرب ما أثبته من ب ، ط.

(٦) في الرسالة القشيرية (العلم بمعارضة).

(٧) الرسالة القشيرية ٢٨٢.

(٨) نحوه في الرسالة القشيرية ٢٨٢ عن سهل بن عبدالله.

(٩) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(١٠) الرسالة القشيرية ٢٨٣ ، في شعب الإيمان (التفكر يورث الحكمة) ٥/ ١٥١ .

وقال : وثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس في العشرة ، وترك المدح لهم في العطية ، والتنزه عن ذمهم عند المنع ، وثلاثة من أعلامه أيضاً : النظر إلىٰ الله في كل شيء ، والرجوع إليه في كل أمر ، والاستعانة به في كل حال (١).

وقال الجنيد ـ رحمه الله(٢) ـ : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ، ولا يتغير في القلب (٣).

وقال ابن عطاء – رحمه الله(٤) – : علىٰ قدر قربهم من التقوىٰ أدركوا من اليقين(٥).

وأصل «التقوىٰ» مباينة النهي ، وهو مباينة النفس ، فعلىٰ(٦) قدر مفارقتهم(٧) النفس وصلوا إلىٰ اليقين.

وقيل : اليقين هو المكاشفة(٨) ، وهي(٩) علىٰ ثلاثة أوجه : مكاشفة في

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٣ ، حلية الأولياء ٩/ ٣٦٢ ، ٩/ ٣٤١ .

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) الرسالة القشيرية (٢٨٣) ، مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٤).

(٤) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٥) الرسالة القشيرية (٢٨٣) ، حلية الأولياء (١٠/ ١٩٩) نسبه لسهل التستري.

(٦) ق (وعلىٰ) بدل (الفاء) (واو).

(٧) الأصل (مقاربتهم) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٨) تقدم التعريف بالمكاشفة ص١٨٢٩ .

(٩) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (وهو).

الأخبـار ، ومكاشـفة بإظهـار القـدرة ، ومكاشـفة القلـوب بحقـائق الإيمان[١].

ومراد القوم بالمكاشفة : ظهور الشيء للقلب بحيث تصير[٢] نسبته إليه كنسبة المرئي إلىٰ العين ، فلا يبقىٰ معه شك ولا ريب أصلاً ، وهذا نهاية الإيمان ، وهو مقام الإحسان.

وقد يريدون بها أمراً آخر ، وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة عند أوائل تجرُّد الروح عن البدن.

ومن أشار منهم إلىٰ غير هذين : فقد غلط ولُبِّس عليه.

وقال السري : اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك ، لتيقنك أن حركتك[٣] فيها لا تنفعك ، ولا ترد عنك مقضياً[٤].

وقال أبو بكر الوراق[٥] - رحمه الله[٦] - : اليقين ملاك القلب ، وبه كمال

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٣ ، نحوه في حلية الأولياء ١٠/ ٢٠٣.

(٢) ط (يصير).

(٣) غ (حرتك).

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٤ بسنده.

(٥) أبو بكر الوراق ، محمد بن عمر الحكيم ، أصله من ترمذ وأقام ببلخ ، له كتب في أنواع الرياضات والآداب ، صحب أحمد بن خضرويه/ حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٥) ، صفة الصفوة (٤/ ١٣٩) ، طبقات الصوفية للسلمي (٢٢١) ، الرسالة القشيرية (٨٤).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

الإيمان، وباليقين عُرِف الله، وبالعقل عقل عن الله [1].

وقال الجنيد - رحمه الله [2] - : قد مشىٰ رجال باليقين علىٰ الماء، ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقيناً [3].

المفاضلة بين اليقين والحضور

وقد اختلف في تفضيل «اليقين» علىٰ «الحضور» [4] أو [5] الحضور علىٰ اليقين.

فقيل: الحضور أفضل؛ لأنه وطنات، واليقين خطرات [6]، بعضهم رجح اليقين، وقال: هو غاية الإيمان، والأول: رأىٰ أن اليقين ابتداء الحضور، فكأنه جعل اليقين ابتداء، والحضور دواماً [7].

وهذا الخلاف لا يتبين، فإن اليقين لا ينفك عن الحضور، ولا الحضور

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٤.

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٨٤، وفي اليقين لابن أبي الدنيا ١/ ٣٦، قيل لعيسىٰ: بأي شيء تمشي علىٰ الماء، قال: بالإيمان واليقين.

(٤) الحضور: حضور القلب بالحق في تجلياته الذاتية والوصفية والفعلية عند غيبته بالحق عن الخلق أو بالخلق عن الخلق، وهو ناتج عن صفاء اليقين فهو كالحاضر عنده، وإن كان غائباً عنه، قال النوري: «إذا تغيبت بدا، وإن بدا غيبني».

انظر الرسالة القشيرية ٢٨٤، رشح الزلال ٧٨، معجم مصطلحات الصوفية ٧٨.

(٥) (الهمزة) سقطت من ح١، غ، ط.

(٦) أ، ب، غ، ح١ (خطوات).

(٧) انظر قول سهل في الرسالة القشيرية ٢٨٤: «الحضور وطنات واليقين خطرات».

عن اليقين ؛ بل[1] في اليقين من[2] زيادة الإيمان ، ومعرفة تفاصيله وشعبه ، وتنزيلها منازلها : ما ليس في الحضور ، فهو أكمل منه من هذا الوجه ، وفي الحضور من الجمعية ، وعدم التفرقة ، والدخول في الفناء : ما قد ينفك عنه اليقين ، فاليقين أخص بالمعرفة ، والحضور أخص بالإرادة ، والله أعلم.

وقال النهرجوري – رحمه الله –[3] : إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة ، والرخاء[4] عنده[5] مصيبة[6].

وقال أبو بكر الورّاق ـ رحمه الله[7] ـ : اليقين علىٰ ثلاثة أوجه : يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة[8].

يريد بيقين الخبر : سكون القلب إلىٰ خبر المخبر ووثوقه[9] به و[10] بيقين الدلالة : ما هو فوقه ، وهو أن يقيم له – مع وثوقه بصدقه – الدلالة[11] علىٰ ما

---

(١) الأصل (بلىٰ) والأقرب ما أثبته من غ ، ب ، م ، ط.

(٢) (من) سقطت م ح١.

(٣) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٤) الأصل (الرجاء) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ و ط.

(٥) (عنده) سقطت من ش.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨٥ ، مفتاح دار السعادة ١/ ١٥٥.

(٧) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٨) نحوه في سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٣ ، الرسالة القشيرية ٢٨٥.

(٩) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (وتوثقه).

(١٠) (الباء) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١.

(١١) بقية النسخ ، ط (الأدلة الدالة علىٰ ما أخبر به).

أخبره به.

وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد في[١] القرآن، فإنه سبحانه - مع كونه أصدق[٢] الصادقين - يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين علىٰ صدق أخباره، فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخبر، ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك إلىٰ الدرجة الثالثة، وهي «يقين المكاشفة» بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلىٰ القلب: كنسبة المرئي إلىٰ العين، وهذا أعلىٰ أنواع المكاشفة، وهي التي أشار إليها عامر بن عبد[٣] قيس في قوله: «لو كُشف الغِطاء ما ازددت يقيناً»[٤] وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ، ولا من قول علي كما يظنه من لا علم له بالمنقولات.

وقال بعضهم: رأيت الجنة والنار حقيقة، قيل له: وكيف[٥]؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ، ورؤيتي لهما بعينيه أوثق[٦] عندي من رؤيتي لهما بعيني، فإن بصري قد يخطئ[٧] ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ[٨].

---

(١) ط (واو) بدل (في).

(٢) ق زيادة (القائلين).

(٣) الأصل (بن قيس) وما أثبته من بقية النسخ، ط.

(٤) تقدم قريباً.

(٥) (الواو) سقطت من ق.

(٦) ق، غ، أ (أوثر)، ط (آثر).

(٧) أ، ب، غ، ح١، ط (يطغىٰ)، ق (يخطي).

(٨) لم أجده.

و «اليقين» يحمل(١) علىٰ الأهوال، وركوب الأخطار، وهو يأمر بالتقدم دائماً، فإن لم يقارنه العلم: حمل علىٰ المعاطب.

و «العلم» يأمر بالتأخر والإحجام، فإن لم يصحبه «اليقين» قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم(٢).

فصل

قال صاحب المنازل - رحمه الله تعالىٰ(٣) -:

«اليَقِينُ: مَركِبُ الآخِذِ فِي هَذِهِ(٤) الطَّرِيقِ، وَهُوَ غَايَةُ دَرَجَاتِ العَامَّةِ، وَقِيلَ: أَوَّلُ خُطْوَةٍ لِلخَاصَّةِ(٥)»(٦).

لما كان «اليقين» هو الذي يحمل السائر إلىٰ الله - كما قال أبو سعيد الخراز: (٧) العلم ما استعملك، واليقين ما حملك (٨) - سماه مركباً يركبه السائر إلىٰ الله،

(١) ط (يحمله).

(٢) أ، ب، غ، م، ق، ط زيادة (والله أعلم).

(٣) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

(٤) أ، ب، غ، ح١، ط، ومنازل السائرين (هذا).

(٥) منازل السائرين (الخاصة).

(٦) منازل السائرين (٥٣).

(٧) أ زيادة (اليقين).

(٨) شعب الإيمان (٢/ ٣٠٤).

فإنه لولا «اليقين» ما سار ركب إلىٰ الله ، ولا ثبتت[1] لأحد قدم في السلوك[2].

وإنما جعله آخر درجات العامة ، لأنهم إليه ينتهون، ثم حكىٰ[3] قول من قال: إنه أول خطوة الخاصة[4].

يعني : أنه ليس بمقام لهم ، وإنما هو مبدأ لسلوكهم ، فمنه يبتدئون سلوكهم وسيرهم ، وهذا لأن الخاصة عنده سائرون إلىٰ عين[5] الفناء ، في شهود الحقيقة ، لا تقف بهم دونها همة ، ولا يعرجون دونها علىٰ رسم ، فكل ما دونها فهو عندهم[6] من مشاهد العامة ، ومنازلهم ومقاماتهم ، حتىٰ المحبة.

وحسبك بجعل «اليقين» نهاية العامة ، وبداية لهم ، قال :

درجات اليقين

«**وَهُوَ عَلىٰ ثَلاَثِ دَرَجَاتٍ ، الدَّرَجَةُ الأُولىٰ : عِلمُ اليَقِين ، وَهُوَ قَبُولُ مَا ظَهَرَ مِنَ الحَقِّ ، وَقَبُولُ مَا غَابَ لِلحَقِّ ، وَالوُقُوفُ عَلىٰ[7] مَا قَامَ بِالحَقِّ**»[8].

الدرجة الأولى

ذكر الشيخ -رحمه الله[9]- في هذه الدرجة ثلاثة أشياء ، هي متعلق «اليقين»

---

(١) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م (يثبت) ، ط (ثبت).

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ق ، ط زيادة (إلا به).

(٣) ق (حكوا).

(٤) ط (للخاصة).

(٥) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ش ، ط زيادة (الجمع و).

(٦) الأصل (عندهما) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٧) (علىٰ) سقطت من الأصل وهي في جميع النسخ وفي منازل السائرين.

(٨) منازل السائرين ٥٣.

(٩) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وأركانه.

الأول[١] : قبول ما ظهر من الحق تعالىٰ ، والذي ظهر منه سبحانه : أوامره ونواهيه وشرعه ، ودينه الذي ظهر لنا منه علىٰ ألسنة رُسُلِه ، فنتلقَّاه بالقبول والانقياد ، والإذعان والتسليم للربوبية ، والدخول تحت رق العبودية.

الثاني «قَبُولُ مَا غَابَ لِلحَقِّ» وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه علىٰ لسان رُسُلِهِ من[٢] أمور المعاد وتفاصيله[٣] ، والجنة والنار ، وما قبل ذلك : من الصراط والميزان والحساب ، وما قبل ذلك : من تشقق السماء وانفطارها ، وانتثار[٤] الكواكب ، ونسف الجبال ، وطيِّ العالم ، وما قبل ذلك : من أمور البرزخ ، ونعيمه وعذابه.

فقبول هذا كله - إيماناً وتصديقاً وإيقاناً - هو اليقين بحيث لا يُخالج القلب فيه شبهة ، ولا شك ولا ريب[٥] ولا تناسٍ ، و[٦]غفلة عنه ، فإنه إن لم يستهلك[٧] بيقينه أفسده وأضعفه[٨].

---

(١) أ ، ب ، غ ، ق ، ح١ (الأولىٰ).

(٢) غ (عن) بدل (من).

(٣) ط (تفصيله).

(٤) م ، غ ، ب (انتشار).

(٥) (ولا ريب) سقطت من ط.

(٦) ط زيادة (لا).

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (إن لم يهلك يقينه).

(٨) أ (أضعفه وأفسده).

(١)الثالث: «الوُقُوفُ عَلىٰ مَا قَامَ بِالحَقِّ» سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله.

وهو علم التوحيد، الذي أساسه: إثبات(٢) الأسماء والصفات، وضده التعطيل والنفي، والتَّجهُّم، فهذا التوحيد يقابله التعطيل.

وأما التوحيد القصدي الإرادي، الذي هو إخلاص العمل لله، وعبادته وحده، فيقابله الشرك، والتعطيل شرٌّ من الشرك، فإن المعطل جاحد للذات أو لكمالها، وهو جحد لحقيقة الإلهية، فإن ذاتاً لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا ترضىٰ، ولا تغضب ولا تفعل شيئاً، وليست داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة، ولا مجانبة(٣) له، ولا مباينة له(٤)، ولا مجاورة ولا مجاوزة، ولا فوق العرش، ولا تحت العرش، ولا خلفه ولا أمامه، ولا عن يمينه ولا عن يساره: سواء(٥) والعدم.

والمشرك مقرٌّ بالله وصفاته؛ لكن عَبَد معه غيره، فهو خير من المعطل للذات والصفات(٦).

---

(١) ق زيادة (الواو).

(٢) (إثبات) سقطت من أ، ب، غ.

(٣) غ (مخاصمة)، ش (محايثة).

(٤) (له) سقطت من م، ق.

(٥) م، ط (هي والعدم)، ق (هي والعدم سواء).

(٦) قال ابن القيم في النونية ٢/ ٤٥١:

«لكن أخو التعطيل شر من أخي ... الإشراك بالمعقول والبرهان
إن المعطل جاحد للذات أو ... لكمالها هذان تعطيلان»

فاليقين هو الوقوف علىٰ ما قام بالحق من أسمائه وصفاته ، ونعوت كماله ، وتوحيده ، وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق : علم الأمر والنهي ، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر[1].

فصل

الدرجة الثانية

قال : «**الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : عَيْنُ الْيَقِينِ ، وَهُوَ الْمُغْنِي[2] بِالاسْتِدلالِ[3] عَنْ الاسْتِدْلَالِ ، وَعَنِ الخَبَرِ بِالعِيَانِ ، وَخَرقُ الشُّهُودِ حِجَابَ العِلْمِ**»[4].

الفرق بين علم اليقين وعين اليقين : كالفرق بين الخبر الصادق والعيان ، وحق اليقين : فوق هذا.

وقد مثلت المراتب الثلاث بمن أخبرك : أن عنده عسلاً ، وأنت لا تشك في صدقه ، ثم أراك إياه فازددت يقيناً ، ثم ذقت منه.

فالأول : علم اليقين ، والثاني : عين اليقين ، والثالث : حق اليقين.

فعلمنا الآن بالجنة والنار : علم اليقين ، فإذا أزلفت الجنة في الموقف[5] وشاهدها الخلائق ، وبُرِّزت الجحيم[6] ، وعاينها الخلائق ، فذلك :

---

(١) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ط (والله أعلم).

(٢) في المنازل (الغني).

(٣) في المنازل (بالاستدراك).

(٤) منازل السائرين ٥٤.

(٥) ط زيادة (للمتقين).

(٦) ط زيادة (للغاوين).

عين اليقين ، فإذا[١] أدخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ، وأهل النارِ النارَ : فذلك حينئذ حق اليقين.

قوله : «هُوَ المُغْنِي بِالاستِدْلاَلِ عَن الاستِدْلاَلِ».

يريد بالاستدلال : الإدراك والشهود ، يعني أن[٢] صاحبه قد استغنىٰ[٣] به عن طلب الدليل ، فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول ، فإذا كان المدلول مشاهداً[٤] له - وقد أدركه بكشفه - فأي حاجة به إلىٰ الاستدلال؟.

وهذا معنىٰ «الاستِغْنَاء عَن الخَبَرِ بِالعيَانِ».

وأما قوله : «وَخَرْقُ الشُّهُودِ حِجَابَ العِلْمِ».

فيريد به : أن المعارف التي تحصل لصاحب هذه الدرجة ، هي من الشهود الخارق لحجاب العلم ، فإن العلم حجاب عن الشهود[٥] ، ففي هذه الدرجة يرتفع الحجاب ، ويفضي إلىٰ المعلوم ، بحيث يكافح بصيرته[٦] وقلبه مكافحة.

---

(١) ب ، م (الواو) بدل (الفاء).

(٢) (أن) سقطت من ط.

(٣) غ (يستغني).

(٤) أ ، م (شاهداً).

(٥) م (المشهود).

(٦) م ، ق (قلبه وبصيرته).

فصل

الدرجة الثالثة قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: حَقُّ اليَقِينِ، وَهُوَ إِسفَارُ صُبحِ الكَشفِ، ثُمَّ الخَلَاصُ مِنْ كُلْفَةِ اليَقِينِ، ثُمَّ الفَنَاءُ فِي حَقِّ اليَقِينِ»[١].

اعلم[٢] أن هذه الدرجة لا تُنال في هذا العالم إلا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإن نبينا ﷺ رأىٰ بعينه الجنة والنار، وموسىٰ[٣] سمع كلام الله منه إليه بلا واسطة، وكلّمه تكليماً، وتجلىٰ للجبل وموسىٰ ينظر، فجعله دكاً هشيماً.

نعم يحصل لنا حق اليقين في[٤] مرتبة، وهي ذوق[٥] ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب وأعمالها، فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق[٦] يقين.

وأما في أمور الآخرة والمعاد، ورؤية الله جهرة عياناً[٧]، وسماع كلامه

---

(١) منازل السائرين ٥٤.

(٢) ق (الحق) بدل (اعلم).

(٣) ط زيادة (عليه السلام).

(٤) ب، ط (من) بدل (في).

(٥) (ذوق) سقطت من ق.

(٦) (حق) سقطت من أ، ب، غ.

(٧) ش (عيانها).

حقيقة بلا واسطة ، فحظ المؤمن منه في هذه الدار : الإيمان و[١]علم اليقين ، وحق اليقين : يتأخر إلىٰ وقت اللقاء.

ولكن لما كان السالك عنده[٢] ينتهي إلىٰ الفناء ، ويتحقق شهود الحقيقة ، ويصل إلىٰ عين الجمع ، قال : «**حَقُّ اليَقِينِ : هُوَ إِسْفَارُ صُبحِ الكَشْفِ**».

يعني : تحققه وثبوته ، وغلبة نوره علىٰ ظلمة ليل الحجاب ، فينتقل من طور العلم إلىٰ الاستغراق في الشهود بالفناء عن الرسم بالكلية.

وقوله : «**ثُمَّ الخَلاَصُ مِن كُلْفَةِ اليَقِينِ**».

يعني : أن اليقين له حقوق يجب علىٰ صاحبه أن يؤديها ، ويقوم بها ، ويتحمل كُلَفها ومشاقها ، فإذا فني في التوحيد حصل له أمور أخرىٰ رفيعة عالية جداً ، يصير فيها محمولاً ، بعد أن كان حاملاً ، وطائراً بعد أن كان سائراً ، فتزول[٣] عنه[٤] كلفة حمل تلك الحقوق ، بل يبقىٰ له كالنفَس ، وكالماء للسمك ، وهذا أمر التحاكم فيه إلىٰ الذّوق والإحساس ، فلا تسرع إلىٰ إنكاره[٥].

---

(١) (الواو) سقطت من ق.

(٢) قوله : (عنده) يعني به الهروي.

(٣)الأصل (فيزول) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٤) م (عند) بدل (عنه).

(٥) هذه إحالة إلىٰ شيء لا ينضبط ، والأولىٰ التحاكم إلىٰ الواضح المنضبط وهي نصوص الكتاب والسنة وفهم الصحابة وسلف الأمة ، ومن سارع إلىٰ إنكار الذوق والكشف إنما فعل الأحوط لدينه.

وتأمل حال[١] ذلك الصحابي الذي أخذ تمراته ، وقعد[٢] يأكلها علىٰ حاجة[٣] وفاقة إليها ، فلما عاين سُوق الشهادة قد[٤] قامت ، ألقىٰ قوته من يده ، وقال : «إنها لحياة طويلة ، إن بقيت حتىٰ آكل هذه التمرات»[٥] ، وألقاها من يده ، وقاتل حتىٰ قُتل ، وكذلك أحوال الصحابة -رضي الله عنهم- ، كانت مطابقة لما أشار إليه.

لكن بقيت نكتة عظيمة ، وهي موضع السجدة ، وهي أن فناءهم لم يكن في توحيد الربوبية ، وشهود الحقيقة التي يشير إليها أرباب الفناء ؛ بل في توحيد الإلهية ، ففنوا[٦] بحبه تعالىٰ عن حب ما سواه ، وبمراده منهم عن مرادهم[٧] وحظوظهم ، فلم يكونوا عاملين علىٰ فناء ، ولا[٨] استغراق في الشهود ، بحيث يفنون به عن مراد محبوبهم منهم ؛ بل قد فنوا بمراده عن مرادهم ، فهم أهل

(١) ط زيادة (في).

(٢) أ (جعل) بدل (قعد).

(٣) أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ق ، ط زيادة (وجوع).

(٤) (قد) سقطت من ط.

(٥) الصحابي هو عمير بن الحمام ، والحديث أخرجه البخاري في المغازي. غزوة أحد (٣/ ١٠٣) ح(٤٠٤٦) ، مسلم. الإمارة (٣/ ١٥٠٩) ح(١٨٩٩) ، أحمد (٣/ ٣٠٨).

(٦) غ (فنوا).

(٧) (عن مرادهم) سقطت من ش.

(٨) ط زيادة (إلا) أي (ولا إلا).

بقاء في فناء[١][٢]، وفرق في جمع[٣] وكثرة في وحدة[٤]، وحقيقة كونية في حقيقة دينية[٥].

هُمُ القوم، لا قوم إلا هم ... ولولاهم ما اهتدينا السبيلا[٦]

فنسبة أحوال[٧] من بعدهم الصحيحة الكاملة إلىٰ أحوالهم[٨]: كنسبة ما يَرْشح من الظرف والقربة إلىٰ ما في داخلها.

وأما[٩] المنحرفة الفاسدة: فسبيل غير سبيلهم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) (في فناء) سقطت من الأصل وما أثبته من أ، ب، غ، ط.

(٢) بقاء في فناء: البقاء رؤية العبد قيام الله في كل شيء، وهو أحد المقامات العشرة في قسم النهايات عند أصحاب السلوك، فإذا بلغ هذه المنزلة بقي من لم يزل وفني من لم يكن، وهي منزلة تلي منزلة الفناء، وهذا معنىٰ قوله بقاء في فناء، انظر: لطائف الإعلام ١/ ٢٨٨، ٢/ ٢١٧.
وقوله بقاء في فناء أي الفناء لا ينافيه البقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سوىٰ الله وإن كان شاعراً (أي باقياً) بالله وبالسوىٰ، انظر الفتاوىٰ ١٠/ ٣٣٨.

(٣) فرق في جمع: تقدم ص١٧١٠، ١٧٢٠.

(٤) كثرة في وحدة: أن لا تلهيه ولا تفرق همَّه كثرةُ النعم من حوله والمحسوسات عن توحيد الله ورؤية قيامها بأمره، وهذا هو الشهود الصحيح، انظر الفتاوىٰ ٢/ ٣٧٠، ١٠/ ٣٣٨.

(٥) حقيقة كونية في حقيقة دينية: تقدم ص١٧١٨، ١٨٧٣.

(٦) بيت الشعر: لم أجده.

(٧) الأصل (أحوالهم إلىٰ أحوال) وما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط أقرب للسياق.

(٨) الأصل تقدمت هذه العبارة عند قوله: (أحوال) وما أثبته من أ، ب، غ، ح١، ط أقرب.

(٩) ق زيادة (الطرق)، ط زيادة (الطريق).

فصل

منزلة الأنس

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة: «الأنس[1]»[2].

قال صاحب «المنازل» رحمه الله:

«وَهُوَ[3] رُوحُ القُربِ»[4] ولهذا صدَّر منزلته بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ[5] أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فاستحضار القلب هذا البر واللطف الإحسان[6]: يوجب قربه من

---

(١) ب، أ، ش، ق زيادة (بالله تعالىٰ)، ط (بالله).

(٢) الأنس: أثر مشاهدة جمال الحضرة في القلب، وحصول الصحو بالحق فكل مستأنس صاحٍ، وهو روح القرب والتذاذ الروح بكمال الجمال، وهو ضد الهيبة وقيل معها، والأنس والهيبة عند أهل الحقيقة تعدان نقصاً لتضمنها تغير العبد، بخلاف أهل التمكين فقد سمت أحوالهم عن التغير، إذ لا هيبة ولا أنس ولا علم ولا حس، ومن علامات صاحب هذه المنزلة أن لا يهتم لنازلة ولا يغتم لحادثة؛ بل هو دائم الأنس بربه، فهو يرىٰ الحكمة في كل شيء، ولهذا يسمىٰ صاحبها «آنس» إذ لا يصح مع شهود الحضرة والحكمة تسخط، فكل نقمة استبطنت نعمة، وهو من مراتب الوصول عند أصحاب الطريق، وهو قرين الحياء فإذا اجتمعا فهي غاية العطاء.

انظر التعرف ١٢٥، الرسالة القشيرية ١٢٩، عوارف المعارف ٥/ ٢٤٥، لطائف الإعلام ١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥، معجم مصطلحات الصوفية ٢٦.

(٣) منازل السائرين زيادة (عبارة عن..).

(٤) منازل السائرين ٥٤.

(٥) أ، ب، غ (قال: الآية) ولم يكملها.

(٦) ط (والإحسان واللطف).

الرب[١] تعالىٰ ، وقربه منه يوجب «الأنس» ، و «الأنس» ثمرة الطاعة والمحبة ، فكل مطيع مستأنس ، وكل عاصٍ مستوحش ، كما قيل :

فإن كنتَ قد أوحشَتْك الذُّنـو بُ فدَعْهـا إذا شئتَ واستأنس[٢]

والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبة.

قال صاحب «المنازل» ـ رحمه الله ـ :

درجات الأنس

الدرجة الأولى

«وَهُـوَ عَـلىٰ ثَـلاَثِ دَرَجَـاتٍ ، الدَّرَجَـةُ الأُولىٰ : الأُنـسُ بِالـشَّوَاهِدِ ، وَهُـوَ استِحلاَءُ الذِّكرِ ، وَالتَّغَذِّي بِالسَّمَاعِ ، وَالوُقُوفُ عَلىٰ الإِشَارَاتِ»[٣].

هذه اللفظة يجرونها[٤] في كلامهم - أعني لفظة «الشواهد» - ومرادهم بها : أمران.

أحدهما : شواهد[٥] الحقيقة وهي ما يقوم[٦] بقلب العبد ، حتىٰ كأنه يشاهده ويبصره لغلبته عليه ، فكل ما يستولي علىٰ قلب صاحبه ذكره : فإنه شاهده ، فمنهم من يكون شاهده العلم[٧] ، ومنهم من يكون شاهده الذكر ، ومنهم من

---

(١) أ ، ب ، غ ، ق ، ط زيادة (سبحانه و).

(٢) بيت الشعر : قال الخطابي في العزلة : أنشدني بعض أهل المعرفة ثم ذكره ٨٢.

(٣) منازل السائرين ٥٤.

(٤) ش (بحروفها).

(٥) (شواهد) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٦) ق (تقوم).

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (العمل) بدل (العلم).

يكون[1] شاهده المحبة ، ومنهم من يكون[2] شاهده الخوف.

فالمريد : يأنس بشاهده[3] ويستوحش لفقده.

والثاني : شاهد الحال ، وهو الأثر الذي يقوم به ، ويظهر عليه من عمله ، وسلوكه وحاله ، فإن شاهده لا بد أن يظهر عليه.

ومراد صاحب المنازل : الشاهد الأول ، الذي يأنس به المريد ، وهو الحامل[4] له علىٰ استحلاء الذكر ، طلباً لظفره بحصول المذكور[5] ، فهو يستأنس بالذكر طلباً لاستئناسه بالمذكور ، ويتغذىٰ بالسماع كما يتغذىٰ الجسم بالطعام والشراب.

فإن كان محباً صادقاً ، طالباً لله ، عاملاً علىٰ مرضاته : كان غذاؤه بالسماع القرآني ، الذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الأمة ، وأبرَّها قلوباً ، وأصحها أحوالاً ، وهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ..

وإن كان منحرفاً فاسد الحال ، ملبوساً عليه ، مغروراً مخدوعاً : كان غذاؤه بالسماع الشيطاني: الذي هو قرآن الشيطان ، المشتمل علىٰ محاب النفوس[6] ،

---

(١) (يكون) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ح١ ، ق.

(٢) (يكون) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ش ، ح١ ، ق.

(٣) الأصل (بمشاهده) والأقرب ما أثبته من جميع النسخ ، ط.

(٤) م (الحاصل).

(٥) الأصل (الذكر) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٦) أ ، ب (النفس).

ولذاتها وحظوظها ، وأصحابه : أبعد الخلق من[1] الله ، وأغلظهم عنه حجاباً وإن كثرت إشارتهم إليه.

وهذا السماع القرآني سماع أهل المعرفة بالله ، والاستقامة[2] ، ويحصل للأذهان الصافية منه معان وإشارات ، ومعارف وعلوم ، تتغذىٰ بها القلوب المشرقة بنور[3] الأنس ، فيجد بها[4] لذة روحانية ، يصل نعيمها إلىٰ القلوب والأرواح ، وربما فاض حتىٰ وصل إلىٰ الأجسام ، فيجد من اللذة ما لم يعهد[5] مثله من اللذات الحسية.

وللتغذي بالسماع سر لطيف ، نذكره للطف[6] موقعه[7].

وهو الذي أوقع كثيراً من السالكين في إيثار سماع الأبيات ، لما رأىٰ فيه من غذاء القلب وقوته ونعيمه ، فلو جئته[8] بألف آية وألف خبر لما أعارك[9] شطراً من إصغائه ، وكان ذلك عنده أعظم من الظواهر التي يعارض بها

---

(١) أ ، ب (عن) بدل (من).

(٢) ط زيادة (علىٰ صراطه المستقيم).

(٣) أ (بروح) بدل (بنور).

(٤) ط زيادة (ولها).

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ (يعهده).

(٦) (للطف) سقطت من ق.

(٧) أ ، ب ، غ ، ح١ (موضعه).

(٨) ب (أجبته).

(٩) م ، ش ، ح١ ، أ ، ب ، غ ، ط (أعطاك).

الفلاسفة وأرباب الكلام.

اعلم أن الله عز وجل جعل للقلوب نوعين من الغذاء : نوعاً من الطعام والشراب الحسي ، وللقلب منه خلاصته وصفوه ، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

والثاني : غذاء روحاني معنوي ، خارج عن الطعام والشراب : من السرور والفرح ، والابتهاج واللذة ، والعلوم والمعارف ، وبهذا كان الغذاء سماوياً علوياً ، وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفلياً ، وقوامه بهذين الغذاءين ، وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس ، وغذاءٌ يصل إليه منها.

فله ارتباط بحاسة اللمس ، ويصل إليه منها غذاء ، وكذلك حاسة الشم ، وكذلك حاسة الذوق ، وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر : أشد من ارتباطه بغيرهما ، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل ، وأقوىٰ من سائر الحواس ، وانفعاله عنهما(١) أشد من انفعاله عن غيرهما ، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما ، بل(٢) لا يكاد يُقرن إلا بهما ، أو بإحداهما(٣).

قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ(٤) وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨] ، وقال :

---

(١) ق (منهما).

(٢) ق (و) بدل (بل).

(٣) غ (بأحديهما) و أ ، ب ، م ح١ (بأحدهما).

(٤) ق (والبصر).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ[1] وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ[2] [إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ][3]﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ[4] أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، وقال تعالىٰ في وصفه الكفار : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧١] ، وقال تعالىٰ : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] ، وهذا كثير في القرآن جداً[5].

لأن[6] تأثره بما يراه ويسمعه : أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه ، ولأن هذه الثلاثة : هي طرق العلم[7].

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به[8] : أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به ،

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من م ، ق.

(٢) ق ، ح١ ، أ ، ب ، غ ، م قال (الآية) ولم يكملها.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من ق.

(٤) أ ، ب ، غ ، ح١ قال (الآية) ولم يكملها.

(٥) ط (جداً في القرآن).

(٦) الأصل (لين) وما أثبته من بقية النسخ.

(٧) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق زيادة (وهي السمع والبصر والعقل).

(٨) (به) سقطت من الأصل ، والأقرب إثباتها كما في أ ، ب ، غ ، ق ، ح١ ، ط.

ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤية ، ولهذا كان الصحيح من القولين : أن حاسة «السمع» أفضل من حاسة «البصر» لشدة[1] تعلقها بالقلب ، وعظم حاجته إليها ، وتوقف كماله عليها ، ووصول العلوم[2] إليه بها ، وتوقف الهدىٰ علىٰ سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة «البصر» لكمال مداركها ، وامتناع الكذب فيه ، وزوال الريب[3] والشك به ، ولأنه عين اليقين ، ، وغاية مدرك حاسة «السمع[4]» علم[5] اليقين ، وعين اليقين أفضل ، وأكمل من علم اليقين ، ولأن متعلقها رؤية وجه الرب عزّ وجل في دار النعيم ، ولا شيء أعلىٰ وأجل من هذا التعلق. وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه[6] - بين الطائفتين حكماً حسناً ، فقال : المُدرك بحاسة «السمع» أعمُّ وأشمل ، والمُدرك بحاسة «البصر» أتم وأكمل [7] ، فللسمع العموم والشمول ، والإحاطة بالموجود والمعدوم، والحاضر والغائب، والحسي والمعنوي، وللبصر: التمام والكمال.

---

(١) الأصل (من شدة) ، ق (ولشدة) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط.

(٢) م (المعلوم).

(٣) أ (الشك والريب به).

(٤) (السمع) سقطت من أ ، غ ، ح١.

(٥) ق زيادة (الواو).

(٦) ط (رحمه الله) بدل (قدس الله روحه).

(٧) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٢٥ ، الرد علىٰ المنطقيين ٩٦.

وإذا عرف هذا ، فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح ، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها[1].

فمن الناس[2] من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمة منها، فهو بمنزلتها ، وبينه وبينها أول درجة الإنسانية ، ولهذا شبه الله[3] أولئك بالأنعام ، بل جعلهم أضل ، فقال تعالىٰ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٤٤] ، ولهذا نفىٰ الله عن الكفار السمع والبصر والعقول إما لعدم انتفاعهم بها ، فَنُزِّلت منزلة المعدوم ، وإما لأن النفي توجه إلىٰ أسماع قلوبهم وأبصارها[4] ، وإدراكها ، ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور ، كقول أهل[5] السعير : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ، ومنه في أحد التأويلين قوله تعالىٰ : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٩٨] ، فإنهم كانوا ينظرون إلىٰ صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة ، ولا يبصرون صورة نبوته ، ومعناها بالحاسة الباطنة ، التي هي بصر القلب[6].

---

(١) ق (فيها).

(٢) (الناس) سقطت من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ .

(٣) أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ق ، ط زيادة (سبحانه).

(٤) غ (وأبصارهم) بدل (وأبصارها).

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط زيادة (أصحاب).

(٦) تفسير الطبري ٧/ ٣٤٤ ، ٩/ ١٥٢ ، أحكام القرآن للجصاص ٤/ ٢١٧ .

والقول الثاني : أن الضمير[١] عائد علىٰ الأصنام ، ثم فيه قولان :

أحدهما : أنه علىٰ التشبيه ، أي كأنهم ينظرون إليك ، ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني : أن[٢] المراد به المقابلة ، تقول العرب : داري تنظر دارك أي تقابلها[٣].

وكذلك السمع ثابت لهم ، وبه قامت الحجة عليهم ، ومنتَفٍ[٤] عنهم ، وهو سمع القلب ، فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك ، كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء ، ولم يسمعوه بالروح الحقيقي ، الذي هو روح حاسة السمع ، التي هي[٥] حظ[٦] القلب ، فلو سمعوه من هذه الجهة : لحصلت لهم الحياة الطيبة ، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب ، ولزال عنهم الصمم والبكم ، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من عدم السمع[٧] والعقل.

---

(١) في قوله (تراهم) : انظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٢٢٣.

(٢) (أن) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ش.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٠ ، معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٨.

(٤) أ ، ب ، غ ، ح١ (ونسب) بدل (منتف).

(٥) غ (هو) بدل (هي).

(٦) م (حفظ).

(٧) أ ، ب ، غ ، م ، ق ، ش (السماع).

فحصول[1] السمع الحقيقي : مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة ، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم ، فإن بها يصلح[2] هذا القلب ويعتدل ، فتتم قوته وحياته ، وسروره ونعيمه ، وبهجته ، وإذا فقد غذاءه الصالح : احتاج إلىٰ أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث ، [وإذا فسد غذاؤه : وخبث ونقص[3] من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه ، كالبدن إذا فسد غذاؤه][4] نقص.

فلما كان تعلق السمع الظاهر الحسي بالقلب أشد ، والمسافة بينهما أقرب من المسافة بين البصر وبينه ، ولذلك[5] يؤدي آثار ما يتعلق بالسمع الظاهر إلىٰ القلب[6] أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر ، ولهذا ربما غشي علىٰ الإنسان إذا سمع كلاماً يسره أو يسوءه ، أو صوتاً لذيذاً طيباً مطرباً مناسباً ، ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر.

وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب ، ولا يشعر به صاحبه ، لاشتغاله بغيره ، ولمباينة ظاهره لباطنه ذلك الوقت ، فإذا حصل له نوع تجرد

---

(١) الأصل (فحضور) وما أثبته من أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط أقرب.

(٢) ق (يصلح غذاء) ، أ ، ب ، غ ، م ، ح١ ، ط (يحصل غذاء).

(٣) أ ، ب ، غ ، ط (خبث ونقص).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من م.

(٥) الأصل (وكذلك) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، م ، ق ، ط.

(٦) م زيادة (الذي).

ورياضة: ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثُّر.

فكلما تجردت الروح والقلب، وانقطعت[1] عن علائق البدن، كان حظهما من ذلك السماع أوفىٰ، وتأثرهما به أقوىٰ.

فإن كان المسموع معنىً شريفاً بصوت لذيذ: حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعنىٰ، وابتهج به أتم ابتهاج علىٰ حسب إدراكه له، وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه، فابتهجت به، فتتضاعف[2] اللذة، ويتم[3] الابتهاج، ويحصل الارتياح، حتىٰ ربما فاض علىٰ البدن[4] والجوارح، وعلىٰ الجليس.

وهذا لا يحصل علىٰ الكمال في هذا العالم، ولا يحصل إلا عند سماع كلام الله[5]، فإذا تجردت الروح وكانت مستعدَّةً، وباشر القلب روح المعنىٰ، وأقبل بكلِّيته علىٰ المسموع، فألقىٰ السمع وهو شهيد، وساعده طيب[6] صوت القارئ، كاد القلب يفارق هذا العالم، ويلج عالماً آخر، ويجد له لذة وحالاً[7] لا يعهدها

---

(١) ط (انقطعتا).

(٢) ب (فتضاعف).

(٣) ق (وتم).

(٤) ب زيادة (وعلىٰ).

(٥) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

(٦) (طيب) سقطت من ق.

(٧) ط (حالة).

في شيء[1] البتة، وذلك دقيقة[2] من حال أهل الجنة في الجنة.

فيا له من غذاء ما أصلحَه وما أنفعَه.

وحرام علىٰ قلب قد تربىٰ علىٰ غذاء السماع الشيطاني: أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن؛ بل إن حصل له نوع لذة، فهو من قبل الصوت المُشترك، لا من قبل المعنىٰ الخاص.

وليس في نعيم أهل[3] الجنة أعلىٰ من رؤيتهم وجه[4] محبوبهم[5] عياناً[6] وسماع كلامه منه.

وذكر عبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة أثراً - لا يحضرني الآن هل هو موقوف أو مرفوع -: «إذا سمع الناس القرآن يوم القيامة من الرّحمن عزّ، وجلّ[7] فكأنهم لم يسمعوه من قبل ذلك»[8].

---

(١) ط زيادة (غيره).

(٢) أ، ب، غ، م، ق، ط (رقيقة).

(٣) (أهل) سقطت من الأصل وهي في جميع النسخ، ط.

(٤) ط زيادة (لفظ الجلالة).

(٥) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٦) ش (عالياً).

(٧) (عزّ وجلّ) سقطت من ق.

(٨) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة عن محمد بن كعب القرظي (١/ ١٤٧) رقم(١٢٣)، وقال محقق الكتاب د/ محمد القحطاني: إسناده ضعيف، ولفظه: «كان الناس إذا سمعوا القرآن..»، وأورده البرهان فورىٰ في كنز العمال (١٤/ ٤٨٠) رقم(٣٩٣٤١) وقال عن أنس

وإذا امتلأ القلب بشيء ، وارتفعت المباينة الشديدة بين الظاهر والباطن : أدت الأذن إلىٰ القلب المسموع ما يناسبه ، وإن لم يدل عليه ذلك المسموع ، ولا قصده المتكلم ، ولا يختص ذلك بالكلام الدال علىٰ معنىٰ ، بل قد يقع في الأصوات المجردة.

قال القشيري[١] - رحمه الله[٢] - : سمعت أبا عبد الرحمن[٣] السلمي يقول : دخلت علىٰ أبي عثمان المغربي[٤] ، ورجل يستقي لنا[٥] من البئر علىٰ بَكَرة[٦] ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، أتدري أيش تقول هذه البكرة؟ فقلت : لا ، فقال : تقول الله الله[٧].

في الإبانة للسجزي بلفظ «كأن الناس..» وبرقم(٣٩٣٤٢) عن أبي هريرة في مسند الفردوس بلفظ «كأن الخلق..».

(١) عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي الصوفي المفسر ، تفقه علىٰ عدد من العلماء وألّف «لطائف الإشارات» ، و «الرسالة» ، توفي سنة ٤٦٥هـ/ سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٧).

(٢) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

(٣) ط (عبد الله) بدل (عبد الرحمن).

(٤) سعيد بن سلام ، أبو عثمان المغربي من ناحية القيروان ، صحب أبا علي الكاتب ، ولقي أبا يعقوب النهرجوري ، وكان من مشايخ الصوفية ، توفي سنة ٣٧٣هـ/ شذرات الذهب (٣/ ٨١) ، طبقات الصوفية للسلمي (٤٧٩) ، تاريخ بغداد (٩/ ١١٢).

(٥) ط زيادة (الماء).

(٦) ق (من البئر بكر).

(٧) هذا بحسب ما يركبه المستمع من أوزان تناسب لكل النغمات المجردة من أي معنىٰ ، وهو من التكلف ، إذ كل مستمع يستطيع أن يفتعل من الأصوات أوزاناً حسب مراده هو وإن لم تكن

ومثل ذلك كثير، كما سمع أبو سليمان الدمشقي من المنادي: يا سَعْتَرْ بَرِّي: اسْعَ تَرَ بِرِّي[1].

وهذا السماع الروحاني تبع لحقيقة القلب ومادته منه، فلاتحاده[2] به يظن السامع أنه أدرك[3] المعنىٰ لا محالة من الصوت الخارجي، وسبب ذلك اتحاد السمع بالقلب.

وأكمل السماع: سماع من يسمع[4] بالله ما هو مسموع من الله وهو كلامه، وهو سماع المحبين المحبوبين، كما في الحديث الذي في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ - أنه قال: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي يبطش،**

في الواقع كذلك، والصواب أن نقف عند قوله تعالىٰ: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم..**﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) ذكره شيخ الإسلام في الاستقامة ١/ ٣٩٠، وقال: فإنه من هذا الباب ضل طوائف من الضالين، ونسبه لحلوان الدمشقي، وأورده القشيري في الرسالة القشيرية ٤٧٩، وقال: سمع أبو سليمان الدمشقي (طوافاً ينادي) فلما أفاق وسئل قال: حسبته يقول: «اسع تر برِّي»، وقال محقق الرسالة: «ينادي علىٰ نبات السعتر الذي يؤتىٰ به من البراري».

(٢) ق، ش، ط (فالاتحاد به يظن به).

(٣) أ، ب، غ، م، ح١، ش، ق، ط زيادة (ذلك).

(٤) غ (سميع).

وبي يمشي»[١].

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة ، فإذا امتلأ من محبة الله ، وسمع كلام محبوبه - أي بمصاحبته[٢] وحضوره في قلبه - فله من سماعه[٣] هذا الشأن ، ولغيره آخر[٤].

فصل

والثاني علىٰ ثلاثة أقسام :

أحدها[٥] : من اتصف قلبه بصفات نفسه ، بحيث صار قلبه نفساً محضة ، فغلبت عليه آفات الشهوات ، ودواعي[٦] الهوىٰ ، فهذا حظه من السماع : كحظ البهائم ، لا يسمع إلا دعاء ونداء ، والفرق الذي بينها[٧] وبينه : غير طائل.

القسم الثاني: من اتصفت[٨] نفسه بصفات قلبه، فصارت نفسه قلباً محضاً ،

(١) تقدم تخريجه ص١٩٥٢.

(٢) أ ، ب ، غ (بصاحبيته) ، ح١ (بصحبيته).

(٣) غ (سماع).

(٤) أ ، ب ، غ ، ق ، ط زيادة (والله أعلم).

(٥) أ ، ب ، غ ، ح١ (أحدهم).

(٦) ط (دعوات).

(٧) م ، غ (بينهما).

(٨) ق ، ش (اتصف).

فغلبت عليه المعرفة والمحبة، والعقل واللب، وعشق صفات الكمال، فاستنارت نفسه بنور القلب، واطمأنت إلىٰ ربها، وقرت عينها بعبوديته، وصار نعيمها في حبه وقربه، فهذا حظه من السماع مثل[1] - أو قريب - من حظ الملائكة، وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرة عينه ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح[2] فيها، وحياته التي بها قوامه، وإلىٰ هذا المعنىٰ قصد أرباب سماع القصائد والأبيات، ولكن أخطأوا الطريق وأخذوا عن الدّرب شمالاً ووراء.

القسم الثالث[3]: من له منزلة بين منزلتين وقلبه باقٍ علىٰ فطرته الأولىٰ، ولكن ما تصرف في نفسه تصرفاً أحالها إليه، وأزال به رسومها، وجلا عنه ظلمتها، ولا قويت النفس علىٰ القلب بإحالته إليها، وتصرفت فيه تصرفاً أزالت عنه نوره وصحته وفطرته[4].

[5] فبين القلب والنفس منازلات ووقائع، والحرب بينهما دُول وسجال، تدال النفس عليها تارة، ويدال عليها تارة.

فهذا حظه من السماع: حظ بين الحظّين، ونصيبه منه بين النصيبين، فإن

---

(١) (مثل) سقطت من ق.

(٢) الأصل (شرح) ش (سرح) والأقرب ما أثبته من أ، ب، غ، م، ح١، ط.

(٣) ح١ (الثاني).

(٤) أ (وفطرته وصحته).

(٥) (الفاء) سقطت من ق، غ.

صادفه وقت دولة القلب : كان حظُّه منه قوياً ، وإن صادفه وقت دولة النفس : كان ضعيفاً ، ومن ههنا يقع التفاوت بين الناس(١) في الفقه عن الله، والفهم عنه، والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذه الحال - في حال سماعه - يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس ، فيفوته من روح المسموع ونعيمه(٢) ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة ، ولا سبيل له(٣) إلىٰ حصول ذلك بتمامه ، حتىٰ تضع الحرب أوزارها ، وربما صادفه في(٤) حال السماع وارد حق ، أو الظفر بمعنىٰ بديع لا يقدر فكره علىٰ صيده كل وقت ، فغاب به واستغرق(٥) فيه عما يأتي بعده ، فيعجز عن صيد تلك المعاني ، ويدهشه ازدحامها فيبقىٰ قلبه باهتاً ، كما يحكىٰ أن بعض العرب : أرسل صائداً له علىٰ صيد ، فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه ، وعن يمنيه وعن يساره(٦) ، فوقف باهتاً ينظر يميناً وشمالاً ، ولم يصطد شيئاً فقال :

---

(١) (بين الناس) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٢) ش (ونعمه).

(٣) (له) سقطت من ق.

(٤) ح١ (من) بدل (في).

(٥) ط (فيغيب به ويستغرق) ، (به) سقطت من م.

(٦) ط (شماله) .

تكاثرت[1] الظباء علىٰ خراش[2] فما[3] يدري خراش[4] ما يصيد[5]

فوظيفته في مثل هذا الحال : أن يفنىٰ عن وارده ، ويعلق قلبه بالمتكلم ، وكأنه يسمع كلامه منه ، ويجعل قلبه نهراً لجريان معانيه ، ويفرغه من سوىٰ فهم المراد ، وينصبُّ إليه انصباباً يتلقىٰ فيه معانيه ، كتلقي المحب للأحباب القادمين عليه ، لا يشغله حبيب منهم عن حبيب ؛ بل يعطي كل قادم حقَّه ، وكتلقي الضيوف والزوار ، وهذا إنما يكون مع سعة القلب ، وقوة الاستعداد ، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق ، واللطف والإحسان : لا يفنىٰ به عما يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل ؛ بل يتلقىٰ[6] الخطاب الثاني مستصحباً لحكم الخطاب الأول ، ويمزج هذا بهذا ، ويسير[7] بهما[8]

(١) ش (تفرقت).

(٢) ق (حراشة).

(٣) أ ، ب ، غ (فلم).

(٤) ق (حرس).

(٥) معجم الأبيات الشهيرة ٧٧، وعزاه لأبي خراش الهذلي، وأورده الطبري في تفسيره ٤/ ٢٧٦، بلفظ : « تفرقت الظباء علىٰ خداش » .

(٦) ط (يسمع) بدل (يتلقىٰ).

(٧) الأصل ، ش (ويشير) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

(٨) ط (ومعهما).

جميعاً، عاكفاً بقلبه علىٰ المتكلم وصفاته سبحانه[١].

وهذا سير في الله، وهو نوع آخر أرفع وأعلىٰ[٢] من مجرد المسير إليه، ولا ينقطع بذلك سيره إليه؛ بل يدرج سيره، فإن سير القلب في معاني أسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتىٰ بقيت للقلب في ذلك ملكة، واشتد تعلقه به: لم تحجبه معاني المسموع وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك، وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء[٣] ههنا البتة، والله المستعان.

[٤] فهذه[٥] كلمات تشير إلىٰ معاني سماع أهل المعرفة والإيمان، والأحوال المستقيمة.

وأما السماع الشيطاني: فبالضد من ذلك، وهو مشتمل علىٰ أكثر من مائة مفسدة ولولا[٦] الإطالة لسقناها مفصلة.

وسنفرد لها مصنفاً مستقلاً[٧] إن شاء الله تعالىٰ[٨].

---

(١) (سبحانه) سقطت من ق.

(٢) ق، ط (أعلىٰ وأرفع).

(٣) ب، م (والانتهاء).

(٤) ق زيادة (فصل).

(٥) (فهذه) سقطت من ق.

(٦) جميع النسخ، ط زيادة (خوف).

(٧) ألف ابن القيم كتاباً سماه (الكلام علىٰ مسألة السماع)، طبع سنة ١٤٠٩هـ، دار العاصمة/ الرياض.

(٨) (تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ.

فهذا ما يتعلق بقوله : «إِنَّ مِنَ الأُنسِ بِالشَّوَاهِدِ : التَّغَذِّي بِالسَّمَاعِ».

وقوله : «وَالوُقُوفُ عَلَىٰ الإِشَارَاتِ».

«الإشارات[١]» هي المعاني التي تشير إلىٰ الحقيقة من بعد ، ومن[٢] وراء حجاب.

وهي تارة تكون من مسموع ، وتارة تكون من معقول ، وتارة تكون من مرئي[٣] وقد تكون من الحواس كلها.

فالإشارات[٤] : من جنس الأدلة والأعلام ، وسببها ، صفاء يحصل[٥] بالجمعية ، فيلطف به الحس والذهن ، فيستيقظ لإدراك أمور لطيفة ، يكثف[٦] حس غيره وفهمه عن إدراكها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الصحيح منها:

---

(١) الإشارات : هي الإخبار من غير الاستعانة إلىٰ التعبير باللسان ، وقيل ما يخفىٰ عن المتكلم الإشارات كشفه بالعبارة للطافة معناه وتكون مع القرب ومع حضور الغيب، وتكون مع البعد، وإذا قيل : فلان صاحب إشارة إذا اشتمل كلامه علىٰ لطائف وإشارات ، انظر معجم مصطلحات الصوفية ١٦ ـ ١٧.

(٢) (من) سقطت من ش.

(٣) ط (وتارة تكون من معقول) وردت بعد قوله (مرئي..).

(٤) ح١ ، ش (فالإشارة).

(٥) ح١ (يحصر).

(٦) ط (لا يكشف) بدل (يكثف).

ما يدل عليه اللفظ بإشارته من باب قياس الأولىٰ.

قلت : مثاله قوله تعالىٰ : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة : ٧٩].

قال والصحيح[1] في الآية، أن[2] المراد به[3] : الصحف التي بأيدي الملائكة ، لوجوه عديدة :

منها : أنه وصفه بأنه «مكنون» و «المكنون» المستور عن العيون ، وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ومنها : أنه قال : ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ وهم الملائكة ، ولو أراد المتوضئين لقال : لا يمسه إلا المتطهرون[4] كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢]، فالملائكة مطهرون ، والمؤمنون متطهرون.

---

(١) مسألة مس المحدث للمصحف فيها خلاف بين أهل العلم ، بسط القول فيها فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ورجح ما ذهب إليه جمهور العلماء ومنهم أئمة المذاهب الأربعة وهو القول بأنه لا يمس المصحف إلا طاهر من الحدث الأصغر والأكبر ، انظر الشرح الممتع ١/ ٢٦٠ - ٢٦٦ ، والأقوال في المسألة ينظر فيها أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٦ ، أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٨ ، أحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ٢٢٥ ، المحلىٰ ١/ ٨٧ ، المجموع ٢/ ٦٧ ، مجموع الفتاوىٰ ٢١/ ٢٦٦ ، أعلام الموقعين ١/ ٢٢٥ ، نيل الأوطار ١/ ٢٠٧. مسألة مس المحدِث للمصحف

(٢) (أن) سقطت من أ.

(٣) (به) سقطت من ش.

(٤) ق (المطهرون).

ومنها : [أن هذا إخبار ، ولو كان نهياً لقال : لا يمسسه[١] بالجزم ، والأصل في الخبر أن يكون خبراً صورة ومعنىٰ][٢].

ومنها : أن هذا رد علىٰ من قال : إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالىٰ: أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين ، ولا وصول لها إليه ، كما قال تعالىٰ في آية الشعراء : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء : ٢١٠-٢١١] ، وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة.

ومنها : أن هذه[٣] نظير الآية التي في سورة عبس ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس : ١٢-١٦].

قال مالك - رضي الله عنه -[٤] في موطئه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس[٥].

ومنها : أن الآية مكية في[٦] سورة مكية ، تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد ، وإثبات الصانع ، والرد علىٰ الكفار ، وهذا المعنىٰ أليق[٧] بالمقصود

---

(١) ق (لا يمسه).

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ش.

(٣) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (هذا).

(٤) (رضي الله عنه) ثبتت في الأصل فقط.

(٥) الموطأ كتاب القرآن. باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن (١/ ١٩٩).

(٦) ط (من) بدل (في).

(٧) ب ، ح١ (لتوالي المقصود) ، غ (التوالي).

من فرع عملي، وهو حكم مس المحدث المصحف.

ومنها أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس: لم يكن في الإقسام علىٰ ذلك بهذا القسم العظيم كثير(١) فائدة، إذ من المعلوم: أن كل كتاب فهو قابل لأَنْ يكون كتاباً حقاً أو باطلاً، بخلاف ما إذا وقع القسم علىٰ أنه كتاب مصون، مستور عن العيون عند الله، لا يصل إليه شيطان، ولا ينال منه، ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية، فهذا المعنىٰ أليق وأَجلُّ وأخلق بالآية وأولىٰ بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: لكن تدل الآية بإشارتها علىٰ أنه لا يمسُّ المصحف إلا طاهر، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون، لكرامتها علىٰ الله، فهذه الصحف ينبغي أن لا يمسها إلا طاهر(٢).

وسمعته يقول في قول النبي ﷺ: «لا تدخل(٣) الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة»(٤)، إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله(٥)، ومحبته وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في

---

(١) م، أ، ش (كبير).

(٢) الفتاوىٰ ١٣/ ٢٤٢، ٢١/ ٢٦٦، ونحوه في ٢٦/ ١٨٤، بغية المرتاد ٢/ ٢١٢، ٢١٦.

(٣) الأصل (يدخل).

(٤) البخاري. اللباس باب التصاوير (٤/ ٨١) ح (٥٩٤٩)، مسلم. اللباس (٣/ ١٦٦٥) ح (٢١٠٦)، أحمد (٤/ ٢٨-٢٩، ٣٠).

(٥) ط زيادة (عزَّ وجل).

قلب[١] ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟ فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة[٢][٣].

ومن هذا : أن طهارة الثوب الظاهر[٤] والبدن إذا كانت شرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها ، فإذا أخل بها كانت فاسدة ، فكيف إذا كان القلب نجساً، ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يُعْتَدُّ له بصلاته ، وإن أسقطت[٥] القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن؟.

ومن هذا : أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها ، وهي بيت الرب ، فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط ، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلىٰ رب القبلة والبدن؟ بل وجه بدنه إلىٰ البيت ، ووجه قلبه إلىٰ غير رب البيت.

و[٦]أمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن ، وصحة البصيرة ، وحُسن التأمل[٧].

---

(١) الأصل (بيت) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط.

(٢) أ ، ب ، غ ، ح١ (الصحيح).

(٣) الفتاوىٰ ٤/ ١٢٧ ، ٥/ ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ١٣/ ٢٤٢.

(٤) الأصل (الطاهر) والأقرب ما أثبته من ح١ ، ش.

(٥) م (عنه).

(٦) (الألف) سقطت من ب ، أ.

(٧) ق ، ط زيادة (والله أعلم).

فصـــل

الدرجة الثانية

قال : «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : الأُنسُ بِنُورِ الكَشفِ ، وَهُوَ أُنسٌ شَاخِصٌ عَنِ الأُنسِ الأَوَّلِ ، تَشُوبُهُ صَولَةُ الهَيَمانِ ، وَيَضرِبُهُ مَوْجُ الفَنَاءِ ، وَهُوَ(١) الَّذِي غَلَبَ قَوماً عَلىٰ عُقُولِهِمْ ، وَسَلَبَ قَوماً طَاقَةَ الاصطِبَارِ ، وَحَلَّ عَنهُم قُيُوْدَ العِلمِ ، وَفِي هَذَا وَرَدَ الخَبَرُ بِهَذَا الدُّعَاءِ : (أَسأَلُكَ شَوقاً إِلىٰ لِقَائِكَ ، مِن غَيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلا فِتنَةٍ مُضِلَّةٍ)»(٢).

يجوز أن تكون(٣) الباء في قوله : «بنور الكشف» باء السببية ، أو باء الإلصاق.

فإن كانت باء السببية ، كان المعنىٰ : الأنس(٤) الحاصل بسبب نور الكشف.

وإن كانت باء الإلصاق ، كان المعنىٰ : الأنس المتلبس بنور الكشف.

فإن قلت : ما الفرق بين الأنس ، ونور الكشف ، حتىٰ يكون أحدهما سبباً للآخر ، أو متلبساً به؟.

قلت : الفرق بينهما أن نور الكشف من باب المعارف ، وانكشاف الحقيقة

---

(١) منازل السائرين (وهذا).

(٢) منازل السائرين ٥٥ وآخره إشارة إلىٰ الحديث «اللهم بعلمك الغيب.. » ، سبق تخريجه ص١٨٩٢.

(٣) الأصل (يكون) وما أثبته من جميع النسخ ، ط.

(٤) (الأنس) سقطت من م ، ق.

للقلب ، وأما الأنس ، فمن باب القرب والدنوّ ، والسكون إلىٰ من يأنس به ، والطمأنينة إليه فضده : الوحشة ، وضد نور الكشف : ظلمة الحجاب.

وقوله : «شَاخِصٌ عَنِ الأُنْسِ الأَوَّلِ».

أي مرتفع عنه وأعلىٰ منه.

وقوله : «تَشُوبُهُ صَوْلَةُ الهَيَمَانِ».

وذلك لأن هذا الأنس المذكور(١) يكون مبدؤه(٢) الكشف عن أسماء الصفات(٣) التي يحصل عنها الأنس ، ويتعلق(٤) بها ، كاسم «الجميل ، والبر ، واللطيف ، والودود ، والحليم ، والرَّحيم» (٥) ونحوها ، ثم يقوىٰ التعلق بها إلىٰ أن يستغرق العقل ، فيمازجه نوع من الأسماء ، فيقهر(٦) العقل بصولته.

---

(١) ش زيادة (قد).

(٢) ق (مبدأ).

(٣) أسماء الصفات : سبق ص١٧٦٧.

(٤) ق (تعلق) ، ط (يعلق).

(٥) اسم «الجميل» دليله قوله ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال» أخرجه مسلم. الإيمان (١/ ٩٣) ح(٩١) ، أحمد (٤/ ١٣٣) ، واسم «البر» دليله قوله تعالىٰ : ﴿إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ [الطور : ٢٨] ، واسم «اللطيف» دليله قوله تعالىٰ : ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ [الأنعام : ١٠٣] واسم «الودود» دليله قوله تعالىٰ: ﴿وهو الغفور الودود﴾ [البروج: ١٤] ، واسم «الحليم» دليله قوله تعالىٰ : ﴿وإن الله لعليم حليم﴾ [الحج : ٥٩] ، واسم «الرحيم» دليله قوله تعالىٰ : ﴿الرحمن الرحيم﴾ [الفاتحة : ٣].

(٦) م (فيعه) بدل (فيقهر).

و «الهَيَمَانُ[(١)]» هو الحركة إلىٰ كل جهة بسبب الحيرة والدهشة، وذلك إنما يكون مع[(٢)] نوع عدم تمييز أو مع[(٣)] قوة إرادة قاهرة لا يملك صاحبها ضبطها.

وقوله: «وَيَضرِبُهُ مَوجُ الفَنَاءِ»

أي أن صاحب هذا الأنس: يطالع مبادئ الفناء محيطة به، فهي تقلبه كما يقلب الموجُ الغريقَ، وهذا قبل استيلاء سلطان الفناء علىٰ وجوده.

وقوله[(٤)]: «وَهُوَ الَّذِي غَلَبَ قَوماً عَلىٰ عُقُولِهِم».

أي سلبهم إياها، لأنهم شاهدوا شيئاً فوق مدارك العقول، وفوق كل مدرك بالحواس الظاهرة والباطنة، ولا إِلْفَ لهم به، فأوجبت قوة المشاهدة والوارد، وضعف المحل والحامل: غلبته علىٰ العقل، والكامل من القوم يثبت لذلك ولا يتحرّك، بل يبقىٰ[(٥)] كأنه جبل.

وتلا الجنيد - رحمه الله -[(٦)] في مثل هذه الحال - وقد قيل له أما يغيرك ما

---

(١) الهيمان: هام خرج علىٰ وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه، وهام في الأمر تحير فيه واضطرب، وذهب كل مذهب، ومنه شدة العطش وشدة الحب والوجد/ المعجم الوسيط (٢/ ١٠٤).

(٢) ق (من) بدل (مع).

(٣) أ، ب، غ، ح١، ط زيادة (أو).

(٤) (وقوله) سقطت من م.

(٥) أ، ب، ش، م، ق (يلقىٰ).

(٦) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

تسمع؟ - قوله : ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل : ٨٨].

وبعضهم تلا في مثل ذلك قوله تعالىٰ(١) : ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف : ١٨].

وقوم أقوىٰ تمكيناً من هؤلاء : لم يغلبهم علىٰ عقولهم ؛ بل سلبهم طاقة صبرهم ، فبدا منهم ما ينافي الصبر.

وأما قوله : «وَحَلَّ عَنهُم قُيُودَ العِلْمِ».

فكلام لا بد من تأويله ، وتكلف وجه يصححه(٢).

وأحسن ما يحمل عليه : أن العلم يقيد صاحبه(٣) ، والمعرفة تطلقه ، وتوسع بطانه ، وتريه حقائق الأشياء ، فتزول(٤) عنه التقيدات التي كانت حاصلة بسبب خفاء نور المعرفة وكشفها عليه.

فإن العارف صاحب ضياء الكشف أوسع بطاناً وقلباً ، وأعظم إطلاقاً بلا شك من صاحب العلم ، ونسبته إليه كنسبة صاحب العلم إلىٰ الجاهل ، فكما

---

(١) (قوله تعالىٰ) سقطت من بقية النسخ سوىٰ الأصل ، ق.

(٢) تأويل ابن القيم لكلام الهروي يدل علىٰ عدم موافقته له فيما يدل عليه كلامه ، وهو ما يكثر عند القوم من الزهد بالعلم والاستغناء عنه بالكشف والذوق ونحوهما كما سبق ص١٨٢٩ ، ٢٠٩٨.

(٣) (صاحبه) سقطت من ش.

(٤) الأصل (فيزول) والأقرب ما أثبته من بقية النسخ ، ط.

أن العالم أوسع بطاناً من الجاهل ، وله إطلاق بحسب علمه فالعارف - بما معه من روح العلم ، وضياء الكشف ونوره - هو أكثر إطلاقاً وأوسع بطاناً من صاحب العلم ، فيتقيد العالم بظواهر العلم وأحكامه ، والعارف لا يراها قيوداً.

ومن ثم[1] تزندق من تزندق ، وظن أنه إذا لاحت له حقائقها ، وبواطنها : خلع قيود ظواهرها ورسومها ، اشتغالاً بالمقصود عن الوسيلة ، وبالحقيقة عن الرسم ، فهؤلاء هم المقطوعون عن الله ، القطاع لطريق الله ، وهم معاطبُ الطريق وآفاتُها.

واتفق أن[2] العارفين تكلموا في الحقائق ، وأمروا بالانتقال من الرسوم والظواهر إليها ، وأن لا يوقف[3] عندها ، فظن هؤلاء الزنادقة : أنهم جوَّزوا خلعها ، والانحلال منها.

ولا ريب أن من جوَّز ذلك : فهو مثل هؤلاء ، والله يركم الخبيث بعضه علىٰ بعض ، فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون.

فصاحب «المنازل» -رحمه الله[4]- أشار إلىٰ المعنىٰ الحق الصحيح ، كما أشار إليه شيوخ القوم.

---

(١) بقية النسخ ، ط (ههنا) بدل (ثم).

(٢) (أن) سقطت من ط.

(٣) أ ، ب ، غ ، ح١ ، ط (يقف).

(٤) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وأما استدلاله بقول النبي ﷺ : «**أسألك الشوق إلىٰ لقائك في غير ضرّاء مضرة ولا فتنة مضلة**».

فليس بمطابق[1] لما ذكره في هذه الدرجة.

فأين طلب الشوق إلىٰ لقائه، الباعث علىٰ كمال الاستعداد، وعلىٰ خفة أعباء السير، والمزيل لكل فتور، والحامل علىٰ كل صدق، وإخلاص وإنابة[2]، وصحة معاملة، إلىٰ أمر مشوب بصولة الهيمان، تضربه أمواج الفناء، بحيث غلب قوماً علىٰ عقولهم، وسلب قوماً صبرهم بحيث صيّرهم في عالم الفناء؟.

ورسول الله ﷺ : لم يكن ليسأل حالة الفناء قط، وإنما سأل[3] شوقاً موجباً للبقاء، مصاحباً له، موجباً له[4] طيب الحياة، وقرة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح.

وصاحب المنازل - رحمه الله[5] - : كأنه فهم منه اشتياقه إلىٰ المشاهدة من غير غلبة علىٰ عقل، ولا فقد لاصطبار، ولهذا قال: «من غير ضرّاء مضرة» وهي الغلبة علىٰ العقل، «ولا فتنة مضلة» وهي مفارقة أحكام العلم.

---

(١) أ، ب، غ، ح١، ط (مطابقاً).

(٢) عند قوله وإنابة انتهت نسخة (ش) وهي (تشستربتي).

(٣) م (سئل).

(٤) (موجباً له) سقطت من ق.

(٥) (رحمه الله) سقطت من بقية النسخ.

وهذا غايته : أن يؤخذ من إشارة الحديث علىٰ عادة القوم ، وأما أن يكون هو نفس المراد : فلا.

وإنما المسؤول : أن[1] يهب له شوقاً إلىٰ لقائه ، مصاحباً للعافية ، والهداية ، فلا تصحبه فتنة ولا محنة ، وهذا من أجلِّ العطاء والمواهب ، فإن كثيراً ممن يحصل له هذا لا يناله إلا بعد امتحان واختبار : هل يصلح أم لا؟ ومن لم يمتحن ولم يختبر فأكثرهم لم يؤهل لهذا.

فتضمن هذا الدعاء : حصول ذلك ، والتأهيل له ، مع كمال العافية بلا محنة[2] ، والهداية بلا فتنة ، وبالله التوفيق ، والله أعلم[3].

فصل

الدرجة الثالثة

قال[4] : «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ : أُنْسُ اضمِحْلَالٍ فِي شُهُودِ الحَضرَةِ ، لا يُعبِّرُ عَن عَينِهِ[5] ، وَلا يُشَارُ إِلىٰ حَدِّهِ ، وَلا يُوقَفُ عَلىٰ كُنهِهِ»[6].

«الاضمحلال» الانعدام ، و «شهود الحضرة» هو مشاهدة الحقيقة ، والفناء

(١) (أن) سقطت من أ ، ب ، غ ، ح١.

(٢) عند قوله (بلا محنة) انتهت النسخة (ح١) وهي نسخة المعهد العلمي (بحائل).

(٣) ق (وهو) بدل (لفظ الجلالة).

(٤) (قال) سقطت من ق.

(٥) أ ، ب ، غ ، ط (غيبة) وهو خلاف ما في المنازل وبقية النسخ.

(٦) منازل السائرين ٥٥.

في ذلك المشهود[١].

قوله : «لا[٢] يُعْبِّرُ عَن عَينِهِ[٣]» إلىٰ آخره.

حاصله : أن هذا أمر وراء العبارة ، لا تناله العبارة ، ولا يحاط به عيناً ، ولا حداً ، ولا كنهاً و[٤]حقيقة ، فإن حقيقته : تستغرق العبارة ، والإشارة ، والدلالة، وفي وصفه يقول قائلهم :

فَأَلقَوا حبال مراسيهم ... فغطّاهمُ البحرُ ثم انطبق[٥]

وههنا إنما حوالة القوم علىٰ الذوق ، وإشارتهم إلىٰ الفناء الذي يصطلم المشير وإشارته ، والمعبر[٦] وعبارته ، مع ظهور سلطان الحقيقة التي هي فوق الإشارة ، والعبارة والدلالة ، والله أعلم[٧][٨] .

* * *

---

(١) أ ، ب ، غ ، م ، ط (الشهود).

(٢) ط زيادة (الواو).

(٣) ط (غيبه).

(٤) ط زيادة (ولا).

(٥) لم أجده.

(٦) الأصل ، م (والمعز وعبادته) ، ط (المغبر) والأقرب ما أثبته من أ ، ب ، غ ، ق.

(٧) ط زيادة (سبحانه وتعالىٰ).

(٨) عند هذه الكلمة انتهىٰ ما خصص لي من التحقيق ، ويليه بداية « منزلة الذكر » ، وهي بداية ما خصص للشيخ خالد بن عبدالعزيز الغنيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، وأصلي وأسلم علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحابته ومن والاه ، أما بعد :

فقد استغرق العمل في هذا البحث [تحقيق جزء من مدارج السالكين مع دراسة بعض المنازل] ثلاث سنوات وثمانية أشهر واختلفت أوقات البحث وتعددت قراءته مرات ، وفي كل قراءة يتضح مزيد من مضمون الكتاب ، ولعل أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث ما يلي :

١ ـ أن عدداً من كتب التراث الإسلامي تم إخراجها مطبوعة بشكل لا يفي بجميع ما يتطلبه التحقيق والتخريج ، ولكنه بحسب ما كان متاحاً في الزمن السابق ، وكانت خطوة مهدت لإعادة قراءته من جديد وخدمته تحقيقاً وتعليقاً واستخراجاً لبعض الفوائد ، وتصويباً لما يقع فيه بعض النساخ من تصحيف أو اجتهاد في تغيير يخالف الصواب ويوقع في لبس وانغلاق لعدم التخصص من معظم المشتغلين بذلك .

٢ ـ أن المنازل والمقامات لم تبن علىٰ منهج واضح وإنما المرجع لها التجربة الشخصية والمواقف الفردية لذا جاءت مختلفة العدد متداخلة التعريف ويظهر فيها التكلف .

٣ ـ أن معظم المصطلحات الصوفية تعتمد الرمز والإشارة بحيث لا يستطيع

القارئ معرفة مرادهم بيسر، وقد تبين مرادهم من ألفاظهم بالرجوع إلىٰ كتبهم وشروح المنازل التي ألفها أشخاص لهم ميل أو تأثر بالصوفية أو انغماس في شطحاتهم .

٤ ـ اجتهاد ابن القيم في تفسير كلام الهروي بما يعرفه من حاله وعمله دون علمه وكلامه ، ويستثنىٰ من ذلك ما لا يحتمل المقام تفسيره ، إما لغموض مراده أو لكونه محتملاً الباطل علىٰ كل المحامل .

٥ ـ تضمن الكتاب بحوثاً في العقيدة والمذاهب الفكرية والطوائف والملل إضافة إلىٰ التركيز علىٰ السلوك ومعالجة أمراض القلوب وعلل الأعمال .

٦ ـ الإشارة العابرة لشرح المخالفين ممن شرحوا منازل السائرين ، وتفنيد ما ذهبوا إليه ، وهو دليل علىٰ اطلاع ابن القيم علىٰ الشروح الأخرىٰ التي قام بها من لديهم نزعة أو انتماء صوفي .

٧ ـ محاولة ابن القيم في مقدمة مدارج السالكين وضع قواعد وأسس للسلوك الصحيح مبيناً ذلك حين أشار إلىٰ أنه يشرح ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ، ومقامات المتعبدين ، وليس شارحاً لمنازل السائرين ، ثم دخل دخولاً تدريجياً اتضح في ثنايا الكتاب أنه يشرح منازل السائرين مع مخالفته له في التقديم والتأخير والتسمية ، بل والزيادة علىٰ ما في المنازل من مقامات ، وهذا يؤكد انتماء المدارج للمنازل كشرح لمتن .

٨ ـ التشابه القوي بين الصوفية والأشاعرة من حيث القول بالجبر ونفي الحسن والقبح ، ومن طوىٰ الأسباب والعلل عطّل الأمر والنهي .

٩ ـ أن أكثر آفات الناس من الألفاظ المجملة والمشتبهة والألغاز الموهمة التي دخل منها الملحد وتعذر فهم المراد منها على الموحد، فوقع الخلاف بين من يريد تبرأتهم ومن يريد تخطئتهم.

١٠ ـ تأثر الصوفية في معظم مصطلحاتهم بالمدارس الأخرى كالغنوصية والهرمسية والفلاسفة، وإن اختلف اللفظ فإن المعنى المراد عند الجميع واحد.

١١ ـ أن هناك ألفاظاً ومصطلحات لا يعرف المراد منها إلا بمعرفة من يطلقها إذ لها علاقة بالقائل.

انتهيت من هذا البحث

في ١٨/ شوال/ ١٤٢١هـ